

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٥

ترجمة الدكتور سامي الدروبي



0098645

Bibliotheca Alexandrina

مراكمة

دار
ابن
رنتك



الأعمال الأدبية الكاملة
المجلد الخامس عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شيارو

ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٢٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

● المراهق - ٢ -

● قصص

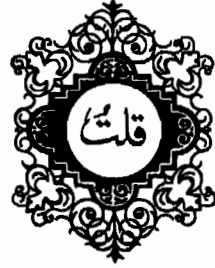
- بوبوك
- الطفل عند سدوع
- الفلاح ماري
- عجوز تجاوز عمرها مائة سنة
- العذبة
- حلم رجل مضحك
- خطاب عن بوشكين

جميع الحقوق محفوظة

المراهق
٢

الفصل السادس

١



عازما أمرى وأنا أعود الى البيت مسرعا :
« واضح • يجب أن أذهب اليها • يجب أن
أذهب اليها فوراً • ومن الجائز جداً أن أجدها
وحدها ، وحدها أو مع غيرها ، سيان : ففى

وسعى أن أدعوها ، وسوف تستقبلنى ، ستدهش لكنها ستستقبلنى ، واذا لم
تستقبلنى ألححت عليها أن تستقبلنى مرسلًا من يقول لها ان على أن أراها •
حتمًا فتعتقد أن لمجيئى صلة بالوثيقة ، فتستقبلنى ، فأعلم كل شىء عن
أمر تاتيانا ••• ثم ••• ماذا ؟ اذا ثبت أننى على خطأ ، كفرت لها عن
خطئى ، واذا ثبت أننى على حق وأنها على خطأ ، انتهى كل شىء • وقد
انتهى كل شىء على كل حال • ماذا الذى أخسره ؟ لا شىء ! هلم •••
هلم ! •••

ولكننى لم أذهب • لن أنسى هذا أبدًا ، وسأظل أتذكره بفخر
واعتراز • لن يعلم بذلك أحد ، سيظل مجهولًا ، ولكن يكفى
أن أعرفه أنا ، يكفى أن أعرف اننى فى تلك اللحظة استطعت أن أكون
نيلاً نبلاً لا نهاية له ! قلت لى نفسى بعد تفكير : « هى محاولة اغواء •
لكننى سأغض النظر عنها • وقد أريد لى أن أرتاع ، ولكننى لم أصدق ،
ولم أفقد ايمانى بطهارتها ! علام أذهب اليها ؟ وعم أسألها ؟ لماذا يكون
عليها أن تثق بى كما أثق بها ، أن تؤمن بطهارتى ، ألا تخشى
« حرارة اندفاعى » ولا تحتمى بتاتيانا بأفلوفا ؟ اننى لم استحق بعد شيئًا

من ذلك كله فى نظرها • فلتجهل أنتى أستحق ذلك ، وأنتى لا انقاد
للاغواءات ، واننى لا أصدق ألسنة السوء ! لتجهل هى ذلك كله •
ولكننى سأعلمه أنا ، فإزداد احتراماً لنفسى • سأحترم عاطفتى • صحيح
أنها جعلتنى أتكلم على مسمع من تاتيانا، لقد قبلت تاتيانا ، كانت تعلم أن
تاتيانا هناك وأنها تتصنت (لا يمكن الا أن تتصنت) ، وكانت تعلم أن
تاتيانا تسخر منى ••• آه ••• شئ فظيع ! شئ فظيع ! ••• ولكن لعلها
كان يستحيل عليها أن تتجنب ذلك ! ماذا كان فى وسعها أن تعمل اذا
استحال عليها أن تتجنب ذلك ؟ كيف يمكننى أن أتهمها ؟ أفلم أكذب
عليها أنا نفسى بصدد كرافت ؟ ألم أخدعها أنا أيضاً لأننى استحال على
أن أتجنب ذلك ؟ أنا أيضاً كذبت هذا الكذب البريء على غير
ارادة منى •

وهتفت أقول فجأة وأنا أحمر وأشعر بألم شديد : رباه ! رباه !
ما هذا الذى فعلته أنا ؟ ألم أستدرجها على مسمع من تاتيانا هذه نفسها ؟
ألم أقصص كل شئ على فرسيلوف ؟ ولكن لماذا أتكلم عن نفسى ؟ ان
هناك فرقاً ضخماً • لقد كان الأمر أمر الوثيقة فحسب • والحق أنتى لم
أحدث فرسيلوف الا عن الوثيقة ، اذ لم يكن ثمة شئ آخر أحدثه عنه ،
ولا يمكن أن يكون ثمة شئ آخر أحدثه عنه • أأست أنا الذى بادرت
الى ابلاغه ، وصحت أقول « انه لا يمكن أن يكون ثمة شئ آخر » ؟
هذا رجل يدرك الأمور •• هم •• ولكن ما هذا الكره الشديد لا يزال
يحمله قلبه لهذه المرأة حتى الآن ! ما عسى تكون القصة التى جرت بينهما
فى الماضى ؟ لا شك أن حبه لنفسه هو سبب كل شئ • « هذا رجل
لا يقدر أن يحس الا عاطفة واحدة هى حبه لذاته حباً لا حدود له ،
(بالفرنسية) •

نعم ، أفألت منى هذه الفكرة حتى اننى لم أتنبه اليها • تلكم هى

الخواطر الى تلاحقت فى ذهنى سريعة ، وكنت عندئذ صادقاً مع نفسى: لم أكن أخادع ، ولم أكن أحاول أن أغشّ نفسى . واذا كان نمة شئ ، لم أستطع أن أدركه فى تلك اللحظة ، فانما مرد ذلك الى فقدان الفهم لا الى مخادعة النفس .

وعدت الى البيت مهتاجاً احتياجاً شديداً ، وكنت مرح المزاج برغم الاضطراب القوى ، لا أدرى لماذا ! ولكننى كنت أخشى أن أحلل نفسى ، وكنت أبذل كل ما أملك من قوة فى سبيل أن أسلو . فسرعان ما ذهبت الى المؤجرة . فرأيت أن شجاراً عنيفاً قد نشب بينها وبين زوجها فعلاً . انها امرأة موظف مصابة بداء السل اصابة قوية ، وهى طيبة القلب ، لكنها كسائر المصدورين صاحبة نزوات جامحة . فأسرعت أصلح بينهما . ثم ذهبت الى المستأجر الثرس ، وهو موظف فى بنك ، غليظ القلب ، فظ الطبع ، أنانى ، مجرور الوجه ، اسمه ثسرفياكوف ، كنت لا أحبه كثيراً ولكن العلاقات بينى وبينه كانت حسنة ، لأننى كنت أستعذب أن أستهنىء معه ببطرس هيوليتوفتش . فسرعان ما أقنعته بالأى يترك المنزل الى مسكن آخر ، ولم يكن عازماً على ذلك على كل حال . وأفلحت فى تهدئة المؤجرة تهدئة حاسمة ، واستطعت عدا هذا أن أسوى لها مخدتها . فقالت فى مكر : « ذلك ما لا يستطيع بطرس هيوليتوفتش أن يفعله أبداً ، » ثم عكفت فى المطبخ على الاهتمام بكماداتها ، فصنعت لها يدي كمادتين رائعتين . فكان المسكين بطرس هيوليتوفتش ينظر الى حاسداً ، ولكننى لم أسمع له حتى يلمس الكمادات ! وقد كوفت على صينعى بامتان عبّر عن نفسه بدموع صادقة . ثم لم ألبث أن شعرت بضجر من هذا كله على حين فجأة - لا أزال أتذكر هذا - وأدركت أتى لم أعن بالمریضة بدافع الشهامة والأريحية قط ، وانما عنيت بها هكذا ، لا أدرى لأى سبب ، أو لسبب آخر لا علاقة له بالشهامة ولا الأريحية !

وأخذت أنتظر ما تفتى نافذ الصبر : كنت قد قررت فى ذلك المساء أن أجرب حظى مرة أخيرة • وعدا الحظ ، كنت أشعر بحاجة شديدة الى المقامرة • والا لم يكن فى وسعى أن أصبر • فلو استحال على أن أشغل نفسى بالقمار ، لكان من الجائز جدا ألا أستطيع مقاومة الرغبة فى الذهاب إليها • وكان على ما تفتى أن يصل بعد قليل • ولكن الباب فتح فجأة ، ودخلت على زائرة لم أكن أتوقع أن تجىء الى ، وهى داريا أوسيموفنا • فقطبت حاجبى وبانت دهشتى • كانت داريا أوسيموفنا تعرف أين أسكن ، لأنها جاءتنى برسالة من أمى فى أحد الأيام • وأجلستها ، ونظرت إليها مستفهماً • فلم تقل شيئاً ، ولم تزد على أن أخذت تنظر الى محذقة وتبسم بخضوع ومذلة • فيخطر ببالى فجأة أن ليزا هى التى أوفدتها ، فسألتها :

- أليست ليزا هى التى أرسلتلك ؟

فقلت :

- بل جئت هكذا ••• من تلقاء نفسى •••

فأبأتها بأبنى خارج بعد قليل ، فعادت تقول مرة أخرى انها جاءت « هكذا » ، من تلقاء نفسها ، وانها منصرفه حالاً • فأحسست فجأة بنوع من الشفقة • يجب أن أذكر هنا أن أمى ، وتاتيانا بافلوفنا خاصة ، هما اللتان ، من بيننا جميعاً ، عطفنا عليها ، ولكن جميع ذويننا قد نسوها تقريباً بعد أن وضعت عند ستوليافا ، ربما باستثناء ليزا التى كانت تزورها فى أحيان كثيرة • ويرجع ذلك ، فيما أظن ، الى داريا نفسها ، لأنها كانت تتصف بالميل الى الابتعاد والغياب ، رغم كل منزلتها وكل ابتساماتها المستجديبة المستعطفية • أما أنا فكانت هذه الابتسامات لا تعجبنى كثيراً ، اذ كنت أرى أن هذه المرأة تصطنع تعابير

وجيها اصطناعا زائفا ، حتى لقد خطر ببالي ذات يوم أنها لم تيك عزيزتها
اوليا مده طويله . ولكنني في هذه المرة شعرت بشفقة عليها ، لا ادري
لماذا !

وهاي نى تتحنى فجأة دون أن تقول كلمه ، وتخفض عينيها ،
وترمى دراعها الى أمام ، فتمسك بخصرتي ، وتميل بوجهها على
ركبتي ، ثم تتناول يدي ، فأظن أنها تريد أن تقبلها ، ولكنها رفعتها
الى عينيها ، فاذا بسيل من الدموع يسيل عليها . وأخذت تشيح نشيجاً
قويماً يهز جسمها كله ، دون أن يسمع لبكائها صوت . فانقبض صدري
ألماً ، رغم أنني أحسست ببداية حنق . ولكنها أخذت تقبلني بثقة كاملة ،
لا تخشى أن أغضب ، على حين أنها كانت منذ قليل تبسم ابتسامات فيها كثير
من الوجع وكثير من المذلة . فرجوتها أن تهدىء نفسها . فأخذت تتكلم
فقلت :

- سيدى الطيب ، لقد أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسى .
فما ان يهبط الظلام ، حتى تنفذ طاقتى على الاحتمال . اننى أفقد قدرتى
على الصمود متى حل المساء ، فأرانى مدفوعة الى الخروج الى الشارع فى
العتمة . والحلم هو الذى يجذبني خاصة . لقد نبت فى رأسى حلم هو أنني
متى خرجت فسألقاها فى الشارع . فأسير ، وأظن أنني أراها . أقصد
أن الناس بسيرور ، فأسير وراءهم عامدة وأنا أقول لنفسي : أليست هذه
هى ؟ نعم ، ها هي ذى ، انها ابنتى أوليا . وأفكر ، وأفكر . وأصبحت
فى النهاية مجنونة من كثرة الجرى بين الجمهور . وصرت أشعر من ذلك
بعثيان . اننى أصدم الناس كسكرى ويقذفني بعضهم بشتائم . لكنني
أحتفظ بهذا كله لنفسي ، ولا أذهب الى أحد . ثم اننى لا أذهب الى مكان
الا أجد حالتي أسوأ مما كانت . وقد مررت منذ قليل أمام بيتك ،

فقلت لنفسي : « ماذا لو دخلت ؟ انه خير من الاخرين » ثم انه رأى
الأمر بعينه ، « سيدي الطيب ، اغفر لي ازعاجك ، أنا منصرفه حالاً » .
ونهضت بحركة مباغتة ، وهمت أن تسارع الى الانصراف .
ووصل مائتي في تلك اللحظة . فأركبتها الى جانبي في العربة ، وأوصلتها
الى منزل ستوليافا .

أصبحت فى الآونة الأخيرة أتردد الى صالة الروليت التى يملكها زرشنتشيكوف . وكنت أذهب قبل ذلك الى ثلاثة بيوت ، فى صحبة الأمير الذى كان « يدخلنى » الى تلك الأماكن . ففى أحد تلك البيوت كان المقامرون يتعاطون البكاراه خاصةً وكانوا يراهنون على مبالغ ضخمة . فكنت لا أحس هنالك بارتياح ، اذ كنت أرى أن المرء يحتاج فيها الى مال كثير ، عدا أن ذلك البيت كان يرتاده عدد كبير من الوقحين ، وعدد كبير من الشبان الذين ينتمون الى أسر عالية ، وتمتلىء جيوبهم بأموال طائلة . وذلك بعينه ما كان يحبه الأمير . كان الأمير يحب أن يقامر ، ولكنه كان يحب أيضاً أن يحتك بهؤلاء الطائشين . وقد لاحظت أنه اذا دخل معى فى بعض الأحيان جنباً الى جنب ، ابتعد عنى طوال السهرة ، ولم يقدمنى الى أحد من « صحبه » . وكانت هيتى هيتى اسان متوحش تماماً ، حتى لقد كان ذلك يلفت الى الانتباه أحياناً . وكان يتفق لى أن أتحدث على مائدة القمار الى هذا أو ذاك من اللاعبين ، ولكن وقع لى ذات مرة أن حاولت التكلم فى ذلك البيت نفسه مع سيد قصير تحدثت اليه بالأمس ، ضحكت معى جالساً الى جانبه (حتى لقد حزرت له ورقتين من أوراق اللعب) ، فاذا هو لا يتعرفنى ، واذا هو يزيد على ذلك سوءاً فيلقى على نظرة دهشة مصنوعة ، ثم يمضى مبتسماً ابتساماً ساخرة . لذلك لم ألبث أن تركت ذلك البيت ، وأخذت أرتاد محلاً للقمار لا أستطيع أن أسميه الا ماخوراً قذراً . انه صالة روليت حقيرة ،

صغيرة ، نديرها امرأة « مومس » كانت لا تظهر فى الصلاه مع ذلك ابدا .
الناس هنالك يتعاملون بدون كلفه ولا حرج ، فكانهم اسرة واحدة ،
رغم ان بينهم ضباطا وجارا ، فكان هذا يجتذب كثيرا من الرواد .
ولكننى انقطعت عن ارتياد ذلك المكان فى اعقاب قصه قذرة حدثت ذات
يوم انشاء اللعب ، وانتهت بتضارب بين اثنين من القامرين . وبعد ذلك
انما أخذت اجىء الى صالة زرشتشيكوف التى قادنى اليها الأمير أيضاً .
ان زرشتشيكوف ضابط من سلاح الفرسان محال على التقاعد ، وان جو
سهراته جو محتمل جداً . وهو رجل عسكري قليلاً فى سلوكه ،
حريص على التفيذ بالأصول ، سريع وعملى . من ذلك مثلاً أنه كان
لا يقبل فى صالته أناساً يسيئون المزاح أو يسرفون فى القصف واللهو .
ثم ان اللعب نفسه لم يكن فيه عنده مزاح . وكان القامرون يتعاطون
البكارة والروليت . وكنت فى ذلك المساء ، مساء ١٥ تشرين الثانى
(نوفمبر) ، قد جئت الى هذا المكان قبلئذ مرتين لا أكثر . وكان
زرشتشيكوف يعرف وجهى فيما أظن ، ولكن لم يكن قد قام بينى وبينه
أى تعارف . وشاءت المصادفة التى تشبه العمدا أن جاء الأمير فى ذلك المساء
نفسه مع دارزان عند منتصف الليل عائداً من لعب البكارة مع أولئك
الشبان الطائشين أبناء المجتمع الراقى الذين هجرتهم : هكذا كنت فى
ذلك المساء رجلاً مجهولاً بين أناس غرباء .

لو كان لى قارىء فقرأ كل ما سبق أن رويته من أحداث حياتى
لما كان علىّ حتماً أن أشرح له أننى أمرؤ لم أخلق حقاً لحياة المجتمع
أياً كان هذا المجتمع . أنا أولاً لا أعرف كيف أمكث بين الناس . فإذا
ذهبت الى مكان فيه ناس كثير ، بدا لى أن جميع الأنظار تنصب علىّ فتلسننى
كاسع الكهرباء ، فأجد نفسى متوتر الأعصاب ، منهكاً انهاكاً جسياً ، حتى
فى مكان كالسرح ، ناهيك عن البيوت الخاصة . وفى جميع صالات

الروليت هذه وفى جميع تلك المحافل اشعر بعجز عن السيطرة على سلوكى : فتارة أجلس حتى لألوم نفسى على فرط الرقة والأدب والتهذيب ، وتارة أنهض فأرتكب فظاظة من الفظاظات . وأنظر حولى فأرى أى وغد من الأوغاد الحقييرين أقدر منى على التصرف فى المجتمع بيسر عجيب وسهولة مدهشة ، فيزيدنى هذا حقناً ، فإذا أنا أفقد هدوئى مزيداً من فقدان . ويجب أن أقول بصراحة اننى ، لا اليوم فعسب ، بل حتى فى ذلك الحين ، كانت تلك السهرة كلها ، وكانت أرباح القمار نفسها (اذا وجب أن أقول كل شئ) قد أمت فى النهاية تبدو لى باعثة على الاشمزاز ، مثيرة للألم . نعم ، حتماً : مثيرة للألم . صحيح أننى كنت أشعر بمتعة قصوى ، ولكن تلك المتعة كانت تجىء من خلال الألم . كان ذلك كله ، أفصند الناس والقمار وأنا خاصة معهم ، كان ذلك كله يبدو لى قذراً قذارة فظيعة . « ألا فلأربح مرة واحدة ، ثم أركل ذلك كله برجلي الى الأبد ! » . كذلك كنت أقول لنفسى دائماً حين أستيقظ فى الصباح بعد لعب الليل . الربح مثلاً : اننى لم أكن أحب المال البتة . لا أريد أن أردد تلك الجملة المعادة المكرورة المبدولة وهى أننى كنت أقامر من أجل القمار نفسه ، من أجل الاحساسات القوية ، من أجل لذة المجازفة ، من أجل متعة المصادفة ، وما الى ذلك ، وليس من أجل الربح . لقد كنت فى حاجة ملحة الى المال . ولاشك أن هذه الطريق لم تكن طريقي ، لاشك أن هذا لم يكن فكرتى ، ولكن ذلك لا يمنع أننى كنت قد قررت حينذاك أن أسلك هذه الطريق أيضاً من باب التجربة . هناك فكرة قوية كانت تحاصرني ، كنت أقول لنفسى : « لقد خلصت الى هذه النتيجة : وهى أنك تستطيع أن تصبح من أصحاب الملايين بشرط أن تملك ارادة قوية ! وقد برهنت على قوة ارادتك . فهلم برهن هنا أيضاً على أنك قوى الارادة : ان الروليت تقتضى من قوة الارادة أكثر مما تقتضيه فكرتك ! » .

ذلك ما كنت اردده لنفسى • ولما كنت مقتنعا حتى هذه الساعه بأن المرء فى ألعاب المصادفة يستطيع بالهدوء الكامل الذى يتيح له أن يحتفظ بذقة تفكيره ، أن يتغلب على المصادفة العمياء ، وأن يربح حتماً ، فقد كان لابد لى فى ذلك الأوان من أن يزداد حنقى ويشهد حين كنت أرانى أفقد هدوئى واندفع اندفاع صبى صغير • « أنا الذى استطعت أن أتحمّل الجوع ، كيف أعجز عن تحمل نفسى فى أمر تافه هذه التفاهة ؟ ، ذلك ما كان يفيظنى • أضف الى ذلك أن شعورى بأننى أملك فى قرارة نفسى ، مهما أبدت للناس مضحكاً وحقيراً ، كنزاً من قوة سيجبرهم على أن يغيروا حكمهم علىّ فى ذات يوم ، أقول ان هذا الشعور - الذى لازمنى منذ سنى طفولتى الدليلة - كان فى ذلك الحين هو النبع الوحيد الذى يروى حياتى ، وكان ضيائى ، وكان ترانى وكان سلاحى وكان عزائى ، ولولا ذلك لانتحرت منذ أن كنت طفلاً • فهل كان فى وسعى ألا أنغضب من نفسى حين أرى المخلوق التافه الذى كنت أصير اليه أمام مائدة القمار ؟ ذلك هو السبب فى أننى أرى اليوم هذا رؤية واضحة • وعدا هذا السبب الرئيسى ، كان الغرور التافه يتأذى أيضاً : كانت الخسارة فى القمار تخفض قدرى فى نظر الأمير ، وتخفض قدرى فى نظر فرسيلوف ، (وان يكن فرسيلوف لم يتنازل يوماً فيقول شيئاً عن هذا) وتخفض قدرى فى نظر الجميع ، حتى فى نظر تاتيانا بافلوفنا - ذلك ما كان يترامى لى على الأقل ، ذلك ما كنت أحسه • وهناك أخيراً اعتراف يجب أن أدلى به : كنت قد فسدت • أصبح صعباً علىّ أن أتخلى عن عشائى المؤلف من سبعة أطباق فى المطعم ، وأن أتخلى عن ماتفتى ، وعن المتجر الانجليزى ، وعن رأى بائع العطور الذى أشتري منه عطورى ، أصبح صعباً علىّ أن أتخلى عن هذا كله • ولقد وعيت هذا حينذاك ، لكننى أغمضت عينى • والأآن حين أدوّن هذه الحقائق انما احمر منها خجلاً •

دخلت وحيداً ووجدتني في جمهور غريب ، فجلست أول الأمر الى ركن من المائدة وأخذت أقامر بمبالغ صغيرة . ولبت على هذه الحال ساعتين لا أتحرك . ساعتين راكدين ركوداً رهيباً : فلا حظ ولا سوء حظ . وأفلت منى فرص رائعة ، فحاولت ألا أغضب ، وأن أنتصر بهدوئي وثقتي . وكان حاصل الحساب خلال هاتين الساعتين أنني لم أربح ولم أخسر . فالثلاثمائة روبل التي كانت معي قد نقصت عشرة روبلات او خمسة عشر روبلا . واحنقتني هذه النتيجة التافهة ، وحدثت لى عدا ذلك حادثة زادتنى حنقاً . اننى أعلم أن المرء يلقى حول موائد الروليت هذه لصوصاً ، لصوصاً لم يجيئوا من الشوارع ليسرقوا ، ولكنهم من بين القامرين المعروفين . فأنا مقتنع مثلاً بأن القامر الشهير آفردوف سارق . وهو يظهر فى المدينة شامخ الأنف . وقد رأيتة منذ مدة قصيرة مع فرسين . ولكن هذا لا ينفى انه سارق ، وأنه سرقنى . على أن لهذه الحادثة حديثاً سيحجى . حينه فيما بعد . أما ذلك المساء فلم يكن الا مقدمة : لقد ظللت طوال تينك الساعتين جالساً الى ركن من المائدة ، وكان الى يسارى مفزور صغير ، أبيق الهندام ، أظن أنه يهودى ، هو عضو فى جماعة لا أدرى ما هى ، كما أنه يكتب وُينشر له ما يكتب . كنت قد ربحت فى آخر لحظة عشرين روبلا على حين فجأة : فكانت أمامى ورقتان حمراوان ، فاذا أنا أرى اليهودى الصغير يمد يده ويجذب اليه احدى الورقتين بأكبر هدوء ممكن . فهمت أن أوقفه ، ولكن ها هو ذا يعلن لى بلهجة وقحة وبدون

أن يرفع صوته أن هذا ربحه هو ، فقد حظ و ربح + حتى أنه لم يشأ أن يتابع الحديث معي ، بل أدار لي ظهره . و شامت المصادفة التي تشبه العمدة أن أكون عندئذ في أحد حالاتي النفسية حماقة ، إذ كنت قد تصورت فكرة كبيرة . فلم أزد على أن بصقت ، ثم نهضت بسرعة وانصرفت ، دون أن أنافس ، مهدياً إليه ورقتي النقدية الحمراء . وكان من الصعب على كل حال أن أسوى الأمر مع وعد حقير مثله ، فقد فعل فعلته وانفضى وقت ، واستمر اللعب . لكن سكوتى كان غلطة كبيرة نجمت عنها نتائج وبيلة : فإن ثلاثة أو أربعة من المقامرين حولنا قد لاحظوا هذه المناقشة ، ورأوا تراجعى السريع فلا بد أنهم اعتقدوا اننى غشاش . وكان الليل قد انتصف . مضيت الى الغرفة المجاورة ، ووضعت خطة جديدة ، ثم رجعت فبدلت أوراقى النقدية من البنك قطعاً ذهبية . فأصبح بين يديّ أكثر من أربعين قطعة جعلتها عشرة أقسام وقررت أن أحط عشر مرات متتالية على « الصفر » ، أى أربعة أنصاف من الليرات الامبراطورية فى كل مرة ، حطة بعد أخرى ، قائلاً لىفسى : « ان ربحت كان هذا حظى وان خسرت فهذا أفضل : فلن ألعب بعد اليوم أبداً » . يجب أن أذكر أن الصفر لم يخرج خلال هاتين الساعتين مرة واحدة ، حتى أصبح لا يحط أحد عليه . كنت ألعب واقفاً ، صامتاً ، مقطباً حاجبى كازاً أسناني . ومذا زرشتشيكوف يعلن فى المرة الثالثة بصوت عال عن خروج « الصفر » بعد أن لم يخرج مرة واحدة طوال السهرة . فنقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الامبراطورية الذهبية . بقيت لى سبع حطات . واستمررت ، وكان كل شىء فى أثناء ذلك يضطرب من حولى ويتراقص .

– تعال الى هنا ، تعال الى هنا ، فهنا هنا الحظ !

كذلك صحت منادياً من فوق الطاولة مقامراً كنت بقره قبل لحظة ، وهو رجل ذو شارب أبيض ووجه أحمر كان يرتدى رداً رسمياً ، وكان

يقامر منذ عدة ساعات بمبالغ زهيدة فيخسر فى كل مرة ، فيصبر صبراً
لا يمكن وصفه • فصاح ذو الشارب من أقصى الطاولة يسألنى بدهشة
فيها تهديد :

- أ اياى تنادى ؟

فقلت :

- نعم ، اياك أنادى ، فهناك ستخسر كل شىء !

فقال :

- هذا ليس شأنك ، فدعنى ولا تزعجنى !

ولكننى كنت قد فقدت سيطرتى على نفسى • وكان يجلس أمامى
فى الجهة الأخرى من المائدة ضابط مسن ، فلما رأى حطتى على الصفر ،
دمدم يقول لجاره :

- غريب : الصفر • لا ، لا ، لن أحط على الصفر أبداً •

فصحت أقول له وأنا أحط مرةً أخرى :

- بل تجراً يا كولونيل !

فانبرى يقول لى بعنف :

- أرجوك ألا تزعجنى أيضاً • لست فى حاجة الى نصائحك •

انك تحدث صخباً كثيراً هنا •

- اننى أسدى نصيحة حسنة • هل تريد أن تراهن على أن
الصفر الذى سيطلع فى هذه المرة أيضاً ؟ أتراهن على عشر قطع
ذهبية ؟

قلت ذلك وأنا أمد عشرة أنصاف ليرات امبراطورية ذهبية • فقال لى

بلهجة خشننة قاسية :

- عشر قطع ذهبية ؟ أراهن ؟ مستعد ! أراهن على ان الصفر لن
يطلع هذه المرة !

- عشرة دنانير لويس يا كولونيل !

- ما عشرة دنانير لويس ؟

- أى عشرة أنصاف ليرات ذهبية ، وهى تسمى فى اللغة النبيلة
عشرة دنانير لويس •

- قل اذن عشرة أنصاف ليرات امبراطورية ، ولا تمزح معى !

ولم أكن آمل أن أربح الرهان طبعاً : فان حظ الصفر فى الطلوع
لا يعدو أن يكون واحداً من سبعة وثلاثين حظاً • ولكننى انما عرضت هذا
الرهان أولاً من أجل أن « أثير الدهشة » وثانياً من أجل أن اجتذب الى
مودة الآخرين • كنت قد رأيت أن أحداً هنا لا يحبنى وأنهم يجدون لذة
فى اشعارى بذلك • وأخذت الروليت تدور ، فما كان أشد ذهول الجميع
حين طلع « الصفر » مرة أخرى ! حتى لقد انطلقت صرخة عامة شاملة •
وذهبت نشوة الانتصار بصوابى ! وُنقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف
الليرات الامبراطورية الذهبية • وسألنى زرشتشيكوف ألا أريد أن أقبض
جزءاً من المبلغ أوراقتاً نقدية ، فأجبت بهمهمة غير مفهومة ، لأننى أصبحت
عاجزاً بالفعل عن التعبير بهدوء ووضوح • كان رأسى يدور ، وكانت ساقاى
تصطكان • وأحسست فجأة بأننى سأعرض الآن لخطر رهيب • وكنت
أرغب فى أن أقوم بعمل آخر ، أن أعرض رهاناً جديداً ، أن أنقد أحداً
آلاف الروبلات • لمت كدسة القطع الذهبية والأوراق النقدية براحة يدي
دون وعى ، ولم أستطع أن أعدّها • وفى تلك اللحظة لاحظت الأمير
ودارزان ورائى فجأة ، وكانا آتئين من لعب البكاراه بعد أن خسرا
هنالك كل شيء كما علمت ذلك فيما بعد •

صحت أقول لدارزان :

- هيه دارزان ! هنا حظك ! حظاً على الصفر •
فأجابني قائلاً بخشونة :

- خسرت كل شيء فليس معي مال •

وتظاهر الأمير بأنه لم يلاحظ شيئاً ، وبأنه لم يعرفني • فصحت
أقول لدارزان وأنا أريه كدسة الذهب التي أمامي :

- اليك المال ، فخذ ما شئت • كم تريد ؟

فصرخ دارزان يقول وقد احمر احمراراً شديداً :

- غريب أمرك • أنا لم أطلب منك شيئاً فيما أظن !

وقال لي زرشتشيكوف وهو يشدني من كمي :

- هناك من يناديك •

كان الكولونيل قد ناداني عدة مرات ، وكاد يشفع نداءاته بشتائم ،
منذ خسر رهاني معه على عشرة أنصاف الليرات الامبراطورية • وها هو ذا
يقول لي وقد تخضب وجهه بحمرة شديدة من فرط الغضب :

- خذ ! لست مضطراً أن أنتظرك ! سوف تقول عني انني لم أدفع

الرهان • اعدد •

- أصدّك يا كولونيل ، أصدّك ، أصدّك بدون أن أعد •

لكنني أرجوك ألا تصرخ غاضباً مني ، أرجوك ألا تزعل •

ولممت كدسة ذهبية بيدي • فصرخ الكولونيل يقول لي بعنف :

- أيها السيد العزيز ، أرجو أن تتجه بحماستك هذه الى غيري ،

فنحن لم نحرس الخنازير معاً في يوم من الأيام ، وليس بيني وبينك سابق

علاقة •

وهتف بعضهم متعجباً بصوت خافت :

- انه لأمر غريب أن يُسمح بالدخول لأشخاص من هذا الطراز !
من هذا؟ فتى صغير؟

ولكننى لم أكن أصغى ، وطفقت أحط بغير روية ، ولكننى لا أحط
على الصفر ، وجعلت حطائى أعداداً من أوراق مالية .

قال الأمير ورائى :

- هياً بنا فنصرف يا دارزان !

فقلت وأنا التفت اليهما :

- الى البيت ؟ انتظرانى فنصرف معاً . انتهيت .

لقد ربحت . فكان ربحى ضخماً . فصرخت أقول :

- كفى !

ويدين مرتشتين لمت الذهب وسكبه فى جيوبى دون أن أعده ،
وأخذت أدعك الأوراق النقدية بحركات خرقاء بين أصابعى أريد أن أدسها
جعباً فى جيب جانبى من سترتى ، فاذا بيد سمينة يزيناها خاتم ، هى يد
آفردوف الذى كان الى يمينى وكان قد حطَّ مبالغ ضخمة ، اذا بيده تطبق
على ثلاث من أوراقى وتنطىها براحتها . وقال يخاطبنى بخشونه مقطماً
كلماته مرققاً صوته :

- اسمح لى ، هذه ليست لك !

كانت هذه هى المقدمة التى تحملت نتائجها الرهيبة بعد بضعة أيام .
انى لأقسم اليوم بشرفى أن تلك الأوراق الثلاث (وهى من فئة المائة روبل)
كانت لى ، ولكن شاء سوء حظى أن ظلاً من شك قد ساورنى حينئذ رغم
اقتناعى الكامل ، وذلك شىء له خطورته عند من يحرص على أن يكون

اسانا شريفا ، وأنا انسان شريف ، ولاسيما أنتى كنت لا أعلم فى ذلك
الحين علم اليقين ان افردوف لص ، بل كنت أجهل حتى اسمه ، فلم يكن
فى وسعى أن أصدق حقا أنتى لست مخطئا وأن هذه الأوراق الثلاث
ليست من الاوراق التى عدت لى • ولقد كنت طوال السهرة لا أعد
كدسة اموالى ، بل اقتصر على لمها بيدى ، اما افردوف فكان يرتب ماله
أمامه معدودا محسوبها بجانب مالى • وكان افردوف عدا ذلك معروفا فى
هذا البيت ، وكانوا يعدونه هنالك رجلاً واسع الثراء ، وكانوا يعاملونه
باحترام : فكان من شأن ذلك كله أن فرض مهابته على ، فاذا أنا أسلّم
مرة أخرى بغير اعتراض • يا للغلطة الفظيعة ! وأنتكى ما فى الأمر كله
أنتى كنت فى حماسة شديدة • فلم أزد على أن قلت مرتشئ الشفتين من
الاستياء :

- يؤسفنى أنتى لا أتذكر تذكراً دقيقاً ، ولكن يخيل لى أن هذه
الأوراق لى أنا •
فسرعان ما أثارت كلماتى هذه دمدمات تدمر • وقال آفردوف بلهجة
فيها استعلاء لا يطاق :

- لكى يقول المرء مثل هذا الكلام يجب أن يكون « واثقاً » ، وأنت
تعترف بأنك لا تتذكر تذكراً دقيقاً •

وهتفت أصوات عدة تقول متعجبة :

- من هذا الفتى ؟ كيف 'يسمح بمثل هذه الأمور ؟

وارتفع صوت وبش يقول بجانبى :

- ما هذه أول مرة • فمنذ قليل اراد هذا الفتى أن يسطو على ورقة

عشر روبلات من مال رخبريج •

فصحت أقول :

- طيب ، كفى ، كفى ! لست أعترض . خذ ما تشاء ! يا امير .
ولكن أين الامير و دارزان ؟ انصرفا ؟ يا سادة ، ألم تروا من أى جهة
خرج الأمير و دارزان ؟

ولمت أخيرا مالى كله . وبدون أن أتريث لأدس فى أحد جيوبه
عدداً من أنصاف الليرات الامبراطورية كان يبدى ، اندفعت ألاحق الأمير
و دارزان . ان القارى يرى الآن رؤية واضحة أننى لا أستر عيوى
وأنتى أتذكر تذكراً كاملاً كيف كانت حالى فى تلك اللحظة ، وكيف كنت
أحمق غاية الحماسة ، فيستطيع أن يفهم ما حدث بعد ذلك .

كان الأمير و دارزان قد بلغا أسفل السلم ، ولم يوليا ندائى وصيحاتى
أى انتباه . وقد وصلت اليهما ، لكننى تلبثت لحظة أمام البواب السويسرى
فدسست فى يده ثلاثة أنصاف من الليرات الامبراطورية ، لا أدرى لماذا
فنظر الى البواب متحيراً ، حتى أنه لم يشكرنى ، ولكننى لم أكترو
بذلك ؟ ولو كان مانفى هناك ، اذن لناولته قبضة من القطع الذهبية حتماً .
فاننى كنت قد عقدت النية على ذلك جازماً ، ولكن ما ان وضعت قدمى على
درج الباب حتى تذكرت فجأة أننى صرفت مانفى . وفى تلك اللحظة
كانت عربة الأمير تتقدم نحو البواب ، فركبها الأمير ، فصحت أقول وأ:
أمسك وقاء العربة وأرفعه لأجلس بجانبه :

- أنا آت معك يا أمير !

ولكن دارزان مر أمامى فجأة ، فوثب يركب العربة ؟ وانتزع منى
الحوذى الوفاء فغطى به سديده ، فصحت أقول خارجاً عن طورى :

- يا للشيطان !

لكننى ما رفعت الوفاء الا ليركب دارزان ، مثلما يفعل خادم . وصاح
الأمير يهيب بالحوذى قائلاً :

- الى البيت !

فصرخت معولاً وأنا أتشبث بالعربة :

- قف !

ولكن الحصان جرّ العربة ، فتدحرجت على الأرض . ثم لم ألبث أن نهضت ، ووثبت أركب أول عربة رأيتها ، وطرت الى منزل الأمير وأنا أستحث الخوذي في كل لحظة ، فأنهك الحصان المسكين .

الحصان يجرى بطيئاً كأنما ليزيد حنقى ، والحوذى لا يبرح يضربه بسوطه لأننى وعدته بروبل مكافأة . وقلبي يخفق خفقاناً شديداً . أخذت أكلم الحوذى ، ولكن الكلمات لا تخرج من فمى ، فكنت أئتمتم متممةً بسخافات لا أدرى ما هى . تلك كانت حالى حين هرعت الى الأمير . وقد أوصل الأمير صاحبه دارزان الى بيته . فهو الآن وحيد ، يذرع حجرة مكتبه شاحب اللون منقلب السحنة . يجب أن أذكر مرة أخرى أنه كان قد خسر فى القمار كثيراً . وها هو ذا ينظر الى فى حيرة وذهول ، ثم يقول مقطباً حاجبيه :

- أ أنت أيضاً ؟

فقلت وأنا أختق :

- جئت لأنهى صلتى بك . كيف تجرأت أن تعاملنى هذه العاملة ؟ فرشقتى بنظرة مستفهمه . قلت :

- اذا كنت قد أردت أن تصطحب دارزان ، فما كان عليك الا أن تقول لى انك ستصطحب دارزان ، ولكنك أجريت الحصان ، فاذا بى . . .
- آ . . . نعم . . . أظن أنك وقعت أنت فى الثلج .

قال ذلك وطلق يضحك . قلت :

- هذه أمور يكون الرد عليها بدعوة الى مبارزة ، ولذلك سنصفي
أولاً حساباتنا ...

واستللت أموالى بيد مرتعشة ، فوضعت بعضها على الديوان ، وبعضها
على المنضدة الرخامية ، بل وضعت بعضها الآخر على كتاب مفتوح ، وكنت
أتناولها بقبضة يدي ملأى ، وألقيها حزمًا وأكداً ، حتى لقد تدرجت
قطع ذهبية كثيرة على السجادة . قال :

- ها ... نعم ... أظن أنك ربحت كثيراً ؟ يدرك المرء ذلك من
لهجة كلامك .

انه لم يكلمنى بمثل هذه الوقاحة فى يوم من الأيام وكان وجهى
شاحباً شحوباً شديداً .

- يوجد هنا ... لا أدرى كم يوجد ... يجب أن نعد ... انى
مدين لك بثلاثة آلاف ... أم ماذا ؟ أكثر أم أقل ؟

- أظن أننى لا أجبرك على أن تدفع لى شيئاً .

- بل أنا الذى أريد ذلك . ولا بد أنك تعرف لماذا . خذ !

وطفقت أعد المال بيد مرتعجة ، ولكننى ما لبثت أن عدلت عن العد ،
قائلًا له :

- لا يهمنى أن أعرف المجموع معرفة دقيقة . أنا أعرف أن ههنا
ألف روبل . فسأخذ هذه الألف لنفسى ، وأخذ أنت الباقي كله ، خذ هذه
الأكداً جميعها ، سداداً لديك على " أو لبعض دينك على " : أظن أن
الباقي يبلغ نحو ألفى روبل وقد يزيد .

قال الأمير مبتسماً :

- وتلك الألف الأولى تحتفظ بها لنفسك مع ذلك ؟

- أنت في حاجة إليها ؟ اذن ... أعطيك اياها ... كنت أظن
أنك قد لا تريد أن ... ولكن خذها اذا وجب أن تأخذها ...
- لا ، لا أريد .

قال ذلك وأشاح عنى باحتقار ، وعاد يذرع الغرفة ذاهباً أيماً . ثم
التفت الى فجأة وقد لاحت في وجهه معاني التحدى والاستفزاز :

- ولكن ما الذى جعلك تفكر فى سداد ديونك ؟
فزأرت أقول أنا أيضاً :

- انما أرد اليك مالك لأستطيع أن أحاسبك على ما فعلت !

- اذهب الى الشيطان أنت وألفاظك الضخمة وإشاراتك الأبدية !

وقرع برجليه الأرض كأنما هو خرج عن طوره ، وأضاف يقول :

- اننى أريد منذ مدة طويلة أن أطردكما كليكما أنت وصاحبك
فرسيلوف .

صرخت أقول :

- هل 'جنتت ؟

وكان كمن 'جنّ فعلاً . وتابع كلامه قائلاً :

- لقد عذبتنا تعديساً رهيباً بجملكما المتفخمة . دائماً جمل ،

جمل ، جمل ! فيما يتعلق بالشرف مثلاً ! أف ! اننى أريد منذ مدة

طويلة أن أقطع صلتي بكما . ويسرنى ، يسرنى أنه آن الأوان . كتب

أظن اننى مرتبط ، وكنت أحمر خجلاً من اننى مضطر أن أستقبلكما ...

كليكما ! أما الآن فأرى اننى غير مرتبط بشئ ، غير مرتبط بشئ ،

ألا فاعلم ذلك ! لطالما حضنى صاحبك فرسيلوف على أن أهاجم

آخما كوفاً ، وأن ألتفح شرفها بالعار ... لا تتكلما عن الشرف بعد اليوم

عندى أبدأ ! كلاكما غير شريف ، كلاكما غير شريف ! وأنت ، ألم
تستح أن تأخذ مالى ؟

زاغ بصري • وقلت متمتماً برفق :

- أنا اقترضت منك كما يقترض رفيق من رفيقه • وأنت الذى
عرضت على أن تقرضنى فصددت حسن نياتك •••

- ما أنا رفيقك ! لقد أعطيتك مالا ، ولكن لغير هذا الغرض • أنت
تعلم لماذا أعطيتك •

- أعطيتنى من حساب فرسيلوف • وذلك غباء طبعاً ، ولكن •••

- لم يكن فى امكانك أن تأخذ من حساب فرسيلوف بدون اذنه ،
ولا كان فى امكاني أن أعطيك ماله بغير اذنه ••• فانا انما أعطيتك من
مالى ، وكنت أنت تعرف ذلك • كنت تعرفه وكنت ترضاه • ولشدهما قاسيت
أنا فى بيتى من تمثيل هذه المسرحية الكريهة •

- ما الذى كنت أعرفه ؟ عن أية مسرحية تتكلم ؟ ولماذا كنت
تمطينى اذن ؟

- لجمال عينيك يا ابن عمى ! •

قال هذه الجملة الساخرة بالفرنسية • وطفق يضحك أمامى •
فصرخت معولاً أقول :

- اذهب الى الشيطان ! خذ كل شىء • اليك هذه الألف أيضاً !
هاقد سددت دينى كله الآن ، وغداً •••

ورميت له كدسة الأوراق المالية التى كنت قد احتفظت بها لىفسى ،
فسقطت على صديرتيه ، وتدحرجت الى الأرض • فاذا هو يتقدم منى

ثلاث خطوات سريعة واسعة ، ويقول لي بفتةً بلهجة وحشية وكلمات مقطّعة :

- هل تجرؤ أن تدّعي أنك حين كنت تأخذ مني المال طوال هذا الشهر ، كنت تجهل أن أختك حبلى مني ؟
- ماذا ؟ كيف ؟

كذلك هتفت أسأله . وارتبخت ساقاي فأصبحتا لا تستطيعان حملي فتهاويت على الديوان خائر القوى .

لقد ذكر لي هو نفسه فيما بعد أن وجهي اصفر اصفراراً شديداً يشبه أن يكون بياضاً كيباض منديل .

اضطرب ذهني . وأذكر أن كلاً منا قد حدّق الى عيني صاحبه صامتاً . وألمّ بوجهه هو نوع من زعر . ومال على فجأة ، فأسكني من كنفى يسندني . اني أتذكر ابسامته المتجمدة تذكراً واضحاً كل الوضوح . لقد قرأت فيها معاني الشك والدهشة . نعم ! لم يكن يتوقع لكلماته أن تحدث في نفسى هذا الأثر ، لأنه كان موقناً بأننى على علم بالأمر ، وبأننى كنت آثماً .

وأعنى على اخيرا ، غير أن الاغماء لم يدم الا دقيقة واحدة . فلما أفتت وقفت على قدمي ونظرت اليه وفهمت . لقد انكشفت الحقيقة فجأة لفكرى الذى طال نومه ! لو قد حكى لي الأمر من قبل وسئلت ما عساني صانعا بالرجل ، اذن لأجبت حتماً بأننى سأمزقه تمزيقاً . ولكن ما حدث كان غير هذا تماماً ، وقد حدث بنير ارادتي أبداً : فاننى لم ألبث أن دفنت وجهي بيدي فجأة ، وأخذت أذرف دموعاً حارة مرّة . ذلكم ما حدث . لقد انبعث الطفل الصغير فى الرجل الشاب . معنى ذلك أن الطفل

الصغير كان لا يزال حياً فى نفسى ، وتهالكت على الديوان وطفقت انشج
منتحياً : « ليزا ! ليزا ! ليزا المسكينة ! » •

وعندئذ صدقتنى الأمير تصديقاً تاماً • فهتف يقول بحزن عميق :
- آه ! ما أكبر الذنب الذى ارتكبته فى حقت ! ما أبشع الأشياء
التي صورتها عنك ! سامحنى يا آرКАДى ماكاروفتش !

فانتفضت ، وأردت أن أقول له شيئاً ، وتسمرت أمامه ، ولكن دون
أن أنطق بكلمة ، ثم لم ألبث أن وَّليت هارباً من الغرفة ومن البيت •

رجعت الى مسكنى سائراً على القدمين ، ولا أكاد أتذكر كيف
وصلت • ارتيميت على سريري ، مكباً بوجهى على الوسادة فى الظلام ،
ورحت أفكر وأفكر • ان الأفكار فى مثل هذه اللحظات لا تتسلسل متسقةً
منسجمة أبداً ، ويكون الفكر والخيال كأنهما معلقان بخيط يترجح
ويتراقص • أذكر أنني أخذت أحلم بأشياء غريبة كل الغرابة عما أنا فيه ،
بل بأشياء لا يعلم الا الله ما الذى جعلها تخطر ببالى ! ولكن حزنى وشقائى
ما يلبثان أن يدركانى مؤلمين موجعين ، فأعقف يديّ كمدأ ، وأصبح قائلاً :
« ليزا ! ليزا ! » ، وأعود أسكب دموعاً سخينة غزيرة • لا أدري كيف
نمت ولكننى نمت نوماً عميقاً هادئاً •

الفصل السابع

١



فى نحو الساعة الثامنة من الصباح ، فسارعت
أقفل بابى بالمتساح فوراً ، وجلست أمام النافذة ،
وعدت أحلم من جديد . وبقيت على هذه الحال
حتى الساعة العاشرة . وقد قرعت الخادمة الباب
مرتين ، لكننى طردتها . وبعد الساعة العاشرة قرع الباب مرة أخرى ،
فأوشكت أن أصرخ أيضاً ، لولا أن عرفت أنها ليزا . وقد دخلت الخادمة
معها : جادتنى بقهوتى ، واستعدت لاشعال المدفأة . فكان يستحيل أن
أطردھا . فكنت طوال الوقت الذى قضته فى وضع الحطب واشعال النار
أذرع غرفتى الصغيرة بخطى واسعة ، دون أن أشرع فى الحديث ،
متحاشياً أن أنظر الى ليزا . وكانت الخادمة تعمل ببطء شديد ، وتتعمد هذا
البطء تعمداً ، كما تفعل جميع الخادما فى مثل هذه الحالة ، حين يلاحظن
أن أسبادهم متخرجون من الكلام بحضورهن . وكانت ليزا جالسة على
المائدة أمام النافذة تتابعنى بنظرھا . فقالت فجأة :

– توشك قهوتك أن تبرد .

فنظرت إليها . لم أر فى وجهها أثراً لاضطراب ، فوجهها هادىء
هدوء تاماً ، حتى أن ابتسامتها كانت تلم بشفتيها .

قلت محدثاً نفسى وأنا أرفع كنفى : هذه هى النساء !

واتهمت الخادمة أخيراً من اشعال المدفأة ، وشرعت فى تنظيف الغرفة

وترتيبها • ولكننى طردتها طرداً صارماً ، وأفقلت الباب بالمفتاح من جديد •

سألتنى ليزا :

- قل لى ، من فضلك ، لماذا أغلقت الباب ثانية ؟

فتسمرت أمامها ، وهتفت أقول فجأة دون أن يكون قد خطر
ببالى أن تكون هذه بداية كلامى :

- ليزا ، كيف أمكن أن تظنى أنك ستظلين تخدعيني ؟

لم أذرف فى هذه المرة دموعاً ، وإنما اجتاحت قلبى عاطفة تشبه
أن تكون شراً ، حتى اننى لم أكن أتوقع ذلك أما نفسى • فاحمرت ليزا
ولكنها لم تجب ، وإنما ظلت تحديق الى عيني •

- انتظرى يا ليزا ، انتظرى ! آه ••• ما أغبسانى ! ولكن هل كنت
غيباً الى هذا الحد من الغباوة حقاً ؟ ان التلميحات كلها لم تتجمع حزمة
واحده الا بالأمس ، أما قبل ذلك فكيف كان يمكننى أن أحزر ؟ أكان
يمكننى أن أحزر الحقيقة لأنك كنت تذهبين الى ستوليافا أو الى ••• داريا
أويسيموفنا هذه ؟ لقد كنت أعدك شمساً يا ليزا ، فكيف كان يمكن أن
يخطر ببالى ••• ؟ انك تتذكرين كيف استقبلتك منذ شهرين عنده ،
وكيف مضينا نتنزه فى الشمس معاً ، وكيف سردنا أعظم السرور • هل
كانت الأمور بينكما جارية منذ ذلك الحين ؟

فأومات ليزا برأسها لتقول نعم •

- اذن كنت تخدعيني منذ ذلك الحين يا ليزا ! لا ، يا ليزا ، لم يكن
ذلك منى غباءً ، بل كان أنانية • ليس الغباء هو المسئول ، وإنما أعمتى
الأنانية ، وأعمتى ثقتى الكبيرة بقداستك • كنت لا أنظر الا فى نفسى •
وعلام أنظر فيكم أتم ؟ لقد كنت واثقاً بكم جميعاً ، وكنت أعدكم أعلى

منى كثيراً ! وأمس ، فى البيت ، لم يستطع سلوككم الغريب أن يزيل
الغشاوة عن بصرى ، وكنت عدا ذلك مشغول البال بأمور أخرى ، فلم
أستطع أن أدوك شيئاً ، رغم جميع الاشارات والتلميحات •

وتذكرت فى تلك اللحظة كاترين نيقولايفنا فجأة • فأحسست مرة
أخرى بألم يشبه أن يكون وخز ابرة فى القلب ، واحمر وجهى احمراراً
شديداً • فكان طبيعياً ألا أستطيع أن أكون عندئذ طيباً •

قالت ليزا بصوت رقيق لكنه جازم :

— ولكن عمّ تعتذر يا أركادى ؟ يبدو لى أنك تحاول أن تعتذر عن
شئ ، أن تبرئ نفسك من شئ ، ولكن عمّ تعتذر ؟ مم تبرئ نفسك ؟
— ما الذى يجب علىّ أن أفعله الآن ؟ لو لم يكن نمه الا هذا السؤال
لكفى • فكيف تقولين ممّ تبرئ نفسك ؟ لقد أصبحت لا أعرف كيف
أتصرف ! لست أعلم ماذا يفعل الاخوة فى مثل هذه الحالة •• أعلم أن
منهم من يجبر الجانى على الزواج مشهوراً عليه المسدس ••• ولسوف
أتصرف كما يجب أن يتصرف رجل شريف • لكننى أجهل كيف ينبغي
أن يتصرف رجل شريف ! لماذا ؟ لأننا لسنا من طبقة النبلاء • انه أمير •
وهو يصنع حياته ويهيئ مستقبله ، فلن يرضى حتى أن يصغى اليانا نحن
الشرفاء • وأنا وأنت لسنا أخاً وأختاً ، وانما نحن ولدا زنا بغير اسم ،
نحن من أولاد الأفتان • هل يتزوج الأمراء بنات أفتان ؟ آه ••• باللعار !
وتظلمين تنظرين الىّ و"تدهشين ؟ •••

فاحمرت ليزا من جديد ، وقالت :

— أظن أنك معذب ، ولكنك تتسرع كثيراً وتؤذى نفسك ••
— أتسرع ؟ أفى رأيك اذن أننى لم أتأخر ؟ أنت تقولين هذا الكلام
يا ليزا ؟ (أخيراً نشط خيالى) • ما أكثر ما تكسد علىّ من عار مع ذلك ،

وما اسد الاحتقار الذي لا بد ان هذا الأمير قد حملة لى ! اه . . . الان أصبح كل شيء واضحاً . الان اصبحت اللوحه كلها ماله امامى : لقد تصور اننى عرفت صلته بك منذ مدة طويلة ، ولكننى سكت عليها ، أو حتى سمحت بأنفى تهاياً « بالشرف » العظيم - ذلك ما تصوره عنى . وتصور اننى كنت آخذ ماله فى سبيل أختى ، تصور اننى كنت آخذ ماله ثمناً لعرض أختى . وذلك ما كان يشمئز منه . وانى لأعذره ، أعذره كل العذر : فليس غريباً أن يضيق ذرعاً بمخلوق دنىء يُضطر أن يلقاه مرةً بعد مرة كل يوم لا لشيء الا أنه « أخوها » ، وأن يسمعه - فوق ذلك - متحدثاً عن الشرف . . . ذلك خليق بأن يقسى قلب المرء ، أن يقسى حتى قلب رجل مثله ! وقد ارتضيت أنت هذا كله ، ولم تنبهينى ! لقد بلغ من شدة احتقاره لى أنه كان يحدث عنى ستيلكوف ، حتى لقد قال هو نفسه بالأمس انه يريد منذ مدة طويلة أن يطردنا كلينا أنا وفرسيلوف . وهذا اذن ما جعل ستيلكوف يقول : « ان آنا آندرييفنا أختك مثل اليزابت ما كاروفنا سواء بسواء » ، حتى لقد صرخ يقول ورائى : « مالى آنا أفضل » . وكنت أنا استلقى فى بيت الأمير على دواوينه مسترخياً ، وكنت ألتصق بأصدقائه ندا لهم ونظيراً ! وسمحت أنت بهذا كله ! ولا شك أن دارزان نفسه على علم بالأمر الآن ، كما تدل على ذلك لهجته فى مساء أمس . . . جميع الناس عارفون بالأمر ، جميعهم عارفون به ، الا أنا ! . . .

قاطعتنى ليزا تقول :

- لا أحد يعرف . انه لم يتحدث الى أحد من أصدقائه ، انه لم يستطع أن يتحدث الى أحد منهم . أما ستيلكوف هذا ، فانا أعرف أنه يعذبه ، وأن ستيلكوف قد استطاع أن يشبهه اشتبهاً فى أكثر تقدير . . . أما أنت فقد كلمته عنك مراراً ، وصدقت ما قلته له تصديقاً كاملاً . . .

لقد قلت له انك تجهل كل شيء ، ولكنني لا أدري لماذا وكيف حدثت هذه القصة بينكما أمس .

- الحمد لله على أنني دفعت له دينه أمس ، فتخففت على الأقل من هذا الحمل الذي يجثم على قلبي ! ليزا ، هل ماما على علم بالأمر ؟ ولكن كيف لا تكون على علم به . انها بالأمس ثارت على ! آه يا ليزا ! ولكن هل يمكن أن تعتقدى بأنك على حق ؟ ألا تهمين نفسك بشيء ؟ انني لا أدري كيف 'يحكم على هذه الأمور اليوم ، ولا أدري ما هي آراؤك ، أقصد ما هي آراؤك في' ، في أمك ، في أخيك ، في أبيك ! هل فرسيلوف على علم ؟

- لم تقل له ماما شيئاً . وهو لا يسأل عن شيء . لاشك أنه لا يريد أن يسأل .

- يعلم ولكنه لا يريد أن يعلم . هذا هو الأمر . ذلك في طبيعته . طيب ، وفي وسعك أن تسخرى من أخيك ، من أخيك الغبي ، اذا هو تكلم عن مسدسات ، ولكن هلا فكرت في أمك ؟ ألم تحدثك نفسك أبداً يا ليزا بأن ما فعلته هو ملامة لأمك ؟ لقد عذبتني هذه الفكرة طوال الليل . ان الفكرة الأولى عند ماما اليوم هي هذه : « لقد أثمت ابنتي لأنني أثمت أنا أيضاً . هل تلد الحية الا الحية ؟ » .

ما ان سمعت ليزا هذا الكلام حتى طفرت الدموع من عينيها ، وهتفت تقول :

- آه ما أفسى هذا الذي تقوله وما أسوأه !

ثم نهضت وسارت مسرعة نحو الباب ، فقلت لها :

- قفى قفى !

وأمسكتها ، وأجلستها من جديد ، وجلست بقربها دون أن أسحب
يدي . قالت :

- كنت أقدر ، وأنا آتية الى هنا ، أن هذا كله سيحدث ، وأنت
ستكون فى حاجة الى أن أتهم نفسى حتماً . فاعتبط : هأنا ذى أتهم نفسى .
انى لم اصمت حتى الآن ولم أمتنع عن الكلام الا كبرياءً ولكننى أشفق
عليك وعلى ماما أكثر مما أشفق على نفسى . . .

ولم تكمل ليزا جملتها ، وانما انفجرت تبكى . فقلت لها :
- كفى يا ليزا ! لا ، لست فى حاجة الى شىء . ما أنا لك بالقاضى
يا ليزا . ولكن قولى لى : هل علمت ماما بالأمر منذ مدة طويلة ؟
فأجابت ليزا برقة وهى تخفض عينيها :

- أظن . ولكننى لم أذكر لها أنا متى وقع « الأمر » الا منذ
زمن قصير .

- فماذا كان منها ؟

- قالت : « احتفظى به » .

نطقت ليزا هذه الكلمات بلهجة فيها مزيد من الرقة . فقلت لها :
- نعم يا ليزا ، « احتفظى به » . لا تحاولى أن تصنعى بنفسك
شيئاً . حماك الله من مثل ذلك !

قالت بشات :

- لن أفعل شيئاً .

ورفعت بصرها الى من جديد . ثم أضافت تقول :

- اطمئن . ليس الأمر هذا !

- ليزا ، عزيزتى ! كل ما أراه هو أنتى لا اعلم شيئاً . لكننى علمت

الآن أنى أحبك • هناك شيء واحد لا أفهمه يا ليزا : لقد أصبح كل شيء واضحاً لى يا ليزا ، ولكننى لن أفهم فى يوم من الأيام ، فهماً كاملاً ، لماذا افتتنت به يا ليزا ؟ كيف أمكن أن تحبى رجلاً مثله ؟ ذلك هو السؤال •

فأجابت ليزا وهى تبسم ابتسامة رقيقة عذبة :

– ولا شك أن هذه الفكرة أيضاً قد عذبتك فى الليل ، أليس

كذلك ؟

– انتظرى يا ليزا ، هذا سؤال سخيف ، وأنت تستهزئين بى • استهزئى بى ، ولكن من المستحيل على المرء مع ذلك ألا يدهش : أنت و « هو » نقيضان ! لقد درست طبعه : انه رجل قاتم المزاج ، كثير الشك ، قد يكون طيباً ، ولكنه ميال كثيراً الى رؤية الشر فى كل مكان • (هنا على الأقل يشبهنى تماماً) • وهو يحترم النبيل احتراماً شديداً ، أعترف بهذا أيضاً وأراه ، ولكننى أعتقد أن هذا الاحترام لا يتعدى نطاق المثل الأعلى • وهو ميّال الى الندم طول حياته بغير انقطاع ، وهو ينحى على نفسه باللائمة دائماً ، ولكنه لا يصلح حاله أبداً (وهو هنا أيضاً يشبهنى على كل حال) • فى رأسه ألف وهم من الأوهام الاجتماعية ، وألف معنى من المعانى الزائفة ، ولكن ليس له فكرة واحدة ! يسعى الى المآثر الكبرى ، لكنه لا يزيد على أن 'يراكم دناءات فوق دناءات • معذرة يا ليزا ، انى أسمى الى شعورك • واصلق أننى غبى : فحين أقول هذا الكلام أجرح عاطفتك ، وأعلم أننى أفعل ذلك ؟ انى أفهم هذا •••

قالت ليزا مبتسمة :

– الصورة التى رسمتها كان يمكن أن تكون صحيحة ، ولكنك مسرف فى السخط عليه ، لذلك لم يبق فيها شيء من صحة • لقد ارتاب فيك منذ البداية ، ولم تستطع أن تراه كاملاً ، أما معنى أنا فإنه منذ أن كنا فى لوجا ••• انه لم ير أحداً غيرى منذ أن كنا فى لوجا ••• نعم انه

كثير الشك مهياً للمرض ، ولولاي لفقد عقله • ولسوف يفقده اذا هو
تركى أو سوف ينتحر •

وأضافت ليزا تقول لنفسها واجمة مفكرة :

- أظن أنه يدرك ذلك وأنه يعرفه •

وتابعت كلامها فقالت :

- صحيح أنه ضعيف ، ولكن أشمال هؤلاء الضعفاء قادرين أحياناً
على أشياء قوية قوة هائلة • ما كان أسخف كلامك عن المسدس يا أركادى :
لا حاجة الى شيء من هذا البتة ، وأنا أعرف ما سوف يحدث • لست أنا التي
ألاحقه وأطارده ، بل هو الذى يجرى ورائي • ان ماما تيكى وتقول :
« اذا تزوجته فسوف تشقى ، لأنه سيكف عن حبك » • أما أنا فلا أصدق
هذا الكلام • قد أشقى ، ولكنه لن ينقطع عن حبي • ليس هذا هو السبب
الذى حملنى على تأخير موافقتى ، وانما هنالك سبب آخر • لبثت شهرين
لا أوافق على الزواج • ولكننى أحبته اليوم قائلة : « نعم ، أتزوجك » •
هل تعلم يا أركادى (هنا سطعت عيناها وطوقت عنقى بذراعيها فجأة) انه
ذهب أمس الى آنا أندرييفنا ، وأبلغنا بكلام صريح قاطع أنه لا يستطيع
أن يتزوجها ؟ نعم ، لقد أفصح عن نفسه ، وانهى أمر تلك الفكرة الآن !
وهو لم يشارك فيها أبداً على كل حال ، وانما كان ذلك حلم الأمير يقولوا
ايفانوفتش ، وكان ذاك الجلادان ، ستيلكوف وشخص آخر ، بضغطان
عليه ضغطاً شديداً • فكان أن كافأته اليوم بجوابي : « نعم ، أتزوجك » •
لا تجرحك قصة أمس يا عزيزى أركادى • انه يدعوك اليه ، وهو اليوم
مريض ، وسيبقى طول النهار فى البيت • حقاً انه مريض يا أركادى •
لا تظنن أن هذا تملل • لقد أوفدنى اليك خصيصاً ورجائى أن أقول لك
انه « محتاج » اليك ، وان فى نفسه أشياء كثيرة يريد أن يقولها لك ،
وان هذه الأشياء لو قالها لك هنا فى مسكنك هذا لكانت فى غير محلها •

هياً ، الى اللقاء ! آه يا أركادى ، انى استحى أن أقول لك هذه الحقيقة ،
وهى أننى فى طريقى اليك كنت أشعر بخوف رهيب من أن يكون حبك
لى قد زال • فكنت أرسم اشارة الصليب طوال الطريق • ولكننى أحمد
الله على أنك طيب جداً ، ولطيف جداً ! لن أنسى هذا فى حياتى • أنا ذاهبة
الى ماما • حاول أن تحبه قليلاً ، هه ؟

فقبلتها بحرارة وقلت لها :

- أعتقد يا ليزا أنك قوية الارادة • نعم ، أصدق أنك لست أنت
التي تجبرين وراه ، بل هو الذى يجبرى ورائك • ولكن ، رغم
كل شيء •••

فقالت ليزا تكمل جملتى :

- ولكن رغم كل شيء ، « لماذا افتتنت به ؟ هذا هو السؤال » •
قالت هذه الجملة وهى تضحك ضحكة ماكرة كما فعلت من قبل ،
ونظقت ببارة « هذا هو السؤال » مقلدةً لهجتى تقليداً تاماً ، رافعةً ايهامها
الى مستوى عينها مثلما فعلت أنا •

وتمايقنا ، ولكن قلبى انقبض ثانية بمد انصرافها •

أريد أن أسجل هذا لنفسي : بعد انصراف ليزا تلاحقت في خاطري أفكار غريبة كثيرة أورتتني ارتياحاً كبيراً • فكنت أقول لنفسي مثلاً : « لماذا أفحم نفسي في هذه الشئون ؟ فيم يعنيني هذا الأمر ؟ ان هذه الأشياء تحدث لجميع الناس أو لجميعهم تقريباً • وقد حدثت لليزا • فماذا ؟ هل عليّ أن أنقذ شرف الأسرة ؟ هل عليّ أن أمحو عار الأسرة ؟ • • انني أسجل هذه الحطرات الحقيرة لأبين مدى ما كنت عليه في ذلك الأوان من ترجيح في فهم الخير والشر • وال عاطفة وحدها هي التي أنقذتني : كنت أعرف أن ليزا شقية ، وأن ماما شقية ؛ كنت أعرف ذلك بالعاطفة حين أفكر فيهما ، فأحس أن كل ما حدث كان شراً ولم يكن خيراً •

والآن يجب أن أذكر أن الأحداث ، منذ هذا اليوم الى يوم كارثة مرضي ، قد تلاحقت بسرعة تبلغ من الشدة أنني أدهش أنا نفسي - حين أفكر فيها اليوم - من أنني استطعت أن أصمد ، ومن أن القدر لم يسحقني • لقد تعرض عقلي وتعرضت عاطفتي للمخاطر أثناء تلك الأحداث ، فلو قد نفذت طاقتي في آخر الأمر فارتكبت جريمة (جريمة أوشكت أن ارتكبتها) ، لكان من الممكن جداً أن يبرئني المحلفون • ولكنني سأحاول أن أقص كل شيء بترتيب محكم ، رغم أن فكري أثناء تلك الأحداث لم يكن فيه شيء من ترتيب • اني لأبته الى هذا • لقد هاجمتني الأحداث كعاصفة ، فدارت الأفكار في رأسي كأوراق الأشجار اليابسة في أعاصير

الحُرَيْف . لقد كنت متشعباً حينذاك بأفكار الآخرين ، فأين أجد فكرة نابعة من نفسي فاتخذ قراراً حراً ! ولم يكن نعمة من يرشدني .

قررت أن أذهب في المساء الى الأمير ، لأكلمه عن كل شيء بحرية تامة ، والى أن يعين المساء بقيت في البيت . ولكنني حين حل الفسق تلقيت بالبريد رسالةً جديدة من ستيلكوف ، مؤلفة من ثلاثة أسطر ، يطلب اليّ فيها بالحاح وبلهجة « مقنعة » الى أبعاد حد أن أزره غداً في الساعة الحادية عشرة من الصباح « لأعمال ذات شأن هام ، وسترى بنفسك ما هي » . فقررت ، بعد تفكير ، أن أتصرف وفقاً للظروف ، فالغد لا يزال بعيداً .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة . وكان يمكن أن أمضي الى الأمير منذ مدة طويلة ، غير أنني كنت لا أزال أنتظر فرسيلوف : فان هناك أشياء كثيرة يجب أن أعبرَ له عنها ، وكان قلبي يحترق احتشاقاً . ولكن فرسيلوف لم يجيء . وقد أصبحت لا أستطيع في تلك اللحظة أن أظهر عند أمي وليزا ، وكنت أحس من جهة أخرى أن فرسيلوف قد غاب عن البيت طول النهار . فخرجت سيراً على القدمين ، وفيما أنا في الطريق خطر ببالي أن ألقى نظرة على حانة الأمس التي تقع تحت مستوى الأرض . فوجدت فرسيلوف هناك ، في المكان الذي كان فيه البارحة .

قال وهو يتسّم ابتسامة غريبة ، ويحدجني بنظرة عجيبة :

- كنت أعرف أنك ستأتي .

كانت ابتسامته خالية من الطيبة ، لم أر مثلها في وجهه منذ مدة طويلة .

جلست الى المائدة ، ورويت له من البداية الى النهاية جميع الوقائع التي تتصل بالأمير وليزا ، وقصصت عليه المشهد الذي وقع لي أمس مع الأمير بعد الروليت ، ولم أمس أن أذكر له أنني أصبت في القمار ربحاً

كبيراً • فأصغى الىّ باتتياه شديد ، وسألنى عن القرار الذى اتخذه الأمير
فى تزوج ليزا • وقال :

- « يا للطفلة المسكينة ! لعلها لن تجنى من هذا ربحاً • ولكن
أغلب الظن أن الأمر لن يتم ••• رغم أن الشاب قادر على أن •••

- قل لى كما يقول صديق لصديقه : هل كنت تعلم ؟ هل كانت
نفسك تحدثك بشيء ؟

- يا صديقى ، ماذا كان فى وسعى أن أعمل ؟ ذلك أمر من أمور
العاطفة والوجدان ، ولو من جانب هذه البنت المسكينة على الأقل • أكرر
لك ما سبق أن قلته : لقد طالما تدخلت فى شئون غيرى فى الماضى ، ثم
أقلعت عن هذه الدعوى الخرقاء وصرت ألتزم جانب التحفظ ! هذا لا ينفى
طبعاً اننى لا أرفض أبداً أن أساعد أحداً اذا ألم به شقاء ، أن أساعده
فى حدود طاقتى ، بشرط أن أفهم شيئاً مما يحدث • ولكن قل لى :
ألم تساورك أنت أية شبهة طوال هذه المدة ؟

فقلت وقد اشتعلت نفسى غضباً :

- ولكن كيف أمكنك وقد اشتبهت فى أننى أعرف علاقة ليزا
بالأمير - ولو أقلّ اشتباه - ورأيت فى الوقت نفسه أننى أقبل أن آخذ من
الأمير مالاً ، كيف أمكنك أن تتحدث معى ، وأن تجالسنى ، وأن
تصافحنى ، أنا الذى لا بد أنك كنت تعدنى شخصاً حقيراً ؟ أراهن على
أنك كنت تشبهه حتماً فى أننى أعرف كل شيء ، واننى كنت آخذ المال من
الأمير ثمناً لأختى وأنا عالم بالأمر كل العلم !

قال وهو يبتسم :

- أقول لك مرةً أخرى ان هذا شأن من شئون الوجدان والضمير •
ثم أضاف يقول وقد لاح فى وجهه تعبير عن عاطفة ملتبسة ملغزة :

- ومن ادراك أنتى كنت لا أخشى - كما خشيت أنت ، فى حالة أخرى - أن أفقد مثلى الأعلى ، وأن أكتشف فى ابنى النزق الشريف وعدا حقيرا ؟ لقد كنت أخشى هذا ، فكنت أؤجل لحظة المعرفة الاليمة . لماذا لا تفترض فى " ، بدلا من الكسل والدناءة ، شيئا أقرب الى البراءة ، بل شيئا من العباء أيضا ، والعباء أنبل على كل حال . على أنتى كثيرا ما أكون غيبا بغير نبل . بأى حق يمكن أن أكون متشددآ فى محاسبة ابنى ؟ هذا عدا أن اصلاحك بالاكره لا قيمة له فى نظرى .

- وليزا ؟ ألا تشفق عليها ؟ ألا ترى لحالها ؟

- أشفق عليها كثيرا يا عزيزى . من قال لك اننى خال من الاحساس ؟ ... بالعكس ، اننى أحاول بجميع الوسائل ... وأنت ؟ كيف تسير أمورك ، أنت ، ؟

- دعنا من أمورى . لم يبق لى " أنا " أمور . اسمع ! لماذا تشك فى أنه سيتزوجها ؟ لقد ذهب أمس الى آنا أندرييفنا ، وأعرب لها عن عدوله اعرابا واضحا ... أفصد عن هذه الفكرة السخيفة ... التى قامت فى ذهن الأمير يقولوا ايقانوفتش ... فكرة أن يزوجهما . لقد عدل عن هذه الفكرة عدولا صريحا .

- صحيح ؟ متى حدث هذا ؟ ممن علمته ؟

ألقى على " هذه الأسئلة مستطعلا باهتمام . فحكيت له كل ما كنت أعرفه . فقال واجما كمن يفكر بينه وبين نفسه :

- هم ... اذن حدث الأمر قبل مصارحة أخرى بساعة واحدة . هم ... نعم ... جائر جدا أن تكون هذه المصارحة قد تمت بينهما . . . رغم أن شيئا لم يقل ولم يعمل هناك أبدا حتى ذلك اليوم ، لا من هذا

الجانب ولا من ذاك •• أنا أعرف هذا • نعم ••••• حتماً ••••• تكفى كلمتان
اثنتان للمرض • ولكن •••••

هنا ضحك ضحكة غريبة على حين فجأة ، وتابع كلامه فقال :

- ولكن اسمع ••• سأذكر لك نبأً خارقاً لا شك أنه سيهمك :
لو أن صاحبك الأمير طلب من آنا أندريفنا أن يتزوجها (وذلك عرض
كنت سأبذل كل ما أملك من قوة لأحول دون تنفيذه ، لما فى ذهنى من
شبهات عن العلاقة التى بين الأمير وبين ليزا ، أقول لك هذا سرّاً بينى
وبينك) لرفضت آنا أندريفنا طلبه فوراً • على كل حال أظن أنك تحب
آنا أندريفنا كثيراً ، وتحترمها ، وتقدرها ، أليس كذلك ؟ هذا لطف كبير
منك ، ولسوف تبتهج لها اذن : فاعلم يا عزيزى أن آنا أندريفنا مقبلة
على زواج ، واذا صدق ما أعرفه عن طبيعتها ، فإنها ستتزوج حتماً ،
وسأبارك أنا زواجها طبعاً •

هتفت أقول مدهوشاً :

- ستتزوج ؟ من الذى ستتوجه ؟

- أحزر • هيّسا ، لا أريد أن أعذبك • ستتزوج الأمير يقولوا
ايفانوفتش ، شيخك العزيز •

حملت • وتابع كلامه بقول بتراخ ووضوح :

- من الجائز جداً أن تكون هذه الفكرة قد نبتت فى ذهنها منذ مدة
طويلاً ؛ ولاشك أنها صقلتها صقلافنيا على جميع وجوهها ، وفى تقديبرى
أن الأمر قد تم بعد زيارة « الأمير سرجويا » بساعة تماماً (هذا مثال على
غزواته التى تجىء فى غير الأوان) • لقد جاءت الى الأمير يقولوا ايفانوفتش
ببساطة وعرضت عليه أن يتزوجها •

- كيف ؟ هي عرضت عليه أن يتزوجها ؟ تقصد : عرض عليها أن يتزوجها ؟

- هو ؟ دعك من هذا ! هي التي عرضت عليه ، هي ! وواقع الأمر الآن أنه ممتلىء حماسة • ويبدو أنه مدهوش من أن هذه الفكرة لم تخطر بباله • ولقد سمعت أنه أصبح مريضاً ، من فرط الحماسة أيضاً ••• في أغلب الظن •

- اسمع ••• انك تتكلم بسخرية شديدة • فلا أكاد أصدقك • كيف تعرض عليه أن يتزوجها ؟ ماذا قالت له ؟

أجاب وهو يصطنع هيئة فيها جد مدهش على حين فجأة :

- ثق يا صديقي اننى مبتهيج ابتهاجاً صادقاً • صحيح أنه شيخ ، ولكن جميع القوانين والعادات تجيز له أن يتزوج • أما عنها هي ، فالأمر هنا أيضاً أمر وجدان الغير ، كما سبق أن كررت لك ذلك يا صديقي • ثم انها أهل لأن يكون لها رأيها وأن تتخذ قرارها الخاص بها • وأما عن التفاصيل ، وعن الكلمات التي استعملتها في مخاطبته ، فهذه أمور لا أعرف عنها شيئاً يا صديقي • ولكنها دبّرت أمرها على كل حال ، كما لا نستطيع أن نفعل نحن ، لا أنا ولا أنت يا صديقي • وخير ما في المسألة أن هذا كله لا يشتمل على أية فضيحة ، فهو في نظر جميع الناس سليم كل السلامة ، هو « كما يجب » جداً • واضح أنها أرادت أن تنشئ لنفسها مركزاً في المجتمع ، ولكنها تستحق أن يكون لها هذا المركز في المجتمع • تلك كلها أمور رائجة في المجتمع • ولا بد أن العرض الذي تقدمت به قد صاغته بعبارة رائعة فائقة • ان لها طبعاً قاسياً يا صديقي ؟ هي راهبة شديدة المراس كما ألقبها بذلك منذ مدة طويلة • لاحظ أنها ربيته تقريباً ، وأنها خبرت طبيته كثيراً • وطالما أكدت لي أنها تحمل له « كثيراً من الاحترام وكثيراً من التقدير والمودة ! » ، الخ ، لذلك كنت شبه منتهى

لتلقى النبأ • هذا كله قد نقله الى اليوم باسمها وتلبية لرجائها ابني آندره
آندريفتش ، أخوها ، الذى لا تعرفه ، والذى أراه مرة واحدة كل ستة
أشهر تماماً • وهو يؤيد خطوتها باحترام عظيم •

- اذن أذيع النبأ؟ ما أشد دهشتى !

- لا ، لم 'يذع بعد ... ولن يذاع الا بعد مدة • متى؟ لا أدري •
على كل حال ، أنا لا دخل لى أبداً • ولكن كل ما قلته لك صحيح •

- ولكن ما عسى أن يكون موقف كاترين ايفانوفنا الآن ؟ لاشك
أن هذا الأمر لن يسر بيورنج !

- ذلك ما أجهله • ولكن ممّ يمكن ألا يسر ؟ صدقتى على كل
حال ان آنا آندريفنا سوف تعرف كيف تحسن التصرف فى هذا المجال
أيضاً • يا لآنا آندريفنا هذه ! لقد سألتنى فى صباح أمس هل أحب السيدة
آخماكوفنا • هل تتذكر ؟ لقد رويت لك هذا بالأمس مدهوشاً : ألا يمكنها
أن تزوج الأب اذا تزوجت أما البنت ؟ هل تفهم الآن ؟

هتفت أقول :

- آ ... فعلاً • ولكن هل يخطر ببال آنا آندريفنا حقاً أنك يمكن
أن تريد تزوج كاترين نيقولايفنا ؟

- طبعاً يا صديقى • على كل حال ، على كل حال ، أن الأوان
لأن تذهب الى حيث كنت تريد أن تذهب • اننى أشعر بألم فى رأسى •
سوف أطلب أن 'تعزف ' لوسيا ، • أحب عظمة الضجر والسأم • أظن
أننى قلت لك هذا قبل الآن • ما أكثر ما أكرر تكراراً لا يغتفر ! قد
أنصرف من هنا مع ذلك • أحبك يا صديقى ، ولكن استودعك الله ! حين
أحس بألم فى الرأس أو فى الأسنان فانى أشتاق دائماً الى الوحدة •

وارتسم على وجهه غضب يعبر عن ألم • اننى أصدقه الآن • لقد كان
يشعر بألم فى رأسه ، فى رأسه خاصةً •••

قلت :

— الى الغد •

— ما تعنى بقولك الى الغد ؟ وما الذى سيحدث غداً ؟

وابتسم ابتسامة شزاء •

— أجيء اليك أو تجيء الىّ •

— لا لن أجيء اليك ، بل أنت الذى ستهرع الىّ • كان فى وجهه

سوء وشر ، ولكننى لم أتبه الى هذا • ياله من حادث ا

كان الأمير مريضاً بالفعل : فهو ملازمٌ بيته ، معصوب الرأس بخروفة
مبللة . وكان ينتظرني نافد الصبر . ولكن لم يكن رأسه وحده مريضاً ،
بل كان شخصه كله يعاني من ألم نفسي . تنبيه آخر : انني في هذه الآونة
الأخيرة ، وحتى وقوع الكارثة ، لم ألق الا أناساً مهتاجين احتياجاً شديداً ،
فكان لا بد أن تسرى عدواهم اليّ رغم ارادتي .

يجب أن أتعرف بأنني حين وصلت اليه كانت نفسي زاخرة بعواطف
سيئة ، وكنت عدا ذلك أشعر بعار كبير من أنني بكيت عنده أمس . لقد بلغنا
من خداعي ، هو وليزا ، أنني كنت أقدرّ أنهما يعداني غيباً ولاشك .
الخلاصة أن قلبي كان مترعاً بمشاعر رديئة حين دخلت عليه . ولكن هذا
كله كان سطحيّاً ، فسرعان ما تبددت تلك المشاعر . يجب أن أنصف
الأمير فأقول : انه متى خفت حدة تأذيه أو زالت ، فتح نفسه لك
صادقاً ، فاذا أنت تكتشف فيه صفات تكاد تكون صفات طفل ، من حنان
وثقة ومحبة . لقد قبلني والدموع تترقرق في عينيه ، ثم سرعان ما شرع
يتحدث في الأمر نعم ، لقد كان في حاجة اليّ حقاً . وكان في
أقواله وفي تتابع أفكاره اضطراب كبير .

أعلن لي جازماً أنه عاقد عزمه علي أن يتزوج ليزا ، وعلى أن
يتزوجها في أقرب وقت . وقال لي : « ألا تكون ليزا من طبقة النبلاء ،
فذلك أمر لم يهمني لحظة واحدة . لقد تزوج جدى فتاة من الأتقان كانت

مغنية فى مسرح خاص لملاك مجاور • صحيح ان اسرتنى تعقد على امالاً
من نوع خاص ، ولكنها سنذعن الان مضطرة ، وسيتيم هذا بغير
صراع • اريد ان اقطع صلتى بكل مجتمع هذا الزمان ! اريد شيئاً اخر ،
شيئاً جديداً ! لا أدرى لماذا أحببتى أختك ، ولكن لعل السبب هو اننى
لولاها لكنت قد بارحت هذا العالم • أحلف لك صادقاً كل الصدق أننى أعد
لقائى لها فى لوجا رحمة الهية • أعتقد أنها أحببتى بسبب « فداحة
سقوطى » ، ولكن هل تفهم هذا يا أركادى ما كاروفتشس ؟

فأجبت بصوت يعبر تعبيراً واضحاً عن الاقتناع :

- كلّ الفهم •

كنت جالساً على المقعد الذى يواجه المائدة ، وكان هو يسير فى
الغرفة طويلاً وعرضاً •

- يجب أن أروى لك قصة لقائنا كلها دون أن أخفى شيئاً • لقد بدأ
كل شىء بسرى خاص عرفته وحدها ، لأننى لم أبح به الا لها ، ولا يعرفه
أحد حتى الآن • لقد وصلت لوجا مكروب النفس يائساً ، وأقمت عند
ستوليافا ، لا أدرى الآن لماذا ! لعلنى أردت أن أنشد أكمل عزلة •
لقد تركت الجيش منذ قليل • وكنت قد دخلت الجيش عند عودتى من
الخارج بعد ذلك اللقاء فى الخارج مع آندره بتروفتشس • وكنت أملك فى
ذلك الحين ثروة ، وكنت أبددّ المال تبديداً ، وأعيش حياة بذخ ولهو •
ولكن رفاقى كانوا لا يحبوننى • ومع ذلك كنت أحاول ألا أسئ اليهم •
يجب أن أعترف لك بأن أحداً لم يحببى فى يوم من الأيام • وكان هناك
حامل علم اسمه ستينانوف ، وهو فى الواقع رجل فارغ تافه بل يكاد
يكون أبله • الخلاصه أنه ليس له ميزة من الميزات • ولكنه كان رجلاً
شريفاً لا يمكن أن يجحد أحد شرفه • وقد تشبث هذا الرجل بى • فكنت

لا أضيع بوجوده ولا أشعر بحرج منه • كان يأتي الى ، فيجلس في ركن من الأركان ايما كاملة دون أن يفتح فمه بكلمة ، ولكن بوقار وكرامة ، فلا يزعجني أى ازعاج • وقد قصصت عليه في ذات يوم حكاية من حكايات الساعة زخرفتها بسخافات كثيرة : وهي أن ابنة الكولونيل تحمل لى عاطفة حب ، وأن الكولونيل يعول على فأسطيع أن أحركه كيف أشاء • ولا حاجة الى ذكر التفاصيل ، فانما المهم أنه قد نشأت عن كلامي هذا شائعات وأقاويل معقدة غاية التعقيد ، قدرة الى أبعد حدود القدرة • وهذه الشائعات والأقاويل لم يكن مصدرها ستيانوف ، وانما كان مصدرها خادمي الذي سمع كل شيء وحفظ كل شيء ، لأن الكلام كان حكاية سيئة تفسد سمعة فتاة • فلما سألت الضباط هذا الخادم عن مصدر القصة حين شاعت في الناس سَمي ستيانوف بل ذكر أنني الذي رويتها لستيانوف • وكان يستحيل على ستيانوف أن ينكر أنه سمعها • فهذه مسألة شرف • ولما كنت قد اخترعت أكثر من ثلثي الحكاية اختراعاً لزخرفتها فقد استاء الضباط واضطر الكولونيل أن يجمعنا في بيته لتوضيح الأمور ووضعها في نصابها • وهناك ألقى هذا السؤال على ستيانوف بحضور الجميع : أسمعتم أم لم تسمع ؟ فقال ستيانوف الحقيقة • فكيف كان تصرفي أنا الأمير الذي أنتسب الى سلالة أمراء عمرها ألف سنة ؟ لقد أنكرت ، وقلت أمام ستيانوف انه كذب ، أو بتعبير مهذب : « لم يحسن فهم ما قلت ، ، الخ • هنا أيضاً لا داعي الى ذكر التفاصيل • وانما المهم أن أشير الى أن موقفي يمتاز على موقف ستيانوف بأنني كنت أستطيع بسبب مواظبة ستيانوف على المجيء الى بيتي ، أن أعرض الأمر عرضاً يوهم بأن نمة تواطأ قد تم بين ستيانوف وبين خادمي لتحقيق بعض المنافع ، وذلك شيء يمكن أن يصدّق • • وذلك ما كان • فلم يزد ستيانوف على أن نظر الى هزّ منكبيه دون أن ينطق بكلمة واحدة • انني أتذكر

نظرتة ولن انساها ما حيت • ولم يلبث ستيانوف ان قدم استقالته فوراً •
ولكنك لن تحزر أبداً ما حدث • ان جميع الضباط • من أولهم الى
آخرهم ، قد زاروه وتانسدوه ألا يرحسل • حتى اذا مضى اسبوعان
كنت أنا الذي أترك الجيش : لم يطردني أحد ، ولم يدعني أحد الى
الرحيل ، وانما انتحلت عذراً عائلياً لتقديم استقالتي • هكذا انتهت القضية •
وقد بقيت في أول الأمر غير مكترث ، حتى لقد كنت غاضباً منهم • وأقمت
في لوجا ، وتعرفت الى اليزابت ماكاروفنا ، ولكنني أخذت بعد انقضاء
شهر واحد ، أنظر الى مسدسي وأفكر في الموت • انني أرى الأمور
سوداء دائماً يا أركادى ماكاروفتش • وأعددت رسالةً الى الكولونيل
والى رفاقي في الجيش لأعترف بكذبي ولأردّ الى ستيانوف اعتباره • وحين
انتهيت من كتابة الرسالة ألقيت على نفسي هذا السؤال : « أأرسلها وأعيش
أم أرسلها وأموت ؟ » • وكان يمكن أن أعجز عن الاهتداء الى اجابة •
لكن مصادفة من المصادفات ، مصادفة عمياء ، قرّبتني فجأة من اليزابت
ماكاروفنا بعد حديث سريع خاص جرى بيني وبينها • كانت حتى ذلك الحين
تختلف الى ستوليافا ، فكنا نلتقي أحياناً ، وتبادل التحية ، ولا تتخاطب
الا في القليل النادر • فاذا أنا أكشف لها فجأة عن كل شيء • وعندئذ
انما مدت لي يدها •

– وكيف حلت المشكلة ؟

– لم أبعث الرسالة • هي التي قررت ذلك • وسوّغت قرارها على
هذا النحو : اذا بعثت الرسالة فلا شك أن عملي يكون نبيلاً يفسل عارى
ولكن هل أطيق أنا نفسي احتمال هذه الخطوة ؟ وكان رأيها أن أحداً
لا يستطيع احتمال مثل هذه الخطوة ، لأن كل مستقبل يكون
قد ضاع ، وكل انبعث من أجل حياة جديدة يصبح مستحيلًا • ثم ان
ارسال الرسالة يكون له ما يوجبه لو أن ستيانوف قد أودى وتألّم ، ولكن

ستييانوف قد ردّ اليه الضباط اعتباره ، وهو معهم على أحسن حال •
الخلاصة أن كلامها كان مفارقة غريبة • ولكنها صدتني عن بعث الرسالة ،
وانتقدت لها انقياداً تاماً •

هتفت أقول :

- ولقد اتخذت قراراً على غراز ما يفعل يسوعى ، ولكن على غرار
ما تفعل امرأة أيضا • كانت تحبك منذ ذلك الحين •
- وهذا بعينه هو ما بعثني الى حياة جديدة • حلفت لأغيرن نفسى
ولا بدلن حياتى، ولاكسبن جدارة فى نظرى وفى نظرها • فانظر الى أى
شئ انتهى ذلك كله ! ركضنا أنا وأنت الى بيوت القمار ، لعبنا الباكراه ،
أطاش الميراث صوابى ، لم أفطن الا الى اللذة ، لم أنتبه الى ضمان
مستقبلى وعملى ، وعاترت الأوغاد من الناس ، وحفلت بمظاهر الأبهة
والفخامة واندفعت فى ترهات المجتمع الرافى • وعذبت ليزا • آه •
يا للعار !

قال ذلك وفرك جبينه بيده، وراح يذرع الغرفة، ثم أردف يقول:
- نحن كلانا مصابان بالداء الروسى المؤلف يا أركادى ماكاروفتش :
فلا أنت تعرف ماذا يجب أن تعمل ، ولا أنا أعرف ماذا يجب أن أعمل •
ان الروسى متى خرج عن الطريق الذى رسمته له العادة أصبح لا يعرف
ماذا يجب أن يعمل • فى الطريق المرسوم كل شئ واضح : دخل ،
ورتبة ، ومركز فى المجتمع ، ومركبة ، وزيارات ، ومصعب ، وامرأة •
ماذا يبقى منى عند أول انحراف عن الطريق الممهّد؟ ورقة تذروها
الريح ! أصبحت لا أعرف ماذا أعمل ! لقد حاولت فى هذين الشهرين
أن أبقى فى الطريق المرسوم ، وأردت أن أحب الطريق المرسوم ، ونصت
فى هذا الطريق المرسوم • انك لا تعرف حتى الآن الهاوية الجديدة
التي سقطت فيها : لقد كنت أحب ليزا ، كنت أحبها حباً صادقاً ، وكان
فكرى فى الوقت نفسه ينصرف الى السدة أخمأكوفا !

هتفت أقول مثالما :

- أهذا ممكن ؟ قل لى بالنسبة يا امير : ماذا ذكرت لى أمس عن
فوسيلوف ؟ هل قلت لى انه كان يحضك على ارتكاب دناهة فى حق
كاترين ايفانوفنا ؟

- لعلنى بالفت • ولعلنى بسبب ما أتصف به من سرعة التآذى فد
أذبت فى حقه مثلما أذبت فى حقلك • ولكن دعنا من هذا الآن • هل
تتصور أننى طوال هذه المدة ، وربما منذ أيام لوجا ، لم أكن وفيماً لأى
مثل أعلى فى الحياة ؟ أقسم لك أن المثل الأعلى لم يفارقنى قط ، بل كان
دائماً أمامى ، ولم يفقد شيئاً من جماله فى نظرى • كنت أتذكر العهد الذى
قطعته على نفسى لاليزابت ماكاروفنا وهو أن أبعت بشئاً جديداً • وحين
حدثنى أندره بتروفتش بالأمس هنا عن النبيل فانه لم يقل لى شيئاً جديداً ،
ثق بذلك • ان مثلى الأعلى ثابت راسخ : بضع عشرات من الهكتارات
(بضع عشرات لا أكثر ، اذ لم يبق من الميراث شئ تقريباً) ؛ وقطعة
تامة ، تامة اطلاقاً ، مع المجتمع الرافى وعالم المناصب ؛ ومسكن ريفى •
وأسرتى ، وأنا ••• أحرث الأرض أو أقوم بعمل من هذا القبيل • وليس
هذا فى سلالتنا شيئاً جديداً : ان عمى كان يدفع سكة المحراث ، وكذلك
كان جدى • نحن أمراء منذ ألف سنة ، ونبلاء مثل آل روهان ، ولكننا
فقراء • واليك ما كنت سأقوله لأولادى : « تذكر طول عمرك يابنى أنك
نبيل ، وأن الدم المقدس ، دمُ الأمراء الروس ، يجرى فى عروقك ،
ولكن لا تحمرّ خجلاً من أن أباك دفع سكة المحراث : فهو انما فعل ذلك
كما يفعله أمير • • ولن أترك لأولادى ثروة عدا تلك الرقعة من الأرض ،
ولكننى فى مقابل ذلك سوف أعلمهم تعليماً عالياً ، سوف أجعل ذلك
واجباً يقع على عاتقى ولا أخفى عنه أبداً • وستساعدنى ليزا فى ذلك •
ليزا ، الأولاد ، العمل ! آه •• لكم حملنا بهذا كله ، أنا وهى ، فى

هذا البيت نفسه ! وفي الوقت نفسه كان فكرى ينصرف الى آخماكوف ، دون أن أحبها أبداً ، وكنت أفكر فى زواج ثرى راف ! ولم أقرر أن أذهب الى آنا آندريفنا الا بعد ذلك النبأ الذى حمله ناشتسوكين بالأمس من بيورنج ذاك .

- ولكنك ذهبت اليها لتسحب . هذه خطوة شريفة فيما أرى .
- أتظن ذلك ؟

ألقى هذا السؤال ، ووقف أمامى متسماً ، ثم استأنف كلامه قائلاً :

- بل انك لا تعرف طبيعتى بعد . أو قل . . . أو قل ان هاهنا شيئاً لا أعرفه أنا نفسى ، لأن الأمر لا يمكن أن يكون أمر طبيعة فحسب . اننى أحبك صادقاً يا آرКАДى ماكاروفتش ، وعدا هذا فقد أئمت فى حقك اثماً عميقاً خلال هذين الشهرين ، لذلك أريد أن تعرف كل شىء ، من حيث أنك أخو ليزا : أنا انما ذهبت الى آنا آندريفنا لأخطبها ، لا لأتسحب .
- أهذا معقول ؟
- لقد خدعت ليزا .

- اسمح لى : أخطبت آنا آندريفنا خطبة رسمية ورفضت ؟ نعم ؟
أهذا ما حدث ؟ ان التفاصيل تهمنى كثيراً يا أمير .

- لا ، لم أتقدم بخطبتها ، ولكن السبب هو أننى لم يتح لى ذلك . وهى التى أفهمتى ، لا بالفاظ الرفض طبعاً ، ولكن بكلمات واضحة شفافة مع ذلك ، أفهمتى « برقة » أن هذه الفكرة أصبحت بعد الآن مستحيلة .

- فكأنك اذن لم تخطبها ، وبقيت كرامتك سليمة لم يمسهها أذى .

- كيف تستطيع أن تفكر هذا التفكير؟ وحكم ضميرى ، وليزا
التي خدعتها ... والتي أردت اذن أن أهجرها؟ والمهد الذي قطعته على
نفسى وعلى سلالة أسلافى جميعاً ، وهو أن أُبعت بعتاً جديداً وأن أكفّر
عن دناياتى الماضيات؟ أتوسل اليك : لا تحدثها فى هذا الأمر . فلعل هذا
هو الشيء الوحيد الذى لا تستطيع أن تعرفه لى ! اننى من ذلك مريض
منذ الأمس . ويخيّل الىّ خاصّةً أن كل شيء قد انتهى وأن آخر أمير
من أمراء سوكولسكى سيودع فى السجن ! مسكينه ليزا ! لقد انتظرتك
نافذ الصبر ، يا آرКАДى ما كاروفتش ، لاكتشف لك ، بصفتك أخا ليزا ،
ما لا تعرفه ليزا حتى الآن . اننى مجرم من مجرمى الحق العام ، أشارك
فى صنع أسهم مزيفة باسم شركة من شركات السكك الحديدية .
- ما هذا أيضاً؟ ماذا تقول؟ تودع فى السجن ! ...

قلت له ذلك منتفضاً وتأمّلتنه مذعوراً . كان وجهه يعبر عن مرارة
عميقة قائمة لا مخرج منها . قال :

- اجلس !

وجلس هو أيضاً على مقعد قبالتى . وشرع يتكلم :

- اعلم أولاً هذا : منذ أكثر من سنة ، فى ذلك الصيف ، صيف
امس وليديا وكاترين ايفانوفنا وباديس بعد ذلك ، يوم أردت أن أذهب
الى باريس لقضاء شهرين ، وفى باريس بطبيعة الحال ، كنت فى
عوز . وحينئذ انما جاءنى ستيلكوف ، وكنت أعرفه على كل حال ،
فأعطانى مالاً ووعدنى بمزيد ، ولكنه سألنى أن أساعده : كان فى حاجة
الى أحد يكون فنانا رساما حفاراً طباعاً وهلم جرا . . . كيميائياً وتكنولوجياً ،
وذلك لأغراض معينة . وقد جعلنى أدرك تلك الأغراض منذ المرة الأولى

ادركا واضحا • لقد كان يعرف طبيعى • فلم يزد ذلك كله على ان
أضحكنى وسألانى • وكنت أعرف منذ أن كنت تلميذاً على مقاعد المدرس ،
شخصاً هو الآن مهاجر روسى ، لا روسى الأصل على كل حال ، يقيم فى
مكان بمدينة هامبورج • كان هذا الرجل قد شارك ابان اقامته بروسيا
فى قصة تزيف أوراق • وعلى هذا الرجل انما كان يعوّل ستيلكوف ،
ولكنه كان فى حاجة الى من يوصى به لديه ، فاتجه الىّ يلتمس منى هذه
التوصية • فكنت له سطرين بخط يدى ثم لم أفكر فى هذا الموضوع •
وقد رأيت بعد ذلك مراراً ، وبلغ ما أعطانيه زهاء ثلاثة آلاف روبل • ولقد
نسيت تلك المسألة نسياناً تاماً • وصرت اقترض منه هنا من حين الى حين ،
على رهون أو بسندات ، وكان يتلوى أمامى ذليلاً كما يتلوى عبد •
وعلمت منه أمس فجأة ، لأول مرة ، اننى مجرم من مجرمى الحق العام •

— أمس ؟ أية ساعة ؟

— ساعة كنا نتصارخ فى مكتبى قبيل وصول ناشتسوكين • لأول
مرة ، وبألفاظ صريحة فى هذه المرة ، تجرأ أن يكلمنى عن آنا أندريفنا •
وقد رفعت يدى لأضربه ، لكنه نهض فجأةً ليعلم أننى متضامن معه ، وأن
علىّ أن أتذكر أننى كنت شريكه فى الجرم ، وأننى وعدت مثله • ذلك
ما قاله لى ، ان لم يكن بنصه فبمنه •

— ما هذه السخافات ؟ أهذا حلم ؟

— لا ، ليس حلماً • ولقد جاءنى اليوم ، فزادنى ايضاحاً • ان هذه
الأسهم المزيفة هى الآن فى التداول ، وسينزل غيرها الى التداول • ويظهر
أن عدداً منها قد صودر هنا وهناك • وأنا ليس لى فى الأمر أى دخل
طبعاً • ولكن ستيلكوف قال لى : « أما تكلمت فأعطينى كتاب التوصية هذا
فى ذلك الحين ؟ » •

— ولكن أكنت تعلم لماذا التمس منك تلك التوصية به أم كنت لا تعرف ؟

أجاب الأمير وهو يخفض صوته ويخفض عينيه أيضاً :

— كنت أعرف ، بل قل كنت أعرف دون أن أعرف • لقد ضحكت وسلّنتى الأمر • ولم أفكر وقتئذ فى شيء ، لا سيما وأننى لم أكن أنا فى حاجة الى أسهم مزيفة ، ولم أكن أتهماً أبداً لصنع أسهم مزيفة • ولكن الثلاثة آلاف روبل التى أعطانيها حينذاك لم يقيدها ديناً على ، وقبلت أنا ذلك • ثم ما أدراك ؟ ربما أكون مزيفاً أنا أيضاً ! لم يكن فى الامكان ألا أعلم ، ما أنا بطفل • ولكن الأمر سلّنتى وأضحكنى ، وساعدت مجرمين ••• ساعدتهم طمعاً فى مال ! واذن فأنا أيضاً مزيف !

— لا ، لا ، انك تبالغ ! صحيح أنك مذنب ، ولكنك تبالغ !

— الخطير فى الأمر أن هناك شاباً اسمه جيلسكى يعمل كاتباً فى القضاء وتحوم حوله الشبهات ، قد شارك أيضاً فى حكاية الأسهم المزيفة هذه ، ثم جاءنى بعد ذلك عدة مرات موفداً من الرجل المقيم بهامبورج ، جاءنى لترهات وسفاسف طبعاً ، بل اننى لا أعرف لأى غرض من الأغراض على وجه التحديد قد جاءنى ، ولكنه يحتفظ برسالتين منى ، هما أيضاً رسالتان قصيرتان لا تعدو احدهما سطرين ، غير انهما تشهدان على • اليوم أدركت هذا • ويقول ستيلكوف ان جيلسكى هذا مزعج : فقد سرق لا أدري ماذا ، سرق مالا من الخزينة فيما أظن ، وهو ينتوى أن يسرق المزيد ثم يهاجر ؟ ومن أجل أن يهاجر يجب أن يتزود للسفر بشمانية آلاف روبل ، لا أقل من ذلك • ان نصيبى من الميراث يكفى ستيلكوف • ولكن ستيلكوف يقول ان علينا أن نرضى جيلسكى أيضاً • الخلاصة أن على أن أتنازل عن حصتى من الميراث وأن أدفع فوق

ذلك عشرة آلاف روبل • هذه كلمتهم الأخيرة • فاذا نفذت هذا الشرط
ردوا الى الرسائلين • وواضح أنهم متواطئون •
- يا للسخافة ! انهم اذا ونسوا بك كانوا يسلمون أنفسهم ! فلا يمكن
أن يشوا بك •

- أعرف هذا • ثم انهم لا يهدءون بأن يشوا بي • بل يقولون :
« نحن لن نشي بك » ولكن افترض الأمر ••• • ذلك ما يقولونه • ذلك
كل ما يقولونه • وأظن أنه كاف • ولكن ليس هذا هو الأمر : هبنى
استرددت الرسائل • فهل ينجيني هذا من أن أظل مرتبطاً بهؤلاء الأوغاد
متضامناً معهم ؟ آه •• كيف يمكنني أن أبقى الى الأبد رفيقهم ؟ أكذب
على روسييا ، أكذب على الأطفال ، أكذب على ليزا ، أكذب على
ضميري ••• ؟

- هل تعلم ليزا ؟

- لا ، لا تعلم كل شيء • لو علمت ، وهى على ما هى عليه من
حال ، لماتت من هول الصدمة • اننى أرتدى الآن بزة الجيش ، فكلما
صادفت جندياً من الجيش ، شعرت شعوراً كاوياً بأننى لا أستحق ارتداء
هذه البزة •

هتفت أقول فجأة :

- اسمع ! لا حاجة الى الاكثار من الكلام • ليس أمامك الا طريق
واحدة للخلاص • اذهب الى الأمير يقولوا ايضاً نوفتش ، وخذ منه
عشرة آلاف روبل ، اسأله ان يعطيك هذا المبلغ دون أن تكشف له عن
شيء ، ثم استدع هذين الوغدين ، وصّف حسابك معهما تصفية نهائية
بافتداء رسائلك •• فينتهى كل شيء ! ينتهى كل شيء ، وتمضى تحرت
الأرض ! دع الأوهام وثق بالحياة !
قال مؤكداً :

– لقد فكرت فى هذا • فكرت فيه طول هذا اليوم ، واتخذت
أخيراً قرارى • وكنت لا أنتظر الا أن تجيء أنت • سوف أذهب اليه •
هل تعلم اننى لم يسبق لى أن اقترضت فى حياتى كلها قرناً واحداً من
الأمير نيقولا اي فانوفتش ؟ انه طيب فى معاملة أسرنا ، حتى انه ... أظهر
اهتماماً بنا ... ولكننى ... شخصياً ... لم أطلب منه أى مال فى يوم من
الأيام • وهانذا الآن أرتضى لنفسى أن أطلب منه • لاحظ أن فرعنا أقدم
من فرع الأمير نيقولا اي فانوفتش : انهم هم الفرع الحديث ، الفرع الهجين ،
الفرع المشكوك فيه تقريباً ... ولقد تناصب أسلافنا العداة • وفى بداية
عهد الاصلاح ، أيام بطرس الأكبر ، كان أبو جدى ، واسمه بطرس
أيضاً ، كان راسكولنيكاً وظل كذلك وطوّف فى غابات كوستروما •
فهذا الجدد تزوج زواجاً ثانياً بامرأة لم تكن من طبقة النبلاء هى أيضاً ،
وعندئذ انما تقدمنا آل سوكولسكى هؤلاء ... ولكن عمّ كنت أتكلّم ؟

كان متعباً كأن الكلام قد أنهكه •

قلت وأنا أنهض وأتناول قبعتى :

– هدىء نفسك • نمّ قبل كل شيء • أما الأمير نيقولا اي فانوفتش
فانه لن يرفض حتماً ، ولا سيما الآن ، فى غمرة فرجه • هل تعرف
القصة ؟ لا ! غير معقول ! لقد بلغنى نبأ عجيب : أنه سيتزوج • هذا سر ،
ولكن لا يُكتم عنك أنت طبعاً •

ورويت له كل شيء وأنا واقف ممسك قبعتى أهمّ بالانصراف • لم
يكن على علم بالأمر • فجعل يسألنى عن تفاصيل ، ويسألنى خاصة عن
الزمان والمكان وحظ النبأ من امكان التحقق • فلم أخف عنه طبعاً أن
الأمر حدث فيما يقولون بعد زيارته أنا أندريفنا بالأمس فوراً • لا أستطيع
أن أصوّر لكم الأثر الأليم الذى أحدثه هذا النبأ فى نفسه • فقد تشوه
وجهه وتخدّد ، وتشنجت شفتاه بابتسامة غضب ، واصفر أخيراً ، ثم

خفض عينيه وغاص فى تفكير حالم عميق • لقد رايت رؤيه واضحه ان
رفض انا اندريفنا كان قد جرح كبرياءه جرحاً بالغاً عميقاً • ولعله وهو
فيما هو فيه من حالة مرضيه قد غلا وأسرف الآن فى تصور الدور المضحك
الذليل الذى قام به امس امام تلك الفتاة التى كان يتوقع موافقتها بثقه
تامة كما طهر ذلك واضحاً • ولعله اخيراً قد تصور الدناءة التى ارتكبها
فى حق ليزا ، وهى دناءة لم تمد عليه بطائل ! انه لأمر طريف سائق أن
يرى المرء ما هى آراء أبناء المجتمع الراقى بعضهم فى بعض ، وعلى أى
أساس يحترم بعضهم بعضاً : لقد كان فى امكان هذا الأمير مع ذلك أن
يفترض أن أنا اندريفنا على علم بالصلة التى بينه وبين ليزا ، أختها
مهما يكن من أمره ، وأنها ان كانت تجهل هذه الصلة الآن فستعرفها حتماً
فى يوم من الأيام • ولكنه رغم ذلك كان لا « يخالجه شك فى قراره » !

وحَدِّقْ الى فجأة بعينين فيهما استعلاء ووقاحة وقال :

— فكيف أمكنت أن تظن أنني أرضى ، « أنا » أن أذهب الى الأمير
يقولوا ايضاً فونفش أسأله مالا بعد نبأ كهذا النبأ ؟ أذهب الى خطيب الخطيبة
التي رفضتني ؟ ان هذا يكون استجداء ، وذللاً ، وعبودية ! لا ، لا ، ضاع
الآن كل نبيء • اذا كانت معونة هذا الشيخ هى آخر أمل ، فليهلك هذا
الأمل أيضاً !

كنت فى قرارة نفسى موافقاً على ما يقول • ولكن كان ينبغى على
المرء مع ذلك أن ينظر الى الأمور نظرة أوسع : هل الأمير المعجوز رجل
حقاً ؟ هل هو خطيب حقاً ؟ وتحركت فى رأسى أفكار كثيرة • وكنت
قد قررت أن أزوره فى الغد • فحاولت ، بانتظار ذلك ، أن أخفف وقع
النبأ فى نفس الأمير المسكين ، وأن أحضه على النوم قائلاً له : « سوف

تقضى ليلة مريحة ، فتكون أفكارك غداً أوضح • لسوف ترى ذلك ! • •
فصافحتني بحرارة ، ولكن دون أن يقبلني • وقطعت له على نفسي عهداً
لأجبتنَّ إليه مساءً غدٍ وقلت له : « سوف نتحدث ، سوف نتحدث ، هناك
كلام كثير سوف نقوله » • فحين سمع هذه الكلمات أملت بشفتيه ابتسامة
مشثومة •

الفصل الثامن

١



طوال تلك الليلة أحلم بالروليت والقمار والذهب
وسداد الديون • كنت كالجالس الى مائدة القمار
احسب مبالغ الخط واحتمالات الريح ، فقضيت
ليلتي كلها فريسة كابوس ساحق • سأقول
الحقيقة : اننى طوال النهار السابق ، رغم جميع تأثيراتى الحارقة ، كنت
أتذكر من حين الى حين ، الريح الذى جنينه بالقمار عند زرتشتشيكوف •
صحيح أننى كنت أطرده الفكرة ، ولكننى لم أستطع أن أدفع عن نفسى
الشعور وال عاطفة ، فكنت أرتعش كلما وافتنى ذكرى • كان هذا الريح
قد ملك على نفسى • أترانى خلقت مقامراً ؟ لاشك على كل حال فى اننى
أملك صفات المقامر • فحتى فى هذا اليوم ، وأنا أكتب هذه الأسطر ،
أحب أحياناً أن أفكر فى القمار ! وربما اتفق لى أن أقضى ساعات كاملة
أجرب فى الصمت حسابات قمار ، وأتخيلنى فى الحلم لاعباً ورايحاً • نعم ،
اننى أتصف « بصفات » كثيرة التنوع ، وليست نفسى هادئة مطمئنة •

لقد كنت أنتوى الذهاب الى ستيلكوف فى الساعة العاشرة سيراً على
القدمين • فصرفت مائتى منذ جاء • وفيما كنت أحسو قهوتى حاولت أن
أنعم النظر فى الأمور • فلاحظت أننى مسرور ، فلما انكفأت الى نفسى
لحظة أدركت أن سرورى انما يرجع خاصة الى « أننى سأكون هذا اليوم

فى منزل الامير نيقولا ايفانوفتش ، • ولكن ذلك اليوم من حياتى كان يوماً مشئوماً ، ولم يكن فى الحسبان ، وقد ابتداءً بمفاجأة •

فى الساعة العاشرة تماماً ، رأيت بابى يفتح على مصراعيه ، ورأيت تاتيانا بافلوفنا تدخل على كنيهوب الريح • كان يمكن أن أتوقع كل شيء • الا هذه الزيارة ، فوثبت مذعوراً • كان وجهها وحشياً ، وكانت حركاتها و اشاراتها مشوشة ، وأغلب الظن أنها ما كانت لتستطيع أن تجيبني لو سألتها ما الذى جاء بها الى هذا المجرى المبالغ • ويجب أن أترجح سلفاً فأقول : انها قد تلتقت منذ هنيهة نبأً خارقاً ساحقاً ، وكانت لا تزال واقعة تحت تأثير الانفصال الأول ، وكان النبأ يمسنى أنا أيضاً • على أنها لم تقض عندى الا نصف دقيقة ، أو دقيقة ان شئت ، ولكن من المحقق أنها لم تزد على الدقيقة • وقد بادرتنى فوراً بقولها وهى تتسمر قدامى مائلةً الى أمام :

— آ ••• هانت ذا اذن ! هانت ذا أيها الوغد ؟ ما هذا الذى فعلت ؟
ماذا ، ألا تدرى ؟ انه يشرب قهوته ! آه ! يا نرنار ! يا طاحونة حكي !
يا ماضع ورق ! ••• يجب أن تجلد بالسوط ، أن تجلد ، أن تجلد ، •••

— تاتيانا بافلوفنا ، ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ ماما ؟

فقلت مهددة متوعدة وهى توتلى هاربة :

— ستعرف !

وغابت • وانطلقت ألاحقها طبعاً ، ولكن فكرة طائرة أوقفتنى ، بل قل ان ما أوقفتنى ليس فكرة ، وانما هو قلق غامض : لقد أحسست أن الشيء الأساسى فى صراخها انما هو قولها « يا ماضع ورق » • وما كان لى أن أكتشف سبباً بنفسى طبعاً ، ولكننى خرجت مسرعاً لأفرغ من ستيلكوف بأقصى سرعة ، ثم أذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، قائلاً لنفسى بغيرى : « هنالك مفتاح الأمور كلها » •

فسرعان ما عرفت أن ستيلكوف كان عالماً بقصة آنا أندرييفنا كلها ، بل كان يعرف تفاصيلها . نىء غريب . لن أروى الآن حديثه ولن أصف اشاراته وحركاته ، وحسبى أن أذكر أنتى رأيته يتدفق افتتاً وحماسة « لا لهذه المأثرة من قيمة فنية » . قال صائحاً :

- يالها من امرأة شجاعة ! هذه امرأة شجاعة ! لا ، لا ، انها ليست مثلنا . نحن نبقى فى مكاننا ساكنين ، أما هى فقد أرادت أن تشرب الماء من منبعه الحق ، وقد شربته من منبعه الحق . هذه . . . هذه تمثال قديم لينيرفا ، لكنه تمثال يتحرك ويسير ويرتدى فساتين حديثة !

ورجوته أن ينتقل الى الموضوع . فاذا الأمر كله ، كما أدركت ذلك من قبل ، هو ضرورة اقناع الأمير بأن يذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ليسأله المعونة والنجدة ، « والا فان العاقبة ستكون وخيمة عليه ، وخيمة جداً ، وليس الذنب ذنبى . صحيح أم لا ؟ » .

كان يحددنى الى صينى ، ولكنه كان فى أغلب الظن لا يفترض أنتى أعرف شيئاً يزيد على ما عرفته البارحة . ولم يكن فى امكانه أن يفترض ذلك : فأننا لم ادع له طعماً ، لا بالتصريح ولا بالتلميح ، أن يعرف أنتى على علم بأمر « الأسهم » . ولم يطل الحديث بيننا : فقد أسرع يعدنى ، على الفور تقريباً ، بمبلغ من المال ، قائلاً انه « مبلغ كبير ، مبلغ كبير ، وانما المهم أن أقنع الأمير بطلب المعونة ، وان الأمر مستعجل ، مستعجل جداً ، وان كل شىء يتوقف على السرعة ، فالأمر مستعجل الى حد رهيب ! » .

لم أثنأ أن أدخل فى مناقشات معه كما فعلت البارحة ، وهممت أن أنصرف ، قائلاً له عرضاً « أنتى سأحاول » . ولكنه أدهشنى على حين فجأة ادهاشاً لا سبيل الى وصفه : كنت قد اتجهت الى الباب ، فاذا هو

يحضنتى بغته فى رقه وحنان ، ويأخذ يقول لى أشياء تستعصى على الفهم
الى اقصى حد .

سوف أهمل التفاصيل ، فلا أذكر سلسلة كلامه كلها ، حتى
لا أتمب القارىء . • ولكن اليك فحوى ما قاله : لقد عرض علىّ « أن أصله
بالسيد درجاتشيف ، ما دمت أتردد على ذلك المنزل ، » .

أصخت اليه بسمعى ، محاولاً بكل قواى ألا أفضح نفسى بأية
إشارة . وأجبتة على الفور قائلاً اننى لا أعرف أحداً هناك ، واننى ان
ذهبت الى ذلك المنزل مرة فقد حدث ذلك عرضاً ومصادفة . قال :

— ولكن ما دمت قد « قبلت » مرة ، ففى وسعك أن تذهب مرة
أخرى ، أليس هذا صحيحاً ؟

فسألته صراحةً ، ولكن ببرودة شديدة ، فإم يعنيه هذا • وحتى
هذا اليوم لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يلقى المرء هذه السداجة
كلها لدى أناس يلاحظ حين يراهم أنهم ليسوا أغنياء ، بل يلاحظ أيضاً
أنهم « عمليون » ، كما وصفه بذلك فاسين . ولقد شرح لى بصراحة تامة أن
شبهاته توحى اليه بأن شيئاً يحدث عند درجاتشيف ، شيئاً لا بد أنه محرم
قطعا ، محرم أقصى التحريم فيكفى أن يلاحظ وأن يدرس حتى يستطيع
أن يجنى من ذلك نفعاً . قال لى ذلك وغمز بعينه اليسرى وهو يبتسم .

لم أجهه بشىء يؤكد أننى سألبى رغبته ، ولكننى تظاهرت بالتفكير ،
ووعدته بأن « أفكر فى الأمر » ، ثم سارعت الى الانصراف . ان الأمور
تتعقد • وطرت الى فاسين ، فوجدته فى بيته .

— ها ! ••• أنت أيضاً !

انه منذ رآنى استقبلنى بهذه الجملة الملفزة • ولكننى لم أتلبث على

جملته ، بل انتقلت الى الموضوع رأساً ، وقصصت عليه القصة ، فكان واضحاً أنه دهش ولكنه لم يفقد هدوءه البتة ، وساءلنى فى جميع التفاصيل • وقال :

- يجوز جداً أنك لم تحسن الفهم !

- بل فهمت أحسن الفهم • لقد كان المعنى واضحاً وضوحاً مطلقاً •

فأضاف يقول بصدق :

- على كل حال ، أشكرك أجزل الشكر • نعم حقاً ، اذا كان كل شئ قد جرى على هذا النحو ، فمعنى ذلك أنه يفترض أنك لن تستطيع أن تصمد لانغراء مبلغ من المال •

- انه عدا ذلك يعرف حالى ، فلقد كنت أقامر كثيراً ، وكانت

سيرنى سيئة يا فاسين •

- سمعت عن هذا •

قلت :

- وما يحيرنى أكثر من أى شئ آخر هو أنه يعلم أنك أنت أيضاً

تردد الى ذلك المنزل •

فقال فاسين ببساطة كبيرة :

- هو يعلم علماً تاماً أنتى لاصلة لى بالأمر • وهؤلاء الشبان جميعاً

انما هم ثرثارون لا أكثر • وانك لتتذكر هذا أكثر من أى انسان آخر على كل حال •

بدا لى انه يضممر نوعاً من سوء الظن بى ، أو نوعاً من الحذر منى •

قال :

- انتى أشكرك أجزل الشكر على كل حال •

وحاولت أن أسأله مزيداً من الاستئلة فقلت :

- سمعت أن أمور السيد ستيلكوف لا تجرى مجرى حسناً ، سمعت

على الأقل كلاماً عن أسهم ...

- أية أسهم تعنى ؟

لقد تمعدت أن أذكر الأسهم ، ولكننى لم أفعل ذلك من أجل أن
أكتشف له عن سر الأمير . كل ما أردته هو أن ألمح الى الأسهم لأتبين
من النظر الى وجهه والى عينيه هل يعلم عن هذا الامر شيئاً . وقد وصلت
الى هدفى : استطعت أن أدرك ، من حركة سريعة خفيفة فى وجهه ، أنه
ربما كان على علم بشئ . ولم أجب عن سؤاله : « أية أسهم ؟ » ، بل
صمت . ومن الغريب أنه لم يلمح .

سألنى باهتمام :

- كيف حال الزبائت ماكاروفنا ؟

- هى بخير . ان أختى تكن لك الاحترام دائماً ...

فسطعت عيناه سروراً ورضا : كنت قد أدركت منذ مدة طويلة أنه

يحمل لأختى عاطفة ما ...

وقال لى فجأة :

- زارنى فى هذه الأيام الأخيرة ، الأمير مرجى بتروفتش .

فهمتت أسأله :

- متى ؟

- منذ أربعة أيام .

- لا أمس ؟

- لا ، لا أمس .

وألقى على نظرة مستفهمة . و اردف يقول :

- قد أحدثك في المستقبل عن هذه الزيارة حديثاً فيه مزيد من التفصيل ، أما الآن فأعتقد أن من الضروري أن أتبهك (قال فاسين ذلك بلهجة يلفها السر) الى أنتى لاحظت أن حالته النفسية ... بل حالته العقلية ... غير طبيعية . وقد زارنى شخص آخر أيضاً ..

قال ذلك وهو يتسم فجأة ، ثم تابع كلامه :

- زارنى شخص آخر منذ هنيهة قصيرة ، قبل وصولك بلحظة ، وقد اضطرت أن استخلص أن حالة الزائر الآخر ليست طبيعية تماماً هى أيضاً .

- هل جاءك الأمير منذ قليل ؟

- لا ، لا الأمير ، لا أتكلم الآن عن الأمير . لقد زارنى ، منذ برهة ، آندره بتروفتش فرسيلوف ، و .. ألا تعرف شيئاً ؟ ألم يحدث له شيء ؟

أسرعت أسأله :

- ربما حدث له شيء ، ولكن ماذا جرى هنا ، عندك ؟

- يجب على أن أكنم السر طبعاً ... ما أعجب هذا الحديث بيننا !
ان مداره كله على أسرار ...

قال فاسين ذلك وابتسم مرة أخرى . ثم أردف :

- على أن آندره بتروفتش لم يطلب منى كتمان السر . ثم انك ابنه ؟ ولعلمى بما تحمل له من عواطف ، يخيل الى أنتى أحسن صنعاً

إذا أنا نبهتك فى هذه المرة • تصور أنه ألقى علىّ هذا السؤال : « اذا اتفق لى فى يوم قريب ، قريب جداً ، أن وجدتنى مضطراً الى مبارزة ، فهل تقبل أن تكون شاهدى ؟ » • ولقد رفضت ذلك رفضاً قاطعاً بطبيعة الحال •

دهشت دهشة شديدة • ان هذا النبأ هو أشد الأنباء اقلاقاً • لقد حدث شىء • لا يد أن حادثاً ما زلت أجهله قد وقع ! وتذكرت فجأة أن فرسيلوف قال لى أمس : « لست أنا الذى سأجىء اليك ، بل أنت الذى ستهرع الىّ » • وطرت الى الأمير نيقولا ايفانوفتش وأنا أوجس بمزيد من القسوة أن مفتاح السر هناك • وقد شكرنى فاسين مرةً أخرى حين فارقتة •

كان الأمير المعجوز جالساً أمام مدفأته ، مدثراً ساقيه بغطاء . وقد استقبلني بنظرة فيها شيء من الاستفهام ، كأنه دهش من زيارتي ، مع أنه كان يرسل من يدعوني إليه كل يوم تقريباً . على أنه قد حيّاني بلطف ، لكنه أجاب عن أسئلتى الأولى بنوع من الاحتقار وقد لاح في وجهه ذهول رهيب . وكان في بعض اللحظات يبدو مفكراً ، ويحدّق إلى نظرة ثابتة ، كأنه كان قد نسي شيئاً يتعلق بي ثم اذا هو يتذكره الآن . فقلت له بصراحة اننى أعرف كل شيء ، وانى سعيد بما حدث . فسرعان ما بانث على شفتيه ابتسامة فيها مودة وسرعان ما انتعش وزال تحفظه واحتفى حذره ، حتى لكأنه نسيهما ، بل لا شك فى أنه نسيهما . قال :

- صديقى العزيز ، كنت أعلم حق العلم أنك ستكون أول من يأتى ، حتى لقد سألت نفسى أمس : « من ذا الذى سيتهج ؟ » ثم أجبت على هذا السؤال قائلاً : « هو الذى سيتهج » . نعم ، لا أحد غيرك ، حتماً . ولكن لا ضير . ان السنة التاس ألسنة سوء ولكن لا قيمة لهذا ! . . . « يا بنى العزيز » (بالفرنسية) ، ذلك كله سام كل السمو ، لذيذ كل اللذنة . ولكنك تعرفها معرفة جيدة ، أنت . ثم ان أنا أندريفنا ترى فيك أحسن رأى . هى ذات وجه قاس أسر أخاذ ، وجه صورة انجليزية . انها أحلى الصور الانجليزية قاطبة . لقد كنت منذ سنتين أملك مجموعة من هذه الصور . . . ان هذه النية كانت فى نفسى دائماً ، دائماً . وانما يدهشنى أنتى لم أفكر فى هذا الأمر أبداً .

- ولكنك أحببت أنا أندريفنا دائماً ، وقدوتها دائماً ، طوال المدة
التي أذكرها .

- يا صديقي ، انسا لا نريد أن نلحق ضرراً بأحد . ان الحياة مع
أصدقاء وأقرباء وأشخاص أحبة هي الجنة . نحن جميعاً شعراء
الخلاصه : هذا معروف منذ العصور السابقة على التاريخ . اسمع ، سوف
نقضى الصيف أولاً بمدينة سودن ، ثم بمدينة بادجاستاين ! أين ذهبت ؟
كنت أنتظرك . ما أكثر الأحداث التي مرت منذ ذلك الوقت ، ما أكثرها ،
اليس كذلك ؟ وانما المhzن أنتى لست هادئاً : فمتى خلوت الى نفسى
شعرت بأننى قلق . هذا هو السبب فى أنتى يجب ألا أبهى وحيداً ،
اليس كذلك ؟ هذا واضح وضوح النهار . آه يا صديقى ، انها لم تقل
الا كلمتين ولكن كان كلامها أروع قصيدة . ولكن أنت
أخوها تقريباً ، أليس كذلك ؟ يا عزيزى ، ليس غريباً أنتى أحببتك
ذلك الحب كله ! كنت أتوقع كل هذا ، أحلف لك . ولقد قبّلت يدها ،
وبكيت .

واستل مندبله من جيبه ، كأنه يهم أن يبكى من جديد . كان متأثراً
جداً ، بل أظن أنه كان فى حالة من تلك الحالات « المحزنة » التي أتبع لى
أن أراها فيه مدة معرفتى به . انه فى العادة ، بل فى جميع الأوقات
تقريباً ، يكون أكثر نضارة وقوة مما هو الآن . وتمتم يقول :

- سوف أغفر لهم جميعاً يا صديقى . أحب أن أغفر لجميع
الناس ، وقد صرت منذ مدة طويلة لا أحقد على أحد . الفن ، الشعر
فى الحياة ، مساعدة البؤساء ، وهى ، ذلك هو جمال التوراة . ما أروعها
من انسان ، هه ؟ « أناشيد سليمان . . . لا . . . ليس هو سليمان ، بل هو
داود الذى أضجع فتاة جميلة فى سريره طلباً للدفع فى شيخوخته .
أوه . . . داود ، سليمان » ، هذا كله يدور فى رأسى دوران اعصار

حقاً . « ان تلك الحسناء ، فى شيخوخه داود ، لهى قصيدة » ، أما بول
دوكوك فليس له ذوق ولا احساس بالتوازن ، رغم أنه صاحب موهبة . .
ان كاترين نيقولايمنا تبسّم . ولقد قلت لها اننا لن نضايقها . اننا بدأنا
روايتنا ، فليسمح لنا بأن تمها . سّمه حلماً ان شئت ، ولكن فليتركوا
لنا حلمنا ولا ينتزعوه منا .

- كيف تقول انه حلم يا أمير ؟

- كيف أقول انه حلم ؟ فليعدوه حلماً ، ولكن فليتركوا لنا أن
نموت مع هذا الحلم .

- آه . . . أمير . . . لماذا الموت ؟ ان الحياة هى الواجبة الآن !

- وماذا كنت أقول ؟ لست أقول غير هذا ! حقاً اننى لا أدرى لماذا
الحياة قصيرة هذا القصر كله . اغلب الظن أن الناية من قصرها هى
ألا تكون مملة ، ذلك أن الحياة هى أيضاً عمل فنى من أعمال الخالق
الأعظم صاغها صياغة نهائية كاملة كقصيدة من قصائد بوشكين . ان الايجاز
أول شروط الفن . ولكن الذين لا يشعرون بالملل يجب أن يتاح لهم أن
يعيشوا مدة أطول .

- قل لى يا أمير ، هل أذيع النبأ فى الناس ؟

- لا ، لا يا عزيزى ، لم يُذع تماماً . انه محدود بحدود
الأسرة ، بحدود الأسرة وحدها حتى الآن . لم أبح بما فى نفسى بوحاً
كاملاً الا لكاترين نيقولايمنا ، لأننى أعد نفسى آثماً فى حقها . ذلك أن
كاترين نيقولايمنا ملاك ، ملاك .

- نعم ، نعم .

- نعم ؟ أنت أيضاً تقول نعم ؟ كنت أظنك عدواً لها . آه . . .

بالمناسبة : لقد طلبت منى ألا أستقبلك بعد اليوم • تصبور أنتى نسيت ذلك منذ دخلت على •

انتفضت وسألته :

- ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا طلبت منك ذلك ؟ ومتى ؟

(لم يكذبنى احساسى • ان شيئاً من هذا النوع هو ما أوجسته منذ زيارة تاتيانا بأفلوفنا !) •

- أمس يا صديقى ، أمس • لا أدرى كيف استطعت أن تدخل • ذلك لأن التدابير قد اتخذت لمنع من الدخول • كيف دخلت ؟

- ببساطة •

- هذا هو الأرجح • فلو أنك دخلت بالمكر والحيلة لأوقفوك حتماً ، ولكنك دخلت ببساطة فتركوا لك أن تدخل • البساطة يا عزيزى ، البساطة هى أمكر المكر •

- لست أفهم شيئاً • هل قررت اذن ، أنت أيضا ، ألا تستقبلنى بعد اليوم ؟

- لا يا صديقى • لقد أجبت بأن هذا ليس شأنى ••• أفصد أنتى وافقت موافقة تامة • ثق يا بنى العزيز أنتى أحبك حباً كثيراً • ولكن كاترين يقولنا أيضاً طلبت ذلك بكثير من الالحاح • آه ••• هى ذى !

فى تلك اللحظة ظهرت كاترين يقولنا على العتبة • كانت مرتدية ثياب الخروج ، وقد جاءت الى أبيها لتقبله على عادتها دائماً من قبل • فلما رأته توقفت واضطربت ، ثم استدارت وخرجت • فصاح الأمير مذهولاً منفعلاً أشد الانفعال :

- كذلك هى !

فهمت أقول :

- هو سوء تفاهم لا أكثر • دقيقه واحدة يا أمير ••• سوف •••

سوف أرجع فوراً يا أمير !

وركضت وراء كاترين نيقولايفنا •

ان كل ما حدث بعد ذلك قد حدث بسرعته بلغت من الشدة اننى لم أستطع التفكير ، بل لم أستطع أن أهىء سلوكى أقلّ تهيئه • فلو اننى استطعت أهىء سلوكى لتصرفت تصرفاً آخر حتما • ولكننى كنت قد طاش صوابى كصبى صغير • هرعت الى حجراتها ، غير أن الخادم قال لى ان كاترين نيقولايفنا قد خرجت فى هذه اللحظة نفسها وأنها تركب عربتها • فاندفعت أهبط السلم الكبير منكس الرأس • فرأيت كاترين نيقولايفنا تنزل على السلم ، مرتدية معطفها ، ورأيت ضابطاً فارغ القد حسن القامة بزة عسكرية من غير معطف يسير الى جانبها بل قل يقودها متقلداً سيفه الذى يتدلى على جنبه • وكان خادم يحمل له معطفه وراءه • هذا هو البارون • انه كولونيل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، نموذج الضابط الأنيق الجاف ، له وجه بيضوى كثيراً ، وله شاربان أحمران ، بل ان حاجبيه أحمران أيضاً • ليس وجهه جميلاً ألبتة ، ولكن هذا الوجه يعبر عن الجزم والتحدى • اننى أصفه الآن على عجل ، كما رأيته فى تلك اللحظة • لم أكن قد اقيته حتى ذلك الحين • وركضت وراءها بغير قبعة وبغير معطف • فأبصرتنى كاترين نيقولايفنا قبل صاحبها وهمست فى أذنه بشىء •• فالتفت ، وسرعان ما أوما للخادم والبواب السوسرى بإشارة من رأسه • فتقدم الخادم منى خطوة أمام الباب ، ولكننى دفعته بيدي ووثبت الى درج الباب فى اثرهما • أجلس بيورنح صاحبته فى العربة • وصحت أنا قائلاً بغباء (كما يفعل أبله ، كما يفعل أبله ! آه ! اننى أتذكر كل شىء • كنت بغير قبعة) :

– كاترين نيقولايفنا ! كاترين نيقولايفنا !

فالتفت بيورنيج مرةً أخرى غاضباً ، وصاح يعول للخدام كلمه او كلمتين لم اميزهما • واحسست اننى امسكت من الكوع • وانطلقت العربيه فى تلك اللحظه • فصرخت صرخة واندفعت اجرى وراء العربيه • كانت كاترين نيقولايفنا تنظر من نافذة العربيه – رايت انا ذلك – وكانت تبدو قلقة قلقاً شديداً • ولكننى بحركتى السريعه حين انطلقت أعدو وراء العربيه قد صدمت بيورنيج صدمة قوية دون أن أفكر فى هذا البتة ، وأظن أننى دست على رجله أيضاً • فصرخ صرخة صغيرة ، وصرّ بأسنانه ، وأمسك كتنى بيد قوية ودفعتى دفعة بلغت من شدة الغضب والحنق أننى تقهقرت ثلاث خطوات • وفى تلك اللحظه مُدَّ اليه معطفه ، فارتداه ، وركب عربته الزلاجة ، ومن هناك صرخ صرخة تهديد أخرى وهو يشير للخدم وللبناب الى • فأمسكوا بى ، وثبتونى فى مكانى ، وألقى الى أحد الخدم معطفى ، ومُدَّ الى خادم ثان قبعتى ؛ لست أتذكر الآن ماذا قالوا لى : لقد كانوا يتكلمون ، وكنت أصغى اليهم دون أن أفهم شيئاً • ولكننى تركتهم فى مكانهم فجأة ، ووليت هارباً •

ظللت أركض دون أن أميز شيئاً ، وأصدم المارة أثناء ركضى
 يمنة ويسرة ، حتى وصلت أخيراً الى بيت تاتيانا بافلوفنا ، ولم يخطر
 ببالى فى الطريق حتى أن أستقل عربة • لقد دفعنى بيورنيج بحضورها
 « هى » ! صحيح أننى دست على قدمه فدفعنى عنه بغريزته كما يفعل شخص
 ديس على قدمه فانتزع ثفن من أصبعه (يجوز فعلاً أن أكون قد سحقت
 له ثفن فى رجله !) • ولكنها رأته ، رأته الخدم يقبضون على • هذا كله
 حدث بحضورها ، أمامها !

حين داهمت تاتيانا بافلوفنا لم أستطع فى أول الأمر أن أنطق بكلمة •
 كانت فكى السفلى ترتعش من الحمى • لقد اجتاحتنى حمى فعلاً • وكنت
 عدا ذلك أبكى ••• فالى هذا الحد كنت أشعر بالهوان والمذلة !

— هه ! طردوك اذن ؟ أحسنو صنعا ! أحسنوا صنعا !

كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا • وتهاويت على الديوان دون أن أقول
 شيئاً ، ونظرت اليها •

قلت وهى تحددق الى :

— ولكن ماذا أصابه ؟ خذ ، خذ هذه الكأس ، ابلع قليلاً من
 ماء ، اشرب ! وقل لى ما الحماقة الجديدة التى ارتكبتها •

تمتت قائلاً اننى طردت ، وان بيورنيج دفعنى فى الشارع •

- هل يمكنك حالتك الآن من أن تفهم شيئاً ؟ اقرأ اذن ، ولنشرح
فؤادك •

قالت تاتيانا بأفلوبنا ذلك وتناولت من على المائدة ورفه ومدتها الى
وتسمرت أمامي • فسرعان ما تعرفت خط فرسيلوف • لم يكن ثمة
الا أسطر قليلة : انها رسالة الى كاترين نيقولايفنا • ارتعشت • ولكن
القدرة على الفهم لم تلبث أن وافقت أقوى ما تكون • واليك نص تلك
الرسالة الفظيعة ، العاصحة ، المستحيلة ، الاجرامية ، اليكم نصها
كلمة كلمة :

الى السيدة كاترين نيقولايفنا

« رغم علمي بما انت عليه من فساد الخلق سواء اكان هذا الفساد طبيعة
فيك ام كان فنا تحديته ، فلقد كنت الصور انك تستطعين ان
تسيطرى على اهوائك ، وانك فى اقل تقدير لن تلحقى اذى باطفال •
ولكنك لم تتورعى حتى عن هذا • اننى ابلغك ان الوليقة التى تعرفين
لم تحرق على لهب شمعة حتما ، ولم تكن عند كمرات فى يوم من الايام ،
فان تجنى نفسها مما تلعبين • فلا تفسدى اخلاق شاب فى غير طائل •
كفى اذالك عنه . فانه لا يزال قاصرا ! بل انه ليكاد ان يكون طفلا لا يبلغ
بعد كمال نموه العقل والجسمى • فيم يفيدك ؟ اننى اهتم بامرء ،
ولذلك جازت فكتبت اليك هذه الكلمات ، رغم اننى لا ارجو لها اى
نجاح • ويشرفنى ان ابلغك انى ابث بنسخة من هذه الرسالة الى
البارون بيورنيج • »

اصفر وجهى أثناء القراءة ، ثم انفجرت فجأة واختلجت شفقتاى
استياء وسخطاً • وصحت أقول غاضباً :

- اياى يقصد ؟ هذا بمناسبة ما بحت له به أمس الأول !

- ذلك لأنك بحت له به !

واتزعت تاتيانا الرسالة من يدي •

- ولكن ••• ليس هذا ما كنت أقوله له ! آه ••• رباہ ! ما عسى

يكون ظنها بى الآن ؟ ولكن هل هو مجنون ؟ انه مجنون . لقد رأيته
أمس . متى بعث الرسالة ؟

- أمس نهاراً . وقد وصلت فى المساء ، فأعطيها اليوم بنفسها .
- ولكننى رأيته أمس . انه مجنون ! لا يمكن أن يكتب فرسيلوف
هذا . هذا عمل رجل مجنون ! من ذا الذى يكتب كلاماً كهذا الكلام الى
امرأة ؟

- يكتبه مجانين من نوعه حين تجعلهم الغيرة ويجعلهم الغضب
صماً عمياً ويتحول الدم فى عروقهم الى زاج . انك لم تكن تعرفه بعد !
ولكنه سيدفع الثمن غالباً . لسوف يسحق سحقاً . انه يضع نفسه بنفسه
تحت الساطور . ألا ان من الأفضل له أن يذهب ذات ليلة الى خط نيقولا ،
فيضع رأسه فوق السكة الحديدية فتقطعه له عجلات القطار قطعاً مناسباً ،
مادام يستثقل حملة ! وما الذى حملك على التحدث اليه ؟ ما كانت حاجتك
الى مذاكرته ؟ أردت أن تزهر بنفسك ؟

- يا له من كره ! ما أشد هذا بغض ! كذلك هتفت وأنا ألطم
رأسى يدي . وتابعت أسأله :

- ولماذا ؟ لماذا ؟ يسى . هذه الاساءة الى امرأة ؟ ماذا صنعت ؟ أى ذنب
جنت ؟ ما العلاقات التى كانت بينهما حتى يكتب لها رسائل كهذه ؟
- كره ! بغض !

هكذا كررت تاتيانا بافلوفنا وهى تقلد لهجتى وحركاتى بسخرية
حائقة .

وازدحم الدم فى وجهى من جديد : بدا لى فجأة اننى أفهم شيئاً
جديداً كل الجدة . نظرت الى تاتيانا بافلوفنا نظرة مستفهمة ، وأدعتها

كل ما أملك من قوة • فرعقت تاتيانا بأفلوفا وهي تدبر لى ظهرها وتهدّنى
بيدها ، قائلة :

- اذهب من هنا ! كفانى ما لقيت منكم جميعاً ! حسبى ! فى وسعكم
أن تضيوا كلكم ••• الوحيدة التى ما أزال أنفق عليها هى أمك •
ركضت الى فرميلوف طبعاً • ولكن ما أفجحه من عذر ! ما أفجحه
من عذر !

لم يكن فرسيلوف وحيداً • يجب أن أذكر سلفاً انه بعد أن أرسل تلك الرسالة الى كاترين نيقولايفنا أمس ، وأرسل نسخة منها (لا يعلم الا الله لماذا !) الى البارون بيورنج ، كان ينتظر أثناء النهار « عواقب » الخطوة التي قام بها ، فلذلك اتخذ بعض التدابير : فنقل ماما وليزا منذ الصباح الى فوق ، الى « التسابوت » (وقد علمت فيما بعد أن ماما كانت قد مرضت فى الصباح عند عودتها فرقدت فى سريرها) ، كما عنى بنظافة الغرف وترتيبها عناية كبيرة ، ولاسيما « الصالون » ، وما وافت الساعة الثانية بعد الظهر فعلاً ، حتى جاء الى الدار بارون اسمه « ر • • » ، وهو عسكري برتبة كولونيل ، فى نحو الأربعين من عمره ، ألمائى الأصل ، طويل القامة ، جاف الهيئة ، قوى الجسم جداً فيما يبدو ، أحمر البشرة هو أيضاً ، مثل بيورنج ، لكنه أصلح قليلاً • انه واحد من البارونات « ر • • » الكثير عددهم فى الجيش الروسى ، وهم جميعاً أناس شديدو التأذى فى كل ما يمس الشرف ، ليس لهم ثراء ، وانما هم يعيشون من رواتبهم ضباطاً كباراً ومقاتلين كباراً • لم أشهد بداية الحديث الذى جرى بينهما • كانا كلاهما فى أوج النشاط والاندفاع • وكيف لا يكونان كذلك ؟ كان فرسيلوف جالساً على الديوان أمام الطاولة ، وكان البارون جالساً فى مقعد الى جانب • وكان فرسيلوف شاحب اللون ، ولكنه يتكلم برصانة ، ويزن أقواله ، وكان البارون يرفع صوته ، ويهم أن يحرك يديه باشارات عنيفة ، ولكنه يكبح جماحه • وكانت نظرته قاسية

فيها تعال بل فيها احتقار ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من دهشة • فحين
رأني قطب حاجيه ، ولكن فرسيلوف كاد يقتبط لرؤيتي • وقال يحييني :
- يومك سعيد يا عزيزي •

وأضاف يخاطب البارون :

- يا بارون ، هذا هو الشاب الذي عينته في رسالتي • صدق أنه
لن يضايقنا وجوده ، حتى لقد يفيدنا •

رمضى البارون بنظرة شذراء فيها احتقار • وأردف فرسيلوف
قائلاً لي :

- يا عزيزي ، يسعدني أنك جئت • تلبث في ركن ، أرجوك ،
إلى أن تنتهي •

ثم قال للبارون :

- اطمئن يا بارون ، سيبقى في ركن •••

لم يهمني ذلك • كنت قد عزمتم أمري • وكان كل شيء عدا هذا
يدهشني ويذهلني • وجلست في ركن لا أنطق بكلمة ، ولبث هنالك
لا تطرف لي عين ، ولا أتحرك ، إلى آخر الحديث •

قال فرسيلوف مقطوعاً جميع الكلمات تقطيعاً قوياً :

- أكرر لك مرة أخرى يا بارون انني أعد كاترين نيقولايفنا
آخماكوف ، التي كتبت إليها تلك الرسالة البديهة الحسيسة ، أبهل المخلوقات
طراً ، بل أعدها ذروة الفضائل الكاملة !

فزأر البارون يقول :

- ان هذا الدحض لأقوالك ، كما قلت لك من قبل ، أشبه
بتأكيد لها • فتعابيك تخلو من الاحترام خلواً واضحاً •

- ان الأفضل مع ذلك أن تفهم أقوالى بالمعنى الذى يدل عليه نصها
حرفاً حرفاً • اننى أصاب أحياناً بنوبات تستبد بى وتسيطر علىّ ، حتى
اننى مضطر الى معالجة نفسى ومداواة مرضى ، وقد اتفق لى فى أثناء نوبة
من تلك النوبات أن •••

- هذه الايضاحات والاعتذار لا يمكن قبولها • أكرر لك مرة أخرى
أنك لا تزال تصر على ضلالك اصراراً عنيداً ولعلك تتعمد أن تتخذ
نفسك • لقد نبهتكَ منذ البداية الى أن المسألة المتعلقة بتلك السيدة ، أعنى
رسالتك الى الجنرالة آخماكوفًا ، يجب اقصاؤها من الحديث الذى نحن
بصدده ، ولكنك لا تزال تعود الى تلك المسألة • لقد رجائى البارون
بيورنج وكلفنى أن أوضح ما يتعلق به هو وحده ، أعنى ما اجترحت من
وقاحة اذ بعثت اليه تلك « النسخة » من الرسالة ، ثم الحاشية التى أضفتها
قائلًا انك « على استعداد لتحمل المسئولية أمام أى انسان ، وبأية
طريقة » •

- ولكن يبدو لى أن هذه النقطة الأخيرة جلية لاحتجاج الى مزيد
من الايضاح •

- أفهم ، أعلم • انك تتهرب حتى من الاعتذار ، وتظل تؤكد
أنك « مستعد لتحمل المسئولية أمام أى انسان وبأية طريقة » • ولكن
سيكون معنى ذلك أن تتخلص من الأمر بأبخس نمن • لذلك أجد أن من
حقى ، بسبب ما أراه من اصرارك على توجيه الايضاح هذه الوجهة ،
أن أفصح لك عن رأى بغير تحرج : لقد وصلت من تفكيرى فى الأمر الى
النتيجة التالية : ان البارون بيورنج لن يقبل بحال من الأحوال أن يكون
له معك قضية ••• فكأنكما ندان •

- أرى أن هذا الحل أنفع الحلول لصديقك البارون بيورنج • وانى
لأعترف لك بأنك لا تدهشنى البتة : فلقد كنت أتوقع هذا الأمر •

يجب أن أذكر هنا مستطرداً أنني لاحظت منذ الكلمات الأولى ومنذ النظرة الأولى أن فرسيلوف كان يسمى الى احداث انفجار ، فكان يستفز ويتحدى ويناكذ هذا البارون الذي من طبعه الاحتياج ، ولعله كان يمتحن صبره امتحاناً قاسياً . فكان البارون كالجالس على الشوك نفاذ صبر .
- كنت أعلم أنك تستطيع أن تكون حاضر البديهة في الفكاهة ، ولكن هذا ليس هو الذكاء .

- هذه ملاحظة عميقة الى أبعد حدود العمق يا كولونيل .

صرخ البارون يقول :

- لست في حاجة الى مدحك ، ولا جئت هنا لأتكلم في الهواء سدى . اسمعني من فضلك : ان البارون بيورنيج ، حين تلقى رسالتك ، احتار حيرة سديده ، اذ كانت نفوح منها رائحة مستشفى مجانيين . ولقد كان في الامكان طبعاً أن تلتمس الوسائل . . لتهدتت فوراً . ولكن أسباباً خاصة حملتهم على مراعاتك ، وقد سألوا عنك ، فاتضح أنك كنت تنمى الى المجتمع الراقى ، وأنت في الماضي قد عملت في « الحرس » ، غير أنك أفضيت من ذلك المجتمع ، واتضح أن سمعتك الآن مشبوهة بل أكثر من مشبوهة . ورغم ذلك اتقلت اليك لأستطلع الأمر بنفسى ، وهأت ذا تستبيح فوق ذلك أن تتلاعب بالألفاظ حتى الآن ، ثم تشهد على نفسك بأنك تصاب بنوبات . . . كفى ! ان مركز البارون وسمعته لا يمكن أن يتورطا في هذا الأمر . والخلاصة أبها السيد اننى مكلف بأن أعلن لك أنك اذا كررت هذا الفعل أو قمت بعمل آخر من هذا النوع ، فسوف تلتمس لتهدتتت وسائلها على الفور ، وهى وسائل أوكد لك أنها مضمونة جداً وسريعة جداً . انسا لانعش في الغابات ، بل فى دولة لها شرطة !

- هل أنت واثق كل الثقة يا عزيزى الطيب البارون « ر . . . » ؟

- أف ...

كذلك صرخ البارون ثم نهض فجأة وقال :
- انك تغريبي بأن أبرهن لك حلالاً على اننى لست « عزيزك
البارون الطيب » .

نهض فرسيلوف هو أيضاً وقال :

- أنبّهت مرةً أخرى الى أن زوجتى وابنتى ليستا بعيدتين ، لذلك
أرجوك ألا ترفع صوتك كثيراً ، لأن صرخاتك تصل اليهما .
- امرأتك .. هاه ! لئن بقيت أتحدث اليك هذه المدة كلها ، فمن
أجل أن أستوضح هذه القضية القذرة ...

كذلك تابع البارون كلامه وهو لا يزال غاضباً حانقا ، ولم يخفض
صوته أى خفض . ثم صرخ يقول ساخطاً :

- كفى ! انك لست مطروداً من مجتمع الشرفاء فحسب ، بل أنت
كذلك رجل مهووس ، مهووس حقاً ، رجل مختل العقل ؛ وهذا بعينه
ما وصفوك به ! انك لا تستحق التسامح ، وانى لأعلن لك أن تدابير معينة
سوف تُتخذ فى هذا اليوم نفسه ، وانك ستستدعى الى مكانٍ تردُّ فيه
الى الصواب ... وستخرج من المدينة !

قال ذلك وغادر الغرفة سريعاً بخطى واسعة . ولم يشيعه فرسيلوف ،
بل ظل واقفاً ينظر الى فى ذهول كأنه لا يلاحظنى . وابتسم فجأة ، وهز
شعره ، وتناول قبته ، واتجه نحو الباب هو أيضاً . فأمسكت يده .
فتوقف أمامى وقال :

- ها .. حقاً .. أنت هنا ! هل .. أصغيت ؟

- كيف أبحث لنفسك أن تتصرف هذا التصرف ؟ كيف أمكنك
أن تشوه وأن تلتطخ بالمار ... وأن تغدر هذا الغدر كله ؟

حَدَّقَ الىَ بِنظرةٍ ثابتةٍ ، ولكن ابسامته كانت تتسع شيئاً بعد شيء ،
حتى صارت الى ضحك حقا .

صحت أقول خارجاً عن طوري :

- لكنني أنا الذي لطَّخت بالعار .. أمامها ! أمامها ! هزنت علي
مرأى منها . لقد دفعني دفماً مهيناً .

قال :

- هل هذا ممكن ؟ آه يا بني المسكين ، لكم أشفق عليك ! هزموك ؟

- أتضحك ، أتضحك مني ؟ أترى هذا داعياً الى الضحك ؟

استل يده من يدي مسرعاً ، وتناول قبعته ، وخرج من البيت
ضاحكاً ، ضاحكاً الآن ضحكاً حقا !

ألحق به ؟ علام ؟ لقد فهمت كل شيء وفقدت كل شيء في دقيقة !
وأبصرت ماما فجأة . كانت قد نزلت ، وهي تلقى عليّ الآن نظرة وجلة .

- هل خرج ؟

قبَّلتها في صمت ، وقبلتني بقوة ، بقوة ، ملتصقة بي التصاقاً .

- ماما العزيزة ، كيف يمكنك أن تبقى هنا ؟ لترحل فوراً ،
سوف أؤوبك ، سوف أعمل من أجلك كما يعمل محكوم بالأشغال
الشاقة ، من أجلك ومن أجل ليزا . لنتركهم جميعهم ، جميعهم ،
ولنرحل . سنكون وحدنا . ماما ، هل تتذكرين يوم جئت تزوريني عند
توشار ورفضت أن أتعرفك ؟

- أتذكر يا بني . طوال حياتي كنت آئمةً في حقلك . ولدتك ثم
لم أعرفك .

- هو الآثم يا ماما • هو سبب كل شيء • لم يحيننا فى يوم من الأيام •

- بلى • أحبنا •

- لنرحل يا ماما •

- كيف أتركه ؟ هل هو سعيد ؟

- أين ليزا ؟

- فى السرير • ما ان عادت حتى مرضت • أنا خائفة • ما بالهم حاتقين عليه هذا الحلق كله ؟ ماذا يريدون به ؟ لماذا كان هذا الضابط يهدده ؟

- لن يقع له سوء يا ماما • لن يقع له سوء أبداً • لن يقع له سوء أبداً • ولا يمكن أن يقع له سوء • هكذا خلق ! ولكن ما هى ذى تاتيانا بافلوفنا • أسألها ان كنت لا تصدقيني •

كانت تاتيانا بافلوفنا قد دخلت علينا • وتابعت أقول :

- الى اللقاء يا ماما ، سأعود حالاً ، وسأطلب منك هذا الطلب مرة أخرى •••

ووليت هارباً • كنت لا أطيق أن أرى أحداً ، ناهيك عن تاتيانا بافلوفنا • كان أمر ماما يعذبني عذاباً شديداً • كنت أريد أن أخلو الى نفسى ، وحيداً ، وحيداً •

ولكن ما ان وصلت الى الشارع التالى حتى أحسبت أننى عاجز عن السير . وكنت أصطدم اصطداماً غريباً بأولئك الناس ، الغرباء ، غير المكتربين . الى أين أذهب ؟ مَنْ هو فى حاجة الىّ ، وما الذى احتاجه أنا الآن ؟ وسرت سيراً ألياً حتى وصلت الى بيت الأمير سرجى بتروفتش دون أن يخطر على بالى البتة . لم يكن الأمير بالبيت . فقلت لبطرس (خادمة) اننى سأنتظر فى مكتبه (كما سبق أن فعلت ذلك مراراً) . انها غرفة واسعة ، عالية السقف جداً ، ملأى بأثاث كثير . مضيت الى أعمق ركن ، وجلست على ديوان ، ووضعت كوعى على المائدة ، وأسندت رأسى الى يديّ . نعم ، كان هذا هو السؤال : « ما الذى أنا فى حاجة اليه الآن ؟ » . ولئن كنت أستطيع أن أصوغ السؤال ، فلقد كنت عاجزاً عن الاجابة عنه كل العجز .

ولكننى كنت لا أقدر أن أفكر ولا أن أسأل . سبق أن ذكرت من قبل أننى فى نهاية تلك المرحلة كانت « الأحداث قد سحقتنى » . والآن ، فيما أنا جالس ، كان شىء كالسديم يدور فى رأسى اعصاراً . « نعم ، اننى لم أر من هذا الرجل شيئاً ، ولم أفهم عنه شيئاً » . تلك هى الفكرة التى كانت تبرى فى خاطرى فى بعض اللحظات . « لقد ضحك منى فى وجهى منذ قليل ؟ ولكن لا ، انه لم يضحك منى أنا ، بل كان لا يزال يضحك من بيورنسيج ، لا منى أنا . أمس الأول ، أثناء المشاء ، كان يعرف كل شىء ، وكان قائم النفس . لقد استولى على اعترافى الغيبي فى

المطعم ، فشئوه كل شيء ، على حطام الحقيقة • ما حاجته الى الحقيقة ؟
انه لا يصدّق نصف كلمة مما كتبه اليها • كانت حاجته كلها هي أن
يجرح ، أن يجرح لغير سبب ، بل دون ان يعرف لماذا ، متشبهاً بأية
حجة ، وقد قدمت انا اليه تلك الحجة •• هذه فعلة كلب مسعور ! •••
هل ينوى الآن أن يقتل بيورنج ؟ لماذا ؟ لأى سبب ؟ ان قلبه يعرف السبب !
أما أنا فانتى أجهل ما فى قلبه ••• نعم ، ما زلت أجهل هذا حتى الآن •
هل يحبها هذا الحب المشبوب كله ؟ لا أدري • وهل يدري هو نفسه ؟
لماذا قلت لأمى « انه لا يمكن أن يقع له سوء » ؟ وماذا عنيت بهذا الكلام ؟
أترانى فقدته أم لم أفقده ؟ ••• » •

••• « لقد رأيت كيف 'دفعت' •• وضحكت أيضاً •• أم أنها لم
تضحك ؟ لو كنت أنا فى مكانها لضحكت ! الجاسوس هو من 'ضرب' ،
الجاسوس ! ••• » •

« وما الذى عناه (واتتني هذه الفكرة فجأة) ، ما الذى عناه حين
دسّ فى رسالته الدنيئة تلك أن الوثيقة لم 'تحرق' ، وأنها لا تزال
موجودة ؟ ••• » •

« لن يقتل بيورنج • هو الآن فى المطعم قطعاً ، يصنى الى أغنية
لوسيا ! ولكن لعله بعد لوسيا سيمضى يقتل بيورنج • لقد دفعنى بيورنج ،
بل ضربنى تقريباً • هل ضربنى ؟ ان بيورنج يأبى حتى أن ينازل
فرسيلوف : فهل ينازلنى أنا ؟ ، ، « قد يكون على أن أقتله فى الغد
برصاصة مسدس ، وأن أتربص به فى الشارع ••• » • نشأت هذه الفكرة
فى ذهنى من تلقاء نفسها تماماً ، ولم أتلبث عليها البتة •

وفى بعض اللحظات كنت أحلم بأن الباب سيفتح فتدخل كاترين
نقولاً يفنا : تدخل فتمد لى يدها وتنفجر ضاحكين كلانا •• آه •• عزيزى ،

الطالب ! ان هذه الفكرة بل فل هذه الرغبة انما عرضت لي حين ساد الظلام
الغرفة تماماً . ولكن هل وقفت أمامها مدة طويلة أودعتها بينا هي تمد
الى يدها وتضحك ؟ كيف يمكن هذا : في برهه وجيزة من الزمن ،
على مثل هذه المسافة الرهيبة ! ألا فلأذهب اليها ببساطة فأناقشها حالاً ،
ببساطة ، ببساطة ! رباه ! هذا عالم جديد كل الجدة يبدأ ، جديد كل
الجدة ، كل الجدة . . . ليزا ، الأمير ، لا يزال هذا هو العالم القديم . . .
أنا الآن عند الأمير . وماما ، كيف أمكنها أن تعيش معه اذا صدق الأمر ؟
أنا كان في امكاني ، أنا في امكاني ، ولكن هي ؟ ما الذي سيحدث
الآن ؟ . . . وأخذت أطياف ليزا ، وأنا أندريفا ، وستيلكوف ، والأمير ،
وأفردوف ، والجميع ، تتلاحق كاعصار دون أن تترك أترأ في ذهني
المريض . وأصبحت الصور تزداد ابهاماً وتستعصي على الادراك مزيداً من
الاستعصاء . فأسعدني أن أفهم واحدة منها وأن أمسك بها .

قلت لنفسى فجأة : « ان لي « فكرتي » ، ولكن هل هذا صحيح
حقاً ؟ أليست هذه جملة حفظتها على ظهر القلب ؟ ان فكرتي هي العتمة
والمزلة ، ولكن هل أستطيع الآن أن أعتصم بعنمة الماضي تلك ؟ آه ! يارب!
ولكن السبب هو أنني لم أحرق « الوثيقة » ! لقد نسيت أن أحرقها
أمس الأول . سأرجع الى بيتي فأحرقها على لهب الشمعة ، نعم ، على
لهب الشمعة . ولكنني لا أدري هل حسن ما أفكر فيه الآن . . . »

ساد الظلام منذ مدة طويلة وجاء بطرس بالشموع . وقف أمامي
وسألني هل أكلت ؟ فلم أزد على أن أشرت له بيدي . ومع ذلك جاءني
بعد ساعة بشاي ، فشربت كأساً كبيرة بشراهة . ثم سألته كم الساعة ؟
كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف . لم يدهشني حتى أن أكون قد
قضيت هنا خمس ساعات . قال بطرس :

- جئت ثلاث مرات ، ولكنني أعتقد أنك كنت نائماً .

لم أتذكر أنه دخل على . ولكننى لا أدرى لماذا رتوتنى فجأة أن
أكون قد . نمت ، ، فاذا أنا أنهض وأخذ أمشى فى الغرفة طولاً وعرضاً
حتى لا أنام . وأخيراً أحسست بصداع فى رأسى . حتى اذا كانت الساعة
العاشرة تماماً دخل الأمير ، فأدهشنى أنتى انتظرتة . كنت قد نسيتة
كل النسيان ، كل النسيان .

قال لى :

- أنت هنا ، وأنا ذهبت أبحث عنك فى بيتك !

كانت هيئته مكفهرة قاسية خالية من أيسر ابتسام . وكانت عيناه
تعبران عن فكرة ثابتة ثابوية فى قرارة ذهنه .

تابع يقول :

- كافتحت طول النهار واستعملت جميع الوسائل ، ولكن كل شئ ،
أخفق فأصبح وضعى الآن رهيباً . (ملاحظة : لم يذهب الى الأمير
تبقولا ايفانوفتش) . رأيت جييلسكى . انه اسان فظيع . اسمع : لا بد
أولاً من الحصول على المال ، ثم نرى ما يكون من الأمر . واذا لم نظفر
بالمال ، فمئذئذ . . لكننى قررت ألا أفكر اليوم فى هذا . اليوم يجب
أن نحصل على المال ، وفى غد نرى ان المبلغ الذى ربحته أنت أمس
الأول لا يزال كاملاً . هو ثلاثة آلاف روبل ينقصها ثلاث روبلات .
فاذا طرحنا دينك يبقى على أن أرد اليك ثلاثمائة . فخذها وأضف
اليها سبعمائة لتصبح ألفاً ، وأخذ أنا الألفين . ثم نمضى معاً الى
تشرششيكوف ، فنجلس على طرفين متقابلين ونحاول أن نربح عشرة
آلاف ، ففى أن نصل الى شئ . . والا . . هذا هو المخرج الوحيد
الذى بقى لى .

وألقى على نظرة يائسة .

هتفت أقول فجأة كأنى بعثت بعثاً جديداً :

- نعم نعم ! هيا بنا ! لم أكن أنتظر الا أن تجيء . . .

لاحظوا أن الروليت لم تخطر ببالى لحظة واحدة طوال تلك

الساعات كلها .

وقال الأمير يسأل على حين فجأة :

- والدناءة ؟ وحقارة الفعل ؟

فهتفت أقول :

- ماذا ؟ ذهابنا الى الروليت ؟ ولكن هذا هو المخرج . ان المال هو

كل شيء . نحن القديسان أنا وأنت ، على حين أن بيورنج باع نفسه ،

وأن أنا أندريفنا باعت نفسها ، وأن فرسيلوف . . هل تعرف أن فرسيلوف

مختل ؟ مختل ، مختل ! . . .

- ألسنت مريضاً يا آرКАДى ماكاروفتش ؟ ان عينك غريبتان .

- هل تقول هذا لتذهب الى الروليت دون أن تصطحبني ؟ لن أتركك

بعد الآن . ليس عبثاً أنتى حلمت بالقمار طول الليل . هيا بنا الى الروليت !

هياً بنا !

كذلك صحت كأنى اكتشفت حل اللغز فجأة .

- طيب ، هياً بنا ، رغم أن بك حمى ، وهناك . . .

لم يكمل الأمير جملة . كان فى وجهه شيء أليم مرعب وخرجنا .

قال لى فجأة وهو يقف على التبة :

- هل تعلم أنه لايزال هناك مخرج آخر غير القمار ؟

- ما هو ؟

- مخرج جدير بامراء *

- ما هو؟ ما هو؟

ستعرفه فى المستقبل * ولكن أعلم أننى الآن لا أستحقه ، لقد
فات الأوان * هلمّ ، وتذكر أقوالى هذه * لنجرب المخرج الجدير بعامة
الناس * هل يمكن أن أجهل أننى أتصرف تصرف خادم ، بوعى واضح
وارادة كاملة؟

طرت الى الروليت طيراناً كأن السلامة كلها قد تجمعت هناك ، وكان الروليت هي الحل الوحيد . ومع ذلك لم تكن الروليت قد خطرت ببالي قبل وصول الأمير ، كما سبق أن ذكرت . على أنني لم أذهب مقامراً لنفسي ، وانما ذهبت مقامراً بمالك الأمير ومن أجل الأمير . اننى لا أستطيع أن أفهم ماذا كان يجذبني ، ولكننى كنت منجذباً انجذاباً لاسييل الى مغالته . لا ، لا ، ان هؤلاء الناس ، وهذه الوجوه ، وأولئك القوامين على مائدة الروليت ، وتلك الصرخات التى يطلقها المقامرون ، وتلك الصالة الحظيرة كلها ، صالة تسرشتشيكوف ، ذلك كله لم يبد لي فى يوم من الأيام على هذا القدر كله من البشاعة والجهامة والفظاظة والحزن كما بدا لي فى هذه المرة ! اننى أتذكر بوضوح ما بعده وضوح شعور الحداد والحزن الذى كان يعض قلبى أثناء تلك الساعات الماضية كلها أمام مائدة القمار . ولكن لماذا لم أبارحها ؟ لماذا بقيت وتحملت كمن يدعن لقدر أو كمن يقدم نفسه قرباناً أو كمن يقوم بسخرة ؟ يمكننى أن أقول شيئاً على كل حال : هو أنني لا أستطيع أن أقطع حقاً بأننى كنت أملك عقلي كاملاً حينذاك . ومع هذا لم أقامر فى حياتى بتعقل كما قامرت فى ذلك المساء . كنت صامتاً متركز التفكير شديد الانتباه بارعاً فى الحساب الى حد رهيب ، وكنت صبوراً وبخيلاً ، وكنت فى الوقت نفسه حازماً فى اللحظات الحاسمة . جلست من جديد أمام الصفر ، أى مرة أخرى بين تسرشتشيكوف و أفردوف الذى يجلس دائماً على يمين تسرشتشيكوف .

لقد كنت أشمئز من هذا المكان ، ولكننى أردت أن احط على الصفر
حتماً ، وكانت جميع الأماكن الأخرى حول الصفر مختلة . قامرنا قرابة
ساعة . وأخيراً رأيت الأمير من بعيد ينهض ويتجه شاحب الوجه الى الطرف
الذى كنا فيه ، ويقف أمامى فى الجهة الأخرى من المائدة : كان قد خسر
كل ما معه ، فهو ينظر الى لعبى صامتاً ، ربما دون أن يفهم منه شيئاً
بل دون أن يفكر فى اللعب . وكنت قد أخذت أربح ، وكان
تسرشتشيكوف قد نقدنى مبلغاً . فاذا أنا أرى آفردوف يتناول ورقة من
أوراقى بمائة روبل ، فيضمها الى الكدسة التى كانت أمامه . فصل هذا
فجأة ، دون أن يقول كلمة ، على مرأى منى ، بأكبر وقاحة . فصرخت
وأمسكت يده . حدث لى عندئذ شىء لم أتوقعه أنا نفسى : ان جميع الأحوال
والاهانات التى قاسيت منها فى النهار قد تجمعت فجأة فى هذه اللحظة
الوحيدة ، فى سرقة هذه الورقة . لكأن كل ما تراكم وانضغط فى نفسى
كان لا ينتظر الا هذه اللحظة لينفجر . فهأنذا أصرخ خارجاً عن طورى
ناظراً فيما حولى :

— هذا لص . لقد سرق منى ورقة بمائة روبل .

لا أريد أن أصف كل ما أنارته هذه الكلمات من جلبه ولفظ . ان
حادثة كهذه هى فى هذا المكان شىء جديد كل الجدة . ان الناس فى صالة
تسرشتشيكوف يتصرفون تصرفاً لائقاً ، وقد اشتهرت داره بهذه السمعة .
ولكننى كنت قد فقدت صوابى . وهذا صوت تسرشتشيكوف يجلجل وسط
الضجة والصياح قائلاً على حين فجأة :

— اختفت فعلاً ، ليس فى ذلك شك . كانت هنا . أربعمائة

روبل !

هذه قضية أخرى : ان كدسة تضم أربعمائة روبل قد اختفت من
« البنك » تحت أنف تسرشتشيكوف . وأخذ تسرشتشيكوف يبين المكان

الذى كانت فيه الكدسة فانلاً : « كانت هنا منذ لحظة » ، وكان هذا المكان قريباً منى كل القرب ، بل كان يلاصقنى ، كان يلاصق الموضع الذى فيه مالى ، كان أقرب الىّ منه الى آفردوف كثيراً .

وهتفت أقول مشيراً الى آفردوف :

- المص هنا ! هو الذى سرق أيضاً ! نبشوه !

وارتفع بين الصيحات صوت مهيب راعد يقول :

- مرجع هذا كله الى أنه يُسمح لأى شخص بالدخول الى هنا .
أناس لم يوص بهم أحد . من أتى به ؟ من هو هذا ؟

- رجل يقال له دولجوروكى .

- الأمير دولجوروكى .

وصرخ أحدهم يقول :

- الأمير سوكولسكى هو الذى أتى به .

صرخت أقول للأمير عبر المائدة وقد طاش صوابى :

- اسمع يا أمير : يظنون أننى أنا السارق مع أننى سُرفت فى هذه اللحظة نفسها ! فقل لهم ، قل لهم من أنا !

عندئذ حدث شىء هو أفظع من كل ما سبق حدوثه فى ذلك اليوم كله بل فى حياتى كلها : أنكرنى الأمير . رأيتَه يرفع منكبيه ، ويعجب عن الأسئلة التى كانت تنهمر عليه قائلاً بصوت واضح قاطع :

- أنا لست مسئولاً عن أحد . أرجوكم أن تدعونى وشأنى .

وفى أثناء ذلك انتصب آفردوف بين الحشد طالباً بصوت عالٍ أن ينبشوه ، وأخذ يقلب جيوبه ، ولكن الأصوات ارتفعت تجيب عن مطالبته

صائحة : « لا ، لا ، السارق نحن نصرفه ، » وكان قد نودي خادمان ،
فاذا هما يمسكان ذراعيَّ من خلف •

فصرخت أقول وأنا أحاول أن أخلص يديَّ :

- لن أسمع لأحد بأن ينبشني ، لن أسمع لأحد بذلك •

ولكنني جررت جرأ الى غرفة مجاورة ، وهناك نبشت ثيابي كلها
دون أن تغفل منها ثنية واحدة ، فكنت أصرخ وأتخبط محتججا • قال
أحدهم :

- لا بد أنه رمى ما سرقه الى الأرض •

فأجاب آخر :

- ولكن أين نبحت عنها الآن في الأرض ؟

- تحت المائدة • لاشك أنه رماها تحت المائدة •

- لم يبق لها أثر حتماً ••

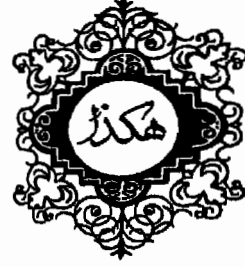
واققادوني ، لكنني استطعت أثناء ذلك أن أتوقف على القبة وأن
أصرخ في حق مجنون :

- الروليت تحظرها الشرطة • سأثي بكم جميعاً في هذا
اليوم نفسه •

- أنزلوني على السلم ، وألبسوني معطفي و ••• فتحووا لي باب
الشارع •

الفصل التاسع

١



اتتهى النار بكارثة • وبقي الليل • فاليكم ما أتذكروه
عن تلك الليلة :

أظن أن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل قليلاً حين وجدت نفسي في الشارع • كانت الليلة صافية هادئة باردة • وكنت أسير سيراً يشبه أن يكون ركضاً ، متعجلاً تعجلاً محمواً ، لكنني لا أتجه الى البيت • « علام الرجوع الى البيت ؟ هل يمكن أن أفكر في البيت الآن ؟ ان المرء في البيت يحيا فاذا ذهبت الآن الى البيت استيقظت من النوم غداً لأحيا : فهل هذا الآن ممكن ؟ لقد انتهت الحياة ، فيستحيل على بعد اليوم أن أحيا » • هكذا ظللت أهيم على وجهي في الشوارع ، لا أرى أين أمضي ، بل اني لأجهل هل كنت أريد أن أمضي الى مكان • وكنت أحس بحرق شديد ، حتى لأحل أزرار معطفي في بعض اللحظات ، ويتراءى لي أنه « ما من عمل يمكن أن يكون له أية غاية » • شيء غريب : كان يبدو لي بغير انقطاع أن كل شيء من حولي ، حتى الهواء الذي أتشمه ، انما ينتمي الى سيارة أخرى غير الأرض ، وكأني وجدت نفسي فجأة على سطح القمر • كل شيء : المدينة ، المآرة ، الرصيف الذي أركض عليه ، ذلك كله لم يبق لي أنا فكنت أقول لنفسي : « هذا ميدان القصور ؛ وهذه بحيرة اسحاق ، ولكن لم يبق لي بهما الآن شأن ، لا علاقة لي بهما الآن ! » • أصبح كل شيء غريباً عني ، كف كل شيء عن أن يكون لي • « ان لي ماما و ليزا !

ولكن ماذا تستطيع ماما وليزا أن تصنعا لى الآن ؟ انتهى كل نبي ، انتهى كل نبي دفعة واحدة ، الا شيئاً واحداً : أنتى سارق الى الأبد .

• كيف أبرهن على أنتى لست سارقاً ؟ هل يمكن الآن هذا ؟ أسافر الى أمريكا ؟ ولكن ما الذى أستطيع بذلك أن أبرهن عليه ؟ لسوف يكون فرسيلوف أول من يصدق أنتى سرقت ! « الفكرة » ؟ آية « فكرة » ؟ ما « الفكرة » الآن ؟ بعد خمسين سنة ، بعد مائة سنة ، حين سأمر ، سيوجد دائماً من يشير الىّ باصبعه قائلاً : هذا سارق ، دشّن « فكرته » بسرقة مال فى الروليت . . .

هل شعرت بحقد ؟ لا أدرى . لعلنى شعرت بحقد . غير أن هناك صفة غريبة أنصف بها ، ربما منذ نعومة أظفارى : اذا نالنى أحد باساة ، اذا بلغت هذه الاساءة حدها الأقصى ، اذا أهانتى أحد اهانة شديدة ، فاننى أشعر دائماً برغبة نهمة فى تحمل الاهانة دون رد ، بل فى أن أستبق رغبات المسىء ، فكأنتى أقول له : « خذ ، انك تذلتنى ، فهأنذا أذل نفسى مزيداً من الاذلال . فانظر الىّ واعجب بى ! » . كان توشار يضربنى وكان يريد أن يظهر أنتى خادم ، اننى لست ابن عضو من أعضاء مجلس الشيوخ . فسرعان ما كنت أقوم بدور الخادم ، فلا أقصر على أن أناوله ثيابه بل أتناول الفرشاة طوعاً من تلقاء نفسى ، وأخذ أنفص عن ثيابه أيسر غبار عالق بها ، دون أن يكون قد طلب منى ذلك أو أمرنى به ، وكنت فى بعض الأحيان أتابع هذا العمل بالفرشاة مندفعاً بحماسة الخادم ، لأزيل عن رداءه آخر ذرة من غبار ، الى أن يوقضى من تلقاء نفسه قائلاً : « كفى كفى يا آر كادى ، هذا كافٍ ! » . وكنت اذا عاد بعد خروج ، فنزع معطفه ، أخذ أنظف المعطف بالفرشاة ، وأطويه بمنياية تامة ، وأعطيه بنطاء من حرير ذى مربعات . كنت أعرف أن رفاقى يسخرون منى ويحتقروننى ، كنت أعرف هذا حق المعرفة ، ولكن ذلك بعينه هو ما كان

يرضىنى ، فكأنتى أقول لهم : « أردتم لى أن أكون خادماً ، فانظروا كيف أنتى خادم • ما دمت خادماً فلاأكن خادماً تماماً ! » • وقد احتفظت بهذا الكره السلبي وهذا الحقد الخفى سنين طويلة • وعند تسرشتشيكوف ، حين صرخت قائلاً لجميع من فى الصالة وقد ثارت نائرتى وخرجت عن طورى : « سوف أثنى بكم جميعاً ، فالروليت تحظرها الشرطة » ، فمينا ان عاطفة من هذا النوع هى التى كانت تحركنى : لقد أذلونى ونبشونى ووصفونى على رموس الأشهداء بأننى لص ، أى قتلونى قتلاً ، فكأنتى رددت على ذلك قائلاً : « طيب •• اعلموا جميعاً أنكم عرفتمونى على حقيقتى ، اعلموا أنتى لست لصاً فحسب ، بل انتى أيضاً. واش ! » • حين أتذكر اليوم ما حدث ، فاننى أفسره هذا التفسير وألخصه هذا التلخيص • ولكن الأمر حينذاك لم يكن أمر تحليل ، فأطلقت صرختى تلك بنير نية ، وقبل ذلك بثانية واحدة كنت أجهل أنتى سأطلقها • لقد خرجت الصرخة من تلقاء نفسها ، ولكنها خرجت لأن هذه الصفة التى أتصف بها كانت قائمة فى نفسى •

لاشك أن هذيانى كان قد بدأ حين أخذت أركض ، ولكننى أتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح أنتى كنت أتصرف داعياً • كل ما هنالك - وهذا ما أستطيع أن أقطع به واثقاً - أن ميداناً كاملاً من الأفكار والاستنتاجات كان موصدا دونى : فحتى فى ذلك الوقت كنت أشعر بينى وبين نفسى أن « ثمة أفكاراً يمكن أن توافينى ، وأن ثمة أفكاراً أخرى ممنوعة عنى اطلاقاً » • وكذلك كانت بعض قراراتى ، فهى وان اتخذت بوعى واضح وشعور كامل ، كان يمكن أن تخلو حينذاك من أى منطق داخلى • بل أكثر من ذلك اننى أتذكر تذكراً واضحاً أن قراراً من قراراتى كان يمكننى فى بعض اللحظات أن أشعر بسخافته واستحاله ثم أشرع مع ذلك فى تنفيذه على الفور واعباً كل الوعى • نعم ، لقد كانت الجريمة

تربص بى فى تلك الليلة ، ولئن لم أرتكب جريمة فان الفضل فى ذلك يرجع الى الصدفة وحدها .

وفجأذ وافتنى الكلمة التى قالتها تانيانا بافلوفنا عن فرسيلوف :
« ليزهب الى خط نيقولا فيضع رأسه على السكة الحديدية ، فيفصل رأسه عن جسمه على نحو مناسب » . وسيطرت هذه الفكرة لحظةً على جميع مشاعرى ، ولكننى لم ألبث أن طردتها من ذهنى على الفور متأماً ، اذ قلت لئسى : « أضع رأسى على السكة الحديدية وأموت ؟ لو فعلت هذا لقالوا غداً : هو السارق اذن ، شعر بالحزى والعار فانتحر . لا ، لن أفعل هذا أبداً ! » . وأذكر أن شرارة كره رهيب قد شبت فى قلبى فى تلك اللحظة . قلت : « ماذا ؟ يستحيل علىَّ بعد اليوم أن أبرئ نفسى ، يستحيل علىَّ أن أبدأ حياة جديدة . فيجب اذن أن أخضع ، يجب أن أجعل نفسى خادماً ، يجب أن أكون كلباً ، أن أكون ذبابة ، أن أكون واشياً ، أن أكون الآن واشياً بالفعل ، وفى أثناء ذلك أستعد بهدوء ورفق ، حتى اذا آن الأوان فى ذات يوم دمرت كل شىء ، أبدأت كل شىء ، أفنيت العالم كله ، المجرمين فيه والأبرياء . وسيعلم الناس جميعاً حينذاك ، على حين فجأة ، أن الذى فعل ذلك انما هو الرجل الذى اتهموه بأنه لص ، وبعدها انما انتحر » .

لا أذكر الآن كيف أفضى بى السير الى زقاق صغير قريب من شارع « الفرسان الحرس » . ان هذا الزقاق تحفه فى الجانبين ، على طول مائة متر تقريباً ، جدران عالية هى حواجز تحجب وراءها أفنية منازل . وأبصرت خلف أحد هذه الجدران ، على اليسار ، كومة كبيرة من حطب ، كومة عالية جداً يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجدار مترين . فوقفت فجأة وأخذت أفكر . كان فى جيبي أعواد كبريت من شمع ، محفوظة فى علبة من فضة . أكرر مرةً أخرى أننى كنت عندئذ أعى وعباً واضحاً

ما أفكر فيه وما أريد أن أعمله ، ومازلت أذكر هذا الى اليوم ، ولكن لو سألتني لماذا أردت أن أقدم على هذا العمل لما استطعت أن أجيبك بشيء البته . كل ما أتذكره هو أن هذه الرغبة قد استبدت بي وملكت عليّ مشاعري فجأة . قلت لنفسي : « ان تسلق الجدار ممكن جداً » . لقد كان هناك ، على بعد خطوتين ، باب كبير لاشك أنه مفلق منذ أشهر طويلة . وتابعت تفكيري قائلاً لنفسي : « اذا وضعت قدمي على حرف أسفله ، كان في امكاني أن أتشبث بأعلاه ، فأتسلق الجدار ، ولن يرى أحد شيئاً . لا أحد سيرى شيئاً ! صمت كامل ! وهناك في أعلى الجدار ، سأستقر مرتاحاً ، فأشعل النار في الحطب . هذا سهل ، حتى بدون أن أنزل الى الفناء ، لأن الحطب يكاد يلامس الجدار . وبسبب البرد ستسرى النار في الحطب سريعة . ليس عليّ الا أن أسحب يدي حطبة سندر . . بل لماذا الحطبة ؟ أستطيع رأساً ، وأنا جالس على الجدار ، أن أتزعج يدي قليلاً من القش ، فأشعله بلهب الكبريت ، أشعله ثم أدسه في وسط الحطب ، فيشبه الحريق . وأتب أنا الى أسفل الجدار وأنصرف . ولا داعي حتى الى الركض ، لأن الحريق لن يلاحظه أحد الا بعد مدة أدت هذا كله في رأسي ، ثم عزمت أمري تماماً على حين فجأة . وشعرت بلذة قصوى ، بلذة قصوى وتسليقت . كنت أجيد التسلق اجادة عظيمة : انني منذ كنت في اللبسيه كنت متفوقاً في الرياضة البدنية تفوقاً كبيراً . ولكنني كنت أتعل حذاءين من كاوتشوك ، فكان ذلك عقبة . ومع ذلك استطعت أن أمسك باحدى يديّ حافة لا يكاد يرى بروزها ، وأن أضعده وهممت أن أقذف يدي الأخرى لأتشبث بأعلى الجدار ، فإذا بقدمي تنزلق فأسقط منقلباً . أظن أن رقبتى اصطدمت بالأرض . ولاشك أنني بقيت مغشياً عليّ مدة دقيقة أو دقيقتين . فلما أفقت من غيبوتي ، عقدت أزرار معطفي بشير شعور ، لأنني أحسست ببرد لا يحتمل ، وجررت نفسي جراً الى حيث

الباب الكبير ، فلطوت هناك وأنا لا أعى ما أفعل وعياً واضحاً ، وتجمعت على نفسى فى تجويف بين الباب وتواء الجدار • كانت الأفكار فى ذهنى مضطربة ، وأغلب الظن أنتى سرعان ما غفوت • اننى أذكر الآن ، كما لو كنت فى حلم ، أن صوت نواقيس ، عميقاً ثقيلًا ، قد ترجع فى أذنىّ فجأة ، وأننى أصغيت الى ذلك الصوت متلذذًا •

كان النافوس يرن مرة كلّ ثانيتين ، بل كل ثلاث نوان ، ولكن صوته ليس صوت نافوس الخطر ، بل هو صوت ممتع بهيج عريض ، ولم ألبث أن ميزته فجأة : انه نافوس كنيسة القديس نيقولا ، الكنيسة الحمراء التي تقع في مواجهة منزل توشار ! - هي كنيسة موسكوبية قديمة ، ذكرها في خيالي واضحة ، شيدت في عهد ألكسى ميخائيلوفتش ، بمسنتها وقبابها الكثيرة وأعمدها . وقد انتهى أسبوع الفصح منذ برهة قصيرة ، وعلى أشجار السندر النجيلية في حديقة آل تونار ، أخذت تهتز الأوراق الخضراء الجديدة منذ الآن . والشمس المتألقة عند الأصيل تسكب أشعتها المائلة في صفنا بالمدرسة ، وأنا ، في غرفتي الصغيرة التي تقع على اليسار ، والتي أقصاني إليها توشار بعيداً عن « أبناء الكوتات وأعضاء مجلس الشيوخ » ، عندي زائرة . نعم ، أنا الولد الذي لا يُعرف له منبت ، عندي زائرة ، أتتى أول مرة منذ أن أودعت في مدرسة توشار . ولقد تعرفتها منذ دخلت : انها أمي . تعرفتها رغم اننى منذ العهد الذي كانت تقودنى فيه الى كنيسة القرية لتناول القربان المقدس ، وهى الكنيسة التي كانت الحمامة تجتاز قبتها ، لم أرها مرة واحدة . نحن الآن جالسان معاً . وأنا أتأمل وجهها تأملاً غريباً . ولقد عرفت فيما بعد ، عرفت بعد سنين كثيرة ، أنها فى ذلك الحين ، وقد بقيت وحيدة اذ تركها فرسيلوف وسافر الى الخارج فجأة ، جاءت الى موسكو دون أن يكون لأحد سلطان عليها ، مستعينة على ذلك بما تملك من مال زهيد ، كاتمة

امر سفرها تقريباً عن اولئك الذين عهد بها اليهم ، وذلك كله من أجل أن ترانى لا أكثر . شىء غريب أيضاً : انها حين دخلت قد تحدثت الى توشار ، أما أنا فلم تقل لى انها أمى . هى الآن هنا على مقربة منى ، وانى لأذكر أنتى قد أدهشنى أن أراها لا تتكلم الا قليلاً جداً . وهامى ذى تفض صرّة كانت تحملها : ان فى الصرة ست يرتقالات ، وبضعة أقراص من الحلوى ، ورغيفين من خبز أبيض . وقد ساءنى الخبز ، فأجبت أمى متجهم الهيئة بأننا نطعم هنا أحسن الطعام ، وأنا نعطى كل يوم مع الشاى رغيفاً كاملاً . فقالت لى أمى :

- لا بأس يا عزيزى ، لقد قلت لنفسى بسذاجة : « لعلمهم فى هذه المدرسة لا يغذونكم تغذية حسنة » . لا تؤاخذنى يا حبيبى .

قلت :

- وسوف 'يجرح شعور أنطونين فاسيليفنا (زوجة توشار) ، وسوف يسخر رفاقى منى

- ألا تريد اذن ؟ قد تأكله مع ذلك !

- اتركه ، اذا شئت .

ولم أمسس الهدايا . فالبرتقالات وأقراص الحلوى بقيت على المائدة أمامى ، وبقيت أنا جالساً خافضاً عينيّ ، ولكن على وقار . من يدرى ؟ لعلى كنت أتمنى ألا أخفى عنها أن زيارتها تخجلنى أمام رفاقى ، وأن أظهر لها ذلك قليلاً لتفهم ، كأن أقول لها : « انك تخجلينى ولا تدركين ذلك من تلقاء نفسك » . نعم ، أقول لها ذلك أنا الذى فى تلك اللحظة ذاتها كنت أجرى وراء توشار حاملاً الفرشاة لأنفص عن ثيابه أقل غبار ! وكنت أتصور كذلك مدى السخريات التى سيبها على الصبية الآخرون متى انصرفت ، وقد يصبها على توشار نفسه ، فلم يهتز قلبى بأية عاطفة طيبة نحو أمى . كنت أنظر شزراً الى فستانها القائم العتيق ، والى يديها

الغليظتين اللتين تسبهان يدي نغاله ، والى حذاءيها الثقيلين ، والى وجهها
الذى نحل نحولاً شديداً . ان جبينها قد اتخذ منذ الآن بفضون صغيرة ،
مع أن آنطونين فاسيلفنا قالت لى بعد ذلك فى المساء ، بعد انصرافها :
« لا بد أن أمك كانت فى الماضى جميلة جداً » .

وفىما كنا على هذه الحال اذا بأجاتى تدخل علينا بصينيه فوقها فنجان
قهوة . الوقت بعد الظهر . وآل توشار ، فى هذه الساعة ، يحسنون القهوة
دائماً عندهم فى الصالون . ولكن ماما شكرت ولم تتناول الفنجان . وعلمت
فىما بعد أن ماما لا تشرب القهوة أبداً ، لأن القهوة تحدث لها خفقاناً فى
القلب . وآل توشار ، فى قرارة أنفسهم ، يرون أن زيارتها وسماحهم
لها بزيارتى هو منتهى التسامح والكرم منهم ، وأن فنجان القهوة الذى
أرسلوه اليها هو ذروة الانسانية ومأثرة كبيرة من مآثر مشاعرهم المتمدنة
وأفكارهم الأوروبية . ولكن أمى رفضت القهوة بمصادفة تشبه أن
تكون عمداً .

ونوديت الى عند توشار . فطلب منى أن آخذ جميع دفاترى وجميع
كتبى وأن أظهر عليها أمى « لترى مدى ما أجنه من فائدة فى مدرسته » .
وانبرت آنطونين فاسيلفنا عندئذ فقالت لى بلهجة ساخرة وهى تزرم شفيتها :
- أظن أن قهوتنا لم تعجب أمك .

وجمعت دفاترى لأحملها الى أمى التى كانت تنتظر . ومررت أمام
« أبناء الكوتات وأعضاء مجلس الشيوخ » الذين احتشدوا فى الصف
وأخذوا يرقبوتنا كلينا . وسررتى أن أنفذ أمر توشار تنفيذاً دقيقاً محكماً .
فكنت أفتح دفاترى فتحاً منظماً ، وآخذ أشرح لأمى قائلاً : « هذه دروس
قواعد اللغة الفرنسية . وهنا نصوص الاملاء . وهذا تصريف الفعلين
المساعدين ، فعل avoir وفعل être ، وهنا الجغرافيا ، وصف المدن

الكبرى بأوروبا وجميع أجزاء العالم ، الخ ، . ظلت نصف ساعة أو أكثر
أشرح لأمي ذلك كله بصوت رقيق مطرد خافضاً عينيّ كما يفعل ولد
أحسن تأديبه . وكنت أعلم أن ماما لا تفقه في العلوم والآداب نسيئاً ،
وأنها ربما كانت لا تعرف القراءة والكتابة ، وهذا هو السبب في أن الدور
الذي قمت به أعجبني . ومع ذلك لم أفلح في أن أتعبها ، فكانت تصني
اليّ دون أن تقاطعني ، وكانت تنصت بانتباه بل بخشوع ، حتى اعتراني
أنا السأم والضجر فكففت عن الاستمرار من تلقاء نفسي . وكانت نظرتها
حزينة ، وكان في وجهها شيء يبعث على الشفقة .

ونهضت أخيراً لتصرف . فاذا بتوشار يدخل بنفسه بقتة ، ويسألها
بوقار مصطنع غبي هل هي راضية عن النجاح الذي حققه ابنها . فأخذت
أمي تتمتم معبرةً عن شكرها الجزيل بجمل مشوشة . ثم دخلت آنطونين
فاسيليفنا . فرجتهما أمي ألا يتركها اليتيم ، « لأنه الآن في حكم اليتيم ،
فاستمررا في احسانكما اليه ونعمكما عليه . . » . وحيتها مغرورقة العينين
بالدموع ، حيث كلا منهما على حدة ، بانحناء شديد ، كما يفعل العامة
من أبناء « الشعب » حين يجيئون الى سادة كبار يلتمسون منهم شيئاً . وكان
توشار وامرأته لا يتوقعان هذا كله ، حتى لقد لانت آنطونين من ذلك
ليناً واضحاً ، ولاشك أنها سرعان ما غيرت رأيها فيما يتعلق بفتجان
القهوة . وازداد توشار اصطناعاً للوقار ، وأجاب قائلاً بلمهجة انسانية
« انه لا يفرّق بين الأولاد ، وانهم هنا جميعاً أولاده ، وانه هنا أبوهم
كافة ، وانني أعامل كما يعامل تقريباً أبناء الكوتات وأبناء أعضاء مجلس
الشيوخ ، وان هذا شيء يجب أن يقدر حقّ قدره ، الخ ، الخ ، الخ .
فكانت أمي تزيد تحياتها أثناء كلام توشار . وتفاقم اضطرابها ، فالتفتت
اليّ والدموع تلتصق في عينيها وقالت : « استودعك الله يا بني » .

وقبّلتني بل قل انني سمحت لها أن تقبّلتني . وكان واضحاً

أنها ودّدت لو تقبّلتي مزيداً من التقييل ، وأن تعانقني وأن تحضنني وأن
تشدني إليها ، ولكنها أمسكت عن ذلك إما لأنها استحتت من الحضور ،
وإما لأنها شعرت بحزن ، وإما لأنها أدركت أنني أشعر بخجل ، فهامى
ذى تحبى توشار وامرأته تحية أخيرة ، وتسرّع متجهةً إلى باب الخروج .
وبقيت أنا مسمرّاً فى مكانى .

قالت آنطونين فاسيلينا :

– « هلاّ تبعت أمك ! ان هذا الولد لا قلب له ! » .

ورفع توشار منكبيه ، كأنه يقول لها : « ليس عبناً أنى أعامله كما
يعامل خادم » .

وأطعت أمر آنطونين فاسيلينا ، فنزلت وراء أمى ، وخرجنا إلى
درج الباب . وكنت أعلم أن الآخرين ينظرون إلينا الآن من النافذة .
والتفتت أمى إلى الكنيسة ، فرسمت إشارة الصليب ثلاث مرات بخشوع ،
وكانت شفتاها تحتلجان . ورنّ جرس جهير فى أعلى برج الناقوس رنات
قوية منتظمة . فالتفتت أمى إلىّ ، ثم لم تطلق صبراً فإذا هى تضع يديها
على رأسى وتجهش باكياً بكاء غزيراً .

– كفى ياماما ، هذا يخجلنى انهم يروننا من النافذة

فارتدت أمى إلى وراء ، وأسرعت تريد الانصراف وقالت :

– طيب ! . . . الرب . . . الرب معك ! . . . ملائكة السماء تحرسك ،
ومريم العذراء والقديس نيقولا

وظلت تردد بسرعة ، وهى لا تزال ترسم إشارة الصليب ،
وتحاول أن تضع علىّ مزيداً من الصليبان بمزيد من السرعة :

- الرب .. الرب .. حيبى .. عزيزى .. ولكن انتظر قليلاً ...

وأسرعت تدس يدها فى جيبتها فتستل منها منديلاً .. منديلاً أزرق
ذا مربعات قد عقد فى طرفه عقداً قوياً .. وأخذت تحاول حلّ العقدة ..
ولكنها لم تفلح ، فقالت :

- طيب .. لا بأس .. خذ المنديل أيضاً .. انه نظيف كل
النظافة .. قد تستعمله . ان فى العقدة أربعة عقود كبيرة فيما أظن ، فعسى
أن تنتفع بها فى شىء . لا تحقد علىّ يا بنى ، ليس معى أكثر من ذلك ..
لا تزعل منى يا حيبى .

أخذت المنديل . وقد أردت أن أنبئها الى « أن مسيو توشار وأنطونين
فاسيليفنا يعاملاننا أحسن معاملة ، وأننا لا يعوزنا شىء » ، ولكننى
أمسكت عن الكلام وقبلت المنديل .

ورسعت علىّ اشارة الصليب . مرةً أخرى ، وتمتت أيضاً بدعاء
لا أدرى ما هو ، ثم اذا هى تحيىنى بانحشاءة كبيرة بطيئة طويلة على حين
فجأة ، تماماً كما حيّت توشار وامرأته فوق . لن أنسى هذه التحية
ما حييت ! لقد ارتعشت من قمة رأسى الى أخمص قدمى ، لا أدرى أنا
نفسى لماذا ! ماذا قصدت من هذه التحية ؟ أكانت « تعترف بخطيئتها أمامى »
كما تخيلت ذلك كثيراً فيما بعد ؟ لا أدرى . ولكننى شعرت حينذاك بمزيد
من الحجل والحزى ، « لأنهم كانوا هناك فى أعلى ينظرون ، وقد يضربنى
لامبير بعد قليل » .

وانصرفت أخيراً .

كانت البرتقالات وأقراص الحلوى قد التهما أبناء الكوتات وأعضاء
مجلس الشيوخ حتى قبل أن أعود ، وسرعان ما اتزع منى لامبير النقود

الأربعة الكبيرة • فاشترتوا بها كتلة كبيرة من الشوكولاته والجاتوه من عند بائع الحلوى ، ولم يذيقوني شيئاً مما اشترتوا •

انقضت ستة أشهر • نحن الان فى شهر تشرين الاول (أكتوبر) •
رياح وأمطار • نسيت أمى نسياناً تاماً • والكراهه ، الكره الأسود العميق لكل شيء ، قد نفذ الى قلبى واستولى عليه استيلاء كاملاً • ومازلت أنفص الفبار عن نياب توشار بالفرشاة ، لكننى أكرهه الآن بكل ما أمك من قوى ، ومازال كرهى يزداد شدة وتأججاً • وذات يوم ، فى ساعة الغسق الحزينة ، بينما كنت أنبش علبتى ، اذا أنا أبصر المنديل الأزرق فى الركن الذى دسسته فيه منذ أعطتته أمى • فأخرجته وأخذت أتأمله باهتمام • ان طرفه لا يزال يحتفظ بآثار العقدة ، بل لا يزال يحتفظ بأثر قطعة تصديه مستديرة • ولكننى لم ألبث أن أعدت المنديل الى مكانه وأغلقت العلبة • كان ذلك فى عشية عيد ، وقد أخذت الأجراس تقرع مؤذنة بقداس الليل • وكان التلاميذ قد ذهبوا الى أسرهم بعد الغداء ، ولكن لامبير قد بقى فى هذه المرة ، لأن أهله لم يرسلوا أحداً يصطحبه • انه لا يزال يضربنى كما كان يفعل من قبل ، ولكنه أصبح يروح لى بأشياء كثيرة ، وأصبح فى حاجة الى • لبنا طوال السهرة تتكلم عن مسدسات لوباج التى لم يسبق لأحد منا أن رآها ، وعن السيوف الشركسية ، وانتقل لامبير أخيراً الى حديثه المفضل ، وهو حديث سافل كنت أحب أن أصغى اليه رغم ما أشعر به من دهشة بينى وبين نفسى • ولكننى فى هذه المرة وجدت الحديث كريهاً لا يطاق ، فقلت للامبير انتى أشعر بصداغ فى رأسى ، ومضينا الى النوم • فتمسرت رأسى بالنطاء ، واستللت المنديل الأزرق من تحت المخدة : كنت قد عدت الى اخراجه من العلبة قبل ساعة ، فما ان رُتّب سريرانا حتى وضعته تحت المخدة • شددت المنديل الى وحمى وأخذت أقبّله • وهمست أقول وقد استولت على ذكرى أمى وانقبض

صدرى كأنه مضغوط بين فكي ملزمة : « ماما ، ماما » • وتراعى لى وجهها وأنا مغمض عينيّ ، تراعى لى بشفتيه المختلجتين حين كانت ترسم على نفسها اشارة الصليب أمام الكنيسة ، ثم ترسم اشارة الصليب علىّ أنا ، فأقول لها : « اننى أشعر بخجل ، انهم يروننا » • وتابعت هتافى لماما : « ماما ، ماما الحبيبة ، لقد جئت الىّ مرةً على الأقل •• أين أنت الآن يازائرتى البعيدة ؟ هل تذكرين الآن ابنك الصغير المسكين الذى جئت تزورينه ؟ •• تعالى الىّ مرةً أخرى ، تعالى الىّ فى الحلم على الأقل ، لأقول لك اننى أحبك حباً عظيماً ، واننى أصبحت لا أشعر منك بخجل وخزى ، واننى كنت أحبك فى ذلك الوقت أيضاً ، وان قلبى كان يتألم حين كنت أقع هناك كخادم ! لن تستطيعى أبداً يا ماما أن تقدرى كم كنت أحبك حينذاك ! ماما الحبيبة ، أين أنت الآن ؟ هل تسمعينى ؟ ماما ، ماما ، هل تتذكرين الحمامة ، فى الكنيسة ؟ ••• »

دمدم لاميير من فرارة سريره يقول :

- شيطان يأخذه ! ماذا دهاه ؟ انتظر قليلاً ! انه يمنع الناس

من النوم •••

وها هو ذا يشب عن سريره أخيراً ، فيركض الى سريره ، وينزع عنى الغطاء ، ولكننى أتشبث بالغطاء تشبثاً قوياً وأظل مطوقاً رقبتى به •
- تبكى ؟ ماذا دهاك حتى أخذت ثن يا أبله ؟ خذ هذه لك !

قال ذلك وأخذ يكيل لى الكلمات على ظهري وعلى أضلاعى ، ويؤلمنى مزيداً من الايلام عند كل ضربة •• وفجأة فتحت عينيّ •••

النهار قد طلع تمسلاً ؛ والجليد يسطع على الثلج وعلى الجدار ••• وأنا جالس متجمع على نفسى نصف ميت ، متخدر فى معطفى • وهذا رجل يقف أمامى يحاول أن يوقظنى من نومى بشتائم مقدعة ، ويركنى

على الأضلاع بطرف قدمه اليمنى . فأنهض وأنظر : هو رجل يرتدى معطفاً ثميناً من جلد الدب ، ويدنر رأسه بقبعة من الفراء ، له عينان سوداوان ، وأسنان بيض مسددة الى . انه أبيض اللون ، محمر الخدين ، يشبه وجهه أن يكون فناعاً . . . لقد مال على حتى كاد وجهه يلامس وجهي ، فكلما زفر زفرة خرج من فمه بخار متجلد :

- لقد تجمدت من البرد يا سكير ، يا أبله ! لسوف تفتس هنا من التجلد كما يفتس كلب ! قم ! قم !

صرخت أقول :

- لاميير .

- من أنت ؟

- دولجوروكي .

- أي دولجوروكي ؟

- دولجوروكي فحسب ! . . ذلك الذي غرزت في فخذة شوكة . .

فهتف وهو يتشم اشماتة طويلة ، اشماتة من يتذكر :

- آ . . آ . . آ . . هذا أنت اذن ؟ أنت ؟

(أتراه نسيني ؟) .

وأنهضني ، وأوقفني على قدمي ، فكننت أترنح وأجد في الوقوف والحركة مشقة ، فقادني وهو يسندني بيده . كان ينظر في عيني كمن يريد أن يتذكر وأن يفهم ، وكان ينصت الى كلامي بكل ما أوتي من قوة ؛ وكننت أنا أنتم بكل ما أوتيت من قوة أيضاً ، فأتكلم وأتكلم بدون انقطاع ، وأشعر بسرور لأنني أتكلم ولأنه لاميير . لأنه بدا لي « خلاصاً ،

مما أنا فيه ، أم ترانى ارتميت عليه ارتمائى على انسان من عالم آخر ؟
لا أدرى • لم أكن فى ذلك الوقت أفكر • لقد ارتميت عليه بغير تفكير •
ماذا قلت ؟ لا أتذكر البتة • ولا شك أن ما قلته كان مفككاً • بل لا شك
أن نطقى لم يكن واضحاً • ولكنه كان يصفى الى اصغاء شديداً • واستوقف
أول عربية مرت بنا ، فما انقضت بضع دقائق حتى كنت فى دفة غرفته •

ان كل انسان ، أياً كان ، يحتفظ حتماً بذكرى حادثة شخصية
يعدّها أو يميل الى أن يعدّها غير مألوفة ، خارقة ، كأنها تنتمي الى عالم
الخيال ، كأنها معجزة من المعجزات ؛ وهذه الحادثة تكون حلماً رآه أو لقاءً
وقع له ، أو نبوءة تنبأ بها ، أو احساساً سابقاً بأمر سيقع ، أو شيئاً من
هذا القبيل . واني محمول حتى الآن الى اعتبار لقائي هذا بصاحبي لامير
مشملاً على شيء من ذلك على الأقل اذا نحن نظرنا الى ظروف هذا
اللقاء والى ما كان له من نتائج ضخمة . ولقد حدث هذا كله حدوداً بسيطاً
غاية البساطة ، من أحد الجوانب على الأقل : لقد كان لامير عائداً من
احدى مهماته الليلية (سنرى ماذا كانت تلك المهمة) ، وكان نصف
سكران ، فلما توقف لحظةً أمام باب من الأبواب ، أبصرنى . ولم يكن
قد انقضى على وجوده بطرسبرج الا بضعة أيام .

الغرفة التى نقلت اليها غرفة صغيرة ، أثاثها بسيط جداً ، مزودة
بما تزود به غرفة بطرسبرجية عادية من الدرجة الثانية . أما لامير نفسه
فكان يرتدى ثياباً فاخرة باذخة . وكان على أرض الغرفة حقيقتان لم تفرغاً
الا من نصف ما فيهما . وكان ركن من الغرفة محجوباً بحاجز يخفى
وراءه السرير .

صاح لامير منادياً :

- ألفونسين !

فأجاب من وراء الحاجز صوت نسوى مرتعش يقول بلغة فرنسية
باريسية اللهجة :

- نعم !

وسمعت من وراء الحاجز حفيف قدمين عاريتين ، وما هي الا لحظة
حتى ظهرت « مدموازيل ألفونسين » بقميص النوم • انसानة عجبية ؛ طويلة
القامة نحيلة كمود يابس ، قتيبة ، سمراء ، طويلة الوجه ، عيناها
تنطنطان ، وخطاها خاسفان • مخلوقة بالية بلى رهيباً •

- أسرعى ! (أنا الآن أترجم لأنه كلمها بالفرنسية) • لا بد أن
عندهم سماوراً يعبرونه • أسرعى • هاتى ماء ساخناً ونبيداً أحمر وسكرآ ،
وقدحاً ، وأسرعى ، فانه متجلد من البرد • هو صديقى وقد قضى الليل
فى الثلج •

فهمتت تقول بالفرنسية وهى تلوى يديها بحركة مسرحية :

- مسكين !

- هلمى ، هست ...

كذلك صرخ لامبير كأنه يكلم كلباً ، ولوَّح لها بأصبعه مهدداً •
فسرعان ما كفتت عن حركاتها ، وركضت تنفذ ما أمرها به •

وأخذ لامبير يفحصنى ويمسنى ويجس نبضى ويلمس صدغى • ثم
جمجم يقول : « غريب أنك لم تتجمد تجمداً تاماً ... ولكنك كنت
مدفوناً فى معطفك مع رأسك ، فكان لك معطفك كججر ... » •

ووصل كأس الماء المغلى ، فابتلعتة بشراهة ، فسرعان ما أنسنى ،
وعدت أتمتم • كنت مضطجماً فى الركن على الديوان نصف اضطجاع ،
وكتت أتكلم نشوان بالكلام ، ولكننى لا أكاد أتذكر الآن ماذا كنت أقول ،

بل ان هناك صفحات من ثرثرتى فد امحت الان من ذاكرتى امحاء تاما •
هل فهم من كلامى شيئاً؟ لا أدرى • ولكننى أدركت فيما بعد انه لا بد أن
يكون قد فهم على الاقل أن لقاء هذا بى امر لا ينبغى له أن يهمله ، وأن
الابقاء على علاقته بى يمكن أن يجلب منه منافع • وسأشرح فيما بعد ما لعله
أجراء من حساب •

لم أنتفش انتعاشاً قوياً فحسب ، بل أظن أننى كنت فى بعض
اللحظات مرحاً • اننى أتذكر الشمس التى أضاءت الغرفة فجأة حين
أزحيت الستائر ، وأتذكر المدفأة التى طقطقت نيرانها حين أشعلت •
أما من أشعل المدفأة وكيف أشعلها فلا أدرى • وأتذكر الكلب الصغير
الأسود الذى كانت مدموازيل آلفونسين تمسكه بيديها وتشده الى قلبها
بنعيج ودلال • لقد سلانى هذا الكلب وأضحكنى كثيراً ، حتى اننى انقطعت
عن الكلام ومددت اليه يدي مرتين ، ولكن لاميير أوماً ايمساء فاذا
بآلفونسين وكلبها يختفيان فوراً وراء الحاجز •

وكان لاميير شديد الصمت ، وكان جالساً أمامى ينصت الى كلامى
انصاتاً قوياً وقد مال على فلا يتعد عنى • وكان يتسم فى بعض الأحيان
ابتسامة طويلة بطيئة ، ويكشف عن أسنانه ويطرف بعينه كمن يبذل جهداً
من أجل أن يفهم وأن يحزر • أذكر أننى حين رويت له قصة
« الوثيقة » لم أفلح فى أن أعبر تعبيراً واضحاً وأن أعرض قصة منسقة ،
فكنت أرى فى وجهى أنه لا يستطيع أن يفهم عنى • حتى لقد جازف مرة
فألقي سؤالاً ، وكان هذا شيئاً خطراً ، لأننى كنت أغير موضوع الحديث
متى 'ألقي على' سؤال ، وأنسى ما كنت بصدد الكلام عنه • كم قضينا من
الوقت على هذه الحال مسترسلين فى الحديث ؟ لا أدرى ، وهاهو ذا ينهض
فجأةً وينادى آلفونسين فيقول لها :

— انه فى حاجة الى هدوء • وقد نحتاج الى استدعاء طيب • افعل

كل ما يطلب ، أعنى ••• « تفهمين يا بنتى ؟ هل معك مال ؟ لا ؟
خذى اذن !

قال ذلك وأخرج من جيبه ورقة مالية بعشرة روبلات ، ثم همس
يقول لآلفونسين وهو يلوح لها باصبعه مهدداً ويقطب حاجبيه بقسوة :

- « هل تفهمين ؟ هل تفهمين ؟ » •

ورأيت أنها كانت ترتعد أمامه ارتعاداً شديداً • وأردف يقول :

- سأرجع •

ثم اتجه الى فقال لى مبتسماً :

- أما أنت فمليك أن تنام • هذا خير ما تفعله •

وتناول قبعته • فصاحت آلفونسين تقول له بلهجة عاطفية :

- « ولكنك لم تنم البتة يا موريس ! » •

فأجابها بقوله :

- « اسكتى ! سأنام فيما بعد » •

• وخرج

همست تقول لى بنبرة التأثر وهى ترى ظهرها :

- 'أُتقذت !

وسرعان ما أخذت تخطب قائلة وقد انتصبت فى وسط العرفة

(بالفرنسية) :

- سيدي ، سيدي ، ما من رجل كهذا الرجل كان قاسياً هذه

القسوة كلها ، وكان بسماركاً الى هذا الحد ، فنظر الى المرأة نظرتة الى

فاذوره ، ما امرأة فى عصرنا هذا ؟ « اقلها ! » هذه هى الكلمة الأخيرة التى
قالتها اكاديمتنا الفرنسية !

حملت عينيّ . اتى أرى الشخص شخصين . اتى ارى
ألفونسيتين اثنتين . ولاحظت فجأة أنها تبكى . فارتعشت وأدركت أنها
كانت تكلمنى منذ مدة طويلة وأنتى كنت اذن نائماً طوال ذلك الوقت ،
أو كنت مغشياً علىّ .

وصاحت تكمل خطابها (بالفرنسية) :

- . . . « وا أسفاه يا سيدى ، فيم كان يمكن أن يفيدنى أن اكتشفه
فى وقت مبكر . . . أفلم يكن من الخير لى أن أظل كاتمة عارى طوال
حياتى ؟ قد لا يشرف فتاة أن تشرح ما يدور فى نفسها بمثل هذه الحرية
أممك يا سيدى ، ولكننى أعترف لك بأننى اذا سمع لى أن أريد نسيئاً ،
فسوف يكون هذا الشيء هو أن أعمد فى قلبه خنجرى ، ولكن على أن
أشيع عنه بصرى ، مخافة أن أرى نظراته فترتمش ذراعى وتتجمد
عزيمتى ! لقد اغتال ذلك الكاهن الروسى يا سيدى ، وتقف لحيته الحمراء
من أجل أن يبيعها لفضان عند « جسر المارشالات » بقرب متجر مسيو
آندريو - أزياء راقية ، بضائع باريسية ، ملابس داخلية ، قمصان
أنيقة ، تعرف يا سيدى ، أليس كذلك ؟ آه يا سيدى ، حين تضم
الصداقة ، على مائدة واحدة ، زوجةً وأولاداً وأخوات وأصدقاء ،
ويشتعل فى القلب فرح قوى . . . هل هناك يا سيدى سعادة أفضل من هذه
السعادة التى بنعم بها جميع الناس ؟ ولكنه يضحك يا سيدى ، هذا
الشيطان الكريه العجيب الذى لا يتصوره العقل . يمناً يا سيدى ، لولا
وساطة مسيو آندريو ، لا . . . آه . . . مستحيل ، لا كنت . . . ولكن ماذا
يا سيدى ، ماذا بك ؟ ماذا بك يا سيدى ؟

كذلك هتفت تسألنى ، ثم اندفعت الىّ ، لعلنى كنت أرتعد ، بل

لعلنى قد اغمى على • لا استطيع ان اصف اشعور الشاق الأليم الذى احدته فى نفسى هذه المخلوقة نصف المجنونة • ولعلها تخيلت ان عليها أن تسلينى وتسرى عنى • المهم أنها لم تتركنى لحظة واحدة • ولعلها كانت تمثل فى الماضى • لقد كانت تنشد للامها اشاداً ، وتدور على نفسها ، وتكلم بدون انقطاع ، على حين كنت قد صمت منذ مدة طويلة • كل ما استطعت أن أفهمه من أقوالها هو أنها كانت لها « علاقات وثيقة بمتجر مسيو آندريو - أزياء راقية ، بضائع باريسية ، النخ ، » ، وأنها لعلها كانت تخرج من عند مسيو آندريو » ، ولكن « هذا الشيطان الخائى الذى لا يتصوره العقل قد انتزعها من مسيو اندريو الى الأبد » ، وتلك هى مأساتها •• انها تشهق وتنتحب ، ولكن بدا لى أنها لا تفعل ذلك كله الا تقيداً بالشكل • وشعرت فى بعض اللحظات أنها توشك أن تنهوى متهشمة كهيكل من عظم • وكانت تتكلم بصوت مختنق فيه ارتعاش ومط ، فالألف المدودة تخرج من حلقها كأنها نغاء شاة • وحين أفقت من غيوبتى رأيتها تستدير فى وسط الغرفة على رجل واحدة ، ولكن دون أن ترقص ، لأن استدارتها هذه كانت تمثيلاً يتصل بقضيتها • واندمعت فجأة نحو بيانو صغير قديم غير مدوزن ، كان بالغرفة ، ففتحت وأخذت تنقر على أصابعه وتغنى ••• أظن أننى غبت عن وعيى عشر دقائق أو أكثر ، وأننى نمت ، ولكن الكلب الصغير نبج ففتحت عينى ، وعاد الى شعورى كاملاً فأضاءنى بنوره كله لحظةً ، فانتفضت مذعوراً ، وأنا أقول لنفسى : « لامبير ، انى عند لامبير » ، وتناولت قبعتى وارتميت على معطفى •

قالت لى آلفونسين اليقظة :

- « الى أين تذهب يا سيدى ؟ » •

فأجبتها :

- « أريد أن أنصرف ، اريد أن أذهب ، لا تمنعنى ! »

فقال الفونسين مؤيدةً بقوة وهي تندفع لتفتح لى باب الدهليز :

- نعم يا سيدى !

ثم هتفت تقول بصوت عالٍ حتى يُسمع كلامها فى الدهليز كله :

- « ولكن المكان ليس بعيداً يا سيد ، فلا داعى الى ارتداء الفروة .

انه قريب يا سيدى ! » .

فلما خرجت من الغرفة ، انعطفتُ يمنةً . فصاحت الفونسين تقول
بشكل ما تملك من قوة وهي تثبت بمعطفى بأصابعها الطويلة المعروقة
وتدلى باليد الأخرى على مكان فى يسار المر لم أكن فى حاجة الى
الذهاب اليه البتة :

- « من هنا يا سيدى ، المكان من هنا ! » .

ولكننى أقلت منها وركضت الى باب الخروج نحو السلم . فأخذت

الفونسين تصرخ قائلة بصوت مكسّر وهي تركض ورائى :

- « انه ينصرف ! انه ينصرف ! ولكنه سيقتلنى يا سيدى ،

سيقتلنى ! » .

ولكننى صرت على السلم ، واستطعت أن أفتح الباب فى أسفل

رغم أنها كانت تلاحقنى على الدرجات ، ووثبت الى الشارع ، وسارعت

أرتمى فى أول عربة ، ذاكرآً للحوذى عنوان أمى . . .

ولكن شعورى ما ان أضاء لحظةً حتى انطفأ . فلا أكاد أذكر الآن كيف 'نقلت الى بيت أمى ، وهناك لم ألبث أن غبت عن الوعى على الفور تقريباً . وفى الغد ، كما قيل لى هذا فيما بعد (واننى لأتذكر ذلك أنا نفسى على كل حال) أضاء عقلى مرةً أخرى لحظة . فرأيتنى فى غرفة فرسيلوف على ديوانه ، ورأيت حولى وجوه فرسيلوف وماما و ليزا . وانى لأتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح كيف كلمنى فرسيلوف عن تسرشتشيكوف والأمير ، وكيف أرانى رسالةً وحاول أن يهدتنى . وقد رووا لى فيما بعد أننى كنت لا أنفك ألقى أسئلة مذعورة عن شخص أسميه لامير ، ولا أنفك أسمع نباح كلب صغير . ولكن هذا الشعاع الضئيل من الشعور لم يلبث أن أظلم ، فلما كان المساء من ذلك اليوم الثانى كانت الحمى قد اجتاحتنى اجتياحاً تاماً . ولكننى أحب أن أستبق الأمور فأذكر الواقعة التالية رغم أننى لم أستطع أن أعبها على الفور .

فى ذلك المساء الذى طردت فيه من عند تسرشتشيكوف ، وحين هدأ فى الصالة كل شىء ، واستأنف تسرشتشيكوف اللعب ، أعلن فجأة بصوت مدور ، أن خطأً مؤسفاً قد وقع : فاللال المفقود ، أى الأربعمائة روبل ، قد عثر عليه فى كومة أخرى من المال ، وأجريت حسابات البنك فأتضح أنها كاملة لم ينقص منها شىء . فاذا بالأمير ، وكان قد بقى فى الصالة ، اذا به يقترب من تسرشتشيكوف ويلح عليه أن يملن براءتى على رهوس الأشهداد ، وأن يعبرّ لى عدا ذلك عن اعتذاره كتابة . ورأى

تسرشتشيكوف أن هذا الطلب مشروع ، وتمهد امام الجميع بان يبعث الى
فى الغد رسالة ايضاح واعتذار . وقد زوّده الأمير بعنوان فرسيلوف منذ
الغد فعلاً ، وتلقى فرسيلوف من تسرشتشيكوف رسالةً موجهةً الى ،
ومعها مبلغ يزيد على ألف وثلاثمائة روبل ، هو مالٌ لى نسيته على مائدة
الروليت . كذلك انتهت قضية تسرشتشيكوف . وقد أسهم هذا النبأ المفرح
فى ابلاى من المرض حين عاد الى شعورى .

أما الأمير فانه حين رجع من صالة القمار قد كتب فى تلك الليلة
رسالتين ، احدهما الى والثانية الى الكتيبة التى كان ينتمى اليها والتى
وقعت له فيها تلك الحادثة مع حامل الراية سيبانوف . وقد بعث الرسالتين
كنتيهما فى صباح الغد . وبعد الرسالتين كتب تقريراً الى رؤسائه ، وجاء
الى الكولونيل فى الصباح حاملاً تقريره بنفسه ، فأعلن للكولونيل أنه
« مجرم من مجرمى الحق العام ، وشريك فى جناية تزيف أسهم ، فهو
لذلك يستلم نفسه للعدالة ، ويطلب بأن يحكم عليه القضاء » ، وفى
الوقت نفسه سلم التقرير الذى يمرض فيه كل شىء كتابةً . فأودع
السجن .

واليكم نص الرسالة التى كتبها لى فى تلك الليلة كلمةً كلمة :

عزيزى الغالى آر كادى ماكاروفتشس !

« اننى ، وقد جرّبت المخرج « العامى » ، قد فقدت الحق فى أن
أوامى نفسى أية مواساة بأننى استطعت أخيراً أن أعزم أمرى على القيام
بعمل شجاع وعادل . اننى مجرم فى حق الوطن وفى حق السلالة التى
أنحدر منها وأنتمى اليها، لذلك أعاقب نفسى بنفسى، أنا آخر أفراد هذه
السلالة . لست أفهم كيف أمكنتنى أن أتشبث بغيرزة البقاء الدنيئة ، وأن

أفكر لحظةً في أن أفدى نفسي بمالٍ أدفعه لشركائى فى الجريمة •
فلو فعلت ذلك لبقيت فى نظر نفسى مجرمًا رغم كل شىء • ولو ردَّ الىَّ
أولئك الناس رسائلى لطللت قلقاً طوال حياتى ، فلا راحة ! ماذا يبقى لى
لو فعلت ذلك ؟ أعيش معهم ، وأرافقهم طوال عمرى : ذلك هو المصير
الذى كان ينتظرنى ! فما كان لى أن أرضى بهذا • وأخيراً وجدت فى نفسى
من الصلابة أو ربما من اليأس ما يتيح لى أن أفعل ما أفعله الآن •

« لقد كتبت الى كتيبتى السابقة ورفاقى القدامى مبرئاً ستيانوف •
وليس فى هذا أى مأثرة تكفر عن ذنبى ، ولا يمكن أن يكون فيه أى
مأثرة تكفر عن ذنبى : وانما هى وصية رجل سيموت غداً • هكذا يجب
أن يفهم عملى » •

« اغفر لى أننى أشحت عنك فى صالة القمار • ذلك أننى لم أكن
فى ذلك الوقت واثقاً بك • الآن وأنا رجل ميت ، أستطيع أن أدلى بهذه
الاعترافات ••• من العالم الآخر » •

« مسكينة ليزا ! انها لم تعرف شيئاً عن هذا القرار • فقل لها
ألا تلغنى ، بل أن تفكر • اننى لا أستطيع أن أبرئ نفسى ، ولا أجد
كلمات أشرح لها بها أى شىء • واعلم أيضاً ، يا أركادى ماكاروفتش ،
أننى فى صباح أمس ، حين جاءت تزورنى آخر مرة ، كشفت لها عن
خداعى ، فاعترفت بأننى ذهبت الى آنا أندريفنا خاطباً • لم أستطع أن
أبقى هذا السرّ حملاً ثقيلًا على ضميرى قبل قرارى الأخير الذى كنت
قد اتخذته ، فلم يسعنى الا أن اكشف لها عنه حين رأيت حبتها • وقد

غفرت لى ، غفرت لى كل شىء ، لكننى لم أصدقها • ليس هذا منها
غفراناً • فلو كنت فى مكانها لما غفرت •

• تذكرنى •

صديقك الأمير الأخير التمس

سوكولسكى

وقد بقيت فى سريرى بلا شعور تسعة أيام تماماً •

الجزء الثالث

الفصل الأول

١



فلنتكلم عن غير هذا تماماً •
الحق أنني أقول دائماً « فلنتكلم عن غير هذا » ،
نم اذا أنا أعود الى الكلام عن نفسي • كنت قد
أعلنت مع ذلك ألف مرة أنني لا أنتوى أبداً أن
أحكي عن نفسي ، وكنت قد عزمت أمرى على ذلك جازماً حين بدأت
تدوين هذه الأمور : اننى أدرك حق الادراك أن ما يحدث لى لا يهم
القارىء فى شىء • فأنا أصف غيرى وأريد أن أصف غيرى ، فاذا كان
شخصى يعود فيندس تحت قلعى دائماً ، فليس ذلك الا خطأ يؤسف عليه ،
ويستحيل الافلات منه رغم كل ما أملك من ارادة ورغبة • ومما يحز فى
نفسى خاصةً أنني حين أروى أحداث حياتى بمثل هذه الحرارة المتأججة
كلها أوهم القارىء بذلك أنني لا أزال الآن كما كنت فى ذلك الوقت •
ولكن القارىء يتذكر على كل حال أنني هتفت أقول غير مرة : « آه •••
ليت المرء يستطيع أن يبدل الماضى وأن يبدأ كل شىء بداية جديدة ! »
فما كان لى أن أهتف ذلك الهتاف لولا أنني قد تبدلت الآن تبدلاً عميقاً ،
ولولا أنني أصبحت شخصاً آخر يختلف عن الشخص الأول كل
الاختلاف • ذلك واضح وضوحاً قوياً • ولكن ليت القارىء يستطيع أن
يتصور مدى ما أشعر به من ضيق حين أسوق جميع هذه الاعتذارات
وهذه المقدمات التى أضطر أن أدسها كل لحظة فى وسط هذه الصفحات
التي أدونها •

ولا تنتقل من بعد الى الوقائع •

أفقت من غيبوتي بعد تسعة أيام ، أفقت وقد بُعثت بمثاً جديداً ، ولكننى لم أصلح • وكان انبعاني حيوانيسا على كل حال ، اذا نحن فهمنا هذه الكلمة بمعناها الواسع ، ولعل الأمر لو تمّ الآن لجرى مجرى آخر • وكانت فكرتى أو عاطفتى لا تزال (كما كانت من قبل ألف مرة) تنصب على ضرورة أن « أتركهم » كلهم تركاً تاماً ، تركاً حاسماً مطلقاً ، لا كما حدث من قبل حين اتخذت هذا القرار ألف مرة دون أن أفلح فى تنفيذه أبداً • يمينا لم أكن أريد أن أنتقم من أحد ، رغم أننى كنت اشتكى منهم جميعاً • وكنت أهيب نفسى للرحيل دون اشمئزاز ، ودون لعن ، وانما أنا أريد أن تكون لى قوتى الشخصية ، قوتى الحقيقية فى هذه المرة ، قوتى المستقلة « عنهم » جميعاً وعن العالم بأسره ! اننى لا أسجل هذا الحلم كفكرة بل كاحساس عارم لا يغالب سيطر علىّ فى ذلك الوقت • وكنت لا أريد أن أصوغ ذلك الحلم فى كلام ما بقيت راقداً فى السرير • كنت أحس وأنا مريض خائر القوى راقداً فى غرفة فرسيلوف مهجور « منهم » جميعاً ، كنت أحس مدى ما هويت اليه من عجز ، فيؤلنى ذلك ايلاًماً شديداً : كنت قشةً ملقاة على سرير ، لا انساناً ! ولم يكن المرض وحده سبب ذلك ، فما أشد ما أورتنيه هذا من عذاب ! هكذا أخذ يصعد من أعماق كيانى احتجاج قوى ، فكنت أخنق فى قرارة نفسى نوعاً من وقاحة مغالبة وتحدٍ شديد • لا أذكر أن عهداً من عهود حياتى قد حفل بمشاعر الاستملاء والتكبر مثلما حفلت بها هذه الأيام الأولى من نقاهتى ، أعنى الفترة التى كانت فيها القشة ملقاة على السرير •

ولكننى كنت بانتظار تحقيق حلمى ألترزم الصمت ، حتى لقد قررت ألا أفكر فى شىء • ا كنت أسبر وجوههم محاولاً أن أحزر فيها كل ما كنت فى حاجة اليه • وكان واضحاً أنهم هم أيضاً كانوا لا يحبون أن

يسألونى ، ولا ان يظهروا بمظهر المستطلعين ، وانما هم يكلموننى فى أمور ليست بذات بال • فكان هذا يرضينى ويحزننى فى أن واحد • ولن أحلل هذا التناقض • وكنت أرى ليزا أقل مما أرى ماما ، رغم أنها نجىء الى كل يوم ، وربما جاءت فى اليوم مرتين • وقد استخرجت من شذرات من أحاديثهم ومن هيشهم كلها أن ليزا هموماً ومتاعب كثيرة ، وأنها تقيب عن البيت أحياناً كثيرة جدا بسبب مشاغلها ، فكان مجرد تفكيرى فى أن لها « مشاغل » خاصة بها يجرح شعورى ويؤذى نفسى • ولكن هذه الاحساسات كانت احساسات مرضية على كل حال ، احساسات فزيولوجية صرفاً ، فلا داعى الى وصفها • وكانت تاتيانا بافلوفنا أيضاً تجىء الى كل يوم تقريباً ؛ ولئن لم تكن تعاملنى برقة ولطف ، فانها لم تكن تشتمنى كما كانت تفعل من قبل ، وهذا أمر أغاظنى كثيراً ، حتى لقد عبرت لها عن غيظى بسداجة فقلت لها : « أنت يا تاتيانا بافلوفنا تكونين مملّة مضجرة اذا لم تتلقى بشتائم ! ، فاذا هى تجيبنى بلهجة قاطمة : « لن أجيء اليك اذن ! » • وانصرفت • فسررتنى أنا أنى طردت واحدة على الأقل •

ولكننى كنت أعذب أُمى خاصة • كانت أُمى هى التى تحقننى أكثر من غيرها • كانت قد استبدت بى شهوة الطعام استبداداً قوياً ، فكنت أتذمر تدمراً شديداً من أن وجبتى تتأخر دائماً (وهذا ما لم يحدث فى يوم من الأيام) • وكانت أُمى تتفنن فى تخيل ما يرضينى • وقد جاءتنى مرة بالحساء ، وأخذت تطعمنيه بيدها على عاداتها ، فكنت أتذمر وأنا ألثمه • وفجأة خجلت من تدمرى وقلت لنفسى : « ربما كانت هى الوحيدة التى أحبها ، ومع ذلك فهى التى أسومها سوء العذاب » • ولكن فظاظتى لم تهدأ ، ثم اذا بهذه الفظاظه تمحول الى بكاء فجأة • فظننت المسكينه اننى أبكى حناناً ورقة ، فمالت على وطفقت تقبلنى • فصبرت ، وتركت

• للزوبعة أن تنقضي ، ولكنني في تلك اللحظة قد كرهت أني في الواقع •
والحق أنني قد أحببتها دائماً ، وحتى في تلك اللحظة كنت أحبها ، فليس
صحيحاً أنني كرهتها ، وإنما حدث عندئذ ما يحدث دائماً : ان الذي
نحبه أكثر من غيره نعذبه قبل غيره •

والشخص الذي كنت أبغضه حقاً في تلك الأيام الأولى انما هو
الطبيب • كان هذا الطبيب شاباً متعجرف الهيئة ، شرس اللهجة ، بل
قليل التهذيب • ان أمثال هذا الطبيب يصطنعون دائماً وضع من حقق في
العلم اكتشافات خارقة مفاجئة بالأمس القريب ، ولا يكون الأمس القريب
قد شهد شيئاً ذا بال • ولكن هذا شأن « التافهين » و « العامين » • وقد
صبرت عليه طويلاً ولكنني انفجرت أخيراً على حين بفتة ، فأعلنت له
أمام جميع من في الدار أنه يزعج نفسه في غير طائل ، وانني سأشفي بدون
أن يكلف نفسه عناء مداواتي ، وأنه رغم ما يتظاهر به من أنه
واقعي، محشو العقل بالأوهام، وأنه لم يدرك حتى الآن أن الطب لم يشف
أحدًا من مرض في يوم من الأيام ، وأنه في أغلب الظن جاهل جهلاً
فاحشاً ، « كسائر اختصاصيي هذا الزمان الذين يشمخون بأنوفهم كثيراً » •
وقد استاء الطبيب استياءً شديداً (فظهر بذلك على حقيقته) ، ولكنه ظل
يعودني • وقد أعلنت لفرسيلوف أخيراً أنني ، اذا لم ينقطع الطبيب عن
زيارتي ، فلأقولن له كلاماً أغلظ مما سبق أن قلته له عشرة أضعاف •
فأجابني ان قول كلام أغلظ ضعفين اثنين أمر مستحيل ، فما بالك بكلام
أغلظ عشرة أضعاف ! فسرتني ملاحظة فرسيلوف هذه •

يا له من انسان على كل حال ! أقصد فرسيلوف • لقد كان وحده
سبب كل شيء • ومع ذلك كان الوحيد الذي لم أغضب منه • وليست
معاملته وحدها هي التي فتنتني ، وإنما كان كل منا يحس أن عليه ايضاحات
يجب أن يقدمها لصاحبه ، فالأفضل لهذا السبب ألا يوضع أحد لأحد

شيئاً قط . انه لشيء ممتع فى ظروف كهذه الظروف أن يعامل المرء رجلاً ذكياً ! سبق أن قلت ، فى الجزء الثانى من روايتى ، مستبقاً الأمور ، ان فرسيلوف كلمنى بايجاز شديد عن رسالة بعثها الى الأمير المعتقل ، وعن سرشيشيكوف واعتذاره لى ، النخ . واذ أننى كنت قد أزمعت الصمت ، فقد ألقيت عليه ، بأشد ايجاز ممكن ، سؤالين أو ثلاثة أسئلة مقتضبة ، فأجاب عنها اجابات واضحة دقيقة ، ولكن دون أن تشتمل اجاباته على كلمات زائدة ، ودون أن تشتمل على عواطف زائدة ، وهذا أعلى قيمة أيضاً . ان العواطف الزائدة هى ما كنت أخشاه فى ذلك الحين .

ولست أقول شيئاً عن لامير ، ولكن لاشك أن القارىء قد حزر أننى كنت أفكر فيه كثيراً . لقد تكلمت عن لامير أثناء الهديان مراراً . ولكن حين أفقت من غيبوتى ، وألقيت بضع نظرات حولى ، فأننى سرعان ما اعتقدت أن حكاية لامير لا تزال سرا ، وأن أحداً لا يعرف عنها شيئاً ، حتى فرسيلوف . فاغبتبط لهذا وانقضى خوفى . ولكن ما كان أشد دهشتى حين علمت فيما بعد أننى كنت مخطئاً فى اعتقادى : لقد جاء لامير أثناء مرضى ، غير أن فرسيلوف لم يتحدثنى عن مجيئه بشيء ، فاستنتجت من ذلك أننى الآن فى نظر لامير قد انتقلت الى العالم الآخر . ومع ذلك كنت أفكر فيه فى كثير من الأحيان ، أفكر فيه بغير اشمزاز منه ، بل أفكر فيه بمودة له ، كأننى أحس فيه شيئاً جديداً يلبي ما أخذ ينشأ فى نفسى من مشاعر جديدة وخطط جديدة . الخلاصة أننى قررت أن أفكر فى لامير قبل أن أفكر فى أى شيء آخر متى عقدت العزم على الشروع فى التفكير . شيء غريب : لقد نسيت نسياناً تاماً أين يسكن ، وفى أى شارع جرى كل الذى جرى . كنت أتذكر كل شيء : الغرفة ، ألفونسين ، الكلب الصغير ، الدهليز؛ حتى لقد كان يمكننى أن أرسم هذا كله لو شئت . ولكن أين جرت هذه الأحداث كلها ؟ فى أى شارع ؟

فى أفة عمارة ؟ لا أدرى ! نسىت نسىاناً تاماً • والأغرب من هذا اننى لم أدرك ذلك الا فى الیوم الثالث أو الرابع من عودة شعورى الىّ ، أى بعد انقضاء مدة طويلة على شعورى بالقلق من لامبیر •

تكلم هى اذن احساساتى الأولى بعد انبعائى ، لم أذكر منها الا أكثرها سطحية ، ولعلمنى لم أستطع أن أذكر منها الشىء الأساسى • والحق أن الشىء الأساسى لعله تحدد وتبلور فى قلبى فى ذلك الأوان نفسه ؟ اننى لم أقض وقتى كله فى الغضب والحنق من تأخر وصول حسائى • آه •• اننى لأنذكر كم كنت حزیناً ، وكم كان يستبد بى السأم أحياناً ، ولا سيما حين أبقى وحيداً خلال مدة طويلة • كانوا قد لاحظوا ، هم ، أننى أضيق ذرعاً بهم ويشفقتمهم ، فكانوا يتركوننى وحيداً فترات ما تنفك تزداد : افراط فى الذوق !

فى اليوم الرابع من صحوى الكامل ، كنت راقداً على سرىرى فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم يكن معى أحد . كان الجو راتقاً وكنت أعلم أن الشمس ستأفل بعد ثلاث ساعات ، وأن شعاعاً مائلاً أحمر سىسقط على زاوية جدارى ، فىضئها بقعة متوهجة . كنت أعلم هذا من الأيام السابقة ، وكنت أعلم أيضاً أن ذلك سىحدث بعد ساعة حتماً ، فكان يقينى من ذلك سىخطئى الى حد الحنق الشدىد . ولذلك رأيتنى أنقلب الى الجهة الأخرى بحركة متشنجة ، فاذا أنا فجأةً ، فى الصمت العمىق ، أسمع هذه الكلمات سماعاً واضحاً : « يا ربنا يسوع المسيح ، يا الهنا ، ارحمنا ، نطقت هذه الكلمات بما يشبه الهمس ، ثم انطلقت من صدر المتكلم زفرة عميقة ، ثم عاد كل شىء الى الصمت . فأنهضت رأسى بسرعه .

وكنت فىل ذلك ، أمس ، بل أمس الأول ، قد لاحظت أن فىى غرفنا الثلاث ، تحت ، شىئاً خاصاً . فلاىد أن الغرفة الصغىرة التى كانت تقىم فىها ماما ولىزا ، على الجهة الأخرى من الصالة الكبىرة ، تضم الآن شخصاً آخر . وكنت قد سمعت بعض الأصوات عدة مرات ، فى النهار وفى اللىل ، ولكن خلال لحظات قصار دائماً ، فسرعان ما كان الصمت يخىم من جدىد ساعات عدة ، لذلك لم أحفل بالأمر ولا انتهت الىه . وخطر ببالى أمس أن فرسىلوف هو الذى أحدث تلك الأصوات ، لا سىما وأنه جاء الى بعد لحظة . ومع ذلك كنت أعلم من أحادىثهم علم الیقىن أن

فرسيلوف قد انتقل أثناء مرضى الى غرفة أخرى يبيت فيها • أما ماما وليزا فكنت أعلم منذ مدة طويلة أنهما انتقلتا كلاتهما (من أجل هدوئى وراحتى فيما اعتقدت) الى الطابق الأعلى ، الى « تابوتى » القديم ، حتى لقد تساءلت بينى وبين نفسى ذات يوم : « كيف أمكنهما أن تقيما فيه كلاتهما ؟ » • ثم هأنذا أتبين فجأة أن غرفتهما التى كانتا تقيمان بها انما يسكنها اليوم شخص آخر ، وأن هذا الشخص الآخر ليس فرسيلوف • وهأنذا ، بخفة لم أكن أظنها فى نفسى (اذ كنت أتصور حتى ذلك الحين أننى لا أملك أية قوة) ، « أخرج ساقى من السرير ، وأدسهما فى بابوجين ، وألقى على كفى ثوباً للمنزل رمادى اللون مصنوعاً من جلد الحمل كان على مقربة منى (ضحى به فرسيلوف) ، وأسير عبر الصالون متجها الى الغرفة التى كانت تسكنها أمى من قبل • ان ما رأيته هناك قد شدنى وأذهلنى • لم أكن أتصور شيئاً مما رأيت ، فوقفت فى العتبة كالمتمسمر •

ان فى الغرفة شيخاً أشيب الشعر تماماً ، له لحية بيضاء بياضاً هائلاً ، كان واضحاً أنه مقيم هنا منذ مدة طويلة • ولم يكن الشيخ جالساً على السرير ، وانما هو جالس على كرسى ماما ، مستند الى السرير بظهره فحسب ؛ وكان عدا ذلك منتصب الجذع فى جلسته ، فكأنه ليس فى حاجة الى أى امتداد رغم ما به من مرض بين لا يخفى • وكان يرتدى فوق قميصه سترة مبطنة بفراء خروف ، ويغطفى ركبتيه بشال لأمى ، وينتعل بابوجين • لا بد أنه طويل القامة • وهو عريض المنكبين ، تدل هيئته على شكيمة قوية ، رغم مرضه ورغم شيء من الشحوب والنحول ؛ وهو يبضوى الوجه ، شعره غزير ولكنه ليس طويلاً جداً ؛ ويبدو أنه تجاوز السبعين من عمره • وعلى مقربة منه ، فوق مائدة صغيرة فى متناول يده ، ترقد ثلاثة كتب أو أربعة ، ونظارتان من فضة • فما ان أبصرته حتى حذرت من هو ، رغم أننى لم يخطر ببالى لحظة واحدة أن ألقاه ، ولكننى

لم أستطع أن أفهم كيف أمكن أن يفضى هذا الوقت كله بجوارى مستخفياً
هذا الاستخفاء الذى بلغ من الشدة أننى لم يدر فى خلدنى وجوده .

لم يتحرك حين رآنى ، وانما نظر الىّ ملياً بصمت ، ونظرت اليه
أما كذلك ، مع فارق واحد هو أننى أظهرت دهشةً شديدة ، أما هو فلم
يظهر أية دهشة . حتى انه بعد أن تفرس فىّ خلال خمس نوان أو عشر ،
ابتسم فجأة ، بل ضحك ضحكة خفيفة لا تكاد تدرك ، ضحكة سرعان
ما انقضت ، ولكن بقى أثرها المضى الفرح فى وجهه ، ولا سيما فى
عينيه ، الزرقاوين جداً ، المشعتين ، الواسعتين ، اللتين يعلوها حاجبان
متنقخان متهدلان من الشيخوخة ، وتحيط بهما غضون صغيرة لانهاية
لعددها . ان ضحكته خاصةً هى التى أثرت فى نفسى .

أنتى أرى أن الانسان حين يضحك يكون منظره منفراً فى أكثر
الآحيان . فالضحك يبرز فى العادة لدى الناس نوعاً من العامية والتدنى ،
وان كان الضاحك لا يعرف شيئاً عن الأثر الذى يحدثه فى نفوس
الآخرين . انه يجهل هذا الأثر جهل المرء بشكل وجهه أثناء النوم . فمن
النائمين من تبقى وجوههم ذكيةً ، ومنهم من تصبح أثناء النوم غيبةً
فمضحكةً رغم أنهم أذكىاء . لا أدرى سبب هذه الظاهرة . كل ما أريد
أن أقوله هو أن الضاحك ، كالنائم ، لا يعرف عن وجهه شيئاً فى أكثر
الآحيان . هناك كثرة كبيرة من الناس لا تجيد الضحك البتة . والحق
أن الأمر ليس أمر اجادة يحصلها المرء بالمران ، وانما الضحك موهبة
يوثاها المرء فطرةً ، فاذا أراد أحد أن يحصل هذه القدرة على اجادة
الضحك كان عليه أن يربى نفسه تربية جديدة ، وأن يحسن ذاته ، وأن
ينتصر على غرائزه السيئة ، فاذا فعل ذلك فقد يتحسن ضحكه . ومن
الناس من يفضحهم ضحكهم ، فتمت رأيتهم ضاحكين حزرت فوراً ما تخبئه
بطونهم . فرب ضحكة ذكية حقاً ثم هى تنفرك مع ذلك أحياناً . ان

الضحك يقتضى الصراحة قبل كل شيء : فإين الصراحة فى البشر؟ والضحك يقتضى نفساً طيبة كريمة ، والناس فى أكثر الأحيان انما يصدرون فى ضحكهم عن خبث وشر . والضحك الصريح الذى لا شر فيه فرح : فأين الفرحة فى زماننا هذا وأين الناس الذين يعرفون كيف يفرحون ؟ (هذه الملاحظة عن الفرحة فى زماننا انما سمعتها من فرسيلوف فحفظتها) . فرح الانسان هو السمة التى تكشف عن خلقه أكثر من سائر سماته ، الى جانب رجليه ويديه . هناك طباع لا تستطيع أن تنفذ اليها ، فاذا اتفق لأحد الذين يملكون طبعاً من هذه الطباع أن انفجر يضحك أمامك ضحكاً صريحاً ذات مرة ، رأيت طبعه مبسوطاً أمام بصرك فوراً . لا أحد الا أولئك الذين ينعمون برقى رفيع سعيد ، يمكن أن يفرح فرحاً معبراً سارياً ، فرحاً طيباً لا سبيل الى مقاومة فتنته . ولست أقصد هنا رقى الذكاء والعقل بل رقى الطبع والخلق ، أعنى رقى الانسان كله جملةً . لذلك اذا أردت أن تدرس امرأ وأن تعرف نفسه فلا تنبته الى طريقته فى الصمت ، أو فى الكلام ، أو فى البكاء ، أو حتى فى تأثره بأبل المعانى والأفكار ؟ وانما انظر اليه حين يضحك . فاذا أحسن الضحك فهو امرؤ طيب . وعليك أن تلاحظ الفروق الطفيفة : يجب مثلاً ألا يبدو لك ضحكه غيباً بحال من الأحوال مهما يكن هذا الضحك صريحاً ومهما يكن بريئاً وساذجاً . فمتى لاحظت فى ضحكه أية علامة من علامات الغباء فاعلم أنه انسان محدود العقل ، مهما يحفل عقله بأفكار كثيرة . واذا لم يكن ضحكه غيباً ، لكنه بدا لك هزلاً على حين فجأة ، فاعلم أن هذا الانسان لا يحترم نفسه احتراماً حقيقياً ، أو لا يحترم نفسه احتراماً كاملاً . واذا كان هذا الضحك معبراً وسارياً ولكن بدا لك عامياً مبتذلاً فاعلم أن طبيعة الرجل عامية ، وأن كل ما تكون قد لاحظته فيه قبل ذلك من نبل وسمو انما كان مقصوداً أو مصطنعاً أو مستعاراً على غير شعور منه ، وأن الرجل سيرتد حتماً الى

طبيعته السيئة ، فيهتم بما يعود عليه « بارباح » ، وينبذ آراءه السمجة
الكريمة نبذاً لا هوادة فيه ولا رحمة ، ويعدّها من أخطاء الشباب
وحماساته .

اذا كنت أسهب هذا الاسهاب الطويل فى الكلام عن الضحك مضحياً
بمواصلة سرد قصتى فلست أفضل ذلك استطراداً بغير نية . اننى أعد هذه
الآراء نتيجةً من أئمن النتائج التى استخلصتها طوال حياتى . واننى أوصى
بها القتيات المخطوبات اللواتى يوشكن أن يتزوجن الخطيب ولكنهن
مازلن يتفرسن فيه بشك وحيرة ولماً يمزمن أمرهن بعد . ألا لا تسخروا
من مراقق يتصدى لاعطاء دورس فى أمور الزواج التى لا يفهم منها شيئاً .
اننى أعرف شيئاً واحداً لا أكثر : هو أن الضحك أضمن مقياس تُعرف به
النفس . انظروا الى الأطفال : ان بعضهم يحسنون الضحك احساناً تاماً ،
وهذا هو السبب فى أن المرء لا يستطيع أن يقاوم فنتتهم . ان الطفل البكاء
كربه الى نفسى ، أما الطفل الذى يضحك ويتهيج فانه شعاع من الجنة ،
واطلالة على المستقبل الذى سيصبح فيه الانسان آخر الأمر طاهرٌ طهارة
طفل ، ساذجاً سذاجة طفل .

ولقد كان فى الضحكة العارضة التى ضحكها ذلك الشيخ شىء
من طفولة لا حدود لفتنتها . فسرعان ما دنوت منه .

قال لى بلطف وهو يشير الى مكان بقربه ، ويرمقنى بتلك النظرة المشعة نفسها :

- اجلس ، اجلس لحظةً ، فلا تزال ساقاك ضعيفتين •

فجلست الى جانبه وقلت له :

- اننى أعرفك • أنت ماكار ايفانوفتش •

- نعم يا عزيزى • حسن أنك تقف الآن على قدميك • انك شاب •

هذا حسن لك • للشيخ القبر ، وللشاب الحياة •

- هل أنت مريض ؟

- نعم يا صديقى ، السافان خاصةً • حملتنى سافاى المسكيتان حتى وصلت الى هنا ، ولكن ما لبثتا أن تورمتا منذ جلست • بدأ هذا يوم الخميس الماضى ، حين وقف الترمومتر (ملاحظة : يقصد حين تجلد من البرد) • كنت قبل ذلك أدهنهما بمرهم • الدكتور لشتن ادموند كارلوفتش هو الذى وصف لى ذلك المرهم بموسكو منذ ثلاث سنين ، وكان ذلك المرهم ينفعى كثيراً • ومنذ أمس ، سرى الوجع الى الظهر ، حتى لكأن الكلاب تنهش ظهري نهشاً ••• وصرت لا أنام الليل ••

قاطعته سائلاً :

- وكيف لا 'يسمع لك صوت هنا البتة ؟

فنظّر الىّ وبدأ مفكراً ، ثم أضاف يقول كأنما وافقته ذكرى
مباغتة :

- حذار أن توظف أمك • لقد ظلت تضطرب حولي طول الليل ،
ولكن بدون أن يُسمع لها أى صوت ، كما لا يسمع صوت لفراشة •
وهي الآن ترتاح •

وتنهد قائلاً :

- شيء حزين أن يكون المرء شيخاً مسكيناً • لا أدرى بمن تشبثت
روحي ، ولكنها لا تزال صامدة ، وهي سعيدة بأن تبقى في هذا العالم ،
بل لو كان عليها أن تستأنف حياتها كلها على هذه الأرض لما جزعت من
ذلك • ولكن لعل مثل هذه الفكرة اثم •

- لماذا تكون اثمًا ؟

- هذه الفكرة حلم ، وعلى الشيخ أن يمضي الى نهايته • نعم ان
استقبال الموت بتذمر أو استياء اثم كبير • على كل حال ، اذا كان حب الحياة
ناشئاً عن فرح روحي ، فأظن أن الله سوف يغفره حتى لشيخ • يصعب
على الانسان أن يعترف الفرق بين ما هو اثم وما ليس باثم • هذا سر يفوق
العقل الانساني • وعلى الشيخ أن يكون دائم الرضى ، وأن يموت مغموراً
بضياء روحه ، سعيداً بما قضى من أيام ، متطلعاً الى ساعته الأخيرة ،
فرحاً بالرحيل كسنبلة تنضم الى باقة السنابل ، بعد أن حقق سرّه •

- أراك تتكلم دائماً عن السر • فما الذى تعنيه بقولك :
« حقق سره » ؟

سألته هذا السؤال وأنا ألقى نظرة على الباب • كنت سعيداً بأننا
وحيدان ، وأن كل ما حولنا سكون وهدوء • وكانت الشمس تسطع قوية
على النافذة قبل أقولها • وكان الشيخ يتكلم بشيء من التفخيم وبدون دقة

كأنه كان فرحاً بوجودى حقاً • ولكننى لاحظت أنه يعانى من حمى لا شك فيها ، بل يعانى من حمى قوية • وكنت مريضاً أما أيضاً ، وكنت أشعر بحمى كذلك منذ دخلت عليه • قال :

- ما هو السر ؟ كل شيء سر يا صديقى • سر الله موجود فى كل مكان • كل شجرة • كل عنبية تشتمل على سر • أن يفرد طير صغير ، وأن تسطع النجوم مثلأثة فى الليل ، فذلك كله سر ، ذلك كله سر واحد • ولكن ما ينتظر نفس الانسان فى العالم الآخر هو سر الأسرار ، هو أكبر الأسرار • هكذا يا صديقى !

- لا أدرى ماذا تعنى •• وثق اننى لا أقول هذا الكلام مناكدة لك، وثق أننى أو من بالله • ولكن هذه الأسرار جميعها قد كشف عنها العقل منذ مدة طويلة ، وما لم يكتشفه العقل فسوف يكتشفه يوماً - هذا مؤكد حتماً - وربما اكتشفه فى وقت قريب • عالم النبات يعرف تماماً كيف تثبت الشجرة ، وعالم الفزيولوجيا وعالم التشريح يعرفان لماذا يفرد الطائر ، أما النجوم فقد أحصى عددها ، بل حسبت كل حركة من حركاتها حتى يمكن التنبؤ بظهور أى مذنب قبل ألف سنة من ظهوره بخطأ لا يتجاوز دقيقة واحدة • وحتى تركيب أبعد الكواكب صار الآن معروفاً • خذ مجهرأ - المجهر عدسة مكبرة تضخم الأشياء مليون مرة - وانظر فى قطرة ماء • ولسوف ترى فى قطرة الماء عالماً كاملاً يعج بال مخلوقات الحية ، وكان ذلك سرا فاكشفناه •

- سمعت أناساً يتكلمون عن هذا مراراً كثيرة يابنى • لست أنكر أن ذلك شيء عظيم مدهش • كل شيء 'وهب للانسان بارادة الله • ليس عبناً أن أعطى الله الانسان نسمة الحياة : « عش واعرف » •

- هذه معان تلوكها جميع الألسن • ما أنت مع ذلك بعدو من أعداء العلم ، ما أنت كهنوتى ؟ أعنى ••• لا أدرى هل تفهم •••

- لا يا بنى ، لقد احترمت العلم دائماً منذ أن كنت صبياً ، وإذا كنت لا أعرف من العلم شيئاً فأننى لا أناصبه العداء . مالم يوهب لنا قد وهب لآخرين . ولعل فى هذا خيراً : كل امرئ ميسر لما خلق له . ذلك أن العلم يا بنى ليس دائماً ميزة . فمن الناس من ينقاد للرغبة فى ادهاش العالم ، فلو كنت عالماً فقد أرغب فى ذلك أكثر من سائر البشر . أما وأنتى جاهل فكيف يمكننى أن أتباهى؟ ولكنك أنت شاب ملئ ذكاء . وذلك قدرك . فعليك بالدراسة . حاول أن تعرف كل شيء ، فإذا لقيت رجلاً زنديقاً أو رجلاً تافهاً كان فى وسعك أن ترد عليه ، ولا يفرنك بأقوال باطله تعمر عقلك الغض . أما تلك العدسة التى جئت على ذكرها فقد رأيتها منذ مدة ليست بالطويلة كثيراً .

قال ذلك واسترد أنفاسه وتهد . ولا شك أن مجيئى إليه قد سرَّ سروراً عظيماً . كانت تتملى فى نفسه حاجة قوية الى البوح ، حاجة تكاد تكون مرضية . زد على ذلك أننى لا أظننى مخطئاً اذا قلت انه كان فى بعض اللحظات ينظر الى نظرات تزخر بماطفة قوية : كان يضع يده على يدى بحضان ، ويلعب كفتى ولكن يجب أن أعترف أنه كان فى لحظات أخرى يبدو كمن نسينى نسياناً تاماً ، فكأنه وحيد فى الغرفة ، فاذا واصل كلامه بحماسة كان كمن يكلم نفسه .

تابع يقول :

- ان فى دير جناديفا - بوستين ، يا صديقى ، رجلاً عظيماً الذكاء ، نبيل الأصل ، واسع الثراء ، برتبة ليوتنان كولونيل . لقد امتنع هذا الرجل عن الزواج منذ كان يعيش فى المجتمع . وهو الآن فى الدير منذ قرابة عشر سنين ، انفصل عن الناس حياً بالسكون والوحدة وأراح حواسه من أباطيل الحياة الاجتماعية . انه يلتزم جميع قواعد الحياة الرهبانية ، ولكنه لا يريد أن يرتدى مسوح الرهبان . وما أكثر ما عنده

من كتب يا صديقي ! اننى لم ار هذا القدر من الكتب فى أى مكان الا عنده ! نمنها يبلغ نمائة آلاف روبل . هو قال لى ذلك . اسمه بطرس فالريانتش . وقد علمنى أشياء كثيرة فى فترات مختلفة ، فطالما كنت أحب أن أصغى اليه . قلت له ذات مرة : « كيف يا سيدى وأنت رجل عظيم الفكر يعيش منذ عشر سنين فى طاعة النظام وهجر الارادة والتمازل عن الرغبة ، كيف لا تتمنى أن ترتدى المسوح فتزداد كمالاً ؟ » فقال لى : « كيف يا شيخ تجرؤ أن تزعم لى فكراً عظيماً ؟ لعل فكرى هو الذى أسرنى واستعبدنى بدلاً من أن أروّضه وأسيطر عليه . وما هذا الذى تقوله عن طاعتى ؟ لعلنى منذ مدة طويلة قد فقدت القصد والاعتدال ! وتكلم أيضاً عن هجرى ارادتى وتسازلى عن رغبتى ؟ فاعلم اذن أننى مستعد لأن أدع على الفور مالى ، وأن أردّ رتبى ، وأن أضع على هذه المائدة جميع أوسمتى .. ولكن غليونى .. هأنذا منذ عشر سنين أخشى ألا أستطيع الاستغناء عنه ! فأىّ راهب يمكن أن أكون ، وأين هجر الارادة الذى تمدحه فى ؟ » دهشت عندئذ من هذا التواضع . وقد مررت بذلك الدير فى الصيف الماضى يوم القديس بطرس - أراد الله لى ذلك - فماذا رأيت فى الحجره ؟ رأيت ذلك الشيء الذى حدثتى عنه : مجهراً كان الرجل قد استقدمه من الخارج وتحمل فى سبيل ذلك نفقات ضخمة . قال لى : « انتظر قليلاً ، سوف أريك شيئاً مدهشاً لم تره فى حياتك حتى الآن . هل ترى هذه القطرة من الماء ؟ انها صافية راتقة كدمعة . فانظر اذن الى ما فى داخلها . لتجدنّ أن علماء الميكانيكا سيكشفون قريباً عن جميع أسرار الرب .. فلا يدعون منها واحداً » . هذا ما قاله وقد حفظته . وكنت أنا قد نظرت فى المجهر قبل ذلك بخمسة وثلاثين عاماً عند مولانا الكسندرا فلادميروفتشى ماجلاسوف ، خال آندره بتروفتشى ، الذى آلت أملاكه بعد وفاته الى آندره بتروفتشى . لقد كان سيداً خطير الشأن ، وكان جنرالاً

كبيراً ، وكان يملك رهطاً كبيراً من كلاب الصيد ، وقد عملت عنده
صيادا بالكلاب مدة طويلة . وكان قد احضر هو أيضا هذا المكروسكوب ،
فكان يدعو جميع الناس بعضاً وراء بعض ، رجالاً ونساءً ،
للنظر فيه ، عارضاً تحت عدسته قملةً وبقةً ورأس دبوس
وشعرة وقطرة ماء . ما أكثر ما تسلينا وضحكنا ! كنا نخاف أن نقرب من
المكروسكوب ، ولكننا كنا نخاف مولانا أيضاً اذا نحن لم نقرب ، لأنه
كان شديد الغضب . وكان بعضنا لا يعرف أن ينظر ، فهم يغمضون
أعينهم فلا يرون شيئاً . وكان آخرون يصرخون جزعاً وهلعاً . حتى ان
العمدة سافين ماكاروف وضع يديه على عينيه صارخاً : « اصنع بي ما نشئت
فلن أنظر ! » ، فانطلق الضحك من كل صوت ! كنت اذن قد رأيت هذا
المكروسكوب قبل ذلك بمدة طويلة ، قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين
عاماً ، كنت قد رأيت هذه المعجزة ، ولكنني لم أقل هذا لبطرس
فالريانوفتش ، اذ كان يسره سروراً عظيماً أن يريها . حتى لقد تظاهرت
بأنني أدهش وأرتاع . فتركتني لحظةً ثم سألتني : « فما قولك يا شيخ ؟ » .
قلت وأنا انتصب : « الرب قال : كن يا ضياء فكان الضياء . » فأجابني
فجأةً : « لعل الظلمات هي التي كانت ! » قال ذلك بطريقة غريبة دون أن
يبتسم . وشعرت في تلك اللحظة باستغراب ، أما هو فقد كاد يغضب
ثم لم يقل بعدئذ شيئاً .

قلت له :

- الأمر بسيط جداً ، ان صاحبك بطرس فالريانوفتش يقيم في
الدير ليأكل كوتيا ويركع ويسجد ، لكنه لا يؤمن بالله ، وأنت انما
وقعت عليه وهو في لحظة من لحظات صراحته تلك . هذا كل شيء ، ثم
انه شخص عجيب جداً : فلا شك أنه رأى هذا المكروسكوب عشر مرات ،

فلماذا جنَّ به في المرة الحادية عشرة ؟ هذه حساسية عصبية ... أغلب الظن أنه اكتسبها في الدير .

قال الشيخ باقتناع :

– انه رجل طاهر القلب رفيع الفكر ، وليس زنديقاً . ان له عقلاً واسعاً ، ولكن قلبه فلق . وما أكثر أمثاله الذين يفدون علينا من عند هؤلاء السادة العلماء . ثم اسمع ما سأقوله لك : ان الرجل يعاقب نفسه . فلاحظ هؤلاء الناس ، ولا تمذّبهم ، واذكرهم في صلواتك قبل النوم ، لأنهم انما يبحثون عن الله . هل تصلى قبل أن تنام ؟

– لا . أنا أعتقد أن الصلاة طقس من الطقوس السخيفة لا طائل فيه . ولكن يجب أن أعترف لك أن صاحبك بطرس فالريانوفتش يعجبني : فهو على الأقل ليس خرقه بل رجلاً ، وهو يشبه بعض الشبه رجلاً آخر قريباً منا نعرفه كلانا .

لم يتبّه الشيخ الا الى الجزء الأول من جملتي . وأردف يقول :

– خطأ منك يا صديقي ألا تصلى . الصلاة شيء حسن يبهج القلب عند النوم وعند الصحو في الصباح وحين يستيقظ المرء في الليل . أنا أقول لك هذا . في صيف من الأصيف ، في شهر تموز (يولييه) ، كنا نحت الحطى نحو دير « العذراء » احتفالاً بعيد . فكلما اقتربنا من المكان ازداد عدداً ، فإذا نحن نصبح مائتي شخص تقريباً ، مسرعين الى تقبيل الرفات المقدس للشهيدين آيكى و جريجوار . كنا قد قضينا الليل في حقل من الحقول ، وفتحت عيني في الفجر حين كان الجميع لا يزالون نائمين وحين لم تكن الشمس قد خرجت بعد من الغابة . رفعت رأسي يابني ، وشملت الأفق بنظرة وتهدت : كان كل شيء جميلاً جمالاً لا يوصف ! كل شيء هادئ ، الهواء نسيم ، العشب ينبت – انبت يا عشب الرب ... والطاقم

الصغير يفرد - غرّد يا طائر الرب ... والطفل الصغير يزقرق على ذراعى
أمه - ليحرسك الله أيها الرجل الصغير ، اكبر وكن سعيداً ! لعلى أدركت
الجمال يومئذ أول مرة فى حياتى ! وعدت أرقد ، ونمت نوماً ما كان
أخفه وأحلاه ! العالم جميل يا صديقى ! اذا تحسنت صحتى فسوف أستأنف
طوافى متى طلع الريح . اذا كان هناك أسرار ، فمرحّباً بالأسرار .
صحيح أن الأسرار تهرب القلب وتثير فيه العجب ، ولكن هذا الخوف
يبهج القلب أيضاً : « كل شىء متجمع فىك أيها الرب ، أنا نفسى موجود
فىك ، فخذنى اليك ! » .

وأضاف يقول برقة وحنان :

- لا تتمللم يا فتى ! لأن يوجد سر فذلك أجمل .

- « لأن يكون سر فذلك أجمل ... » . سوف أتذكر هذه
الكلمات . الأسرار تهرب القلب ، كما عبرتَ عن ذلك تعبيراً غير
صحيح ، ولكننى أفهم ... ان ما يدهشنى هو أنك تعرف وتدرك أموراً
أكثر مما تستطيع التعبير عنه . ولكن كأنك تتكلم وأنت فى حالة
هذيان ...

أفلتت منى هذه الجملة وأنا أرى عينيه المحمومتين ووجهه الشاحب .
ولكن أظن أنه لم يسمنى .

واستأنف كلامه فقال كمن يتابع كلامه الذى انقطع :

- هل تعرف يا بنى الصغير أن لذكرى الانسان على هذه الأرض
حداً ؟ ان هذا الحد لا يتجاوز مائة سنة . قد تبقى ذكرى المرء عند أولاده
أو أحفاده الذين رأوا وجهه . واذا بقيت ذكراه مدة أطول ، فانما تكون
بعد ذلك ذكرى شفوية ، ذكرى عقلية ، لأن جميع الذين رأوا وجهه الحى
سوف يمضون وسوف يخفى العشب قبره فى المقبرة ، وتنكسر الشهادة ،
وينساه جميع الناس حتى أعقابه ، وأخيراً ينسون اسمه أيضاً ، لأن الذين

تبقى اسمائهم فى ذاكرة البشر قلة قليلة جداً • لا بأس ! فليسى
أعزائى • ولكننى سأظل أنا أحبهم من قرارة قبرى • أيها الأولاد الصغار ،
اننى أسمع أصواتكم الفرحة ، وأسمع أصوات وقع أقدامكم على قبور
آبائكم فى يوم عيد الأموات ، وسوف أصلى من أجلكم ، وسوف أنزل
اليكم فى أحلامكم ••• ان الحب يبقى بعد الموت ! ••

كنت فى حمى مثله • وبدلاً من أن أنصرف أو أن أحضه على أن
يهدأ ويسكن ، أو أن أرقده فوق سريره ، لأنه كان يبدو فى حالة هذيان
كامل ، أمسكت يده فجأة ، وقلت له وأنا أميل عليه وأشد على يده ،
قلت له بهمس متأثر ودموع فى القلب :

- اننى سعيد برؤيتك • لعانى كنت أنتظرِكَ منذ مدة طويلة •
لا أحب أحداً : ليس فى أحد منهم جمال •• لن أتبعهم ، ولا أعرف
الى أين أذهب ، فسأمضى معك •••

ولكن شاء حسن الحظ ان تدخل أُمى فى تلك اللحظة • فلولا ذلك
لما عرفت كيف كان يمكن أن ينتهى الأمر • دخلت دخول شخص استيقظ
الآن وأوجس خطراً • وكانت تحمل بيدها قارورة وملقحة حساء • فلما
رأتنا صاحت تقول :

- آ ••• توقعت هذا ! لقد نسيت أن أجرعك جرعة الكينا فهانت
ذا قد اعترتك حمى شديدة ! نمتُ مدةً طويلة يا مكارا ايفانوفتش ،
يا عزيزى !

نهضت وخرجت • وأعطته أُمى جرعته وأرقدته على السرير •
واندستت أنا أيضاً فى سريرى ، ولكننى كنت مضطرباً أشد
الاضطراب • لقد رجعت الى غرفتى وأنا أشعر بدهشة كبيرة ، وأخذت
أفكر فى هذا اللقاء بكل ما أملك من قوة • لا أدرى ماذا كنت أنتظر من

هذا التفكير • وأغلب الظن اننى كنت أفكر فى الأمور تفكيراً مشوشاً لا تسلسل فيه ، وأن ما كان يتلاحق فى ذهنى لم يكن أفكاراً بل شذرات أفكار • كنت فى اضطجاعى متجهاً برأسى الى الجدار ، فإذا أنا أرى البقعة المضيئة المتوهجة التى أسقطتها الشمس الغاربة على الزاوية ، والتى كنت أنتظرها من قبل ساخطاً لاعتناً • اننى أتذكر أن نفسى كلها قد اشتعلت حماسة فى تلك اللحظة ، كأن شعاعاً جديداً قد نفذ الى قلبى • اننى أتذكر تلك اللحظة العذبة ، ولا أريد أن أنساها • لم تكن الا لحظة أمل جديد ، وقوة جديدة ••• كنت قد بدأت فترة التقاهة طبعاً ، فمن الجائز اذن أن تلك النوبات لم تكن الا نتيجة لا مفرّاً منها لحالة أعصابى ، ولكننى ما زلت الى اليوم أو من بذلك الأمل المضى الذى ملأ نفسى • ذلكم ما أردت اليوم أن أسجله وأن أحفظه • صحيح أننى كنت أعلم حق العلم أننى لن أصحب ماكار ايفانوفتش لأجوب الأرض مثله ، وأننى كنت أجهل أنا نفسى ماذا كان ذلك التطلع الجديد الذى استولى على نفسى ، ولكننى كنت قد نطقت بتلك الجملة ، ولو فى الهذيان : « ليس فيهم جمال ! » قلت أحدث نفسى مفتتاً : « انتهى الأمر ، سوف أبحث منذ هذه اللحظة عن الجمال ، وهم ليس فيهم جمال ، فسأتركهم ، • وسمعت حفيفاً ورائى ، فالتفت • انها ماما ، تميل على وتنظر فى عينى مستطلعةً على خجل • فأمسكت يدها فجأة ، وسألته دون أن أتوقع أنا نفسى ماذا كنت سأقول :

— لماذا لم تقولوا لى شيئاً عن ضيفنا العزيز ؟

فإذا بقلقها كله يختنى بغتةً ، وإذا الفرح يضىء وجهها ، ولكنها لم تجبني الا بهذه الكلمات :

— لا تسس أيضاً ليزا ، ليزا • انك قد نسيت ليزا •

قالت ذلك بسرعة وقد احمر وجهها ، وهمت بالانصراف مستعجلةً ، لأنها كانت هى أيضاً تكره أن تبسط عواطفها • انها من

هذه الناحية تشبهني ، أعني أنها مغلقة على نفسها عفة • هذا عدا أنها ما كانت لتريد أن تتسرع في حديث معي عن هذا الموضوع : ماكار ايفانوفتش • كان ما استطعنا أن نتبادل من نظرات كافياً • ولكنني ، أنا الذي أكره أن أعرض عواطفى ، قد احتجزتها عنوةً بأحدى يديّ ، وأخذت أنظر فى عينيها برقة ، وأضحك برفق ولطف، والامس باليد الأخرى وجهها العزيز وخذيتها الحاسمتين • فمالت علىّ ، ووضعت جبينها على جيني ، ثم قالت لى فجأة وهى تنتصب مشرقة المحيا :

- أبلّ من مرضك فأكون لك شاكرة • انه مريض ، مريض جداً •• ان حياته بين يدي الرب •• آه ! ما هذا الذى قلته ؟ مستحيل ! ••

وانصرفت • لقد ظلت طول حياتها خائفةً مرتعدة زاخرة النفس بالاحترام والتعظيم والتكريم لزوجها الشرعى ، الجوّاب ماكار ايفانوفتش ، الذى غفر لها الى الأبد بنفس كبيرة وقلب عظيم •

الفصل الثاني

١



ما نسيت ليزا • أخطأت ماما الظن • لقد رأيت
هذه الأم الحساسة أن هناك نوعاً من الفتور بين
الأخ وأخته ، ولكن هذا لم يكن وهنا طراً على
ما يربطهما من عاطفة ، وانما كان ضرباً من
الغيرة • وهأنذا أشرح ما فى نفسى بضع كلمات •

ان المسكينة ليزا قد انتابها مند اعتقال الأمير نوع من الاستعلاء
المنطرس ، والتكبر الشديد الذى لا يكاد يحتمل • ولكن كل من فى
البيت قد أدرك الحقيقة ، فعرف أنها تعاني عذاباً قوياً ، ولئن حزنت أنا فى
أول الأمر وقطبت حاجبى ، فانما كان مرد ذلك الى ما أتصف به من سرعة
التأذى وفرط الحساسية ، وهما أمران زاد المرض حدتهما عندي ، أو هذا
ما أقدّره الآن • ولكننى لم أقطع عن حب ليزا أبداً • بالعكس : اشتد
فى نفسى ما كنت أحمله لها من حب • كل ما هنالك أننى لم أشأ أن أقوم
بالخطوة الأولى ، رغم أننى أدركت أنها هى أيضاً لن تقوم بالخطوة الأولى
فى حال من الأحوال ، مهما كلفها الأمر •

ان ليزا ، منذ 'عرفت قصة الأمير فور اعتقاله ، سارعت تتخذ منا ومن
جميع الناس موقف انسان لا يمكن أن يحتمل أن يرثى أحد لحاله أو أن
يشفق عليه أو أن يسرى عنه بمحاولة تبرئة الأمير • بالعكس : أصبحت ،
مع حرصها على ألا تفصح عما بنفسها وألا تجادل أحداً قط ،

تصطنع هيئة من يمجّد سلوك خطيئها المسكين ويعدّه بطولة ما بعدها بطولة .
لكأنها كانت تقول لنا جميعاً في كل لحظة (دون أن تنطق بكلمة ، أكرر
هذا) : « لا أحد منكم يمكن أن يفعل ما فعله هو أبداً . لا أحد منكم
يمكن ان يسلم نفسه مدفوعاً الى ذلك بدواعي الشرف والواجب . ذلك
أنكم لا أحد منكم يملك وجدانا يبلغ هذا المبلغ من الرهافة والطهارة .
أما عن أعماله فأى انسان من البشر لا تثقل على ضميره سيئة من السيئات ؟
الآخرون يكتمون ويخفون أما هو فقد آثر أن يهلك على أن يفقد
قيّمته في نظر نفسه . ، ، ذلك ما كانت تسبرّ عنه كل حركة من حركات
ليزا تمييزاً واضحاً . وأظن أنني لو كنت في مكانها لتصرفت هذا التصرف
نفسه . ولا أدري هل هذه المعاني هي التي كانت راسخة في قرارة قلبها ،
في أعماق نفسها : وأغلب الظن عندي أنها في النصف الآخر من عقلها ،
في النصف المضيء ، كانت تدرك حتماً كل تفاهة « بطلها » . فمن ذا الذي
يرفض اليوم أن يعترف أن هذا الانسان الذي يمكن أن يعد من
جهة أولى تيسباً شقياً ، وأن يعد من جهة أخرى شهماً كرهه النفس
في نوعه ، قد كان في الوقت نفسه امرأ تافهاً كل التفاهة ؟ ان شدة
تأذيتها نفسها ، وان تأهبها الدائم للتهجم علينا ، وان ما كانت
تحسه من اشتباه مستمر في أننا قد نرى فيه رأياً آخر ، ان ذلك
كله يدل على أنها في أعماق نفسها كان حكمها على صديقها حكماً آخر .
ومع ذلك أسارع فأضيف أنها في نظري كانت على حق ، أو على بعض
الحق في أقل تقدير . انها تمذّر أكثر منا جميعاً اذا هي ترددت في
استخلاص نتيجة حاسمة ورأى قاطع . أنا نفسي أعترف من كل قلبي ،
بعد أن مضى وانقضى ذلك كله ، انني لا أدري على وجه اليقين كيف
أحكم حكماً قاطعاً وكيف أقدّر تقديراً حاسماً ذلك المسكين الذي جعلنا
جميعاً أمام لغز لا نعرف كيف نحله .

على أن المنزل قد استحال بسببها الى جحيم صغير . ان ليزا التي أحبت
حباً قوياً كان لابد أن تتألم كثيراً . وكانت بحكم طبعها تفضل أن تتألم
صامتة . ان طبعها يشبهه طبعى ، أعنى ان يجنح بها الى التحكم
والتسلط والتكبر . . . وقد اعتقدت دائما ولا ازال أعتقد الى اليوم انها
قد أحبت الامير مدفوعة الى ذلك بالرغبة فى التسلط والتحكم ، لان
الأمير كان بغير ارادة ، ولأنه منذ الكلمة الأولى ومنذ الساعة الأولى قد
خضع لها وانقاد لمشيئتها انقياداً تاماً . ذلك كله انما يتم فى القلب من تلقاء
نفسه بدون أى حساب سابق . ولكن هذا الحب الذى يحمله قوى لضعيف
يكون فى بعض الأحيان أعنف كثيراً وأبعث على الألم كثيراً من حب يقوم
بين اثنين متكافئين ، ذلك لأن القوى يتحمل تبعه صديقة الضعيف رغم
ارادته . أو هذا ما اعتقده أنا على الأقل . ولقد أحاطها أهل الدار منذ
البداية بأكبر المراعاة وأشد المداراة ، ولا سيما ماما . ولكنها لم ترف ،
ولم تستجب لهذه العاطفة ، وتأبت على كل مساعدة . ولئن ظلت تكلم
ماما فى أول الأمر ، فانها أصبحت تبخل بالكلام مزيداً من البخل يوماً
بعد يوم ، وأصبحت أكثر فظاظة بل أكثر قسوة . وكانت تستشير فى
أول الأمر فرسيلدوف ، ولكنها لم تلبث أن اتخذت فاسين مستشاراً لها
ومساعداً ، وهذا أمر أدهشنى حين عرفته فيما بعد . كانت تذهب كل يوم
الى فاسين ، وتركض الى المحاكم ، وتقابل رؤساء الأمير ، وتراجع
المحامين ووكيل النيابة . وفى النهاية صار ينتضى النهار كله دون أن يراها
أحد فى البيت تقريباً . وكانت تزور الأمير مرتين كل يوم طبعاً ، فى قسم
النبلاء من السجن الذى أودع فيه ، ولكن هذه اللقاءات كانت قاسية شاقة
على ليزا كما علمت ذلك من بعد . صحيح أنه ليس ثمة شخص ثالث
يمكن أن يعرف شؤون حسيين معرفة تامة . ولكننى أعلم مع ذلك أن الأمير
كان يجرح شعورها جرحاً عميقاً فى بعض الأحيان . كيف ؟ بغيره
لا تنقطع . أمر عجيب ! ان لنا الى هذه النقطة عودة . غير اننى أحب أن

أضيف هذه الفكرة : انه لمن الصعب ان يقطع المرء فى هذا السؤال :
أيهما كان يعذب الآخر تعذيباً أشد ؟ لعل ليزا التى كانت بيننا تمتاز ببطلها ،
لعلها كانت تعامله معاملة أخرى ، كما يجوز لى أن افترض ذلك على أساس
بعض الوقائع التى سنحجىء على ذكرها فيما بعد أيضاً .

ففيما يتعلق بعواطفى وعلاقاتى بأختى ليزا ، لم يكن كل ما يُرى
ويلاحظ الا كذباً مقصوداً عنيداً من الطرفين كليهما ، والحق أننا لم
تتحاب يوماً كما تحابينا فى تلك الفترة . يجب أن أضيف شيئاً آخر هو
أن ليزا منذ أن جاء النسا ماكار ايفانوفتشس قد عاملته ، بعد الاستغراب
والفضول اللذين أحستهما فى اللحظة الأولى ، عاملته بنوع من الاحتقار
بل الاستعلاء ، وتعمدت أن تتظاهر بأنها لا توليه أى انتباه .

عاهدت نفسى اذن على التزام الصمت ، كما أوضحت ذلك فى الفصل
السابق ، وقدّرت نظرياً ، أى فى أحلامى ، أنني سأفى بالمعهد طبعاً .
نعم ، اننى لأؤثر ، مع فرسيلوف مثلاً ، أن أتحدث فى علم الحيوان ،
أو أن أتكلم عن أباطرة الرومان على أن أتكلم « عنها » أو عن ذلك السطر
من رسالته ، الذى يبلغها فيه أن « الوثيقة » لم تحرق بل هى موجودة ،
وأنها يمكن أن تظهر الى النور - ذلك السطر الذى أخذت أفكر فيه
بينى وبين نفسى فوراً منذ صحوت من غيبوبتى وعاد الى رشدى بعد
الحمى . ولكن وا أسفاه ا لقد أدركت منذ الخطوات العملية الأولى بل
قبلها تقريباً ، أدركت كم يصعب على المرء بل كم يستحيل عليه أن يتقيد
بهذه القرارات التى تصورها خياله . ان ظرقاً لم يكن فى الحسبان قد
هزّنى هزاً قوياً رهيباً غداة لقائى بماكار ايفانوفتشس .

كان الطرف الذى هزنى هزاً قوياً هو زيارة داريا أونيسيموفنا ، أم الفتاة اوليا التى انتحرت سنقاً . كنت قد عرفت من أمى انها جاءت مرتين أثناء مرضى ، وأنها كانت تهتم كثيراً بأبناءى صحتى . أمن أجلى حقا انما جاءت تلك « المرأة الرائعة » كما كانت تصفها أمى بذلك دائماً ، أم هى جاءت لزيارة أمى فحسب ، جرياً على عاداتها ؟ اننى لم أسأل عن هذا . لقد كانت أمى تقص على أحداث المنزل دائماً ، وكانت تقص على هذه الأحداث فى العادة حين تجىء لتطعمنى حسائى (قبل أن أصبح قادراً على تناول طعامى بنفسى) ، وذلك تسلياً لى وتسريةً عنى . وكنت أحرص فى كل مرة على أن أظهر أننى لا أحفل بما ترويه لى ، لذلك لم أسألها شيئاً من التفاصيل عن داريا أونيسيموفنا .

الساعة هى الحادية عشرة . وقد دخلت على داريا أونيسيموفنا حين كنت أهم أن أنهض لأتقل الى مقعد بقرب المائدة . فلما دخلت تعمدت أن أبقى فى السرير . كانت أمى منهكة بالعمل فوق ، فلم تنزل لتراها ، فأمكننا أن نبقى وحيدين . جلست قبالتى ، على كرسى بقرب الجدار ، تبتسم ولا تنطق بكلمة . وتوقعت أن يطول الصمت . وكان مجيئها يحدث فى نفسى ضيقاً وحنقاً واهتياجاً فى جميع الأوقات على كل حال . فلم أتجه اليها ولو بحركة من رأسى محيياً ، وظللت أهدق الى عينيها بنظرة ثابتة . ولكنها حدثت لى هى أيضاً .

وسألتها فجأة وقد نفذ صبري :

- لا شك أنك تضجرين الآن وحيدة بعد غياب الأمير ؟

فأجابت تقول :

- لا ، انى لا أقيم هنالك الآن • فأنا بفضل آنا آندريفنا ، أعنى

الآن بالطفل •

- أى طفل ؟

- طفل آندره بثروفتش •

قالت ذلك هامسة ، بلهجة البوح ، وهى تنظر الى الباب •

- ولكن هناك تاتيانا بافلوفنا •••

- بل تاتيانا بافلوفنا وآنا آندريفنا كلتاها ، وكذلك اليزابت

ماكاروفنا ، وأمك ••• انهن جميعاً يشاركن • وقد انعقدت الآن أواصر

صداقة قوية بين تاتيانا بافلوفنا وآنا آندريفنا •

هذا نبأ !

وكانت المرأة تتعش وتتنشط أثناء كلامها • ونظرت اليها نظرة كره •

وقلت لها :

- أرى أنك الآن أنشط مما كنت عليه ابان زيارتك الأخيرة لى

فى بيتى •

- آ ••• نعم ا

- وأظن أنك سمعت ؟

فألت على نظرة غريبة • ثم قالت :

- اننى أحبها كثيراً ، كثيراً •

- من هى ؟

- أنا أندريفا طبيعاً • أحبها كثيراً • اسانة نبيلة ، عاقلة •••
- نعم ، وكيف حالها الآن ؟
- هادئة جداً ، هادئة جداً •
- كانت دائماً هادئة •
- صحيح • دائماً •

ونفذ صبرى فهتفت أقول لها فجأة :

- اذا كنت قد جئت الى لتروى لى أفاويل وتنقلى الى نمائم ، فاعلمى أننى الآن لا أتدخل فى شىء ، واننى عزمت على أترك كل شىء ، وأن أترك جميع الناس ••• لقد استوت عندى الأمور كلها : اننى راحل ! قلت ذلك وصمت اذ ثاب الى رشدى • اننى لا أريد أن أهبط الى حيث أشرح لها أهدافى الجديدة • وقد أصغت الى بدون اندهاش وبدون اضطراب ، ولكن خيم صمت جديد • ثم اذا هى تنهض فجأة ، فتتجه نحو الباب ، وتلقى نظرة على العرفة المجاورة • حتى اذا اطمأنت الى أن العرفة خالية ليس فيها أحد ، وأننا وحيدان ، رجعت بهدوء شديد ، وعادت تجلس فى مكانها نفسه •

قلت وأنا انفجر ضاحكاً :

- شىء لطيف !

سألتنى فجأة وهى تميل على قليلاً وتخفض صوتها كأن هذا هو السؤال الأساسى الذى من أجله جاءت :

- مسكنك عند ذلك الموظف ، أتتوى أن تحتفظ به أم لا ؟

- مسكنى ؟ لا أعرف • قد أتركه ••• ما يدرينى ؟

- ذلك أن السكان ينتظرونك • الموظف ينتظرك بفارغ صبر ،
وكذلك زوجته ••• ولقد أكد لهما آندره بتروفتش أنك عائد حتماً •

- ولكن فيم يهكم هذا الأمر ؟

- آنا آندريفنا أيضاً تريد أن تعرف • لقد سرّها كثيراً أن تعلم
أنك باق •

- من أين جاءت هذه الثقة باننى سأبقى فى ذلك المسكن ؟

وهممت أن أسألها : « وما شأنها هى فى هذا الأمر ؟ » ولكننى
امتنعت عن القاء هذا السؤال تكبراً واستعلاء •

- أكدّه لها مسيو لامبير •

- من ؟

- مسيو لامبير • هو أيضاً أكدّ لآندره بتروفتش تأكيداً قاطعاً بأنك
باق ، وطمان كذلك آنا آندريفنا •

اضطربت اضطراباً شديداً • ما هذه القصة أيضاً ؟ اذن أصبح
لامبير يعرف فرسيلوف • اذن وصل لامبير الى فرسيلوف ! لامبير
وآنا آندريفنا : وصل لامبير حتى الى آنا آندريفنا ا وانا تبنتى حمى • لكننى
صمت • وأغرق نفسى سيل رهيب من صلف ، صلف أو شيء آخر •
المهم أنتى كنت كمن يقول لنفسه : « اذا طلبت كلمة ايضاح واحدة ،
كنت أقحم نفسى فى هذا العالم من جديد ، فلا أتركه بعد ذلك أبداً » •
واشتمل فى قلبى كره شديد • وقررت جازماً أن أصمت ، ولبت فى
سريرى ساكناً لا أتحرك • ولبت هى أيضاً صامته خلال دقيقة كاملة •

سألته فجأةً بغير تمهيد :

- كيف حال الأمير نيقولا ايغانوفتش ؟

ألقيت هذا السؤال بلهجة قوية لأغير موضوع الحديث ، فاذا أنا ألقى
السؤال الأسسى اعتباطاً كمن فقد عقله ، فأرجع كالمجنون الى ذلك العالم
الذى كنت قد قررت مهتاجاً أن أهرب منه .

قالت :

– هو فى تساركويه سيلو . انه مريض قليلاً . المدينة ملأى الآن
بهذه الحميات نصحه الجميع أن يعتزل فى تساركويه سيلو بمنزله هناك
نشدانا للهواء النقى .

لم أجب . وأردفت هى تقول :

– تزوره آنا أندريفنا والجنرالة كل ثلاثة أيام . تذهبان اليه معاً .
آنا أندريفنا والجنرالة (أى « هى ») صديقتان ! تذهبان
اليه معاً !

لم أقل شيئاً .

– ذلك أنهما أصبحتا صديقتين جداً . وآنا أندريفنا تمدح كاترين
يقولايانا كثيراً

بقيت صامتاً .

– عادت كاترين يقولايانا الى ولعها بالمجتمع ، فهى تنتقل من حفلة
الى حفلة ، تتلألاً . . . بل يقال ان كثيراً من رجال البلاط بهيمون بحبها ،
أما السيد بيورنيج فقد انقطع الحبل بينه وبينها ، فلن يتم الزواج .
ذلك ما يؤكده جميع الناس . . . منذ تلك المرة . . .

أرادت أن تقول : منذ وصول رسالة فرسيلوف . وقد ارتعدت ،
لكننى لم أقل كلمة واحدة .

– ما أشد اشفاق آنا أندريفنا على الأمير سرجى بتروفتش ! وكذلك

كاترين نيقولايفنا ! انهما تتحدثان عنه دائما ، ونقولان ان القضاء
سيبرئه وسيحكم على الآخر ، ستيلكوف ..

نظرت اليها نظرة تفيض كرهاً • ونهضت فجأة ومالت علىّ تقول لى
بهمس :

- أوصتني آنا أندريفنا بأن أستفسر عن صحتك ، وأمرتني أن
أرجوك أن تذهب اليها متى خرجت ، فأرجو أن تبسل من المرض •
استودعك الله •

وخرجت • فجلست على سريري • وأخذ عرق بارد يتصبب في
جيني • غير أن ما شعرت به لم يكن قلقاً • ان هذا النبأ الكريه الذى
لم أستطع أن أفهمه ، هذا النبأ عن لامبير ومكائنه ، لم يروّعنى كما
كانت تروعنى أثناء مرضى وفى الأيام الأولى من نقاهتى ، ذكرى لقائى به
فى تلك الليلة • حتى اننى فى تلك اللحظة الأولى من الاضطراب المبهم
الذى أعقب انصراف داريا أونيسيموفنا ، لم يتلبث فكرى على لامبير •••
وانما استولى على ذهنى ما أنبأتنى به داريا عن القطيعة التى وقعت بين
كاترين نيقولايفنا وبين بيورنيج ، وعن سعادة كاترين فى المجتمع ، وعن
الحفلات التى تتنقل بينها ، وعن النجاح الذى تلقاه ، وعن تألقها • لقد
قالت داريا أونيسيموفنا « انها تنالاً » • وشعرت فجأة بأننى عاجز عن
انتزاع نفسى من هذا الاعصار ، رغم اننى استطعت أن أتجلد وأصمت ،
وإلا ألقى على داريا أسئلة بعد الأشياء المذهلة التى روتها لى • واجتاحنى
ظماً شديداً الى تلك الحياة ، « حياتهم » ، و ••• واجتاحنى كذلك ظماً
آخر لذبد عذب ، لا أدرى ما هو ، ظماً أحسسته كالسعادة وأحسسته
كالعذاب • وطفقت أفكارى تدور فى رأسى كروبة •• وتركت لها أن
تدور هذا الدوران ! كنت أقول لنفسي : « علام التفكير ؟ » • ثم جعلت
أفكر تفكيراً منقطعاً لا تسلسل فيه ، فأقول لنفسي : « ان أمى نفسها قد

أخفت عنى مجيء لاميير • ذلك أن فرسيلوف أمرها أن تسكت • اننى
أفضل أن أموت على أن أسأل فرسيلوف عن لاميير بحال من الأحوال ! •
ثم عدت أقول : « فرسيلوف ! فرسيلوف ولامبير ! أوه ! ما أكثر ما حدثت
من أمور جديدة عندهم ! ما أمكر فرسيلوف هذا ! لقد أخاف ذلك الألماني
بيورنيج بتلك الرسالة • لقد أذاع فى حقه النائم ••• » النيمة لايد
أن يبقى منها شئ ، دائماً • • خاف الرجل من الفضيحة • آه •• آه ••
درس حسن لها ! • لاميير ! ولكن ألا يكون لاميير قد وصل إليها هي
أيضاً • لايد أنه وصل إليها حتماً ! ما عسى يحملها على أن ترفض عقد
صلة به ؟ •

وهنا كفت فجأة عن ادارة هذه الأفكار المضطربة المشوشة فى ذهنى ،
وهويت برأسى على الوسادة من شدة الكرب واليأس • ثم صحت أقول بعزم
مباغت : « ولكن لا ! » • ووثبت عن سريرى ودسست قدمى فى الباجوجين •
وألقيت على نوب المنزل • ومضيت قدماً الى ماكار ايفانوفتش كأن الشفاء
من هذه الأفكار التى تحاصرنى انما يجب أن ألتمسه عنده • كأن لديه
النجاة والخلاص • كأن عنده المرساة التى أستطيع أن أتشبث بها
فلا أغرق •

وأغلب الظن أننى أحسست بهذه الفكرة احساساً قوياً • والا فهل
كنت أنهض هذا النهوض الذى لا سبيل الى مغالته • وهل كنت أسرع الى
ماكار ايفانوفتش وأنا على ما أنا عليه من تلك الحالة النفسية المضطربة ؟

لكننى وجدت عند ماكار ايفانوفتش زواراً لم أكن اتوقعهم : ماما والدكتور . ولأننى كنت أتصور حين مضيت الى الشيخ أننى سألقاه وحيداً كما حدث أمس ، فقد وقفت فى العتبة متحيراً متحيراً غيباً . ثم ما ان قطبت حاجبى حتى وصل أيضاً فرسيلوف ، ووصلت وراءه ليزا . التأم الشمعل كله اذن عند ماكار ايفانوفتش « فى وقت غير مناسب » !

قلت وأنا اتوجه الى ماكار ايفانوفتش رأساً :

- جئت أسأل عن صحتك .

- شكراً يا ابنى ، كنت أعلم أنك ستأتى ! هذه الليلة أيضاً فكرت فيك .

وكان ينظر فى عيني برقة وحنان ، فرأيت أنه ربما كان يحبني أكثر من الآخرين جميعاً . ولكننى لاحظت فوراً برغم ارادتي أنه اذا كان وجهه فرحاً فإن مرضه قد تفاقم فى الليل كثيراً . وكان الطبيب قد فحصه منذ لحظة فحصاً دقيقاً جداً . وقد علمت فيما بعد أن هذا الطبيب (وهو الطبيب الشاب الذى تشاجرت معه يداوى ماكار ايفانوفتش منذ وصوله) قد عامل مريضه بكثير من الاهتمام ، وهو يشخص لديه جملة معقدة من الأمراض المتنوعة لا أستطيع أن أسميها بلغتهم الطبية . وقد انعقدت بين ماكار ايفانوفتش وبين الطبيب علاقات فيها كثير من الصداقة كما أدركت

ذلك منذ أول نظرة ، فلم يعجبني هذا كثيراً في تلك اللحظة • ثم انى
كنت آتذاً معتكراً المزاج جداً •

سأل فرسيلوف قائلاً :

– فماذا يا الكسندر سيمونوفتش ؟ كيف صحة مريضنا العزيز
اليوم ؟

لولا أننى كنت مضطرباً لجلت أول همى أن أدرس ، باهتمام
شديد وشغف كبير ، علاقات فرسيلوف مع هذا الشيخ • وقد خطر
ذلك ببالى منذ أمس • والشىء الذى خطف بصرى الآن خاصة هو ما كان
يعبر عنه وجهه فى الظاهر من لطف وبشاشة • أظن أننى سبق أن أشرت
الى أن هيئة فرسيلوف تصبح جميلة جمالاً مدهشاً متى كان بسيطاً بعض
البساطة •

أجاب الطيب يقول :

– نحن لانفتأ تشاجر •

– تشاجر مع ماكار ايفانوفتش ؟ لا أصدق شيئاً من هذا :
لا يستطيع المرء أن يتشاجر معه •

– لكنه لا يريد أن يطيعنى : انه لا ينام الليل •••

– دعك من هذا الكلام يا الكسندر سيمونوفتش ، كفى تقريباً !

كذلك قال ماكار ايفانوفتش ضاحكاً • وتابع كلامه سائلاً
آندره بتروفتش :

– هيه آندره بتروفتش العزيز ؟ ما صنعت بآمتنا ؟

ثم أضاف وهو يشير الى أمى :

– لقد ظلت مضطربةً قلقةً طول الصباح •

فهتفت أُمى تقول بقلق شديد فعلاً :

- نعم يا آندره بتروفتش ، حدثنا بسرعة عما فعلوا بصاحبنا
المسكينه ! ماذا قرروا فى حقها ؟

فقال :

- حكموا عليها •

- أوه !

- هدنى روعك ، لن تنفى الى سيريا : حكموا عليها بدفع غرامة
مقدارها خمسة عشر روبلاً • مهزلة !

قال ذلك وجلس • فجلس الطيب أيضاً • كانوا يتكلمون عن
تاتيانا بافلوفنا • ولم أكن أعرف شيئاً عن تلك القصة بعد • كنت على
يسار ماكار ايفانوفتش • وجلست ليزا أمامى على اليمين • كان واضحاً
أنها تعاني آلاماً خاصاً جاءت نفضى به الى أُمى • كان وجهها ينم عن اضطراب
واستياء • وقد تبادلنا نظرة فى تلك اللحظة ، فقلت لنفسى فجأة : « كلانا
تلطخ شرفه ، وعلىّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى نحوها » • لقد رقّ قلبى
لها فجأة • وفى تلك الأثناء أخذ فرسيلوف يروى ما جرى فى الصباح •

لقد مثلت تاتيانا بافلوفنا فى هذا الصباح أمام قاضى الصلح مع
طباختها • وكانت القضية مضحكة جداً • سبق أن ذكرت أن الفنلندية
المتعبة كانت اذا غضبت تلزم الصمت فى بعض الأحيان أسابيع متصلة فما
تجيب بكلمة واحدة على أسئلة مولاتها • وذكرت أيضاً أن تاتيانا بافلوفنا
ضعيفة تجاهها ، فهى تحتل منها كل شىء ، ولا يمكن أن تطردها من
خدمتها بحال من الأحوال • ان جميع هذه النزوات النفسية التى تلاحظ
فى العواض أمور تستحق الاحترار فى نظرى ولا تستحق أى اهتمام ،
وإذا كنت قد قررت أن أروى هذه القصة هنا ، فإنا يدفنى الى ذلك

ان هذه الطباخة سيكون لها فى روايتى دور مشوم لا يمكن اغفاله •
وأعود الى حكايتها فأقول ان تانيانا بافلوفنا قد نفذ صبرها أخيراً وضافت
ذرعاً بهذه الفنلندية العنيدة التى لم تجب عن أسئلتها بكلمة واحدة منذ
عدة أيام ، فاذا هى تضربها فجأة وذلك ما لم يسبق أن حدث من قبل أبداً •
وقد صمتت الفنلندية عندئذ ولم تقل شيئاً ألبتة بل لم يصدر عنها أى
صوت ، ولكنها اتصلت فى ذلك اليوم نفسه بمستأجر كان يقيم فى مكان
يطل على سلم الحدم نفسه ، تحت ، وهو الملازم البحرى المتقاعد
أوستروف الذى كان يعمل وسيطاً فى جميع أنواع القضايا ، وكان يرفع
الى المحاكم قضايا من هذا النوع ، طلباً للرزق فى الكفاح من أجل البقاء •
وكانت النتيجة أن طلبت تانيانا الى المتول أمام قاضى الصلح ، واستدعى
فرسيلوف شاهداً •

روى فرسيلوف هذه الحكاية كلها بلهجة بلغت من المرح والطرب
أن أمى نفسها أخذت تضحك • وقد قلد شخصيات تانيانا بافلوفنا والملازم
البحرى والطباخة • فذكر كيف أعلنت الطباخة للقاضى أنها تطالب بتعويض
مالى وكيف عقبته على ذلك قائلة : « والا فلنم أهيمىء العشاء اذا هى
'سجنت ؟' • وروى كيف أن تانيانا بافلوفنا قد أجابت عن أسئلة القاضى
بكثير من التكبر حتى انها أبت أن تبرز فعلتها وانتهت الى القول :
« ضربتها ولسوف أضربها أيضاً » ، فكان أن 'حكّم عليها بغرامة قدرها
ثلاثة روبلات لعدم توقيعها القاضى • وأخذ يصف الملازم البحرى ، وهو
شاب متخلع المشى نحيل الجسم ، فذكر كيف اندفع يلقي خطاباً طويلاً
فى مدح صاحبه الطباخة ، ولكنه لم يلبث أن ارتبك ارتباكاً مخجلاً
فأخذت القاعة كلها تضحك • وسرعان ما انتهت المناقشات فحكّم على تانيانا
بافلوفنا بأن تدفع خمسة عشر روبلاً لطباختها مارى ، التى أساءت اليها
وأهانتها • فما كان من تانيانا بافلوفنا الا أن استلت محفظة نقودها فوراً

بدون انتظار ، وعدت المبلغ ، فاذا بالملازم البحرى ينبجس حالاً ويمد يده ، ولكن تاتيانا بافلوفنا دفعت يده بقوة حتى كادت ان تضربها ضرباً ، والتفتت نحو ماري تريد ان تنقدها المبلغ ، فقالت لها ماري : لا تكثرى يا سيدتى ، وأضيفى المبلغ الى حسابى ، أما هذا السيد فساقوم أنا بدفع أجره له ، ، فقالت تاتيانا بافلوفنا : « رأيت يا ماري ما أغبى الرجل الذى اتخذته مدافعاً عنك ؟ » ، قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وهى تومىء الى الملازم البحرى ، فرحةً أعظم الفرح بأن ماري قد فتحت فمها أخيراً . فأجابت ماري وهى تنظر نظرة مأكرة : « هو غبى فعلاً يا سيدتى . أظن أنك أمرتني اليوم بأضلاع مشوية وبازلاء ، أليس كذلك ؟ اننى لم أسمع كلامك حين كنا فى البيت اذ كنت استعجل المجيء الى هنا » . فأجابتها تاتيانا بافلوفنا : « بل أمرتك بأضلاع وكرومب يا ماري ، واياك أن تحرقها كما فعلت أمس ! » فقالت ماري : « سأكون شديدة الانتباه يا سيدتى ، ولا سيما اليوم . هاتى يدك » . وقبلت ماري يد مولاتها دليلاً على المصالحة . فكانت الصالة كلها أثناء ذلك تضحك .

— يالها من امرأة غريبة الأطوار !

كذلك قالت ماما وهى تهز رأسها ، راضية مع ذلك بالنبا ، مقتبطة أيضاً بما قصه آندره بتروفتش . ولكنها كانت تختلس النظر الى ليزا قلقة .

قال ماكار ايفانوفتش وهو يضحك :

— هكذا كانت الأنسة منذ طفولتها .

فقال الدكتور :

— هذا من أثر الصفراء والفراغ .

— اياى تمنون ؟ عنى تيجيئون على ذكر الصفراء والفراغ ؟

ان تاتيانا بافلوفنا هى التى دهمت الغرفة ، وكان واضحاً أنها راضية
عن نفسها جداً . وأردفت تقول مخاطبة الطبيب :

- يا ألكسندر سيمينوفتش ، خير لك ألا تقول هذه السخافات .
لقد عرفنى حين لم تكن قد بلغت العاشرة من عمرك ، فلا بد أنك تعلم
هل أنا فى بطالة وفراغ حقاً . أما عن الصفراء فانك تداوينى منذ سنة
كاملة ولا تفلح فى شفائى . كان عليك أن تخرج من هذا ! هيباً هيباً ،
لقد سخرت منى سخراً كافياً . شكراً يا أندره بتروفتش لأنك رضيت
أن تجيء الى المحكمة شاهداً . أما أنت أيها العزيز ماكار ، فمن أجلك
انما جئت . لقد جئت لأعودك أنت لا لأعود هذا (أشارت الىّ ، ولكنها
لم تلبث أن ربت على كفى بمودة . اننى لم أرها مشرقة المزاج الى هذا
الحد فى يوم من الأيام) .

وختمت كلامها تقول وهى تلتفت فجأة الى الطبيب وتقطب حاجبيها
مهمومة :

- فماذا يا دكتور ؟

- لا يريد أن يبقى راقداً ، وهو بالجلوس يرهق نفسه .

فجمعهم ماكار اينانوفتش يقول بهيئة متضرعة كطفل :

- ولكنها لحظة نقضيها مع الاصدقاء .

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول :

- نعم نحن نحب هذا ، نحب أن نثرثر مع الناس ؛ نحب أن

يتعلق حولنا جمهور . اننى أعرف صاحبنا ماكار .

وابتسم الشيخ مرة أخرى وقال ملتفتاً الى الطبيب :

- وما أشد اصراره . انتظر قليلاً ، دعنى أتكلم : لسوف أرقد على

السريير ، ولكن المثل عندنا يقول : « من يرقد فقد لا ينهض » . ذلك بعينه هو ما يترصد بي يا صديقي -

- هو ! هي الأوهام الشعبية ما تنفك تعشش في عقولنا « اذا رقدت فقد لا أنهض » ، ذلك ما تخشاه عامة الشعب في أكثر الأحيان ، فيؤثر الرجل أن يقضى فترة مرضه واقفاً على أن يذهب الى المستشفى . أما أنت يا مكارا ايفانوفتش فان ما يستولى على نفسك الآن هو الضجر ، هو التحسر على الحرية ، هو الشوق الى السفر والتجول والتجواب . مرضك كله هو أنك فقدت عادة المكث في مكان . نعم ، ان التشرذم ضرب من هوى جارف يستبد بشعبنا . لاحظت هذا مراراً . ان شعبنا هو أكثر شعوب الأرض حياً للتشرذم .

قالت تاتيانا بافلوفنا :

- في رأيك اذن أن مكارا متشرذم ؟

- لا ، ليس متشرذماً بهذا المعنى . لقد استعملت الكلمة بمعناها العام . ان مكارا متشرذم عن تدين وتقى ، ولكنه متشرذم على كل حال . صحيح أنه متشرذم بمعنى حسن ، بمعنى نبيل ، ولكنه متشرذم .. من وجهة النظر الطيبة ...

التفت فجأة نحو الدكتور ، وقلت :

- أؤكد لك أننا أنا وأنت وسائر الحضور هنا ، أولى بأن 'نعدّ' متشردين من هذا الشيخ الذي يحق له أن يلقننا كثيراً من الدروس لأن له في حياته مبدأ ثابتاً ، أما حياتنا نحن جميعاً فتشرذم على غير هدى في كل اتجاه .. ولكنك في الواقع لا تستطيع أن تفهم !

لا شك أنني تكلمت بخشونة ، ولكن من أجل هذا انما جئت

والحق أننى لا أدرى لماذا بقيت ، ولكننى كنت خارجاً عن طورى حتى
لكأتنى جننت •

فنظرت الى تاتيانا وقد بدا فى هيتها الاشتباه ، وقالت تسألنى :
- ماذا أصابك ؟

ثم قالت تسأل ماكار ايفانوفتش مشيرة بيدها الى :
- كيف تجده ؟

فأجاب ماكار ايفانوفتش :

- باركه الله • ان له فكراً متقدماً •

ولكن الحضور ما أن سمعوه يصفى بأن لى فكراً « متقدماً » حتى
طفقوا يضحكون • فكلمت غيظى • وكان الدكتور أشدهم ضحكاً •
من المؤسف أننى كنت أجهل فى ذلك الحين ما كانوا قد تواطئوا عليه •
ان فرسيلوف والطبيب وتاتيانا بافلوفنا قد تعاهدوا ، قبل ثلاثة أيام ، على
أن يصرفوا أمى عن توجساتها السيئة وأن يبعدوها عن مخاوفها على ماكار
ايفانوفتش الذى كان مرضه أخطر كثيراً وأشد استعصاءً على المداواة مما
كنت أظن حينذاك • ذلك هو السبب فى أن الجميع كانوا يمزحون وكانوا
يحاولون أن يضحكوا • غير أن الطبيب كان أحق ، وكان بطبيعته
لا يعرف كيف يمزح • هذا هو السبب فى كل ما أعقب ذلك • فلو كنت
على علم بما اتفقوا عليه لتصرفت تصرفاً آخر • وكانت ليزا لا تعلم أيضاً •

ظلمت أصغى بجزء من سمعى ، فكانوا يتكلمون ويضحكون ؛ أما أنا
فكان رأسى مشغولاً بشىء آخر : داريا أوينسيموفنا وما ذكرته لى من أنباء ؛
وكنت لا أستطيع أن أتحرر مما كان يدور فى رأسى • انها تترامى لها هناك ،
جالسة تنظر الى ، ثم قائمة بحذر لتلقى نظرة على الغرفة الأخرى •

وانفجروا يضحكون ضحكاً عالياً على حين فجأة • كانت تاتيانا بأفلوفا قد
وصفت الطيب بأنه ملحد قائلة له : « هذا معروف ، ما أنتم جميعاً
يا أطباء التحس الا ملاحدة » •

فهتف الدكتور يقول متظاهراً تظاهراً غيباً بأنه أهين ، مطالباً بأن
ينصف :

— ماكار ايفانوفتشس ! هل أنا ملحد ؟ نعم أم لا ؟

— أنت ملحد ؟ لا ، لست ملحداً !

بذلك أجابه الشيخ وهو يحدق اليه بنظرة ثابتة ، وأضاف يقول
هازاً رأسه بوقار :

— لا ، الحمد لله • أنت انسان مرح •

فسأله الدكتور بسخرية :

— واذا كان الانسان مرحاً فلا يمكن أن يكون ملحداً ؟

قال فرسيلوف بدون أن يضحك :

— هذا رأى !

فهتفت أقول على غير ارادة منى وقد فنتت بهذه الفكرة :

— رأى قوى !

وكان الطيب ينظر فيما حوله مستفهماً •

فبدأ ماكار ايفانوفتشس يتكلم فقال وقد خفض عينيه قليلاً :

— هؤلاء المثقفون ، هؤلاء الأساتذة (أغلب الظن أنهم كانوا قد
قالوا شيئاً عن الأساتذة من قبل) كنت فى البداية أخشاهم كثيراً : كنت
اذا لقيتهم أتهييهم ، لأننى لا أخاف أحداً كما أخاف الملاحدة • كنت أقول

لنفسى : « انى لا أملك الا نفساً واحدة ، فاذا ضيعتها فلن أجد عنها عوضاً » ، ولكننى استرددت شجاعتى بعد ذلك فقلت لنفسى : هياً ، ما هم آلهة على كل حال ، هم بشر مثلنا ، لهم ما لنا من أهواء ! » ثم استبد بى حب الاطلاع قوياً شديداً ، فقلت لنفسى : « أريد أن أعرف أخيراً ما الاحاد . » • ولكن حب الاطلاع هذا قد انقضى هو أيضاً يا صديقى •

صمت ماكار ايفانوفتش لحظة ، ولكنه ظل عاقداً عزمه على الكلام ، مبتسماً تلك الابتسامة الوقور الرصينة نفسها • ان هناك سذجا يركنون الى جميع الناس والى كل انسان دون أن تخطر السخريه لهم ببال • وهؤلاء يكونون 'سذجا' ، فهم مستعدون لأن يخرجوا من قلوبهم أئمن ما تخفى • ولكن يبدو لى أن ماكار ايفانوفتش كان يتصف بشيء آخر غير السذاجة وأن براءة البساطة لم تكن هى الشيء الوحيد الذى يدفعه الى الكلام • انه يملك شيئاً من صفات الدعاة • ولقد سررتنى أن ألاحظ فيه استهزاءً لا يخلوا حتى من بعض المكر ، تناول به الدكتور ، وربما فرسيلوف أيضاً • وكان واضحاً أن هذا الحديث تمة لأحاديث سابقة جرت بينه وبينهم هذا الأسبوع • ولكن شاء سوء الحظ أن تفلت تلك الكلمة المشثومة التى كهرتتى بالأمس ، فأهاجتى اليوم هيجاناً ما زلت آسف له •

تابع الشيخ كلامه متجمع الفكر فقال :

- « الملحد - الانسان » ، ربما كنت أخشاه الى الآن • ولكن هذا الملحد - الانسان ، يا ألكسندر سيمينوفتش ، لم يتفق لى أن لقيته مرة واحدة فى يوم من الأيام ، وانما أنا لقيت « الملحد - المشوش » • نعم هكذا يجب ان يسمى • أناس من كل نوع ، لا يستطيع المرء حتى أن يرى رؤية واضحة من هم • بينهم كبار وصغار ، وبينهم حمقى وعلماء ،

وبينهم حتى افراد من عامة الشعب • وهم جميعا مشوشون • انهم يقضون حياتهم كلها فى القراءة والاستدلال والتفكير ، وقد امتلأت نفوسهم افتتانا بالكتب ، ولكنهم يظلون دائماً فى الشك ، ولا يستطيعون أن يزموا أمرهم على شئ • منهم من تبشروا تبشراً تاماً فأصبحوا لا يلاحظون أنفسهم ، ومنهم من جمدوا فكانوا كالصخر على امتلاء قلوبهم بالأحلام • ومنهم خفاف يحسون ولا يكترون ولا يهمهم الا أن يطلقوا السخريات تلو السخريات • ومنهم لا يقطعون من الكتب الا الزهرة ، ولكنهم يقطعون الزهرة التى يريدون ، ثم يظلون مشوشين لا يستقرون على حال • اسمع ما سأقوله لك : ان فى هذا كله ضجراً كثيراً • الانسان البسيط يعيش فى عوز ، فهو فى حاجة الى خبز ، ولا يملك ما يقدمه للصغار ، وينام على قش خشن ، ولكن قلبه فرح خفيف دائماً • قد يرتكب خطايا ويقول كلاماً غليظاً ، ولكن قلبه يبقى مرحاً خفيفاً • أما الانسان الذى له شأن خطير فهو يتملاً شراباً وطعاماً ، وينام على أكداس ذهب ، ولكن قلبه يبقى مترعاً بالضجر • ان بين هؤلاء من طافوا بجميع العلوم ، ولكن الضجر بقى فى قلوبهم • أعتقد أن الانسان كلما كان أكثر فكراً كان أكثر ضجراً • انظر فى هذه النقطة : لقد وجد التعليم منذ وجد العالم • فهل جاء التعليم بما يجعل مسكناً جميلاً عامراً بالأفراح ؟ بل اننى لأقول لك : انهم ليس فيهم جمال ، ولا يريدون الجمال • هم جميعاً أموات ، ولكن كلاً منهم يتباهى بموته ، ولا يخطر بباله أن يتجه الى الحقيقة « الوحيدة » • أن يعيش المرء بغير اله فذلك عذاب • وربما لعن البشر ما قد ينير لهم الطريق ، حتى دون أن يفتنوا الى ما يفعلون • أين العقل والحكمة فى هذا ؟ ان الانسان لا يستطيع أن يعيش بغير سجود • بغير سجود لا يمكن أن يحتمل الانسان نفسه • ما من أحد قادر على هذا • فاذا جحد الله سجد لمعبود من خشب أو من ذهب ، أو سجد لمعبود صنعه له الخيال • انهم جميعاً وثنيون لا ملحدون • هكذا يجب أن نسميهم • ولكن كيف لا يكون

هناك ملحدون ! ان بعض الناس ملحدون حقاً ، وهؤلاء ابعث على الخوف
والرهبة من الآخرين ، لأن اسم الله مائل في أفواههم دائماً . سمعت عن
هؤلاء مراراً ، ولكنني لم ألق أحداً منهم يوماً . هم موجودون يا صديقي ،
وأظن أنهم لا بد أن يوجدوا .

انبرى فرسيلوف يقول مؤيداً :

- موجودون يا مكار ايفانوفتش و « لا بد أن يوجدوا » !

- موجودون حتماً و « لا بد أن يوجدوا » !

أفلتت مني هذه الجملة بنير ارادتي حارةً ملتهبةً لا أدري لماذا .
ولكن لهجة فرسيلوف كانت قد أهاجتني ، كما أن فكرةً فنتنتي في قوله :
« لا بد أن يوجدوا » . ما كنت أتوقع هذا الحديث أبداً . وحدث في تلك
اللحظة شيء لم يكن بالمتوقع البتة أيضاً .

كان النهار مضيئاً جداً . وقد جرت العادة في غرفة ماكارا ايفانوفتش أن تسدل الستارة طول النهار بأمر من الطيب . غير أن ما كان مسدلاً على النافذة لم يكن ستارة بل حجاباً ، فلم يكن أعلى النافذة مغطى . ذلك أن الشيخ تضايق حين كان لا يرى الشمس أبداً بسبب الستارة القديمة . وقد بقينا معه الى أن سقط شعاع من الشمس على وجهه رأساً . واذ كان منهمكاً في الحديث فانه لم ينتبه الى ذلك في أول الأمر ، ولكنه أشاح وجهه مراراً بغير شعور وهو مستمر في الكلام ، لأن الشعاع الساطع كان يضايقه ويهيج عينه المريضتين . وكانت أمي واقفةً أمامه ، فنظرت الى النافذة عدة مرات في قلق . وكان ينبغي أن تغطى النافذة تماماً ، ولكن أمي ، من حرصها على ألا تقطع جمل الحديث ، بدا لها أن تزحزح المقعد الذي كان يجلس عليه ماكارا ايفانوفتش، أن تزحزحه نحو اليمين بدفعه خمسة عشر سنتيمتراً أو عشرين في أكثر تقدير . وقد مالت عدة مرات لتفعل ذلك فلم تفلح ، اذ أبى المقعد أن يتزحزح . وأحس ماكارا ايفانوفتش بجهودها ، ولكن على غير شعور البتة ، وذلك من شدة انجرافه في الحديث ، وحاول أن ينهض عدة مرات ، ولكن ساقبه لم تسعفه . وظلت ماما مع ذلك تواصل بذل جهودها وتشد المقعد . فإذا بهذا كله يثير حنق ليزا في نهاية الأمر . اننى أتذكر بعض نظراتها الملتهبة الساخطة . ولكننى في اللحظة الأولى لم أستطع أن أعزو هذه النظرات الى سبب ، هذا عدا أننى كنت مشغولاً بالحديث عن كل ما عداه .

وفجأةً دَوَى هذا النداء العنيف الذى يشبه الصراخ ، متجهاً الى
ماكار ايفانوفتشس :

- ولكن هلاً نهضت قليلاً ! ألا ترى كم تبذل ماما من جهد ؟

فنظر الشيخ الى ليزا بسرعة ، وفهم على الفور ، وحاول فى الحال
أن يطيعها ، ولكنه لم يفلح ، فانه ما ان ارتفع عن المقعد عشرة سنتمترات
حتى تهاوى عليه ثانية . فقال يجب ليزا بصوت شك وهو ينظر اليها
بمذلة :

- لا أقدر يا ابنتى !

- تقدر أن تدفق فى كلام يملأ كتاباً بكامله ، أما أن تتحرك قليلاً
فلا تقدر ، هه ؟

فصرخت تاتيانا بافلوفنا تنهر ليزا :

- ليزا !

وعاد ماكار ايفانوفتشس يبذل جهداً خارقاً من أجل أن ينهض .
فصاحت ليزا تقول له من جديد :

- تناول عكازتك فاستعن بها . هى ذى على الأرض !

فقال الشيخ ، وهو يسرع الى تناول عكازته :

- حقاً .

فانبرى فرسيلوف يقول وهو ينهض :

- بل نهضه وكفى !

وتحرك الطيب ، واندفعت تاتيانا بافلوفنا ، ولكنهما لم يصلا الى
ماكار ايفانوفتشس الا وقد توكأ على عصاه ، ونهض فجأةً ، ووقف على ساقه

ناظراً حوله ، فرحاً بانتصاره ، ضاحكاً فى مرحه ، قائلاً بما يشبه
الظفر :

- استطعت مع ذلك • شكراً يا ابنتى ، لقد رددتني الى الصواب
وكنت أظن أن ساقى أصبحتا عاجزتين لا تصلحان لشيء !

ولكنه لم يلبث واقفياً مدة طويلة • فانه ماكاد ينهى جملته حتى
انزلت العكازة التى كان يستند اليها بكل وزنه ، انزلت على السجادة
فجأة • فاذا هو يسقط على الأرض بجسمه كله • كان النظر رهيباً •
اتى أتذكر ذلك • صاح الجميع بصوت واحد : « أوه ! » ، وأسرعوا
يرفعونه عن الأرض • ولكن شاء حسن الحظ ألا يحدث له أى كسر •
صحيح أن ركبته قد صدمتا الأرض صدماً قوياً فأحدث سقوطه ضجة
شديدة ، ولكنه كان قد استطاع أن يقدم يده اليمنى وأن يستند اليها •
وأنهضوه وأرقدوه على السرير • كان وجهه شاحباً ، لا من الخوف ، بل
من الهزة (كان الطبيب قد اكتشف لديه مرضاً فى القلب عدا الأمراض
الأخرى) واضطربت أمى أشد الاضطراب هلعاً • واذا بماكار ايفانوفتش
الذى لا يزال شاحب اللون ولا يزال جسمه يهتز اهتزازاً قوياً ، ولم يكده
ثوب الى نفسه ، اذا هو يلتفت الى ليزا ويقول لها بصوت رقيق يكاد يكون
حنوناً وازخراً بالعاطفة :

- لا يا ابنتى • أصبحت ساقى لا تحملانى ، كما ترين •

لا أستطيع أن أصف الشعور الذى أحسسته • ان أقوال الشيخ
المسكين لم يكن فى نبرتها أى شكوى أو ملامة • بالعكس : كان واضحاً
أنه منذ البداية لم ير فى كلمات ليزا أى سوء ، وأنه عدّ صراخها شيئاً
واجباً ، أى تهرباً يستحقه خطؤه • وقد أثر هذا فى ليزا تأثير رهيباً
أيضاً • لقد وثبت لحظة سقوطه كما وثب الجميع ، ووقفت فى مكانها

كالميتة ، متألمةً طبعاً لأنها كانت سبب كل ما حدث . لكنها حين سمعت
هذه الكلمات احمرت احمراراً شديداً من الحُجل والندم .

قالت تاتيانا بافلوفنا امرأة :

- كفى ! سبب هذا كله هو هذه الأحاديث . فليرجع كل واحد
الى حيث كان . ولكن ما العمل اذا كان الطبيب نفسه هو الذى يبدأ
الثرثرة ؟

فقال ألكسندر سينوفتش وهو يسمي حول المريض منهمكاً :

- حقاً يا تاتيانا بافلوفنا . معذرة . انه فى حاجة الى راحه .

ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد انقطعت عن الاصغاء : انها منذ نصف
دقيقة تنعم النظر الى ليزا صامته . ثم قالت فجأة :

- تعالى يا ليزا وقبّلىنى ، قبّلى العجوز الحماة ، اذا أردت
طبعاً !

وقبّلتها ، لا أدري لماذا ، وكان هذا ما يجب فعله حقاً ، حتى اننى
أوشكت أنا نفسى أن اندفع الى تاتيانا بافلوفنا فأقبّلها . كان يجب فعلاً
ألا تُسحق ليزا باللوم ، وانما يجب أن تُستقبل العاطفة الطيبة الجديدة
التي ستشأ فى نفسها بالمرح والتهنئات .

ولكننى لم أسلك هذا السلوك فى الواقع . لقد نهضت فجأة ، وقلت
وأنا أقطع كلمتى بغية أن تكون بارزة واضحة :

- ماكار ايفانوفتش ، انك قد استعملت مرةً أخرى هذه الكلمة :
« الجمال » ، وكانت هذه الكلمة تعذبنى بالأمس ، وتعذبنى طوال هذه
الأيام الأخيرة . بل انها عذبتنى فى جميع أيام حياتى ، ولكننى لم أكن
أعرف فى الماضى ماذا كان عنابى . فأنا أعد هذه المصادفة قدراً بل أكاد
أعدها معجزة اننى أعلن هذا بحضورك .

ولكنهم أوقفوني عن الكلام • أكرر أنني كنت أجهل ما تواطسوا
عليه بصدد ماما وماكار ايفانوفتش • وقياساً على ما عرفوا من أفعال الماضي ،
حكموا بأنني لا أتورع عن أية فضيحة •

غضبت تاتيانا بافلوفنا غضبا شديدا ، وزارت تقول :
- أسكتوه !

وأخذت ماما ترتجف • وذعر ماكار ايفانوفتش هو أيضاً حين
رآهم جميعاً مذعورين • وصرخ فرسيلوف يقول بقسوة :
- اسكت يا آرКАДى •

ولكنني لم أسكت بل أردفت أقول بصوت أعلى :
- يشدهني ويقززني يا سادتي أن أراكم جميعاً بقرب هذا الطفل
(أشرت بيدي الى ماكار) • ليس هنا الا قديسة واحدة هي ماما ، ولكنها
هي أيضاً •••

قال الدكتور ملحاً :

- انك تروّعها !

فتمتت أقول :

- أعلم أنني عدو الجميع ••

أو قلت كلاماً من هذا المذاق • ثم التفت الى فرسيلوف ألقى عليه
نظرة تحدٍ واستفزاز • فصرخ فرسيلوف قائلاً :

- آركَادى ••• سبق أن حدث بيننا هنا مشهد من هذا النوع •

فسيطر على نفسك الآن • أرجوك !

لا أستطيع أن أصف العاطفة القوية التي ظهرت على فرسيلوف وهو

ينطق بهذه الجملة • لقد عبرت وجهه عندئذ عن حزن خارق ، صادق ،
كامل • ومما يدعو الى الدهشة أكثر من ذلك أن هيئته كانت هيئة انسان
نادم : فالآن أنا القاضى وهو الجانى • فكان من شأن ذلك كله أن أخرجنى
عن طورى • فهتفت أجييه قائلاً :

- نعم ، حدث هذا يوم كنت قد دفنت فرسيلوف ، يوم كنت قد
انتزعت من قلبى ••• ولكن جاء يوم الحشر بعد ذلك وبعث الموتى •••
أما الآن فقد انتهى كل شيء • ولسوف ترون جميعاً ، جميعاً ، ما أنا قادر
عليه ! انكم لا تتوقعون ما أستطيع أن أفعله •

قلت ذلك ، واندفعت الى غرفتى • فهرع فرسيلوف ورائى •

اتكست بمد ابلال : اتابنتى حمى شديدة ، وفى المساء كنت
أهنى . ولكن لم يكن كل شىء هدياناً ، فقد رأيت أحلاماً كثيرة غريبة ،
حفظت واحداً منها الى آخر حياتى ، أو قل حفظت شذرات واحد منها
أرويه الآن بدون تفسير . لقد كان فى ذلك الحلم تبؤ ، فلا أستطيع أن
أغفله .

رأيتنى فى غرفة واسعة عالية وقد امتلأ قلبى فجأة بنية عظيمة نبيلة .
أين ؟ لا أدرى . ولكن لم أكن عند تاتيانا بافلوفنا . وأقول سلفاً : اننى
أذكر تلك الغرفة تذكراً وضحاً كل الوضوح . ورغم اننى كنت وحيداً ،
فقد كنت أحس - مثلاً قلماً - اننى لست وحيداً وأننى 'أنتظر' ، وأن شيئاً
'يتوقع منى' ، فى مكان وراء الباب أشخصاً ينتظرون ما سأفعله .
احساس لا يطاق : « آه . . ليتنى كنت وحيداً » . وها « هى »
ذى تدخل فجأة . انها تنظر الى « خجلة » ، خائفةً خوفاً شديداً ،
باحشةً عن عينى . و « الوثيقة بين يدي » ، وابتسمت لتغريبنى ،
والتصقت بى . فأشفقت عليها . ولكننى أخذت أشعر باشمزاز . وفجأة
غطت وجهى بيديها ، فرميت الوثيقة على المائدة باشمزاز لا يوصف :
« لا تسألينى شيئاً . خذى . لا أطالبك بشىء ! بالاحتقار انتقم لنفسى من
كل الاهانات التى تحملت » .

وخرجت من الغرفة شاعراً بكبرياء قويه واعتزاز شديد . ولكن
لامير يوقفتنى على العتبة فى الظلام ، ويهمس قائلاً لى وهو يمسك

ذراعى بقوة : « أحقق ، أبله ا سوف تشيء فى فاسيلى اوستروف مدرسة داخلية لبنات النبلاء (يعنى لتستطيع أن تعجنى رزقها اذا علم أبوها بأمر الوثيقة فحرمها من الميراث وطردها من بيته • اننى اسجل تعابير لامبير بنصها كما سمعتها فى الحلم) •

– آر كادى ماكاروفتش يسمى وراء « الجمال » •

ذلك صوت آنا آندريفنا النجيل سمعته قريباً منى على السلم • ولكن هذه الكلمات لم تكن مدحاً بل كانت سخرية لاتطاق • وأعود الى الغرفة مع لامبير • فإذا « هى » ، حين تراه ، تأخذ تضحك مستهزئة • ان الشعور الأول الذى أحسسته كان ارتياعاً رهيباً ، ارتياعاً بلغ من الهول أننى توقفت ورفضت أن أتقدم • ونظرت اليها فلم تصدق عيناي ما رأيت • لكأن قناعاً كان على وجهها فانحسر القناع فجأة : لا تزال قسماً ووجهها كما هى ، غير أن كل واحدة منها قد شوهتها وقاحة لا حدود لها • وصاح لامبير يقول لها : « الفدية يا سيدتى ، الفدية ! » ، فإذا ضحكهما كليهما يشند • وكف قلبى عن الخفقان • « هل يُعقل أن تكون هذه المرأة الوحيدة هى المرأة نفسها التى كان يكفينى أن تنظر الىّ حتى يشتعل قلبى فضيلة ؟ » •

ويهتف لامبير قائلاً :

– هذا ما يفعله هؤلاء المتعجرفون من أبناء المجتمع الراقى فى

سييل المال !

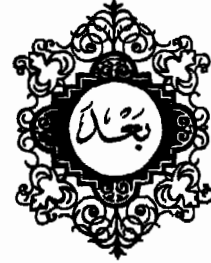
ولكن الوحيدة لم تضطرب • وهى انما تضحك لأننى مروّع • آه ! انها مستعدة للفدية ، و • • • ماذا يحدث فى نفسى ! أصبحت لا أشعر بشفقة ، بل باشمزاز • وأرتعش كما لم أرتعش فى حياتى من قبل • • • واستولت علىّ عاطفة أخرى لا سييل الى وصفها ، عاطفة لم أعرفها فى يوم من الأيام ، عاطفة قوية قوة الكون • أصبحت لا أقوى على

الانصراف • لن أنصرف بحال من الأحوال • آه • • لشدما يسعدنى
أن يبلغ الأمر هذه الدرجة من الخلاعة ! وهانذا امسك يديها • ان ملامسة
يديها تهز نفسى هذا اليماء • وهانذا أقرب شفتى من شفيتها الوضحتين ،
القرمزيتين ، اللتين ترتجفان ضحكاً وتناديانى •

بعداً لهذه الذكرى المخزيه ! سحقاً لهذا الحلم اللعين ! أحلف
لكم أنني قبل هذا الحلم الدنىء لم يراود خيالى أى شىء يشبه هذه الفكرة
المخجلة ! لا ، لم يراود خيالى شىء من ذلك حتى فى أحلام من هذا النوع
بغير ارادة (وان كنت قد احتفظت « بالوثيقة » مخيطة فى جيبى ، وكنت
أتحسسها من حين الى حين مبتسماً ابتساماً غريبة) • فمن أين جاءنى
هذا فجأة ؟ جاءنى من أن لى نفس عنكبوت ! أعنى أن هذا كله كان قائماً
فى نفسى منذ مدة طويلة على حال بذرة ، وكان ثاوياً فى قلبى الفاسق ،
فكنت « أشتهى » ، ولكن قلبى كان الحجل لا يزال يصدده ، وكان فكرى
لا يجسر ، بعد ، أن يتصور شيئاً من هذا القبيل تصوراً واعياً • أما
فى الحلم فان النفس قد عرضت كل ما كان قائماً فى قلبى ، فجاءت
هذه اللوحة الكاملة الواضحة الدقيقة ، وكانت نبوءة • هل « هذا »
ما كنت أريد أن أبرهن لهم عليه حين وُلّيت فى الصباح من عند
ماكار ايفانوفتشس ؟ ولكن كفى ! لا كلمة عن هذا الأمر قبل أن يحين الحين !
ان هذا الحلم الذى رأيتُه هو من أغرب مغامرات حياتى •

الفصل الثالث

١



ثلاثة أيام نهضت في الصباح فشعرت فجأة ، حين
وقفت على قدمي ، أنني لن ألزم السرير بعد
اليوم . لقد أحسست في كيسي كله باقتراب
الشفاء . لعل هذه التفاصيل كلها لا تستحق أن

تسجل . لقد تتالت أيام لم يحدث فيها شيء ذو بال ، ولكنها بقيت في
ذاكرتي بتمامها شيئاً هادئاً فرحاً : هذا أمر نادر في ذكرياتي . لا أريد
الآن أن أصف حالتي النفسية . فلو عرف القارئ ماذا كانت لما صدقني .
فالأفضل أن يبرز هذا من الوقائع فيما بعد . ولكنني بانتظار ذلك أقول :
ليتذكر القارئ ما هي « نفس عنكبوت » ، ما هي نفس عنكبوت لدى
إنسان يريد أن يتركهم ، « هم » والعالم كله سعيًا وراء « الجمال » ! صحيح
أن ظمئي إلى الجمال كان في ذروته ، ولكن كيف تحالف هذا الظمأ إلى
الجمال مع أنواع أخرى من الظمأ يالها من أنواع ! ذلك ما يبقى لغزاً أعجز
عن حله . ولقد كان لغزاً على الدوام ، وطالما أدهشني أن يستطيع
الإنسان (الإنسان الروسي خاصة) أن يهدد في قلبه أسمى شيء
وأدنى شيء في آن واحد ، صادقاً مع ذلك صادقاً كاملاً . هل مرد هذا
إلى « رحابة الفكر » التي تمزى إلى الروسي أم مرده إلى حطة لا أكثر ؟
ذلك هو السؤال .

ولكن دعونا من هذا . المهم أنه كان ثمة هدنة . لقد أدركت أن على
أن أسترده عافيتي بأي ثمن ، وبأقصى سرعة ممكنة ، لأبدأ العمل في أقرب

وقت ، سذلك قررت أن أعيش ملتزماً قواعد الصحة ، وأن أطبع الطبيب
(كيف كان) ، وأن أُرْجى نيات القتال والعدوان بكل حكمة (وهذه
نمرة رحابه الفكر) الى أن أخرج ، اى الى ان اشفى . كيف امكن
أن تجتمع مشاعر المساله ومباهج الهدنه تلك كلها مع خفقات قلبى العارمة
الجامحه الاليمه أماً لذيذاً ، ومع توجس المرارات العاصفة الهوجاء التى
أزعم أن أتخذها ؟ لا أدرى . ولكننى أعزو ذلك الى « رحابه الفكر » .
أصبحت لا أشعر بالقلق الذى كنت أحسه من قبل . لقد أرجأت
كل شىء الى وقته المعين ، دون أن أرتجف من تصور المستقبل كما كنت
أرتجف من قبل أيضاً ، وانما أنا الآن أمام المستقبل رجل غنى واثق
بما يملك من موارد وقوى . وكانت مشاعر العطرسة والتحدى تجاه المصير
ما تنفك تزداد ، ولعل ذلك يرجع قليلاً الى شفائى الذى أصبح الآن
واقعاً ملموساً ، والى اننى استرددت طاقاتى الحيوية . ومازلت الى الآن
أتذكر ، بكثير من الايسارح والسرور ، تلك الأيام التى كنت قد شفيت
فيها شفاء حاسماً بالفعل .

وكانوا قد غفروا لى كل شىء ، غفروا لى اندفاعتى الشيفة وأقوالى
القاسية هم الذين وصفتهم أمامهم أبشع وصف ! هذا ما أحبه فى الناس ،
هذا ما أسميه ذكاء القلب . أو قل اننى افتنت بهذا الموقف على الفور ،
بعض الافتتان طبعاً . فمع فرسيلوف مثلاً ظلمت أتحدث كما يتحدث
صديقان قديمان ، ولكن الى حد لا تتجاوزه : فمتى أسرفنا فى اظهار
عواطفنا (وكان هذا يحدث) ، أمسكنا عن الكلام كلانا فوراً ، وشعرنا
بشئ من الحجل . ثمة حالات لا يستطيع فيها الغالب أن يمتنع عن الحجل
من المغلوب ، لا لشيء الا لأنه غلبه . ولقد كنت أنا الغالب طبعاً ، فكنت
أحمر من ذلك خجلاً .

وفى ذلك الصباح ، أعنى يوم نهضت عن مريرى بعد الانتكاس ،

جاء فرسيلوف الى * وعندئذ انما علمت منه اول مرة ما كانوا قد تواطوا عليه في شأن ماما و ماكار ايفانوفتش * وقد اضاف فرسيلوف ان الشيخ تحسنت صحته ولكن الطيب لا يضمن شفاؤه * فوعده من كل قلبي بأن أكون في المستقبل أكثر حذراً وتروياً * وحين كان فرسيلوف يروى لي هذا كله ، لاحظت فجأة ، أول مرة ، أنه كان هو نفسه قلقاً على الشيخ ، وأن قلقه صادق لا اصطناع فيه ، أي كان قلقه يفوق كثيراً ما كان يمكن أن أتوقعه من رجل مثله ، ولاحظت أنه يعده رجلاً عزيزاً ، عزيزاً عليه هو ، بنض النظر عن أمي * وقد تساقى هذا الأمر ، بل أدهشني تقريباً * فأنا أعترف بانني لولا فرسيلوف لفاتسى أشياء كثيرة ما كنت لأقدرها حق قدرها عند ذلك الشيخ الذي خَلَّف في قلبي ذكرى من أقوى الذكريات وأبقاها وأكثرها أصالة * .

وكان يبدو على فرسيلوف أنه قلق من علاقتي بماكار ايفانوفتش ، أو قل انه كان لا يركن الى ذكائى ولا الى كياستى ، فلذلك ارتاح كل الارتياح فيما بعد حين أدرك أنني أيضاً قادر فى بعض الأحيان على أن أفهم كيف يجب التصرف مع انسان له آراء وتصورات مختلفة عن آرائنا وتصوراتنا كل الاختلاف ، أى اننى أستطيع عند اللزوم أن أكون انساناً مسالماً مصالحاً منفتح النفس واسع النظرة * وأعترف أيضاً (دون أن أخفض قدر نفسى فيما أظن) بأننى وجدت فى هذا الانسان الأسمى من صفوف الشعب شيئاً جديداً على كل الجدة من ناحية العواطف والأفكار ، شيئاً أجهله ، شيئاً هو أوضح كثيراً وأدعى الى العزاء والسلوى كثيراً من أسلوبى فى فهم الأشياء من قبل * ولكن كان يستحيل على مع ذلك ألا أغضب فى بعض الأحيان حين كنت آراء يتشبث بأوهام قاطعة يؤمن بها ايماناً هادئاً ويطمنن اليها اطمئناناً ثابتاً لا يتزعزع * على أن ذلك انما يرجع طبعاً الى نقص ثقافته * أما نفسه فقد كانت فى الواقع تنعم باتساق ونظام ما رأيت أحداً يفوقه فيهما * .

ان ما كان يجذبني اليه قبل كل شيء آخر ، كما سبق أن ذكرت ذلك، هو بساطته القصوى وخلوه من الأنانية خلواً تلاماً ، حتى ليحس المرء أن له قلباً بلا خطيئة تقريباً . كان قلبه عامراً « بالفرح » ، و عامراً اذن « بالجمال » . وكان يحب كلمة « الفرحة » هذه حباً كثيراً ، وكان يستعملها في كلامه كثيراً . صحيح أنه كان يتنابه في بعض الأحيان نوع من هياج مرضي ، نوع من حنان مرضي لعله يرجع الى أن الحمى لم تبارحه طوال هذه المدة . ولكن ذلك كان لا يمنع الجمال الروحي من أن يتألق فيه . وكان يتصف عدا ذلك بصفات متناقضة : فالى جانب السذاجة الشديدة التي كانت تجعله عاجزاً عن ملاحظة السخرية عاجزاً تلاماً (وكان هذا يحزنني) ، كان يتصف بنوع من مكر مرهف يستعمله خاصة في المناوشات الجدلية . كان يحب الجدال ، ولكنه يحبه بين الفينة والفينة ، ويحبه على طريقته الخاصة . ان المرء يلاحظ أنه جاب في أرجاء روسيا كثيراً ، وسمع كثيراً . ولكنني أعود فأقول انه يحب الحنان أكثر من أي شيء آخر ، ويحب اذن كل ما يؤدي الى الحنان ، ويحب أن يقص أموراً تثير الحنان . وكان يحب كثيراً أن يقص . لقد سمعت من فمه عدداً كبيراً من القصص عن أسفاره ، وأنواعاً من الأساطير عن الحياة الخفية التي عاشها قدامى النساك . وهذه أمور ليست معروفة عندي أو مألوفة لي ، ولكنني أظن أنه كان يمزج بهذه الأساطير أشياء مختلفة كثيرة جاء معظمها مما يتناقله شعبنا بالرواية . كان في قصصه أشياء لا يقبلها العقل حقاً . ولكن الى جانب هذه التحريفات

الواضحة او التلفيقات الينة كان يشيع فى قصصه الزاخرة بالمطفنة الشعيه والمثيرة للحنان دائما ، شىء مضمى قوى راسخ . لقد حفظت من قصصه ، مثلاً ، تلك الحكاية الطويلة التى تسمى « حياة ماريا المصرية » . لم أكن أعرف حتى ذلك الحين شيئاً عن حياة ماريا المصرية هذه ، ولا عن حياة أحد غيرها تقريباً . ولكننى أستطيع أن أقول بصراحة : انه يستحيل على المرء أن يسمع قصة حياة ماريا المصرية دون أن تترقرق الدموع فى عينيه ، لا بتأثير ما تثيره فى النفس من حنان ، بل بتأثير نوع من حماسة غريبة : ان المرء يحس فى هذه القصة بشىء خارق حار كرمل الصحراء المحرقة التى تملؤها الأسود والتى كانت ماريا تجوبها . ولكن ليس هذا ما أريد أن أتكلّم عنه ، ولست من أهل الاختصاص فى هذا الميدان على كل حال .

ومما أعجبنى فى ماكار ايفانوفتش ، عدا الحنان ، أنه كانت له آراء أصيلة كل الأصالة فى مسائل لا تزال موضع خلاف كبير بين الناس فى عصرنا هذا . ففى ذات يوم ، مثلاً ، روى لى قصة حديثة عن جندى انتهت خدمته ، وقد شهد ماكار الحادثة بنفسه تقريباً ، فقال ان هذا الجندى حين عاد الى بلده ، ووجد نفسه بين فلاحين ، لم يعجبوه ولا أعجبهم . فأخذ الرجل المسكين يفقد صوابه شيئاً بعد شىء ، وأخذنا يشرب ويسرف فى الشراب ، وقام ذات يوم بعمل سلب ونهب . ولم يكن ثمة أدلة قاطعة على ارتكابه هذه الجريمة ، ولكنه اعتقل أثناء ذلك وحوكم . وقد أخذ المحامى يدافع عنه وكاد يثبت براءته لعدم توفر الأدلة ، فاذا بالرجل الذى كان يصنى الى دفاع المحامى ينهض فجأة فيقطع المحامى قائلًا : « لا ، انتظر قليلاً » ، ثم طفق يروى الوقائع من أولها الى آخرها ، ويعترف بذنبه باكياً نادماً . فانسحب المحلفون وأغلقت عليهم باب القاعة ، ثم عادوا يخرجون ليمثلوا بأن « المتهم برى » . فتعالت صيحات

الفرح من كل صوب • ولكن الجندى بقى جامداً فى مكانه كأنه استحال عموداً ، لأنه لم يفهم شيئاً ، لا ولا فهم ما قاله له رئيس المحكمة حين أفرج عنه • وانصرف الجندى أخيراً وهو لا يصدق عينيه ولا يدرك ما يحدث له • واستبد به الضجر ، وغرق فى التفكير والتأمل ، فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم من الناس أحداً • وبعد خمسة أيام شقق نفسه • قال ماكار ايفانوفتش خاتماً حديثه : « فانظر كيف تكون الحياة حين تثقل على ضمير المرء خطيئة » • صحيح أن القصة لا قيمة لها ، وأن أعمدة جميع الصحف فى أيامنا هذه تمتلئ بحكايات من هذا النوع ، ولكن الشيء الذى أعجبنى انما هو اللهجة • ومما أعجبنى أكثر من اللهجة أيضاً ما كان يستعمله ماكار ايفانوفتش من ألفاظ تعبر عن فكرة جديدة حقاً • من ذلك أنه حين روى لى كيف لم يعجب الجندى الفلاحين عند عودته الى القرية قال : « معروف ما الجندى : الجندى فلاح فسد ، ؟ وحين تكلم بعد ذلك عن المحامى الذى كاد يربح الدعوى قال أيضاً : « معروف ما المحامى : المحامى ضمير للتأجير ، • لقد وقع ماكار ايفانوفتش على هذين التعبيرين عرضاً بدون أى عشاء ، وبدون أن ينتبه هو نفسه اليهما • ولكنهما يشتملان على جملة تصوره لهذين الموضوعين ، وهو تصور ان كان لا يمثل رأى الشعب كله فانه يمثل رأى ماكار ايفانوفتش تمثيلاً رائماً • ان هذه الأحكام الجاهزة التى يصدرها الشعب فى موضوع من الموضوعات تكون فى بعض الأحيان حافلة بأصالة باهرة حقاً •

سألته فى هذه المناسبة :

– ماكار ايفانوفتش ، ما رأيك فى خطيئة الانتحار ؟

فأجابنى وهو يتنهد :

– الانتحار أكبر خطيئة يرتكبها الانسان • ولكن الرب هو الحاكم

الوحيد ، لأنه وحده يعرف كل شيء ، مقاييس وحدوداً • وواجبنا نحن

هو أن ندعو الله لأنثال هؤلاء الخطاة الكبار . فاذا سمعت عن خطيئة كهذه الخطيئة ، فادع لمرتكبها دعاءً حنوناً قبل أن تنام ، وتشفع له عند الرب ولو كنت لا تعرفه ، واذا كنت لا تعرفه فإن شفاعتك تكون أجدى أيضاً .

– هل ينفعه الدعاء وقد حكم عليه ؟

– ما يدريك ؟ ان ناساً كثيرين لا يؤمنون ، فيصلون من لا يعلمون . فلا تستمع لهؤلاء ، فانهم لا يعرفون الى أين هم ماضون . ان صلاة صادرة عن انسان حتى من أجل انسان ميت تصل الى الرب فعلاً . ولكن ما عسى يصير اليه من ليس له أحد يصلى من أجله ؟ لذلك يجب عليك ، حين تصلى قبل النوم ، أن تضيف هذا الدعاء : « ارحم يا يسوع أيضاً جميع أولئك الذين ليس لهم أحد يصلى من أجلهم » . ان هذا الدعاء نافع جداً ، مبهج جداً . بل صلّ كذلك من أجل الخطاة الذين لا يزالون أحياء . قل « ربّ أُنقذ جميع السادرين في ذنوبهم بما تعرف من وسائل » . هذا أيضاً صلاة حسنة .

وعدهته بأن أتلو هذه الصلوات ، لأننى أحسست أن هذا الوعد سيسره سروراً عظيماً . وقد سطم الفرح في وجهه فعلاً حين قطعت له على نفسى هذا العهد . ولكن يجب علىّ أن أسارع فأضيف أن ماكار ايفانوفتش كان في مثل هذه الأحوال لا ينظر الىّ من علىّ ، كناسك يخاطب مرهقا غراً . بالعكس : كان يحب في كثير من الأحيان أن يصغى الىّ ، وأن ينصت الى كلامى بدون كلال في مواضع شتى ، وكان يرى أنه اذا كان يتفوق علىّ بالسن فأننى أنفوق عليه كثيراً بالثقافة . من ذلك مثلاً أنه كان يجب فى أحيان كثيرة أن يتكلم عن النساك ، وكان يضع « عزلة الصحراء » فى منزلة أعلى كثيراً من منزلة « جوب الأفاق » ، فكنت أوجه اليه اعتراضات شديدة حارة ، وألح على أنانية هؤلاء الناس الذين يهجررون العالم ، ويتركون ما يستطيعون أن يقدموه للانسانية من خير ، لا لشيء الا خلاص

أنفسهم • فلم يفهمنى فى أول الأمر ، بل لعله لم يفهمنى فى لحظة من اللحظات ، ولكنه ظل يدافع عن عزلة الصحراء قائلاً : « ان المرء يشفق على نفسه فى أول الأمر طبعاً (أى حين يستقر فى الصحراء) ، ثم يغتبط يوماً بعد يوم ، ولا يزال يزداد اغتباطه الى أن يرى الرب آخر الأمر » • فأخذت أصوّر له تصويراً كاملاً ما يقوم به السالم والطيب وصديق الانسانية عامة من عمل مفيد ، فاستطعت أن أصل به الى حماسة صادقة ، لأنه أخذ هو نفسه يتكلم عن هذا بحرارة ، وكان يؤيدنى فى بعض اللحظات قائلاً : « نعم يا بنى نعم ، باركك الله ، انك على حق ! » • ولكنه ، حين فرغت من كلامى ، لم يوافقنى مع ذلك موافقة تامة ، وقال متهدداً تنهداً عميقاً : « هذا كله حسن ، ولكن هل هم كثيرون أولئك الذين يصمدون ويواظبون على الاهتمام بسعادة الآخرين ؟ اذا لم يكن المال الهاً فهو نصف اله • انه اغراء كبير • ثم هناك المرأة أيضاً ، ثم هناك الشك ، ثم هناك الحسد • فاذا بالمرء ينسى القضية الأساسية ، ويمضى يهتم بالأمر الصغير • ولا كذلك فى عزلة الصحراء • ففى عزلة الصحراء يقوى المرء نفسه للقيام بجميع المبرات والأعمال المقدسة • نعم يا صديقى • أما فى العالم فماذا يحدث ؟ ، ثم هتف يقول بعاطفة خارقة : « أليس العالم حليماً لا أكثر ؟ خذ رملاً وبذره على حصى ، فاذا نبت الرمل الأصفر فوق الحصى فسوف يتحقق حلمك فى العالم • • • هذا ما يقولونه عندنا • أما عند المسيح فيقال : « امض وزرع ثروتك ، واجعل نفسك خادماً للجميع ، فتصبح عندئذ أغنى مما كنت ألف مرة • ذلك أن السعادة لا يصنعها الطعام وحده ، ولا الثياب الثمينة ، ولا الزهو والحسد ، وانما يصنعها حب لا نهاية له • ان ما ستكسبه حينذاك ليس ثروة ضئيلة ، ولا مائة ألف ، ولا مليوناً ، وانما أنت ستكسب الكون بأسره ! نحن الآن نجمع المال بدون شبع ، وتلفه بجنون • أما حينذاك فلن يبقى يتامى ولا فقراء ، لأن الجميع لى أنا ، لأن الجميع أقربائى ،

كسبتهم جميعاً ، اشتريتهم الى آخرهم • ليس بالأمر النادر أن نرى اليوم أناساً أغنياء أو أناساً من أصحاب الشأن لا يهتمون بعدد أيامهم ، ولا يعرفون هم أنفسهم ما عساهم يخترعون من تسليمات • أما حينذاك فإن أيامك وساعاتك ستضعف ألف مرة ، لأنك لن تريد أن تضيّع دقيقة صغيرة واحدة ، وستشعر في كل دقيقة من حياتك بالفرح في قلبك • وعندئذ سوف تكتسب الحكمة لا من الكتب وحدها ، لأنك ستكون مع الرب نفسه وجهاً لوجه • وسوف تتألق الأرض عندئذ أكثر مما تتألق الشمس ، ولا يكون حزن ولا يكون تأوه ، ولا يبقى الاجنة واحدة لا تقدر بـ • • • • •

تلك هي نوبات الحماسة التي كان يجبها فرسيلوف فيما أظن حباً عظيماً • ولقد اتفق أن كان فرسيلوف هذه المرة في الغرفة •

قاطعت ماكار ايفانوفتش فجأة لأقول وقد فارت حماستي أنا أيضاً (اننى أتذكر تلك السهرة) :

— ماكار ايفانوفتش ! ان ما تنادى به وتدعو اليه هو الشيوعية ، هو شيوعية حقيقية !

واذ كان لا يعرف أى شيء عن المذهب الشيوعي ، حتى انه يسمع هذه الكلمة الآن أول مرة ، فقد أخذت أعرض له كل ما كنت أعرفه عن المذهب الشيوعي • اعترف أن ما كنت أعرفه ضئيل وغامض ، وأننى حتى الآن لست حجةً في هذا الموضوع ، غير أن القليل الذى كنت أعرفه قد عرضته بحرارة وحماسة رغم كل شيء • مازال يسرنى أن أتذكر التأثير الحارق الذى أحدثته فى الشيخ ، بل أستطيع أن أقول ان ما أحدثته فيه لم يكن تأثيراً بل كاد يكون هزة • وقد اهتم بالتفاصيل التاريخية ، فكان لا ينفك يسألنى : «أين ؟ كيف من فعل هذا ؟ من قال هذا ؟ • •

وكنت قد لاحظت على كل حال ان هذه خاصة من خصائص الشعب : ان الشعب متى اهتم بشيء اهتماماً كبيراً ، لم يكنف بالفكرة العامة بل طالب بالتفاصيل حتماً . ولقد أربكتنى التفاصيل وتهدت فى شعابها ، واذ كان فرسيلوف يستمع الى حديثى ، فقد خجلت منه قليلاً ، ولكننى ازددت من ذلك حماسة واندفاعاً . وأصبح ماكار ايفانوفتش فى النهاية ، وقد ذاب حناناً ، لا يزيد على أن يعقب على كل كلمة من كلماتى بقوله : « نعم نعم » ، ولكن كان واضحاً أنه لا يفهم عنى ولا يتابع سلسلة حديثى . وقد ضايقتنى هذا ، ولكن فرسيلوف قاطعنى فجأةً ، ونهض معلناً أنه أن أوان النوم . وكانت الأسرة كلها مجمعة ، وقد طالت السهرة . وحين جاء فرسيلوف بمد بضع دقائق يلقى نظرة على غرفتى أسرعرت أسأله عن نظرتى الى ماكار ايفانوفتش ، وعن رأيه فيه عامةً . فضحك ضحكه فرحة (ليست تهكماً على أخطائى فى حديثى عن الشيوعية ، فانه لم يتكلم عن هذا الأمر) . أعود فأقول : ان فرسيلوف كان شديد الالتصاق بماكار ايفانوفتش ، وكثيراً ما فاجأت على وجهه ابتسامة فتانه حين كان ينصت الى الشيخ . ولكن هذه الابتسامة كانت لا تمنع النقد . بادر فرسيلوف يقول :

– قبل كل شيء ، ليس ماكار ايفانوفتش فلاحاً ، وانما هو فن خادم كان أبوه فناً خادماً . فهو لاء الأفتان الخدم كانوا يشاركون أسيادهم جوانب كثيرة من حياتهم الخاصة الفكرية والروحية ، فى العهد الماضى . لاحظ أن ماكار ايفانوفتش لايزال حتى اليوم يهتم اهتماماً خاصاً بوقائع حياة الأسياد والارستقراطية . انك لا تعلم بمدى ولعه وشغفه ببعض الأحداث التى جرت فى بلادنا فى الآونة الأخيرة . هل تعلم أنه شديد الاهتمام بالسياسة ؟ هذا رجل لا يكفيه أن تحكى له كلاماً عاماً ، وانما يجب عليك أن تذكر له كل شيء : من الذى قام بالحرب ؟ هل سنقوم بالحرب أيضاً . ؟

ما أعظم البهجة التي هيأتها له في الماضي بأحاديث من هذا النوع ! وهو يحترم العلم كثيراً ؛ ومن بين جميع العلوم يفضل علم الفلك . عدا هذا يجب أن نذكر أن له في الأمور آراء مستقلة يستحيل أن تزحزحه عنها . ان له اقتناعات ثابتة وواضحة . . . ومخلصة ! ورغم جهله فانه قادر على أن يدهشك فجأة بمعرفته بأمور ما كان لك أن تتصور أن يعرفها . هو يمدح لك عزلة الصحراء بحماسة ولكنه لن يعتكف في الصحراء بحال من الأحوال ، لا ولن يدخل الدير ، فانما هو خاصة « متشرد » ، كما سماه بهذا الاسم اللطيف ألكسندر سيمينوفتش الذي يجب أن أذكر لك في هذه المناسبة أنك تخطيء اذا أنت آخذته وحقدت عليه . ماذا أيضاً ؟ هو كذلك فان قليلاً ، له كلمات من ابتداعه وكلمات ليست من ابتداعه . منطقته ليس سليماً كل السلامة . انه تارة يسبح في عالم مجرد ، وتارة يغوص في عاطفية شديدة ، ولكن عاطفته عاطفية شعبية صافية ، أو قل انها نوبات من ذلك الحنان الذي يتصف به شعبنا ويدخله في شعوره الديني ولن أتكلم عن نقاء قلبه وطيب نفسه : فليس الحديث عن هذا من شأننا نحن . . .

كفى أنتهى من رسم صورة ماكار ايفانوفتش ، سأقل الآن قصة من قصصه ، مستمدةً من حياته الخاصة • ان لقصص ماكار ايفانوفتش طابعاً غريباً ، بل قل انها لا يجمعها طابع مشترك • يستحيل عليك أن تستخرج منها أخلاقاً معينة أو اتجاهاً عاماً ، اللهم الا كونها شيرة للحنان جميعاً • غير أن بينها قصصاً لا تتصف بهذه الصفة ، حتى ان بينها قصصاً مرحة فكهة تشتمل على سخریات من بعض الرهبان الفاسدين ، وهذه قصص كانت روايتها تسيء الى فكرته ، وقد نبهته أنا الى هذا ، ولكنه لم يفهم ماذا أردت أن أقول • وكان يصعب على المرء أحياناً أن يحزر ما الذى كان يدفعه الى رواية هذه القصص ، حتى لقد استغربت منه هذا الاكثار من الكلام ، فعزوته الى شيخوخته والى حالته المرضية •

همس فرسيلوف يقول لى يوماً :

— ليس الآن كما كان فى الماضى • ان وفاته قريبة ، انها أقرب كثيراً مما نظن • فيجب أن نكون متأهين •

نسيت أن أقول ان « سهرات » مطردة كانت قد استقرت عادة عقدها عنده ؛ فعدا ماما التى كانت لا تترك ماكار ايفانوفتش ، كان يأتي فرسيلوف الى غرفته كل مساء ، وكنت آتى أنا أيضاً ، ولم يكن نمة مكان آخر أذهب اليه على كل حال ؛ وفى الأيام الأخيرة أصبحت تأتى ليزا فى العادة ولو أنها تصل متأخرة عن الآخرين وتظل صامتةً طول الوقت .

تقريباً ؛ وكانت تاتى تاتيانا بافلوفنا ، وكان يجىء الطيب أيضاً ولكن
مجيئه نادر . ولا أدري كيف رأيتى أصبح قريباً من الطيب . صحيح
أنتى لم أقترب منه كثيراً ، ولكننى على كل حال أصبحت لا أثور عليه كما
كنت من قبل . ان ما أعجبنى فيه نوع من بساطة لاحظتها أخيراً ، ونوع
من التعلق بأسرتنا ، فقررت أن أغفر له غروره الطبى ، وعلمته عدا
ذلك أن يغسل يديه وأن يعنى بأظافره ، أما أن يلبس قميصاً نظيفاً فذلك
أمر لم أفصح فى أن أحمله عليه . وقد أفهمته أنتى لا أطلب منه هذا حرصاً
على الأناقة ، وتعلقاً « بالفنون الجميلة » ، وانما أنا أطلبه منه لأن النظافة
جزء من وظائف الطيب نفسها مبرهنأ له على ذلك بالحجة الدامغة . وكانت
لو كيريا تاتى من مطبخنا فى أحيان كثيرة فتقف وراء الباب منصتة الى
ما يرويه ماكارا ايفانوفتش . وقد دعاها فرسيلوف يوماً أن تدخل فتجلس
معنا . فأعجبنى منه هذا . ولكنها اقطعت منذ ذلك اليوم عن المجيء .
ان لها طبعها !

أحب أن أسوق الآن قصة من قصص ماكارا ايفانوفتش وقع عليها
اختيارى عرضاً لسبب واحد هو أنتى أحفظها أكثر مما أحفظ القصص
الأخرى . هى قصة تاجر أظن أن مدننا الكبيرة والصغيرة تجرى فيها
آلاف من القصص تشبهها ، فيكفى أن تحسن النظر حتى نراها .
وللقارىء أن يقفز فوق هذه القصة اذا شاء ، لا سيما وأنتى أرويهما
بأسلوب صاحبها .

حدث هذا عندنا ، بمدينة آيميافو . سأحكي لكم الآن هذه المعجزة . كان يوجد تاجر اسمه سكوتوبوينيكوف ، مكسيم ايفانوفتش . لم يكن فى المقاطعة أحد أغنى منه . كان قد بنى مصنع نسيج يشتغل مئات من العمال . وهذا كبر رأس الرجل . ويجب أن نذكر أن جميع الناس كانوا يخضعون لأوامره . وكانت السلطات لا تضع له العصى فى العجلات . وكان الأرشمندريت يشكر له همته وحماسه ، اذ كان يقدم للدير هبات كثيرة ، وكان فى بعض الأحيان ، اذا بدا له أن يفعل ذلك ، يتكلم كثيراً عن الروح ، ويهتم اهتماماً شديداً بالحياة الآخرة . وكان أرملاً ، ولم يكن له أولاد . عن زوجته كانت تجرى شائعات تقول انه أساء معاملتها كثيراً فى السنة الأولى من زواجهما ، مستعملاً قبضتى يديه فى أكثر الأحيان . أما أن يتزوج مرة أخرى فذلك أمر لا يخطر له ببال . وكان يحب الشراب أيضاً . فاذا شرب رآه الناس يركض فى أرجاء المدينة ثملاً ، خالماً ثيابه ، صارخاً . والمدينة صغيرة ، فجميع الناس يعرف بعضهم بعضاً . حتى اذا صحا من سكره عاد رجلاً جاداً ، كل رأى يراه فهو الصواب ، وكل أمر يصدره فهو يعرف كيف يصدره . مع الناس كان يصفى حساباته كما يشاء هواه . هاهو ذا يمسك عدادته ويضع نظارتيه - : « أنت يا فوما ، كم لك على ؟ » فيجيبه فوما : « لم أقبض شيئاً منذ عيد الميلاد يا مكسيم ايفانوفتش . لى عليك تسعة وثلاثون روبلاً » . فيقول : « لا ، هذا كثير ! هذا كثير عليك ! أنت لا تساوى تسعة وثلاثين

• روبلاً • هذا لا يناسبك أبداً ! يجب أن نخصم عشرة روبلات • خذ •
هذه تسعة وعشرون ! • • فلا يقول فوما شيئاً • لا أحد يمكن أن يتفوه
بكلمة • صمت عام •

- أنا أعرف كم يجب أن يدفع له • هذا هو التصرف الواجب مع
هؤلاء الناس • الناس هنا فاسدون لولاي أنا لماتوا جوعاً منذ زمن طويل •
لماتوا كلهم بدون استثناء • أكرر لكم أنهم جميعاً لصوص : عيونهم أكبر
من بطونهم • وليس لهم قلوب تتحرك • زد على ذلك أنهم سكتيرون :
متى دفعت لهم راتبهم حملوه الى الحانة ثم لم يخرجوا منها الا عرياً لا يستر
جسمهم شيء • عرياً كدودة • ثم انهم أوغاد : اجلس على صخرة أمام
الحانة واسمع أينهم وشكواهم : « لماذا ولدتي يا أمي العزيزة ، أنا السكير
المسكين ؟ لماذا ولدت هذا السكير ؟ كان الأفضل أن تخقيه منذ ولد ! » •
أهذا انسان ؟ بل هو حيوان لا انسان • يجب أن نريه أولاً • وبعد ذلك
نعطيه مالاً • أنا أعرف متى يجب أن يعطى أحدهم مالاً •

هكذا كان يتكلم مكسيم ايفانوفتش عن أهل آفيمافو • لم يكن ذلك
حسناً منه • ولكنه ليس وحده مخطئاً • كان سكان مدينتنا ضعافاً لا يملكون
قوة الارادة •

وكان يوجد في تلك المدينة نفسها تاجر آخر • ولكن هذا التاجر
الأخر مات • كان شاباً وطائشاً ، فأفلس وفقد كل رأس ماله • كان في
السنة الأخيرة يتخبط كسمكة على الرمل ، ولكن ساعته كانت قد حانت •
وكانت علاقاته بمكسيم ايفانوفتش شجاراً مستمراً ، وكان مديناً له
بمبالغ كبيرة • حتى وهو على فراش الموت ، حين كان يلفظ أنفاسه
الأخيرة ، كان يلعن مكسيم ايفانوفتش • ومات الرجل تاركاً زوجة
شابة وأطفالاً خمسة وأما أرملة ؟ سنونو بلا مأوى • هذه محنة قاسية ،
ولا سيما مع خمسة أولاد لا تعرف الأم من أين تطعمهم • وكان كل ما بقي

لهم بيتاً صغيراً من خشب انتزعه مكسيم ايفانوفتش سداداً لديونه • واليكم ما فعلته الأرملة : صفت أطفالها، الخمسة أمام باب الكنيسة : ان أكبرهم صبي عمره ثمانى سنين ؛ والأطفال الآخرون كلهم بنات صغيرات • كبراهن عمرها أربع سنين ، صفراهن لاتزال ترضع • فلما انتهى القداس ، خرج مكسيم ايفانوفتش من الكنيسة ، فركع الأطفال الأربعة أمامه (كانت أمهم قد علمتهم هذا الدرس) ، وضم كل منهم يديه الصغيرتين متضرعاً ، وانحنت الأم الى الأرض وهى تحمل الطفل الخامس على ذراعيها ، انحنت محيية مكسيم ايفانوفتش قائلةً له على مسمع من جميع الناس : « يا سيدى الطيب مكسيم ايفانوفتش ، ارحم أطفالاً يتامى ، ولا تترزع منهم آخر لقمة ، لا تطردهم من عش أبيهم ! » • جميع الذين رأوا المشهد ذرفوا دموعاً • أحسنت الأم تعليم أطفالها الدرس • قدّرت أن مكسيم ايفانوفتش لا بد أن يخجل أمام الناس ، فيغفر ويرد البيت الى اليتامى • ولكن حدث غير هذا • وقف مكسيم ايفانوفتش وقال : أيتها الأرملة الشابة ، أنت تريدين زوجاً ، وليس من أجل الأطفال تبكين • زوجك لعنتى وهو على فراش الموت ! ومضى مكسيم ايفانوفتش ولم يرد البيت • قال : « كيف تنطلى على الأعيهم ؟ اذا أنت أكرمت اللثيم تمرد ! لا يفيد هذا كله فى شىء ، ولا يؤدى الا الى فوضى ! » • وكان يتناقل الناس فى المدينة أن مكسيم ايفانوفتش ، قبل عشر سنين ، قد عرض على هذه الأرملة التى كانت يومئذ فتاة بارعة الجمال ، مبلغاً ضخماً من المال ، ناسياً أن هذه الحطية كخطيئة تدمير كنيسة من كنائس الرب • ولكنه لم يظفر منها بشىء • وكان قد ارتكب أعمالاً فذرة من هذا النوع فى المدينة بل فى المقاطعة كلها • ولكنه فى هذه المرة جاوز الحدود •

أخذت المرأة تعول مع صفارها • وطرد مكسيم ايفانوفتش الأيتام من البيت ، لا حباً بالشر فحسب ، بل لأن المرء فى بعض الأحيان يجهل

هو نفسه سبب عناده واصراره على فكرته • وقد هبّ بعض الناس الى مساعدة الأرملة فى البداية ، ثم مضت بعد ذلك تلتمس عملاً • ولكن ما عسى يجنى المرء من العمل عندنا فى غير المصنع ؟ تغسل أرضاً هنا ، وتعزف حديقة هناك ، وتوقد حماماً هنالك ، وعلى ذراعيها طفل يبكى وفى الشارع أربعة صغار يركضون عراةً الا من قميص ؟ حين أركبتهم أمام الكنيسة كانوا لا يزالون يتتلون أجذيتهم الصغيرة ، ويرتدون معاطفهم الصغيرة ، كأولاد التجار • أما الآن فانهم يركضون حفاة • تعلمون أن الثياب تبلى بسرعة أجسام الأطفال • وعلى كل حال فالأطفال لا يحتاجون الى أشياء كثيرة ما ظلت الشمس تطلع • هم فى ذلك الفصل لا يحسون بالبوّس ، بل ينطلقون سعداء ، يزقزقون كالعصافير ، وترن أصواتهم رنين الأجراس الصغيرة • كانت الأرملة تقول : « سيأتى الشتاء فما عسانى صانعة بكم ؟ » ليت الرب يأخذكم اليه ! ، ولكنها لم تضطر الى الانتظار حتى حلول الشتاء • انتشر فى مقاطعتنا سعال أطفال ، السعال الديكى ؟ فكان يسرى من طفل الى طفل • فماتت البنت الرضيع أولاً ، ومرض الآخرون فماتت البنات الأربع فى ذلك الحريف نفسه • ولكن واحدةً منهن لم تمت من المرض بل ماتت لأن عربة داستها فى الشارع • فماذا الذى تظن أنه حدث ؟ دفنت الأم بناتها باكية معولة • كانت قبل ذلك تلعنهن وتدعو لهن بالموت ، فلما أخذهن الرب اليه ؟ طفقت تنتحب وتتشنج • هكذا قلوب الأمهات !

لم يبق لها الا ابنا البكر • فكانت ترتعش خوفاً عليه ، حتى لتكاد تحتنق اختناقاً • وكان الولد نجيباً رقيقاً ، وكان له وجه لطيف كأنه بنت • مضت بالولد الى المصنع ، فعهدت به الى عرابه الذى كان مديراً • وذهبت هى تعمل خادمةً فى بيت أحد الموظفين • وفى يوم من الأيام كان الولد يركض فى الحوش ، فاذا بمكسيم ايغانوفتش يصل راكباً عربته ،

وكان مخموراً كأنما بمصادفة . وكان الولد فد هبط السلم ، فانزلق وصدمه لحظة كان ينزل من عربته ، ووضع كلتا يديه على بطنه . فأمسك مكسيم شعر الولد ، وصاح يسأل : « لمن هذا الولد ؟ هاتوا السياط ! اجلدوه فوراً ، أمامى . » كاد الولد أن يموت خوفاً ، وأخذوا يجلدونه ، فكان يصرخ . قال مكسيم : « تصرخ أيضاً ؟ اجلدوه الى أن يكف عن الصراخ ! » . جلدوه مزيداً من الجلد ، الى أن أشرف على الموت فعلاً . فتوقفوا عن جلده ، وارتاعوا : أصبح الطفل لا يتنفس ، وظل راقداً مغشياً عليه . لقد قيل فيما بعد انه لم يجلد كثيراً ، ولكنه كان طفلاً شديد الخوف جداً . وارتاع مكسيم ايفانوفتش نفسه . وسأل : « لمن هذا الولد ؟ » . فقالوا له من هو . فقال : « هكذا اذن ! احمלוه الى أمه . ماذا جاء به الى المصنع يسرح فيه ويمرح ؟ » . وبعد يومين سأل : « ما أخبار الولد ؟ » . وكانت الأخبار سيئة : كان الولد مريضاً ، راقداً فى ركن عند أمه ، لأن أمه تركت عملها فى هذه المناسبة . كان الولد مصاباً باحتقان فى الرئة . قال مكسيم : « عجب ! لماذا ؟ انه لم يُضرب كثيراً . وانما خوِّف تخويفاً فحسب . لقد ضربت جميع الأولاد الآخرين مثلما ضربته ، فلم يحدث شئ . . . » . وكان يتوقع أن تشكو المرأة أمرها الى القضاء . فكان يتكبر ويتعالى . ولكن أنى للمرأة أن تشكى ! لم تجرؤ . عندئذ أرسل اليها خمسة عشر روبلاً ، وأوفد لها طبيباً . فعل هذا لأنه كان خائفاً ، بل فعله هكذا ، بعد تفكير . ثم أصابته نوبة اقبال على الحمر ، فلم يصح من سكره مدة ثلاثة أسابيع .

وانقضى الشتاء . حتى اذا كان الفصح ، سأل فى يوم العيد مرة أخرى : « ما أخبار الولد ؟ » . لقد صمت طول الشتاء لايسأل أبداً . قيل له : « الولد شفى ، وهو عند أمه ، والأم تعمل خادمة فى النهار » . ذهب مكسيم ايفانوفتش الى الأرملة ، ولكنه لم يدخل البيت ، بل استدعاها

الى المدخل ، وبقى في عربته • قال لها : « اسمي ايتها الارملة المحترمة ، انى أريد لابنك الخير ، أريد أن أكون المحسن اليه ، وأن أغدق عليه نعمى بغير حدود : آخذه الى منزلى منذ اليوم • فاذا أعجبنى قليلاً تركت له مبلغاً كبيراً ، واذا أعجبنى اعجاباً تاماً جعلته وريثى بعد موتى وتركت له كل ثروتى كأنه ابنى ، ولكننى أفعل هذا بشرط واحد : أن لا تحيى الى بيتى أبداً ، الا فى الأعيساد الكبيرة • قال هذا وانصرف • وبقيت الأم كالمجنونة • سمع الناس كلام مكسيم ، فقالوا للأم : « حين يكبر الولد فسوف يلومك كثيراً اذا أنت حرمته من هذا الحظ » • فظلت الأم تبكى ابنها طول الليل ، حتى اذا طلع الصبح اصططحته الى مكسيم • فكان الولد أقرب الى الموت منه الى الحياة •

ألبسه مكسيم ايفانوفتش كما يلبس سيد صغير ، وأستأجر له معلماً ، ووضعه بين الكتب منذ تلك اللحظة • أصبح لا يحوّل عنه بصره ، ويجلسه الى جانبه دائماً • فمتى تتأهب الطفل انبرى يقول له : « خذ كتاباً وادرس ! أريد أن أجعلك رجلاً » • ولكن الولد كان ضعيفاً هزليلاً منذ المرة الأولى ، منذ جلد بالسياط • وكان يسعل • فكان مكسيم ايفانوفتش يقول مدهوشاً : « اذن فالحياة عندى لا تروقه • كان عند أمه يركض حافى القدمين ، ولا يأكل الا كسرات خبز ، ثم ها هو ذا الآن أشد هزالاً مما كان » • فقال له المعلم : « الأطفال يحتاجون الى الركض ، ولا يستطيعون أن يقضوا الوقت كله فى الدرس ، فلا بد لهم من الحركة • • • • شرح له ذلك كله مدعوما بالحجج • فقال مكسيم ايفانوفتش : « ما تقوله حق » • المعلم هو بطرس ستيبانوفتش حفظه الله • رجل طيب يشبه أن يكون « مجذوبا » • كان يحب الشراب ، بل كان يسرف قليلاً فى الشراب ، لذلك طرد من جميع الوظائف التى عين لها • فكان يعيش على الصدقات تقريباً • ولكنه كان دماغاً كبيراً ، كان قوياً فى

العلوم . حتى لقد كان يقول بينه وبين نفسه : « هذا ليس مكاني ، فانما يجب أن أكون استاذاً بالجامعة . أما هنا فأنا في الوحل » حتى صارت ثيابي تتقرز مني ، . وهذا مكسيم ايفانوفتش ينادي الطفل صارخاً فيقول له : « هيا ارخص ، ، وكان الطفل لا يكاد يستطيع التنفس . أمامه . حتى لقد صار لا يستطيع أن يحتمل صوته . فأخذ يرتجف . فازدادت دهشة مكسيم ايفانوفتش وقال : « أخرجته من الوحل ، وألبسته ناعم الثياب ، ونعلته بأحسن الجلد ، وجعلت له قميصاً مطرزاً ، وعاملته كما يعامل ابن جنرال ، ثم هو لا يزال غير متعلق بي ا ما باله ينظر الى كما ينظر صغير الذئب ؟ » . منذ مدة طويلة أصبح لا يدهش أحد من صدور أى شيء عن مكسيم ايفانوفتش . ولكن الناس عادوا يدهشون : انه مرتبط بالولد أشد الارتباط ، لا يستطيع أن يفارقه ، ولا يعرف ماذا يتخيل من أجله . وكان يقول : « اني أفضل أن أُشقق علي أن أعجز عن تغيير طبعه . لقد لعنتي أبوه وهو على فراش الموت بعد أن تناول القربان المقدس . انه صورة أبيه ! ، ،

لم يجلبده مرة واحدة (كان خائفاً أشد الخوف منذ المرة الأولى)
وكان الطفل مروّعاً بدون جلد ، فما الحاجة الى جلده ؟

حيثئذ حدث الحادث . ففي ذات يوم ، بعد أن خسر مكسيم من الغرفة ، ترك الطفل كتابه وصعد على كرسى ، اذ كانت كرتته قد وقعت على خزانة ملابس ، فأراد أن يلتقطها ، ولكن كرهه اشتبكت بمصباح من الخرف كان على الخزانة ، فسقط المصباح على الأرض وتهشم متناثراً ألف قطعة . دوى صوت سقوط المصباح في المنزل كله ، وكان المصباح تحفة ثمينة من خرف ساكس . سمع مكسيم صوت سقوط المصباح من الغرفة الثالثة ، فأخذ يزأر . زعر الولد زعراً شديداً ، وأسرع يولى هارباً الى الشرفة ، ثم اجلس الحديقة ، وخرج من الباب الخلفى حتى

صار على رصيف النهر • كان هناك شارع تزيينه شجيرات مزهرة • مكان
رائع الجمال • وهرع الولد الى الماء ، ورأه الناس ، حتى اذا صار على
حافة النهر ، فى الموضع الذى ترسو فيه معدية ، باعد ذراعيه ، ثم
لعله خاف من الماء فبقى جامداً فى مكانه • المكان عريض ، والنهر سريع ،
والقوارب تمر ؟ وفى الجهة الأخرى دكاكين وميدان وكنيسة ذات قباب
من ذهب يسطع • وفى تلك اللحظة كانت الكولونيله فرتسنج تهبط نحو
النهر مع ابنتها • كان بمدينتنا كتيبة مدفعية • وابنة الكولونيله صبية فى
الثامنة من عمرها هى أيضاً ، ترتدى فستاناً أبيض • نظرت الى الولد
وضحكت • وكانت تحمل بيدها قفصاً صغيراً من خشب فيه قنفذ • قالت
لأمها : « انظرى الى الصبى كيف يتطلع الى قنفذى يا ماما » • فقالت الأم :
« لا بل هو خائف من شىء ما • لماذا تبدو خائفاً هذا الخوف الشديد أيها
الصبى اللطيف ؟ ما أحسن ثيابه ! من أنت يا ابنى ؟ » (هذا ما روى
فيما بعد) • ولم يكن هو قد رأى قنفذاً من قبل • فاقرب ونظر •
نسى ما كان فيه • هكذا الأولاد ! قال يسأل : « ما هذا الذى ممتك ؟ » •
أجابت الأمسة : « قنفذ • اشتريناه منذ قليل من فلاح وجده فى الغابة » •
قال الصبى : « وما القنفذ ؟ » • وضحك • وأراد أن يلمسه باصبعه ،
فاتنفس القنفذ ، وضحكت البنت ، وقالت : « سنأخذه الى البيت
فنؤنسه » • قال الصبى « اعطينى قنفذك ! » طلب منها ذلك هكذا ، بلطف •
ولكن ما ان أنهى جملته حتى كان مكسيم ايفانوفتش يصرخ من أعلى :
« آآآ • هذا أنت ! أوقفوه ! » (كان مكسيم قد بلغ من شدة الغضب
أنه خرج من البيت بدون قبعة) • تذكر الطفل كل شىء ، وصرخ ،
وتقدم نحو الماء ضاماً يديه الصغيرتين الى صدره ، ونظر الى السماء (رأوه
ينظر الى السماء) ، وألقى نفسه فى النهر • فتعالى الصراخ فى كل
صوب ، واندفع ناس من المعدية يلقون أنفسهم فى النهر عسى أن يتشبلوه ،
ولكن الماء كان قد جرفه ، فالنهر سريع ، حتى اذا أخرجوه كان قد

فارق الحياة • لم يتحمل الماء بسبب ضعف صدره • لم يحتاج الى وقت طويل حتى يموت • ما يسمع الناس فى بلادنا قبل ذلك اليوم عن طفل مات منتحراً • خطيئة كبرى ! ما عساها تقول للرب فى السماء ، هذه النفس الصغيرة ؟

منذ ذلك الحين أخذ مكسيم ايفانوفتش يفكر فى المسألة • وتبدلت حاله ، حتى صار المرء ينكره ولا يعرفه • حزن حزناً كبيراً • وأخذ يشرب • أخذ يشرب كثيراً • ثم انقطع عن الشراب : لم ينفعه شيء • وانقطع أيضاً عن الذهاب الى المصنع • وأصبح لا يصنى الى أحد • اذا كلموه لم يجب ، أو حرك يده مشيراً الى أنهم يضجرونه • وانضى شهران ، ثم صار يكلم نفسه • صار يسير وهو يكلم نفسه • وشبت النيران فى قرية فسكوفاف ، بقرب المدينة ، فالتهمت تسعة بيوت • ذهب مكسيم الى الحريق ليرى • أهدق به المصابون وأخذوا ينتحبون : فوجد بأن يمد اليهم يد المعونة ، وأصدر أمره بذلك ، حتى اذا رجع الى بيته استدعى وكيله وألقى كل ما وعد به ، قائلاً له : « لا تعطهم شيئاً ، ولم يذكر السبب • قال يحدث نفسه : « ان الرب خلقنى شيطاناً ، وجعلنى بلية لسائر البشر ، فليكن ذلك ! وقد طارت سمعتى فى الناس سريضة كالرييح » • وجاءه الأرشمندريت بنفسه فى يوم من الأيام : انه راهب عجوز قاس أدخل على الدير أسلوب الحياة المشتركة • قال له الأرشمندريت بلهجة قاسية : « ما هذا السلوك الذى تسلكه ، فأجابه مكسيم : « هكذا ! » وفتح له كتاباً وأشار له الى فقرة من الكتاب :

« من أعر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى فخير له أن يعلق فى عنقه حجر الرحى ويُفرق فى لجة البحر ، (انجيل متى ، الاصحاح الثامن عشر ، ٦) •

قال الأرشمندريت :

- نعم ، هذا لم يُذكر في هذه المناسبة ، رغم أن ثمة علاقة •
ما أشقى الانسان الذى يتجاوز الحدود ! انه يضع نفسه • وأنت قد أسرفت
فى الارتفاع •

تصلب مكسيم ايفانوفتش ، حتى لكأنه أصيب بداء التيتانوس •

قال له الأرشمندريت :

- اسمع واحفظ • لقد قيل : « كلام المكروب اليأس تحمله
الرياح » • وتذكر أيضاً ما يلى : ملائكة السماء نفسها ليست كاملة ،
والكمال الوحيد المبرأ من الخطيئة انما هو الرب ، يسوع المسيح ، الذى
تخدمه الملائكة • ثم انك لم تشأ موت ذلك الطفل • كل ذنبك أنك كنت
متهوراً قليل التبصر والتروى • غير أن هناك ما يملأ نفسى دهشة : لقد
سبق أن ارتكبت سيئات كثيرة أخرى ؛ ما أكثر الذين جعلتهم متسولين
مستجدين ، ما أكثر الذين أفسدت أخلاقهم ، ما أكثر الذين دفعتهم
الى الموت دفعاً ، فكأنك قتلته ! وأولئك البنات الصغيرات ، وأخواته ،
ألم يمتن قبله هن الأربع على مرأى منك تقريباً ؟ فلماذا ينفرد هو بادخال
الاضطراب الى نفسك ؟ أتراك نسيت جميع السوابق ناهيك عن الأسف لها
والندم عليها ؟ ما بالك ترتاع هذا الاتياع الشديد كله لموت هذا الطفل
الذى لم تكن أنت مسئولاً عن موته كل المسئولية ؟

تمتم مكسيم ايفانوفتش يقول :

- لأننى أراه فى المنام •

- ثم ماذا ؟

ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يكشف للأرشمندريت عن شيء ، وظل

صامتاً • فدهش الأرشمندريت وانصرف : لا فائدة !

عندئذ أرسل مكسيم ايفانوفتش من يستدعى له المعلم ، بطرس
سيبتانوفتش . انهما لم يلتقيا منذ حدث الحادث .

قال له :

- هل تتذكر ؟

- أتذكر .

- سمعت أنك رسمت لوحات بالزيت للمطعم ، وأنتك تنسخ الآن
صورة للمطران . هل تقدر أن ترسم لى لوحة بالألوان ؟

- نعم ، أقدر . اننى أملك جميع المواهب ، وأقدر على كل شيء .

- ارسم لى اذن لوحة ، أكبر لوحة ممكنة ، لوحة تحتل الجدار
كله . ضع فيها النهر ، والمنحدر ، وجميع الناس الذين رأوا المشهد .
ضع الكولونيلة وابنتها والقنفذ . وارسم الشاطيء الآخر كله بحيث
يراه الناظر كما هو : الكنيسة والبيدان والدكاكين والمكان الذى ترابط فيه
العربات ، ارسم كل شيء كما هو فى الواقع . وارسم الولد أمام المعذية ،
على ضفة النهر ، فى ذلك المكان نفسه ، واجعل يديه مضمومتين الى
صدره . وأمامه ، على الشاطيء الآخر ، 'شق' السماء ، وصور جميع
الملائكة فى النور السماوى وهم يطفرون الى لقائه . هل تقدر أن ترسم
هذا ؟

- أقدر أن أفعل كل شيء .

- اسمع ، أستطيع أن استقدم أكبر رسّام من موسكو وحتى من
لندن ، بدلاً من الاعتماد على مخربش مثلك . غير أنك ، أنت ، تتذكر
وجهه . فإذا جاءت صورة وجهه لا تشبهه ، أو لا تشبهه شبيهاً كافياً أعطيتك
خمسین روبلاً ، أما اذا جعلتها تشبهه كل الشبه فسأعطيك مائتى روبل .

تذكر عينيه الصغيرتين الزرقاوين ... ولتكن اللوحة أكبر لوحة
ممكنة •

وأبرما اتفاهما • وأخذ بطرس ستيانوفتش يعمل ، ولكنه جاء الى
التاجر يقول له فى ذات يوم :

- لا سبيل الى رسم ما ذكرت •
- لماذا ؟

- لأن هذه الخطيئة ، خطيئة الانتحار ، هى أكبر الخطايا جميعاً ،
فكيف يمكن أن تستقبله الملائكة بعد أن ارتكب هذه الخطيئة ؟
- لكنه طفل • ليس مسئولاً •

- لا ، لم يكن طفلاً صغيراً • كان قد بلغ سن الرشد • كان عمره
ثمانى سنين حين حدث الحادث • فو مسئول قليلاً رغم كل شيء •
ازداد مكسيم ايفانوفتش ارتباعاً • قال :

- وجدت حلاً : لاشق السماء ولا ترسم ملائكة ، حسبك
أن تسقط عليه من السماء شعاعاً • هذا شيء على كل حال •

فعل الرسام ما تخيله مكسيم ايفانوفتش • أسقط على الطفل
شعاعاً من السماء • وقد رأيت اللوحة بنفسى ، فيما بعد ، مع الشعاع
والنهر الأزرق ، رأيتها تغطى الجدار كله • كان فيها الطفل ضاماً ذراعيه
الصغيرتين الى صدره ، وكان فيها الأنسة الصغيرة والقنفذ ، كان فيها كل
شيء • ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يسمح لأحد برؤية اللوحة : أغلق عليها
مكتبه بالمفتاح • هرع الناس من المدينة كلها يريدون أن يروا اللوحة ،
ولكنه طردهم جميعاً • وتكلم الناس فى الأمر كثيراً • وتغيرت حال بطرس
ستيانوفتش حتى لكأنه شخص آخر • أصبح يقول لنفسه : « أنا الآن
أقدر على كل شيء • مكاني الذى استحقه هو البلاط فى بطرسبرج • » •
ان بطرس ستيانوفتش من أحب الناس الى القلب • ولكنه كان يحب أن

يعظم نفسه كثيراً • وسرعان ما وافته منيته : فانه بعد أن قبض الماتى روبل ،
هرع يشرب ويطلع الناس على ماله تهايباً ، فقتل ذات ليلة نملأً • قتله
بورجوارى كان يشرب معه ، وأخذ ماله • واكتشف هذا كله فى
الصباح •

اما تمة القصة فلا يزال جميع الناس يذكرونها هناك : فى ذات يوم
جاء مكسيم الى الأرملة راكياً عربته • كانت الأرملة تسكن كوخاً صغيراً
فى آخر المدينة • وقد دخل هذه المرة الى فناء البيت • وتسمّر أمام المرأة
ثم حياها منحنيًا حتى الأرض • وكانت المسكينة مريضة منذ حدوث تلك
الأحداث كلها ، فهى لا تكاد تستطيع أن تجر نفسها جراً • قال لها : « تعالى
أيتها العزيزة ، أيتها الأرملة المحترمة ، تعالى تزوجينى رغم أننى شيطان
رجيم ، ردئى الى القدرة على الحياة • نظرت اليه المرأة لا حيةً
ولا ميتة • قال لها : « أريد أن يكون لنا صبي صغير آخر ، فاذا ولد لنا
صبي آخر ، كان معنى ذلك أن الأول قد غفر لنا كلينا ، أنا وأنت •
هو الذى أمرنى بذلك • ، • لاحظت المرأة أن الرجل لا يملك صوابه
كاملاً ، وأنه خارج عن طوره ، ومع ذلك لم تطق صبراً فقالت له :

- هذه سخافات وحقارة • بسبب هذه الحقارة فقدت جميع صفارى •
لا أستطيع حتى أن أراك أمامى ، تاهيك عن أن أحكم على نفسى بمثل
هذا العذاب الى الأبد ؟

احصر مكسيم ايفانوفتش ، ولكنه لم يهدأ • ذهلت المدينة كلها
من هذه المعجزة • أرسل مكسيم ايفانوفتش الى الأرملة نساءً يتشفعن له
عندها • واستدعى من بلده عمتين له ، قد تكونان عمته وقد لا تكون
عمته ، ولكنهما بورجوازيتان من قريباته على كل حال ، أى امرأتان
لهما وزن وقيمة • أخذت النساء تنصحنها ، وتمدحها ، ولا تخرج من
عندها • وأرسل أيضاً أشخاصاً من المدينة : أرسل تجاراً ، وامرأة

الأرشمندريت ، وزوجات موظفين • المدينة كلها راحت تقرب منها وتترلف اليها • ولكنها احتقرتهم جميعاً • كانت تقول : « لو كان هذا يبعث يتامى أحياء فقد أقبل ، أما وأنهم لن يعيشوا فعلام أفعل ؟ اذا رضيت لأنتم في حق أولادى يتامى ! » •

وقد استطاع مكسيم ايفانوفتش ان يحمل الارشمندريت نفسه على اشفاقة لديها ، فقال لها الأرشمندريت : « سوف تخلقين منه انساناً جديداً » • فارتاعت • وكان الناس يدهشون من سلوكها : « كيف يمكن أن ترفض امرأة مثل هذه السعادة ؟ » • واليكم الطريقة التى استطاع بها أخيراً أن يقنع المرأة : قال لها : « لقد قتل نفسه رغم كل شيء • ولم يكن طفلاً صغيراً • كان قد بلغ سن الرشد • كان فى سن يستطيع فيها أن يتناول القربان المقدس بدون اعتراف • فهو اذن مسئول عن خطيئة الانتحار بعض الشيء • فاذا تزوجتني نذرت لأبني كنيسة جديدة لترتاح نفسه راحةً أبدية • » • أذغنت المرأة لهذه الحجة ، وارتضت أن تتزوج مكسيم ايفانوفتش ، وتمّ الزواج •

دهش جميع الناس من نتيجة هذا الزواج • لقد عاش الزوجان منذ اليوم الأول فى وثام كامل صادق ، كان كل منهما وفياً للآخر وفاء عظيماً ، فكأنهما نفس واحدة حلت جسدين • وحملت المرأة فى ذلك الشتاء نفسه ، وطفق الزوجان يزوران الكنائس ويتقون غضب الرب • وذهبا الى ثلاثة أديرة يسمعان النبوءات • وقام مكسيم ايفانوفتش ببناء الهيكل الذى وعد بنائه ، وأنشأ فى المدينة مستشفى وملجأ • ووهب جزءاً من ثروته لأرامل ويتامى • وتذكر جميع أولئك الذين أساء اليهم ، وحاول أن يرد اليهم ما اغتصبه منهم • ولكنه أخذ يبدد المال بغير اعتدال ، حتى ان امرأته والأرشمندريت اضطرا أن يصدها عن ذلك : « كفى ! ما فعلته كافي » • وانصاع مكسيم ايفانوفتش • لكنه قال : « لقد غششت فوما مرة » •

ورد الى فوما حقه • وذرف فوما دموع التأثر ، وقال : « لاداعى الى هذا ••• أخذنا منك كثيراً ، فنحن شاكرون لك فضلك الى الابد ، • وتشيح جميع الناس بهذه الروح • حقاً ان الانسان يتأثر بالقدوة الصالحة • ان الناس فى بلدنا طيبو القلب •

وتولت الزوجة ادارة المصنع ، بلغت من حسن ادارتها أن الناس لا يزالون يتذكرون ذلك • ولم ينقطع هو عن الشراب ، لكنها كانت تراقبه ، وحاولت أن تشفيه • وأصبحت أحاديثه رصينة حتى لقد تغير صوته • وصار رجيماً رموفاً حتى بالحيوانات : فى ذات يوم رأى من نافذته رجلاً يضرب حصانه بالسوط ، فأرسل من يشتري الحصان بضعفى ثمنه • ووهبت له القدرة على البكاء : ف فيما هو يتكلم مع أحد الناس ، تفرق عيناه بالدموع فجأة • ولما حان الموعد استجاب الرب لدعائهما فزرقهما غلاماً ، فإذا بمكسيم ايفانوفتش يشرق وجهه بالفرح أول مرة بعد الشقاء الذى أصابه • ووزع صدقات كثيرة ، ورداً ديوناً كثيرة ، ودعا المدينة كلها الى حفلة التعميد • ولكن وجهه كان فى الغد مكفهراً •

ورأته زوجته مهموماً ، فجاءته بالوليد وقالت له : « ان ابنى غفر لنا ، فدموعنا وصلواتنا أثرت فى قلبه ، • يجب أن نذكر أنهما لم يتحدثا عن هذا الموضوع بكلمة واحدة طول السنة • وكان كل منهما يحتفظ به لنفسه • نظر مكسيم ايفانوفتش اليها مظلم الوجه كالليل ، وقال لها : « اسمعى • انه لم يجتنى طول هذه السنة • ولكنى رأيت فى الحلم الليلة •» وقد وصفت الزوجة بعد ذلك ما اتابها من شعور حينذاك فقالت : « عندما سمعت هذه الكلمات القريبة ، نفذ الرعب فى قلبى ، •

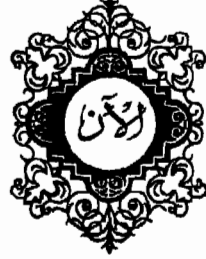
لم يكن عبثاً أن الولد ظهر لمكسيم فى الحلم • وما ان نطق مكسيم بهذه الكلمات حتى مرض الوليد فى تلك اللحظة نفسها • ودام مرضه ثمانية أيام ، فكانوا يصلون من أجله بغير انقطاع ، واستدعوا له الأطباء •

حتى لقد استقدموا من موسكو بالقطار أكبر طبيب • وقال الطبيب غاضباً :
« اننى أكبر طبيب ، وموسكو كلها تنتظرنى • ووصف للمريض قطرات
دواء وأسرع عائداً الى موسكو ، بعد أن قبض ثمانمائة روبل • ومات
الطفل فى المساء •

ماذا حدث بعد ذلك ؟ ترك مكسيم ايفانوفتشن ثروته كلها لزوجته
العزيرة ، سلمها جميع أمواله وأوراقه ، متنازلاً لها عن ذلك كله
وفقاً للأصول المرعية والأنظمة الشرعية ، ثم وقف أمامها وانحنى يحييها
حتى الأرض ، وقال لها : « يا زوجتى ، يا أعلى ما فى الحياة عندى ،
دعيني أمضى لانتهاز روحى ما دمت أملك الآن سيلاً الى ذلك • فاذا قضيت
هذا الوقت دون أن أظفر بطائل ، فلن أعود • لقد كنت قاسى القلب •
ولقد سمت الآخرين سوء العذاب • ولكننى أظن أن الآلام التى سأتحملها
فى المستقبل ، وحياة التجواب التى سأعيشها ، قد تشفع لى عند الرب
فيهب لى رحمته ، ذلك أن ترك هذا كله ليس صلياً صغيراً ولا ألماً
صغيراً • • • حاولت زوجته أن تشى عزمه بالدموع • قالت له : « ليس لى
الآن على هذه الأرض أحد غيرك ، فمن ذا الذى سيرعانى ؟ لقد انفتح
قلبى فى هذه السنة للمحبة والحنان • وظلت المدينة كلها تنصحه خلال
شهر كامل • تضرعوا اليه ، قرروا أن يحتجزوه بالقوة • ولكنه لم يصغ
الى أحد • وتسلل فجأة فى ذات ليلة ومضى ثم لم يعد • يقال انه لا يزال
الى الآن يجوب الآفاق ويتحمل العذاب ، ويزور امرأته الغالية مرة
كل شهر •

الفصل الرابع

١



أصل الى الكارثة النهائية التي تختتم هذه المذكرات •
ولكنني قبل أن أوصل الكتابة أراني مضطراً الى
أن استبق الحوادث فأشرح أمراً ما كنت أعرفه في
حينه وانما أنا عرّفه وأدركته بعد ذلك بمدة
طويلة ، أى بعد أن انتهى كل شيء • واذا لم أفعل ذلك فلن يكون
حديثي واضحاً ، بل سيكون ألقاً لا تفهم • ومن أجل هذا التوضيح
التمهيدى سوف أضحي في سبيل الوضوح والإيجاز بكل ما يسمى اشارة
فنية أو تشويقاً فنياً ، فكأن الذى يكتب ليس أنا ، وكأن قلبى لا يشارك
فيه أية مشاركة • سيكون ما أقوله غير شخصى ، فهو أشبه « بمقالة
صغيرة » فى جريدة •

كان فى وسع رفيق طفولتى ، لامير ، أن ينتمى انتماءً تاماً الى
عصابة من تلك المصابات الرهيبة التى تتألف من متأمرين حقيرين يتواطئون
على القيام بما يطلق عليه اليوم اسم « الابتزاز » ، وما يقع الآن تحت طائلة
العقوبة فى بعض مواد القانون المدنى • والمصابة التى شارك لامير فى
أعمالها بعض المشاركة انما تكونت بموسكو ، وارتكبت عدداً كبيراً من
المكائد (واكتشف شيء من أمرها فى النهاية) • وقد علمت فيما بعد أن
أعضائها كان لهم بموسكو ، خلال فترة من الزمن ، رئيس واسع
الخبرة جداً ، ليس بالفبى ، وليس بالشاب اليافع ، وانما هو رجل متقدم
فى السن • وكان أفراد العصابة ينفذون مشروعاتهم جماعةً واحدة فى بعض

الاحيان أو ينفذونها زمراً زمراً في أحيان أخرى • وعدا الجرائم القذرة
الكثيرة التي ارتكبوها (والتي تحدثت عنها الصحف) كانوا بقيادة رئيسهم
يقدمون على أعمال معقدة غاية التعقيد ، ماكرة أشد المكر • وقد عرفت
بعض هذه الأعمال فيما بعد • لكننى لا أحب أن أدخل في التفاصيل •
فحسبى أن أذكر سمة بارزة من سمات أسلوبهم في العمل : انهم يحاولون
أن يكتشفوا أسرار أناس يكونون شرفاء جداً في بعض الأحيان ، وتكون
لهم في المجتمع منزلة عالية • فاذا عرفوا هذه الأسرار ذهبوا الى أولئك
الأشخاص فهددوهم بنشر بعض الوثائق (وهى وثائق ليست فى حوزتهم
أحياناً) ويطالبونهم بأن يدفعوا لهم مبالغ من المال ثمناً لسكوتهم • ان هناك
أموراً لا توجب العقاب ، وليس فيها شيء من اجرام ، ولكن أشرف
الناس وأشدهم ثباتاً وصلابة يخشون نشرها • وكان أفراد العصابة يستغلون
الأسرار العائلية فى أكثر الأحيان • فمن أجل أن أبين للقارىء مدى
الخدق والمكر فيما كانوا يقومون به من أعمال ، سأروى مكيدة من
مكائدهم ، دون أن أدخل فى التفاصيل • لقد حدث فى أسرة كريمة
من الأمر شيء يؤسف له حقاً ، بل شيء يمكن ان يوصف بأنه جريمة ،
وهو أن زوجة رجل معروف مرموق قامت علاقة بينها وبين ضابط غنى
شاب • وقد ترمى هذا السر الى علم أفراد العصابة ، فاليكم ما فعلوه :
ذهبوا الى الشاب وهددوه بأنهم سيبلغون الزوج • لم يكن لديهم أى
برهان • ولكن كل حذقهم فى اللجوء الى استعمال هذا الأسلوب وكل
براعتهم فى الحساب انما يقومان على أن الزوج ، اذا بلغه الأمر ، ولو لم
يكن هناك براهين ، سيتصرف تصرف من يملك البراهين القاطعة ،
وستتخذ الاجراءات التى يتخذها من توفرت له الأدلة الدامنة • فهم قد
بنوا حسابهم على معرفتهم بطبع الزوج ومعرفتهم بظروف الأسرة • وكان
بين أفراد العصابة شاب من المجتمع الراقى استطاع أن يحصل سلفاً على
معلومات مفيدة • فطالبوا العشيقي بمبلغ ضخم من المال ، دون أن يتعرضوا

من ذلك لأى خطر ، لأن الضابط الذى وقع فريسة لهم كان هو نفسه لا يهتم الا بكتمان الأمر •

ان لامير ، رغم مشاركته فى أعمال تلك العصابة المسكوبيه ، لم يكن ينتمى اليها انتماء تاماً • لكنه وقد استطاب هذه الصنعة ، أخذ يجرب العمل لنفسه شيئاً فشيئاً • يجب أن أبادر فأقول انه لم يكن قادراً على السير فى هذا الطريق كل القدرة • صحيح أنه لم يكن غيباً ، وصحيح أنه كان حيسوباً ، ولكنه كان شديد الاندفاع ، وكان عدا ذلك مسرفاً فى البساطة أو قل فى السذاجة : فهو لا يعرف البشر ولا يعرف المجتمع • أظن مثلاً أنه كان لا يدرك الدور الذى يقوم به رئيس تلك العصابة بموسكو ، فكان يتخيل أن ادارة مثل هذه الأعمال وتنظيمها هما من الأمور السهلة جداً • وكان عدا ذلك كله يكاد يحسب جميع الناس أوغاداً جناء مثله ، فإذا لاحظ مثلاً أن فلاناً من الناس خاف فى ظرف خاص ، تخيل أنه سيخاف فى كل ظرف لأنه جبان • كان هذا عنده بديهية من البديهيات •

أحسب اننى لا أحسن التعبير عما أريد أن أقوله • وهذه الأمور كلها ستوضحها الوقائع فيما بعد • ولكننى أعتقد أن لامير كان سىء الخلق ، فهناك عواطف سامية نبيلة لا يصدق أن تكون موجودة ، بل لا يخطر له وجودها على بال •

وقد جاء الى بطرسبرج لأنه كان يحلم منذ مدة طويلة بأن مجال العمل فيها أوسع من مجال العمل بموسكو ، ولأنه كان قد وقع له بموسكو حادث مزعج ، فكان يلاحقه ويطارده هنالك شخص يضر له أسوأ النيات • فلما وصل الى بطرسبرج أسرع يتصل برفيق من رفاقه القدامى • ولكنه لم يلبث أن وجد مجال النشاط محدوداً ووجد الأعمال ضئيلة تافهة • ثم اتسعت دائرة معارفه ، ولكنه لم يصل الى ثمرة • وقد قال لى فيما بعد:

« الناس هنا خرق باليه وصيية صغلا لا أكثر » . وهاهو ذا في ذات صباح ، عند طلوع النهار ، يلقاني متجلداً من البرد في محاذاة جدار ، ثم يكتشف مما قلته أثناء هذياني انه وقع على « قضية هامة جداً » يمكن أن تدر عليها أرباحاً طائلة ، أو هنا ما قدره .

لقد استخرج هذه القضية كلها مما رويته له حين كنت أتدافاً في بيته وأنا في حالة هذيان حتماً . فمن كل ما أفلت من لساني ذلك اليوم كان يتضح أن الاهانة الكبرى انما وقعت على من بيورنج ، ومنها « هي » : والا لكان يمكن أن يدور هذري على ما جرى لي عند تسرشتشكوف . ولكنني لم أهدر الا في الأمر الأول ، وهذا ما عرفته بعد ذلك من لامير نفسه . ثم انني كنت متحمساً ، وكنت في ذلك الصباح الرهيب أعد لامير وآلفونسين متقدين ومحررين . وحين تساءلت بعد ذلك ، أثناء نقاهتي ، وأنا لا أزال في السرير : ما عسى عرف لامير من أحاديثي إبان الهذيان ، والى أي مدى أفضيت اليه بأسراري ، لم يخطر ببالي أبداً أنه ربما عرف أشياء كثيرة ! صحيح أنني كنت أقدر - وهذا ما تدل عليه مشاعر الندامة التي أخذت بخنفي - أنني قد أكثرت من الكلام حتماً ، ولكن أعود فأقول انني لم يدر في خلدي قط أن أكون قد بلغت من كثرة الكلام ذلك المبلغ كله ! وقد أمّلت أيضاً - وكنت أعوّل على هذا - أن أكون قد عجزت في ذلك الوقت ، بسبب ضعفى ووهنى ، عن النطق بكلام واضح . وهذا ما أتذكره الآن تذكراً واضحاً . ولكن تبين في الواقع أنني قلت كلاماً أوضح كثيراً مما كنت أقدر وأؤمل . ولكن المهم أن هذا كله لم يتكشف لي الا بعد مدة طويلة ، وذلك كان سبب بلائي .

استطاع لامير أثناء هذياني أن يعرف من هذري وتمتماتي وحماساتي وما الى ذلك ، استطاع أن يعرف أولاً : جميع الأسماء تقريباً ، وحتى بعض العناوين ، معرفة دقيقة . واستطاع ثانياً أن يكتون لنفسه فكرة قريبة

من الواقع عن دور كل شخص من الأشخاص (الأمير العجوز ، بيورنج ، هي ، أنا آندريفنا ، وحتى فرسيلوف) . واستطاع أن يعرف ثالثاً أنني 'أهنت وأنتى هدّدت بالانتقام . واستطاع رابعاً وأخيراً أن يعلم أن فى حوزتى وثيقة سرية مخبأة هى رسالة يكفى أن يُطلع عليها أمير عجوز نصف مجنون حتى يعرف أنها مكتوبة بخط بنته التى تصفه فى هذه الرسالة بأنه مجنون وتستشير فيها أناسا من رجال القانون من أجل أن توقع حجراً عليه ، فاما أن يجنّ نهائياً واما أن يطردها من بيته ويحرمها من الميراث أو يتزوج أنسة تسمى فرسيلوفا يفكر فيها منذ الآن ولكنهم لا يسمحون له بتزوجها . الخلاصة أن لامبير عرف أشياء كثيرة . ولا شك أن هناك أشياء كثيرة بقيت غامضة فى ذهنه ، ولكنه قد أمسك بالحيط ووضع قدمه فى الطريق . وحين فررت بعد ذلك من عند آلفونسين استطاع أن يعرف عنوانى فوراً (بأبسط وسيلة : مكتب العناوين) . ثم أسرع يجمع المعلومات اللازمة ، فعرف أن جميع الأشخاص الذين سميتهم موجودون فعلاً . فبادر عندئذ الى القيام بأول مسعى .

كان الشيء الأساسى هو أن هناك وثيقة ، وأن الوثيقة فى حوزتى أنا . ولم يخامر لامبير أى شك فى أن لهذه الوثيقة قيمة كبيرة . هنا أسكت عن ظرف يستحسن أن أرجىء ذكره الى أن يحين وقته . ولكننى أشير الى أن هذا الطرف قد عزز اقتناع لامبير بأن الوثيقة موجودة فعلاً وبأن لها قيمة كبيرة (وأبادر فأقول حالاً ان الطرف كان حاسماً ، ولم يكن فى امكاني أن أتخيله فى ذلك الوقت ، حتى ولا الى آخر القصة ، أى الى اللحظة التى انهار فيها كل شيء دفعة واحدة واتضح من تلقاء نفسه) . حتى اذا تم له الاقتناع بهذه النقطة الأساسية مضى يزور أنا آندريفنا قبل كل شيء .

لا يزال هنالك لفرز يحيرنى : كيف استطاع هذا الرجل ، لامبير ، أن

يتسلل فيصل الى اسنانة صعبة المأخذ رقيقة مثل انا اندريفنا ؟ صحيح أنه حصل على معلومات ، ولكن ما قيمة هذا ؟ وصحيح انه كان حسن الهندام وأنه كان يتكلم بلهجة باريسية ويسمى باسم فرسى ، ولكن كيف لم تدرك أنا أندريفنا على الفور أنه وبش ؟ أم ترانا يجب أن نفترض أن هذا الوبش نفسه هو الذى كانت محتاجة اليه فى ذلك الوقت ؟ هل هذا ممكن ؟

لم أشأ فى يوم من الأيام أن أعرف تفاصيل اللقاء الذى تم بينهما . ولكننى تصورت المشهد بعد ذلك مراراً كثيرة . أغلب الظن أن لأمير منذ البداية ، قد مثل بأقواله وحركاته ، دور صديق الطفولة انقلب على رقيق عزيز . وأغلب الظن أنه أشار فى الوقت نفسه اشارة واضحة الى « الوثيقة » التى فى حوزتى ، وأنه أفهم أنا أندريفنا أن هذه الوثيقة سر لا يعرفه أحد غيره ، هو لأمير ، وأنى أعوّل على هذه الوثيقة للانتقام من الجنزالة آخماكوكفا ، الى آخر ما هنالك . واستطاع خاصة أن يشرح لها ما لهذه الورقة من شأن كبير وقيمة عظيمة ، شرحاً فيه كل ما يجب من دقة ، وكانت أنا أندريفنا فى ذلك الأوان نفسه تمر بظرف لا يمكنها فيه الا أن تتشبت بمثل هذا النبأ ، والا أن تنصت اليه باتتبه شديد . . والا أن تعلق بالفنخ - انقياداً لدافع « الصراع من أجل البقاء » .

كانوا ، فى ذلك الأوان نفسه ، قد انتزعوا منها خطيبتها ، ونقلوه الى تساركوبا تحت الوصاية ، ووضعوها هى نفسها تحت الوصاية . ثم اذا بحظ موات يعرض لها : فالأمر الآن ليس أمر نمائم يمس بها همساً ، ولا أمر شكاوى ترفضها دموع ، ولا أمر أقاويل وشايات ، انما الأمر الآن أمر رسالة ، رسالة مكتوبة بالخط ، أى برهان قاطع على سوء ما تضره ابنة الأمير لأبيها من نيات دنيئة ، وما يضره جميع الذين انتزعوا الأمير منها من مثل هذه النيات . هو برهان قاطع على أنه ينبغي

للأمير أن ينقذ نفسه ولو بالهروب ، وأن يجيء إليها هي انا أندريفنا ،
وأن يتزوجها في غضون أربع وعشرين ساعة ، والا أودعوه مستشفى
للمجانين •

ومن الجائز أيضاً ألا يكون لاميير قد عمد الى المكر مع هذه
الآنسة دقيقة واحدة ، وانما قل لها فجأة منذ أول كلمة : « يا آنسة ،
اما أن تبقى عانساً ، واما أن تصبحى أميرة ومليونية : هناك وثيقة ،
سأستلمها من ذلك الشاب ، وأسلمتها اليك •• فهاتى ثلاثين ألفاً ، •
بل انى لأظن أن هنا هو ما حدث • نعم ، لقد كان لاميير يتصور جميع
الناس أوغاداً مثله • أكرر مرةً أخرى أن لاميير يتصف بما يتصف به
الوغد من سذاجة ، وبراعة • ومن الجائز جداً كذلك ، أن آنا أندريفنا
لم تضطرب لهذه الهجمة لحظة واحدة ، وعرفت كيف تسيطر على نفسها
سيطرة تامة ، وكيف تصفى الى الرجل المبتز الذى يتكلم بلفته اصفاء
كاملاً ، وذلك بفضل « رحابة الفكر » • ولعلها احسرت فى أول الأمر
قليلاً ، ولكنه تجلدت وأنصت الى النهاية • ما أوضح الصورة التى أتخيلها
لهذه المرأة الصعبة المأخذ ، ذات الكبرياء ، الرصينة حقاً ، التى تملك
فكراً واسماً ، وهى تمد يدها الى يد رجل مثل لاميير ! نعم ••• فكراً
واسماً ! فكراً روسياً بعيد الأفق ، شغوقاً « بالرحابة » ، هو الى ذلك
فكر امرأة تمر بمثل هذه الظروف •

سألخص الآن : لقد كان لاميير ، فى يوم خروجى بعد المرض ،
يقف الموقفين التاليين (الآن انما أعرف هذا معرفة اليقين) : فهو أولاً
يريد أن يطلب من آنا أندريفنا ثلاثين ألف روبل على الأقل ، ثمناً
للوثيقة • وهو يريد ثانياً أن يساعدها فى تخويف الأمير ، واختطافه ،
وتزوجه فوراً ، أو فى شئ من هذا القبيل • حتى لقد تم وضع خطة
مقررة • ولكن تنفيذ الخطة ينتظرنى أنا ، أى ينتظر الوثيقة •

ولكن لامير كان فى ذهنه مشروع آخر أيضاً ؛ هو أن يخون
آنا أندريفنا ، فتركها ويبيع الوثيقة للجزالة آخماكوفاً ، اذا كان ذلك
يعود عليه بربح أكبر . وفى هذه الحالة يكون التعويل على بيورنج . ولكن
لامير لم يكن قد لقى الجزالة بعد ، وانما هو يتبع خطاها . وهنا أيضاً
يجب انتظارى أنا .

آه . . . ما كان أشد حاجته الىّ ، لا الىّ أنا ، بل الى الوثيقة !
وكان لامير يتصور أن يتبع معى احدى خطتين أيضاً . فأما الخطوة الأولى
فهى ، اذا لم يمكن سلوك سبيل آخر ، أن تتعاون معاً ، فنتقاسم الربح
بعد أن يكون قد استولى علىّ جسماً وروحاً . وأما الخطوة الثانية - وهى
تفريه اغراءً أشد - فقوامها أن يغرّر بى كما يغرر بصبى صغير ، فيسرق
منى الوثيقة ، أو يبتزعا منى عنوةً وقسراً . وكان يجب هذه الخطوة
الثانية ويداعبها فى أحلامه . أكرر مرةً أخرى أن ثمة ظرفاً معيناً كان
يجعله لا يشك فى نجاح هذه الخطوة الثانية تقريباً ، ولكن سبق أن ذكرت
أننى سأشرح هذا الطرف فيما بعد . ومهما يكن من أمر ، فقد كان لامير
ينتظرنى نافد الصبر ، فكل شىء متوقف علىّ : المساعى التى يجب أن
يقوم بها ، والخطوة التى يجب أن يختارها .

ويجب أن أنصفه فأقول : انه رغم نفاذ صبره قد سيطر على نفسه
الى اللحظة الأخيرة . فلم يجىء الىّ أثناء مرضى أبداً ، ولكنه مرّ بالبيت
مرةً وكلمّ فرسيلوف . لم يرهقنى ، ولم يخفىنى ، حتى لقد ظلّ الى
ساعة خروجى يظهر عدم المسالة . وكان على يقين من أننى لن أكلم عن
الوثيقة أحداً ، ولن أسلمها الى أحد ، ولن أتلفها بحال من الأحوال .
لقد استطاع أن يستخلص من أقوالى نفسها فى بيته أننى أحتفظ بالوثيقة
سراً مكتوماً ، بل أخاف أن يفتضح أمرها . وكان لا يشك فى أننى متى
شفيت فسيكون هو أول من أسعى اليه فوراً ، واننى لن أسعى الى أحد

قبله • وقد عادتني داريا أونيسيموفنا تنفيذاً لأوامره ، فكان يعلم أنني خائف وأنتى احترق شوقاً الى معرفة ما حدث ، وأنتى لن أصمد ... وكان عدا ذلك قد اتخذ جميع التدابير ، واستطاع أن يطلع حتى على اليوم الذى سأخرج فيه ، بحيث لا يمكننى أن أفلت منه ولو أردت •

ولكن اذا كان لامير ينتظرني ، فلقد كانت آنا أندريفنا تنتظرني أكثر منه أيضاً • ويجب أن أقول بصراحة ان لامير كان على حق فى تأهبه لحياتها والغدر بها ، وكان الذنب فى ذلك ذنبها هى • فرغم تفاهمها المحقق (وأنا أجهل صورة ذلك التفاهم ، لكننى أعرف أنه حدث) ظلت آنا أندريفنا الى آخر دقيقة لا تلتزم فى تعاملها مع جانب الصراحة التامة ، ولم تكشف عمّا تضمرة كشفاً كاملاً • وانما هى تكتفى بالإشارة والتلميح • لقد لمّحت له بكل أنواع الموافقة ، ولمحت له بكل أنواع الوعود ، ولكن كلامها كان تلميحاً فصعب • لعلها أصغت الى جميع تفاصيل خطته ، ولكنها لم توافق عليها الا بالصمت • ان هناك أسباباً قوية تدفعنى الى الاعتقاد بهذا • وكان يحضها على اتباع هذا الأسلوب أنها كانت « تنتظرني » • لا بد أنها كانت تفضّل أن تتعامل معى على أن تتعامل مع وغد مثل لامير ؟ وهذا أمر بديهي ومفهوم • ولكن المصيبة هى أن لامير أدرك ذلك أخيراً • فلو أخذت آنا أندريفنا الوثيقة منى بالاتفاق معى رأساً ، لألحق ذلك به خسارة كبيرة • وكان هو مقتنعاً بضخامة « الصفقة » • ولو كان غيره فى مكانه لخاف ولظلت تساوره الشكوك • ولكن لامير شاب ، وجريء ، وظامئ الى الربيع السريع ، ولا يعرف البشر كثيراً ، ويتصور قلة الشرف فى جميع الناس • فليس فى وسع انسان مثله أن يشك ، لا سيما وأنه قد حصل من آنا أندريفنا على تأييدها للنقاط الأساسية فيما يعزم عليه •

ثمة أمر آخر له شأن كبير : هل كان فرسيلوف ، فى ذلك اليوم ،

يعرف شيئاً ما ؟ هل كان يشارك لامبير في بعض الخطط ولو من بعد ؟
كلا ، ثم كلا ! انه في « ذلك الوقت » لم يكن يشارك بعد . لعل كلمة
طائشة قد أفلتت منه . ولكن كفى كفى ! حسبي استباقاً للأحداث !

ثم ماذا عنى أنا ؟ هل كنت أعرف شيئاً يوم خروجي ؟ لقد ذكرت
حين بدأت بكتابة هذه الزاوية من حديثي أنني كنت يوم خروجي
لا أعرف شيئاً ، وأنتى عرفت كل شيء فيما بعد . هذا صحيح . ولكن
هل صحيح كل الصحة ؟ الحق أنني كنت أعرف شيئاً ما ، بل كنت أعرف
أشياء كثيرة . ولكن كيف ؟ فليتذكر القارىء « حلمي » الذى رأيتيه .
إذا كان حلم من هذا النوع قد أمكن أن أراه فى نومى ، وأن ينبجس
من نفسى فى هذه الصورة ، فإن هذا يدل على أنني كنت لا أزال أجهل
أموراً كثيرة ، ولكنه يدل على أنني كنت « أتوجس » هذه الأمور ، كما
يستدل على ذلك مما شرحته هنا من أشياء لم أعرفها فى الواقع الا بعد
أن كان قد « انتهى كل شيء » . صحيح أنني كنت لا أعلم شيئاً علم اليقين ،
ولكن قلبى كان يخفق بتوجسات تتبأ بما سيحدث ، وكانت الأرواح
الشريرة قد غزت أحلامي واستولت عليها . ذلكم هو الرجل الذى هرعت
اليه وأنا أعرف من هو ، وأوجس جميع التفاصيل . لماذا هرعت اليه ؟
تخيلوا أنني ، الآن ، فى هذه اللحظة ، وأنا أكتب هذه الأسطر ،
يبدو لى أنني منذ ذلك الحين ، كنت أعرف ، بأدق التفاصيل ، لماذا
سميت اليه مسرعاً ، رغم اننى فى واقع الأمر لم أكن أعرف شيئاً
كما سبق أن ذكرت ذلك . قد يفهم القارىء عنى هذا الكلام . ولننتقل
الى الوقائع ، ولنذكرها بعضها وراء بعض .

بدأ كل شيء هكذا : قبل خروجي الأول بيومين، دخلت ليزا مضطربةً أشد الاضطراب • كانت منزوعةً انزعاجاً شديداً • لقد حدث لها في الواقع شيء لا يطاق •

سبق أن أشرت الى صلاتها بفاسين • لقد ذهبت اليه لا لتبَيِّن لنا أنها في غير حاجة الينا فحسب ، بل لأنها كانت تقدره فعلاً • كانا قد تعارفا بمدينة لوجا • وقد لاح لي دائماً أن فاسين ليس غير مكترث بها وكان طبيعياً ، وهي فيما هي فيه من شقاء ، أن ترغب في طلب النصيح من انسان يملك عقلاً راجحاً ، ويتمتع بالهدوء ، ويتسم بسمو النفس ، وهذا كله كانت تفترضه في فاسين • ثم ان النساء لا يملكن بصيرة نافذة في تقدير شخص يعجبهن • حتى لقد يرين في المفارقات الغريبة آراء سديدة ، متى جاءت تلك المفارقة مطابقة لرغباتهن • ولقد كانت ليزا تحب في فاسين اهتمامه بحالتها الراهنة وعطفه على الأمير ، كما بدا لها ذلك منذ المرات الأولى • واذ كانت من جهة أخرى تحس بما يحمله لها من عواطف ، فقد كان يستحيل عليها ألا تحترم فيه تقديره لمنافسه والأمير ، حين باحت له هي نفسها بأنها تستشير فاسين أحياناً ، أحس بقلق شديد ، وشعر بغيرة قوية عليها • فجرح هذا شعور ليزا . وأصبحت تواصل زيارة فاسين متعمدةً منذ ذلك الحين • فسكت الأمير ، ولكنه صمت على مضض وظل مكفهر الوجه • وقد اعترفت لي ليزا فيما بعد (بعد مدة طويلة جداً) أن فاسين سرعان ما أصبح لا يعجبها • لقد كان

هادئاً ، وهذا الهدوء المستمر المطرد الذى أعجبها كثيراً فى البداية قد أصبح يغيظها بعد ذلك • صحيح أن فاسين كان رجلاً عملياً ، وأنه أسدى إليها فعلاً بعدد من النصائح التى يؤمها ظاهرها بأنها نصائح رائجة ، ولكن هذه النصائح جميعها قد تبين بما يشبه المصادفة أنها لا يمكن تنفيذها • وكان فى بعض الأحيان ينظر الى الأمور نظرة مسرفة فى التعالى ، وأخذ خجله أمام ليزا يقل شيئاً بعد شيء • وقد عزت هى ذلك الى أن اهتمامه بحالها أخذ يتضاءل مزيداً من التضاؤل على غير شعور منه • وفى ذات مرة شكرت له أنه لا يزال يلصقنى ويحدثنى حديث الند للند رغم تفوقه علىّ فى الفكر (وهى بذلك قد أبلغته كلماتى نفسها) ، فما كان منه الا أن أجابها بقوله :

- ليس الأمر ما تظنين ، بل هو أبسط من ذلك كثيراً • فإنا لا أرى أى فرق بينه وبين سائر الناس • ولا أعده أغبى من الأذكاء ولا أسوأ من الأخيار • لذلك أعامل الناس كلهم معاملة واحدة ، لأنهم فى نظرى متماثلون لا يختلف بعضهم عن بعض •

- كيف ؟ لا ترى بين الناس فروقاً ؟

- بلى • ان الناس يختلف أحدهم عن الآخر فى هذه النقطة أو تلك ، ولكن هذه الاختلافات لا وجود لها فى نظرى لأنها لا تتعلق بى ولا شأن لى بها • هم عندى متساوون جميعاً • والأمور كلها تستوى عندى • وذلك هو السبب فى أننى أعامل الناس كافة معاملة حسنة •

- ولا تضجر من هذا ؟

- لا ، أنا راض عن نفسى دائماً •

- وليس لك رغبات ؟

- بلى ، ولكن رغباتى ليست كثيرة • لست فى حاجة الى شيء ،

أو لا أكاد أكون فى حاجة الى شيء ، لست فى حاجة حتى الى روبل واحد زيادة على ما معى • يستوى عندى أن ألبس ذهباً وأن أبقى كما أنا • الملابس الذهبية لا تضيف الى فاسين شيئاً • والطعام الفاخر لا يفرينى • وهل المناصب والأمجاد تساوى قيمتى ؟

لقد حلفت لى ليزا بشرفها أنه قال لها هذا الكلام بنصه يوماً • والحلق أننا قبل أن نقطع برأى ، يجب أن نعرف الظروف التى قيلت فيها هذه الكلمات •

ان تسامح فاسين تجاه الأمير (وهو تسامح اقتضت ليزا أخيراً بأنه لا يرجع الى ما يحمله لها من عاطفة ، وانما يرجع الى قلة الاكثرات التى يتخذها فاسين عقيدة له ومذهباً) قد أخذ يفسد شيئاً فشيئاً حتى استحال الى نوع من سخرية فيها احتقار • وقد أحقق هذا ليزا ، ولكن فاسين آمن فيه • وكان يعبر عن آرائه دائماً بركة ولطف ، بل كان يتهم ويدين بغير اظهار شيء من الاستياء أو الامتناع ، وانما هو يستعمل البراهين المنطقية وحدها ليحكم بأن بطل ليزا رجل تافه لا قيمة له • وفى هذا المنطق انما كانت تنوى السخرية • وبرهن لها أخيراً على أن حبها للأمير « يجافى العقل » ، وأنها « تكره نفسها عليه اكراهاً وتفسرها عليه قسراً » وختم كلامه قائلاً : « لقد ضلت فى عواطفك ، وعلى المرء حين يدرك ضلاله أن يتداركه بالاصلاح حتماً » • •

حدث هذا فى ذلك اليوم • وقد استاءت ليزاء ونهضت لتتصرف ، فما الذى فعله واستنتجته هذا الانسان العاقل ؟ انبرى يمرض عليها الزواج بنيل ، وحتى بماطفة ! فما كان من ليزا الا أن بادرت تصفه على الفور بأنه غبى أحمق ! قالت له ذلك وجهاً لوجه • وخرجت •

أن يمرض على امرأة أن تخون انساناً شقيماً لأن هذا الانسان الشقى

« لا يستحقها » ، وأن يمرض هذا على امرأة حبلى من هذا الانسان الشقى ، ذلكم هو ذكاء هؤلاء الناس من أمثال فاسين ! اننى أسمى هذا احساساً فى النظريات وجهلاً مطلقاً بالحياة مردؤه الى زهو وغرور . وقد أدركت ليزا ، من جهة أخرى ، ادراكاً واضحاً كل الوضوح ، أن اعتراض فاسين باقدامه على هذا العرض انما يرجع الى معرفته بأنها حامل . وسرعان ما ذهبت الى الأمير وقد فاض دمعها استياء واستنكاراً ، فاذا بالأمير يتفوق على فاسين سخافة . كان ينبغى له ، بعد الذى قصته عليه من أمر فاسين ، أن يقتنع بأن غيرته لا محل لها . ولكن تقيض هذا هو ما حدث . فقد طاش صوابه عندئذ تماماً . وكذلك شأن جميع الغيورين على كل حال ! لقد شاجرها شجاراً عنيفاً ، وصدع رأسها تصديماً رهيباً ، وأتمخن شعورها بالجراح وأهانها حتى أوشتك أن تقطع كل علاقة لها به على الفور .

ومع ذلك رجعت الى البيت كاظمة غيظها مسيطرة على نفسها ، ولكنها لم تستطع الا أن تبوح لأمها بما حدث . فذاب الجليد ، وعادت المرأتان الى سابق عهدهما ، فتعانقتا كما كانتا تعانقتان من قبل ، وبكت كل منهما فى ذراعى الأخرى على عاداتهما ، وبدا أن ليزا قد هدأ روعها وان ظلت مكفهرة الوجه مظلمة النفس . وفى المساء بقيت جالسة عند ماكار ايفانوفتش دون أن تنطق بكلمة ، ولكن دون أن تغادر الغرفة . وأصنعت كثيراً الى ما كان يقوله ماكار ايفانوفتش . انها منذ وقع له حادث السقوط عن المقعد أصبحت تحترمه احتراماً كبيراً يمازجه شيء من خجل ، وان ظلت قليلة الكلام .

ولكن ماكار ايفانوفتش قد غير الحديث فى هذه المرة تغييراً غربياً لم يكن فى الحسبان . يجب أن أذكر أن فرسيلوف والطبيب كانا قد تحدثا فى الصباح عن صحته ، فكان يبدو على وجهيهما هم وقلق . ويجب أن

أذكر أيضاً أن البيت كان منذ عدة أيام يستعد للاحتفال بعيد ميلاد ماما الذي سيكون موعده بعد خمسة أيام تماماً ، وأن جميع أهل البيت كانوا يتكلمون عن هذا الاحتفال . ففي هذه المناسبة اندفع مكارا ايفانوفتش يستعيد ذكرياته فجأة ، وتذكر طفولة ماما ، أيام « كانت لا تحسن الوقوف على ساقيها بعد » . قال : « كنت لا أتركها أبداً . وكنت أعلمها المشي : أضعها في ركن على بعد ثلاث خطوات مني ، ثم أناديها ، فتجتاز الغرفة مترنحة بلا خوف ، ضاحكة ، وتركض الى » ، وترتمى بين ذراعي ، وتقبل عنقي . ثم كنت أقص عليك حكايات يا صوفيا أندريفنا ، اذ كنت تشغقتين الحكايات عشقاً . كانت تبقى على ركبتي ساعتين ، تصنى الى . وكان جميع من بالكوخ يدهشون فيقولون : « انظروا ما أشد تعلقها بمكارا » أو كنت أمضي بك الى الغابة يا صوفيسا أندريفنا ، فأعثر على شجرة عتيق ، فأجلسك هناك ، ثم أصنع لك صفارة من خشب . حتى اذا ارتويينا من النزهة ، عدنا الى البيت والطفل نائم على ذراعي . وفي ذات يوم ، خافت من الذئب ، فارتمت على مرتجفة مرتعدة ، ولم يكن ثمة ذئب .

- قالت ماما :

- هذا أتذكره !

- تذكرينه ؟ لا يمكن . . .

- بل أتذكر أشياء كثيرة أيضاً .

وأضافت تقول بصوت متأثر وقد احمرت احمراراً شديداً :

- كلما أوغلت في تذكر الماضي رأيتك ورأيت ما كنت تحمله لي

من حب وحنان .

انتظر مكارا ايفانوفتش لحظة ثم قال :

- وداعاً يا أولادى ، أما راحل • الآن حان حينى • لقد وجدت
فى نبيخوختى عزاء عن جميع آلامى • شكراً يا أصدقائى •
هتف فرسيلوف متأثراً بعض التأثر :

- دعك من هذا الكلام يا مكارا ايفانوفتش ، يا عزيزى • لقد قال لى
الطبيب منذ قليل ان صحتك تحسنت تحسناً كبيراً •
وكانت أمى تصنى الى الحديث مرتاعة •
قال مكارا ايفانوفتش مبتسماً :

- وما 'يدرى صاحبك الكسندر سيمينتش ؟ صحيح انه لطيف ،
ولكن هذا كل شىء • أم تراكم تظنون يا أصدقائى أنى خائف أن أموت ؟
فى هذا الصباح ، بعد أن تلوت صلاتى ، راود قلبى احساس بأننى لن
أخرج من هنا حياً • أحد قال لى هذا • هيا ! تبارك اسم الرب ! ولكننى
أتمنى لو أظلل أراكم جميعاً • كان أيوب المذب يتعزى عن آلامه برؤية
أحفاده الجدد ، ولكن هل كان ينسى أولاده السابقين ، وهل كان يستطيع
أن يساهم • كلا • ذلك مستحيل ! على أن الحزن يمتزج بالفرح كلما
مضت السنون ، ثم يستحيل الى زفرة سعيدة • هكذا تجرى الأمور فى
هذا العالم : كل نفس تمتحن وتعزى •

وأردف مكارا ايفانوفتش يقول وهو يتسهم ابتسامة عذبة جميلة لن
أساها ما حيت :

- قررت يا أولادى أن أقول لكم كلمة ، كلمة لا أكثر •••
ثم التفت نحوى فجأة وقال :

- أنت يا عزيزى ، اعمل للكنيسة بهمة وحماسة ، ومت فى سبيلها
إذا دعا الداعى •

ثم أضاف يقول ضاحكاً :

- ولكن انتظر • لا تخف ! أنا لا أقول هذا لتفعله الآن • انك اليوم لا تفكر في هذا الأمر ، وقد تفكر فيه في المستقبل • غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً : اذا أردت أن تفعل خيراً ، فافعله في سبيل الله ، ولا تفعله انقياداً لنزوة • كن رابط الجأش صلب العود ، ولا تدع لنفسك أن تسترسل في أنواع من الجبن • ولكن تمهل في عملك ، ولا تتسرع ولا تهرع واتبأ • ذلك هو كل ما ائت في حاجة إليه • شيء آخر : تعود أن تلو صلواتك كل يوم حتماً • أقول لك هذا عرضاً ولعلك تتذكره في يوم من الأيام •

ثم التفت الى فرسيلوف فقال له :

- لك أيضاً يا آندره بتروفتش ، يا عزيزى ، أريد أن أقول بضع كلمات • ان الرب سيهدى قلبك دون أن أتكلم أنا على كل حال • لقد كفتنا عن الكلام في ذلك الأمر منذ مدة طويلة ، منذ أن نفذ ذلك السهم في قلبي • أما وأنتى الآن راحل فأحب أن أذكرك •• بالوعد الذى قطعته لى على نفسك حينذاك •

نطق بهذه الكلمات همساً وهو خافض رأسه ، وأردف يقول :

فهتف فرسيلوف متأثراً وهو ينهض :

- ماكار ايفانوفتش !

- طيب طيب ، لا تضطرب يا عزيزى • ما هذه الا ذكرى •• ان أكبرنا انما أمام الله في هذه القضية هو أنا • كان ينبغى ألا أسمع بما حدث رغم أنك كنت مولاي • فلا تضطربى أنت أيضاً يا صوفيا ،

لا تدعى لنفسك أن تسرف في الاضطراب ، لأن الانتم ائمتي أنا ، ولأنتي
أعتقد أنك كنت في ذلك الأوان لا تعرفين ماذا تفعلين •

هنا ابتسم ماكار ايفانوفتشس واختلجت شفتاه من ألم • ثم تابع كلامه
فقال :

- كان يمكنني يا زوجتي أن ألقنك درساً في ذلك الحين
ولو باستعمال العصا ، بل كان يجب عليّ أن أفعل • ولكنني أشققت عليك
حين ارتيمت أمامي باكية ، واعترفت لي بكل شيء وأنت تقبّلين قدمي •
ليس فيما أقول لك الآن لوم أو مؤاخذة ، ولكنني أريد أن أذكر أندره
بترفوتش ••• وانك يا عزيزي لتتذكر عهد الشرف الذي قطمته علي
نفسك • ان الزواج يستر كل شيء • أقول لك هذا أمام أولادى •••

كان ماكار ايفانوفتشس منفعلًا الى أقصى حدود الانفعال ، وكان ينظر
الى فرسيلوف منتظرًا منه أن يقول كلمة تأكيد • أكرر أن هذا كله لم
يكن في الحسبان ، فبقيت جالساً على كرسيي بلا حراك • وكان فرسيلوف
لا يقل عنه انفعالاً بل يزيد عليه : وها هو ذا يدنو من ماما صامتاً فيقبلها •
وها هي ذى ماما تتقدم من ماكار ايفانوفتشس ، صامتةً كذلك ، فتحية
بانحناءة شديدة •

الخلاصة أن المشهد كان يبعث في النفس أشد التأثير • ولم يكن بالعرفه
في هذه المرة غريب ، ولا تاتيانا بافلوفنا • وكانت ليزا منتصبه الجذع
فوق كرسيها تصني صامتة • فهامى ذى تنهض فجأة ، وتقول لماكار
ايفانوفتشس بلهجة ثابتة قوية : باركني أنا أيضاً يا ماكار ايفانوفتشس ،
لأنحمل المحنة الكبيرة التي تنتظرني • غداً يتقرر مصيرى كله • فادع
اليوم لي •

قالت ليزا ذلك وخرجت • انى أعرف أن ماكار ايفانوفتشس كان على

علم بأمر ليزا ، فقد أطلعتة ماما عليه • ولكننى فى ذلك المساء رايت فرسيلوف وماما أول مرة معاً • أما قبل ذلك فلم أكن أرى الى جانبه الا عبدة • نمة أشياء كثيرة كنت لا أزال أجهلها ولم أكن قد لاحظتها لدى هذا الرجل الذى كنت قد أدتته • لذلك رجعت الى غرفتى مضطرباً • يجب أن أذكر أننى فى تلك اللحظة نفسها قد تكأفت شكوكى فيه مزيداً من التكاثف • انه لم يبد لي فى يوم من الأيام أقرب الى السر واللفز مما يبدو لي الآن • ولكن هذا هو كل القصة التى أكتبها : وسوف يأتي كل شىء فى حينه •

قلت محدثاً نفسى وأنا أرقد على سريرى : « لقد قطع لماكار ايفانوفتش على نفسه عهد الشرف ليتزوجنّ أمى متى ترمّلت • ولكنه لم يقل لي شيئاً عن هذا الأمر من قبل حين كلمنى عن ماكار ايفانوفتش » •

فى الغد غابت ليزا عن المنزل طول النهار ، فلما عادت كان الوقت متأخراً ، فمضت الى غرفة ماكار ايفانوفتش رأساً • وكنت لا أريد أن أدخل حتى لا أضايقهما ، ولكننى لاحظت أن ماما وفرسيلوف كانا قد دخلا فدخلت • كانت ليزا جالسةً بجانب الشيخ تبكى على كتفه • وكان الشيخ يلاعب رأسها صامتاً حزين الوجه •

وقد شرح لي فرسيلوف (فى غرفتى بعد ذلك) أن الأمير يلح على أن يتزوج ليزا متى أمكن ذلك ، حتى قبل صدور قرار المحكمة ؛ وأن ليزا مترددة لئلا تعزم أمرها بعد رضم أنها لم يبق لها حق فى التردد تقريباً • وكان ماكار ايفانوفتش « يأمرها ، أيضاً بأن تتزوجه • وهذا كله كان ينبغى أن يتم من تلقاء نفسه فتوافق ليزا على الزواج من تلقاء نفسها أخيراً ، بلا تردد ولا أوامر ، ولكنها الآن تشعر بأن الرجل الذى تصبه قد أهانها أهانة شديدة ، وأن حبها يذلها حتى فى نظر نفسها ، فكان يصعب عليها

أن تعزم أمرها • ولكن هناك شيئاً غير الالهانة ، قد تدخل في الموضوع
وما كان ليخطر لي ببال •

أضاف فرسيلوف يسأل فجأة :

– هل جاءك نبأ شباب بطرسبورسكايا الذين اعتقلوا أمس ؟

فهمت :

– ماذا ؟ درجاتشيف ؟

– نعم • وفاسين أيضاً •

'ذهلت ، ولا سيما من سماع اسم فاسين •

– هل له دخل في شيء ؟ ما عساهم يصنعون بهم ! وياه ! ويحدث
هذا في الوقت الذي تشتكى فيه ليزا من فاسين ! ما عسى يحدث لهم في
رأيك ؟ يميناً ان لستيلكوف يبدأ في الأمر !

قال فرسيلوف وهو يرشقني بنظرة خاصة ، كما ينظر الى امرئ
لا يفهم شيئاً ولا يحزر شيئاً :

– دعنا من هذا الآن ! ما أدرانا بما وقع ، وما يدرينا بما سيصنع
بهم ؟ ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله : لقد علمت أنك تريد أن تخرج
غداً • فهل تذهب الى الأمير سرجى بتروفتش ؟

– سأذهب اليه قطعاً ، رغم أن هذه الزيارة تشق على نفسي وتؤلني ،
أعترف بذلك • هل تريد أن أنقل اليه شيئاً على لسانك ؟

– لا ، لا شيء • سأراه بنفسى • اننى أرثى لحال ليزا • أية نصيحة
يستطيع ماكار ايفانوفتش أن يسديها اليها • انه هو نفسه لا يدرك شيئاً
لا من أمور الناس ولا من أمور الحياة ! شيء آخر يا عزيزى (كان منذ
مدة طويلة قد انقطع عن مخاطبتي بقوله : « يا عزيزى ») • ان في القضية

أيدي عدد من الشبان ... أحدهم رفيقك القديم لاميير • يخيل إلى أنهم
جميعاً أوغاد رهيون • • أردت تسيهك فحسب • • هذا شأنك وحدك •
أنا أعلم أنني ليس من حتى أن ...

فرايتني أمسك يده فجأة دون أن أفكر ، مدفوعاً الى هذا بما يشبه
الحماسة والالهام ، كما يحدث لي كثيراً (وقد حدث هذا كله في ظلام
كامل) ، ورأيتني أقول له :

- آندره بتروفنتش ، لقد صمت أنا حتى الآن ، وأنت تعرف لماذا
صمت • صمت لأتحدثي أن أتدخل في أسرارك التي قررت ألا أطلع
عليها في يوم من الأيام • انني جيان • انني أخشى أن تنتزعك هذه الأسرار
من قلبي انتزاعاً تاماً ، وذلك ما لا أريده • أفلا ينبغي لك والحالة هذه أن
تاملني بمثل ما أعاملك به ، فتركني وشأني أمضي حيث أريد ! أليس
هذا صحيحاً ؟

فقال لي وهو يتركتني :

- انك على حق • ولكن أرجوك : لا تزدد على هذا كلمة واحدة !

وهكذا تكاشفنا عرضاً • كانت مكاشفة ضئيلة جداً ، ولكنها كافية
لمضاعفة اضطرابي ازاء الخطوة الجديدة التي سأقوم بها غداً • لذلك قضيت
الليل متأرقاً • ولكنني تخففت من بعض ما كان يجثم على صدري •

حين خرجت فى الغد من البيت ، كانت الساعة هى العاشرة . لكننى بذلت كل جهودى من أجل أن أنصرف خفيةً بدون وداع وبدون كلمة واحدة . تسللت تسللاً . لماذا ؟ لا أدرى . ولكن لو اتفق أن رأيتى أمى عند خروجى فحاولت أن تكلمنى ، لكان يمكن أن أغلظ لها القول . فلما صرت فى الشارع وتسمت الهواء الطرى ، رأيتى أهتز من احساس قوى جداً ، يكاد يكون حيوانياً ، وأستطيع أن أصفه بأنه احساس « وحش ضار » . لماذا أذهب والى أين أذهب ؟ كان احساسى شيئاً لا يمكن تحديده ، ولكنه ضار شديد الضراوة . كنت خائفاً منه وفرحاً به فى آن واحد .

- أتدس اليوم أم لا أتدس ؟

كذلك تساءلت بينى وبين نفسى ، على علمى بأن الخطوة التى سأخطوها هذا النهار ستكون ، متى تمت ، حاسمة فى حياتى كلها . ولكن لماذا الكلام بالغاز ؟

مضيت الى سجن الأمير رأساً . كنت قد حصلت منذ ثلاثة أيام على رسالة من تاتيانا بافلوفنا الى مدير السجن ، فاستقبلنى استقبالاً حسناً جداً . لا أدرى أهو رجل طيب أم لا ، ولكننى أظن أن هذا السؤال نافل لا داعى اليه . المهم أن المدير أذن لى بقاء الأمير ، بل تلتطف فأخلى لنا غرفته لئتم فيها اللقاء . كانت الغرفة كجميع الغرف ، غرفةً عادية

لموظف متوسط يسكن على نفقة الدولة • أظن أن من نافل القول أيضاً أن
أصف العرفة • وهكذا خلوت الى الأمير •

طلع الأمير بلباس لا هو عسكري ولا هو مدني ، بل هو بين
بين ، لكن قميصه نظيف ، ورباط عنقه أنيق ، وقد غسل وجهه ومشط
شعره ، ولكنه نحل نحولاً رهيباً ، واصفر اصفراراً شديداً ، وقد
لاحظت هذا الاصفرار حتى في عينيه • الخلاصة أنه بلغ من التغير أنني
وقفت مشدوها مذهولاً • وهتفت أقول :

- لشدما تغيرت !

فقال مزدهياً بعض الشيء :

- لا قيمة لهذا ! اجلس يا عزيزي !

واشار لي الى كرسي ، وجلس قبالي • وأردف يقول :

- لنناقش النقطة الأساسية : هأنت ذا ترى يا عزيزي ألكسي
ماكاروفتشس •••

فقاطعه مصححاً :

- أركادي !

- ماذا ؟ آ •• نعم • طيب طيب • لا قيمة لهذا • آ ••

نعم ••

أدرك خطأه في تلك اللحظة ، فأضاف يقول :

- معذرة يا عزيزي • ولننتقل الى النقطة الأساسية •••

كان يتعجل الوصول الى غايته تعجلاً شديداً • لكن فكرة أساسية
كانت تلبسه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فهو يريد أن يمر عنها
وأن يعرضها • وكان يتكلم بفزارة ، وبسرعة ، وكان يبذل في الكلام

جهداً ويعانى منه عذاباً ، ويستعين عليه بالاشارات والحركات • ولكننى
لم أفهم منه فى أول الأمر أى شىء اطلاقاً •

وختم يقول :

- الخلاصة ••• (كان قد استعمل هذه الكلمة عشر مرات فى أقل
تقدير) •• الخلاصة : لئن ازعجتك يا آر كادى ماكاروفتشس فالصحت على
ليزا بالأمس الحاحاً شديداً أن تأتي بك ، فلأن الأمر مستعجل • ولكن
لما كان القرار الذى يجب اتخاذه قراراً استثنائياً ونهائياً ، فان علينا •••

قاطعه قائلاً :

- اسمح لى يا أمير • تقول انك طلبت أمس أن أجيء اليك ؟ ان
ليزا لم تبلغنى شيئاً •

فهتف يقول وهو يقف عن الكلام فجأة ، ويدهش دهشة شديدة ،
حتى ليكاد يرتاع ارتباعاً :
- كيف ؟

- لم تبلغنى شيئاً البتة • لقد عادت الى البيت بالأمس مضطربة
اضطراباً يبلغ من الشدة أنها لم تقل لى كلمة واحدة •
انتفض الأمير •

- هل تقول الحقيقة يا آر كادى ماكاروفتشس ؟ اذن •••

- ولكن ماذا هنالك من أمر يبلغ هذا المبلغ من ••• ؟ ما لى أراك
قلقاً هذا القلق كله ، لابد أنها نسيت أن تبلغنى ، أو أن شيئاً ما قد •••

جلس الأمير ، ولكنه ظل كالأبله • لكأن هذا النبأ ، وهو أن ليزا
لم تبلغنى رغبته ، قد سحقه سحقاً • ثم سرعان ما عاد يتكلم محرراً
ذراعيه ، ولكن كلامه بقى مضطرباً فيستحيل على المرء أن يفهمه •

وقال فجأة :

- انتظر ! ...

ثم سكت رافعاً أصبعه في الهواء • ثم استأنف كلامه مجتمعاً ، فقال
وهو يتنسم ابتسامة رجل مهووس :

- هذه •• هذه •• اذا لم يخطئ ظني •• هذه مكائد ! •• منى
ذلك أن ••

قاطعه قائلاً :

- ليس لهذا كله أية قيمة ! ولست أفهم لماذا تقلق هذا القلق كله
لأمر تافه • آه يا أمير ، منذ تلك الليلة ، هل تتذكر كيف •••

فصرخ يقول متضيقاً من مقاطعته :

- أية ليلة ؟ ماذا ؟

- عند تسرشتشيكوف ، حيث التقينا آخر مرة ، قبل رسالتك •••
لقد كنت في تلك الليلة أيضاً مضطرباً اضطراباً مخيفاً • ولكن شتان بين
اضطرابك في تلك الليلة واضطرابك الآن • انني الآن أراك فأرتعد
خوفاً ••• أم تراك لا تتذكر •••

فأجاب بصوت رجل من أبناء المجتمع الراهي وكأنه تذكر كل شيء ،
فجأة :

- آ •• نعم •• نعم •• ذلك المساء •• لقد سمعت أن •• كيف
صححتك الآن ، كيف حالك بعد تلك القصص كلها يا آرКАДى ماكاروفتش؟
••• ولكن فلنرجع الى النقطة الأساسية • ذلك أنني الأحق بثلاثة أهداف •
ان أمامي ثلاثة أغراض ، فأريد •••

وعاد يتكلم عن « نقطته الأساسية » ، فأدركت أخيراً أنني أمام رجل

يجب أن توضع على رأسه خرقة مبلولة بالخل فوراً، أو يجب اسعافه
بالقصد حالاً • كان حديثه المشوش يدور فى أغلب الظن على الدعوى
وما قد تنتهى إليه ، وعلى قيام الكتيبة بزيارته بنفسه ومحاولته تنى عزمه
عن خطوة يريد ان يخطوها ولكنه لم يصغ اليه ، وعلى رسالة بعث بها
الى جهة ما ، وعلى وكيل نيابة ، وعلى انه سينفى حتما الى مكان بشمال
روسيا مجرداً من حقوقه ، وعلى أن من الممكن أن يستوطن طشقند
مسترداً رتبته ، وعلى الدروس التى سيلقنها لابنه (ابنه الذى ستلده له
ليزا) ، وما سيسلمه اياه هناك « فى الفلاة » فى أرخانجيل ، وفى
خولموجورى ، • لئن أردت أن أعرف رأيك يا آرКАДى ايفانوفتش ،
ثق كل الثقة أنى أقدر عاطفتك قدراً كبيراً ••• ليتك تعلم يا آرКАДى
ايفانوفتش ، يا عزيزى ، يا أخى العزيز ، ليتك تعلم ما ليزا عندى ،
ماذا كانت ليزا لى هنا طول هذا الوقت ! ، كذلك صاح فجأة وهو يمسك
رأسه بيديه •

- سرجى بتروفتش ، هل 'يعقل أن تريد لها الموت باصطحابها الى
خولموجورى !

أفلتت هذه الجملة من لسانى برغم ارادتى • لقد تراءى لى ارتباط
مصير ليزا بهذا المهووس مدى الحياة واضمحاً كل الوضوح أول مرة ،
فجزعت • فنظر الى ، ونهض مرةً أخرى ، ومشى خطوة ، وأدار
ظهره ، ثم عاد يجلس وهو لا يزال ممسكاً رأسه بيديه •

قال فجأة :

- اننى أحلم دائماً بمناكب •

- أنت فى اضطراب رهيب يا أمير • أنصحك بأن ترقد فى سريرك
وأن تستدعى الطبيب فوراً •

- لا ، اسمع لي ، فيما بعد + وانما استدعيتك خاصة
لأشرح لك .. مسألة الزواج . ان الزواج ، كما تعلم ، سيتم هنا ، سبق
أن قلت هذا . لقد أعطيت الاذن بالزواج ، حتى اني أشجع عليه .
أما ليزا ...

صحت أقول :

سارحم ليزا يا أمير ، يا عزيزي : لا تعذبيها بغيرتك ، الآن على
الأقل !

فهتف قائلاً وهو يصرّوب الى عينيّن محمّلتين ، ويتسمم ابتسامه
متشنجة فيها استفهام أبله :
- كيف ؟

كان واضحاً أن كلمة « الغيرة » قد فجّأته فجاً شديداً .

- معذرة يا أمير ، قلت هذا الكلام برغم ارادتي . اسمع : لقد
تعرفت في الآونة الأخيرة الى شيخ عجوز ... هو أبي الشرعي ...
لو رأيته لأصبحت أكثر هدوءاً وسكينة . ان ليزا أيضاً تقدره قدرأ كبيراً .
- آ .. نعم .. ليزا .. آ .. نعم .. هو أبوك ؟ نعم .. معذرة
يا عزيزي . هناك شيء .. أتذكر الآن .. حدثتني ليزا عن هذا . شيخ
طيب .. أنا متأكد ، أنا أيضاً عرفت شيخاً طيباً . ولكن دعنا من هذا
الآن . ان الأمر الأساسي هو أن نوضح جوهر المسألة ، يجب ...

قمت لأنصرف . كان يؤلمني منظره . فلما رأيتي أهمم أن أنصرف ،
قال بقسوة ووقار :

- لست أفهم !

فقلت :

- يؤلمني أن أراك على هذه الحال .

- كلمة أخرى يا آرКАДى ماكاروفتش ، كلمة أخرى •
وأمسك كفىّ بحركة مختلفة كل الاختلاف ، وقد تبدلت هيئته كل
التبدل ، وأجلسني على المقعد ، وأردف يقول وهو يميل علىّ :

- هل جاءك نبأ أولئك الناس ؟ أقصد ...

- نعم ، درجاشيف •

ولم أستطع أن أسيطر على نفسي فأضفت أقول صائحاً :

- لا بد أن سنيلكوف هو الواشى !

- نعم ، ستيلكوف ... ألا تعلم ؟

وتوقف عن الكلام ، وحدّق الىّ مرة أخرى بعينين محمقتين
وابتسامة متشنجة عريضة فيها استفهام أبله ، وما تنفك تزداد عرضاً •
وأخذ وجهه يشحب شيئاً فشيئاً • فاذا برعدة تسرى في جسمي على حين
فجأة ، اذ تذكرت نظرة فرسيلوف حين أنبأني أمس باعتقال فاسين •
وهتفت أقول مذعوراً :

- هل يُعقل هذا ؟

- اسمع يا آرКАДى ماكاروفتش ، أنا انما استدعيتك لأشرح لك ••

وأضاف هامساً بصوت خافت :

- أردت أن ...

فصحت أفاطمه قائلاً :

- أنت الواشى بفاسين !

- لا ، وانما كان هناك مخطوطة ؛ وقد سلم فاسين المخطوطة الى

ليزا قبل اليوم الأخير لتحفظها . وتركتها لى ليزا هنا لأتصفحها ،
وبعد ذلك حدث أن تخصصا فى اليوم التالى

– فأرسلت أنت المخطوطة الى السلطات ؟
– آر كادى ماكاروفتش ! آر كادى ماكاروفتش !

صحت أقول واثباً من مكانى مقطماً كلماتى :

– هكذا اذن ، بدون أى دافع آخر ، وبدون أى هدف آخر
عدا الغيرة . لأن فاسين المسكين غريمك ، سَلَّمَت الى السلطان المخطوطة
التى 'عهد بها الى ليزا ! الى من سَلَّمَتها ؟ الى من ؟ الى وكيل النيابة ؟

ولكن لم يتسع الوقت لأن يجيب عن أسئلتى . وبمآذا كان يمكنه
أن يجيب ؟ لقد تسمر أمامى كتمثال وهو لا يزال يتسهم تلك الابتسامة
المرضية ، ويحملق تلك الحلقمة الجامدة . وانه كذلك اذا بالباب ينفتح
فتدخل ليزا . فلما رأتنا معاً كادت تسقط مغشياً عليها . وصرخت تقول
وقد انقلب وجهها فجأة وأمسكت يديّ :

– أنت هنا ؟ اذن « علمت » ؟

لقد قرأت فى وجهى أننى « علمت » . وقبلتها بسرعة ، قبل أن
تستطيع الاعتراض ، قبلتها بقوة ، بقوة . لقد أدركت فى تلك
اللحظة ، أول مرة ، ادراكاً كاملاً ، مدى الحزن القائم الذى لا مخرج
منه ولا حدود له ، مدى العذاب الرهيب الذى سيحجم الى الأبد على حياة
هذه الانسانة الباحثة عن الآلام !

قالت وهى تتنزع نفسها منى فجأة :

– ولكن هل يجوز للمرء أن يكلمه الآن ؟ هل يجوز للمرء أن
يبقى معه ؟ لماذا جئت الى هنا ؟ انظر اليه ، انظر اليه ، هل يمكن
أن يدان ؟

كان وجهها يفيض ألماً وشفقة لا حدود لهما ، حين أشارت لى بيدها
الى الرجل المسكين وهى تهتف ذلك الهتاف • كان جالسا على المقعد دافنا
وجهه فى يديه • انها على حق : لقد كان يعانى من حمى حارة ، فهو غير
مشتول عن أعماله • ولعله كان غير مشتول عن أعماله منذ ثلاثة أيام •
وقد أودع المستشفى فى ذلك الصباح نفسه ، ولم يحل المساء حتى تكشفت
اصابته فى الدماغ •

تركت الأمير مع ليزا فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، ومضيت من هناك الى مسكنى القديم . نسيت أن أذكر أن الجو كان رطباً ، ممتماً ، وأن الجليد كان قد بدأ يذوب ، وأن ريحاً فاترة كانت تهب فتثير حتى أعصاب فيل . استقبلنى المؤجر فرحاً ، وأخذ يسعى ويتحرك حولى كثيراً ، وهذا شيء أكرهه وأمقته فى مثل هذه الأحوال . ولقد أظهرت له شيئاً من الجفوة ، واتجهت الى غرفتى رأساً ، ولكنه تبغى : كان لا يجرؤ أن يسألنى عن شيء ، ولكن حب الاطلاع كان يلتمع فى عينيه ، وكانت هيئته هيئة انسان من حقه أن يستطلع . كان ينبغى لى أن ألافه ، فى سبيل مصلحتى . ولكننى رغم حاجتى القصوى الى معرفة نىء ما (وكنت أعلم أننى لو لافته لعرفت شيئاً ما) ، كرهت أن استرسل فى سؤال وجواب . واكتفيت بأن سأله عن صحة زوجته ، ثم ذهبا اليها . فاستقبلتى بلطف ومودة ، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة الكلام . فهدأتى هذا قليلاً . على أننى علمت فى النهاية أموراً تثير أكبر الدهشة .

كان لامبير قد جاء طبعاً ، ثم جاء مرتين آخرين ، وطاف بجميع الغرف ، قائلاً انه قد يستأجر غرفة . وجاءت داريا أونيسيوفنا عدة مرات . فكان أهل البيت يتساءلون : « لماذا تجىء ؟ » . وقد أضاف المؤجر قوله : « كانت شديدة حب الاطلاع أيضاً » . غير أننى لم أسرّ فأسأله عن حب الاطلاع عندها ماذا كان ! وكنت على وجه العموم لا ألقى على

الرجل سؤالاً ، وانما كان يتكلم وحده ، وكنت أنظهر بأنتى أنبش فى حقيتى (التى لم يكن قد بقى منها شىء تقريباً) • ولكن الشىء المزعج أنه قد ارتأى هو أيضاً أن يمد الى السر والتعمية ، وأنه حين لاحظ امتاعى عن سؤاله اعتقد أن من واجبه هو أيضاً أن يقتضب كثيراً ، حتى ليكاد كلامه أن يصيح ألغازاً •

أضاف يقول وهو يلقي على نظرة غريبة :

– جاءت آمنة أيضاً •

– أية آمنة ؟

– أنا أندريفتنا • جاءت مرتين • وتعرفت بزوجتى • امسانة لطيفة ، بشوشة • ان معرفة آمنة مثلها شىء ثمين يا أركادى ماكاروفتشس ••

قال هذه الكلمة وهو يتقدم منى خطوة : كان يرغب رغبة قوية فى أن يفهمنى شيئاً !

قلت مدهوشاً :

– مرتين ؟ غير معقول •••

– وكانت فى المرة الثانية مع أخيها •

قلت فى نفسى : « انه لامير » •

– لا ، ليس هو لامير ، بل هو أخوها •• شاب اسمه فرسيلوف •
أظن أنه يعمل فى البلاط •

لقد حزر الرجل ما تصورته ، كأن عينيه قد نفذتا الى قرارة نفسى • اضطربت اضطراباً شديداً • وكان ينظر الىّ وهو يتسسم ابتسامة تودد كريبه • ثم أضاف :

– آ •• نعم •• وجاءت آمنة أخرى تسأل عنك ، الأمنة الفرنسية ،

مدموازيل ألفونسين دو فردان • آه • ما أحسن غناءها ! ما أجمل
انشادها الشعر ! ولقد ذهبت خفية الى تسارسكوييا لترى الأمير يقولوا
ايفانوفتش ، فتبعه كلباً صغيراً نادراً ، حالك السواد ، لا يزيد حجمه
على حجم قبضة الكف •••

رجوته أن يتركنى وحيداً بحجة أنني أعانى من صداع • فأطاعنى
فوراً ، قبل أن ينهى جملته ، وبدون غضب ، بل بابتهاج ، محرراً يده
بإشارة غريبة كأنها تقول : « أفهم ، أفهم ! » • وخرج على رموس
الأصابع من غير أن ينطق بكلمة واحدة ، متيحاً لنفسه هذه المسرة • ان
على سطح هذه الأرض أناساً يثيرون الأعصاب فعلاً !

بقيت وحدى أفكر ، ساعة ونصف ساعة • بل قل اننى لم أفكر ،
وانما أخذت أحلم • كنت مضطرباً ، ولكننى لم أكن مدهوشاً • حتى
لقد كنت أتوقع المزيد ، وأتظر عجائب أكبر • قلت أحدث نفسى : « لا بد
أنهم عملوا أشياء كثيرة منذ الآن ! » • كنت مقتنعاً كل الاقتناع ، منذ
مدة ، منذ كنت فى البيت ، أن آلتهم قد تحركت وأنها تعمل بسرعة •
وقلت لنفسى أيضاً ، وأنا أشعر بنوع من الرضى العصبى اللذيذ : « لا ينقصهم
الآن الا أنا ، انهم ينتظروننى على أحر من الجمر ، انهم يريدون أن
يدبروا أمراً فى مسكنى ، هذا واضح وضوح النهار ، أياكون الأمر الذى
يدبرونه هو زواج الأمير المجوز ؟ انهم ينصبون له فخاً ، ولكن هل أسمع
أنا بهذا ياسادة ؟ ذلكم هو السؤال ، • كذلك ختمت حديثى الى نفسى
مزدهياً •

« اذا دخلت فى هذا الأمر ، فسرعان ما سيجربنى الاعصار كما
يجرف قشة • أنا حر فى هذه اللحظة أم لم أبقى حرراً ؟ ألا أزال أستطيع
حين أعود الى ماما فى هذا المساء أن أقول لنفسى كما أقول فى كل يوم :
« أنا ما أنا ؟ » •

ذلكم هو جوهر أسلتي أو قولوا جوهر خفقات قلبي أثناء تلك المدة التي دامت ساعة ونصف ساعة ، والتي قضيتها في ركن على السرير ، واضعاً كوعى على ركبتي ، جاعلاً رأسي في يدي ؟ ولقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذه الأسئلة كلها ليست الا ترهات ، فانما كانت « هي » التي تجذبني وتجربني ، « هي » ، « هي » ، وحدها ! أخيراً أقول هذا واضحاً قاطعاً ، وأسجله على الورق بأحرف بارزة ؛ انني حتى في هذا اليوم ، وأنا أكتب بعد انقضاء سنة ، لا أزال أجهل الاسم الذي يجب أن أسمي به العاطفة التي كانت تتخلج في نفسي آنذاك !

صحيح أنني كنت أشعر بشفقة على ليزا ، وكنت أعاني ألماً صادقاً ! وكان يمكن لهذا الألم وحده أن يطامن أو أن يمحو من نفسي ، ولو الى حين قصير ، ما كان يجيش فيها من شعور وحشي ضار (هأنا أستعمل هذا التعبير مرة أخرى) . ولكن كان يجرفني استطلاع رهيب وخوف غامض ، وكانت تجرفني عاطفة أخرى لا أعرف ما هي ، ولكنني كنت منذ ذلك الحين أعرف أنها ليست عاطفة طيبة ، بل هي عاطفة فاسدة . لعلني كنت أصبو الى أن أترامي عند قدميها ، ولعلني كنت أريد كذلك أن أغرقها في جميع أنواع العذاب وأن أبرهن لها على شيء ما « بسرعة » . فلم يكن لأي ألم أو أي عطف على ليزا أن يوقف اندفاعي . هيا ، هل أستطيع أن أنهض فأعود الى البيت . . . وأجلس الى ماكاري ايفانوفتش ؟

« ولكن هل يستحيل على حقاً أن أذهب اليهم ، فأعرف منهم كل ما 'يدبر' ، ثم أتركهم فجأة الى الأبد ، فأكون قد مررت بالعجائب والشياطين سليماً لم يمسنني سوء ؟ » .

في الساعة الثالثة ، اذ ثبت الى نفسي ورأيت أنني كدت أتأخر ، خرجت مسرعاً ، فركبت عربة وطرقت الى آنا آندريفنا .

الفصل الخامس

١



ان أبلغوا آنا أندريفنا وصولي حتى تركت شغلها
وأسرعت تستقبلني في الغرفة الأولى ، وتلك
حفاوة لم ألق مثلها من قبل . وقد مدت اليّ يديها
كلتيهما ، واحمر وجهها بسرعة . وقادتني الى
حجرتها صامتة ، وعادت تتناول شغلها ، وأجلستني بجانبها . لكنها كفت
عن التطرّيز ، وظلت تفرس فيّ باهتمام حار دون أن تقول شيئاً .
قلت فجأة وقد تضايقت قليلاً من هذا الاهتمام المتصنع رغم أنه
طاب لي كثيراً :

- أرسلت اليّ داريا أونيسيموفنا ؟ . . .

فسرعان ما شرعت في الكلام دون أن تجيب عن سؤالى ، فقالت :

- لقد قصوا عليّ ما وقع لك ، فعرفت كل شيء . يالها من ليلة
رهية ! . . . ما أشد العذاب الذي لا بد أنك عانيته ! هل صحيح ، هل
صحيح أنهم وجدوك في غيبوبة ، وكنت توشك أن تتجمد ؟

فجمجمت أقول وقد احمر وجهي :

- هل . . . لا مبير . . . ؟

- حكى لي كل شيء في ذلك الوقت . ولكنني كنت أنتظرك .
لقد جاءني مرتاعاً . . . عندك . . . في البيت الذي كنت راقداً فيه على سرير

المرض ، رفضوا أن يراك • وقد استقبلوه استقبالاً سخيماً ••• لا أدري
فى الواقع كيف وقع لك ما وقع • ولكنه حدثنى كثيراً عن تلك الليلة •
وقال لى انك حين فتحت عينيك قد ذكرت اسمى • فأثر هذا فى قلبى
تأثيراً قوياً ، لقد تفرقت الدموع فى عينيّ من شدة التأثر يا أركادى
ماكاروفتش • وانى لا أدري حقاً ماذا فعلت حتى استحق منك هذه العاطفة
كلها ، ولا سيما فى حالة كالحالة التى كنت فيها • قل لى : هل مسيو لامبير
رفيق طفولتك ؟

– نعم ، ولكننى أعتزف بأننى ••• فى ذلك الحادث ••• كنت
متهوراً فلعلنى قلت له أكثر مما كان ينبغى أن أقول •

– ولكننى كنت سأعرف تلك المكيدة السوداء الرهية دون أن يروى
هو لى شيئاً ! لقد كنت أحس دائماً ، دائماً ، أنهم سيوصلونك الى هذا !
قل لى : هل صحيح أن بيورنج تجرأ أن يرفع يده عليك ؟

انها تتكلم كلام من يعتقد أنى لم يُعثر علىّ عند الجدار الا بسبب
بيورنج وبسببها « هى » • وقد قلت لى : « الواقع أنها على حق » •
ولكننى انفجرت أقول مع ذلك :

– لو رفع علىّ يده لما تركته بغير عقاب ، ولما وجدتنى الآن أمامك
قبل أن أثار لى نفسى •

لقد أحسست أنها تريد أن تغيظنى ، وأن تثير حنقى على شخص ما
(أعرف من هو) ، ومع ذلك رأيتنى أتقاد لاستشارتها ، فقلت :

– تقولين انك كنت قد أدركت أننى بسببها سأصل الى ما وصلت اليه •
فأحب أن أذكر لك أن ما وقع بينى وبين كاترين نيقولايفنا ليس الا سوء
تفاهم ، وان يكن صحيحاً أنها سرعان ما تغيرت عواطفها نحوى فى أعقاب
سوء التفاهم •••

- تماماً • سرعان ما تغيرت عواطفها !

كذلك قالت آنا آندريفنا متعاطفة • ثم تابعت :

- آه ••• ليتك تعرف المكيدة التي 'ندبّر الآن ! لاشك أن حالتك

لا تساعدك فى هذا الوقت على أن تدرك حراجة وضعى كل الادراك •••

قالت ذلك وقد احمر وجهها وعضت طرفها • واستطردت تقول :

- اننى فى ذلك الصباح نفسه الذى التقينا فيه آخر مرة ، قد خطوت خطوة لا يستطيع جميع الناس أن يفهموها وأن يقدروها كما يمكن أن يفهمها وأن يقدرها رجل له ذكأؤك السليم وقلبك المحب الغض الذى لم يفسد • ثق يا صديقى اننى أحسن تقدير عاطفتك ، وأعرف كيف أكافئك عليها بالشكر والامتان الى الأبد • لاشك أن الناس فى المجتمع الراقى سيرموننى بحجر ، بل لقد رمونى بالحجر فعلاً • ولكن هبهم على حق من وجهة نظرهم الرهية ، فمن ذا الذى يستطيع ، من ذا الذى يجرؤ منهم أن يديننى ؟ لقد هجرنى أبى منذ طفولتى • اتنا ، آل فرسيلوف ، الأسرة العريقة النبيلة ، أناس مغامرون ، وأنا الآن آكل خبز الآخرين فضلاً منهم واحساناً • أفليس طبيعياً اذن أن أتجه الى ذلك الذى كان لى منذ طفولتى بمنزلة الأب ، وأغرقنى بحسناته سنين طويلة ؟ الله وحده يرى ما أحمل لهذا الرجل من عواطف ، والله وحده يحق له أن يحكم على الخطوة التى خطوتها • اننى لا أقبل حكم البشر على هذه الخطوة • وعدا ذلك ، حين تحسك أدناً وأحقر مكيدة ، حين يوشك أن يقع أب شهم كريم ضحيةً لمؤامرة تدبرها له ابنته ، فهل يستطيع المرء أن يحتمل هذا ؟ لا ، انى لأوثر أن أضيع سمعتى على ألا أتقذه • انى مستعدة أن أكون له خادماً وحارساً وممرضة ، ولكننى لن أدع لحساب دنىء وضع كريبه أن ينتصر !

كانت تتكلم بحرارة شديدة ، فد يكون نصفها مفتعلاً ، ولكنها حرارة صادقة رغم كل شيء ، فليس يخفى أن اهتمامها بهذه القضية اهتمام شديد . ولقد احسست بأنها كانت تكذب (تكذب كذباً صادقاً ، فالمرء يمكن ان يكذب كذباً صادقاً) ، واحسست بأن كل ما فيها زيف وزور . ولكن ما أغرب ما يحدث للمرء مع النساء : ان هذه النبرة الراقية ، وهذه الأنفة السامية ، وهذه العفة الفخور ، ان هذا كله كان يذهلنى عن نفسى ويحيرنى فى أمرى ، فاذا أنا أوافقها على جميع النقاط ، ما بقيت معها . لا شك أن الرجل تستعبد المرأة روحه ، ولا سيما اذا كان رجلاً شهماً ذا أريحية ! ان امرأة كهذه المرأة تستطيع أن تنتصر على أى رجل كريم . قلت أحدث نفسى وأنا أنظر اليها مرتبكاً متحيراً : « هى ولا مير ! رباه ! » . على أننى سأقول كل شيء : اتنى لا أزال حتى هذا اليوم عاجزاً عن أن أقطع فيها برأى . ان الله وحده قادر على أن يرى عواطفها ، ثم ان الامسان جهاز يبلغ من التعقيد أن المرء لا يستطيع أن يفهم من أمره شيئاً ، ولا سيما اذا كان هذا الامسان امرأة .

سألها بلهجة جازمة :

– فماذا تنتظرين منى يا آنا أندريفنا ؟

– ما تعنى بهذا السؤال يا آر كادى ماكاروقتش ؟

قلت مرتبكاً :

– يسدولى .. مما سمعته .. ومن اعتبارات أخرى أيضاً ، أنك انما أرسلت تستدعينى لأنك تنتظرين منى شيئاً . فما الذى تنتظرينه منى على وجه التحديد ؟

ولكنها لم تجب عن سؤالى ، وانما سارعت تستأنف كلامها ، بمثل

تلك السرعة وبمثل تلك الحرارة :

- ولكننى لا أستطيع ، اننى أشد اياه وكبرياءً من أن أدخل فى
ايضاحات ومساومات مع أناس لا أعرفهم مثل مسيو لامبير . فأت من كنت
أنتظر ، لا مسيو لامبير . ان وضعى حرج رهيب ، يا أركادى ماكاروفتش!
فأنا مضطرة الى الحيلة والمكر ، لأننى محاطة بمؤامرات تحوكلها لى هذه
المرأة . وهذا لا يطاق . اننى أتدنى الى مستوى المكيدة ، فكنت انتظرك
كما ينتظر منقذ مخلّص . ما ينبغي أن أتهم لأننى أنظر فيما حولى
بشراهة عسى أن اكتشف صديقاً واحداً على الأقل ، وهذا هو السبب فى
أننى لم أستطع الا أن أقرح حين وقعت على هذا الصديق ؛ ان الذى
أمكنه ، حتى فى تلك الليلة ، وهو يكاد يكون متجمداً من البرد ، أن
يتذكرنى وألا يردد الا اسمى لهو صديق مخلص حتماً . ذلك ما قلته
لنفسى ، وهذا هو السبب فى أننى كنت أعوّل عليك .

كانت تنظر فى عينيّ نافذة الصبر شوقاً الى سماع جوابى . ومرة
أخرى أعوزتنى الشجاعة اللازمة لأبدد أوهاهما ولاذكر لها بصراحة
أن لامبير خدعها وأننى لم أزعم له أبداً أن صداقتى لها تبلغ هذا المبلغ كله
من القوة ، واننى لم أردد اسمها وحدها . فكان صمتى بمثابة تأكيد لكذب
لامبير . وأنا أعلم أنها كانت هى نفسها تدرك حق الادراك أن لامبير قد
بالغ وغالى ، بل لعله كذب عليها أيضاً ، لا لشيء الا أن يجد عذراً كريماً
لمجنثه اليها وعقد صلة بينه وبينها . ولئن كانت تنظر فى عينيّ نظرة
الموقن بصدق أقوالى وقوة صداقتى ، فانما مرد ذلك طبعاً الى أنها كانت
تعلم أننى لن أجرؤ على التكذيب ، بحكم ذوقى وأدبى ، وبحكم سنى
أيضا . على أننى أسأله : هل هذا الاقتراض صحيح أم هو غير صحيح ،
فلا أجد لهذا السؤال جواباً . ولعلنى أمرؤ فاسد فساداً رهيباً .

وانبرت تقول فجأة بحرارة شديدة حين رأت اننى لا أجيّب :

- ان أخى سيدافع عنى .

تمتت أقول مضطرباً :

- قيل لى انك جئت تزوريتنى معه •

- ذلك أن هذا المسكين ، الأمير يقولوا ايعانوفتش لم يكده يقوى له ملجأ يعصمه من هذه المؤامرة أو قل يحميه من ابتسه الا مسكنك ، اعنى الا مسكن صديق • ألا يحق له فملاً أن يمدك صديقا ، أنت على الأقل ؟ فان كنت تستطيع أن تصنع له شيئاً فاصنعه ، اصنعه اذا استطعت ، اذا كان لك قلب كبير زاخر بالجرأة والشجاعة ، واذا كنت قادرا على أن تصنع شيئاً بالفعل ، • اننى لا أسألك هذا من أجلى • لا • لا أسألك هذا من أجلى ، بل من أجل شيخ تعبس أجلك وحده حبا صادقا ، وتعلق بك تعلقه بابنه ، ولا يزال يضرجه بمدك عنه الى الآن • من أجلى أنا لا أنتظر شيئاً ، لا أنتظر شيئاً حتى منك ، بعد أن رأيت أن أبى نفسه قد دبراً لى مكيدة دنيئة !

قلت :

- يخيل الى أن آندره بتروفتش •••

فقاطعتنى قائلة وهى تبسم مرة :

- ان آندره بتروفتش قد أجاب عن سؤالى الصريح بأن حلف لى بشرفه أنه لم يضمرك لكتاترين يقولوا يفنا شيئاً فى يوم من الأيام ، ولا طمع فى شىء منها أبداً ، فصدقتة أنا كل التصديق فخطوت خطوتى • ثم اتضح أنه لم يحافظ على هدوئه الا الى الوقت الذى جاءه فيه ذلك النبأ عن رجل اسمه بيورنيج •

هتفت أقول :

- ليس هذا هو الأمر • أنا أيضاً ظننت فى لحظة من اللحظات أنه يجب تلك المرأة • ولكن ليس هذا هو الأمر ••• وحتى لو صدق أن

هذا هو الأمر ، فان فى امكانه الآن أن يبقى هادئاً وألا يحرك ساكناً
بعد أن انسحب ذلك السيد •

– أى سيد ؟

– بيورنج •

فقالت وهى تضحك ضحكة ساخرة :

– من قال لك انه انسحب ؟ لعل هذا السيد لم يكن فى يوم من

الأيام قوياً كقوته الآن •

وبدا لى الآن أنها كانت تحدجنى أنا أيضا بنظرة ساخرة •

تمتتم أقول وقد اضطربت اضطراباً لم أقدر أن أخفيه ولا شك

أنها لاحظته :

– داريا أونيسيموفنا قالت لى هذا •

– داريا أونيسيموفنا اسانة طيبة ، ولست أملك طبعاً أن أمنعها

عن حبى ، ولكنها لا تستطيع أن تعرف ما لايتعلق بها •

انقبض صدرى • وكما كانت تنوى أن تلهب استيائى فقد التهب

استيائى فعلاً ، ولكن هذا الاستياء لم ينصب على المرأة « الأخرى » بل

انصب على أنا آندريفنا نفسها ، فنهضت وقلت :

– ان من واجبى ، كرجل شريف ، أن أنبهك يا آنا آندريفنا الى

أن الآمال التى تعقدينها علىّ قد تكون أوهاماً باطلة لا جدوى منها ••

فحدقت الى بنظرة ثابتة وقالت :

– اننى أنتظر أن تحمى •• أن تحمى اسانة هجرها الجميع ••

أن تحمى أختك يا آكارى ماكاروفتش !

وكادت أن تجهش بأكية •

فتمت أقول وأنا أشعر بألم شديد :

- الأفضل ألا نقول على هذا ، لأن « من الجائز » أن لا يحدث شيء .

- ماذا يجب أن أفهم من أقوالك هذه ؟

ألت هذا السؤال بكثير من التروى والحذر . فاذا أنا أصرخ قائلاً بما يشبه الغضب :

- افهمي من أقوالى أنني سأبتمد عنكم جميعاً ، وكفى ! أما « الوثيقة » ... فسوف أمزقها . استودعك الله !

حيثما وخرجت صامتاً لا أجرو حتى أن أنظر إليها . ولكن ما ان بلغت أسفل السلم حتى أدركتني داريا أونيسيموفنا وهي تحمل ورقة من ورق الرسائل مطوية نصفين . من أين جاءت داريا أونيسيموفنا ؟ أين كانت مختبئة فيما كنت أكلم أنا أندريفنا ؟ ذلك ما لم أستطع أن أفهمه . وقد أعطتني الورقة دون أن تقول كلمة واحدة ، وعادت أدراجها مسرعة . وفضضت الورقة ، فاذا أنا أقرأ فيها عنوان لامبير مكتوباً بأحرف جلية دقيقة ، فكان واضحاً أن كل شيء قد تمّ اعداده وتحضيره منذ بضعة أيام . تذكرت فجأة أنني ، يوم جاءت الى داريا أونيسيموفنا ، قد أفلت مني أنني لا أعرف أين يقيم لامبير ، ولكنني انما قلت هذا الكلام بمعنى أنني « لا أعرف ولا أريد أن أعرف » . وأنا الآن أعرف عنوانه بعد أن كلفت ليزا بالحصول عليه من « مكتب الضاوين » . بدت لى هذه المبادرة من أنا أندريفنا بليغة الدلالة بل شديدة السخرية : فانها ، رغم رفضي

التعاون معها ، ترسلنى الى لامير رأساً ، فكأنها 'نفهمنى أنها لا تصدقنى
أى تصديق • كان واضحاً جداً أنها على علم بقصة « الوثيقة » كاملة •
ومن عسى يعلمها بها غير لامير الذى ترسلنى اليه ليتم التفاهم بينى وبينه ؟
قلت لنفسى مستاءة : « انهم جميعاً يعدوننى صيباً صغيراً لا ارادة له
ولا حزم عنده ، فيستطيعون أن يفعلوا به ما يشاءون ! » •

مع ذلك ذهبت الى لامبير • وهل كان يمكننى أن أرضى حب الاطلاع الذى تملكنى الا عنده ؟ ان لامبير يسكن بعيداً جداً ، فى شارع كوسوى بـريؤلوك ، بقرب « حديقة الصيف » ، فى ذلك البيت المفروش نفسه • ولكنى حين ولّيت هارباً من عنده لم أتبه الى طول المسافة ، حتى اذا زوّدتنى ليزا بعنوانه بعد أربعة أيام ، دهشت ولم أكد أصدق أنه يسكن هناك • وفيما كنت أصعد السلم بصرت أمام باب البيت المفروش ، فى الطابق الثالث ، بشابين اعتقدتُ انهما قرعا الجرس قبل فهما ينتظران أن 'يفتح لهما الباب • وكانا كلاهما يتفرسان فى أثناء صعودى ، وقد أدارا للباب ظهرهما • قلت لئنسى حين وصلت اليهما : « هذا بيت مفروش ، فلا بد أنهما آتيان الى مستأجرين آخرين غير لامبير » • كان يمكن أن يزعجنى جداً أن ألقى أحداً عنده • ومددت يدى الى الجرس لأقرعه ، محاولاً ألا أنظر اليهما • فاذا باحدهما يصيح قائلاً لى :

- انتظر !

وقال الآخر بصوت رنان رقيق ، ممطوط قليلاً :

- انتظر من فضلك • سنقرع الجرس معاً متى انتهينا ، اذا تكلمت •

فأسكت عن قرع الجرس • انهما شابان فى ريعان الشباب ، يبلغان من العمر عشرين عاماً أو اثنين وعشرين ، قد وقفا أمام الباب منهكين

فى عمل عريب حاولت أن أفهمه مدهوشاً • ان الذى صاح يقول :
« انتظر » ، مديد القامة جدا ، يبلغ طوله مائة وتسعين سنتيمترا فى أقل
تقدير ، وهو شديد النحول ، لكنه بارز العضلات ، الى رأس صغير جداً
بالقياس الى طول القامة ، هذا عدا وجه مجدور قليلاً ، مكفهر اكفهراراً
مضحكاً ، لكنه ينم عن ذكاء ، بل يسكاد يكون محبباً • ان عينيه تحدقان
تحديقاً ، بصلاية لا محل لها بل لا داعى اليها • وهو سىء الهمداه ، يرتدى
معطفاً عتيقاً مبطناً بقطن ، ذا ياقة صغيرة من فراء مكشوط ، معطفاً قصيراً
مسرفاً فى القصر بالنسبة الى طول قامته - فلاشك أنه مستعار - وهو يتنعل
حذاءين تكاد تكون من أحذية الفلاحين ، ويضع على رأسه قبة عالية
مشققة ، بالية رهيبية البلى • هو على وجه الاجمال وسخ ، يده اللتان
لا يسترهما قفازان قذرتان ، وأظافره الطويلة مسودتان • ولا كذلك
رفيقه : فانه أنيق الى أبعد حدود الأناقة : معطف خفيف من فراء
ابن عرس ، قبة حلوة ، قفازان نضران زاهيان على أصابع رقيقة ناعمة •
انه فى مثل طولى ، على محبباً فتان ووجه فتى غص •

كان الشاب الطويل ينزع عن عنقه كرافته ، وهى شريط مهترىء
كل الاهتراء ، متسخ بالدهن ، كاد يستحيل الى خيوط ؛ على حين اسل
رفيقه من جيبه كرافته أخرى سوداء ، جديدة كل الجدة ، اشترت من
المتجر منذ هنيهة ، وراح يعقدها له على رقبته • فكان الأول يمد رقبته
الطويلة طائماً معبراً بوجهه عن أكبر الجد ، تاركاً لمعطفه أن يسقط عن
جسمه •

قال الشاب الأنيق •

- لا ، مستحيل • القميص وسخ جداً • وسيظهر بالتضاد أشد
اتساخاً • ألم أقل لك أن تلبس ياقة مضافة ؟ لا أستطيع •••
ثم التفت الى وقال يسألنى :

- أأ تستطيع أنت ؟

- ماذا ؟

- أن تعقد له كرافته متنفخة بحيث لا يظهر تحتها قميصه الوسخ ،
والا فقدت كل قيمتها وتأثيرها • لقد اشتريتها له خصيصاً من عند الحلاق
فيليب ، ودفعت ثمنها روبلاً •

تمتم الطويل يقول :

- هل هو روبلك أنت ؟

- نعم • ولم يبق معى كوبك واحد • هيه ؟ أأ تستطيع ؟ يجب
أن نسأل ألفوميسين •

وسألنى الطويل بفتة في غلظة :

- هل أنت آت الى لامير ؟

فأجبهه بمثل لهجته وأنا أهدق الى عينيه :

- نعم ، الى لامير •

فعاد يسأل بتلك اللهجة نفسها وذلك الصوت نفسه :

- دولجورفكى ؟

فقلت أجييه بنفاظة كلفاظته :

- لا ، لست كورفكين •

لقد سمعت خطأ •

فقال كمن يصرخ صراحاً ويتقدم نحوى خطوة كمن يهددنى :

- دولجوروفكى ؟

فانفجر رقيقه ضاحكاً ، وقال شارحاً :

- انه يقول دولجوروفكى ولا يقول كوروفكين • انت تعلم ان
الفرنسيين في « جريدة الجدل » يشوهون الأسماء الروسية دائماً •

فقال الطويل مصححاً مقرعاً :

- بل جريدة « الاستقلال » •

- ... غير مهم • جريدة « الاستقلال » أيضاً • فاسم دولجوروكى
مثلاً يكتبونه دولجوروفكى • قرأت هذا بنفسى • واسم ف ... سوف
يكتبونه دائماً كونت فالونيف •

صاح الطويل :

- دوبوينى !

- نعم ، هناك أيضاً اسم دوبوينى • قرأته بنفسى ، وضحكنا جميعاً :
هى امرأة يقال لها مدام دوبوينى ، روسية فى الخارج ...

ثم أضاف يقول ملتفتاً الى الطويل :

- ولكن علام ذكرهم جميعاً ؟

وعاد يكلمنى فقال :

- معذرة • هل أنت السيد دولجوروكى ؟

- نعم ، دولجوروكى • ولكن من أين عرفت اسمى ؟

هنا همس الطويل فى أذن رفيقه اللطيف بعض الكلام ، فقطب هذا
حاجبيه وحرك يده بإشارة نفي • ولكن الطويل التفت الى فجأة وقال
يسألنى بالفرنسية :

- « سيدى الأمير ، هلاً أعطيتنا روبلاً فضة ، لا روبلين ، بل روبلاً
واحداً ! » •

فصرخ القصير يقول مؤنباً :

- يا للحيوان !

وعاد الطويل يكلمني فقال وهو ينطق الكلمات الفرنسية نطقاً رديئاً أخرق :

- « سئرد اليك » •

وانفجر القصير يضحك ، وقال :

- هذ افتي رقيع ! هل تظن أنه لا يحسن الكلام بالفرنسية ؟ انه ليتكلم كما يتكلم باريسى ، ولكنه يقلد الروس من أبناء المجتمع الراقى الذين تملكهم رغبة جنونية فى التخاطب بلغة لا يجيدونها •••

فأبرى الطويل يقول مخصصاً :

- « فى حافلات القطار » •

- طيب • فى حافلات القطار أيضاً • انك لمضجر حقاً • ما الداعى الى مزيد من الشرح • أية لذة تجد فى تمثيل دور الغبى ؟ فى أثناء ذلك كنت قد أخرجت روبلاً ومددته الى الطويل • فقال وهو يضع الروبل فى جيبيه (بالفرنسية) :

- « سئرد اليك » •

ثم التفت فجأة الى الباب بهيئة ساكنة كل السكون جادة كل الجدة ، وأخذ يده بطرف حذائه الضخم ، ولكن بدون أى احتياج أو حنق • فقال له القصير قلقاً :

- سوف تتشاجر مرة أخرى مع لامير • الأفضل أن تقررع الجرس •

وقرعت أنا الجرس ، ولكن ذلك لم يمنع الطويل من مواصلة دق الباب بقدمه •

وفجأة دوى صوت لامير وراء الباب قائلاً :

- هوه ! يا للعين !

وفتح لامير الباب بسرعة ، وصرخ يقول للطويل (بالفرنسية) :

- « قل لى ، أتراك تريد أن أهشم لك رأسك ؟ » •

فقال الطويل بجد ووقار وهو يواجه لامير الذى احمر غضباً :

- « يا صديقى ، هذا دولجوروكى ! أما الثانى فهو صديقى ! » •

فما ان رأى لامير حتى تغير تغيرا كاملا وهتف يقول :

- هذا أنت يا آر كادى ! أخيراً ! كيف صحتك ؟ هل شفيت ؟

وتناول يديّ كليهما ، وشدّ عليهما شداً قوياً • الخلاصة أنه

بلغ من صدق الحماسة للقائى أننى سرعان ما رقّ قلبى له ، وافتنت

به • قلت :

- هذه أول زيارة أقوم بها !

فصرخ لامير منادياً :

- « آلفونسين ! »

فوثبت آلفونسين من وراء الحاجز ، فقال لها لامير :

- « هو ذا ! » •

فصاحت آلفونسين مصفقةً يديها :

- « انه هو ! »

ثم عادت تباعد يديها واندفعت الىّ لتقبّلنى ، ولكن لامير حمانى

منها ، اذ صاح يقول لها كمن يخاطب كلباً صغيراً :

- هيه ! هيه ! على مهلك !

ثم التفت الىّ فقال :

- اسمع يا أركادى ، لقد اتفقنا ، عدداً من الأشخاص ، على أن
تمشى اليوم فى مطعم "التر" ، فلن اتركك • سنصحبنا • سنتشى معاً •
وسأصرف هذين حالاً ، ثم نأخذ نتحدث • ادخل • سنخرج على الفور •
دقيقة واحدة لا أكثر •••

دخلت ، وتسمرت فى وسط الغرفة ، أنظر الى ما حولى وأستعيد
ذكرىاتى • كان لامير قد أخذ يرتدى ثيابه وراء الحاجز • وقد دخل
الشباب الطويل ورفيقه وراءنا ، رغم ما قاله لامير • فكنا نحن الثلاثة
وقوفاً •

خار الطويل يقول لألفونسين :

- « مدموازيل ألفونسين ! بوسنى ! » •

وقال الصغير وهو يتقدم ويربها الكرافتة الجديدة :

- « مدموازيل ألفونسين ! » •

ولكنها هجمت عليهما كليهما حانقة مسعورة وقالت :

- « آه ••• يا للسافل ! لاتقرب منى ، لا توسخنى ! »

قالت هذا للشباب القصير ، فهو الذى كانت حاقدةً عليه •

ثم اتجهت الى الطويل فقالت له :

- « وأنت أيها الأبله الطويل ! لسوف أطردهكما كليكما ركلاً »

بقدمى ••• هل تعرف هذا ؟ » •

ورغم أنها أشاحت عن القصير بازدراء واحتقار ، كأنها تخشى
حقاً أن يوسخها (وهذا ما لم أفهمه ، لأنه كان نظيفاً كل النظافة ، وقد
ظهر حسن هندامه واضحاً حين خلع معطفه) ، رغم ذلك رجاها القصير
ملحاً أن تعقد للطويل الأبله كرافته ، وأن تديره قبل ذلك ياقة نظيفة

من ياقات لامبير • فأوشكت آفونسين أن تضربهما استياءً من هذا الطلب ، ولكن لامير الذى سمع الكلام ، صاح من وراء الحاجز يطلب منها ألا تبقيهما وان تعطيهما ما يريدان ، و « الا فلن يدعانا هادمين » ، فسرعان ما تناولت آفونسين ياقة وأخذت تلبسها الشاب الطويل بدون أى اشمئزاز • ومدّ الطويل لها رقبتة وهى تعقد له كرافتته ، كما فعل لرفيقه حين كانا على السلم أمام الباب •

قال يسألها بغتة :

– « مدموازيل آفونسين ، هل بعث البولونيا الذى كان عندك » •
– « ما البولونيا هذا ؟ » .

فانبرى القصير يشرح لها أن « البولونيا » كلب صغير •
– « هه ! ما هذه الرطانة ؟ »

– « اننى أتكلم كما تتكلم سيدة روسية فى مدينة من مدن المياه المعدنية » •

بذلك أجابها « الطويل الأبله » وهو لا يزال ماداً رقبتة •
فقالت له :

– « ما سيدة روسية فى مدينة من مدن المياه المعدنية ؟ » •

ثم أضافت تخاطب القصير وهى تلتفت اليه فجأة :

– « و ... أين ساعتك الجميلة التى أعطاك اياها لامبير ؟ » •

فصاح لامير يقول من وراء الحاجز ساخطاً :

– ماذا ؟ بغير ساعة مرةً أخرى ؟

فدمدم « الأبله الطويل » قائلاً :

- أكلنا بئمنها !

وأضاف القصير يجيب لامير مبرراً عمله بدون حرارة :

- بئتها بئمانية روبلات • هي من فضة مذهبة ، وليست ذهباً كما زعمت • أمثال هذه الساعات تباع الآن في المتاجر بستة عشر روبلاً •

فتابع لامير كلامه بمزيد من السخف قائلاً :

- يجب أن يوضع حد لهذا • يا صديقى ، اذا كنت أشتري لك ثياباً وأعطيت أشياء ثمينة ، فأننى لا أفعل ذلك من أجل أن تبيعها فتنفق ثمنها على صاحبك الطويل الأبله ••• ما قصة هذه الكرافته التى اشتريتها له أيضاً ؟

- هذه ثمنها روبل واحد لا أكثر • ولم أدفع ثمنها من مالك أنت • لم يكن عنده كرافته ، ولا يزال يحتاج الى قبعة •

قال لامير وقد استعر غضبه استعاراً رهيباً فى هذه المرة :

- كفى حماقات ! لقد أعطيت ما يكفى لشراء قبعة أيضاً • ولكنه سرعان ما ينفق المال فى أكل محار وشرب شمبانيا • ان رائحته عفنة • انه قدر • لا يستطيع المرء أن يصطحبه الى أى مكان • كيف أصطحبه الى العشاء ؟

جمجم « الطويل الأبله » يجيب قائلاً :

- فى عربة ! « ان مننا روبلاً فضة اقترضناه من صديقنا الجديد » •

فصرخ لامير يقول :

- لاتعطهما شيئاً يا آر كادى ، لاتعطهما شيئاً البتة !

قال القصير فجأة وقد احمر احمراراً شديداً فضعاف جماله :

– اسمح لى يا لامبير • اننى اطلبك بعشرة روبلات فوراً • ولا تقل
سخافات كهذه التى فلتها الآن لدولجوروكى ! اطلبك بعشرة روبلات ،
لأرد الروبل الى دولجوروكى حالاً ، ثم أشتري بالباقى قبة لآندريف ،
وسترى •

خرج لامبير من وراء الحاجز ، وقال :

– اليك ثلاث ورقات صفر ، ثلاثة روبلات ، ولن أعطى شيئاً
آخر قبل يوم الثلاثاء القادم ، ولا أحب أن أراكما قبل ذلك
الموعد • والا ...

انتزع « الطويل الأبله » من يديه الورقات الثلاث • فمدّ روبلاً الى
دولجوروكى قائلاً له :

– « دولجوروكى ، اليك روبلاً ، نرده شاكرين أجزل
الشكر » •

ثم صاح يقول لرفيقه :

– هلمّ بنا يا بيرو !

وفجأة رفع الورقتين الأخيرين يلوّح بهما فى الهواء ، وأنشد يقول
بأعلى صوته وهو ينظر الى لامبير وجهاً لوجه :

– « أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » •

فزأر لامبير ينهره بغضب رهيب :

– اسكت ! اسكت !

وأدركت أن وراء هذا كله قصة قديمة أجهلها كل الجهل ، فكنت
أنظر الى المشهد مدهوشاً • ولكن الطويل لم يحدث له غضب لامبير أى
خوف • بالعكس : أخذ يزأر منشدأ بصوت أعلى : « أوهيه لامبير ! » الخ •

وخرج الشابان وصارا فى السلم ، وركض لاميير يلاحقهما ، ولكنه لم يلبث أن عاد أدراجه . وقال :

- لسوف أطردهما ! سوف أطردهما قريباً ! انهما يكلفانى نفقات أكبر مما يعودان علىّ به من أرباح . هلمّ بنا يا آر كادى ! لقد تأخرت . ينتظرنى هنالك شخص *** شخص مفيد !

وهتف يقول مرة أخرى وهو يركز أسنانه :
- أوباش ! أوباش !

لكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فجأة . قال :
- يسعدنى أنك جئت أخيراً . يا ألفونسين ! لا يخطرنبسالك أن تخرجى ! هلمّ بنا يا آر كادى !

أمام الباب ، كانت تنتظره عربة فضمة . ركبنا العربة . ولكنه ظل طوال الطريق لا يفلح فى تهدئة حنقه على ذينك الشابين تهدئة تامة . وقد أدهشنى أن أراه يأخذ الأمر مأخذ الجد الشديد ، وأدهشنى أن رأيتهما ياملان لاميير بغير احترام ، حتى لقد كاد لاميير أن يرتعد أمامهما ارتعاداً . لقد كان يخيّل الىّ دائماً ، بالاستناد الى شعور قديم من مشاعر الطفولة ، أن لاميير شخص لا بد أن يخشاه جميع الناس ، حتى لقد كنت أنا نفسى ، رغم كل ما أنصف به من استقلال ، أشعر بخوف منه فى تلك اللحظة قطعاً .

استمر لاميير يبرّ عن غضبه ، فقال :

- أقول لك انهما وبشان رهيبان . صدقتى : ان هذا الطويل قد سلمنى سوء العذاب منذ ثلاثة أيام فى مجتمع راق . وقف أمامى ينشد صائحاً : « أوهيه لاميير » . فى مجتمع راق . وأخذ الناس جميعاً يضحكون . كانوا يعلمون أنه انما يفعل ذلك لأعطيه مالا . رأيت المشهد

هنا بنفسك • وقد أذعنت فأعطينه • آه ••• انهم أوغاد • كن تلميذاً ضابطاً • فطردوه من المدرسة • تستطيع أن تصور • وهو مثقف • نشأ في أسرة كريمة • في أسرة كريمه ، صدقنى • وله أفكار • كان فى وسعه أن ••• ! ذلك أنه قوى قوة هرقل • انه يقدم بعض الخدمات الصغيرة ، ولكن بغير همة وحماسة • وقد رأيت بعينك : انه لا يتسلل يديه • ذات مرة أوصيت به سيدة من السيدات ، سيدة عجوزاً من الطبقة الأرستقراطية ، وزعمت لها أنه شاب نادم يريد أن ينتحر من شدة ما بلقى من عذاب الضمير • فذهب اليها ، وجلس عندها ، وطفق يصفر ! أما الآخر ، الفتى ، فهو ابن جنرال • أسرته تخجل أن يكون ابنها • خلصته من المحكمة ، أنقذته ، فانظر كيف يكافئنى ! ليس ههنا رجل ! ولكننى سأطردهما ، سأشدهما من جلد الرقبة وأضعهما على الباب •

- انهما يعرفان اسمى • فهل أنت الذى حدثتهما عنى ؟

- ارتكبت هذه الحماقة • فى أثناء العشاء ، سيطر على نفسك ، أرجوك ، ابق فى مكانك • سيجيء الى العشاء وغد آخر رهيب • ذاك وبش فظيع ، ماكر مكرراً فظيماً • ليس ههنا الا سفلة على كل حال • ما من رجل واحد شريف ! ولكن سنتخلص منهم •• ثم ، ماذا تحب من طعام فاخر ؟ لا قيمة لهذا السؤال على كل حال • جميع وجبات العشاء طيبة • أنا الذى سأدفع ، لا تهتم ! من حسن الحظ أنك تتردى نساباً حسنة • أستطيع أن أعطيك مالا • ليس عليك الا أن تنجى وتطلب • تصور أنتى أتخمتها شراباً وطعاماً • فى كل يوم فطائر • وتلك الساعة التى باعها هى الساعة الثابتة • ذلك القصير تریشاتوف - رأيت كيف تشمئز ألفونسين حتى من رؤيته وكيف تمنعه أن يقترب منها - ما ان يجد نفسه فى مطعم ، ومن حوله ضباط ، حتى يأخذ يصرخ : « أريد حجلاً » • فأطلب له حجلاً ! لكننى سأنتقم •

- هل تذكر يا لامبير ... يوم ذهبنا معك الى المطعم بموسكو ،
فطمنتني هناك بشوكة فى فخذى ! كان معك خمسمائة روبل فى ذلك
اليوم !

- نعم ، أذكر . طبعاً أذكر . اننى أحبك . صدقنى . لا أحد
يحبك . لكننى أنا أحبك . أنا وحدى ، تذكر هذا . ان الرجل الذى
سيجئ الى العشاء ، الرجل المجدور ، هو أمكر الأوغاد قاطبة . حذار
منه . اذا كلمك فاصمت ، واذا أخذ يسألك فأجبه بسخافات ، لاتقل شيئاً .
ان اضطرابه قد منعه على الأقل من أن يلقي على أسئلة أثناء الطريق .
وقد جرح شعورى أن أراه واثقاً بى هذه الثقة كلها ، والا يخطر بباله
أن يشك فى أى شك . انه يتصور ، استناداً الى طواعيتى القديمة له ،
حين كنا فى مدرسة توشار ، أنه لا يزال يستطيع أن يأمرنى فأصعد
بأمسه . وقتل لى نفسى ونحن ندخل المطعم : « هو فوق ذلك كله جاهل
جهلاً فظيلاً ، فلا أثر فيه لثقافة » .

هذا المطعم ، فى شارع مورسكيا ، كنت قد ترددت اليه فى أيام سقوطى المخزى . . فلما رأيت هذه الصالات وهؤلاء الخدم الذين حيونى وعرفوا فىّ واحداً من رواد المطعم ؛ وأحسست بالنربة فى جو رفاق لامبير ، وفى جو هؤلاء الصحب الذين رأيتنى بينهم على حين فجأة وكأنى واحد منهم ؛ وخالجتى توجس غامض بأننى مقبل على أمور قدرة وأنى سأنتهى فى أغلب الظن الى ارتكاب عمل سوء ، شعرت بطعنة تنفذ فى قلبى دفعة واحدة ، حتى هممت فى لحظة من اللحظات أن أنصرف ، ولكن تلك اللحظة مرت ، وبقيت .

ان « المجدور » الذى يخشاه لامبير تلك الحثية كلما كان قد وصل قبلنا فهو ينتظرنا . هو واحد من أولئك الناس الذين يبدو عليهم انهماك غيبى فى العمل ، والذين أكرههم كرهاً شديداً منذ أن كنت طفلاً . هو فى نحو الخامسة والأربعين من العمر ، متوسط القامة ، أشيب الشعر قليلاً ، أمرد الوجه الى حد الفحش ، مع عارضين شائنين مقصوصين حلقاً ، كأنهما نقائق على خدين فى وجه مسطح كريبه . وهو طبعاً مضجر ، شديد الرصانة ، صموت ، بل هو على عادة أمثاله متعال متكبر . وقد تفرس فىّ بانتباه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة . وشاعت خرافة لامبير وهو يجلسنا على مائدة واحدة ألا يعرف أحدنا بالآخر . فكان يمكن لهذا الرجل أن يعدنى واحداً من أولئك المبتزين الذين يرافقون لامبير . وقد وصل الشابان لحظة وصولنا تقريباً ، فلم يخاطبهم الرجل أيضاً بكلمة

واحدة طول مدة العشاء ، ولكن كان واضحاً أنه يعرفهما معرفة وثيقة .
لم يكلم الا لامير ، بل لم يكلمه الا بما يشبه أن يكون همساً . وكان
لامير يكاد ينفرد بالكلام على كل حال ، أما المجدور فكان يكفى باجابات
مقتضبة وكلمات غاضبة مستفزة . كان هو متفطرساً متعجرفاً ، وكان
لاذعاً وساخرآ ، ولا كذلك لامير ، فقد كان يبدو شديد الاهتياج ،
وكان كأنه يستحبه على أمر من الأمور لاشك أنه الاشتراك فى مشروع
من المشروعات . وقد مدت يدي الى قارورة النبيذ مرة ، فاذا بالمجدور
يتناول زجاجة من خمر الخريز ، فيمدها الى . لم يكن قد خاطبني قبل
ذلك أبداً . وها هو ذا يقول لى الآن :

- جرب هذا !

حزرت عندئذ أنه هو أيضاً كان يعرف عنى كل شيء ، اسمى
وتاريخي ، وربما الخطط التى يعول لامير فى تنفيذها على . فلما
تصورت أنه يعدنى مستخدماً عند لامير ، استعرت حقنى مرة أخرى ؛ ومنذ
أن كلمنى هذا الرجل المجدور ، قرأت فى وجه لامير قلقاً شديداً فيه
كثير من الحماقة . ولاحظ المجدور نفسه ذلك ، فانفجر يضحك . قلت
لنفسى : « لاشك أن لامير مستعبد لهم جميعاً » ، وكرهته عندئذ بكل
قلبي . هكذا انقسمنا قسمين ، رغم أننا نجلس الى مائدة واحدة : قسماً
هو المجدور ولامير جلسا بقرب النافذة متقابلين ، وقسماً هو أنا والطويل
الوسخ آنديريف بجانبى وتريشاتوف أمامى . وكان لامير يستعجل
التهاء العشاء فهو ماينفك يستحث الخادم : حتى اذا جرى بالشمبانيا ،
قطع حديثه مع المجدور ، ومد كاسه نحوى قائلاً :

- نخب صحتك . فلندق الأقداح !

فعبق تريشاتوف اللطيف قائلاً وهو يمد نحوى قدحه من فوق

المائدة :

• - اسمح لى أنا أيضاً أن أدق قدحى بقدحك •

وكان تريشاتوف ، الى حين وصول الشمبانيا ، واجماً صامتاً •
أما « الأبله » فكان لا يقول شيئاً البتة ، وانما هو يأكل ساكتاً ويأكل كثيراً •

أجبت تريشاتوف بقولى :

- يسرنى هذا !

ودققنا القدحين وشربنا • فقال « الأبله » فجأةً وهو يلتفت الى :

- أما أنا فلن أشرب نخب صحتك ، لا لأننى أتمنى لك الموت ،
بل لتكف عن المزيد من شرب الخمر هذا اليوم •

قال هذه الكلمات مربد الوجه متصنع اللهجة • وتابع يقول :

- أنت تكفيك ثلاثة أقداح !

ثم أدرف وهو يضع قبضة يده على المائدة :

- أرى أنك تنظر الى قبضة يدي الوسخة • اننى لا أغسلها ، بل
أؤجرها على حالتها هذه غير مغسولة ، أؤجرها للامير ، لكسر روس
الآخرين فى القضايا التى تفتح شهيته •

قال هذه الكلمات وضرب المائدة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة
أن الأطباق والأقداح انقلبت وسقطت • وكان فى القاعة أربع موائد أخرى
قد جلس اليها طاعمون من ضباط وسادة محترمين • انه مطعم من المطاعم
الرائجة • فاذا بجميع الحادثات تنقطع ، واذا بجميع الأنظار تتجه الى
الركن الذى نحن فيه • وكنا قد أثرنا فضول الناس قبل مدة طويلة على
كل حال • اصطبغ وجه لامير بحمرة شديدة • وقال بهمس حانق
يخاطب أندرييف :

- آ... آ... ها هو ذا يستأنف أظن يا يقولاً سيمنوفتش أنتى رجوتك
أن تسيطر على نفسك •

فرشقه الرجل بنظرة طويلة بطيئة وقال :

- لا أريد لصديقى الجديد « دولجوروفكى » أن يسرف اليوم فى
شرب الخمر •

ازداد احمرار لامير • وكان المجدور يصيخ بسمعه صامتاً ، ولكن
كان واضحاً أنه راضٍ مقتبط • لقد أعجبتة ثورة آندريف • أنا وحدى
لم أدرك لماذا كان يجب علىّ ألا أشرب •

قال لامير وهو يركز أسنانه :

- انه لا يفعل هذا الا ليأخذ مالاً • سأعطيك سبعة روبلات • هل
تسمع ؟ سأعطيك سبعة روبلات بعد العشاء • ولكن دعنا نفرغ • لا تخزنا •

فزأر « الأبله » منتصراً :

- آ... آ... آ...

وابتهج المجدور قطعاً ، فهاهو ذا يضحك •

وقال تريشاتوف لصديقه بقلق ، بل بما يشبه الألم ، راغباً فى
صنّده طبعاً :

- اسمع ، انك تسرف !

فصمت آندريف ، ولكن صمته لم يطل ، فان ما فعله لم يشف
غليله • كان يتحشى على مائدة ثانية تبعد عنا خمس خطوات سيدان منهمكان
فى حديث حار • انهما سيدان متقدمان فى السن ، يبدو عليهما أنهما
حسامان سريعاً التأذى • أحدهما طويل سمين جداً ، والثانى سمين أيضاً
لكنه قصير • كان الرجلان يتكلمان باللغة البولندية عن الأحداث الأخيرة

التي وقعت بباريس • وكان « الأبله » ينظر اليهما منذ مدة طويلة باستطلاع
وفصول ، ويصيخ بسمعه الى حديثهما • وأغلب الطن ان البولندي القصير
قد بدا له رجلاً سخيلاً مضحكاً ، فسرعان ما أبغضه ، شأنه في ذلك شأن
جميع الأشخاص الصفراويين المصابين بمرض في الكبد ، الذين يحدث
لهم هذا بغتة بدون أى سبب • واتفق أن نطق البولندي القصير فجأة
باسم النائب ماديه دومونجو ، لكنه نطق الاسم بلكنة بولندية على عادة كثير
من البولنديين ، أى انه شدد المقطع السابق على المقطع الأخير من الاسم ،
فجاء نطق الاسم هكذا : ماديه دو مونجو • ولم يكن « الأبله » في حاجة
الى أكثر من ذلك ، فهاهو ذا يلتفت الى البولنديين ، ثم ينتصب بوقار ،
ويقول بصوت عال واضح وكأنه يلقي سؤالاً :

– ماديه دو مونجو ؟

فالتفت البولنديان حائقين • وسأله البولندي الطويل السمين مهدداً :
– ماذا تريد ؟

وكان « الأبله » ينتظر هذه اللحظة • فكرر سؤاله بصوت عال جداً
ليسمعه كل من بالصالة :
– ماديه دو مونجو ؟

كرر سؤاله هذا فوراً بغير مزيد من الايضاح ، تماماً كما فعل معي
من قبل أمام الباب حين كرر سؤاله لي وهو يتقدم مني : « دولجوروفكي ؟ »
فانتفض البولنديان • ونهض لاميير وهم أن يهجم على آندريف ، لكنه
سرعان ما تركه واندفع نحو البولنديين يقدم لهما الاعتذارات •

فأخذ البولندي القصير يقول باحتقار وقد احمر احمراراً شديداً
حتى صار لون وجهه كلون جزرة :

- هؤلاء مهرجون ، يا سيد ، هؤلاء مهرجون • قريباً سيستحيل على المرء أن يجيء الى هنا •

واضطربت الصلاة كلها ، وبُسمت من كل مكان دمدمات تدمر ، ولكن الضحكات كانت أكثر من الدمدمات •

تمتم لامبير يقول وقد طاش صوابه ، محاولاً ان يدفع آندريف الى خارج الصلاة :

- اخرج ، أرجوك •••

فوافق آندريف على الخروج بعد أن ألقى على لامبير نظرة فاحصة فأدرك أنه سيعطيه مالا • لا شك أنه قد سبق له مراراً أن ابتز منه مالا بهذا الأسلوب • وأراد تریشاتوف أن يركض وراءهما ، ولكنه نظر الى وتوقف • ثم قال وهو يخفى عينيه باصابعه اللطيفة الناعمة :

- آه ••• شيء كريه !

فقال المجدور هامساً وقد ظهر الاستياء في وجهه هذه المرة :

- كريه فعلاً !

ورجع لامبير في أثناء ذلك مصفرّ الوجه ، وهمس في أذن المجدور ببعض الكلام محرّكاً يديه بإشارات عنيفة ! وكان المجدور قد أمر أن يؤتى بالقهوة حالاً • وقد أصغى الى لامبير باحتقار • وكان واضحاً أنه يود الانصراف • ولم تكن القضية كلها مع ذلك الا عبثاً صيانياً • وحمل تریشاتوف فنجان قهوته وجاء يجلس بجانبى • وأخذ يتكلم بهيئة صريحة كأنما نحن قد بحثنا هذا الموضوع مراراً •

- اننى أحبه كثيراً ، آندريف هذا • لا تستطيع أن تتصور مدى تعاسته • لقد بدّد مهر أخته في الشراب والطعام ، بل بدّد في الطعام

والشراب كل ما يملكه أهله فى أثناء خدمته العسكرية • وأنا أرى الآن كيف يتعذب عذاباً شديداً • اذا كان لا يغتسل فانما مرد ذلك الى الكمد واليأس • تراوده أفكار جنونية : يقول لك على حين فجأة سيان أن يكون المرء وغداً سافلاً أو رجلاً شريفاً ، فلا فرق بين الأمرين • يجب على المرء ألا يفعل شيئاً ، لا خيراً ولا شراً • فى وسع المرء أن يفعل الخير وأن يفعل الشر ، فكلاهما سواء • ولكن الأفضل من هذا أن يظل راقداً مدة شهر كامل لا يخلع ثيابه ، وانما هو يأكل ويشرب وينام لا أكثر • ولكن صدق أن هذا الكلام كله انما يقوله بغير جد • بل انى لأعتقد أن ما فعله اليوم انما فعله لينتهى من لامبير ويقطع صلته به قطعاً تاماً • بالأمس كان يحدثنى فى هذا • هل تصدق أنه فى الليل ، أو حين يخلو الى نفسه مدة طويلة ، يأخذ يبكى • وهو اذا بكى فانما يبكى كما لا يبكى انسان آخر غيره • انه يعول عويلاً رهيباً ، وهذا أبعث على الشفقة • تصور رجلاً يبلغ مبلغه من الطول ومن القوة ، ثم هو يبكى معولاً ! بائس ، أليس كذلك ؟ أريد أن أنقذه ، ولكننى أنا نفسى شخص حقير ، فتى ضائع ، لملك لا تصدق ! هل تسمح لى بالدخول يادولجوروكى اذا أنا جئت أزورك أحياناً ؟

– طبعاً ! أنا أحبك كثيراً •

– لماذا تحبنى ؟ شكراً على كل حال ! اسمع • فلنشرب كأساً أخرى • ماذا أقول ؟ لا ، لا تشرب ! لقد صدقت القول : يجب أن تكف عن الشراب هذه الليلة •

قال ذلك وهو يلقي على نظرة معبرة • وأردف يقول :

– أما أنا فسأشرب مع ذلك • أصبح الشراب لا يحدث لى شيئاً ، وأصبحت لا أستطيع أن أمنع نفسى عن شىء • انصحنى اليوم بأن أمتنع عن تناول العشاء فى المطاعم ، تجدنى فى الغد مستمداً لكل شىء فى سبيل أن

أعشى في المطاعم • أوكد لك أننا نود ، مخلصين ، أن نصبح شرفاء ،
ولكننا نرجى ذلك دائماً الى الغد • وما ينفك الغد يتراجع ،

وتمضى السنون تليها السنون ويفنى ربيع القمر

ولكنى أخاف عليه هو • سوف يشنق نفسه • سوف يمضى يشنق
نفسه دون أن يقول لأحد شيئاً • هذه طبيعته • ما أكثر الذين يشنقون
انفسهم في هذه الأيام ! من يدري ؟ لعل أمثالنا كثير • أنا مثلاً لا أستطيع
أبدأ أن أحيأ بدون أن يكون معي فضل من المال • أنا أحوج الى المال
الزائد منى الى المال اللازم • اسمع ، هل تحب الموسيقى؟ أنا أحبها حبا
جنونياً • سأعزف لك شيئاً حين أجيء اليك • اننى أجد العزف على
البيانو اجادة كبيرة • درست العزف زمناً طويلاً • دراسة
جادة • لو أتيت لي أن أولف أوبرا لاخترت موضوع « فاوست » •
اننى أحب هذا الموضوع كثيراً • فترانى دائماً أبني بخيالى مشهداً
فى كاتدرائية : أتصور كاتدرائية قوطية ، وأتصور جوقات المغنين
والأنشيد • وتدخل جرتشن • الجوقات من القرون الوسطى ، حتى
يشعر المرء بجو القرن الخامس عشر • جرتشن حزينة مكتسبة ، فى
البداية تُسمع تلاوة منعمة ، بصوت جهير ، لكنه صوت رهيب ،
معدّب • ثم يدوى صوت الجوقات بفناء قاتم ، قاس ، غير مكترث :

هذا يوم الغضب

وفجأة يعلو صوت الشيطان، يعنى الشيطان • انه لا يرى، ولكن
يسمع صوته ، الى جانب الأنشيد ، ينطبق عليها تقريباً ، ولكنه مختلف
عنها كل الاختلاف • ذلك ما يجب التوصل اليه • وغناء الشيطان طويل ،
لا يتعب ، وهو تينور ، تينور حتماً • يكون فى البداية رقيقاً ، رقيقاً :
« هل تذكرين يا جرتشن أيام كنت لا تزالين بريثة ، أيام كنت لا تزالين
طفلة ، كيف كنت تجيئين مع أمك الى هذه الكاتدرائية وتتمنين بصلوات

تقرئينها فى صلب عبيق؟ • ولكن الغناء يفوى ثم يقوى ، وما ينفك
يزداد حرارة واندفاعا • أصبحت النغمات اعلى : يحس فيها السامع
دموعا ، يحس فيها ضجرا ، ضجراً لا ينتهى ، لا مخرج منه ، ثم
ياتى الياس : « لا شفران يا جرتشن ، لا شفران لك هنا ! » • وتريد
جرتشن أن تصلى وتدعو ، ولكن من صدرها لا تخرج الا صرخات -
اتعرف هذا النوع من الصرخات ؟ الصرخات التى تنطلق تشنجات من صدر
أترع دموعا • ويظل الشيطان يغنى • انه لا يصمت ، ويظل ينفذ فى
النفس الى أعماق أبعاد ، ثم اذا هو ، على حين فجأة ، ينقطع مرة واحدة
بهذه الصرخة : « انتهى كل شيء ، انصبت عليك اللعنة ! » • وتتهوى
جرتشن على الأرض راکعة ، ضامة يديها أمامها • وتنطلق عندئذ
صلاتها ، صلاة قصيرة جداً ، هى قراءة منغمة ، ولكنها ساذجة ،
لا يصطنع فيها فن ، هى تلاوة تترجع فيها آثار القرون الوسطى قوية •
أربعة أبيات ، أربعة أبيات فقط - عند ستراديبلا نغمات كهذه ! - ثم
الأغماء ، بعد آخر نغمة ! ويحدث هرج ومرج • وترقع جرتشن ،
وتنقل • فاذا بالجوقة يرعد غناؤها فجأة • لكأنها صاعقة تنزل • غناء فيه
الهام ، غناء ظافر ، ساحق ، شىء من نوع نشيدنا ، نشيد الملائكة الصغار •
يهتز كل شىء حتى أساسه ، ويفضى كل شىء الى تسيحة « المجد لله ! » •
لكأنه صراخ الكون كله ، بينما هى تحمل و تنقل • تنقل جرتشن ،
وتسدل الستارة • حقاً لو كنت أستطيع لفعلت شيئاً ما • ولكننى أصبحت
لا أصلح لشىء • فانما أنا أكتفى بأن أحلم • أحلم بهذا طول الوقت •
أحلم • حياتى كلها ليست الآن الا حلماً • وفى الليل أحلم أيضاً • آه !
دولجوروكى ، هل قرأت كتاب ديكنز « مخزن العاديات » ؟ •

- نعم قرأته ، فماذا ؟

- لاشك أنك تتذكر ... انتظر • سأفرغ كأساً أخرى • لاشك

أنك تذكر ذلك الجزء من أواخر القصة ... الذي نراهما فيه ، ذلك الشيخ المجنون وتلك البنية الصغيرة ، حفيدته ، التي عمرها ثلاث عشرة سنة ، نراهما ، بعد هروبهما العجيب وتجوأهما الطويل ، يجدان ملجأً يأويان إليه بمكان في أقاصى إنجلترا ، قرب كاتدرائية قوطيسة قديمة ، وترى البنت الصغيرة تحصل هناك على وظيفة دليل ويرى الزائرين الكاتدرائية ، ففي ذات يوم تقرب الشمس ، فإذا بالطفلة ، والواقعة في هاء الكاتدرائية ، وقد غمرتها أواخر أشعة النهار ، اذا بها تنظر الى الشمس العاربة وقد امتلأت نفسها ، نفس الطفلة ، نفسها المدهوشة ، امتلأت تأملاً هادئاً وتفكيراً عميقاً ، كأنما هي تقف أمام لغز من الألغاز ، لأن الشيتين كليهما ، الشمس التي هي فكر الله ، والكاتدرائية التي هي فكر البشر ، انما هما لغزان حقاً ؟ ... أليس هذا صحيحاً ؟ آه ... اننى لا أجد التعبير . ولكن الرب يحب هذه الحواطر الأولى التي تملأ نفوس الأطفال . وهناك ، على مقربة منها ، فوق الدرجات ، كان ذلك الشيخ المجنون ، جدّها ، يتأملها بنظرة جامدة . صحيح أن هذا كله ليس فيه شيء خارق ، هذا المشهد الذي رسمه ديكنز ، ولكن المرء لا يمكن أن ينساه أبداً . وقد بقي في أوروبا كلها . لماذا ؟ لأن هذا هو الجمال . لأن في هذا براءة . آه ... أنا لا أدري ما الذي يشتمل عليه هذا ، ولكننى أحس فيه جمالاً . كنت في المدرسة الثانوية أكثر من قراءة الروايات . ان لى أختاً في الريف ، تكبرنى بسنة واحدة ... الآن بيع كل شيء هناك ، ولم يبق لنا أملاك ! كنا واقفين على الشرفة معاً ذات يوم ، نقرأ هذه الرواية ، تحت أشجار الزيزفون في دارنا ، وكانت الشمس تقرب أيضاً ، فإذا نحن ننقطع عن القراءة ، ويقول كل منا للآخر : نحن أيضاً سنكون خيرين ، سنكون جميلين ... كنت أستعد حينذاك لدخول الجامعة . ان لكل انسان ذكرياته يا دولجوروكى ...

وفجأة مال برأسه الجميل على كنفى ، وطفق يذرف دموعاً غزيرة •
فأشفقت عليه ، أشفقت عليه كثيراً • صحيح أنه كان قد شرب كثيراً ،
ولكنه كان يكلمنى بصدق كبير ، وأخوة خالصة ، وعاطفة طاهرة •

وفى تلك اللحظة سمعنا من الشارع صرخة ، وسمعنا فرعات قوية
على زجاج النافذة (كانت كل نافذة من النوافذ قطعة واحدة من الزجاج ،
وكانت كبيرة ، وكانت فى الطابق الأرضى ، فيستطيع المرء أن يلمحها من
الشارع) • انه أندرييف الذى ' طرد •

– « أوهيه لامير ! أين لامير ؟ هل رأيت لامير ؟ » •

داهمتنا هذه الصرخة من الشارع • فهتف الفتى وهو يشب عن
مكانه متدفقاً :

– لا يزال اذن هنا ! انه اذن لم ينصرف !

وصاح لامير يقول للخادم :

– الحساب !

وكانت يدها ترتجفان غضباً وهو يدفع الحساب • ولكن المجدور
لم يسمح له بأن يدفع عنه •

– لماذا ؟ أنا الذى دعوتك وقد قبلت أنت الدعوة •

– لا ، اسمح لى •

وأخرج المجدور محفظة تقوده ، ودفع حصته بعد أن حسب
ما عليه • قال له لامير :

– انك تهيننى يا سيمون سيدوروفتش !

– هذا ما أريده •

بذلك أجاب سيمون سيدوروفتش • وتناول قبعته ، وخرج من

الصلاة وحده دون أن يودع أحداً • فقدف لاميير باقى الحساب للخادم
وأسرع يركض وراء المجدور ، حتى لقد نسينى من شدة اضطرابه •
وجرجنا أنا وتريشاتوف آخر من خرج • كان آندرييف متسمرًا أمام
الباب ، كئيب ، ينتظر تريشانوف •

قال له لاميير الذى أصبح لا يستطيع كظم غظه :

- سافل !

فاذا بآندرييف يزأر صائحاً :

- هيه !

ثم اذا هو يقلب له قبعته بقفا يده ، فنسقط القبعة على الرصيف •
ويسرع لاميير الى التقاطها بمذلة •
- « خمسة وعشرون روبلاً » •

كذلك قال آندرييف لتريشاتوف وهو يريه الورقة النقدية التى
استطاع أن ينتزعها من لاميير • فصرخ تريشاتوف قائلاً له :
- كفى ! لماذا الجرسة دائماً ؟ ولماذا أخذت منه خمسة وعشرين
روبلًا ؟ انه لا يدين لك الا بسبعة روبلات •

- لماذا ؟ لأنه وعدنا بأن تمنى وحدنا مع نساء ، فاذا هو يعيشنا
مع هذا المجدور بدلاً من النساء • هذا عدا أنى لم أفرغ من طعامى ،
وقد تجمدت من البرد على الرصيف بما يساوى ثمانية عشر روبلاً ،
فيكون المجموع خمسة وعشرين •

زأر لاميير يقول :

- شيطان يأخذكما ! اننى أطردكما كليكما وسوف أريكما ...
فصرخ آندرييف قائلاً :

- لامبير ، أنا الذى اطردك ، وانا الذى سوف أريك ! ...
« الوداع يا أميرى ، ! لاتزد على ما شربت • هلمّ يا بيرو ! الى الأمام ،
سر ! » أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ ، •

كذلك ردّد مرة أخيرة وهو يتعد بخطى عملاق ! •

تمتم تريشاروف يقول لى بسرعة وهو يتعجل اللحاق بصديقه :
- اذن سأجىء اليك ، هل تسمح ؟

وبقيت وحدى مع لامبير • قال وهو لا يكاد يستطيع أن يسترد
أنفاسه ، وكأنه فقد صوابه :

- هيا بنا !

فأسرعت أصبح قائلاً له بلهجة متحدية مستفزة :

- الى أين ؟ لا ، لن أصحبك الى أى مكان !

فسألنى قلقاً وقد تاب الى نفسه فجأة :

- كيف هذا ؟ اتنى لم أكن أنتظر الا أن نبقى وحدنا •

- الى أين ؟

يجب أن أعترف بأن رأسى كان يدور قليلاً بعد أن شربت ثلاث

أقداح من الشمبانيا ، وكأسين من خمرة الخريز •

- الى هنا ، الى هنا ، هل ترى ؟

- ولكن فى هذا المحل محاراً طازجاً كما ترى • مكتوب ذلك •

فالرائحة اذن كريهة •

- هذا ما يجب لنا بعد العشاء • انه محل ميلوتين • المحار لن نأكله •

ولكننى سأقدم لك شمبانيا •

- مستحيل • أنت تريد أن تُسكرنى •

- هما اللذان قالوا لك هذا • ضحكا عليك • أتصدق هذين
الوغدين ؟

- لا ، ليس تريشاروف وغداً • ثم أنني أعرف بنفسى كيف آكون
حذراً •

- فلك اذن ارادة قوية ؟

- نعم ، لى ارادة قوية ، أقوى من ارادتك على الأقل ، فأنت
يستعبدك أول قادم ! لقد جلتنا بالعار • مضيت تعتذر لذيتك البولنديين
ذليلاً كخادم • لا بد أنك كثيراً ما ضربت فى المطاعم •

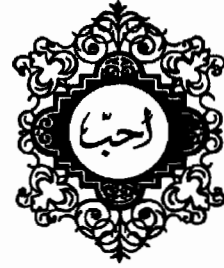
صاح يقول باحتقار وقد نفذ صبره نقاداً منناه : « وأنت أيضاً ؟ » •

- ولكن بيننا كلام يا غبى ! أتراك خائفاً ؟ أأنت صديقى أم لا ؟

- لست صديقك ، ما أنت الا وشى دنىء • على كل حال ،
هناً بنا ! أريد أن أبرهن لك على أنني لست خائفاً منك • هوه ! ما أبشع
هذه الراضحة ! راضحة جبن عفن ! ما أشدها قنارة !

الفصل السادس

١



أن أذكر مرةً أخرى بأن رأسي كان يدور قليلاً • والا لكنت تصرفت وتكلمت على غير هذا النحو •

في قاعة خلفية من تلك الدكان كان يؤكل محاصر فعلاً • وقد جلسنا الى مائدة عليها غطاء وسخ • وأمر لامبير بشامبايا • فاذا أمامي قدح مملوءة بخمرة باردة لونها كلون الذهب ، تنظر الى وتفريني بنفسها • لكنني كنت مستاءً مهموماً •

- هل تعلم يا لامبير ما الذي يسوءني منك خاصة ؟ أنك تتصور نفسك قادراً حتى الآن على أن تأمرني فأطيع ، كما كان الحال في مدرسة توشار ، مع أنك أنت المستعبد لهم جميعاً هنا !

- غبي ! هياً ! لتدق الأقداح !

- لا تريد حتى أن تجبر نفسك على شيء • ليتك تحاول على الأقل أن تخفي عني أنك تريد أن تسكرني !

- انك تقول سخافات ، وانك لسكران • يجب أن تشرب المزيد فتصبح أكثر مرحاً • هياً تناول قدحك • ما بالك لا تتناول قدحك ؟

- أتناول قدحي ؟ أنا منصرف • ذلك كل ما ستحصل عليه مني !

وهممت أن أنصرف فعلاً • ولكن هاهو ذا يفضب غضباً شديداً :

- ان تريشاتوف هو الذي أنارك على : رأيتكما ، كنتما تتهامسان •

ما أنت الا غبي • ان الفونسين تشمئز منه اذا هو أقرب منها ••• انه مقزز • سأحكي لك عنه فتعرف ما قيمته !

- سبق أن حكيت لى • ليس فى فمك الا اسم الفونسين ! انك لحدود العقل حقاً !

- محدود ؟

لم يفهم عنى • وأردف يقول :

- هاهما الآن مع المجدور • ذلك هو السبب فى أننى طردتهما • ان هذا المجدور رجل دنىء • سوف يفسدهما • أما أنا فكنت أطلبهما بأن يلتزما الشرف والنبل فى سلوكهما دائماً •

جلست ، وتناولت القدح بغير شعور ، وجرعت جرعة • قلت له :

- أنا بثقافتى أعلى منك كثيراً !

ولكنه كان قد امتلأ فرحاً بأننى عدت أجلس • وسرعان ما ملأ لى القدح مرة أخرى • تابعت كلامى لأغبطه (ولا شك أننى كنت عندئذ أبعث منه على الاشمزاز) ، فقلت :

- ولكنك خائف منهما ، أليس كذلك ؟ أسقط آندرييف قبعتك عن رأسك ، فكافأته على ذلك بخمسة وعشرين روبلاً •

- نعم ، ولكنه سينال عقابه • انهما يتمردان ، ولكننى سأعرف كيف أقتص •••

- والمجدور يعذبك • أظن أنك لم يبق لك أحد غيرى • فجميع آمالك معقودة علىّ أنا الآن ، هه ؟

- نعم يا عزيزي آرКАДى • هذا صحيح جداً : لم يبق لى صديق
غيرك • صدقت !

قال ذلك وربت على كفى •

ما العمل برجل يبلغ هذا المبلغ من الغيباء ! انه بعقله المحدود
يحبس السخرية مديحاً •

تابع كلامه وهو ينظر الى برقة وعاطفة :

- فى وسعتك أن تجنبنى كثيراً من المنصات ، وأن تخلصنى من
ورطة اذا كنت رفيقاً مخلصاً يا آرКАДى !

- كيف ذلك ؟

- أنت تعرف • ما لم أساعدك فستظل غيباً طول حياتك ، لكننى
أستطيع أن أهيب • ثلاثين ألف روبل نقتسمها نصفين ، نصفاً لك
ونصفاً لى • انظر ماذا أنت الآن : انك لا تملك شيئاً ، لا اسماً ولا أسرة •
فاذا قبلت ما أعرضه عليك صرت غيباً فى طرفة عين • وبثروة كهذه
الثروة تستطيع أن تشق لنفسك طريقاً •••

ذهلت من هذا الأسلوب • كنت أتصور أنه سيمجد الى المكر
والحيلة ، ثم هاهو ذا يمضى الى الهدف رأساً فيكلمنى بلا لف ولا دوران
كما يكلم صبي صغير • قررت أن أصغى اليه ، من باب رحابة الفكر ••
وبتأثير الفضول الشديد أيضاً !

قلت له بلهجة ثابتة صارمة :

- اسمع يا لامبير ، قد لانفهم ما سأقوله لك ، لكننى سأقوله :
اننى أقبل أن أصغى الى كلامك لأننى رحب الفكر •

وجرعت جرعة أخرى ، فسرعان ما عاد لامير يكمل ملء
الكأس • وقال :

- اسمع يا أركادى : لو أن رجلاً مثل بيورنج قد أباح لنفسه
أن يشتمنى وأن يضربنى بحضور سيدة أعدها ، لما عرفت ماذا كان
يمكن أن أفعل ! أما أنت فقد تحملت • ولذلك أحترقك : ما أنت
الا خرقة بالية !

فهمت أقول وقد اصطبغ وجهى بحمرة شديدة :

- تجرؤ أن تقول ان بيورنج ضربنى ؟ أنا الذى ضربته ، وليس
هو الذى ضربنى !

- بل هو الذى ضربك ولست أنت الذى ضربته !

- كذاب ! حتى اتنى دست على قدمه !

- لكنه دفعك عنه بيده وأمر الخدم أن يقتادوك ••• وكانت
هى فى العربة تنظر اليك وتضحك عليك ! هى تعلم أنك ليس لك أب ،
وأنت تبلع كل اهانة !

- يخيّل الىّ يا لامير أننا نتكلم الآن كما يتكلم تلاميذ مدرسة •
وانتى لأشعر عنك بخزى وعار • أنت تقول هذا كله لتستثيرنى ، وتقوله
بغلظة شديدة وفظاظة صريحة ••• أترك تحسبى صيباً فى السادسة عشرة
من عمري ؟

ثم هتفت أقول وأنا أرتعش غضباً وأشرب كأسى جرعات بغير
شعور :

- انك تفاهمت مع آنا آندريفنا !

- آنا آندريفنا وغدة ماكرة ، ستضحك علينا أنا وأنت والعالم
بأسره ! وأنا انما انتظرتك لأنك تستطيع أن تنفق مع الأخرى •

- من الأخرى ؟

- السيدة آخماكوفا • اننى أعرف كل نىء • أنت نفسك قلت
لى انها تخشى الرسالة التى فى حوزتك •••

- أية رسالة ؟ ••• أنت كذاب !

وتمتت أقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- هل رأيتها ؟

- رأيتها • جميلة • « جميلة جداً » • ان لك ذوقاً رفيعاً !

- أعرف أنك رأيتها • ولكنك لم تجرؤ أن تكلمها • ولا أريد

أن تتكلم عنها •

- انك مازلت فتى غراً ، وهى تضحك عليك وتسخر منك
لا أكثر • عرفنا فاضلة من هذا النوع بموسكو • ما كان أشد شموخها
بأنفها ! ولكن ما ان هددت بفضح كل شىء حتى أخذت ترتجف ،
وسرعان ما أصبحت طيعة ! فنلنا منها كل ما أردنا : المال وغير المال •
هل تفهم ؟ لقد عادت الآن الى المجتمع ، وأصبح الوصول اليها
مستحيلاً ، وصارت تحلق عالياً • ما أفخم العربية التى تركبها ! ليتك
رأيت الماخور الذى تمّ فيه هذا كله ! انك لم تعش بعد • ليتك تعرف
المواخير التى لا يخشين فيها أن •••

تمتت أقول بغير ارادة :

- خطر ببالى هذا !

- انهن فاسقات حتى نخاع العظام ! انك لا تعرف كيف لا يتورعن
عن شىء ! لقد عاشت ألفونسين فى بيت من تلك البيوت ، فما كان أشد
اشمئزها !

فقلت أؤيده مرةً أخرى :

- فكرت في هذا !

- أتضرب ثم تأخذك شفقة ؟ ...

فأدركت قصده على الفور ، فصرخت أقول له وأنا أرتجف غضباً :

- لامير ، أنت وغد ، أنت وبش لثيم ! لقد رأيت هذا كله في

المنام . حلمت بك جالساً بجانب آنا آندريفنا ... آه ... انك سافل

دنيء ! أكنت تحسبني حقيراً الى هذا الحد ؟ لقد رأيت هذا في المنام

لأننى كنت أعلم منذ ذلك الحين أنك ستحدثنى هذا الحديث . ثم ان

الأمر ليست بسيطة هذه البساطة كلها فتحدثنى عنها بمثل هذه الصراحة ،

وبمثل هذه البساطة !

- أرايت ؟ ها هو ذا يغضب ! هـ هـ هـ هـ هـ ...

أخذ لامير يضحك منتصراً . وتابع كلامه فقال :

- اسمع يا عزيزى آكاردى . عرفت الآن ما أنا فى حاجة اليه .

لهنا انما كنت انتظرك ، استمع الى ما أقول : أنت تحبها ، وتريد أن تنتقم

من بيورنج . هذا ما كنت أريد. أن أعرفه . ولقد كنت أفدّره أثناء هذا

الانتظار . « اذا كان الأمر كذلك ، فقد تغيرت المسألة » (بالفرنسية) .

وفى هذا خير . ذلك أنها تحبك هى أيضاً . فتزوجها بلا ابطاء . هذا

خير ما تفعل . ثم انك لا تستطيع أن تفعل غير هذا . لقد اخترت أفضل

حل . نم اعلم يا آرКАДى أن لك صدبناً . أنا الصديق الذى تستطيع أن

تفعل به ما تشاء . ان هذا الصديق سيساعدك وسيزوجك . سأجد كل

شئ . سأمضى أبحث تحت الأرض عن كل ما تحتاجه ، يا عزيزى

آرКАДى . وفى مقابل ذلك تعطى رفيقك القديم ثلاثين ألف روبل

أجراً على ما بذل من جهد ، هه ؟ سأساعدك . لا تقلق . أنا فى مثل

هذه الأمور أعرف جميع المداخل والمخارج • • ستلك المهر كله ، فاذا انت غنى ، واذا باب المستقبل اللامع يفتح امامك .

كان راسي يدور • ولكن هذا لا ينفى انى كنت أنظر الى لامير مدهوشا • لقد كان جاداً فيما يقول ، او قل انى كنت ارى رؤية واضحة أنه كان يصدق هو نفسه أن فى امكانه أن يزوجنى ، بل انه يتبنى هذه الفكرة بحماسة • وكنت أدرك كذلك طبعاً أنه يستدرجنى الى فتح كائننى طفل صغير (لاشك أننى قد أدركت هذا منذ ذلك الحين) • ولكن فكرة هذا الزواج بها كانت بلغت من قوة النفاذ الى كيانى كله اننى رغم افدهاشى من أن يستطيع لامير تصديق هذا الخيال ، قد اندفعت أنا نفسى الى تصديقه تصديقاً لا سبيل الى مقاومته ، دون أن أفقد ، خلال لحظة واحدة ، شعورى بأن هذا أمر لا يمكن تحقيقه طبعاً • لا أدرى كيف أمكن أن تجتمع هذه المشاعر المتناقضة فى نفسى معاً •

تمتت أسأله :

- ولكن هل هذا ممكن ؟

- لم لا ؟ تريها الوثيقة فتخاف فتتزوجك حتى لا تضيع الميراث •

قررت ألا أصدّق لامير عن المضى فى هذه الحفارات ، لأنه كان يعرضها أمامى بسناجة كبيرة ، ولا يخطر بباله أنه من الممكن أن يثور عليه حنقى فجأة • ومع ذلك دمدمت أقول له انى لا أحب على كل حال أن أتزوج بقوة التهديد وحدها :

- مستحيل ، لن أتزوج عنسوة • كيف يدور فى خلدك أن

أكون من الحسة بحيث لا أتورع عن هذا ؟

- هوه ! ولكنها ستجىء اليك من تلقاء نفسها • لا أنت بل هى •

ستخاف فتتزوجك !

ثم استدرك يقول :

- ثم انها ستزوجك لأنها تحبك .

- كذاب . أنت تسخر مني . كيف عرفت أنها تحبني ؟

- أعرف هذا طبعاً . أنا أندريفا تفترضه أيضاً . اننى جاد فيما

أقول . اننى أقول الحقيقة : أنا أندريفا تصور هذا . سأحكى لك شيئاً

آخر حين تجيء الى ، فترى أنها تحبك . لقد ذهبت ألفونسين الى

تاسارسكوييا . وحصلت هي أيضاً على معلومات ...

- ماذا استطاعت أن تعلم هناك ؟

- لنذهب الى البيت : ستحكى لك هي نفسها ، فيكون ذلك أمتع

لك وأحلى . ثم هل أنت أقل من غيرك ؟ انك جميل ، ومتعلم ...

دمدمت أقول :

- نعم ، متعلم ...

كنت أتنفس بمشقة ، وكان قلبى يخفق خفقاناً شديداً حتى ليكاد

يتحطم ، ولم تكن الحمرة هي السبب الوحيد طبعاً ...

- أنت جميل وأنيق .

- نعم أنيق .

- وطيب ...

- نعم طيب ...

- فكيف لا ترضاك اذن زوجاً ؟ ان بيورنج لن يتزوجها بدون أن

يكون لها مال ، وأنت تستطيع أن تحرمها من مالها ، فتخاف فتزوجك .

واذا تزوجتها فقد انتقلت من بيورنج في الوقت نفسه . لقد قلت لى فى

تلك الليلة ، حين كنت متجيداً من البرد ، انها تحبك .

- أنا قلت لك هذا ؟ أنا لم أقل هذا الكلام حتماً !

- بلى بلى • قلت هذا الكلام بعينه •

- قلته أثناء الهديان • ولا بد اننى حدثتك اذن عن الوثيقة ؟

- نعم ، ذكرت أن تلك الرسالة هى فى حوزتك • فتساءلت أنا :

إذا كان يملك تلك الرسالة فماذا ينتظر ؟ كيف يَضِيع وقته ؟

تمنت أقول :

- أضغاث أحلام • لست من الحمافة بحيث أصدق أن هذا

الزواج يمكن أن يتم • هناك أولاً فرق السن • وهناك ثانياً أنتى

ليس لى اسم •

- أقول لك انها ستزوجك • يستحيل ألا تتزوجك حين تكون

مهدة بفقد ميراث ضخم • وسوف أدبر هذا الأمر • نم انها تحبك •

هل تعلم ؟ ان هذا الأمير العجوز يحمل لك أطيب المشاعر • فما أكثر

العلاقات التى تستطيع أن تمقدها برعايته ! أما عن الاسم ، فان المرء فى

هذا الزمان لا يحتاج الى اسم : متى ملكت المال فسوف تسير قدماً الى

أمام ، وسوف تمضى بعيداً ، فما هى الا عشر سنين اذا أنت تملك من

الملايين ما تهتز له روسيا كلها : ما حاجتك الى الاسم حينذاك ؟ ان فى وسع

المرء أن يشتري من النمسا لقب بارون • وحين تتزوج عليك أن تفرض

ارادتك • يجب على الرجل أن يعرف كيف يعامل النساء • ان المرأة

التى تحب رجلاً تريد أن يسيطر هذا الرجل عليها • المرأة تهوى فى

الرجل الصلابة • • وأنت متى أخفتها بالرسالة تكون قد برهنت لها فى

الوقت نفسه على صلابتك • ستقول : « آ آ آ » لا يزال فى ريق الشباب

ثم هو صلب العزيمة الى هذا الحد ! • •

بقيت على مقعدى كالمصعوق • ما كان لى أن أنقاد لئله هذا الحديث

الأحمق مع اى انسان اخر • ولكن لهماً لذيذا لا ادرى ما كنهه كان
يدفعنى الى اطالة الحديث • ثم ان لامير كان اشد غباء واشد حطة من
أن يخجل المرء أمامه • فلت فجأة :

- اسمع يا لامير • فل ما نشئت • ولكن كلامك زاخر بالسخافات
ولئن كنت أكلمك فلأنا رقيقان ، فليس لأحدنا أن يخجل من الآخر •
وما كان لى أن أنزل الى هذا السنوى لو كنت أكلم شخصاً آخر • ثم
ما الذى يجعلك تجزم بأنها تحبني ؟ لقد صدقت منذ قليل حين تكلمت عن
المال • ولكنك يا لامير لا تعرف المجتمع الراقى : ان كل شيء فى تلك
البيئة يخضع لتقاليد نظام الأبوة ، ويخضع لاعتبارات التمييز بين
الطبقات • وهى الآن تجهل طاقاتي ، ولا تعرف المدى الذى يمكن أن
أبلغه فى هذه الحياة ، فلا يمكن الا أن تشعر بالعار اذا هى تزوجتني •
لكننى لا أكتمك يا لامير أن هناك نقطة تبعث على الأمل هى أنها قد تتزوجنى
على سبيل الشكر والامتنان ، لأننى سأخلفها عندئذ من كره يضمرة
لها رجل تخاف منه •

- أباك تعنى ؟ هل هى تحبه اذن كثيراً ؟

ألقى لامير هذا السؤال وقد هزّه فضول شديد • هتفت أقول :

- لا ، لا • حقاً انك لفظع وغبى فى آن واحد ، يا لامير !
هل يمكن أن أريد تزوجها لو كان يحبها ؟ الابن وأبوه ! سيكون هذا
مخزياً رغم كل شيء ! ان أبى يحب ماما • لقد رأيتنه يقبلها • ما كان
أغبانى حين كنت أتصور فى الماضى أنه يحب كاترين نيقولايفنا ! صحيح
أنه كان يحبها ، ولكنه أصبح يكرها منذ مدة طويلة • انه يريد
الانتقام ، وهى خائفة • ذلك أنه رهيب اذا هو أخذ ينتقم يا لامير !
يكاد يصبح عندئذ مجنوناً • اذا غضب منها فانه يفقد صوابه فلا يتورع
عن شيء ! هذا كره من نوع الكره الذى كان ينشأ بين الأسر القديمة

ويقوم على اساس من مبادئ • الناس فى عصرنا هذا لا تقيم وزناً للمبادئ • فى عصرنا هذا لا مبادئ بل حالات خاصة • اه ••• لامير ! انك لاتفهم شيئاً • أنت غبى كقدميك • أنا أكلمك الآن عن المبادئ ، وأنت لا تفهم من أمر المبادئ شيئاً • أنت جاهل جهلاً رهيباً • هل تتذكر كيف كنت تضربنى ؟ ولكننى الآن أقوى منك • هل تعلم هذا ؟

- عزيزى آرКАДى ، لنذهب الى بيتى ! سنقضى السهرة معاً ، وستشرب زجاجة أخرى ، وستغنى لنا آلفونسين عازفةً على القيثارة •

- لا ، لن اذهب • اسمع يا لامير • أنا الى « فكرتى » • فاذا لم ينجح المشروع ولم أتزوج ، فسوف أرتد الى فكرتى • أما أنت فليس لك فكرة •

- طيب طيب • ستحدثنى عن هذا • هيأ بنا !

- لن اذهب الى بيتك !

ونهضت ، وأنا لا أزال أقول :

- لا أريد أن اذهب ، ولن اذهب • سأجىء اليك ، ولكن ما أنت الا وغد • سأعطيك ثلاثين ألفاً • ليكن • لكننى أظهر منك وأنبئ منك • أما هى ، فأننى أمنعك حتى من أن تفكر فيها : انها فوقنا جميعاً • ما خططك الا قذارات استقر بها حتى منك أنت • أريد أن أتزوج • هذه قضية أخرى • ولكننى لست فى حاجة الى ثروة • أنا أحتقر الثروة • لن أقبل ولو قدمت لى ثروتها راکمة ••• أن أتزوج ؟ هذه مسألة أخرى • ثم ••• هل تعلم ؟ صدقت حين قلت ان على الرجل أن يكون صلباً فيعرف كيف يسيطر عليهن • حسن أن يحب الرجل ، أن يحب حباً قوياً مشبوباً ، بكل ما يقدر عليه الرجل وتمعز عنه المرأة من عظمة النفس ، ولكن يجب أن يكون الرجل طاعية مستبداً • ذلك أن المرأة ،

يا لامير ، تحب الاستبداد • أنت يا لامير تعرف النساء ، ولكنك في كل ما عدا ذلك غبى غباءً يثير الدهشة • ثم هل تعلم يا لامير؟ ما أنت بالمقزز الى الحد الذى يتصوره المرء حين يراك • أنت بسيط • أحببك يا لامير • آه يا لامير ، لماذا أنت وبش؟ الحياة معك يمكن أن تكون ملأى بالفرح والمرح ! هل تعلم يا لامير؟ أنا أرى أن تريشاتوف لطيف وديع •

هذه الجمل الأخيرة المفككة التى لا يربطها رابط انما تمتتها بعد أن صرنا فى الشوارع • اتنى أتذكر أسير التفاصيل : يجب أن يرى القارئ كيف أمكنتى عندئذ أن أمقط فى مثل هذا الوحل بمثل هذه السهولة بعد كل ما شبَّ فى نفسى من حماسة ، وكل ما حلفته من أيمان ، وكل ما قطعته من عهود لأرجع الى الخير وأبحث عن الجمال • قسماً ما كنت لأعترف بهذه المخازى على أية حال من الأحوال ، على أية حال من الأحوال ، لولا اقتناعى الكامل التام بأن الحياة قد أحالتنى انسانا آخر تعلم الحياة العملية وتعودها •

كنا قد خرجنا من الدكان ، وكان لامير يسندنى محيطاً بذراعه قامتى • ورفعت اليه بصرى فجأة ، قرأيت فى نظرتة الثابتة المنفحصة اليقظة المختلصة ذلك التعبير نفسه الذى رأيت فيه يوم كنت متجلداً من البرد عند الصباح ، فقادنى محيطاً بذراعه قامتى ، على هذه الصورة تماماً ، الى أن أوصلنى الى عربة ركبها ، وكان يصنئ بأذنيه وعينه جميعاً الى تمتاتى المفككة التى لا يربطها رابط • ان الأشخاص الذين أتملهم الشراب ولكنهم لم يسكروا سكرآ تاماً ، توافيهم على حين فجأة لحظات صحو كامل •

قلت له بصلاية وأنا ألقى عليه نظرة ساخرة وأدفع ذراعه عنى :

- لن أصحبك الى بيتك بحال من الأحوال !

- طيب طيب • سامر آلفونسين بأن تهيب ، لنا شايًا •

كان مقتماً أعمق الاقتناع بأننى لن أفلت منه • وكان يحيطنى
بذراعه ويسندنى مقتباً أعظم الاغتباط ، لأنه أطبق على فريسته • لقد
كان محتاجاً الىّ فى ذلك المساء ذاته ، وأنا على هذه الحال نفسها •
وسترون سبب ذلك فيما بعد •

كررت أقول :

- لن أذهب معك ! يا حوذى !

وكانت زلاجة تمر فى تلك اللحظة نفسها فوثبت وصرت فيها •
فزأر لامبير خائفاً خوفاً رهيباً وهو يشدنى من معطفى :

- الى أين تذهب ؟ ما هذا الذى تفعل ؟

فصحت أقول له :

- ولا تحاول أن تتبعنى ، لا تجر ورائى !

وضرب الحوذى حصانه بسوطه ، فسارت العربية ، وأفلت معطفى
من يدى لامبير • فصرخ لامبير ورائى يقول بصوت خبيث :

- سيان ! لسوف تجىء !

- أجبىء اذا أردت •

كذلك أجبته من العربية وأنا التفت اليه •

لم يلاحقنى ، ويرجع ذلك فى أغلب الظن أنه لم يقع على عربة فوراً ، فاستطعت أن أفلت منه . ولكن ما ان وصلت الى « سوق العلف » حتى نزلت من العربة وصرفتها . كان بى شوق جنونى الى المشى . لم أكن أشعر لا بتعب ولا بسكر شديد . وانما كنت أشعر بنوع من نشاط الهمة وفيض القوة ، وبقدرة خارقة على القيام بأى عمل ، وبأفكار لذينة لا نهاية لها تزدهم فى رأسى .

وكان قلبى يخفق خفقاناً قوياً ، حتى لقد كنت أسمع كل دقة من دقاته . وكان كل شىء فى نظرى فاتناً وسهلاً . فلما وصلت الى أول مخفر بسوق العلف شبت فى نفسى رغبة قوية فى أن أمضى الى الخفير فأعاقته وأقبله . وكان الجليد يذوب ، وكان الميدان مظلماً ، وكانت تفوح فيه روائح كريهة ؛ غير أن كل شىء كان يمجبنى ، حتى هذا الميدان .

قلت لنفسى : « سأسير الآن فى شارع أوبوخوف ، ثم التفت يسرةً فأمشى فى شارع سيمينوفسكى ، فأكون قد درت دورة . هذا لذيد . وكانت أضرار معطفى محلولة : لا أحد يشد معطفى . أين هم اللصوص اذن ؟ يقال ان فى « ميدان العلف » لصوصاً . فما بالهم لا يتقدمون منى ! قد أعطيتهم معطفى . ما حاجتى اليه ؟ المعطف تملك . و « كل تملك سرقة » . ولكن كفى بلاهة ! ما أجمل كل شىء ! ما أحلى أن يذوب الجليد . علام الجليد ؟ ما ينبغي أن يكون جليد . ما أحسن

ان يقول المرء سخافات . عجيب ، ماذا قلت للامير عن المبادئ ؟ قلت انه لا مبادئ بل حالات خاصة . كذبت . كذبت أكبر الكذب . كذبت متممدا ، لادهشه واذهله . هذا عيب ، هذا خزي ، ولكن لا ضير . سأصلح الامر . لا تشعر بعار يا آرКАДى ماكاروفتش ، لا تعذب نفسك ! انك تعجبنى يا آرКАДى ماكاروفتش ، بل انك تعجبنى كثيراً يا صديقى الشاب . خسارة أن تكون وغداً صغيراً . . . و . . . آه . آه . . .

وقفت فجأة وانتشى قلبى من جديد .

• ربه ! ماذا قال ؟ قال انها تعجبنى ! يا للسافل ! لقد كذب . قال ذلك لأصحبه فأقضى الليلة عنده . ولكن قد أكون مخطئاً . قال ان أنا آندريفنا نعتقد بهذا هي أيضاً . . . هي . هي ! لعل داريا أو نيسيموفنا استطاعت أن تعرف شيئاً : انها تحشر أنفسها فى كل مكان . ثم لماذا لم أصحبه الى بيته ؟ لو صحبته لكان يمكن أن يحكى لى كل شيء . هم . . ان له خطته . أوجست هذا وتبأت بجميع تفاصيله . حلم . انك قد أجدت تصور خطتك يا مسيو لامير . ولكنك تكذب . لن تجرى الأمور هذا المجرى . ولكن قد تجرى هذا المجرى ! قد تجرى ! هل هو يعجز عن تزويجى ؟ انه قادر على هذا قدرة تامة . هو ساذج وهو يصدق . هو غبى وجرى ، كجميع رجال الأعمال . اجتماع النباء والجسارة قوة كبيرة . اعترف يا آرКАДى ايفانوفتش ، اعترف أنك خفت من لامير ! وما حاجته الى رجال شرفاء ؟ انه قال هذا الكلام جاداً : ما من رجل شريف هنا ! ولكن ماذا أنت ؟ هو ! ما هذا الذى أقوله ؟ أليس الأوغاد فى حاجة الى شرفاء ؟ ان الحاجة الى الشرفاء هي فى الأعمال السافلة أشد منها فى أى مجال آخر . هاهاها ! كنت لا تعرف هذا بعد ، يا آرКАДى ماكاروفتش ، من شدة براءتك ! يا رب ! ماذا لو زوجنى حقاً !

وتوقفت مرةً أخرى • يجب ان اعترف هنا بأمر سخيف
(مادام هذا الامر يرجع عهده الى زمان بعيد) ، يجب ان اعترف باننى
كنت منذ مدة طويلة أريد أن أتزوج • بل قل اننى كنت لا أريد هذا ،
وما كان لهذا أن يحدث (وهو لن يحدث أبداً ، أقسم على ذلك
بشرفى) ، لكننى كنت قد حملت بالزواج مراراً كثيرة ، خلال مدة
طويلة ، قلت لنفسى عدداً لانهاية له من المرات : ما أحلى أن أتزوج !
وكان يحدث لى هذا كل مساء حين أستلقى فى فراشى لأنام • بدأ ذلك
عندى وأنا فى السادسة عشرة من العمر • كان لى فى المدرسة الثانويه
رفيق اسمه لافروفسكى • هو فى لطيف جداً ، وهادىء ، وجميل •
ولكن هذه مزاياه كلها لا ميزة له غيرها • كنت لا أكاد أكلمه أبداً • ثم
اذا نحن نجد نفسينا فى ذات يوم وحيدين ، قد جلس كل منا بجانب
الأخر • كان غارقاً فى التفكير • وها هو ذا يقول لى فجأة : « آه
يا دولجوروكى ! ما رأيك ؟ ليتنا نتزوج ! ومتى نتزوج اذا لم نتزوج
الآن؟ هذه أصلح فترات العمر للزواج • ومع ذلك يستحيل الزواج » •
قال ما قاله صادقاً مخلصاً • فشعرت باننى أوافقه على رأيه بكل
نفسى ، لأننى كنت أحلم هذا الحلم من قبل • والتقىنا بعد ذلك عدة
مرات متتالية ، فكنا نتكلم فى هذا الأمر دائماً ، متخفين متكتمين • وبعد
ذلك انفصلنا ، لا أدرى لماذا ، وانقطعنا عن التخاطب • فى ذلك الحين
اذن انما أخذت أحلم بالزواج • ولكن علام أذكر كل شىء ؟ اننى
ما تحدثت عن تلك الفترة الا لأبين كيف أن الأمور يرجع عهدها فى
بعض الأحيان الى زمان بعيد •••

قلت لنفسى وأنا استمر فى المشى : « ليس هناك الا اعتراض هام
واحد : ان فرقاً طفيفاً فى السن لن يكون عقبةً ، ولكن هى ارسنقرالمية ،
وأنا دولجوروكى فحسب ! هذا سىء جداً ! هم ••• يستطيع فرسيانوف

إذا تزوج ماما أن يطلب من الحكومة موافقتها على أن يتبنانى ... مكافأة
للأب على خدماته . لقد خدم فى الوظيفة . فله اذن خدمات . كان
وسيط صلح . آه ... ما هذه الدنائة التى أنشط اليها ! .

هتفت هذا الهمتاف ، ووقفت مرةً نائلةً على حين فجأة ، لكننى فى
هذه المرة كنت كمن سحق فى مكانه سحقاً . أحسست بمذلة أليمة من
هذه الفكرة التى أمكن أن تخطر ببالى وهى أن أغير اسمى بالتبنى
فأخون كل طفولتى . وبدد هذا كل ما كنت أحسه من بهجة ، وطار
فرحى دخاناً . قلت محدثاً نفسى وأنا أحمر احمراراً فظيماً : « لن ، لن
أفضى بهذا الى أحد ، ولئن انحططت الى هذه الدنائة كلها ، فذلك ...
فذلك لأننى عاشق وغيبى . لا ، اذا صدق لاميير فى أمر ، فقد صدق
حين قال ان المرء فى هذا الزمان لا يحتاج الى هذه السخافات ، وان
الشيء الأساسى فى عصرنا انما هو الشخص ثم ماله . بل الشخص ثم
قوته لا ماله . اننى أستطيع بهذه الثروة أن أنطلق فى تحقيق « فكرتى » ،
فما هى الا عشر سنين حتى يترجع ذكر اسمى فى روسيا كلها ، وأتقم
من الجميع . ولا حاجة بى معها الى هذا الاحتفال كله ! هنا صدق لاميير
أيضاً : لسوف تخاف فتزوجنى . الأمر بسيط . سوف توافق ببساطة
تامة ، على أتفه نحو . وتذكرت أقوال لاميير : « انك لا تعرف فى أى
ماخورد تمّ هذا » ، فقلت أحدث نفسى مؤيداً كلام لاميير : « صحيح .
ان لاميير على حق فى جميع النقاط . هو أصدق رأياً منى ألف مرة ،
وأصدق رأياً من فرسيلوف ، ومن سائر هؤلاء المثالين ! انه رجل
واقعى . سوف ترى أن لى ارادة صلبة . وسوف تقول : ان له ارادة
صلبة . » لاميير وغند . وهو لا يفكر الا فى أن يحصل منى على
ثلاثين ألفاً . ولكنه صديقى الوحيد ، رغم كل شيء . ما من صداقة
أخرى ممكنة . ان الذين تخيلوا هذا أناس عمليون . وأنا لا أذلها هى .

هل أنا اذلها؟ ابداً • النساء جميعاً سواء • هل فى الدنيا كلها امرأة غير دينية؟ لهذا هن فى حاجة الى الرجل • لقد خلقن عييداً • المرأة رذيله وفضيحة ، والرجل نبل وكرم • وستبقى الحال على هذا المنوال الى اخر الدهر • اننى أفكر فى استغلال الوثيقة : أى ضمير فى هذا؟ هذا لا ينفى النبل ولا الكرم • ليس فى هذه الحياة سيللر كامل لا تشوبه شائبة • تلك صورة لفقها الخيال • لا قيمة للوسيلة الدينية اذا كانت الغاية نبيلة • ثم 'يفسل كل شيء فلا يبقى أثر من وساخة • هذه رحابة الفكر ، هذه هى الحياة ، هذه هى الحقيقة العملية • كذلك يجب أن تسمى الأمور اليوم ! •

أعود فأستغفر القارئ عن ذكر كل هذا الهذيان الذى دار فى رأس سكران ، استغفره عن ذكره كاملاً لم أسقط منه شيئاً • ان ما ذكرته هو زبدة الأفكار التى تلاحقت فى رأسى آنذاك ، لكننى أظن مع ذلك أننى استعملت هذه العبارات نفسها • وكان لا بد لى أن أتقلها الآن ما دمت أكتب لأحكم على نفسى • والا لم يبق ما أحكم عليه • هل فى الحياة ماهو أخطر من هذا؟ وليست الحمر بمرر • فقديماً قال المثل اللاتينى :
« الحمر تكشف » •

وفىما كنت مسترسلاً فى هذه الأحلام غارقاً فى هذه الأخيلة ، لاحظت أننى قد وصلت الى البيت ، أعنى بيت أمى • حتى أننى لم ألاحظ كيف دخلت • ولكن ما ان وضعت قدمى فى حجرة المدخل الصغيرة حتى أدركت فوراً أن شيئاً خارقاً قد حدث • ففى الغرف 'يسمع كلام و'يطلق صراخ ، وأمى تبكى • وكادت لو كيريا أن تقلبنى وهى تمر كالاعصار من غرفة ماكار ايفانوفتش الى المطبخ • فخلعت معطفى ، ودخلت غرفة ماكار ايفانوفتش لأن الجميع كانوا محتشدين فيها •

كان فى الغرفة فرسيلوف وأمى • وكانت أمى متهاككة على ذراعى

فرسيلوف ، وكان فرسيلوف يشدها الى صدره شداً قوياً . وكان
ماكآر ايفانوفتش جالسا على المقعد كما دته ، لكنه يبدو منها را لا قوة له .
فكانت ليزا تسند كفه بمشقة كبيرة لتمنعه من السقوط . وكان واضحاً
أنه يوشك فى كل لحظة أن يسقط . فلما تقدمت نحوه بخطوة سريعة ،
ارتعدت وأدركت كل شىء : كان الشيخ ميتاً .

لقد مات منذ قليل ، ربما قبل وصولى بدقة واحدة . كان قبل
عشر دقائق لا يحس بأى تغير فى حالته . ولم يكن عنده الا ليزا . كانت
جالسةً بجانبه تحدته عن حزنها وتفضى اليه بأشجانها ، وكان هو
يلعب رأسها كما فعل بالأمس . ثم اذا هو يرتجف على حين فجأة
(هذا ما روته ليزا) ، وقد أراد أن ينهض ، وأراد أن يصرخ ، لكنه
لم يلبث أن سقط على جنبه الأيسر صامتاً . قال فرسيلوف : « هو القلب ! » .
وصرخت ليزا صرخة قوية جعلت كل من فى البيت يهبون واقفين ،
وهرع الجميع . حدث هذا كله ربما قبل وصولى بدقة واحدة !

صرخ فرسيلوف يقول لى :

- آر كادى ! اركض فوراً الى تاتيانا بافلوفنا ! هى الآن فى بيتها
حتماً . فقل لها أن تأتى فوراً . اركب عربة . أسرع ، أرجوك .

كانت عيناه تسطعان ، أتذكر هذا تذكراً واضحاً . لم ألاحظ فى
وجهه شيئاً مما يشبه أن يكون حسرة واضحة أو دموعاً . ان أمى و ليزا
ولو كيريا هن اللواتى كن يبكين . بل انى لأذكر ذكراً واضحاً أن ما فجا
بصرى فى وجهه انما هو احتياج شديد ، نوع من حماسة . وركضت
منجهاً الى بيت تاتيانا بافلوفنا .

ليس الطريق طويلاً . تعلمون هذا مما سلف . لم أركب عربة ،
وانما اجتزت المسافة راكضاً بغير توقف . كنت مضطرب الفكر ، حتى

لأكاد أكون متحمساً أنا أيضاً • لقد أدركت أن حادثاً له شأن خطير قد وقع • فلما وصلت الى بيت تاتيانا بافلوفنا ، كان سكرى قد تبدد تماما ، وتبددت معه جميع تلك الأفكار الدنيئة •

فتحت الفنلندية الباب وقالت : « السيدة خرجت ! » ، وهمت أن تغلق ثانية •

فقلت وأنا أقتحم الباب الى حجرة المدخل اقتحاماً :

- خرجت ؟ كيف ؟ مستحيل • مات ماكار ايفانوفتش !

فاذا بصوت تاتيانا بافلوفنا يدوي من خلال باب صالونها المغلق :

- ما ... ذا ؟

مات ! ماكار ايفانوفتش ما مات ! يرجوك آندره بتروفتش أن

تجيئي حالا •

- كذاب !

وصرّ المزلاج ، ولكن الباب لم يفتح فتحاً وانما شقّ بمقدار

اصبع :

- « ماذا حدث ؟ قل ! » •

- لا أدري • وصلت الى البيت فوجدت ماكار ايفانوفتش ميتاً •

آندره بتروفتش يقول : « هو القلب ! » •

- حالا ، حالا ! اركض • قل اني آتية فوراً • هيا اذهب •

ما بالك لا تذهب ! ماذا ؟ ما بقاؤك واقفاً هنا ؟

لقد رأيت رؤية واضحة ، من خلال الباب المشقوق ، ان أحداً

خرج من وراء الستارة التي تحجب سرير تاتيانا بافلوفنا ، وتسمّر في

قرارة العرفة ، وراء تاتيانا بافلوفنا ، فوجدتني أضغ يدي على المزلاج

ألياً ، غريزياً ، بحيث لا يمكن اغلاق الباب ثانية •

– آرکادی ایفانوفتش ! هل صحيح أنه مات ؟

انه صوت أعرفه ، صوت رقيق عذب متسق ، يرن رنين المعدن ،
هزاً أعماق نفسى منذ سمعته • وكان سؤالها يختلج بعاطفة وتأثر •

قالت تاتيانا فافلوفنا وهي تترك الباب فجأة :

– اذا كان الأمر كذلك ، فدبرا أمركما بنفسكما كما تريدان •
أنت التي أردت هذا !

وولت مسرعة تختطف شالاً ومعطفاً قصيراً ، وتهرع الى السلم •
وبقيتا وحيدتين • نضوت عنى معطفي ، وتقدمت خطوة ، وأغلقت
الباب •

كانت واقفةً أمامي كما حدث في لقائنا السابق ، مشرقة المحيا ،
واضححة النظرة • وكما في المرة الماضية مدت اليّ كلتا يديها • وكأن
منجلاً قطع ساقىّ ، فاذا أنا أهوى على قدميها •

أخذت أبكى ، لا أدري لماذا . لقد نسيت الآن كيف أجلسنتى بجانبها . ولكننى - وهذه ذكرى ثمينة - رأيتنا جالسين جنباً الى جنب ، قد أمسك كل منا يد الآخر ، واندفعنا فى حديث سريع . سألتنى عن الشيخ وعن موته ، فحكيت لهما ما أعرف ، فلو رأتى أحد أثناء ذلك لظننى أبكى على ماكار ايفانوفتش ، ولكن ذلك ذروة السخافة . وأنا أعلم على كل حال أنها لا يمكن أن تفترض فى بلاهة كهذه البلاهة الصيانية . وثبت الى نفسى أخيراً على حين فجأة ، وشعرت بخزى وعار . أفترض الآن اننى انما بكيت حينذاك من فرط الحماسة ، وأظن أنها أدركت ذلك فوراً ، فأنا من هذه الناحية مطمئن .

وبدا لى فجأة أن من المستغرب جداً أن تسألنى بمثل هذا الالحاح عن ماكار ايفانوفتش . فسألته مدهوشاً :

- هل تعرفينه ؟

فأجابت :

- منذ مدة طويلة . اننى لم أره يوماً . ولكنه لعب فى حياتى دوراً . سمعت عنه أشياء كثيرة فى الماضى من الرجل الذى أخشاه . تعرف من أعنى .

- أعرف الآن أن « ذلك الرجل » كان أقرب الى نفسك كثيراً
مما أظهرت .

قلت لها ذلك وأنا لا أدري ما الذى أردت أن أعبرَ عنه ، ولكننى
قلته مؤاخذاً مقطب الجبين .

تابعت مساءلتى فقالت دون أن تصنى الى كلامى :

- تقول انك رأيتَه يقبَلُ ماما منذ قليل ؟ قبَلها ؟ رأيتَه بمينيك ؟

فأسرعت أجيب مؤكداً ، وقد رأيت كيف تهلل وجهها فرحاً :

- نعم رأيتَه . وصدقتى أن ذلك كله كان صادقاً كل الصدق
كريمياً كل الكرم .

قالت وهى ترسم اشارة الصليب :

- الحمد لله . الآن تحلل من أغلاله . كان هذا الشيخ يكبل
حياة آندره بتروفنش بالأصفاد . ولسوف ينبعث الشعور بالواجب
والشعور بالكرامة فى نفسه من جديد ، كما حدث هذا مرةً من قبل .
ذلك أنه رجل كريم قبل كل شيء . وسوف يهدى قلب ماما التى يجبها
أكثر مما يجب أى شيء فى هذه الحياة ، وسيهدأ هو نفسه أخيراً .
الحمد لله . أن الأوان .

- هل هو عزيز عليك ؟

- نعم ، عزيز جداً ، ولكن ليس بالمعنى الذى يريده هو
وتقصده أنت .

سألتها فجأة :

- ولكن الآن ، أأنت خائفة على نفسك أم خائفة عليه ؟

- هذه أسئلة صعبة . لنتركها !

- لتركها ، نعم • ولكننى كنت لا أعرف من هذا كله شيئاً ، ولعل
هناك أموراً كثيرة أخرى أجهلها كل الجهل • مهما يكن من أمر ، أنت
على حق • لقد تبدل الآن كل شيء ، وإذا كان أحد قد بُعثَ بعثاً جديداً
فهو أنا • لقد انحططت بتصوراتى وأفكارى انحطاطاً شديداً تجاهك
يا كاترين نيقولايفنا ؟ ولعلنى ، منذ ساعة لا أكثر ، قد ارتكبت عملاً
دينياً فى حقك • ولكن اعلمى أننى الآن ، وأنا جالس بجانبك ،
لا أحس بشيء من عذاب الضمير • ذلك أن كل شيء قد زال ، ذلك
أن كل شيء قد تبدل ؟ والرجل الذى كان منذ ساعة يضمرك لك شراً
أنا لا أعرفه ، ولا أريد أن أعرفه •

ابتسمت وقالت :

- آفق° • لكأنك تهذى قليلاً •

تابعت كلامى قائلاً :

- وهل يستطيع المرء أن يحكم على نفسه حين يكون معك ؟ سواء
أكان حقيراً أم كان شريفاً فانك تظلين كالشمس لا يمكن الوصول
إليك • ولكن ليتك تعرفين ماذا حدث منذ ساعة ، منذ ساعة لا أكثر •
يا للحلم الذى كان بصدد التحقق !

قالت وهى تبسم ابتسامة رقيقة عذبة :

- أظن أننى أعرف كل شيء • لقد أردت منذ قليل أن تنتقم منى ،
وحلفت لتضيئنى • ولا شك مع ذلك فى أنك لو سمعت أحداً يتجرأ
فيقول كلمة سوء فى حقى أمامك لقتلته أو لألحقت به أذى •

صحيح أنها ابتسمت وكانت تمزح • ولكن مرددً ذلك الى طيبة
قلبها ، فقد عرفت فيما بعد أنها فى تلك اللحظة كانت نفسها كلها مترعة
بهم شخصى ضخيم وب عاطفة تبلغ من القوة والصرامة أنها كانت لا تتحدث

معى ولا تجيب عن أسئلتى الجوفاء المحنقة الا كما يجيب المرء فى بعض الأحيان عن أسئلة سخيطة يصرُّ طفل صغير على القائها اصراراً عنيداً ، فهو يجيب عنها ليتخلص ويرتاح • وقد أدركت ذلك فجأة ، فسمعت بخجل وخزى ، ولكننى كنت لا أستطيع أن أتوقف •

هتفت أقول وقد فقدت سيطرتى على نفسى :

- لا ، لم أقتل الشخص الذى قال فى حقك سوءاً ، بل أيديته وشجته !

- أرجوك ، ناشدتك الله ، لا تفحص على شيئاً ، لا فائدة فى هذا ، لا يجب هذا •

ومدّت يدها لوقفى عن الكلام ، حتى لقد ظهر فى وجهها ألم • ولكننى كنت قد وثبت ووقفت أمامها لأروى لها كل شيء • ولو قد فعلت لما حدث ما حدث بعد ذلك • لأننى كنت سأنتهى حتماً الى الاعتراف لها بكل شيء ، والى تسليمها الوثيقة • ولكنها انفجرت تضحك على حين فجأة قائلة :

- لا داعى الى الكلام • ما أنا فى حاجة الى شيء • دعك من التفاصيل ! جرائمك كلها ، أنا أعرفها • أراهن أنك أردت أن تتزوجنى ، أو أردت شيئاً من هذا القبيل ، وأنت قد توأطأت منذ قليل مع واحد من أعوانك ، هو رفيق من رفاقك القدامى فى المدرسة ••• أظن أننى حذرت !

بهذا هتفت وهى تحدِّق الى •

فقلت لها متمماً كما يتمم أبله ، وقد اعترانى شدة وذهول :

- كيف ••• كيف أمكنك أن تحزرى ؟

- أين الصعوبة في هذا؟ ولكن كفى كفى ! انى أغفر لك ، ولكن
كفَّ عن الكلام في هذا الأمر •

حتى لقد حرَّكت يدها بإشارة تنم عن شدة التملعل • وأردفت
تقول :

- أنا أيضاً أحب أن أحلم • ليتك تعلم الأساليب التي أُلجأ إليها
في أحلامي ، حين لا يصدنى شيء ! كفى ! انك لا تزيد على أن تبث
الاضطراب في نفسى • يسرنى جداً أن تاتيانا بأفلوفنا خرجت • كنت
أريد كثيراً أن أراك ، فلو بقيتُ لما استطنا أن نتكلم كما نتكلم الآن •
أظن أنني مذنبه في حقك ، مسئولة عما وقع لك حينذاك • أليس
كذلك ؟

- أنت ؟ مذنبه ؟ ولكننى أنا الذى أسلمتكَ « اليه » • ترى ما عساك
قلت عنى ؟ لقد ظللت أفكر في هذا الأمر طول الوقت ، في جميع هذه
الأيام ، كل لحظة ، أفكر فيه وأحس به •

لم أكذب عليها • قالت :

- أخطأت اذ عدَّبت نفسك هذا التعذيب • لقد أدركتُ أنا على
الفور كيف حدث كل شيء • لقد كشفت له ، بكل بساطة ، وأنت
في غمرة الفرح ، أنك تحببني و ... أنني ، وأنتى كنت أدع لك
أن تتكلم وأصغى اليك • ذلك أنك لم تتجاوز من عمرك العشرين •
أنت تحبه أكثر مما تحب الكون بأسره ، وتبحث فيه عن صديق ، عن
مثل أعلى ، وقد أدركتُ أنا هذا حق الإدراك • ولكن بعد فوات
الأوان • صحيح أنني أخطأت أنا أيضاً ، لا شك في هذا ، لكننى كنت
معتكرة المزاج مكفهرة النفس ، فأمرت بالألا تقبل في البيت بعد
ذلك • وعندئذ انما وقع ذلك المشهد أمام الباب ، ثم كانت تلك الليلة •

اعلم اننى طول هذا الوقت كنت أحلم ، مثلك ، بأن أراك خفية ، لكننى كنت لا أعرف السبيل الى تحقيق هذه الأمنية . وما الذى كنت أخشاه أكثر من أى شىء آخر فيما تظن ؟ لقد كنت أخشى أن تصدق نمانمه عنى وأقويله فى حقى .

هتفت أقول :

— أبداً !

— اننى أقدّر لقاءاتنا الماضية . وما أحبه فىك هو الفتى المراهق ، وربما هذا الصدق أيضاً . . . ذلك أن لى طبعاً يتصف بالجد . أعلم اننى بين نساء عصرى أكثرهن صرامة وجرأ . ها ها ها ! لسوف يتاح لنا أن نتحدث كثيراً ، أما الآن فلست هادئة النفس مطمئنة البال . اننى الآن منفعة انفعالاً شديداً . . . بل اننى فى حالة هستريا . ولكن ، أخيراً ، أخيراً ، سوف يتركى وشأنى أعيش فى سلام !

أفلتت منها هذه الجملة الأخيرة بغير ارادة . وقد فهمتها أنا فوراً ولم أشأ أن أتلبث عليها . لكننى كنت أرتجف ارتجافاً شديداً .

ثم عادت تهتف من جديد كأنها تحدث نفسها :

— هو يعلم اننى غفرت له !

فلم أنمالك نفسى فهتفت أسألها :

— كيف أمكنتك أن تغفرى له تلك الرسالة . وكيف يستطيع أن يعرف هو أنك غفرت له ؟

فتابعت كلامها تجيبنى ، ولكن كأنها لاتخاطبنى وانما هى تحدث نفسها :

— انه يعرف ! لقد استرد صوابه الآن . كيف لا يدرك اننى

غفرت له وهو يعرف نفسى كلها على ظهر القلب ؟ انه ليعلم حق العلم
أنتى من نوعه تقريباً •

- أنت ؟

- نعم ، وهو يعرف ذلك • أنا لست مشبوبة العاطفة بل هادئة ،
لكننى أنا أيضاً أحب أن يكون جميع الناس أختياراً طيبين ••• ليس
عبثاً أنه افتتن بى حباً !

- فلماذا قال اذن انك تصفين بجميع العيوب والنقائص ؟

- قال هذا كلاماً لا أكثر • أما رأيه الذى يكتمه سراً فى قرارة
نفسه فيختلف عن هذا الكلام كل الاختلاف • ولكن أليس صحيحاً
أن رسالته كانت مضحكة ؟

- مضحكة ؟

كنت أصغى اليها بكل ما أملك من قوة الانتباه • وأظن أنها كانت
تعانى نوبة هستيريا حقاً ، و ••• أنها ربما كانت لا تتكلم من أجل
أنا أبدأ • ولكننى لم أستطع أن أمسك عن مسألتها • قالت :

- مضحكة قطعاً • ولشدها كان يمكن أن أضحك لولا ••• لولا
أنتى كنت خائفةً خوفاً شديداً • لست مع ذلك جبانة • لا يذهبن بك
الظن الى أنتى جبانة • لكن رسالته قد حرمتنى من النوم تلك الليلة •
لكأنها كتبت بدم ، بدم رجل مريض • ماذا يبقى للمرء أن يفعل بعد
رسالة كذلك الرسالة ؟ أنتى أحب الحياة ، وأخاف على حياتى كثيراً •
فى هذه النقطة أنا جبانة حقاً •

وهتفت فجأة تقول :

- اذهب اليه • هو الآن وحيد • أغلب الظن أنه لم يبق هناك •
لابد أنه مضى الى مكان آخر • فأدركه بأقصى سرعة ، يجب أن تدركه ،

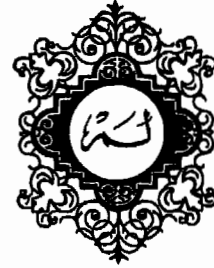
اركض اليه ، وأظهر له انك ابنه المحب ، وبرهن له على أنك فتى
طيب لطيف ، يا عزيزي الطالب ، وعلى أنسى .. لا .. انتى أسأل الله
أن يهب لك السعادة * أنا لا أحب أحدا ، ذلك أفضل ، ولكننى أتمنى
السعادة للجميع ، للجميع ، وأتسناها له قبل أى انسان آخره . ألا فليعرف
هذا ... فيعرفه حالاً * سيسرُّه كثيراً أن يعرف ...

ونهبضت ، واختفت فجأة وراء الستارة * كانت دموع تلتمع فى
وجهها حينذاك (دموع هسترية بعد الضحك) * بقيت وحيداً ،
مضطرباً * كنت لا أعرف حقاً الى أى سىء يجب أن أعزو مثل هذا
الانفعال الشديد الذى ما كان لى أن أفترضه فيها * وانقبض صدرى *

اتنظرت خمس دقائق ، ثم عشراً * وأدهشنى الصمت العميق
فجأةً ، فقررت أن أنظر من الباب وأن أنادى * فلما ناديت ظهرت لى
ماريا فأعلنت لى بلهجة هادئة ، أن مولاتها ارتدت ثيابها منذ مدة طويلة ،
وغادرت البيت خارجة من سلم الحدم *

الفصل السابع

١



يكن ينقصني الا هذا • تناولت معطفي ، ولبسته
بسرعة ، وهرعت أخرج وأنا أتساءل : « انها
تسريرد أن أذهب اليه ، فأين يمكنكى أن
أجده ؟ » •

غير أن هناك ، عدا هذا كله ، سؤالاً كان يحيرني : « لماذا
تتصور أن الزمان قد تبدل الآن ، وأنه سيدعها وشأنها تعيش في سلام ؟
لأنه سيتزوج ماما قطعاً • ولكن ما علاقتها هي بهذا ؟ أيبهجها أن يتزوج
ماما أم يشقيها ؟ أليس هذا هو ما يجعلها في حالة هستريا ؟ ما أعجزني
عن حل هذه المشكلة ! » •

انني اسجل هذا الحاطر الثاني الذي لمع في ذهني سريعاً كالبرق ،
أسجله للتذكرة • ان له شأناً كبيراً • كان ذلك المساء حاسماً • ان المرء
مضطر أن يصدق أخيراً بالقدر : فانتي ما ان قطعت مائة خطوة متجهاً الى
بيت ماما ، حتى اصطدمت بالرجل الذي كنت أبحث عنه • وضع يده على
كففي ووقف ، وهفت يقول فرحاً مدهوشاً في آن واحد :

- أنت ؟

وأضاف مسرعاً في الكلام :

- تصور أنتى ذهبت الى بيتك ساعياً اليك ، وسألت عنك : أنت وحدك من أحتاج اليه الآن فى الكون كله ! لا أدري بماذا أجبني صاحبك الموظف ، مؤجر بيتك ، لقد طفق يقول أشياء كثيرة المهم أنك لم تكن هناك ، فانصرفت من عنده ، ناسياً حتى أن أطلب منه ابلاغك أن تجىء الى فوراً . وفيما أنا أمشى راجعاً ، كنت مقتنعاً اقتناعاً لا يتزعزع بأن القدر لا يمكن الا أن يضعك فى طريقى فى هذا الوقت الذى أحتاج فيه اليك هذا الاحتياج الشديد كله . فكنت أول شخص ألقاه . هلم بنا الى بيتى . انك لم تزرني حتى الآن فى يوم من الأيام

الخلاصة أن كلاً منا كان يسعى الى الآخر ويبحث عنه ، فوقعت لنا كلينا مصادفة واحدة . وحثتنا الخطى . فى الطريق لم يوجّه الىّ الا بضع جمل قصيرة : انه ترك ماما مع تاتيانا بافلوفنا ، النخ النخ . وكان يقودني ممسكاً ذراعى . لم يكن بيته بعيداً ، فسرعان ما وصلنا . لم أزره قبل اليوم فعلاً . هو بيت صغير من ثلاث غرف استأجره (بل قل استأجرته تاتيانا بافلوفنا) لسكنى « الطفل الرضيع » ، لا أكثر . وقد كانت تاتيانا بافلوفنا هى التى تشرف على البيت مع خادم للطفل (هى الآن داريا أونيسيوفنا) . ولكن البيت كان يضم غرفة لفرسيلوف هى الغرفة الأولى التى تقع على يمينك حين تدخل . انها غرفة واسعة حسنة الأثاث ، هى نوع من حجرة للقراءة والعمل . فعلى المائدة وفى الحزاة وفوق الرفوف ، يرى المرء كتباً كثيرة (كان مسكن ماما يكاد يخلو من الكتب خلواً تاماً) ، وأوراقاً فيها كتابة ، وحزم رسائل . الخلاصة أن هذا كله يشير الى أن المكان ركن مسكون منذ مدة طويلة ، وكنت أعرف أن فرسيلوف كان ينتقل الى هذا البيت من وقت الى آخر (ولو نادراً) ، فيمكث فيه مدداً تبلغ عدة أسابيع فى بعض الأحيان .

ان أول شيء لفت انتباهى صورة فوتوغرافية لماما معلقة فوق المكتب

ضمن اطار رائع من خشب محفور • واضح أن الصورة قد أخذت لها فى الخارج ، وانها بحكم كبرها النادر شئ شمين • لم أكن أعرف هذه الصورة قبل الان ، ولا سمعت عنها • غير أن ما خطف بصرى خاصة هو شبهها الكبير بماما • انه شبه روحى ان صح التعبير : لكانها صورة رسمتها يد فنان صناع ، ولم يلتقطها جهاز آلى • فما ان دخلت حتى رأيتنى أفق أمام الصورة جامداً رغم ارادتى •

قال فرسيلوف :

- أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

كان يريد أن يقول : « أليست تشبهها حقاً ؟ » • فالتفت اليه ، ففجأنى تعبير وجهه • كان ساحب اللون قليلاً ، غير أن نظرتة المشدودة الحارة كانت تسطع سعادةً وقوة : لم أعهد فى وجهه مثل هذا التعبير قبل الآن •

قلت متحمساً على حين فجأة :

- ما كنت أعرف أنك أحببت ماما هذا الحب كله !

فابتسم ابتسامة سعيدة ، فيها مع ذلك ألم ، أو قل فيها عاطفة انسانيه أعلى ••• لا أعرف كيف أعبر ! ولكن يبدو لى أن الانسان حين يكون على جانب كبير من الثقافة ، لا يستطيع أن يعبر وجهه عن سعادة منتصرة ظافرة • وهاهو ذا ، بدون أن يجينى ، يرفع الصورة بكلتا يديه ، فيقربها منه ، ويقبّلها ، ثم يعود فيعلقها بالحائط • قال :

- لاحظ أن الصور الفوتوغرافية يندر أن تشتمل على سببه • وسبب ذلك واضح : فالأصل ، أعنى كل واحد منا ، يندر أن يشبه نفسه • هناك لحظات نادرة يعبّر فيها الوجه عن السمة الأساسية فى الانسان وعن فكره الذى يميزه • ان الفنان يدرس الوجه ، فيدرك

ذلك الفكر الأساسي ، حتى حين لا يكون ذلك الفكر بارزا في الوجه
اثناء الرسم . اما الفوتوغرافيا فانها تفاجئ الشخص كما هو في اللحظة التي
تلتقط له فيها الصورة . ومن الجائز جداً أن يفاجأ نابوليون في لحظة من
اللحظات غيباً ، وأن يفاجأ بسمارك في لحظة من اللحظات رقيقاً حنوناً .
ولكن هنا ، في هذه الصورة ، شاءت المصادفة أن تدرك الشمس صونيا
في لحظةها الأساسية ، فظهرت على حقيقتها ، امرأة ذات خفر ، تفيض
حباً رقيقاً ، ويشع منها عفاف فيه وجل . ما أعظم السعادة التي ملأت
جوانحها حين اقتنعت بأنني أرغب كثيراً في الحصول على صورتها هذه !
ان هذه الصورة لا يرجع عهدها الى زمن بعيد . ولكن صونيا كانت في
تلك الأيام أفتى وأجمل ! ومع ذلك كان خدائها منذ ذلك الحين خاسفين ،
وكانت لها هذه الغضون في الجبين ، وكان في نظرتها هذا الحياء الوجلي ،
وذلك كله قد ازداد بتقدم السنين وبرز مزيداً من البروز شيئاً بعد شيء .
هل تصدق يا صغيري ؟ اني لأكاد أعجز الآن عن أن أتصورها بوجه آخر !
ومع ذلك كانت ، هي أيضاً ، شابة وفاتنة ! ان النساء الروسيات تدب
اليهن الدمامة بسرعة ، وينقض جمالهن ، ولاشك في أن هذا لا يرجع الى
خصائص في طبيعة الجنس الروسي فحسب ، وانما يرجع أيضاً الى أن
النساء الروسيات يعرفن كيف يندفعن في الحب بلا تحفظ . اذا أحببت
المرأة الروسية ، فانها تهب كل شيء دفعة واحدة : تهب اللحظة والمصير ،
الحاضر والمستقبل : انهن لا يستطنن الاقتصاد والتوفير ، انهن لا يدخرن .
فسرعان ما ينتقل جمالهن الى من يحببن . هاتان الحدان الحاسفتان هما أيضاً
جمال ضحت لي به من أجل متعة قصيرة . أنت يسرك أنني أحببت أمك ،
ولملك كنت لا تصدق أن أكون قد أحببتها ، أليس كذلك ؟ بلي يا صديقي
بلي ! أحببتها كثيراً . لكنني لم أجلب لها في يوم من الأيام الا سوء .
هناك صورة أخرى . خذ . انظر في هذه أيضاً .

تناول الصورة من على المكتب ومدّها الىّ • هي صورة فوتوغرافية
أيضاً ، أصغر من صورة ماما كثيراً ، قد وضعت في إطار بيضوي من
خشب نحيل : وجه فتاة هزيلة مصدورة ، لكنها جميلة • ان الفتاة تفكر ،
ولكن وجهها خال من الفكر خلواً غريباً • قسّمت متسقة • طلعة تصفّت
وراءت بتعاقب الأجيال ، ولكنها تشعر كأن فيها مرضاً : فكأن هذه الامساة
قد فاجأتها فكرة ثابتة ، فنالتها بعذاب شديد لأنها فوق طاقة قواها •

قلت أسأله وأنا أشعر ببعض الحجل :

- هذه ••• هذه هي الفتاة التي أردت أن تتزوجها هناك ثم ماتت
بالسل ، أليس كذلك ؟ بنت زوجها « هي » •

- نعم ، أردت أن أتزوجها • ماتت بالسل • بنت زوجها • كنت
أعلم أنك تعلم • تلك نائم • على كل حال ، ما كان يمكنك أن تعرف هنا
شيئاً ، بغض النظر عن النائم • دع هذه الصورة في مكانها يا صديقي •
هي مجنونة شقية لا أكثر •

- مجنونة تماماً ؟

- أو معتوهة • لكنني أظن أنها مجنونة أيضاً • لقد ولدت ولداً من
الأمير سرجي بتروفتشس (عن جنون ، لا عن حب ، وهذا عمل من
أدنا وأحقر أعمال الأمير سرجي بتروفتشس) : والطفل هنا الآن ، في
هذه الغرفة • انني منذ مدة طويلة أريد أن أريك الطفل • والأمير سرجي
بتروفتشس لم يجزؤ أن يجيء الى هنا ليرى ولده • هذا اتفاق أبرمناه معاً
في الخارج • ضمنت الطفل الىّ باذن من أمك • وباذن من أمك ، أردت
أيضاً أن أتزوج تلك •• البائسة ••

قلت بحرارة :

- كيف يمكن اذن كهذا ؟

- يمكن • ما كان لأمك أن تغار ! ليست تلك المختلة بامرأة !

هتفت أقول :

- في نظر الآخرين ليست امرأة • ولكنها في نظر أمي امرأة •
لن أصدق أبدا أن أمي لم تغر !

صدقت • لقد أدركت أنا هذا بعد أن انتهى كل شيء ، أي بعد
أن أذنت أمك • ولكن دعنا من هذا • ان الأمر لم يتم ، لأن ليديا ماتت •
ولعل الأمر ما كان ليتم ولو بقيت حية • على كل حال ، أنا لا أذع
لأمك أن تأتي الى الطفل ، حتى في هذا الحين • ذلك حادث عارض
مضى • يا عزيزي ، انني أنتظرك هنا منذ مدة طويلة • انني أحلم بلقائه
بيننا هنا منذ زمن طويل • هل تقدّر طول هذا الزمن ؟ ستان •

قال ذلك وهو يلقي على نظرة يتجلى فيها الصدق ، وتعبر عن
اندفاع من القلب حار • فتناولت يده ، وهتفت أسأله :

- لماذا تأخرت ؟ لماذا لم تنادني ؟ لو علمت ما حدث ، فأشرت لي
بأصبعك أن أجيء اليك ، لما وقع الذي وقع •••

في تلك اللحظة جيء بالسماور ، ثم اذا بداريا أونيسيموفنا تدخل
حاملةً الطفل • وكان الطفل نائماً •

قال فرسيلوف :

- انظر اليه • انني أحبه • ولقد أمرت باحضاره لترام أنت • والآن
أرجعيه يا داريا أونيسيموفنا • اجلس الى جانب السماور • سأتخيّل
أنا عشنا دائماً هكذا ، أنا وأنت ، وأتما اجتمعنا كل مساء هذا الاجتماع ،
دون أن ننفصل في يوم من الأيام • دعني أنظر اليك : اجلس هكذا لأرى
وجهك • كم أحبه ، هذا الوجه ، وجهك ! لطالما تصورته وتخيّلته !
لطالما انتظرتك وأنا بموسكو ! تسألني لماذا لم أرسل من يجيئني بك منذ
مدة طويلة ؟ انتظر • لعلك ستفهم الآن •

- أياكون موت ذلك الشيخ هو الذى حل عقدة لسانك ؟ غريب . . .
نطقت بتلك الجملة ، ولكن ذلك لا ينفى أننى كنت أنظر اليه بحب .
وتحدثنا كما يتحدث صديقان ، بأكمل وأسمى معانى هذه الكلمة . لقد
جاء بى الى هنا ليشرح لى ، ليحكى لى ، ليبرر نفسه . . . ولكن كل شىء
قد اتضح وتبرر قبل كل كلام . مهما أسمع منه الآن ، فان الهدف قد تم
بلوغه . وكنا كلانا نعرف ذلك ، وكان كل منا ينظر الى الآخر بسعادة .
أجابنى يقول :

- لا ، ليس موت الشيخ هو الذى حل عقدة لسانى ، ليس هذا
الموت وحده هو الذى حل عقدة لسانى . هناك شىء آخر كان له تأثيره فى
هذا الاتجاه نفسه . بورك فى هذه اللحظة ، وفى حياتنا ، منذ الآن ،
والى الأبد . لتتحدث يا عزيزى . اننى أبتعد دائماً عن الموضوع ، وأشرد
الى غيره . أهم أن أتكلم فى شىء ، فاذا أنا أتوه فى تفاصيل شىء آخر .
ذلك يحدث دائماً حين يكون القلب طافحاً . ولكن فلنتحدث .
آن الأوان ، وانى لموله حياً بك منذ مدة طويلة يا صغيرى .
ارتد فرسيلوف الى ظهر مقعده ، وجعل يتأملنى مرةً أخرى من
الرأس الى القدمين .

قلت وأنا غارق فى افقتاننى :

- ما أغرب أن أسمع هذا ، ما أغرب أن أسمعه ! . . .

ولكن هأنذا أرى الغضن المؤلف الذى يعبر عن الأسى والسخرية
معاً ، هأنذا أرى هذا الغضن الذى أعرفه حق معرفته ، يظهر فى
وجهه من جديد . اننى أتذكر هذا تذكراً واضحاً . ولكن فرسيلوف
تجلد . وبجهد ، بدأ يتكلم .

- اسمع يا أركادى ، ما عسى كنت أقول لك لو ناديتك قبل الآن ؟
كان ذلك جوابه كله .

- هل تريد أن تقول انك اليوم زوج أمى وانك أبى ... وانك
ما كنت تستطيع أن تقول لى نسيئاً عن وضعى الاجتماعى ؟ هل هذا
ما تعنيه ؟

- لا هذا وحده . هناك أشياء كثيرة كنت سأضطر الى السكوت
عنها . هناك أشياء مضحكة ، بل 'مذلة' ، لأنها تشبه أن تكون مكائد
مشعبذين ، وألماب مهرّجين . كيف كان يمكن أن يفهم أحدا عن
الأخر ، اذا كنت أنا نفسى لم أفهم نفسى الا اليوم ، فى الساعة الخامسة بعد
الظهر ، أى قبل موت ماكار ايفانوفتش بساعتين تماما ؟ أراك تنظر الى
بارتباك واضح وحيرة أليمة . لا تقلق ! سأشرح لك الأمر . غير أن ما قلته
صحيح كل الصحة . حياة كاملة تنقضى فى ترحال وشك ، ثم اذا بالحل
يأتى فجأة ، فى يوم معين ، فى الساعة الخامسة بعد الظهر . شئ 'مذل' ،
أليس كذلك ؟ لو حدث هذا قبل مدة قصيرة ، لكان يمكن أن أشعر منه
بمهانة حقاً .

كنت أصغى بحيرة أليمة فعلاً . وكنت أرى الغضن القديم فى وجه

فوسيلوف ، بارزاً بروزاً قوياً ، الفضن الذى كنت أتمنى ألا أراه فيسه
ذلك المساء بعد كل ما قيل من كلام • وفجأة رأيتنى أهتف قائلاً :

– هل وصلك « منها » شىء ، هذا اليوم ، فى الساعة الخامسة ؟

فنظر الىّ محدقاً ، وكان واضحاً أنه فوجئ بهتافى بل لعله فوجئ •
أيضاً بقولى « منها » ، وها هو ذا يقول مبتسماً ابتساماً يمازجها تفكر :

– ستعلم كل شىء • ولن أخفى عنك شيئاً مما يجب أن تعلمه •
فمن أجل هذا انما جئت بك الى هنا • ولكن فلنؤجل هذا الى وقت آخر •
اتنى يا صديقى أعرف منذ مدة طويلة أن لنا أولاداً يتساءلون عن أسرته
منذ طفولتهم ، ويجرح أنفسهم ما يرونه من بشاعة فى آبائهم وفى بيتهم •
وقد لاحظت أن هؤلاء الأولاد تمتلئ قلوبهم قلقاً منذ يكونون فى
المدرسة ، واستخلصت من ذلك أن السبب هو أنهم عرفوا الحسد قبل
الأوان • وبعد ذلك عددت نفسى واحداً منهم • ولكن ... معذرة
يا عزيزى ، اتنى أشرد شروداً غريباً • كنت أريد أن أقول اتنى خفت
عليك دائماً هنا ، طوال هذا الوقت تقريباً • كنت أراك دائماً كواحد من
أولئك الصغار الذين يشعرون بما يملكون من موهبة فيعتمسون بالجزلة •
أنا أيضاً ، مثلك ، لم أحبّ رفاقى فى يوم من الأيام • ما أكبر شقاء
هؤلاء الصغار الذين يُتركون لقواهم وحدها ، ويُتركون لأحلامهم ، وقد
أوتوا ظمأً مشبوباً الى الجمال ، ظمأً سابقاً لأوانه ، يكاد يكون مشبعاً بروح
الانتقام ، نعم ، بروح « الانتقام » • ولكن كفى يا عزيزى ، لقد شردت
مرةً أخرى • اتنى حتى قبل أن يبدأ حبى لك ، كنت أتخيلك أنت
وأحلامك ، أحلام المعتزل المتوحش • ولكن كفى • لقد نسيت حقاً عمّ
كنت أريد أن أتكلم ... على كل حال ، هذا كله أيضاً كان يجب أن
يقال • ماذا كان يمكننى أن أقول لك من قبل ؟ الآن أرى نظرتك
ترمقنى ، فأعرف أن « ابنى » هو الذى ينظر الىّ • وما كان لى بالأمس ،

بالأمس فقط ، أن أصدق أنني سأسجد نفسي في يوم من الأيام متحدثاً مع
ابني كما أفعل اليوم •

كان يبدو ذاهلاً ذهولاً شديداً بالفعل ، ولكنه كان يبدو في
الوقت نفسه متأثراً تأثراً عميقاً •
قلت مسلماً له نفسي كلها :

– الآن لم أعد في حاجة الى أن أحلم ؛ الآن يكفيني أن تكون لي •
لسوف أتبعك !

– تبغني أنا ؟ ولكن ترحالى قد انتهى ، انتهى في هذا اليوم
نفسه : لقد وصلت متأخراً يا عزيزي • اليوم ينتهي الفصل الأخير ،
وتسدل الستارة • طال هذا الفصل الأخير كثيراً • لقد بدأ منذ زمن
بعيد ، بدأ حين فررت الى الخارج آخر مرة • تركت يومئذ كل شيء •
واعلم أنني تركت يومئذ أمك ، وأعلنت لها أنني تاركها • يجب أن تعلم
هذا • قلت لها انتي راحل الى الأبد ، وانها لن تراني بعدئذ قط • وأسوأ
من ذلك أنني نسيت حتى أن أترك لها شيئاً من مال • وأنت أيضاً لم تخطر
بالي لحظة واحدة • رحلت متوياً أن أبقى في أوروبا يا عزيزي ، وألا
أعود الى البيت أبداً • هاجرت •

هتفت أقول عاجزاً عن ضبط نفسي :

– ذهبت الى هرتسن ؟ ذهبت لتكون داعية في الخارج ؟ لابد أنك
ساهمت طيلة حياتك في مؤامرة من المؤامرات !

– لا يا صديقي ، لم أشارك في أية مؤامرة • أرى عينيك تلتصقان •
أحب صيحاتك يا عزيزي • لا ، لقد سافرت سأمأ لا أكثر • سافرت في
أعقاب ضجر تملكني فجأة • هو ضجر سيد روسي • لا أجد في تعريف
هذا الضجر تعبيراً أنسب • ضجر سيد روسي لا أكثر •

جميعت أقول لاهناً :

- القنانة ... تحرير الأفتان ؟

- لا ، لا يا صديقي ! أظن أنني آسف على نظام القنانة ؟ أظن أنني لم أحتمل تحرير الأفتان ؟ لا ، لا يا صديقي . نم اننا نحن الذين حررناهم . لقد هاجرت بدون أى حقد . كنت قبل قليل وسيط صلح ، وقد بذلت جميع جهودى . اندفعت أعمل باخلاص وتفانٍ . ولئن كوفئت على لبراليتى مكافأة سيئة ، فان هذا نفسه لم يكن سبب رحيلى . لا أحد منا كوفىء حينذاك ، أقصد لا أحد من أمثالى . كانت العزة هى التى تدفعنى الى الرحيل ، لا الندامة . هاجرت بلا غضب ، بلا حقد ، بلا حسرة . صدق أنني لا أعتقد بأنه آن لى أن أختتم حياتى حذاءً . « أنا سيد قبل كل شىء ، وسوف أموت سيداً . لكن هذا لا ينفى أنني كنت حزيناً . لعل روسيا لا تزال تضم ألف رجل من نوعى . ألف رجل لا أكثر . ولكن هذا العدد يكفى حتى لا تموت الفكرة . نحن حملة الفكرة يا عزيزى . يا صديقي ، اننى أكلمك وفى نفسى أمل غريب هو أنك ستفهم هذا الهراء المشوش الملتبس . لقد جئت بك الى هنا لا انقياداً لنزوة فى قلبى ... اننى منذ مدة طويلة أحلم بأن أقول لك .. نعم لك .. لك أنت ! .. على كل حال ، على كل حال ...

هتفت أقول :

- بل تكلم ، تكلم ، اننى أقرأ فى وجهك الصدق .. ماذا عن أوروبا ؟ هل بعثت أوروبا بعثاً جديداً ! ... وماذا كان ذلك الضجر ، « ضجر السيد » ؟ سامحنى ... اننى لمأ أفهم بعد .

- تسألنى هل بعثتى أوروبا بعثاً جديداً ؟ فاعلم اننى انما سافرت لأدفعها !

قلت مدهوشاً :

— لتدفنها ؟

فابتسم • وقال :

— آركادى ، صديقى ، الآن نفسى رقت وفكرى اضطرب • لن
أسى أبداً لحظاتي الأولى بأوروبا • كنت قد عشت فى أوروبا من قبل ،
ولكن ذلك كان فى عهد خاص ، ولم أكن قد دخلت أوروبا قبلئذ بمثل
ذلك الحزن •• ولا بمثل ذلك الحب • سأصف لك واحداً من مشاعرى
الأولى حينذاك • هو حلم رأيتهُ ، حلم حقيقى •

• حدث ذلك وأنا لا أزال بألمانيا • كنت قد غادرت درسدن ، ثم
تجاوزت المحطة التى كان ينبغى أن أُغيرَ فيها القطار ، تجاوزتها سهواً
وغفلة فسرت فى غير الاتجاه الذى كنت أريد أن أسير فيه • فما ان وصلت
الى أول محطة تالية ، حتى نزلت • كان الجو صحواً • هى مدينة ألمانية
صغيرة • دلونى على فندق • كان يجب علىَّ أن أنتظر : ان القطار التالى
يمر فى الساعة الحادية عشرة من المساء • ولقد سررت بهذه المغامرة سروراً
كبيراً ، فلا شىء كان يستعجلىنى • الفندق صغير ردىء ، لكنه غارق فى
الخضرة وشرائط الأزهار ، على عادة القوم هناك • أعطيت غرفة صغيرة •
ولما كنت قد قضيت الليلة كلها فى القطار ، فسرعان ما نمت بعد الغداء ،
فى نحو الساعة الرابعة من الأصيل •

• فحلمت حلماً غير مألوف البتة ، ما رأيت مثله من قبل أبداً • ان
فى متحف درسدن لوحة للرسام كلود لوران جعل عنوانها فى الكاتالوج
« آسيس و جالانى » • أما أنا فقد سميت هذه اللوحة دائماً « العصر
الذهبى » ، لا أدرى لماذا ! لقد سبق أن رأيت هذه اللوحة • وقبل
ثلاثة أيام لاحظتها مرةً أخرى عابراً •

« فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم • لكننى لم اراها صورةً ، بل رأيتها واقعاً • انتى لا أتذكر على وجه الدقة ما الذى رأيته في الحلم هذه الرؤية • ولكننى رأيت ، كما فى اللوحة ، ركناً من الأرخييل اليونانى منذ ثلاثة آلاف سنة : أمواجاً زرقاء هادئة ، جزراً وصخوراً ، شاطئاً مزهراً ؟ وفى بعيد ، منظرأ كأنه السحر ، شمساً غاربة تفتن النظر • يستحيل على المرء أن يصف هذا بألفاظ • انها الانسانية الأوربية تتذكر مهدها : ملأت هذه الفكرة شعاب نفسى بحب كحب الابن أبويه • هذا هو الفردوس الأرضى للانسانية : الآلهة تهبط من السماء لتواخى البشر •• اه •• ما كان أجملهم ، أولئك البشر ! كانوا يفقون وينامون سعداء أبرياء • المروج والحراج الصغيرة تمتلئ بأغانيهم وصيحاتهم الجذلى • فيض من الطاقات البكر ينتشر حباً وفرحاً ساذجاً • الشمس تغمرهم بدفئتها وضياؤها ، معجبةً بهؤلاء الأطفال الرائعين •• انه حلم أخاذ ، طالما فتنت روعته الانسانية عن نفسها وأزاغت بصرها ! ان العصر الذهبى هو الحلم المستحيل الذى حلمه كل من وجدوا على هذه الأرض ، ولكنه على استحالته رأينا بشراً يهبون له حياتهم كلها ، وقواهم كلها ، وفى سيئه مات أنبياء وُقتل أنبياء ، وبدونه لا تريد الشعوب أن تعيش ، ولا تريد حتى أن تموت ! هذا الاحساس كله ، قد عشته فى ذلك الحلم • والصخور والبحر ، وأشعة الشمس المائلة عند الغروب ، ذلك كله بدا لى أنتى لا أزال أراه حين أفقت من نومى وفتحت عينيّ^٢ المفرورقين بالدموع • كنت سعيداً • أتذكر هذا • ان احساساً بسعادة لم أشعر بمثله من قبل ، قد اختلج فى قلبى حتى كاد أن يكون أماً • كان ذلك حباً للانسانية كلها •

« وكان المساء قد حل • ومن خلال خضرة الأزهار الموضوعة على النافذة ، كانت حزمة من أشعة مائلة تلطم زجاج غرفتى الصغيرة فتغمرنى بضياؤها • ثم ماذا يا صديقى ؟ ان تلك الشمس الغاربة فى أول أيام الانسانية الغربية ، التى كنت أراها فى الحلم قد استحالت فى نظرى فجأة

منذ أن استيقظت شمسا غاربة في اخر ايام الانسانية الاوروبية ! فوق أوروبا كلها كانت تسمع حينئذ أصوات نواقيس جنازة • لست أعنى الحرب وحريق التويلرى فحسب • لقد كنت أعلم ، بدون الحرب وبدون حريق التويلرى ، أن كل شيء سينقضى ، عاجلاً أو آجلاً ، وأن كل وجه العالم الأوروبي القديم سيندرس • ولكننى ، أنا الأوروبي الروسى ، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا • نعم ، كانوا قد حرقوا التويلرى ! لا ، مهلاً ، أنا أعرف أن هذا كان « منطقياً » • وأنا أدرك تماماً ما كان للفكرة التى راجت آتئذ من قوة لا تقاوم • ولكننى ، كممثل للفكر الروسى الرفيع ، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا ، لأن الفكر الروسى الرفيع يصلح بين جميع الأفكار المتعارضة مصلحة عامة شاملة • ومن ذا الذى كان يمكنه حينذاك ، فى العالم بأسره ، أن يفهم هذا الفكر ؟ لقد كنت أطوف وحيداً • لست أتكلم عن نفسى ، بل عن الفكر الروسى • هناك ، كان الاقتال والمنطق العنيد • هناك ، كان الفرنسى ليس الا فرنسياً ، وكان الألمانى ليس الا ألمانياً ، وذلك بعنفٍ لم يشهد تاريخهم كله عنفاً أقوى منه ؛ أى ان الفرنسى ما أساء الى فرنسا يوماً كما أساء اليها فى هذه الفترة ، ولا الألمانى أساء الى ألمانيا يوماً كما أساء اليها فى هذه الفترة ! لم يكن فى أوروبا كلها عندئذ أوروبى واحد ! أنا وحدى بين جميع مشعلى الحرائق كنت أستطيع أن أقول لهم وجهاً لوجه ان اقدامهم على احراق التويلرى خطأ ؛ وأنا وحدى بين جميع المحافظين المنتقمين كنت أستطيع أن أقول لهم ان احراق التويلرى ان كان خطأ فهو منطقى • وذلك ، يا عزيزى ، لأننى ، كروسى ، كنت عندئذ ، فى أوروبا ، « الأوروبى الوحيد » • لست أتكلم عن نفسى ، بل عن الفكر الروسى كله • كنت أضرب فى الأرض يا صديقى ، كنت أضرب فى الأرض ، ولا أعرف أنتى لم يبق لى الا أن أسكت وأن أضرب فى الأرض • • • ولكننى كنت حزيناً رغم كل شيء • ذلك لأننى ، يا ابنى ، لا أملك الا أن أحترم نبالتى • تضحك ، أليس كذلك ؟

قلت بصوت متأثر :

- لا ، لا أضحك • لا أضحك البتة • انك برؤياك « المصر
الذهبي » قد بثت الاضطراب فى قلبى ؛ ثق كل الثقة ابنى بدأت أفهمك •
غير أن ما يسعدنى أكثر من أى شىء آخر هو أنك تحترم نفسك هذا
الاحترام كله • أسارع فأصارحك بذلك • ما كنت لأتوقع منك هذا أبداً !

- سبق أن قلت لك ابنى أحب صيحات تعجبك يا عزيزى !
قال ذلك وابتسم للملاحظتى الساذجة مرةً أخرى ، ثم نهض عن
مقعدته ؛ وبدون أن يعى ما يفعل ، أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً • فنهضت
أنا أيضاً • وتابع هو كلامه بلغته العجيبة الفريسة ، الزاخرة بالفكر
مع ذلك •

- نعم يا بنى ، أعود فأكرر لك أننى لا أملك الا أن أحترم نبأتى .
لقد نشأ عندنا ، خلال القرون ، نموذج حضارى أعلى لم يشاهد فى أى
مكان آخر فى الكون ، هو نموذج التألم للبشر كافة . هذا نموذج روسى .
ولكن لما كان هذا النموذج انما خلقه الجزء الأعلى ثقافة بين مجموع
الشعب الروسى ، فأننى أحمل شرف الانتماء اليه . انه يحتوى مستقبل
روسيا . ان عددنا لا يربو على ألف رجل ، قد نكون أكثر من ذلك
قليلاً وقد نكون أقل من ذلك قليلاً ولكن روسيا كلها انما عاشت حتى
الآن لتنجبنا . رب قائل يقول ان هذا المدد ضئيل جداً ، وانها لفضيحة
أن تنفق روسيا قروناً طويلة وأن تضحي بملايين كثيرة من أبنائها فى سبيل
أن تنجب هذه الصفوة . أما أنا فأرى أن ذلك ليس قليلاً .

كنت أصغى الى كلامه بجهد شاق ، فأرى تعبيراً عن اقتناع تكوّن
خلال حياة بأسرها . ان كلامه هذا عن « الألف رجل » يكشف النقاب
عن نفسه كلها . وقدرت أن انطلاقه هذا فى مكاشفتى انما مردّه الى
صدمة خارجية ، وأنه يقول لى هذا الكلام الحار كله حياً بى . ولكن
السبب الذى من أجله أخذ يتكلم فجأة ، والذى من أجله كان يريد أن
يتحدث الى ، الى « أنا خاصة » ، ظل مجهولاً عندى .

وتابع كلامه يقول :

- هاجرت غير آسف على شيء مما خلفت ورائي . كنت قد خدمت روسيا على أرضها بكل ما املك من قوى . وحين سافرت ظللت أخدمها ، لكننى وسعت فكري . هل كان يجب على أن ابقى روسيا ضيقاً ، مثلما كان كل فرنسي فرنسياً ، وكل ألماني ألمانيًا ؟ فى أوروبا لن يفهموا هذا الكلام . ان أوروبا قد خلقت النماذج النيلية للفرنسي والانجليزى والالمانى . أما انسانها فى المستقبل فانها لاتزال تجهل عنه كل شيء تقريباً . وأظن أنها لا تريد ان تعرف عنه شيئاً حتى الآن . وذلك أمر يمكن فهمه : انهم ليسوا أحراراً ، أما نحن فأحرار . أنا وحدى فى أوروبا ، مع ضجري الروسى ، كنت حرّاً .

لاحظ يا صديقى هذا الشيء الغريب : ان كل فرنسي يستطيع أن يخدم الانسانية مع بلده فرنسا ، ولكن بشرط أن يبقى فرنسيًا خاصة . ويصدق هذا على الانجليزى وعلى الألمانى . والروسى وحده ، حتى فى عصرنا هذا ، أى قبل أن تتحقق له صورته النهائية ، قد وهب له أن يكون روسياً أكثر لأنه أوتى القدرة على أن يكون أوروبياً أكثر . هذا هو الفارق القومى الأساسى الذى يميزنا عن سائر الناس ، فنحن من هذه الناحية لا يشبهنا أحد . أنا فى فرنسا فرنسي ، ومع الألمانى ألمانى ، ويونانى مع يونانى العصر القديم ، وأنا بهذا نفسه روسى دائماً الى الحد الأقصى . أنا بهذا نفسه روسى حقاً ، أقدم لروسيا أكبر قدر من الخدمات ، لأننى أجسد فكرها الأساسى . أنا رائد هذا الفكر . لقد هاجرت ، ولكن هل تركت روسيا ؟ لا ، لم أتركها . ظللت أخدمها . وهبنى لم أعمل شيئاً فى أوروبا ، هبنى لم أذهب اليها الا لأتجول وأترحل وأضرب فى الأرض (ولقد كنت أعرف أنتى لا أرحل اليها الا لهذا الغرض) فحسبى هذا لأذهب اليها مع فكري وضميرى . لقد نقلت الى أوروبا سأمى

الروسي • لا ، ليس الدم الذي كان يسيل حينئذ هو الذي روّعني ، حتى ولا احراف التويلري ، بل ما كان لابد ان يتبع ذلك • بأن محكوماً عليهم أن يظلموا يقتلون زمناً طويلاً أيضاً ، لأنهم لا يزالون ألمانا وفرنسيين أكثر مما يجب ، ولأنهم لم ينتهوا من عملهم في تمثيل هذا الدور • كنت حتى ذلك الحين أشعر بحسرة لما يقع من دمار • ان أوروبا عزيزة على الروسي كروسيا سواء بسواء ، كل حجر في أوروبا حبيب الى قلب الروسي غالٍ فيه • كانت أوروبا للروسي وطناً كروسيا ، بل كانت له وطناً أكثر من روسيا • يستحيل أن يحب أحد روسيا كما أحبها ، ولكنني لم ألم نفسي في يوم من الأيام على أنني وجدت البندقية وباريس وروما وما فيها من كنوز العلم والفن وما لها من تاريخ ، أحبّ الىّ من روسيا • آه ••• ان قلوب الروس تحمل حباً كبيراً لتلك الحجارة الأجنبية ، لتلك الروائع التي تنتمي الى العالم القديم ، تلك البقايا من المعجزات المقدسة • بل ان هذا كله أعزّ على نفوسنا منه على نفوسهم ! ان لهم الآن أفكاراً أخرى وعواطف أخرى ، لقد كفوا عن تقدير تلك الحجارة القديمة ! ••• هناك لا يكافح المحافظ الا في سبيل البقاء • ومشعل الحرائق لا يعمل الا ليطالب بحقه في قطعة خبز • روسيا وحدها لا تحيا من أجل نفسها ، بل من أجل الفكر • اعترف يا صديقي بهذه الحقيقة الواضحة : أن روسيا منذ قرابة قرن لا تحيا من أجل نفسها بل من أجل أوروبا فقط ! أما هم ، فقد نذروا لآلام رهيبية قبل أن يصلوا الى ملكوت الرب •

كنت أصغى اليه مضطرباً أشد الاضطراب • اعترف بذلك • حتى لهجة كلامه كانت ترّوعني ، رغم أنني لم أملك الا أن أفاجأ بأفكاره • وكان يخيفني اخافة رهيبية أن يكون فيما يقول كاذباً • فرأيتني ألقى عليه هذا السؤال فجأةً بلهجة قاسية :

- قلت « ملكوت الرب » . وقد علمت أنك عملت هنالك داعيةً
ومبشراً ، وأنت كنت تثقل جسمك بأصفاذ . هل هذا صحيح ؟

فابتسم وقال :

- دعك من أصفاذى . تلك مسألة أخرى . فى ذلك المهد لم أكن
أبشراً بشىء بعد . ولكننى كنت أتوق الى الهمم . هذا صحيح . كانوا قد
نادوا بالاحاد . . نادى به نفر منهم ، نادى به طليعة منهم ، ولكن ذلك كان
الخطوة الأولى نحو « التنفيذ » ، وهذا هو الأمر الخطير . كان سلاحهم
المنطق دائماً . وحيث يكون المنطق يكون الضجر . كنت أنا أتمنى الى
حضارة أخرى ، فكان قلبى يرفض هذا . كان ذلك العقوق فى انفصالهم
عن فكرة ، وكانت تلك الأصوات التى تنطلق من الصفارات ، وكان ذلك
التلوين والتلطيح بالوحل ، كان ذلك كله أموراً لا أطيع احتمالها .
كانت أساليب الاسكافيين هذه ترعبنى . صحيح أن الواقع تفوح منه دائماً
رائحة النعال ، حتى حين يصبو المرء الى المثل الأعلى صبوة للألاء . ولقد
كان على أن أعرف ذلك . لكننى كنت طرازاً آخر من البشر : كنت
حرراً فى اختياري ، ولم يكونوا هم أحراراً . فكنت أبكى ، أبكى عليهم ،
أبكى على الفكرة القديمة . ولعلنى بدموع صادقة انما كنت أبكى ، من غير
كلام مزق .

سألته غير مصدق :

- هل كنت تؤمن بالله هذا الايمان القوى حقاً ؟

- يا صديقى ، هذا سؤال لعله نافل . هب أنى لم أكن أو من هذا
الايمان القوى . ذلك لا ينفى أننى كنت لا أملك الا أن أتحسر على فكرة
وأن أحن إليها . كنت فى بعض اللحظات لا أفصح فى أن أتصور كيف
يستطيع الانسان أن يحيى بدون اله ، ولا أن أتصور هل يصبح هذا

ممكنا فى يوم من الايام • كان قلبى يجيب دائماً بأن هذا مستحيل •
قد يحدث هذا فى عهد من العهود الى حين • وانى لأشك فى أن يأتى
هذا العهد • ولكننى كنت أتخيل عندئذ لوحة أخرى مختلفة كل
الاختلاف •••

– ما هى ؟

لقد سبق أن صرّح لى طبعاً بأنه كان سعيداً • وواضح أن أقواله
كانت تشتمل على حماسة كثيرة • ولقد أخذت أنا أكثر كلامه هذا المأخذ ،
ونظرت اليه بهذا المنظار • وانى لما أحمله لهذا الرجل من احترام ، لن
أضع على الورق كل ما تبادلناه من حديث حينذاك • غير أن خطوطاً معينة
من اللوحة الغريبة التى حملته على أن يرسمها لى ينبغى أن تذكر هنا •
ولقد كانت مسألة « الأصفاد » خاصةً هى التى تشغل بالى وتعذبنى ،
فكنت أريد أن تتضح لى ، فلذلك ألححت • ان أفكاراً تبلغ غاية الغرابة
والعجب مما قاله فى ذلك اليوم قد بقيت منقوشة فى قلبى الى الأبد •

بدأ يتكلم وهو يتسم ابتسامةً يمازجها تفكير ، فقال :

– اليك اللوحة التى أتخيلها يا عزيزى • أتخيل أن القتال انتهى ،
وأن الصراع هدأ • فبعد التلاعن والتقاذف بالوحل وتبادل التصفير ، عمّ
الهدوء ، وبقي البشر « وحيدين » كما كانوا يريدون : هجرتهم الفكرة
الكبيرة التى كانت تعيش معهم ، وغاب ينبوع الطاقة الذى كان الى ذلك
الحين يغذيهم ويمدهم بالحرارة ، كتلك الشمس الرائعة الأسرة التى نراها
فى لوحة كلود لوران • ولكن هذا يكون الآن آخر أيام الانسانية • فاذا
بالبشر يدركون أنهم أصبحوا وحيدين تماماً ، ويحسون فجأة أنهم
مهجورون هجر اليتامى • يا صغيرى العزيز ، اننى لم أستطع فى يوم من
الأيام أن أتخيل البشر عقوقين أغبياء • فلما صاروا يتامى أسرعوا يتقاربون

ويتلاصقون بمزيد من القوة ومزيد من العاطفة والمحبة . وأمسك بعضهم بأيدي بعض ، لأنهم أدركوا أنهم بعد الآن ليس لبعضهم أحد غير بعضهم الآخر . ان فكرة الخلود العظيمة تكون قد زالت ، فلا بد أن يتماضوا عنها بغيرها . فاذا بذلك الفيض من الحب الذى كانوا يحملونه لمن هو الخلود ، يتحول الآن الى الطبيعة ، الى العالم ، الى البشر ، الى كل عشة . سوف يؤخذون عندئذ بالأرض وبالحياة ، وسوف يجوبونها حباً لا سبيل الى مقاومته ، على قدر شعورهم شيئاً فشيئاً بأن حياتهم عرض زائل ، وبأن زمنها محدود ، وسوف يكون حبهم حباً خاصاً ليس هو الحب الذى كانوا يحسونه من قبل . سوف يلاحظون فى الحياة ويكتشفون فيها ظاهرات وأسرارا لم تخطر لهم الى ذلك الحين على بال ، لأنهم سينظرون اليها بعين جديدة ، سينظرون اليها نظرة الحبيب الى حبيته . سوف يستيقظون فيسارع بعضهم الى بعض يتماقون ، ويتحابون ، ولعلمهم بأن أيامهم زائلة ، وأن ذلك هو كل ما بقى لهم . سيعمل بعضهم فى سبيل بعض ، وسيعطى كل² منهم شئ لكل الناس ، فيكون بذلك سعيداً . سيعلم كل طفل وسيحس أن كل انسان على هذه الأرض هو له أب وأم . سيقول كل واحد لنفسه حين ينظر الى غروب الشمس : « ليكن الغد آخر أيامى . ساموت . ولكن لا أضير : لأنهم سيقون هم جميعاً ، وبمدهم سيقى أولادهم ، وهذه الفكرة ، فكرة أنهم سيقون وسيظلون متحابين متعاطفين يخاف بعضهم على بعض ، ستحل محل فكرة اللقاء بعد الموت . لشد ما سيسارعون الى التحاب ، من أجل أن يخفقوا الحزن الكبير الذى فى قلوبهم . سيكونون متكبرين جريئين على أنفسهم ، ولكنهم سيكونون خجولين وجلين أمام الآخرين . سيخاف كل واحد على سعادة وحياة كل واحد آخر . سيحن بعضهم على بعض . ولن يشعروا بما يشعرون به اليوم من خجل وخزى . سيداعب بعضهم بعضاً كأطفال . وحين يلتقون

سيبادلون نظرات عميقة زاخرة بالذكاء ، وسيكون في نظراتهم حب
وأسى •

وقطع كلامه مبتسماً على حين فجأة ثم أضاف :

- يا عزيزى ، ليس هذا كله الا خيالاً ، بل هو خيال لا يمكن
أن يتحقق فى الواقع • لكننى كثيراً ما تخيلت هذه الصور ، لانتى لم
أستطع فى يوم من الأيام أن أحيا بدونها ، ولا أن أمتنع عن التفكير
فيها • ولست أتكلم عن ايمانى ، فايماى ليس كبيراً • أنا رجل يؤمن
بوجود الله ، ولكنه لا يؤمن بالدين ؛ رجل يؤمن بوجود الله ايمان
فلاسفة ، كسائر أولئك الألف من الرجال ، أو هذا ما افترضه • ولكن
••• ولكن الشيء الذى يلفت النظر هو أنتى كنت أنهى لوحتى دائماً
برؤيا « المسيح على بحر البلطيق » ، كما نرى ذلك عند الشاعر هاينى •
انتى لم أستطع الا أن أراه أخيراً بين البشر الذين أصبحوا يتامى • يجىء
اليهم ، ويمد لهم ذراعيه ، ويقول : « كيف نستيمونى ؟ » • فاذا بنوع
من حجاب يسقط عن جميع الأبصار ، واذا بنشيد حماسى هو نشيد
الانعام الجديد الأخير ، يأخذ يترجع مدوياً •

« دعنا من هذا يا صديقى ؟ أما عن « أصفادى » ، فتلك سخافة •
لا يشغلن أمرها بالك • هناك شيء آخر : أنت تعرف أن لسانى خجول
ومقتضب • فلئن استرسلت اليوم فى الكلام ، فذلك ••• بسبب عواطف
مختلفة ، وبسبب أنتى معك • لغيرك لن أقول شيئاً أبداً • أضيف هذا
لأطمئنتك •

كنت متأثراً منفعلًا • ان الكذب الذى كنت أخشاه لا وجود له •
ولقد أسعدنى خاصة أن أرى رؤية واضحة بعد الآن أنه كان يعانى
من ضجر حقاً ، وأنه كان يتألم ويتمذب ، وأنه قد أحب كثيراً بدون شك :

وهذا ما أثر فى نفسى أكثر من أى شىء آخر • وقد أعلنت له ذلك بحماسة • ثم أضفت أسأله فجأة :

- ولكن يبدو لى أنك ، رغم كل ضجرك ، كنت سعيداً أقصى السعادة فى ذلك الأوان ، أليس هذا صحيحاً ؟
فقال :

- انك اليوم مصيب فى ملاحظاتك • نعم • كنت سعيداً • وهل كان يمكن أن أكون نسقياً وأنا فى مثل ذلك الضجر ؟ ليس أحد أكثر حرية ولا أعظم سعادة من المترحل الروسى الأوروبى الذى ينتمى الى أولئك الألف من الأفراد • أقول لك هذا بدون أن أضحك ، وفى كلامى كثير من الجلد • نعم ، ما كنت لأبيع ضجرى بأية سعادة • يا عزيزى • ومن السعادة أننى أحببت حينئذ أمك أول حب فى حياتى • نعم ، فيما كنت أضرب فى الأرض وأعانى الضجر ، أحببتها فجأة كما لم أحب من قبل ، وسرعان ما أرسلت أستدعيها •
قال :

- آ ••• اقصص على هذا ••• كلمنى عن ماما •

ثم أضاف يقول وهو يتسهم فرحاً :

- وقد خشيت أن تعينى من هذا الحديث •ستعيضاً عنه بالكلام عن هرتسن أو عن مؤامرة ما •••
- ما جئت بك الى هنا الا لأحدثك عن هذا •

الفصل الثامن

١



فى الحديث كل المساء وسطراً من الليل ، فلن
أروى كل ما قيل ، بل اكتفى بما أوضح لى فى
النهاية نقطة من حياته كانت عندى لغزاً •

وأبدأ بما يلى : ليس يخامرنى أى شك فى أنه
أحب ماما ، فاذا هجرها وانفصل عنها حين سافر الى الخارج ، فلأنه كان
مرهقاً بالضجر ، أو لسبب آخر من هذا القبيل ، وذلك أمر يحدث
لجميع الناس فى هذه الحياة الدنيا ويصعب دائماً تعليله • ثم انه فى الخارج ،
بعد انقضاء زمن غير قصير ، قد عاوده حب ماما فجأةً ، من بعيد ، بالفكر ،
فأرسل يستدعيها • رب قائل يقول : « هذه نزوة » • ولكننى أقول غير
ذلك ، ففى رأى أن ما فعله كان فيه أكبر الجهد رغم ما تتصف به طبيعته
من تناقضات أسلم بوجودها • ولكننى أحلف أن ضجره الأوروبى أمر
لاشك فيه ، وأنه يساوى بل يفوق كثيراً أى شكل من أشكال النشاط
العملى فى هذا الزمان ، كأنشاء سكك حديدية مثلاً • وأنا أرى فى حبه
للإنسانية عاطفة صادقة كل الصدق ، عميقة كل العمق ، بريئة من كل
كذب أو تزيف • وأرى فى حبه لماما أمراً لا يمكن الجدل فيه إطلاقاً ،
وان كان جائزاً أنه يشتمل على شيء من غرابة • انه فى الخارج ، بينما
هو فى « ضجر وسعادة » ، وبينما هو فى عزلة كعزلة النسك (أضيف

هذه الواقعة الخاصة التي أمدتني بها تانيانا بافلوفا فيما بعد) ، تذكر ماما على حين فجأة ، وتذكر خديها الحاسفتين خاصة ، فأسرع يستدعيها فوراً .

قال لي (وقد أفلتت منه هذه الجملة كما أفلتت غيرها) :

- يا صديقي ، لقد أحسست فجأة أن خدمة الفكرة لا تعينني أبداً ،
كإنسان أخلاقى وعاقل ، من أن أسعد في أثناء حياتي انساناً واحداً على الأقل ، اسعاداً عملياً .

فسألته متحيراً :

- أتكون فكرة مستمدة من الكتب ، كهذه الفكرة ، هي التي جعلتك تعزم أمرك ؟

- ليست هذه فكرة مستمدة من الكتب . وقد تكون كذلك فعلاً .
ان الأشياء يختلط بعضها ببعض . ولكنني كنت أحب أمك فعلاً ، كنت أحبها حباً صادقاً ، حباً لا شأن له بالكتب البتة . ولولا أنني كنت أحبها هذا الحب لما استدعيتها ، بل عمدت الى اسعاد أول ألماني أو أول ألمانية ألقاها بعد اهتدائي الى تلك الفكرة . أما عن ضرورة اسعاد انسان واحد على الأقل أثناء الحياة اسعاداً عملياً ، أى اسعاداً فعلياً ، فهذه فكرة أنصبها قاعدة يؤمر بالتزامها كل انسان مثقف ، تماماً كما يمكن أن يوضع قانون يأمر كل فلاح بأن يفرس شجرة واحدة على الأقل أثناء حياته ، لأن الأشجار يقل عددها في روسيا الآن . بل ان شجرة واحدة لا تكفى . فيمكن أن يؤمر الفلاح بأن يفرس شجرة في كل سنة . ان الامسان المتفوق المثقف الذى يسعى وراء فكرة عليا يدير ظهره للحياة اليومية أحياناً ، فيصبح سخيلاً مضحكاً ، ويصبح صاحب نزوات ، ويصبح بارداً ، بل أقول بصراحة انه يصبح غيباً ، فى الحياة العملية طبعاً ، بل يصبح آخر الأمر غيباً حتى فى

نظرياته • وهكذا يكون من شأن الاهتمام بالحياة العملية ، واسعاد انسان واقعى واحد على الأقل اسعاداً واقعيًا ، أن يشفى وأن يجدد نضارة الشخص الذى يحسن هذا الاحسان • قد يكون هذا الرأى سخيلاً من حيث هو نظرية ، لكنه متى 'طبّق' وأصبح عادة مستحكمة ، لا يكون رأياً غيباً الى الحد الذى قد يتوهمه المرء •• لقد جربت هذا بنفسى : فأنى منذ أخذت أتصور نتائج هذا الرأى - على سبيل التسلية فى أول الأمر ، طبعاً - بدأت أدرك مدى الحب الذى يحمله قلبى لأملك •• ولم أكن قد أدركت أبدأ ، حتى ذلك الحين ، أنى كنت أحبها • حين كنت أعيش معها ، كنت أتمتع بها فى ابان جمالها ، ثم تستبد بى النزوات • ولم أدرك أنى أحبها الا فى ألمانيا • بدأ ذلك بخديها الحاسفين اللذين كنت لا أستطيع أبدأ أن اتصورها الا واراها ، حتى لأشعر بألم يهصر قلبى ، ألم حقيقى ، ألم جسمى • هناك يا عزيزى ذكريات أليمة تحدث وجمعاً واقعيًا • ان جميع الناس أو أكثر الناس يحملون ذكريات كهذه الذكريات ، ولكنهم ينسونها ، ثم يتفق للمرء أن يتذكر بعد ذلك قسمة من قسمة الوجه أحياناً ، فاذا هو ينشد اليها ولا يستطيع منها فكاكًا • أخذت أتذكر ألف أمر من تفاصيل حياتى مع صونيا • وأصبحت هذه التفاصيل توافينى أخيراً من تلقاء نفسها ، وتحاصرني جمهرة غفيرة • وكادت هذه الذكريات أن تقتلنى عذاباً بينما كنت أنتظر وصولها • غير أن الشيء الذى كان يعذبنى خاصة انما هو ذكرى مذلتها الأبدية لى ، واعتقادها بأنها أدنى منى كثيراً فى كل أمر من الأمور ، وأننى أفوقها كثيراً حتى فى الجسم ! تصور ! كانت تشعر بخجل شديد ويتخضب وجهها بحمرة قانية حين كنت أنظر أحياناً الى يديها وأصابعها التى لم يكن فيها شيء من ارستقراطية • بل انها لم تكن تخجل

من أصابعها وحدها بل من جسمها كله ، رغم أنني أحببت جماله . كانت
تشمع معي بهيئة دائم يبلغ حد التوحش . وأسوأ ما فى الأمر أن هذا
الحياء كان يمازجه نوع من ذعر لا ينقطع . الخلاصة أنها كانت تعدّ نفسها
بالقياس إلى شئاً لا وجود له ، أو شيئاً يكاد يكون غير لائق . وكنت فى
البداية أظن أنها لا تزال ترى فى سيدها ، وأنها كانت تهانئ وتخشاني .
ولكن الأمر لم يكن كذلك . واني لأحلف لك مع ذلك أنها كانت أقدر
من أى انسان على معرفة عيوبى ونقائصى ، وأنى ما رأيت فى حياتى امرأة
لها مثل قلبها رهافة ونفاذ ادراك . لشدما كانت تشمر بالشسةاء حين
كنت اضطرها فى البداية ، أيام كانت لا تزال جميلة جمالا فاتنا ، أن
تتزين . كان ذلك منها يشتمل على عزة وعلى شعور آخر سريع التأذى :
كانت تدرك أنها لن تصبح بالتزين سيدة ، وأنها لن تكون بلباس
أجبنى الا مضحكة . وهى لا تريد أن يكون لباسها مضحكاً ، وتدرك أن
لكل امرأة ثياباً تناسبها ، وذلك أمر ستظل تعجز عن فهمه ألوف بل مئات
الألوف من النساء اللواتى يرضيهن أن تكون ثيابهن على الموضة وكفى !
كانت تخاف من نظرة ساخرة قد ألقبها عليها . وما أشد الألم الذى كنت
أشعر به حين أتذكر عينيها المدهوشتين اللتين كثيراً ما فاجأتها محذقتين
إلى أثناء حياتنا المشتركة : لقد كنت أحس أنها تدرك مصيرها ادراكاً
كاملاً ، وتعرف المستقبل الذى ينتظرها ، حتى لقد كان ذلك يحزننى ،
وان لم أكلمها فى هذا الأمر ، وانما ظللت أترفع عن الحوض فى حديث
عنه . ولكن هل تعلم ؟ انها لم تكن فى جميع الأحيان خائفة متوحشة
كما هى الآن . وهى حتى هذا اليوم لا يزال يتفق لها أن تفرح فجأةً وأن
تتزين كما تفعل امرأة فى العشرين من عمرها . لكنها فى ذلك الوقت ،

ابان صباحا ، كانت تمشق الثرثرة والضحك أحيانا ، فى بيتها طبعاً ، مع
الخدومات مثلاً . ولشدهما كانت ترتجف اذا أنا باغتها ضاحكة على حين
فجأة ، وسرعان ما كانت تحمر عندئذ وتشخص الى بصرها خائفة ! فى
ذات يوم لا يسبق رحيلى الى الخارج بمدة طويلة ، بل هو تقريباً عشية
انفصالى عنها ، دخلت الى غرفتها فوجدتها وحيدة بلا شغل ، قد وضعت
كوعياها على المائدة واسترسلت فى تأمل عميق . لم يسبق لها أن بقيت من
قبل عاطلة عن العمل فى أى يوم من الأيام تقريباً . وكنت فى ذلك الأوان
قد اقطعت عن ملاطفتها منذ مدة طويلة . فاستطعت أن أقرب منها برفق
ماشياً على رموس الأصابع ، فامسكتها فجأة وقبّلتها . انفضت : لن أنسى
فى حياتى ما ارتسم على وجهها عندئذ من آيات الافتان والسعادة . ولكن
ذلك لم يلبث أن حل محله احمرار سريع ، وقدحت عينها شراً .
هل تعلم ماذا قرأت فى ذلك الشرر ؟ « انك تعطينى صدقة ! » وانفجرت
تبكى كمن أصابتها نوبة هستريا ، زاعمةً أننى روّعتها . ووقفت أنا واجماً
أفكر . ان هذه الذكريات شاقّة على النفس يا صديقى . هذا ما نجده لدى
كبار الفنانين : ان قصائدهم تصور فى بعض الأحيان مشاهد « أليمة » تظل
تقبض صدرك طول حياتك كلما تذكرتها . من ذلك مناجاة « عطيل »
الأخيرة ، ومشهد « أوجين » على قدمى تاتيانا ، ولقاء السجين الهارب
والطفلة الصغيرة فى « بؤساء » فكتور هوجو . ان هذه المشاهد تلمن قلبك
مرة ، ثم يبقى الجرح نازفاً الى الأبد . آه . ما كان أشد نفاذ صبرى
وأنا انتظر وصول صونيا ، ولم كنت أود أن أقبلها فى أقرب وقت ؟ لقد
أخذت أضع برنامجاً كاملاً لحياة جديدة . أخذت أفكر فى الوسائل التى
سأعمد اليها لأزيل من نفسها ، شيئاً بعد شئ ، بجهد متصل منظم ، خوفها
الدائم منى ، ولأنهمها قيمتها الكبيرة ، ولأجعلها تدرك أنها تفوقنى كثيراً .
آه . لقد كنت أعلم ، حتى منذ ذلك الحين ، أننى أحب أمك متى

انفصلت عنها ، فاذا اجتمعنا من جديد ، فتر جبي وبرد • ولكن شيئاً آخر
حدث حينذاك •

كنت مدهوشاً • وهذا سؤال يبرق في ذهني : ماذا عنها « هي » ؟
وسألته في حذر •

- وكيف تم اللقاء ؟

- في ذلك الوقت ؟ لم يتم لقاء • وصلت إلى مدينة كونيغسبرج بعد
عناء شديد ، وبقيت بها ، وكنت أنا على نهر الراين • لم أذهب إليها ، بل
أرسلت أمرها بأن تبقى حيث هي • التقينا بعد ذلك بمدة طويلة ••• مدة
طويلة جداً ••• حين ذهبت استأذنها في أن أتزوج •

لن أذكر هنا الا الأشياء الأساسية ، أى ما استطعت أن أحفظه •
 زد على ذلك أنه قد أخذ يتكلم بدون تسلسل ولا ترابط ، وتضاعف
 تفكك أقواله وتشوشها واضطرابها عشر مرات منذ بلغ من حديثه
 هذا الموضع •

لقد لقي كاترين نيقولايفنا مصادفةً ، حينما كان ينتظر ماما ، بل
 حينما كان نفاذ صبره أثناء هذا الانتظار قد بلغ قمته • كانوا يومئذ جميعاً
 على نهر الراين ، يقضون موسم المياه المعدنية • وكان زوج كاترين ايفانوفنا
 يحتضر تقريباً ، أو قل على الأقل ان الأطباء كانوا يأسين منه فهو بحكم
 المحتضر •

خطفت كاترين ايفانوفنا بصر أبى منذ أول لقاء ، حتى لكأنها رمته
 بسحر • كان ذلك قدراً محتوماً • لاحظوا أنتى ، وأنا أسجل وأتذكر
 الآن هذا كله ، لا أذكر أن فرسيلوف استعمل فى حديثه كلمة « الحب »
 مرة واحدة ، ولا قال انه « شغف » ، وانما استعمل كلمة « القدر » ،
 فحفظت هذه الكلمة •

ولقد كان الأمر قدراً بالفعل • انه « لم يرد » ذلك ، لم يرد أن
 يجب • لا أدري هل أقدر أن أعبر عن هذا تعبيراً واضحاً • المهم أنه
 كان مستاءً بكل نفسه من أن هذا الأمر قد أمكن أن يقع له • ان كل

ما كان يملكه من حرية فد زال دفعه واحدة حين كان ذلك اللقاء ، ووجد الرجل نفسه مشدودا حتى الأبد الى امرأة ليس بينه وبينها شيء مشترك . انه لم يرغب فى ان يستعبده الهوى هذا الاستعباد . يجب ان اقول اليوم بصراحة : ان كاترين يقولوا ايضا نموذج نادر فى نساء المجتمع الراقى ، نموذج لعل المرء لا يقع عليه فى تلك الليثات . هى نموذج امرأة بسيطة صريحة الى أقصى حدود البساطة والصرامة . ولقد سمعت ، بل علمت من مصدر موثوق به ، أن هذا بعينه هو ما يجعلها كاسحة لا سبيل الى مقاومتها حين تظهر فى المجتمع (وكانت فى كثير من الأحيان تبتعد عن المجتمع ابتعاداً تاماً) . وكان فرسيلوف ، أثناء ذلك اللقاء الأول ، لا يظن أن لها هذه المزاي ، حتى لقد ظن تقيض ذلك ، أى اعتقد انها امرأة متصنعة منافقة . وسأستبق الأمور فأذكر هنا ما كان من رأيها هى فيه . لقد قالت ان رجلاً مثاليّاً لا يمكن أن يحكم عليها غير هذا الحكم ، لأن المثالى حين يصطدم بالواقع يكون محمولاً أكثر من سائر الناس على افتراض جميع أنواع العيوب . لا أدري هل يصدق هذا الرأى على المثاليين عامة ، ولكننى أعرف أنه يصدق عليه . وأحب أن أضيف هنا رأى أنا ، وهو رأى تكوّن فى ذهنى بينما كنت أصغى اليه : لقد قلت لى نفسى انه كان يجب ماما حباً انسانياً شاملاً ان صحح التعبير ، لا ذلك الحب العادى الذى يشتعل فى نفس المرء حين يحب نساء ، وانه منذ أول اتصال له بامرأة أحبها ذلك الحب العادى ، قد أسرع ينبذ ذلك الحب ويرفضه ، بسبب عدم التعود فى أغلب الظن . على أن هذه الفكرة ربما كانت خطأ . وأنا لم أعبرّ له عنها على كل حال . ولو فعلت ذلك لما كنت لبقاً . لا سيما وأنه كان فى حالة توجب على المرء أن يداريه . لقد كان مضطرباً اضطراباً رهيباً . حتى انه فى بعض المواضع من حديثه كان ينقطع عن الكلام على حين فجأة أحياناً ، ويبقى صامتاً عدة دقائق وهو يذرع أرض الغرفة منقلب السحنة

ولم تلبث كاترين نيقولايفنا ان نفذت الى سره ، ولعلها تفنّجت له ان الأنتى لا تتنازل عن القيام بدورها ، حتى اطهر النساء . هذه عندهم غريزة لا يستطيعن مقاومتها . ثم انتهى كل شيء بقطيعة عنيفة ، بل أظ أنه أراد أن يقتلها . لقد اخافها ، ولعله كان يمكن أن يقتلها . « لكن ذلدا كله استحالة فجأة الى كره » . ثم جاءت مرحلة أخرى عجيبة . لقد تملكته فكرة غريبة على حين فجأة : ان يعذب نفسه باتباع رياضة نفسية قاسية هي « تلك الرياضة نفسها التي يستعملها الرهبان » . فباتباع هذه الرياضة اتباعاً تدريجياً منظماً مطرداً تتوصل الى التغلب على ارادتك ، بادبأنفه الأشياء وأيسرها ، متتياً بتحقيق انتصار كامل على ارادتك ، فصيبه حراً » . وأضاف أن هذه الرياضة التي يتبعها الرهبان بالتقشف وتمذيب النفس ليست لعباً ، بل هي علم نشأ من تجربة دامت ألف سنة . على أ، أهم ما في الأمر هو أن فكرة « ترويض » النفس هذه لم تنشأ في ذهنه عر رغبة في التحرر من كاترين نيقولايفنا ، بل عن اقتناع كامل بأنه لا يحذر كاترين نيقولايفنا وانما هو يكرهها . وقد بلغ من قوة الاعتقاد بهذا الكره أنه زوّج له فجأة أن يحب ابنة زوجها ، التي أغواها الأمير وتركها ، وأد يتزوجها ، وأنه آمن هو نفسه بهذا الحب الجديد ، واجتذب اليه حباً تلك البلهاء المسكينة التي هيا لها هذا الحب في الأشهر الأخير من حياتها سعادة كاملة . لماذا لم يتذكر ماما التي كانت لاتزال تنتظر بمدينة كونجسبرج ، بدلا من تلك الفتاة البلهاء؟ ذلك سؤال يظل عندي بلا جواب ! . . . لقد نسي ماما نسياناً مبالغاً تاماً ، حتى لقد انقطع عز ارسال شيء من المال اليها لتعيش ، فاضطرت أن تستنجد بتاتيانا بافلوفا التي أغاثتها وكفلت لها الخلاص . ولكنه ذهب الى ماما فجأة ليطلب منها « اذ بتزوج تلك الفتاة » ، متمللاً بأن « خطيبة » كهذه ليست امرأة . « قد تكور هذه الصورة كلها صورة رجل « مستمد من الكتب » كما وصفته بذلك كاترين نيقولايفنا فيما بعد ، ولكن لماذا يكون هؤلاء « الرجال المستمدوز

من الكتب ، (اذا صح أنهم كذلك) قادرين على ان يعذبوا أنفسهم حقاً رغم كل شيء ، وأن يصلوا الى مآسى كهذه المآسى ؛ على أنني في ذلك المساء فد فكرت في الأمر تفكيراً يختلف عن هذا قليلاً ، وبرقت في ذهني فكرة أخرى :

- ان ثقافتك ونفسك كلها قد كلفتك عذاباً ومارك ظلمت تخوضها طول حياتك ، أما هي فقد تلقت الكمال مجاناً . وهذا ليس من المساواة في شيء . ذلك ما يثير الحنق في المرأة .
قلت له هذا لا لأرضيه ، وانما قلته بحرارة وحتى باستياء . فقال مدهوشاً من كلماتي :

- الكمال ؟ كمالها ؟ ألا انها محرومة من أي كمال ! انها امرأة عادية جداً . امرأة لا قيمة لها بتاتاً ولكنها مضطرة أن تحصل كل أنواع الكمال .
قلت :

- لماذا مضطرة ؟

فصاح غاضباً :

- لأنها تملك قوة كهذه القوة ، فهي مضطرة أن تحصل كل أنواع الكمال .

- الأمر المحزن أنك معذب حتى الآن .

أفلتت مني هذه الجملة بغير ارادة . فوقف أمامي متحيراً ، وقال مردداً :

- حتى الآن ؟ معذب ؟

وأضامت وجهه على حين فجأة ابتسامة هادئة طويلة واجمة ، ورفع

أصبه كمن قرر أمراً . حتى اذا ناب الى نفسه تماماً تناول من على الماء رسالة مفوضة ورماها أمامي قائلاً :

- خذ ! اقرأ ! يجب أن تعرف كل شيء على الاطلاق لما تركتني انبش هذه الحماقات كلها طول هذه المدة ؟ ان هذا لا يزيد ان يحق قلبى !

لن استطع أن أعبر عما اعتراني من دهشة ! لقد وصلته الرسالة منها « هى » ، فى هذا اليوم نفسه ، الساعة الخامسة من المساء قرأت الرسالة وأنا أرتعش من الانفعال تقريباً . لم تكن الرسالة طويلة لكنها تبلغ من الصراحة والصدق أننى كنت ، وأنا أقرؤها ، أتمثل كاتبة أمامي وأسمع صوتها متكلمة . ان كاترين يقولاننا تعبر له فى الرسالة تعبيراً مخلصاً كل الاخلاص (أى تعبيراً مؤثراً) عن خوفها منه ثم تتوسل اليه أن « يدعها وشأنها تعيش فى سلام » ، وتبلغه فى خذ الرسالة أنها ستتزوج بيورنج فعلاً . ولم تكن قد كتبت اليه قبـ اليوم أبداً .

واليكم ما فهمته من أقواله :

ماكاد يفرغ من قراءة هذه الرسالة حتى أحس فى نفسه فجأة بأمر لم يكن يتوقعه قط : لقد شعر ، لأول مرة خلال هاتين السنتين المشؤمتين ، بأنه لا يحمل لها أى كره ، ولا تهتز لها نفسه أى اهتزاز هو الذى « فقد صوابه » منذ مدة قصيرة حين سمع اسم بيورنج . حتى لا قال لى بماطفة عميقة : « بالعكس : باركتها من كل قلبى » . سمعت هـ هذه الكلمات معجياً . هكذا زايله كل ما كان يضطرم فى قلبه من هو ومن عذاب ، زايله دفعة واحدة ، من تلقاء نفسه ، كأنه كان حليماً ، كأ كان مساً ثم مضى ! وقد دهش هو من نفسه ، فأسرع يذهب الى أمى فدخل عليها لحظة أصبحت « حرة » ، أى لحظة مات الشيخ الذى أوص

بالأمس أن يتزوجها • ولقد هزته هاتان المصادفتان هزاً قوياً • وبعد قليل ،
خرج يبحث عنى • لن انسى ايدا اننى سرعان ما خطرت بباله •
لا ولن انسى نهاية تلك السهرة • ان هذا الرجل قد تبدل مرة
أخرى تبدلاً كبيراً مبالغاً • بقينا معاً الى ساعة متأخرة من الليل • سأحدث
فيما بعد عن الاثر الذى أحدثته فينا « النبأ » ، سأحدث عنه فى حينه •
أما الآن فسوف أقصر على بضع كلمات أختم بها كلامى عنه هو • اننى
لأدرك ، حين أفكر الآن ، أن ما فتنتى فيه حينذاك هو ذلك النوع من
الانقياد لى ، ذلك الاخلاص الصادق فى مخاطبة فتى مثلى ! لقد هتف
يقول : « كان ذلك ضلالاً » • ولكن بورك ذلك الضلال ! فلولا لكان
يمكن ألا أهتدى فى قلبى ، اهتداءً كاملاً أبدياً ، الى ملكتى الوحيدة ،
الى شهيدتى ، أمك • هذه الكلمات الحارة التى أفلتت منه بقوة لا تقاوم ،
الما أسجلها هنا من أجل تيمة القصة • ولكنه كان قد غزا قلبى وأسر
نفسى •

أذكر أننا صرنا فى النهاية الى مرح جنونى • أمر بشمبانيا ، فشربنا
« نخب » ، « ماما » ، و « نخب » المستقبل • وكان يزخر حياة ، ويفيض تأهباً
وتهيؤاً للحياة ! ولكن مرحنا الجنونى لم يكن سببه الخمر : فلم يشرب
كل منا الا كأسين اثنين • لا أدرى لماذا أصبحنا فى النهاية نضحك عاجزين
عن كبح ضحكنا • أخذنا نتكلم فى أمور لا قيمة لها • روى نكات • ورويت
نكات • وكانت الضحكات والنكات بريئة كل البراءة ، خالية من أية
سخريه ، ولكنها كانت تزيدنا مرحاً • وكان لا يريد أن يخلى سبيلى
فهو ما ينفك يقول : « ابق ، ابق » ؛ وبقيت • حتى اذا خرجت صحبى •
كان الليل رائماً ، وكان جليد خفيف •

سألته فجأة بدون سابق تفكير ، وأنا أصافحه مرة أخيرة عند

منعطف :

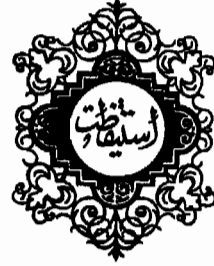
- قل لي : هل أجبتها ؟

- لا، لم أجبها بعده . ولكن لاقيمة لهذا . تعال غدا، تعال في وقت أبكر . آ . آ . آ . شئ آخر : اترك لامير نهائياً ، ومزق « الوثيقة » بأقصى سرعة . استودعك الله .

فال ذلك ومضى فجأة . فبقيت مسمّراً في مكاني وقد بلغت من الاضطراب انني لم أجرؤ أن أناديه . هزّنتي كلمة « الوثيقة » خاصة : من عسى يحدثه عنها بهذه الألفاظ الدقيقة غير لامير ؟ وعدت الى البيت قلقاً أشد القلق . وبرق في ذهني سؤال : كيف يمكن أن يزايله في مثل لمح البصر « مس دام سنتين » ، ثم اذا هو يختفي كحلم ، يتبدد كدخان ، يغيب كرؤيا ؟

الفصل التاسع

١



في الغداة أنضرت همةً وأحسن حالاً . حتى
لقد رأيتني آخذ على نفسي ، بغير غضب، شيئاً
من الخفة ونوعاً من التعالي ظهراً على أمس حين
كنت أصغى الى بعض الفقرات من « اعترافه » .

لقد كان اعترافه مفككاً في بعض الأحيان ، وكان عدد من أقواله غامضاً
مبهماً بل مضطرباً مشوشاً لا ترابط فيه ولا اتساق بين أجزائه . ولكن هل
كان قد أعدّ خطابَ خطيبٍ حين دعاني الى بيته ؟ حسبي أنه شرفني
باللجوء اليّ كما يلجأ صديق الى صديقه الوحيد في مثل اللحظة التي
كان فيها . لن أنسى له هذا ما حيت . بل لقد كان اعترافه « مؤثراً في
القلب » ، أقول هذا ولو سخر من هذا التعبير ساخرون . ولئن اشتمل
هذا الاعتراف على عناصر مستهترة ، أو حتى مضحكة قليلاً ، فلقد كنت
أرحب صدرأً وأوسع أفقاً من ألا أفهم أو ألا أقبل الواقعة - دون
أن ألتجئ المثالية على كل حال . أخيراً فهمت هذا الرجل ؛ ولقد ساءني
وأحزنتني قليلاً أن أرى أمره بسيطاً كل تلك البساطة : هذا الانسان ،
كنت في قرارة قلبي أنزله أعلى منزلة ، وأضعه فوق السحب . فكان
لا بد لي حتماً أن ألفت مصيره برداء من السر ، وكنت أتمنى طبعاً ألا
ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة . ثم لقد كان هناك ، في لقائه
« معها » ، وخلال هاتين السنتين من العذاب ، أشياء أخرى كثيرة معقدة :

« لم يرد ذلك القدر • كان في حاجة الى الحرية لا الى عبودية القدر •
عبودية القدر هذه هي التي اضطرت ان يجرح شعور ماما التي كانت
تنتظره في لونغسبرج ••••• • وعدا ذلك ، كان هذا الانسان في نظري
داعية ومبشراً على كل حال : كان يحمل في قلبه العصر الذهبي ، ويعرف
مستقبل الالحاد • ثم اذا بلاقائه معها قد حطم كل شيء ، وشوّه كل شيء •
أنا لم أختها طبعاً ، ولكنني مع ذلك قد انحزت اليه • كنت أقول لنفسي :
ما كان لماما مثلاً أن تحرفه عن طريقه ولو تزوجته • وكنت أحس أن
لقاءه مع « الأخرى » أمر مختلف كل الاختلاف • صحيح أن ماما ما كانت
لتحيته بالهدوء والسكينة • ولكن هذا أفضل • ان أمثال هؤلاء الرجال
ما ينبغي أن ' يحكم عليهم بالمقاييس التي ' يحكم بها على غيرهم • ان
لهم شأنًا خاصاً • ان حياتهم ستقتضي دائماً على هذا النحو • وليس في
ذلك شذوذ • بالعكس : فانما الشذوذ أن يجذوا الهدوء ، أو أن يصبحوا
كسائر الناس المتوسطين • ان افتخاره بالنبالة وقوله « ساموت سيداً »
لم يقلقاني • لقد أدركت ما السيد الذي كان يعنيه : انه السيد الذي
يهب كل شيء ، ويشتر بمواطن الكون ، ويشيع الفكرة الروسية الداعية
الى « لقاء الأفكار لقاء شاملاً » • لعل هذا كله كان سخافات وحماقات ،
أعنى « لقاء الأفكار لقاء شاملاً » (مع أنه لا غنى عنه طبعاً) ، ولكن ألم يكن
حسناً أنه نذر حياته للفكرة ولم يقفها على عجل الذهب ؟ ولكن أنا •••
رباه ••• هي أنا انحيت لعجل الذهب حين تصورت فكرتي ؟ هل المال
هو ما كنت في حاجة اليه ؟ يميناً لم أكن في حاجة الا الى الفكرة ! يميناً
لو ملكت المال لما نجّدت كرسياً واحداً ولا ديواناً واحداً بالقטיפه ،
ولما أكلت غير صحن الحساء الذي آكله اليوم مع مائة مليون !

لبست ثيابي ، وشعرت بقوة تدفعني اليه ولا أستطيع مغالبتها • يجب
أن أضيف هنا أنني فيما يتعلق بإشارته الى الوثيقة أمس ، قد وجدته

اهداً بالا • قلت لنفسي أتتى قد أبحث هذا الموضوع معه • وای ضير
في أن يكون لامير قد تسلك اليه وحدته عن تيء ؟ وكانت فرحتي الكبرى
هي احساسى الغريب بأنه أصبح لا • يحبها • • كنت مقتنعاً بهذا اقتناعاً
مطلقاً • وكنت أحس أن ثقلاً رهيباً قد نزل عن قلبي • حتى اننى أتذكر
افتراضاً مرّ بخاطري : ان ما اشتملت عليه غضبته المسعورة من شذوذ
عجيب رهيب حين جاءه نبأ بيورنج ، وما لجأ اليه عندئذ من ارسال رسالته
تلك التى احتوت على سب وشتم ، أقول ان ذلك العنف كله ربما كان
إيداناً بتغيير جذرى فى عواطفه وعودة سريعة الى الحس السليم والعقل
الراجح • قلت لنفسي : ان هذا لا بد أن يكون شيئاً بالنوبة التى تحدث
فى مرض ثم يقعبها نقيضها ! فما ذلك الا مرحلة طيبة ! وقد أسعدتني
هذه الفكرة •

وهتفت أقول : « الآن فلتتصرف فى مصيرها كما تشاء ، ولتتزوج
بيورنج ما حلا لها ذلك ، فانما المهم أنه هو ، أبى ، صديقى ، قد زال
حبه لها • • • على أن عواطفى أنا قد كان فيها سر • ولست أريد فى
مذكراتى هنا أن أُلحَّ عليه أو أكشف عنه •

ولكن كفى ! الآن سأروى جميع الأهوال التى تعاقبت ، بدون أى
مدارة فى هذه المرة •

فى الساعة العاشرة ، فيما كنت أتهيأ للخروج (لأذهب اليه طبعاً)
جاءت داريا أونيسيوفنا . فسألتها مرحباً هل هو أرسلها الىّ ، فأخزنتى
أن أعلم أنه ليس هو الذى أرسلها ، وانما أرسلتها أنا أندريفنا ، وأنها -
هى داريا أونيسيوفنا - « قد خرجت من البيت عند طلوع الصباح » .

- أى بيت ؟

- البيت نفسه ، بيت أمس . ان البيت الذى كنت فيه أمس ، أعنى
بيت الطفل ، مستأجر الآن باسمى أنا ، ولكن تاتيانا بافلوفنا هى التى
تدفع ...

قاطعتها غاضباً أقول :

- ما شأنى أنا وهذا ! ولكن هو ، هل هو فى البيت ؟ هل أجده
اذا ذهبت اليه ؟

فما كان أشد دهشتى حين علمت أنه خرج قبل أن تخرج هى ،
فاذا كانت قد خرجت هى عند طلوع النهار ، فقد خرج هو قبل طلوع
النهار .

- لعله يكون قد رجع الى البيت الآن ؟

- لا ، انه لم يرجع حتماً ، وربما لا يرجع أبداً .

قالت ذلك وهى تحدّث الى بنظرتها الحادة الماكرة التى سبق أن
ضقت بها وانزعجت منها حين زارتنى مريضاً فى السرير • ان ما أحقنى
بخاصة هو هذه الأسرار وهذه السخافات التى تعود الى الظهور : ان
هؤلاء الناس يصرون على ألا يستغنوا عن السر والمكر •

– لماذا قلت « ربما لا يرجع أبداً » ؟ ماذا تعنين بهذا ؟ لقد ذهب
الى ماما وهذا كل شىء !

– لا أدرى •

– ولكن ما جاء بك أنت ؟

فقلت لى انها الآن آتية من عند آنا أندريفنا ، وان
آنا أندريفنا تدعونى أن أجيء اليها حالاً ، والا « فات الأوان » • فأحقتنى
هذا الكلام الملعز مرة أخرى وأخرجنى عن طورى :

– لماذا يفوت الأوان ؟ لا أريد أن أذهب اليها ولن أذهب ! لن أنقاد
للتضليل مرة جديدة ! اننى لا أعبأ بلامبير ! قولى لها هذا • فاذا أرسلت
لى لامبير ، فلأطردته ركلاً بقدمى •

ارتاعت داريا ارتباعاً رهيباً •

قالت وهى تتقدم منى خطوةً وتضم يديها احدهما الى الأخرى
ضارعة متوسلة :

– لا ، انتظر • لا تسرع الى الغضب هذا الاسراع • ان الأمر
خطير ، بل خطير جداً بالنسبة اليك ، واليهم أيضاً ، الى أندره بتروفتش ،
والى أمك ، والى الجميع • فاذهب الى آنا أندريفنا حالاً ، لأنها لا تستطيع
أن تنتظر مدة أطول • • أحلف لك بشرفى • وبعد ذلك تتخذ قراراً •

نظرت اليها مدهوشاً مشمئزاً • وهتفت أقول بعناد وعداوة :

- سخافات • لن يحدث شيء • لن اذهب • تغير الآن كل شيء •
هل أنت قادرة على أن تفهمي؟ مع السلامة يا داريا أونيسيوفنا • لن
أذهب • عمداً لن اذهب • وعمداً لن أسألك عن شيء • والا أفقدتني
صوابي • لا أريد أن أحشر أنفي في أسراركم •

ولكنها لم تنصرف ، بل ظلت متسمرة في مكانها ، فلم يسعني الا أن
أتناول معطفي وطاقيتي ، وأن أخرج تاركاً اياها في وسط الغرفة • لم يكن
في غرفتي رسائل ولا أوراق ، ولا كنت أفعلها بالمفتاح في أى يوم من
الأيام تقريباً حين أخرج • ولكن ما كدت أصل الى الباب المفضي الى الشارع
حتى رأيت مؤجر غرفتي بطرس هيبوليتوفتش يركض ورائي بدون
قبعة وبدون سترة •

- آر كادي ماكاروفتش ! آر كادي ماكاروفتش !

- ما بك أنت أيضاً ؟

- ألا تأمر بشيء قبل أن تخرج ؟

- لا •

فنظر الى نظرة نافذة فيها قلق واضح ، وقال يسأل :

- فيما يتعلق بالبيت مثلاً ؟

- فيما يتعلق بالبيت ؟ ألم تستلم الأجرة ؟

- ليس الأمر أمر الأجرة •••

قال ذلك وهو يتسهم ابتسامة طويلة على حين فجأة ، وبظلم يتفحصني

بنظراته • فصحت أقول غاضباً :

- ولكن ماذا حدث لكم جميعاً ؟ ماذا تريد أنت ؟

فانتظر بضع ثوان ، كأنه لا يزال يأمل مني شيئاً • ثم دمدم يقول

وهو يتسهم ابتسامة أطول :

- اذن تأمرنى فيما بعد ، مادمت الآن معتكر المزاج . طيب . مع
السلامة . أنا أيضاً يجب أن أذهب الى المكتب .

وعاد يصعد السلم راكضاً . ان هذا كله يبحث على التفكير طبعاً .
وأنا أتمدأ أأ أغفل أى تفصيل من تفاصيل هذه السخافات الصغيرة ،
لأن كل واحد منها قد وجد مكانه من بعد فى مجموعها المتشابك . هذه
حقيقة . ولئن ضقت ذلك الضيق كله ، وحنقت ذلك الحلق كله ، فلأنتى
عدت أجد فى أقوالهم لهجة المكر واللفز تلك التى كنت أتعزز منها
وكانت تذكرنى بالماضى .

ولكن فلأتابع حديثى .

لم أجد فرسيلوف فى البيت : كان قد خرج فعلاً مع طلوع النهار .
وقفت أقول لى نفسى : « سأجده عند ماما حتماً » . ولم أسأل الخادمة عن
شئ . انها امرأة غبية . ولم يكن فى البيت أحد غيرها . ركضت متجهاً
الى بيت ماما . أعترف بأننى كنت قلقاً غاية القلق . حتى لقد ركبت عربة
بعد أن قطعت نصف الطريق . فعرفت هناك « أنه لم يجرىء الى بيت ماما
منذ مساء أمس » . لم يكن مع ماما الا تاتيانا بافلوفنا و ليزا . وما ان دخلت
حتى تأهبت ليزا للخروج .

لاتزالان تقيمان فوق، فى «تابوتى» . وتحت، فى الصالون، كان
جثمان ماكار ايفانوفتش مسجى على المائدة ، وكان شيخ مجهول يقرأ
عليه المزامير . لن أصف بعد الآن شيئاً مما لا يتصل بالتضحية اتصلاً
مباشراً . لكننى أحب أن أسجل أن النعش الذى صنع له و وضع فى
الغرفة لم يكن نعشاً مبتدلاً : صحيح أنه أسود ، ولكنه مفروش بقطيفة ؛
والكفن ثمين : ترف لا يناسب الشيخ ولا يناسب اعتقاداته . ولكن تلك
كانت رغبة ماما و تاتيانا بافلوفنا ، حرصتا عليها أشد الحرص .

لم أكن أنتظر طبعاً أن أراهن في مرح • لكننى ما ان رأيت الحزن
الساحق والقلق الشديد والهم الثقيل فى أعينهن حتى قدّرت أن « هناك
شيئاً آخر غير المتوفى قطعاً ، • اعود فأكرر أنى أتذكر هذا تذكراً
واضحاً •

ومع ذلك قبلت ماما بحنان ، ثم لم ألبث أن سألتها « عنه » • فسرعان
ما اشتعل فى نظرتها استطلاع قلق • فبادرت أضيف أننا قضينا السهرة
معاً الى ساعة متأخرة من الليل ، ولكننى لم أجده اليوم فى البيت ، فقد
خرج مع طلوع النهار ، رغم أنه طلب منى فى الليلة البارحة ، حين
افترقنا ، أن أجيء اليه فى أبكر وقت • لم تجب ماما بشيء ، ولكن تأتينا
بافلونا انتهزت فرصة فلوحت لى بأصبعها مهددة •

وقالت ليزا فجأة بלהجة قاطعة وهى تخرج من الغرفة مسرعة :
- استودعك الله ، أخى •

وبادرت ألحق بها طبعاً ، فوجدتها واقفة تنتظرنى عند الباب •
قالت لى بهمس سريع :

- قدّرت أنك ستنزل •

- ماذا حدث يا ليزا ؟

- أنا نفسى لا أعلم • ولكن لا بد أن أشياء كثيرة قد حدثت • لا بد
أنها خاتمة هذه « القصة الأبدية » • لم يجيء • ولكن وصلتهم أخبار عنه •
لن يحكوا لك شيئاً • فكن هادئاً ، ولا تسألهم أى سؤال اذا كنت تملك
بعض الذكاء • أنا أيضاً لم أسأل • ماما مرهقة • الى اللقاء !

وفتحت الباب • قلت :

- ليزا ! وأنت ، أليس بك شيء ؟

ووثبت أدركها فى الدهليز • ان هيئتها المهذودة المكروبة الياسة قد

طغنت قلبي . فنظرت الى نظرة لم تكن غاضبة فحسب ، بل كانت كاسرة
أيضاً . ثم ابتسمت ابتسامة مرة ، وحركت يدها بإشارة يأس .

وفيما كانت تهبط السلم منصرفةً ، هتفت تقول :

- اذا مات فيجب أن نحمد الله .

كانت تعني الأمير سرجي بتروفتش الذي كان راقداً مع حمى
وغيبوبة . حدثت نفسي محققاً : « القصة الأبدية ؟ أية قصة أبدية ؟ » ،
وسرعان ما ساورتني رغبة قوية في أن أحدثهم عن جزء - على الأقل -
مما أحسست به بعد سماع « اعترافه » في الليلة البارحة ، وأن أذكر لهم
ذلك الاعتراف ذاته . « انهم يحملون آراء سيئة فيه . ألا فيلعلموا اذن
كل شيء ! » . تلك هي الفكرة التي لمت في خاطري .

أذكر انني بدأت الكلام بغير خرافة ، فسرعان ما أثرت اهتمامهما
واجتذبت انتباههما . حتى ان تاتيانا بافلوفنا كانت تشرب أقوالى شرباً ،
وذلك نبيء لم يسبق أن حدث من قبل . وكانت أمي أكثر تحفظاً .
كانت رصينة جداً ، ولكن ابتسامة خفيفة رائعة ، وان تكن يائسة كل
اليأس ، قد أضاءت وجهها ولازمته الى نهاية الحديث . واسترسلت في
الكلام ، رغم علمي بأنهما لا تكادان تفهمان ما أقول . وقد أدهشني كل
الادهاش أن تاتيانا بافلوفنا لم تحاول أن تناكدني ، فلا سألتني توضيحات
ولا نصبت لي فخاخاً ، كما كان من عاداتها أن تفعل حين أتكلم . وكانت
تقتصر على أن تزعم شقيتها وتغمض عينيها نصف اغماض من حين الى حين
كأنما هي تجهد أن تفهم . حتى لقد بدا لي في بعض اللحظات أنهما كاتتا
تدركان كل شيء . غير أن ذلك كان مستحيلاً في الواقع . تحدثت
مثلاً عن اعتقاداته وآرائه ، وعن حماسه أمس ، عن حماسه لماما
خاصةً ، عن حبه لماما ، ورويت كيف قبل صورتها . . . فكاتتا ، وهما
تصفيان الى كلامي ، تبادلان نظرات سريعة صامتتين . واحمرت ماما

احمراراً شديداً • وظلتنا كلاتهما لا تقولان شيئاً • ثم ••• ثم
• كنت لا أستطيع طبعاً ، بحضور ماما ، أن ألمس النقطة الأساسية ، أعني
لقاء مع الأخرى ، و « انبعاثه » الروحي بعد تلقيه تلك الرسالة • وكان
ذلك هو الأمر الجوهرى فى الواقع • وهكذا فان جميع عواطفه التى عبر
عنها فى الليلة البارحة والتى كنت آمل أن أبهج بها ماما كثيراً ، بقيت
غامضة غير مفهومة بطبيعة الحال ، ولم يكن الذنب فى ذلك ذنبى ، لأن كل
ما كان يمكننى أن أقوله ، قد قلته بل أحسنت قوله جداً • فلما اتهمت
كنت مرتبكاً أشد الارتباك • واستمر صمتها • فوجدت نفسى معها فى
ضيق شديد • فقلت وأنا أنهض لأنصرف :

– لا بد أنه رجع الى البيت الآن • أو لعله ذهب الى بيتى فهو
ينتظرنى هناك •

فقال تاتيانا بافلوفنا مؤيدة بلهجة قاطعة :

– طيب • اذهب اليه ، اذهب اليه !

وسألتنى ماما بهمس :

– هل ذهبت الى تحت ؟

– نعم ، حيث جثمانه ، وصلت له • ما أجمله من وجه هادى •
يا ماما ! شكراً لأنك لم تقصرى فى أمر النعش أى تفسير • لقد
استغربت ذلك فى أول الأمر ، ولكننى سرعان ما أدركت أننى لو كنت
فى مكانك لفعلت ما فعلته أنت •

سألتنى أمى مختلجة الشفتين :

– هل تأتى غداً الى الكنيسة للجنازة ؟

فقلت مدهوشاً :

– كيف لا يا ماما ؟ سأحضر قداس اليوم ، وآتى غداً أيضاً •
وغداً عيد ميلادك يا ماما ، يا صديقتى الغالية ! لم ينقصه الا ثلاثة أيام !

وانصرفت مدهوشاً دهشة ألينة : يا له من سؤال سخيف ! كيف
تسألنى هل أتى الى الكنيسة أم لا ؟

وإذا كانتا تخشيان ألا أتى أنا ، فما عسى تكون خشيتهما من
ألا يأتى ، هو ، ؟

وكنت أعلم أن تاتيانا بأفلوفنا قد تلحق بى ، فتعمدت أن أفق عند
العتبة . وأدركتنى فعلاً ، لكنها دفعتنى بيدها الى السلم ، وخرجت بعدى
وأغلقت الباب .

- تاتيانا بأفلوفنا ! هل تتوقعان اذن ألا يجيى آندره بتروفتش
لا اليوم ولا غداً ؟ اننى خائف ...

- اسكت . يا له من أمر عظيم أن تكون خائفاً !!! . قل : انك
لم تذكر كل شىء حين رويت ما رويته عن الليلة البارحة ، أليس كذلك؟

لم أجد داعياً الى الكتمان ، فحكيت لها - وأنا شسبه غاضب على
فرسيلوف - حكاية الرسالة التى وصلته من كاترين نيقولايفنا ، والأمر
الذى أحدثته تلك الرسالة فى نفسه اذ بعثته بعثاً جديداً . فما كان أشد
استغرابى حين لاحظت أن واقعة الرسالة لم تدهشها ، فأدركت أنها على
علم بأمرها .

- ألا تكذب فيما تقول ؟

- لا ، لا أكذب .

فابتسمت ابتسامة ساخرة وكأنها تفكر ، ثم قالت :

- هه ! بعث بعثاً جديداً ! لا ينقص الا هذا ! هل صحيح أنه
قبّل الصورة ؟

- صحيح يا تاتيانا بأفلوفنا .

- قبّلها بماطفة ، أم تظاهر تظاهراً ؟

- تظاهر تظاهراً؟ هل يتظاهر أحياناً؟ عيب يا تاتيانا بافلوفنا! ان لك نفساً قاسية ، نفس امرأة!

قلت ذلك بحرارة ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمعني . كانت قد عادت تفرق في أفكارها رغم شدة البرد على السلم . كنت أنا مرتدياً معطفي ، أما هي فكانت بفستانها فقط .

قالت باحتقار وتململ :

- كان يمكن أن أعهد اليك بمهمة ، ولكن المؤسف أنك غبي غباء نديداً . اسمع : اذهب الى آنا آندريفنا ، وانظر ماذا يحدث عندها . لا بل لا تذهب ! فلن تكون هناك الا غيباً . امش . ما بقاؤك هنا متسماً كنصب؟

- لا ، لن أذهب الى آنا آندريفنا ! ومع ذلك فان آنا آندريفنا هي التي أرسلت تستدعيني اليها اليوم .

- هي نفسها؟ أرسلت داريا أونيسيموفنا؟

كانت تاتيانا بافلوفنا قد أدارت ظهرها وأخذت تفتح الباب لتصرف، لكنها ما أن سمعت كلامي حتى التفتت الى ثانية وألقت على ذلك السؤال وهي تغلق الباب من جديد .

كررت أقول مثلثذاً :

- لن أذهب الى آنا آندريفنا بحال من الأحوال . لن أذهب اليها ، لأنني وُصفت منذ هنيهة بأنني غبي ، مع أنني لم أكن في حياتي ذكياً نافذ البصيرة كما كنت اليوم . ان قضاياكم كلها موضوعة على راحة كفي ، أراها رؤيئة واضحة أكبر الوضوح ! على كل حال ، لن أذهب الى آنا آندريفنا .

فهمت تقول وهي لا تزال تفكر :

- كنت أعرف هذا ! لسوف يوثقونها الآن ويضعونها فى الكيس •

- آنا أندريفنا ؟

- غبى !

- من تعنين اذن ؟ كاترين نيقولايفنا ؟ أى كيس ؟

جزعت جزعاً رهيباً • ان فكرة غامضة ، لكنها فظيعة ، قد برقت فى
نفسى كلها • وألقت على تاتيانا بافلوفنا نظرة ثاقبة ، وسألتنى فجأة :
- وأنت ما شأنك وهذا كله ؟ ما دورك فى هذا الأمر ؟ لقد سمعت
شيئاً عنك أنت أيضاً • حذار.

- اسمعى يا تاتيانا بافلوفنا • سوف أكشف لك سرا رهيباً • ولكن
لا الآن • الآن لا يتسع الوقت • غداً سأكشف لك عن ذلك السر ، على
انفراد • ولكن قولى لى الحقيقة كلها فوراً : ما هذا الكيس الذى تتحدثين
عنه ؟ ذلك أن جسمى كله يرتعد ارتعاداً شديداً •••

صاحت تقول :

- لا يهمنى أن يرتعد جسمك أو ألا يرتعد • ما هذا السر
الذى تريد أن تبوح لى به فى الغد أيضاً ؟ هل تعرف شيئاً بالفعل ؟ قل
ما تعرفه بصراحة •••

وعادت تلتقى على نظرتها الفاحصة • ثم قالت تسألنى :

- ألم تحلف لها أنك قد حرقت رسالة كرافت ؟

وتابعت أنا أيضاً كلامى دون أن أجيب عن سؤالها لأننى كنت خارجاً
عن طورى :

- تاتيانا بافلوفنا ، أكرر لك •• لا تعذبنى •• انتبهى يا تاتيانا

بافلوفنا •• فبسبب ما تخفينه عنى قد تقع مصيبة أكبر • لقد كان أمس
فى حالة انبعاث كامل •

- امش يا مهرج ! أنت أيضاً هائم حياً •• الأب والابن مولئهان
بحب امرأة واحدة ! تفو ! انكما لمقرزان !

واختفت • وصفقت الباب وراها استياءً وامتعاضاً وشعرت أنا بغضب
شديد من هذه الوقاحة وهذا الاستهتار الذى لا يمكن أن تصل اليه
الامرأة ، فخرجت راكضاً وقد جرح شعورى جرحاً عميقاً • ولكننى
لن أحدثكم عن مشاعرى المضطربة : فقد عاهدتكم على ذلك • لن أحكى
الا الوقائع التى ستضع فى أيديكم الآن مفتاح كل شىء •

وقد انطلقت اليه طبعاً ، فأخبرتني الخادمة مرة أخرى بأنه لم
يرجع • سألتها :

- ولن يرجع ؟

- الله أعلم !

الوقائع ، الوقائع ! ولكن ما الذى سيستطيع أن يفهمه القارىء ؟
أتذكر أننى ، أنا نفسى ، وقد سحقتنى تلك الوقائع ذاتها ، كنت لا أستطيع
أن أفهما ، فما انتهى النهار الا كان عقلى قد انقلب رأساً على عقب فعلاً !
لذلك سأسبق الأحداث بوضع كلمات •

اليكم ما كان يدور عليه قلقي وعذابي : اذا كان قد بُعث بالأمس
بعثاً جديداً فكفَّ عن « حياها » فأين يجب أن يكون اليوم ؟ الجواب :
أولاً ، عندى ، أنا الذى قبَّلنى البارحة ، ثم فوراً عند أمى ، التى قبَّل
صورتها • ولكنه بدلاً من أن يقوم بهاتين الخطوتين ، غادر البيت عند
« طلوع النهار » ، واختفى لا يدرى أحد أين ، وتقول داريا أونيسيومونا
انه فى أغلب الظن لن يعود • أكثر من ذلك : ان ليزا تتحدث عن خاتمة
« القصة الأبدية » ، وتؤكد أن ماما وصلتها أخبار عنه ، أحدثُ من هذه
الأخبار أيضاً • وهم عدا ذلك يعرفون أمر الرسالة التى بعثتها اليه كاترين
نيقولاييفا (لاحظت أنا هذا) ، ولكنهم رغم كل شىء لا يصدقون أنه
« بعث بعثاً جديداً » ، وان كانوا قد أصغوا الىَّ بانتباه شديد • كانت ماما
مهدمةً تهديماً ، وكانت تاتيانا بافلوفنا تبسّم ابتسامة ساخرة حين أنطق
بكلمة « الانبعاث » هذه • معنى ذلك اذن أنه قد وقعت له فى الليل ثورة
أخرى ، وقعت له نوبة أخرى ، بعد كل حماسه وحنانه وتأثره بالأمس !
ومعنى ذلك اذن أن هذا « الانبعاث » كله قد تبدد كفقاعة صابون ! ولعله

الآن يعاني ذلك الاحتياج المسعور نفسه الذى أصابه حين جاءه نبأ بيورنج !
فأذا صحَّ هذا فما عسى يحدث لماما ؟ وما عسى يحدث لى أنا ، ولنا جميعاً . .
وما عسى يحدث لها « هى » خاصة ؟ ما الكيس الذى كانت تعنيه تاتيانا حين
أمرتنى أن أذهب الى آنا أندريفنا ؟ لأبد أن « الكيس » اذن عند
آنا أندريفنا ؟ ولماذا عند آنا أندريفنا ؟

وهرعت الى آنا أندريفنا طبعاً . كنت تعمدت عن غضبٍ أن أقول
اننى لن أذهب اليها . ثم هُرعَت الآن . ولكن ما الذى قالته تاتيانا بافلوفنا
عن الوثيقة ؟ أليس هو الذى قال لى أمس : « احرق الوثيقة » ؟

تلکم كانت خواطبرى . ذلکم ما كان يخفقنى . ولكننى كنت فى
حاجة اليه « هو » خاصة . معه يمكن أن أحل كل شىء فى طرفة عين ،
يمكن أن أتفاهم بوضع كلمات : آخذ يديه ، وأشد عليهما ، وأجد فى
قلبي الأقوال الحارة المناسبة . كذلك كنت أحلم . ان فى وسعى أن
أتنصر على جنونه ! . . ولكن أين هو ؟ أين هو ؟ وما كان يقصنى فى
مثل تلك اللحظة الا أن ألقى لامبير ، بينما أنا فى مثل ذلك الفوران !
وكدت أصل الى البيت ، فإذا أنا أقع على لامبير فجأة . فأخذ يطلق صيحات
فرح اذ رآنى . وتناول يدى .

– هذه هى المرة الثالثة التى أجيء اليك فيها . « أخيراً » ! هلم بنا
تتغدى .

– انتظر . أنت آت من بيتى ؟ هل آندره بتروفتش هناك ؟

– لا ، ليس أحد هناك . دعهم جميعاً ! أنت زعلت أمس يا أحقق !
كنت سكران . هناك حديث جرى بينى وبينك . علمت اليوم أبناء رائمة
عمّاً كنا نتكلم فيه أمس

طاعته أقول لاهناً متمجلاً ، صائحاً بعض الصباح برغم ارادتى :

- لاميير ، لئن وقفت فانتى لم أفف الا لأقطع صلتى بك قطعاً نهائياً .
وفد فلت لك هذا بالأمس ، غير أنك تصر على أن لا تفهم . لاميير ، أنت
صبى وغبى فى أن واحد ، كفرسى . تتخيل دائماً أنك لا تزال عند
توشار وانى لا أزال أحقق كما كنت عند توشار . . ولكننى الآن غير
ما كنت عند توشار . كنت امس سكران ، ولكن سبب سكرى لم يكن
الخمير بل أنى كنت مهتاجاً من قبل أن أشرب . ولئن أيدت ما كنت
تقوله ، فقد كنت أظاهر تظاهراً لأعرف تفكيرك . لقد خدعتك ، فسرتت
أنت وصدقتنى واستمررت فى الثرثرة . اعلم أن زواجى بها حماقة لن
يصدقها تلميذ من تلاميذ الصف الاعدادى فى يوم من الأيام . هل يمكن
أن يتخيل أحد أن أصدق هذا الكلام ؟ لكنك تخيلته أنت ! مرد ذلك الى
أنك لا تستقبل فى المجتمع الراقى ، ولا تعرف ما يجرى فيه . ان
الأمر لا تجرى عندهم بمثل هذه السهولة . ليست الأمور بسيطة هذه
البساطة فى المجتمع العالى . ليس أمراً هيناً أن تقرر فجأة أن تتزوجنى .
سأقول لك بوضوح ماذا تريد أنت : تريد أن تجتذبنى فتسقينى الى أن
أسكر فأسلمك الوثيقة وأشاركك فى مؤامرة حقيرة على كاترين نيقولايفنا !
اعلم اذن أنك مخطيء . لن أجيء اليك أبداً . واعلم أيضاً أن الورقة
ستكون بين يديها غداً أو بعد غد ، لأن تلك الورقة ملك لها ، لأنها هى التى
كتبتها ، وأسألمها اليها بنفسى ، فاذا أردت أن تعرف أين سأسألمها اياها
فاعلم أن ذلك سيكون فى مسكن تاتيانا بافلوفنا ، وبحضور تاتيانا بافلوفنا ،
صديقتها ، وأنتى لن أطلب بشيء نمتاً . والآن : الى الأمام ، سر ! والا ،
والا يا لاميير ، فسأكون أقل أدباً . . .

قلت ذلك وأخذت أرتجف . ان أسوأ عادة لدى كل انسان وأضر
عادة بكل انسان ، فى كل ظرف ، هى أن يصطنع وضع التعاطف . ما كان
أغنائى عن هذا الاندفاع الحار أمامه ! ما كان أغنائى عن هذا الخطاب الذى

كنت أوقع كلماته مترنماً وأرفع صوتي فيه أكثر فأكثر ، ثم أنهيه بذكر تلك النقطة التفصيلية النافلة ، فاقول أني ساسلمها الوثيقة بنفسى فى مسكن تاتيانا بافلوفنا ؟ لقد احسست فجأة برغبة قوية فى ادعائه واذعاله ! فحين تكلمت عن الوثيقة بتلك الفظاظاة فرأيت جزءاً غيباً يعتربه بغتة ، أردت أن أسحقه مزيداً من السحق بذكر مزيد من التفاصيل ! فكانت هذه الثرثرة المغرورة التى تلاحظ فى النساء سيباً فى وفوع كوارث رهيبية ، لأن هذه النقطة التفصيلية • المتعلقة بتاتيانا بافلوفنا ومسكنها سرعان ما نقشت فى ذهنه الذى هو ذهن انسان حقير ورجل عملى فى الأمور الصغيرة • انه فى الأمور الكبيرة الجدية تافه لا يفهم شيئاً ، أما فى هذه التفاصيل الجزئية فانه حاضر البديهة دائماً • فلو أننى لم أذكر اسم تاتيانا بافلوفنا ، لتجبت وقوع مصائب كثيرة • ومع ذلك فانه بعد أن أصغى الىّ بدا كمن فقد صوابه • قال مجمباً :

- اسمع • ألفونسين ستغنى • • ألفونسين ذهبت « إليها » • •
اسمع • عندى رسالة ، أو رسالة تقريباً ، تحدث فيها آخماكوفنا عنك •
المجدور هو الذى زوّدنى بهذه الرسالة • هل تتذكر المجدور ؟ سترى ،
سترى ! هلمّ بنا !
- كذاب ! أرنبى الرسالة !

- هى فى البيت ، عند ألفونسين • هياً بنا الى البيت !
كان يكذب طبعاً ، كان يهنى ، مخافة أن أفلت منه • لكننى تركته
فجأة فى وسط الشارع ، وحين همّ أن يتبعنى ، وقفت أهدّده بأصبعى •
فتردد لحظةً فأتبع لى أن أختنفى : لعل خطةً أخرى كانت قد نبئت فى
رأسه منذ ذلك الحين • لكن المفاجآت واللقاءات لم تكن قد انتهت بالنسبة
الىّ • اننى حين أتذكر ذلك اليوم الحافل بالشقاء ، يبدو لى دائماً أن تلك
المفاجآت واللقاءات انما كانت على موعد لتنهلّ علىّ غزيرة رهيبية • اننى

ما ان فتحت باب مسكنى حتى اصطدمت فى حجرة المدخل بشاب طويل
القامة له وجه بيضوى شاحب ، ومشية مهيبية « راقية » ، يرتدى معطفاً
رائعاً ، ويزين وجهه بنظارة أنف • كانت له نظارة أنف • ولكنه حين
رأنى خلعها (من قبيل المجاملة الأنيقة) ، وقال لى وهو يتسهم ابتسامه
رفيقة و'ينهض قبته الطويلة بأدب وتهذيب ، ولكن دون أن يقف :
« آ ••• مساء الخير ! » (بالفرنسية) ثم مضى يدرك السلم • لقد عرف
كل منا الآخر على الفور ، رغم أننى لم أراه الا مرة واحدة سريعة
بموسكو • انه أخو آنا أندريفنا ، الحاجب بالبلاط ، الشاب فرسيلوف ،
ابن فرسيلوف ، أى أخى تقريباً ، وكانت المؤجزة تصحبه مشيعة (لم يكن
زوجها قد عاد من المكتب بعد) • فلما انصرف هجمت أسألها :

- ماذا يعمل هنا ؟ هل كان فى غرفتى ؟

- لا ، لم يكن فى غرفتك • جاء يزورنى أنا •••

كذلك أجبتهى بلهجة قاطعة خشنة وهى تدير ظهرها • فهتفت
أقول صارخاً :

- لا ، لن يمر الأمر هكذا • أجيى من فضلك ماذا جاء يعمل
هنا ؟

- أوه ! هل من واجبى أن أحكى لك لماذا يجيى الناس ؟ أظن أن
من حقنا ، نحن أيضاً ، أن تكون لنا شئون خاصة • لعل هذا الشاب جاء
يقترض مالاً ، أو جاء يسألنى عن عنوان ، أو لعلنى وعدته فى المرة
السابقة أن •••

- فى المرة السابقة ؟

- آ ••• طبعاً ! فى المرة السابقة • انه لم يجيى اليوم أول مرة !
وانصرفت • أدركت أن اللهجة فى البيت تغيرت : أخذوا يغلظون لى

القول ! هذا سر جديد ! الاسرار تتراكم عند كل خطوة ، فى كل ساعة !
فى المرة الاولى جاء الشاب فرسيلوف مع أخته ، أنا اندريفنا ، حينما كنت
مريضاً . تذكرت هذا تذكراً واضحاً . وتذكرت كذلك جملة قصيرة
مدهشة أفلتت أمس من أنا أندريفنا : وهى أن الأمير العجوز سيقف
عندى . ولكن هذا كله كان يبلغ من الغرابة أننى لم أستطع أن أفهم
شيئاً . فرأيتنى أطمع جينى ، وأهرع الى بيت أنا أندريفنا حتى دون
أن أجلس لأستريح . ولم أجد أنا أندريفنا فى بيتها ، لكن البواب
السويسرى أجابنى بأنها « سافرت الى تسارسكوييا ، وأنها لن ترجع الا غداً
فى مثل هذه الساعة تقريباً » .

– سافرت الى تسارسكوييا ! ذهبت الى الأمير العجوز حتماً ، وذهب
أخوها الى مسكنى يفتشه ! لا ، هذا مستحيل !

وصررت بأسنانى قائلاً : « اذا كان هناك تهديد حقاً ، فسوف أدافع
عن « المرأة المسكينة » ! »

ومن بيت أنا أندريفنا لم أرجع الى بيتى ، لأن رأسى الملتهب قد
انبجست فيه ، على حين فجأة ، ذكرى المطعم الذى يقع تحت مستوى
الأرض ، والذى اعتاد أندره بتوقفن أن يذهب اليه فى ساعات حزنه .
فابتهجت لهذه الفكرة ابتهاجاً عظيماً ، وهرعت الى المطعم فوراً . كانت
الساعة قد تجاوزت الثالثة ، وكان المساء يهبط . قيل لى فى المطعم انه
جاء ، « فلبث لحظة » ثم انصرف ، وقد يعود . « فقررت فجأة ، بكل
ما أملك من طاقة ، أن أنتظره ، فأمرت لنفسى بغداء . هناك أمل
على الأقل !

وتفديت بل ظللت أكل طبقاً بعد طبق حتى يحق لى البقاء أطول
مدة . أظن أننى مكثت زهاء أربع ساعات . لا أصف حزنى ، وتلهفى

المحموم . لقد كان كل شيء فى يهتز ويرتعش . ان هذا الأرغن
البربارى ، وهؤلاء الشارين ، وهذا الضجر ، ان هذا كله قد نُقش فى
نفسى ، ولعله نُقش فيها الى الأبد ! لا ولا أصف الأفكار التى كانت تملو
فى رأسى كغمامة من أوراق أشجار يابسة فى فصل الخريف بعد اعصار .
كان فى رأسى شيء من هذا القليل حقاً ، وكنت فى بعض اللحظات
أحس بأن عقلى قد بارحنى فعلاً . أعترف بهذا .

غير أن ما كان يعذبنى خاصة (عدا عذابى الرئيسى طبعاً) انما هو
ذكرى حادث لم أكلم عنه أحداً فى يوم من الأيام . . . كانت هذه الذكرى
كذبابة سامة من ذباب الخريف تدور ، وتز ، وتصمت ، وتحاصر ، ثم
تلسع لسعاً موجعاً على حين فجأة . فاليكم حكاية هذه الذكرى ، لأنها ، هى
أيضاً ، يجب أن تُروى فى موضع ما من هذه القصة .

حينما كنت بموسكو فتقرر أن أسافر الى بطرسبرج ، أبلغنى
 نيقولا سيمونوفتش أن هناك مالاً سيصلنى من بطرسبرج نفقات للسفر
 لم أسأل من الذى سيرسل الى المال ، اذ كنت أعلم أن فرسيلوف هو الذى
 سيرسله . وكنت فى ذلك الحين أحلم بلقائى مع فرسيلوف ليلاً ونهاراً ،
 خافق القلب طموح المشاريح ، وانقطعت انقطاعاً تاماً عن التحدث فى
 هذا الأمر حتى الى ماريا ايفانوفنا . يجب أن أذكر من جهة أخرى أننى
 كنت أملك مالاً أنفقه على الرحلة . ولكننى قررت رغم كل شيء أن
 أنتظر ! وكنت أقدر أن المال سيصلنى بالبريد .

ولكن ها هو ذا نيقولا سيمونوفتش يعود الى البيت ذات يوم فيبلغنى
 (باختصار ، على عادته ، وبدون الحاح) أن على أن أذهب غداً الى بيت
 الأمير ف . . . سكى بشارع مياستسكايا ، فى الساعة الحادية عشرة من
 الصباح ، فهناك سيسلمنى حاجب البلاط ، فرسيلوف ، ابن آندره بتروفتش ،
 الذى وصل من بطرسبرج ونزل عند رفيقه فى المدرسة الثانوية ، الأمير
 ف . . . سكى ، هناك سيسلمنى المبلغ المرسل الى نفقات للرحلة . بدت
 لى المسألة بسيطة غاية البساطة : فمن الجائز جداً أن يكون آندره بتروفتش
 قد عهد بهذه المهمة الى ابنه ، بدلاً من ارسال المبلغ بالبريد . ومع ذلك
 فإن هذا النبأ قد أمسك بخناقى وأخافنى اخافة غير طبيعية . لاشك فى أن

فرسيلوف قد أراد أن يعرفنى بابننه ، الذى هو أختى • كذلك تصورت نيات الرجل الذى كنت أحلم به ، وتصورت عواطفه • ولكن سؤالاً ضخماً قد انتصب أمامى : كيف أتصرف وكيف يجب أن أتصرف فى هذا اللقاء الذى لم أتوقعه البتة ، وهلاًّ يجرح هذا اللقاء كرامتى ؟

وفى الساعة الحادية عشرة تماماً من صباح الغد ، دخلت بيت الأمير فـ ••••• سكى • هو شقة عازب • ولكنه بدا لى فاخر الأثاث • وكان فيه خدم بالملابس الرسمية • وقفت فى حجرة المدخل • فكانت تصل الى من الداخل اصوات حديث حار وضحكات • ان لدى الامير فـ ••••• سكى ضيوفاً آخرين غير حاجب البلاط • ذكرت للخادم اسمى وطلبت منه أن يبلغ عن وصولى • وأغلب الظن أنى فعلت ذلك بشيء من الحياء • المهم أنى لاحظت أن الخادم حين انصرف عنى قد نظر الى نظرة غريبة ، بل انه لم يولنى حقى من الاحترام فيما بدا لى • وما كان أشد دهشتى حين رأيتة يغيب مدة طويلة ، زهاء خمس دقائق ، كنت أسمع خلالها رنين تلك الضحكات نفسها وأصداء تلك الأحاديث ذاتها !

وقد انتظرت واقفاً بطبيعة الحال ، لأننى ، وأنا « سيد مثله » ، لا يليق بى بل يستحيل علىّ أن أجلس فى حجرة المدخل التى يربط فيها الخدم • وجهة أخرى لم أشأ بحال من الأحوال أن أبادر من تلقاء نفسى ، بدون دعوة خاصة ، فأدخل الصالون ، فذلك لا يتفق وكبريائى • لعلها كانت كبرياء مغالية ، ولكن هذا ما كان ! وقد أدهشنى أن أرى الخدم الذين بقوا (وعددهم اثنان) يسمحون لأنفسهم أن يجلسوا بحضورى • فأشاحت عنهم متظاهراً بأننى لم أر ذلك منهم ، ولكن أخذ جسمى كله يرتجف • ثم التفت فجأة ، ودنوت من أحد الخادمين « فأمرته » بأن يمضى يبلغ عنى مرة أخرى على الفور • ولكن الخادم ، رغم قسوة نظرتى وشدة احتياجى ، نظر الىّ فى كسل دون أن ينهض ، وأجابنى الآخر نيابة عنه :

- تم الإبلاغ عن وصولك • اطمن !

فقررت أن أنتظر دقيقة واحدة ، واحدة فقط ، أو أقل من ذلك ،
ثم « أنصرف » • لقد كانت ثيابي حسنة : فبدلتني جديدة ، وممطفي جديد ،
وقميصي نضر كل النضارة عنيت به ماريا ايفانوفنا عناية خاصة لهذا اللقاء •
ولكن الخدم ، كما علمت بعد مدة طويلة ، ببطرسبرج ، من « مصدر
مونوق به » ، كان قد أبلغهم أمس خادم جاء مع فرسيلوف ، أنه سيجي
الى البيت شاب اسمه فلان هو أخو فرسيلوف سفاحاً • الآن أعرف هذا
معرفة اليقين •

انقضت الدقيقة • ان ذلك الاحساس الذى يحسه المرء حين يريد
أن يعزم أمره ثم لا يستطيع ذلك : « أمضى أم لا ؟ أنصرف أم لا ؟ » ،
كنت أحسه فى كل ثانية من الثواني وأنا أكاد أرتعش • وفجأة رجع الخادم
الذى ذهب يبلغ عن وصولي • كان يحمل بيده أربع ورقات نقدية حمراء ،
أى أربعين روبلاً • فقال لى :

- خذ • اليك هذه الأربعين روبلاً !

غلى دمي وفار • يالها من اهانة ! لقد لبثت أحلم بهذا اللقاء الذى
هياه فرسيلوف للأخوين ، لبثت أحلم به طوال الليل • وطوال الليل ظلت
أتساءل محموماً : كيف يجب أن يكون سلوكي حتى لا أخفض قدر
نفسى ، وحتى لا أسى • الى ذلك الصرح كله من الأفكار الذى بنيتيه فى
عزلتى وأستطيع أن أعتز وأن أفخر به فى أية بيثة • كنت أقول
لنفسى : سأظهر نبلاً ، وكبرياء ، وقد أظهر شيئاً من الحزن والأسى أيضاً ،
بل قد أظهر قدراً من الحشونة والجفوة حتى فى صحبة الأمير ف • • سسكى ،
فبذلك أدخل هذا المجتمع دخولاً مهيباً • آه • • لا أحب أن أدارى
نفسى ، فعلى هذا النحو انما يجب أن تسجل هذه التفاصيل الأليمة كلها !
وفجأة : أربعون روبلاً ، ترسل الى مع خادم ، الى حجرة المدخل ، بعد

انتظار دام عشر دقائق ، ويقدمها الى الخادم رأساً ، بيده ، بأصابعه ،
لا موضوعة على صحن ، ولا مودعة في ظرف ! ...

صرخت في وجه الخادم صراخاً بلغ من الشدة أنه ارتجف وتراجع
القهقري ، وأمرته بأن يعيد المال الى سيده حالاً « ليحمله سيده الى
بنفسه ! ، أى اننى طلبت طلباً لاشك أنه كان في نظر الخادم غير معقول
ولا مفهوم . ولكن صراخى قد بلغ من القوة أن الخادم أطاع الأمر . هذا
عدا أن صراخاتى 'سمعت في الصالون ، فسرعان ما توقفت أصوات
الأحاديث والضحك فوراً .

ولم ألبث أن سمعت وقع أقدام رصينة موزونة هادئة ، ثم اذا أنا أرى
قائمة فارعة لفتى جميل المحيا متكبر الهيئة (وقد بدا لى يومئذ أشد شحوباً
ونحولاً منه فى هذا اللقاء الثانى) تظهر فى العتبة أو قل تقف على مسافة
بضعة سنتمترات من العتبة . كان يرتدى ثوباً للمنزل رائماً مصنوعاً من
حرير أحمر ، ويتعل بابوجين ويضع على عينيه نظارة أنف . وها هو ذا
يتفرس فى من خلال نظارته بدون أن يقول كلمة واحدة ، فتقدمت منه
خطوة ، كوحش كاسر ، ووقفت أمامه متحدياً ، أهدتق اليه بنظرة
ثابتة . ولكنه لم يتأملنى هذا التأمل الا برهة قصيرة لا تزيد على عشر
ثوان ، ثم اذا بسخرية خفيفة لا تكاد تُرى تظهر على شفثيه ، ولكنها
مع ذلك سخرية جارحة جداً ، جارحة لأنها لا تكاد تُرى . ثم ها هو ذا
يدور على كعبيه ، ثم يرجع الى حيث كان ، دون تعجل ، بل بهدوء
ورفق وخطى موزونة كما جاء . آه من هؤلاء الوقحين الذين يتعلمون
اهانة الناس منذ طفولتهم ، فى أسرتهن ، من أمهاتهن ! وقد فقدت حضور
بديتهى طبعاً . آه ... لماذا فقدتها ؟

وفى تلك اللحظة نفسها تقريباً رجع ذلك الخادم نفسه حاملاً بيديه
تلك الوردات نفسها ، وقال :

- تفضل بقبولها • انها مرسله من بطرسبرج • لا يمكن استقبالك •
« ربما استقبلت • السيد » فى مرة أخرى ، حين يكون لديه متسع من
الوقت أكبر » •

أحسست أن الكلمات الأخيرة قد أضافها هو • ولكن اضطرابى
استمر فى اضعاف نفسى • فتناولت المال بدون تفكير واتجهت نحو الباب •
فبسبب ذلك الاضطراب انما أخذت المال ، وكان ينبغى فى الواقع أن
أرفضه • ولم يفت الخادم ، من أجل اهانتى طبعاً ، أن يفضب غضبة جديرة
بخادم حقاً فأسرع يفتح الباب أمامى واسعاً ، حتى اذا مررت قال بوقار
ولهجة خاصة :

- تفضل !

فزارت أقول وأنا أرفع يدي ولكن دون أن أهوى بها :

- أنت وغد • وسيدك وغد آخر ، فقل له هذا فوراً •

أضفت هذه الجملة الأخيرة وأنا أدرك السلم مسرعاً •

- لا يحق لك ! ولو نقلت كلامك الى « السيد » فوراً ، لاستطاع
« السيد » أن يرسلك الى مخفر الشرطة حالاً مع بطاقة منه • أما تهديدى
أنا ، فلا يحق لك ...

هبطت السلم • انه سلم مترف عريض مكشوف • فيمكن أن أرى
من أعلى نازلاً على السجادة الحمراء • فكان الخدم الثلاثة قد خرجوا
واتكثوا بأكواعهم على قمة الدربزين ينظرون الى انسحابى • وقد قررت
أن ألزم الصمت طبعاً : كيف أشاجر خدماً ؟ ووصلت الى تحت ، دون أن
أتعجل الخطى ، وانما أتمد البطء فيما أظن •

رب حكماء (شيطان يأخذهم !) يقولون ان هذا كله حساسية لا داعى

اليها ، وتأذ في غير محله ، وحق لا يصدر الا عن أقرار ! قد يكون هذا الكلام صحيحاً . غير أن الأمر كان بالنسبة الى جرحاً عميقاً ، جرحاً لم يمكن ان يندمل حتى الآن ، حتى في هذه اللحظة التي أكتب فيها بعد أن انتهى كل شيء ، بل انتقم لكل شيء . يميناً يميناً ما أنا بالحقود ولا بمن يتحرق الى الانتقام . صحيح أنني أشتهى دائماً ، الى حد التألم ، أن أنتقم ممن ينالني باهانة . ولكنني أحلف لكم أنني بالسماحة أنتقم . أنني أرد على الاهانة رداً فيه سماحة ، فيكفيني أن يشعر المسيء وأن يدرك أنني كنت سمحاً كريماً ، حتى أحس أنني انتقمت منه . يجب أن أضيف في هذه المناسبة أنني لا أتحرق الى الانتقام ، ولكنني حقود وان أكن سمحاً كريماً : هل يشبهني في هذا جميع الناس ؟ لقد وصلت الى بيت الأمير ف . . سكي فيأض النفس بعواطف كريمة . . قد تكون عواطف مضحكة . . لا مانع . . ولكن لأن يكون المرء مضحكاً ولكن على شهامة ، خير من ألا يكون مضحكاً ولكن على دناءة ووضاعة !

لم أحدث أحداً عن هذا اللقاء الذي تمّ بيني وبين « أخي » ، ولم أكاشف به حتى ماريا ايفانوفنا ، ولم أبح بسرّه حتى لليزا حين جئت الى بطرسبرج . كان ذلك اللقاء بمثابة صفة أليمة جللتني بالخرى والعار . ثم هأنذا أقع فجأة على هذا السيد في ظروف يا لها من ظروف عجيبة ! وها هو ذا يتسسم لي ، ويرفع قبعة احتراماً ، وينزع حتى نظارته تودداً ، ويقول لي فجأة بلهجة فيها صداقة : « مساء الخير » (بالفرنسية) . ان هذا يبعث على التفكير والتأمل طبعاً . . . ولكن الجرح اتكأ ونزف !

بعد الانتظار فى المطعم مدةً تزيد على أربع ساعات وجدتنى كمن أصابته نوبة على حين فجأة ، فاذا أنا أخرج واتجه مسرعاً الى بيت فرسيلوف . انه لم يرجع الى البيت . وكانت الخادمة سأمانة ، فرجتنى أن أرسل اليها داريا أوئيسيموفنا بسرعة . هه ! هذا ماكان يشغل بالى ! وذهبت الى بيت ماما أيضاً ، ولكننى لم أدخل ، وانما استدعيت لوكيريا الى الدهليز ، فعلمت منها أنه لم يجىء ، وأن ليزا غابت . ولاحظت أن لوكيريا كانت تود لو تسألنى أيضاً ، بل لعلها ودّت لو تمهد الى بمهمة ، ولكن هل كان يمكننى أن أصغى اليها ؟ هناك أمل أخير : لعله ذهب الى بيتى . ولكننى لم أصدّق أن يكون قد ذهب الى بيتى !

سبق أن قلت ان عقلى كان اضطرب واحتل تقريباً . وهأنذا أجد فى غرفتى : آلفونسين والمؤجر . بل قل اننى وجدتهما يخرجان من غرفتى . وكان بطرس هيبوليتوفتش يحمل شمعة .

صرخت أقول له :

– ما هذا ؟ كيف تجاسرت أن تدخل الى غرفتى هذه التافهة ؟

فهتفت آلفونسين تقول بالفرنسية :

– « غريب ... والأصدقاء ؟ » .

فزأرت قائلاً :

- اخرجى من هنا •

- « دب حقاً » •

وفرت الى المرر مظاهرةً بالحوف ، واختفت فى غرفة صاحبه
البيت • واقترب منى بطرس هيبوليتوفتشس بهيئة قاسية وهو يحمل
شمعدانه :

- اسمح لى أن ألفت نظرك يا آر كادى ماكاروفتشس الى أنك قد
أسرفت فى الاندفاع • ومهما يكن احترامنا لك ، فاننا لا يسعنا الا أن
نذكرك بأن مدموازيل آلفونسين لا توصف بالتافهة • بالعكس ! انها لم
تجىء لتزورك أنت بل لتزور زوجتى • لقد تعارفتا منذ بعض الوقت •
فكررت سؤالى وأنا أمسك رأسى الذى أصابه ما يشبه الصداع
فجأة :

- ولكن كيف تجاسرت أن تدخلها غرفتى ؟

- مصادفة ! •• دخلت أنا لأغلق كوة النافذة التى كنت قد فتحتها
لتهوية الغرفة ، واذا كنا مستمرين فى الحديث الذى بدأناه أنا وآلفونسين
كارلوفنا ، فقد دخلت الغرفة معى متابعهً كلامها ، دون أن تشعر •

- هذا كذب • آلفونسين جاسوسة • ولامبير جاسوس • وربما كنت
أنت أيضاً جاسوساً • لقد جاءت لسرق شيئاً •

- قل ما شئت • اليوم تقول شيئاً ، وغدا تقول شيئاً آخر • أريد
أن أبلغك أننى أجرت مسكنى الشخصى ، أجرتة الى حين ، وسنقيم
أنا وامراتى فى حجرة المكتب • ويترتب على هذا أن آلفونسين كارلوفنا
هى الآن من سكان البيت تقريباً ، مثلك •

هتفت أسأله مرتاعاً :

- أجرت مسكنك للامير ؟

فابتسم تلك الابتسامة الطويلة التي لاحت فى وجهه عند الصباح
ولكن فيها الآن نباتاً لم يكن لها حينذاك ، وقال :

- لا ، لم أؤجره للامير • أظن أنك تعرف لمن أجرته ، وانما أنت
تتظاهر بالجهل تفكهاً وتسلية ! واذا غضبت فمن باب التقيد بالشكل •
ليلتك سعيدة •

- نعم ، نعم ، دعنى هادئاً •

وحرّكت يديّ متململاً ، وكدت أبكى من شدة ضيقى ، فلم
يسعه الا أن يدهش وهو ينظر الى • ولكنه خرج • فدفعت الزلاج ،
وتهالكت على سريرى ، ودفنت وجهى فى الوسادة • كذلك انقضى ذلك
اليوم الأول الرهيب من الأيام الثلاثة المشؤومة التي تختم مذكراتى •

الفصل العاشر

١



سأستبق الأحداث مرةً أخرى • انى أرى أن من الواجب منذ الآن أن أزود القارىء ببعض المعلومات ، لأن المجرى الأساسى لهذه القصة قد دخلت فيه أحداث عارضة تبلغ من الوفرة أن القارىء يمكن ان يتوه ما لم 'يزوّد' ببعض الايضاحات سلفاً • ما ذلك « الكيس » الذى أشارت اليه تانياًنا بافلوفنا ؟ ان أنا آندريفنا قد رأته أخيراً أن تقدم على خطوة هى أجراء خطوة يمكن تصورها فى هذا الوضع • امرأة جسور حقاً ! لقد نقل الأمير المعجوز ، بخجة المرض ، الى تسارسكوييا سيلو ؛ وترتب على ذلك أن نبأ اعتزاه الزواج بأننا آندريفنا لم يتح له أن يذيع فى المجتمع وانما اختنق فى مهده ان صح التعبير • ولكن الشيخ الضعيف الذى يمكن للمرء أن يفعل به كل شىء ، ما كان له ، رغم ذلك ، أن يوافق بحال من الأحوال على أن يتخلى عن فكرته وأن يخون آنا آندريفنا التى طلبت أن يتزوجها • لقد كان من هذه الناحية فارساً • وفى وسعه ، عاجلاً أو آجلاً ، أن ينهض فجأة ، فيضع نيته موضع التنفيذ بقوة جبارة لا سبيل الى السيطرة عليها ، كما يحدث ذلك للطباع الضعيفة فى أحيان كثيرة ، لأن نمة حدوداً لا يجوز أن ندفعهم الى ما وراها • ولقد كان الشيخ يدرك عدا ذلك تماماً الادراك أن وضع آنا آندريفنا التى يحترمها احتراماً عظيماً وضع حرج ، كما يدرك أيضاً أن هناك نمائم يمكن أن تذاق ، وسخریات يمكن أن تنطلق ، وشائعات أن تروج • والشىء

الذى كان يهدئه ويوقفه الآن هو أن كانزين نيقولايفنا لم تسمح لنفسها
أبدًا ، لا تصریحاً ولا تلميحاً ، أن تقول أمامه أى رأى سوء فى
آنا آندريفنا ، ولا أن تبدى أى اعتراض على اعترامه الزواج بها .
بالعكس : كانت تبدى فرحاً كبيراً ، وكانت تحيط خطيبة أبيها باكبر
الرعاية وأعظم الاهتمام . وهكذا كانت آنا آندريفنا فى موقف دقيق غاية
الدقة ، فهى بما تملكه من رفاة الحس ، تدرك أنها إذا قامت
بأى هجوم على كاترين نيقولايفنا التى يحبها الأمير أعظم الحب أيضاً ،
ويحبها اليوم أكثر مما أحبها فى أى يوم ، لاسيما وأنها سمحت له بالزواج
مبرهنةً على ذلك القدر كله من الكرم والاحترام ، فانها ستجرح أرق
مشاعرها ، وستجملها تشك فيها بل تستاء منها . على هذا الميدان اذن انما
كان يقوم القتال الآن : فالخصمان - أى آنا ندریفنا و كاترين نيقولايفنا -
انما يحاربان بسلاح المجاملة والصبر . والأمير ، من جهته ، لا يدرى
أى المرأتين أروع من الأخرى وأدعى الى الإعجاب ! وعلى عادة جميع
الرجال الضعاف ، الذين لهم مع ذلك قلوب رقيقة ، انتهى به الأمر الى
التألم واتهام نفسه بكل شيء . ويقال ان كآبته قد وصلت الى حد المرض ،
وان أعصابه تهدمت ، فبدلاً من أن يجد فى تسارسكوياء الشفاء ، أو شك
أن يلزم فيها الفراش فيما قيل .

أحب أن أشير هنا ، مستطرداً ، الى شيء لم أعلم به الا بعد مدة
طويلة ، هو أن بيورنج ، فيما يقال ، قد اقترح على كاترين نيقولايفنا أن
يقتادا العجوز الى الخارج ، بعد أن يهيئاه لذلك بحيلة من الحيل ، ثم يكون
من السهل عليهما هناك ، فى الخارج ، أن يحصلا على شهادة من أطباء .
ولكن هذا ما لا تقبله كاترين نيقولايفنا بحال من الأحوال . أو ذلك ما قيل
فيما بعد ، حتى ليقال انها رفضت الاقتراح مستائة . وتلك شائعة بعيد
عهدا ، لكننى أصدقها .

فلما صارت القضية الى هذا الطريق المسدود ، علمت أنا أندريفنا من لامير ان هناك رسالة تسأل فيها البنت أحد رجال القانون عن وسيلة يمكن أن تعتمد اليها لاعلان أن أباهما مجنون . فاذا بروحها المتكبرة الانتقامية تهتاج أشد الاهتياج على حين فجأة . وتذكرت ما سبق أن دار بيني وبينها من أحاديث ، وقررت بين تلك الأحاديث وبين طائفة كبيرة من الأحاديث الصغيرة فلم يخامرك شك في أن هذا النبأ صحيح . فاذا بخطة للمهجوم تنضح في قلبها ، قلب المرأة الصلبة التي لا تلين ، واذا هي تجدد نفسها مدفوعة الى تنفيذ هذه الخطة دفعا لا سبيل الى مقاومته . وكانت الخطة هي أن تكشف للامير فجأة، بدون مداراة ومراعاة ، وبدون لف ودوران عن القصة كلها ، فترعبه وتهزه هزاً قوياً ، وتبين له أن مستشفى المجانين ينتظره حتماً . فاذا عند واستاء ورفض أن يصدق ، كشفت له عن قصة رسالة ابنته قائلة له : « ان نية اعلان أنك مجنون قد سبق أن وجدت في الماضي ، فكيف لا توجد الآن من باب أولى لمنك من الزواج ! » . وبعد ذلك تنقل الشيخ المعجوز الى بطرسبرج مروءة مهدماً مقتولاً ، وتجيء به الى « بيتي أنا رأساً » .

هذه مجازفة رهيبية . ولكن أنا أندريفنا كانت تعتمد على قوتها اعتماداً ثابتاً لا يتزعزع . ويجب أن أقول هنا ، مبتعداً عن الموضوع لحظة ، ومستبقاً الأحداث استباقاً كبيراً ، ان ظنها لم يخطيء كثيراً فيما يتعلق بقوة هذه الضربة . فان هذا النبأ كان له من التأثير في الأمير الشيخ أكثر مما تصورت هي وتصورنا نحن أن يكون له من تأثير . ولم أكن علمت أبداً الى ذلك الحين أن الأمير كان قد ترامى الى سمعه شيء عن تلك الوثيقة ، ولكنه ، على ما هو معهود في جميع الرجال الضعاف الهيايين ، لم يصدق تلك الشائعة بل دفعها عنه بكل ما يملك من قوة ، حفاظاً على هديته وطمأنينته . ويجب أن أضيف أيضاً أن وجود الرسالة قد أثر في

كاترين يقولايضا تأثيراً رهيباً يفوق كثيراً ما كنت أتوقع أن يكون له من تأثير حينذاك ! ... الخلاصة أن تلك الورقة قد ظهر أنها أخطر شأنًا مما كنت أظن أنا الذي كنت أحملها مخيطةً في جيبي . ولكننى أرى أننى أسرف في استباق الأحداث .

رب سائل يسأل : ولكن لماذا تجيء به الى بيتى رأساً ؟ لماذا تنقل الأمير الى غرفنا البائسة فترعبه فى هذا الجو التعيس ؟ اذا كان نقله الى منزله مستحيلاً (لأن من الجائز أن 'يحبط المشروع كله هناك) ، فلماذا لا تهيم له مسكناً « ثرياً » كما كان يقترح لامير ؟ هنا تكمن كل مجازفة الخطوة الحارقة التى قامت بها أنا آندريفنا !

كان الأمر الأساسى هو أن تطلع الأمير على الوثيقة منذ يصل . وكنت أنا لا أستلم الوثيقة بحال من الأحوال . ولأن على أنا آندريفنا ألا تضع شيئاً من الوقت ، ولأنها تعتمد على سلطانها اعتماداً كبيراً ، فقد قررت أن تشرع فى تنفيذ الحطة قبل أن تملك الوثيقة ، على أن تجيء بالأمير الى بيتى رأساً . لماذا ؟ لكى تنقض على أنا أيضاً ، فتقتل بحجر واحد عصفورين كما يقول المثل . كانت تريد أن تصمد الى أسلوب الصدمة والهزة والمباغثة معى أنا أيضاً . كانت تقدّر أننى متى رأيت الشيخ فى بيتى ، ورأيت ارتياعه وحزنه ، وسمعت رجاءه ورجاءها ، فقد أستسلم فأظهر الوثيقة . يجب أن أعترف بأن حسابها كان حاذقاً وذكياً ، وكان يقوم على معرفة بالنفس الانسانية ، واذا لم يكن قد نجح فقد أوشك . أما الشيخ فقد استطاعت أن تحمله على تصديقها بالأيمان تحلفها ، وأعلنت له أنها ستمضى به الى « بيتى أنا » . ذلك كله قد عرفته فيما بعد . ان مجرد ابلاغه أن الوثيقة عندى قد أزال من قلبه الوجل آخر شكوكه فى صحة الواقعة : فالى هذا الحد كان يحبنى ويحترمنى !

يجب أن أذكر أيضاً أن أنا آندريفنا نفسها لم تشك لحظة واحدة

فى أن الوثيقة لا تزال عندى ، وأنتى لم أتخلص منها بعد • والحق أنها قد أساءت فهم طبيعى ، فكانت تعول بكثير من الاستهتار على سذاجتى وبرأتى وبساطتى، وحتى على فرط حساسيتى، وقد قدرت من جهة أخرى أنتى اذا قررت أن أسلم الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا متلاً ، فلا بد أن يكون هذا التسليم فى ظروف خاصة ، فكانت تريد أن تستبق هذه الظروف وأن تمنعها ، وذلك بالمفاجأة والهجوم المباغت والصدمة •

نم أن لامبير قد طمأنها عن هذا كله • سبق أن قلت ان وضع لامبير كان فى ذلك الحين حرجاً غاية الحرج ، دقيقاً أشد الدقة : لقد كان ، هو الخائن ، يريد أن يصرفنى عن آنا أندريفنا ، ويحملنى على بيع الوثيقة لآخماكوف بالاتفاق معه ، لأن ذلك يعود عليه بربح أكبر • لكنه وقد لاحظ أنتى ظلمت أرفض الى آخر لحظة أن أسلم شيئاً بحال من الأحوال ، قرر أن يساعد حتى. آنا أندريفنا من أجل ألا يفقد أى ربح • لذلك أخذ يستमित فى تقديم خدماته لها ، حتى لقد عرفت أنه عرض عليها أن يجيئها بكاهن عند اللزوم •••• ولكن آنا أندريفنا ابتسمت له ابتسامة احتقار ، ورجته أن يخفف من قوة حماسته ونشاطه • كان لامبير يبدو لها رجلاً كريهاً مقيتاً ، ولا يوقظ فى نفسها الا اشمئزازاً وتقزراً • لكنها قبلت خدماته على سبيل الحكمة والروية والحذر • وكانت هذه الخدمات هى أن يتجسس لها مثلاً ! يجب أن أقول فى هذه المناسبة اننى لا أدرى حتى هذه اللحظة هل كانوا قد اشتروا بطرس هيوليتوفتشس أم لا ، وهل قبض منهم أى شىء • نمنا لخدماته أم هو دخل شركتهم ببساطة من باب حب المغامرة • ولكنه كان يتجسس على • أما امرأته فأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقوم بهذا التجسس •

سيدرك القارىء الآن أنتى ، رغم تحسبى قليلاً ، لم يكن فى وسعنى أن أحزر أنتى سأجد الأمير المعجوز فى بيتى غداً أو بعد غد • أنتى ما كان

لى أن افترض لدى آنا آندريفنا جساره كهذه الجساره ! ان المرء يستطيع
أن يقول بالكلام ما يريد ، وأن يشير بالكلام الى أى شىء . أما أن يقرر ،
ويشرع ، وينفذ . . . فهذا يحتاج الى طبع خاص وشكيمة قوية !

أتابع :

استيقظت فى الغداة ضحى • لقد نمت نوماً عميقاً بلا أحلام • فلما أفتت أحسست براحة كبيرة فى جسمى ونفسى على السواء ، حتى لكأن الأمس لم يوجد • قررت ألا أذهب الى بيت ماما ، وانما أمضى الى كنيسة المقبرة رأساً • حتى اذا انتهت الجنازة رجعت الى أمى فلم أتركها النهار كله • وكنت واثقاً ثقة تامة بأننى سألقاه عند ماما على كل حال ، فى ساعة متقدمة أو فى ساعة متأخرة من النهار ، ولكننى سألقاه •

لم يكن فى البيت لا آلفونسين ولا المؤجر • لقد خرجا منذ وقت غير قصير • ولم أشأ أن أسأل امرأة المؤجر ، وكنت قد قررت على كل حال أن أقطع جميع صلاتى بهم ، وأن أترك هذا البيت فى أقرب وقت • لذلك ما ان أنيت بالقهوة حتى عدت أغلق على نفسى الباب • ولكن الباب لم يلبث أن قرع • فدهشت • وكان القارع تريشاروف •

فتحت له فوراً ، ودعوته أن يدخل وسرنى أن أراه • ولكنه رفض أن يدخل وقال :

— كلمتان فقط أريد أن أقولهما لك على العتبة ••• أم الأفضل أن أدخل ؟ أظن أن الكلام يجب أن يقال هنا همساً • ولكننى لن أجلس • أراك تنظر الى معطفى الردى • لقد استرد لامير منى المعطف •

كان يرتدى معطفاً عتيقاً باليساً طويلاً على فامته فعلاً • وقد وقف أمامى متسماً ، متجهماً الوجه مهموماً ، واضعاً يديه فى جيبه ، دون أن يخلع قبته :

- لن أجلس ! لن أجلس ! اسمع يا دولجوروكى ! لا أعرف تفاصيل • لكنى أعرف أن لامير يدبر لك مكيدة ، وهذه المكيدة قريبة توشك أن تتم حتماً • أعلم هذا علم اليقين • فكن يقظاً • ان المجدور هو الذى زلّ لسانه فألمع الى هذا الأمر • هل تتذكر المجدور ؟ انه لم يذكر لى نوع المكيدة ، فلا أستطيع أن أقول لك أكثر مما قلت • أنا لم أجبء اليك الا لأبئك • الى اللقاء !

- ولكن هلاًّ جلست يا عزيزى تریشانوف ؟ صحيح أنى على عجلة من أمرى ، ولكن يسعدنى أن أراك •••

- لا ، لا ، لن أجلس • ولكننى سأذكر طول حياتى أنك أحسنت استقبالى • آه يا دولجوروكى ؟ لماذا خداع الناس ؟ انى قد ارتضيت لنفسى عامداً أن أرتكب أنواعاً من القذارات ، وأن أقوم بأعمال تبلغ من الدناءة أنى أستحى أن أسميها لك • نحن الآن نعمل مع المجدور ••• استودعك الله ••• انى لا أستحق أن أجلس عندك •

- كفى يا تریشانوف ، يا عزيزى ••

- لا يا دولجوروكى ••• أنا الآن ذاهب للقيام بأعمال وسخة ، وسألهو بعد ذلك وأقصف • وقريباً سأحظى بمعطف أجمل من معطفى السابق أيضاً ••• وسأمضى أتنزه راكباً عربة • ولكنى سأظل أعرف بينى وبين نفسى أنى خجلت أن أجلس عندك لاعتقادى بأنى لا أستحق ذلك ، وبأنى أمامك دنى ، سافل • سوف أحظى بلذة هذه الذكرى على الأقل ، حين أمضى أبذل فى القصف واللهو بحقارة ونذالة • استودعك الله •

هياً • استودعك الله • لن أناولك يدي أيضاً • ان آلفونسين لا ترضي
أن تصافحني • وأرجوك ألا تسعى الي ، وألا تحاول رؤيتي • هذا
شرط بيننا •

واستدار الفتى العجيب على كعبيه ومضى • ليس يتسع وقتي الآن
للبحث عنه ، ولكنني قطعت على نفسي عهداً لاكتشفن مكانه بأقصى سرعة
مهما كلف الأمر ، متى فرغت من تدبير أموري وحل مشاكلي •

لن أصف وقائع ذلك الصباح تفصيلاً ، رغم أن هناك ذكريات كثيرة
ينبغي حفظها • لم يجيء فرسيلوف الى الكنيسة • حتى لقد كان يمكن
للمرء أن يستتج من النظر الى وجوههم أنهم كانوا ، حتى قبل حمل
الجثمان ، لا يتوقعون أن يجيء الى الكنيسة • وقد صلت أُمى بحرارة ،
بل كانت غارقة في صلاتها غرقاً كاملاً • ولم يكن أحد بجانب الجثمان
الا تاتيانا بافلوفنا وليزا • لكنني لا أصف ، لا أصف شيئاً • بعد الدفن ،
عاد الجميع الى البيت ، وجلسوا الى المائدة • فاستتجت مرة أخرى من
النظر الى وجوههم أنهم كن لا ينتظرنه على المائدة أيضاً • حتى اذا نهضنا ،
اقتربت من ماما ، وقبّلتها بحرارة ، وتمنيت لها عيداً سعيداً ؟ واقتدت بي
ليزا ، ففعلت مثلي •

وهمست تقول خفية :

- اسمع يا أخي ، انهن ينتظرنه •
- أدركت هذا يا ليزا ، رأيتة •
- سيأتي حتماً •

قلت لنفسى : لا بد أن لديهن معلومات دقيقة • لكنني لم أسأل •
رغم انني لا أصف عواطفى ، يجب أن أذكر أن هذا اللفر قد جثم ثقيلًا
على قلبي ، رغم كل ما كنت فيه من حسن المزاج • جلسنا جميعاً فى

الصالون ، الى المائدة المستديرة ، حول ماما . آه . ما كان أعظم سعادتي بوجودي معها ونظري اليها ! وطلبت مني ماما فجأة أن أقرأ لها صفحة من الانجيل . فقرأت لها اصحاحاً من انجيل القديس لوقا . لم تكن تبكي ، حتى أنها لم تكن شديدة الحزن ، ولكن وجهها لم يكن روحانياً في يوم من الأيام بمقدار ما هو روحاني في هذا اليوم . وكانت تسطح في نظرتها اللطيفة فكرة ، ولكن لم يكن في هذه النظرة أى شيء من نفاذ الصبر في انتظار أمر من الأمور . وجرت الأحاديث ثرة لا ينضب لها معين . قبلت ذكريات كثيرة عن المتوفى . وذكرت عنه تاتيانا بافلوفنا طائفة كبيرة من الأمور كنت أجهلها الى ذلك الحين كل الجهل . فلو سجلت ما دار في ذلك الحديث لجمعت محصولاً وافراً شائقاً . حتى تاتيانا بافلوفنا تغيرت حالها : فهي الآن رقيقة جداً ، ملاطفة جداً ، بل هي هادئة جداً ، رغم أنها تكلمت كثيراً لتسلي ماما . لكن هناك أمراً تفصيلياً أتذكره تذكراً واضحاً : كانت ماما جالسة على الديوان ، وكان فوق منضدة صغيرة على يسارها صورة يبدو أنها وضعت هنالك عمداً ، وهي أيقونة قديمة بدون مسند من معدن ، تمثل قديسين فوق رأسيهما هالتان . ان هذه الأيقونة كانت لماكار ايفانوفتش : كنت أعلم ذلك ، وكنت أعلم أيضاً أن المتوفى كان لايفارقها أبداً وكان يعدها ذات معجزات .

نظرت تاتيانا بافلوفنا الى الأيقونة عدة مرات ثم قالت فجأةً وهي تغيرٌ موضوع الحديث :

- اسمعى يا صونيا ، أليس الأفضل أن نضع هذه الأيقونة قائمة على المائدة مستندة الى الحائط وأن نشعل أمامها شمعة ؟
قالت :

- بل هي على هذا الوضع أحسن .
- حقاً . والا كنا نسرف في الاحتفال . . .

لم أفهم حينئذ شيئاً ، ولكن واقع الأمر أن ماكارا ايفانوفتش قد أعلن
جهاراً منذ مدة طويلة أنه يورث آندره بتروفتش هذه الصورة ، فكانت
ماما تستعد لتسليمها اليه .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف من الأصيل . وطال
الحديث . فاذا أنا ألاحظ في وجه ماما نوعاً من الارتعاش ، واذا هي
تنصب جذعها بسرعة وتصيح بسمعها على حين كانت تاتيانا بأفلوفنا مستمرة
في كلامها لم تلاحظ شيئاً . فأسرعت التفت الى جهة الباب ، فما انقضت
لحظة حتى رأيت آندره بتروفتش في العتبة . انه لم يسلك طريق درج
المدخل ، وانما جاء من جهة سلم الخدم ، فمرّ بالمطبخ فالدهليز ، وكانت
أمى وحدها هي التي سمعت وقع خطاه . سأصف الآن كل مشهد الجنون
الذي أعقب ذلك ، حركة حركة ، وكلمة كلمة .

في البداية ، لم ألاحظ على وجهه ، من أول نظرة على الأقل ، أى
تغير . كان هندامه هو هندامه المألوف ، أى هنداماً اقرب الى الأنافة .
وكان يمسك بيده باقة أزهار غضة ، باقة صغيرة لكنها ثمينة . وقد اقرب
من ماما ومدّ اليها الباقة مبتسماً فنظرت اليه ماما بدهشة وجلة ، لكنها
قبلت الباقة ، ثم اذا بحمرة تنعش خديها الشاحين فجأة ، واذا بفرح
يسطع في عينيها .
قال :

— كنت أعرف أنك ستستقبلينى هذا الاستقبال يا صونيا .

واذ كنا قد نهضنا جميعاً عند دخوله فقد دنا من المائدة ، فجلس على
المقعد الذى كانت تجلس عليه ليزا ، والذى يقع على يسار ماما ، دون
أن يتبته الى أنه يأخذ مكان شخص آخر . وهكذا كان موقعه بجانب
المنضدة التي كانت عليها الأيقونة .

- سلام على الجميع • يا صونيا ، لقد أصرت اصراراً مطلقاً على أن أحمل اليك هذه الباقة احتفالاً بعيد ميلادك • ولئن لم أجيء الى الجنازة ، فلكي لا أظهر أمام ميت باقة أزهار • لكنني أعلم أنك كنت لا تنتظرين معي الى الجنازة • ولن يحقد على الشيخ لأنني جئت بأزهار ، ألم يأمرنا هو نفسه بالفرح ؟ أعتقد أنه الآن في مكان ما بهذه الغرفة •

نظرت اليه ماما مستغربة • وكانت تاتيانا بافلوفا كمن طار صوابها
فسألته :

- من بهذه الغرفة ؟

- المتوفى • ولكن فلندع هذا الأمر • تعرفون ان الانسان الذي لا يؤمن بالمعجزات يكون أميل من غيره الى الايمان بالأوهام والخرافات • ولكن فلنعمل كلامنا يدور على باقة الأزهار : كيف حملتها الى هنا ؟ لا أدري • لقد اشتبهت عدة مرات أن أرميها على الثلج وأن أدوسها بقدمي •

ارتعدت ماما • وتابع هو كلامه يقول :

- اشتبهت ذلك بقوة جنونية • رحمة بي يا صونيا ، ورحمة برأسي المسكين • لقد اشتبهت ذلك لأن الباقة جميلة مسرقة في الجمال • هل في العالم أجمل من زهرة ؟ حملتها والثلج والجليد في كل مكان • جليدنا والأزهار : تعارض ! ولكن ليس هذا ما يهمني : فانما أنا اشتبهت أن أدوسها بقدمي لأنها جميلة • يا صونيا ، سأعيب من جديد ، ولكنني سأعود بسرعة ، لأنني سأخاف ، فيما يخيل اليّ • سأخاف : ومن يشفيني من الخوف الا صونيا ؟ أين أجد ملاكاً مثل صونيا ؟ ولكن ما تلك الصورة هناك ؟ آ ••• أيقونة المتوفى ! تذكرت • ورثها عن أسرته ، عن جده • لم يفصل عنها طول حياته • أنا أعلم هذا • وأتذكر أنه أودتني

اياها • نعم ، أتذكر هذا تذكرآ واضحآ •• وأظن أنها أيقونة من أيقونات
« قدامى المؤمنين » •• أرني !

وتناول الأيقونة بيديه ، وقربها من الشمعة ، وأخذ يتأملها •
ولكنه بعد أن أمسكها بضع ثوان فقط ، وضعها على المائدة ، أمامه فى هذه
المرة • كنت مدهوشآ مدهولآ • لقد أطلق هذه الجمل كلها على نحو ما كان
لأحد أن يتوقمه ، فكنت لا أستطيع أن أجمع شتات فكرى • ولكننى أتذكر
أن هلمآ يشبهه المرض قد نفذ فى قلبى • وانقلب زعر أُمى الى حيرة
وارتباك ، والى شفقة وعطف • كانت ترى فيه انسانآ بائسآ قبل أى شىء •
آخر • لقد سبق له أن كان حديثه غريبآ هذه الغرابة قبل الآن • وشحب
لون ليزا شحوبآ هائلآ على حين فجأة ، وأومات لى برأسها اليه • ولكن
تاتيانا بافلوفنا هى التى كانت أكثرهن جزعآ • قالت تسألـه بحذر :

— ولكن ماذا بك يا عزيزى آندره بتروفتش ؟

— حقآ لا أدرى ماذا بى يا تاتيانا بافلوفنا العزيزة • هدئى روعك •
لا أزال أتذكر أنك تاتيانا بافلوفنا ، وأنتك طيبة رائمة • ولكننى لم أجبى •
الا لأمكت دقيقة واحدة • اننى أود أن أقول لليزا شيئآ حسنآ ، وأبحث عن
كلمة أقولها فلا أفصح ، مع أن قلبى مترع بكلمات لا أستطيع أن أقولها وهى
كلمات غريبة فى الواقع • يخيّل الى أننى إزدوج فأصبح اثنين ،
أصبح مثلين •

قال ذلك وهو ينظر الينا جميعآ بوجه نجاد الى أقصى حدود الجذ ،
وبرغبة صادقة فى الافصاح عما فى نفسه • وتابع كلامه يقول :

— الحقيقة أن فكرى يزدوج فيصبح فكرين اثنين ، وهذا ما أخشاه
كثيرآ • لكان لى مثلاً يجلس الى جانبى • فأنا رجل عاقل معتدل ، ولكن
الآخر الذى بجانبى يصرّ على أن يقوم بعمل مستحيل ، أو عمل سخيف

جداً ، ثم اذا بي أشعر فجأةً أنني أنا الذى أريد أن أقوم بهذا العمل ، لا يدرى الا الله لماذا ! اريد ! اريد أن أقوم به رغم أنني ، وارىد أن أقوم به وأنا أعارضه بكل ما أملك من قوة . عرفت ذات مرة طيبيا أخذ يصفر فى الكنيسة فجأةً أثناء الاحتفال بجنازة أبنه . حقاً لقد خفت أن أجيء اليوم الى الجنازة ، لأننى قد رسخ فى عطفى اعتقاد جازم ويقين مطلق بأننى سأنطلق صافراً أو ضاحكاً أثناء الجنازة على حين فجأةً ، كما فعل ذلك الطيب المسكين الذى كانت نهايته سيئة . وحقاً لا أدري لماذا لازمتنى ذكرى ذلك الطيب طوال هذا اليوم ، لازمتنى ملازمة لم أستطيع منها فكاًكاً . اسمعى يا صونيا ، هأنذا أعود فأمسك الصورة (كان قد أمسك بالصورة ثانيةً وأخذ يقلبها بين يديه) ، فهل تعلمين أنني ، فى هذه اللحظة بعينها ، تستبد بى رغبة جنونية فى أن أقذفها الى زاوية المدفأة ، فاذا هى تنكسر على الفور نصفين ، نصفين لا أكثر ولا أقل ؟

قال هذا بدون أى تصنع ، بدون أية رغبة فى الظهور . بل كان يتكلم ببساطة ، فكان ذلك يزيد الأمر هولاً . لكأنه خائف فعلاً من شيء . ولاحظت فجأةً أن يديه ترمجان قليلاً .

هتفت ماما ضامةً يديها ضارعة :

– آندره بترفنش !

وقالت تاتيانا بافلوفنا وهى تتنفض :

– اترك ، اترك الصورة يا آندره بترفنش ! اتركها ! ضمها فى مكانها ! واخلع ثيابك ، وارقد فى سريرك . يا آركادى ، اذهب فاستدع الطيب !

قال برفق وهو يشمئلاً جميعاً بنظرة واحدة :

– مع ذلك . . . مع ذلك ، ما أشد اضطرابكم !

ثم وضع كوعيه على المائدة ، وتناول رأسه بيديه ، وقال :

- اننى أخيفكم • ولكن اسمعوا يا أصدقائى • هلاً سررتمنى قليلاً ، فعدتم تجلسون ، وهدأتم جميعاً ، دقيقة واحدة ! صونيا ، ليس هذا ما جئت من أجل أن أقوله لك • أنا جئت لأبلغك شيئاً ، لكنه شئ مختلف عن هذا كل الاختلاف • استودعك الله يا صونيا • أنا راحل من جديد ، كما سبق أن رحلت مراراً • لاشك فى أننى سأعود اليك فى يوم من الأيام • بهذا أنت لابد منك ، ولا غنى عنك • لمن عسى أرجع ، حين يكون كل شئ قد انتهى ؟ صدقنى يا صونيا أننى جئت اليك اليوم كما يجيء المرء الى ملاك لا الى عدو : هل يمكن أن تكونى عدوتى ؟ كيف يمكن أن تكونى عدوتى ؟ لا تصدقنى اننى أريد أن أحطم هذه الصورة ، لأننى فى الواقع ، يا صونيا ، تستبدى ، رغم كل شئ ، رغبة قوية فى تحطيمها •••

حين هفت تاتيانا بافلوفنا قائلة له منذ قليل : « اترك الصورة » ، فانها كانت قد انتزعت الصورة من يديه ، وظلت تمسكها بيدها • فهاهو ذا أندره بتروفتش ، بعد أن نطق بأخر كلمة ، يشب من مكانه فجأة ، ويخطف الصورة من يدى تاتيانا بافلوفنا فوراً ، ويشهرها بوحشية ، ثم يهوى بها على زاوية المدفأة بكل ما أوتى من قوة ، فاذا بالأيقونة تنكسر نصفين تماماً • وعاد يلتفت الينا بفتنة ، فكان وجهه الشاحب قد احمر احمراراً شديداً ، وكانت كل قسمة من قسما وجهه تختلج :

- لا تنظرى الى عملى نظرتك الى رمز يا صونيا • ليس ميراث ماكار هو ما حطمته ، وانما حطمت بدون هدف غير التحطيم ••• ولكننى سأعود اليك رغم كل شئ ، سأرجع الى ملاكى الأخير • على كل حال ، عدنى عملى رمزاً اذا شئت ، فانه رمز أيضاً ! •••

وخرج من الفرقة بخطى متعجلة ، ومضى عن طريق المطبخ فى

هذه المرة أيضاً (وكان قد ترك بالمطبخ معطفه وطاقته) • لن أقص عليكم ما حدث لماما تفصيلاً • لقد هبّت واقفةً وقد اعترأها رعب قاتل ، ورفعت يديها فعمدتهما على رأسها ، وصرخت تقول له فجأة :

- آندره بتروفتش ، تعال ودّع على الأقل يا عزيزي !

فصاحت تاتيانا بأفلوفنا تقول لها وقد أخذت ترتمش ارتماشاً شديداً ، واعترتها نوبة حنق رهيب ، حنق حيواني :

- سيرجع يا صونيا ، سيرجع • أما سمعت ما قاله ؟ لقد وعد بأن يرجع • دعى للمجنون المسكين أن يتجول مرةً أخيرة ! حين يدب إليه الهرم ، وحين يصبح كسيحاً ، فمن ذا الذي سيدلله غيرك يا خادمته القديمة ؟ انه يعلن هذا جهاراً ، لا يساوره خجل •••

أما عننا نحن ، فان ليزا قد أغمى عليها ؟ وأنا أردت أن أركض وراءه ، لكنني ارتيمت على ماما أضمتها بذراعيّ • وهرعت لوكيريا لتأتي الى ليزا بكأس ماء • ولكن ناما لم تلبث أن أفافت من اغمائها ، فتهاوت على الديوان ، وغطت وجهها بيديها ، وطفقت تبكي •

وصاحت تاتيانا بأفلوفنا تقول بأعلى صوتها :

- أدركه ، أدركه على كل حال • هيّا •• أدركه ، لا تتركه خطوة واحدة ، هلمّ ••• ماذا تنتظر ؟ هل أنا التي يجب أن أركض وراءه اذن ؟

وكانت تبذل كل ما تملك من جهد لاتزاعى من ماما •

وصرخت أمي تقول هي أيضاً على حين فجأة :

- بئى آر كادى ، هلمّ أركض وراءه ، أسرع !

فخرجت مسرعاً ، عن طريق المطبخ والفناء أيضاً • لكنني لم أجده

فى أى مكان • كان قد اختفى • وعلى الرصيف فى بعيد ، كانت تتراعى فى
الظلام بقم سوداء هى قامات المارة ، فاندفعت أدركها ، وأخذت أتفرس
فى وجه كل واحد منى وصلت إليه ، ثم أمضى أتفرس فى وجه آخر ،
وهكذا دواليك ، الى أن بلغت منعطفاً •

« لا يفضب أحد من مجنون • واذا كانت تاتيانا بأفلوفنا مستعرة
الفضب منه ، فمضى ذلك أنه ليس بمجنون البتة ••• » تلكم هى الفكرة
التي برقت فى ذهنى • بدا لى أن ذلك كله كان « رمزاً » ، وأنه انما أراد
أن ينتهى من شىء ما ، كما انتهى من تلك الأيقونة • ولكن لاشك أن:
« مثله » كان بجانبه أيضاً •••

لم أقع عليه فى أى مكان • ولا يعقل أن أركض الى بيته ، فمن
الصب على المرء أن يتصور أنه رجع الى بيته وكفى ! وعرضت لى فكرة
على حين بقتة ، فهرعت الى بيت آنا آندريفنا •

كانت آنا آندريفنا قد عادت الى البيت ، فأدخلت عليها فوراً • وقد
دخلت عليها محاولاً أن أسيطر على نفسى ما أمكنتى ذلك • وبدون أن
أجلس ، قصصت عليها المشهد الذى رأيته كله ، أى حكاية « المثل » تلك •
فلن أنسى ما حييت ، ولن أغفر لها ما حييت أنها كانت تصنى الى كلامى
بشراهة شديدة ، ولكن بهدوء لا رحمة فيه ، وطمأنينة لا تحكر صفوها
عاطفة • ولقد أصفت الى حديثى واقفةً هى أيضاً •

ختمت حديثى أسألها ملحاً :

– أين هو ؟ لعلك تعلمين ؟ لقد أرادت تاتيانا بافلوفنا أن ترسلنى
اليك أمس •••

– ذلك أننى كنت أريد أمس أن أراك • أمس ذهب الى تسارسكوياء
وجاء الى أيضاً • أما الآن •••

قالت ذلك ونظرت الى ساعتها وأردفت :

– الساعة الآن هى السابعة • فلا بد أنه فى بيته حتماً •

– أرى أنك تعلمين كل شىء • فتكلمى ، تكلمى !

- أعرف أشياء كثيرة ، لكننى لا أعرف كل شيء . ليس هناك ما أخفيه عنك طبعاً

وشغلتنى بنظرة غريبة وهى تبسم وتظاهر بالتفكير . وأردفت :
- رداً على رسالة كاترين يقولاننا ، كتب اليها بالأمس يخطبها رسمياً .

فحملت عيني قائلاً :

- لا يمكن !

- عن طريقى وصلتها الرسالة . أنا التى سلّمتها اليها مخومة .
فى هذه المرة تصرف كما يتصرف « فارس » ، ولم يكتف عنى شيئاً .
- أنا أندريفنا ! لا أفهم !

طبعاً . أمر يصعب فهمه . ولكن مثله فى هذا كمثل مقامر يرمى على المائدة آخر قرش ، ويمسك فى جيبه سدساً مهياً . ذلك هو معنى العرض الذى تقدم اليها به . احتمال الرفض تسعة خطوط من عشرة . ولكنه يعتمد على الحظ العاشر . ولا أكتمك أننى استغربت لعله كان خارجاً عن طوره : لعل « المثل » الذى وصفته أحسن وصف كان بقربه !

- وتضحكين أيضاً ؟ كيف يمكن أن أصدق أنك أنت التى أوصلت الرسالة ؟ ألسنت خطيبة أيها ؟ رحماك أنا أندريفنا !

- رجائى ان أضحى لسعادته بسعادتى . بل قل انه لم يرجئى رجاء صريحاً ، فانما تمّ الامر بصمت ، لكننى قرأت فى عينيه كل شيء . وما استغرابك ؟ ألم يذهب الى أمك بمدينة كونجسبرج يطلب منها أن تأذن له بتزوج ابنة زوج مدام أخمأكوفا ؟ ذلك شبيه بما عمد اليه أمس ، اذ اختارنى مندوبة عنه ونجية له .

كانت شاحبةً بعض الشحوب • ولكن هدوءها كان يعزّز سحريتها •
وقد غفرت لها كثيراً في تلك اللحظة ، حين أخذت أفهم الأمور شيئاً فشيئاً •
واسترسلت في التفكير دقيقة ، فكانت صامتة تنتظر •

قلت ضاحكاً على حين فجأة :

- اسمعى ، لقد أوصلت أنت الرسالة لأنك لاتجازفين بشيء ،
فالزواج لن يتم مهما يكن من أمر ولكن هو ؟ وهى ؟ لاشك أنها لن تلتفت
الى طلبه ، وحيثذ •• حيثذ ، ماذا يمكن أن يحدث ؟ أين هو الآن
يا أنا أندريفنا ؟ ان كل دقيقة لثمانية ، وفى كل لحظة يمكن أن تقع مصيبة !

- قلت لك انه فى بيته • ففى رسالته التى سلّمتها أمس الى كاترين
يقولايضا ، رجاها « على كل حال » أن تمن عليه ببقاء فى بيته ، الساعة
السابعة من هذا المساء • وقد وعدته بأن تجيء اليه فى الموعد المضروب •

- هى ، فى بيته ؟

- لم لا ؟ البيت بيت داريا أويسيمونسا • ففى امكانهما أن يلتقيا
فيه زائرين لها •

- لكنها تخاف منه ••• قد يقتلها !

- ان كاترين يقولايضا رغم كل خوفها الذى لاحظته بنفسى
قد أضمرت دائماً ، حتى فى الماضى ، شيئاً من الاعجاب بنبل المبادئ •
وسمو الفكر لدى آندره بتروفتش • وقد وثقت به هذه المرة لتنتهى منه
الى الأبد • كما أنه ، من جهته ، قد حلف لها يمين الفروسية أنه لن
ينالها بسوء فما يجب أن تخشى شيئاً • لا أتذكر نص التعاير التى استعملها •
وانما المهم أنها وثقت به واطمأنت اليه ••• لأول مرة ان صح القول •
ولأول مرة ردت على مشاعره بمثله ، فكأن اندفاعه بطولية قد تحققت لهما
كليهما •

هتفت أقول :

- والمثل ، والمثل ! ذلك أنه فقد عقله !

- لاشك أن كاترين نيقولايفنا ، حين وعدته أمس بالمجيء الى الموعد ، لم تقدر أن حادثاً كهذا يمكن أن يقع •

أدرت ظهري فجأة ، وولّيت هارباً ••• اليه ••• اليهما طبعاً ! ولكنني لم ألبث أن رجعت من حجرة المدخل ثانية ، وتفرست في وجه آنا أندريفنا ، أختي ، وقلت صارخاً :

- أم تراك تريدان أن يقتلها ؟

أطلقت هذه الصرخة ، وخرجت من البيت راکضاً •

ورغم أنني كنت أرتعش ارتعاشاً شديداً كمن هو في نوبة حمى ، فقد دخلت الشقة بغير ضجة ، من المطبخ ، وطلبت من الخادمة أن تأتيني داريا أونيسيوفنا بصوت خافت • ولكن سرعان ما جاءت داريا من تلقاء نفسها ، فرشقتني صامتةً بنظرة مستهمة رهية ، وقالت :

- ليس مولاي في البيت •

لكنني ذكرت لها بوضوح ودقة ، هامساً هامساً سريعاً ، أنني أعرف كل شيء من آنا أندريفنا ، وأنتي آتٍ من عندها •

- أين هما يا داريا أونيسيوفنا ؟

- في الصالون ، حيث كنتما بالأمس جالسين الى المائدة •••

- داريا أونيسيوفنا ، دعيني أذهب الى هناك •••

- كيف يمكنني هذا ؟

- لا أذهب الى هناك ، بل الى الغرفة المجاورة يا داريا أونيسيوفنا •

ان آنا آندريفنا تريد هذا أيضاً • فلو كانت لا تريده لما قالت لي انهما
هنا • لن يسمعاى • هى نفسها تريده هذا •••

قالت داريا أونيسيوفنا دون أن تحول عنى بصرها :

– واذا كانت لا تريده ؟

فقلت مستعظفاً :

– داريا أونيسيوفنا ، اننى أتذكر ابتك أوليا ••• دعينى أدخل •

فاذا بذقنها وشفتيها تأخذ بالاختلاج فجأة ، وقالت لي :

– يا عزيزى •• اكراماً لذكرى أوليا •• تقديراً لمواطفتك ••

ولكن لا تتخلى عن آنا آندريفنا يا عزيزى ! لن تتخلى عنها ، أليس
كذلك ؟ لن تتخلى عنها ؟

– لا ، لن أتخلى عنها •

– عاهدنى عهد الشرف أنك لن تدخل الصالون ، ولن تصرخ ،

اذا أنا خباتك هناك •

– أحلف لك بشرفى يا داريا أونيسيوفنا !

فأمسكت رديجوتى ، وقادتنى الى حجرة مظلمة ، مجاورة للفرقة

التي كانا فيها ، وسارت بى على سجادة طرية بدون ضجة الى ان بلغنا

الستارة ، فأجلستنى هناك ، وأزاحت ركناً من الستارة ، فكنت أراها

كليهما •

انصرفت هى وبقيت أنا • طبعاً بقيت • لقد أدركت اننى أتصنت بغير

حق ، وأننى أتجسس على أسرار غيرى ، ولكننى بقيت • كيف لا أبقى

وأنا أعرف أن المشل موجود ؟ ألم يسبق لهذا المشل أن حطم الأيقونة

على مرأى منى ؟

كانا جالسين الى تلك المائدة نفسها التي شربنا عليها بالأمس نخب
 « انبعائه » معاً • وكانا متقابلين • اننى أميز وجهيهما تمييزاً واضحاً • كانت
 ترتدى فستاناً أسود ، وكانت جميلة هادئة المظهر على عاداتها • وكان
 يتكلم ، فكانت تصغى اليه بانتباه شديد بشوش • حتى ليتمكن أن يكتشف
 المرء فى وجهها شيئاً من خجل • ولا كذلك هو • فقد كان مهتماً
 احتياجاً شديداً • لقد وصلت وهما من الحديث فى قلبه ، لذلك لبثت برهة
 لا أفهم شيئاً • أتذكر أنها سألته فجأة :

- وهل أنا السبب فى ذلك ؟

فأجابها :

- بل أنا • أنت مذنبه بدون أن تكونى مذنبه • هذه أمور تحدث •
 وتلك هى الأخطاء التى لا تتفر ، ومرتكبوها يعاقبون فى جميع
 الأحيان تقريباً •

أضافت ذلك وهو يضحك ضحكة غريبة • وتابع كلامه يقول :

- لقد اعتقدت فى لحظة من اللحظات أننى نسيك نسياناً تاماً ، فكنت
 أضحك فعلاً من هواى الأحمق ••• ولكنك تعرفين هذا ! على كل حال ،
 فلم يعينى أن تتزوجى فلاناً أو فلاناً من الناس • لقد بعث اليك بالأمس
 رسالةً أطلب منك فيها أن تتزوج • فلا تؤاخذينى • كانت تلك غباوة •

ولكن لم يكن لها عندى بديل • ما الذى كان يمكننى أن أفعله غير تلك
الغباوة ؟ لا أدرى •

قال ذلك وانفجر يضحك ضحكاً شاذاً ملتبساً وهو يرفع عينيه اليها
فجأة بعد أن كان يكلمها ناظراً الى جانب • لو كنت فى مكانها لأخافتنى
تلك الضحكة • أحسست بهذا • ونهض عن كرسيه فجأة وقال يسألها
بغته كأنما هو تذكر الأمر الجوهري :

- قولى : كيف أمكنك أن توافقى على المجيء الى هنا ؟ ان دعوتى
ورساتى كلها ما كانتا الا حماقة ••• انتظرى : أظن أننى أستطيع أن
أحزر كيف وافقت على المجيء • ولكن لماذا جئت ؟ ذلك هو السؤال •
أنراك جئت عن خوف فحسب ؟

فقالته وهى تنظر اليه بحذر :

- جئت لأراك •

وصمت الاثنان كلاهما نصف دقيقة • وعاد فرسيلوف يجلس ،
ثم أخذ يتكلم بصوت رقيق ، لكنه مؤثر ، يكاد يكون متهدجاً ، فقال :
- منذ مدة طويلة لم أرك يا كاترين نيقولايفنا ••• منذ مدة
بلغت من الطول أننى أصبحت أتصور أنه يكاد يستحيل أن أجدنى فى ذات
يوم ، كما أجدنى الآن ، جالساً بقربك أنظر الى وجهك وأسمع صوتك ••
منذ سنتين لم ير أحدنا الآخر ، منذ سنتين لم يكلم أحدنا الآخر • كنت
لا أقدّر أن أكلمك فى يوم من الأيام • على كل حال ، ما مضى فقد مضى ،
وما بقى اليوم سيزول غداً كدخان • ليكن ! اننى أقبل هذا ، اذ ليس عندى
له بديل •

ثم أضاف يقول لها فجأة كمن يضرع ضراعة :

- ولكن لا تنصرفى الآن بدون أن تقولى لى شيئاً • لقد نفختنى

صدفة حين قبلت أن نجيشي ، فلا تنصرفي قبل أن تحييني عن سؤال
سألقيه عليك !

- ما السؤال ؟

- لن يرى أحدنا الآخر بعد اليوم أبداً . فماذا تخسرين اذا قلت لي
الحقيقة كلها مرة واحدة الى الأبد ؟ أجيبي عن سؤال لا يلقى القلاء
أبدا : هل أحييتي في لحظة واحدة على الأقل . . . أم أراي أخطأت
الظن ؟

احمرت كاترين نيقولايفنا احمراراً شديداً . وقالت تحييه :

- بل أحييتك .

توقعت أن تقول هذا : يا للصادقة ، يا للصريحة ، يا للمستقيمة
التي تقول الحقيقة !

وتابع يسألها :

- والآن ؟

- الآن لا أحبك .

- وتضحكين ؟

- لا . لئن ضحكت فوراً فقد كان ذلك برغم ارادتي ، لأنني كنت
أتوقع أن تسألني « والآن ؟ » ، فلما صدق توقعي ابتسمت ، لأن المرء
يبتسم دائماً حين يصدق توقعه . . .

شيء غريب . ما رأيتهما قبل اليوم في مثل هذه الحصافة وهذا
الاحتراس ، ولا رأيتهما قبل اليوم شبه خجلى وشبه مستحية الى هذا الحد !
وكان هو يلتهمها بعينه التهاماً .

- أعلم أنك لا تحييني . . . ولكن ألا تحييني البتة !

- ربما البتة ؟

ثم أضافت تقول بلهجة قاطعة ، دون أن تبسّم ودون أن تحمر :
- لا أحبك • صحيح أنتى أحبيتك ، ولكن حبي لم يطل • فما لبثت
أن كفت عن حبك ••

- أعرف ، أعرف • رأيت أن هذا ليس ما كنت فى حاجة اليه ••
تولى : ما الذى أنت فى حاجة اليه ؟ اشرحى لى مرةً أخرى •••
- هل شرحت لك هذا من قبل ؟ ما أنا فى حاجة اليه ؟ انتى امرأة
عادية جداً • انتى امرأة هادئة •• أحب •• أحب الناس المرحين •
- المرحين ؟

- هأنت ذا ترى أنتى عاجزة حتى عن التحدث معك • يخيّل الىّ
أنك لو أحبيتى حباً أقل ، لأحبيتك •

وابتسّمت خجلى مرة أخرى • كان يلتمع فى جوابها أكبر الصديق •
كيف لم تدرك أن هذا الجواب هو الصيغة التى تحدد علاقتهما تحديداً
حاسماً ، وتفسر كل شىء ، وتقطع بكل شىء ؟ وكم كان يجدر به ، هو ،
أن يفهم ذلك • ولكنه نظر وابتسم ابتسامة غريبة وأضاف يسأل :
- هل بيورنج مرح ؟

فأسرعت تجيبه :

- اطمئن • ما هو بالمرح البتة ! وانما أنا أتزوجه لأننى سأكون معه
أهدأ مما أكون مع آخر • ثم تبقى نفسى كلها لى أنا •

- يقال انك عدت تحيين حياة المجتمع وتشغفين بها ؟

- لا حياة المجتمع • فأنا أعرف أن مجتمعنا تسوده الفوضى كما تسود
كل ما عداه • ولكن المظاهر الخارجية تظل فيه أحلى ، فإذا كان المرء يحب
أن يعيش وكفى ، فالعيشة فى المجتمع أمتع من العيشة فى غيره •

- سمعت كلمة « الفوضى » هذه كثيرا ، فلا شك أنك خفت كثيرا
من الفوضى التي كانت تسود حياتي ... أصفاد ، وأفكار ، وسخافات ...
- لا ، ليس الأمر ذلك أبدا ...

- ما هو اذن ؟ قوله بصراحة ، ناشدتك الله !

- طيب ، سأقوله بصراحة ، لأننى أعبدك ذا فكر عظيم . اليك
الحقيقة : اننى لم أستطع أن لا أرى فيك شيئا مضحكا بشير انقطاع .
قالت ذلك واحمرت فجأة ، كأنما هى أحست أنها تورطت فى قلة
الاحتراس تورطا كبيرا .

قال آندره بتروفتش :

- لهذه الكلمة التي قلتها ، أستطيع أن أغفر لك أشياء كثيرة .

فأسرعت تضيف وهى تزداد احمرارا :

- لم أكمل كلامى . أنا المضحكة فى الواقع ... لا شيء الا لأننى
أكلمك كحمقاء .

- لا ، ما أنت بمضحكة ، وانما أنت امرأة من نساء المجتمع
فأسدة .

قال ذلك واصفر اصفرارا رهيبا . وتابع كلامه فقال :

- أنا أيضا لم أكمل كلامى حين سألتك لماذا جئت . فهل تريدان
أن أنهيه ؟ ان ثمة رسالة ، ان ثمة وثيقة تخلع قلبك هلما ؛ لأن أباك اذا
وقعت هذه الرسالة بين يديه ، يمكن أن يلعنك أثناء حياته ، وان يحرمك من
ميراثه شرعا فى وصيته . أنت خائفة من هذه الرسالة ... وقد جشنى بحنا
عنها وسعيا اليها ...

نعلق بهذه الكلمات وهو يرتجف من رأسه الى قدميه ، حتى لتكاد
تصطك أسنانه •

فكانت تصفى اليه معبرة بوجهها عن سأم وألم • وقالت مدافعة عن
نفسها :

– أعلم أنك تستطيع أن تحدث لى أكدارا كثيرة ، ولكننى لم أجب •
لأقنك بالكف عن اضطهادى وتعذيبى بقدر ما جئت لأراك • بل لقد كانت
نفسى تضطرم رغبة فى لقاتك منذ مدة طويلة •••

وأضافت تقول فجأة ، كأنما تجرفها فكرة قاطعة بل عاطفة غريبة
مباغنة :

– غير أننى رأيتك على عهدى بك •••

– هل كنت تتوقين أن تجدينى اسانا آخر بعد الرسالة التى تكلمت
فيها عن فساد خلقك ؟ هل جئت الى هنا بغير خوف البتة ؟

– جئت لاننى أحبيتك فى الماضى • ولكن لا تهمدنى ، أرجوك •
ما بقينا معا ، فلا تذكرنى بأفكارى السيئة وعواطفى الرديئة • اذا أمكنك
أن تكلمنى فى غير هذا فساكون سعيدة جدا • قد يأتى دور التهديد ،
أما الآن فقل لى شيئا آخر ، أرجوك ! حقا لقد جئت لأراك وأنصت لك
دقيقة • فاذا كنت عاجزا عن هذا فاقتلنى فورا ولكن لا تهمدنى ولا تعذب
نفسك أمامى •••

بهذا ختمت كلامها وهى تنظر اليه مترقبة ترقبا غريبا ، كأنما هى
تفترض حقا أنه قد يقتلها •

ونفض أندره بتروفتش من جديد ، وراح يتأملها بنظرات حارة ،
ثم قال بلهجة قاطعة :

- سوف تخرجين من هنا بغير أية اسامة •

فابتسمت وقالت :

- نعم ، هذا عهد قطعته على نفسك •

- لا لأننى قطعت على نفسى عهدا فى الرسالة ، بل لأننى أريد أن

أفكر فىك طول الليل •••

- تعذيا لنفسك ؟

- اننى استحضرت صورتك دائما حين أدخلو الى نفسى • وأظن

أحدث معك • وأذهب الى حانات ومواخير فاذا أنت تظهرين لى أيضا •

ولكنك تضحكين منى دائما ، كما تفعلين الآن •

قال ذلك وكأنه خرج عن طوره • فصاحت تقول بصوت مؤثر وقد

ارتسم على وجهها عطف قوى :

- أبدا ، أبدا ما ضحكت منك • واذا كنت قد جئت فلأننى حاولت

بكل الوسائل ألا أجرح شعورك فى أمر من الأمور •

وأضافت تقول فجأة :

- لقد جئت الى هنا لأقول لك انى أحبك تقريبا •

ثم أسرعت تتدارك :

- معذرة ••• لعلنى لم أحسن التعبير عما أردت عنه •

فضحك وقال :

- لماذا لا تجيدين الظاهر ؟ لماذا أنت بسيطة كل هذه البساطة ؟

لماذا لست كسائر الناس ؟ ••• كيف يمكن أن يطرد أحد أحدا ثم يقول

له : « أحبك تقريبا » ؟ •••

- ذلك أننى لم أحسن التعبير عما أردت التعبير عنه • ذلك أننى

ما وجدت يوما أمامك الا شعرت بخجل ولم أحسن الكلام ، ولئن لم أحسن التعبير حين قلت لك : « أحبك تقريبا » ، فذلك لأن الأمر كان غامضا فى ذهنى أيضا . هذا هو السبب فى انى قلت تلك الجملة ، رغم انى فى الواقع أحبك ... أحبك ذلك الحب « المشترك » الذى يحمله المرء لجميع الناس ولا يخجل من الاعتراف به أبدا ...

كان يصيح بسمعه اليها صامتا ولا يحول عنها نظرتة الحارة ، ثم استأنف كلامه فقال :

— لا شك أنتى أسوء اليك . هذا هو عيب الهوى الشديد . انى لأعرف شيئا واحدا هو انى اذا كنت معك فقد انتهيت ، واذا غبت عنك فقد انتهيت أيضا . سيبان أن آكون معك وأن آكون بدونك ، فأنت معى دائما حيثما تكونى . وأعلم كذلك أنتى أستطيع أن أكرهك أكثر مما أستطيع أن أحبك ... ثم انى منذ مدة طويلة أصبحت لا أفكر فى شيء . وأصبحت تستوى عندى جميع الأمور . كل ما آسف له هو أنتى أحبيت امرأة مثلك ...

كان قد وهن صوته ، وتابع كلامه يقول كالمخفق وهو يتسهم ابتسامة صفراء :

— ماذا تريدين ؟ انه لجنون منى أن أقول لك هذا الكلام . أظن أنتى مستعد أن أفق مسمرًا على ساق واحدة مدة ثلاثين سنة اذا كان هذا يرضيك . أرى أنك تشعرين نحوى بشفقة . وجهك يقول : « لو استطعت لأحبيتك ، لكننى لا أستطيع ... » . أليس هذا صحيحا ؟ لا ضير . لست بذى كبرياء . اننى مستعد لأن أقبل منك أية صدقة ، كشحاذ ، هل تسمين ؟ أية صدقة ... أنى لشحاذ أن يكون ذا كبرياء ؟ ...

فنهضت كاترين تقولايانا واقتربت منه ، ثم قالت وهي تلامس يدها
كفه وقد لاحت في وجهها عاطفة لا يمكن التمييز عنها :

- صديقي ! اننى لا أستطيع أن أسمع مثل هذه الأقوال ! سأظل
أفكر فيك طول حياتي تفكيرى في أعلى اسنان وأبلى قلب وأقدس شيء
يمكن أن أحبه وأحترمه • آندره بتروفتش ! افهمنى ••• اننى لم
أجىء الى هنا عبثا يا عزيزى ، يا من كنت وما تزال عزيزا على قلبي •
لن أسى أبدا ما أثرته في نفسى من مشاعر أثناء لقاءاتنا الأولى • فلننفصل
صديقين ، ولسوف تظل في حياتي أجلّ خواطرى شأنا وأحلاها مذاقا !

قال آندره بتروفتش :

- « فلننفصل ثم أحبك » • سوف أحبك ولكن فلننفصل •••

ثم قال وقد شحب لونه شحوبا شديدا :

- اسمعى • هبى لى صدقة أخرى : لا تحيينى ، ولا تعيشى معى ،
ولنقطع عن أن يرى أحدنا الآخر الى الأبد • سوف أختفى متى أصبحت
لا تريدن أن ترينى ، ولا أن تسمعينى •• ولكن •• ولكن ••
« لا تتزوجى » •

انقبض صدرى الى حد الألم حين سمعت كلامه • ان هذا الرجاء
الساذج الذليل يوقظ الشفقة فى النفس ويطعن القلب طعنا قويا بمقدار
ما فيه من صراحة وما يشتمل عليه من استحالة • نعم ، انه يطلب صدقة
حقا ! هل كان يستطيع أن يظن حقا أن رجاءه يمكن أن يلبي ؟ مع ذلك •
نزل بنفسه الى حيث يرجو هذا الرجاء ، وحرص على طلب هذه الصدقة •
ان هذا المدرك الأدنى من السقوط يشق على المرء أن يراه ! أما هى فان
جميع قسماات وجهها قد تشوهت ألما • ولكنه قبل أن تنطق هى بكلمة
واحدة ، استدرك يقول بصوت غريب تبدل فجأة فكأنه ليس صوته :

– سوف أدمرك تدميراً !

ولكنها اجابته بكلام لا يقلل عن كلامه غرابة ، وبصوت كصوته تبدل
تبديلاً غير متوقع حتى لكأنه ليس صوتها ، فقالت :

– اذا وهبت لك هذه الصدقة فسوف تنتقم فى المستقبل انتقاماً أفسى
من الانتقام الذى تهددنى به الآن لأنك لن تنسى أبداً أنك استجديتني صدقة
وكنت أمامى شحاذاً ***

وختمت كلامها وهى تقذفه بنظرة تحد :

– لا أستطيع أن أسمع هذه التهديدات من فمك !

فأجابها برفق مبتسماً :

– « تهديدات من فمك » ، أى من فم شحاذ مثلك ! لقد كنت
أمزح • لن أصنع بك شيئاً • لا تخافى • انصرفى • أما تلك الوثيقة فسأبدل
جميع جهودى لأرسلها اليك • ولكن اذهبى • اذهبى ! *** لقد بعثت
اليك رسالة حمقاء ، واستجبت أنت لتلك الرسالة الحمقاء ، فجئت :
فها نحن سواء : لا دائن ولا مدين !

وأضاف يقول لها ليدلها على الباب حين أرادت أن تخرج عن طريق
الغرفة التى كنت مختبئاً فيها وراء الستارة :

– من هنا !

قالت وهى تقف على العتبة :

– اغفر لى اذا استطعت •

فقال فجأة :

– اذا كتب لنا أن نلتقى صديقين فى يوم من الأيام ، فستذكر هذا
المشهد ضاحكين •

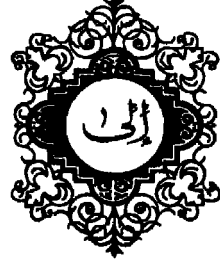
ولكن فسمات وجهها كلها كانت تختلج كمن اعترته نوبة •
هتفت تقول ضارعة الى الله وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى ،
ولكنها تنظر الى وجهه وجلّة كأنما هى تحزر ماذا أراد أن يقول :
- أسأل الله أن يحدث هذا •

- انصرفى ! كلانا مفرط فى الذكاء • ولكنك ••• آه ••• أنت
من طينتى ! بعثت اليك رسالة مجنونة ، فارتضيت أن تهجئى لتقولى انك
« تهجيننى تقريبا » • لا ، لا ، ان بنا جنونا واحدا ! كلانا شاذ • ابقى
مجنونة دائما ، لا تتغيرى ، وسنعود نلتقى صديقين • اننى أُنْتَبأ بهذا •
يميناً !

خرجت كاترين نيقولايفنا • فأسرعت الى المطبخ دون ضجة • ومن
غير أن أنظر تقريبا الى داريا أو نيسموفنا التى كانت تنتظرنى ، وبتت الى
الشارع نازلاً على سلم الخدم ماراً بالفناء • ولكن حين وصلت أنا الشارع
كانت هى قد ركبت العربة التى كانت تنتظرها أمام الباب • فأخذت
أركض •

الفصل الحادي عشر

١



أين؟ إلى بيت لامبير!
مهما أشأ أن أسبغ طابعا منطقيا على سلوكي في ذلك المساء وفي تلك الليلة، ومهما أشأ أن اكتشف فيه شيئا من سلامة العقل، فإني حتى في هذه اللحظة التي أستطيع فيها أن أرى الأحداث كلها جملة واحدة، أجدني عاجزا عن أن أعرضها بما يجب لها من تسلسل ووضوح. لا بد أنني كنت تأتيا في عاطفة أو قل في سديم مضطرب من العواطف. بل لا شك أن نمة عاطفة أساسية كانت تسحقني وتسيطر على جميع العواطف الأخرى، ولكن... هل يجب أن أعترف بها؟ لا سيما وإني غير واثق كل الثقة...

اقتحمت بيت لامبير، خارجاً عن طوري طبعاً، حتى لقد أخفته هو وصاحبه ألفونسين. لطالما لاحظت لدى الفرنسيين، حتى لدى أشدهم طيشاً وأكثرهم فجوراً، أنهم في داخل بيوتهم حريصون أشد الحرص على نوع من النظام البورجوازي، وعلى طراز من الحياة مطرد رتيب تافه يجري على وتيرة واحدة ولا يحبون أن يخرجوا عنه مرة. ولكن لامبير سرعان ما أدرك أن شيئاً قد حدث، فسره أن يراني في بيته وأن يقبض على ناصيتي «أخيراً». لقد كان لا يحلم إلا بهذا طوال هذه الأيام ليل نهار. ألا ما كان أحوجه إلى! ثم هأنذا، بعد أن فقدت كل أمل،

أجيبه فجأة ، من تلقاء نفسى ، بل اجيبه وأنا على هذه الحالة من الجنون ،
اى على الحالة التى يريدنا !

صرخت أقول :

- خمراً يا لامير ! اسفنى ! دعنى أعربد ! آلفونسين ، أين
قيارتك ؟

لن أصف المشهد ، فلا داعى الى ذلك • المهم أننا شربنا ، وقصصت
عليه كل نىء ، كل شىء • فكان يصغى الى كلامى بشراة • وقمت أنا
بالخطوة الأولى فاقترحت عليه تدير مؤامرة ، اشعال حريق : نستدعى أولاً
كاترين نيقولايفنا برسالة •••

قال لامير مؤيداً وهو يختطف كل كلمة أقولها :

- هذا ممكن •••

قلت :

- وزيادة فى ضمان نجاح المؤامرة ، يجب أن نبعث اليها فى تلك
الرسالة صورة عن « وثيقتها » لتستطيع أن تدرك أننا لا نفشها •

فقال لامير مؤيداً وهو لا ينفك يتبادل النظرات مع آلفونسين :

- تماماً ! هذا ما يجب أن نفعله •

قلت :

- وثالثاً ، يجب أن يكون لامير هو الذى يدعوها ، لشأن يخصه ،
مستحلاً صفة رجل مجهول آت من موسكو • وأجىء أنا بفرسيلوف •

فقال لامير :

- ربما نحضر فرسيلوف أيضاً ، نعم !

فصحت أقول معترضاً على قوله « ربما »

– لا ، لا « ربما » ، بل حتماً • هذا لا غنى عنه •

وأضفت موضحاً وأنا أجرع جرعة (لقد شربنا نحن الثلاثة ، لكننى أعتقد اننى شربت زجاجة الشمبانيا كلها وحدى ، أما هما فكانا يتظاهران) :

– هذا كله من أجله هو • نجلس أنا وفرسيلوف فى الغرفة الأخرى • يجب الحصول على غرفة ثانية يا لامير ! حتى اذا جاءت اللحظة التى توافق فيها على كل شيء ، أى على الفدية المالية والفدية « الأخرى » ، لأنهن جميعاً حقيرات ، خرجنا أنا وفرسيلوف من مخبئنا وداهمناهما فأقنمناها بحقارتها • وحينئذ يُشفى فرسيلوف ويطردها ركلا يقدميه • ولكننا فى حاجة الى بيورنج ، ليراها هو أيضاً !

أضفت هذه الجملة الأخيرة متحمساً • فقال لامير :

– لا ، بيورنج لا داعى اليه !

فصرخت أقول :

– بلى بلى ! أنت لا تفهم من الأمر شيئاً لأنك غبى يا لامير ! بالعكس : يجب أن تحدث فضيحة فى المجتمع الراقى : بذلك تنتقم من المجتمع الراقى ، ومنها • يجب أن تعاقب ! لامير ، سوف تعطيك كمبيالة ••• أنا لا حاجة لى الى المال ، أنا أبصق على المال ! أما أنت فسوف تنزل قدس المال فى جييك مخلوطا ببصاقى • وأكون أنا قد وضعت أنفها فى التراب !

كان لامير لا ينفك يقول مؤيداً :

– نعم ، نعم •

ويتبادل النظرات مع ألفونسين •

قلت متمتماً :

- لامبير ، انها تعبد فرسيلوف • رأيت هذا بنفسى منذ هنيهة ،
وأيقنت به •

- من حسن الحظ أنك رأيت كل شىء : ما كنت لأتصور أن لك
كل هذه الموهبة فى التجسس ، ولا أنك تملك كل هذا القدر من
الذكاء •

- أنت كاذب يا فرنسى • أنا لست جاسوساً ولكننى ذكى جدا •
ثم تابعت كلامى جاهداً أن أعبر عن فكرتى بمشقة وعناء :

- هل تعلم يا لامبير ؟ انها لن تتزوجه ، لأن بيورنج ضابط فى
الحرس ، أما فرسيلوف فليس إلا رجلاً كريماً سمحاً محباً للانسانية ،
أى هو فى نظرهم انسان مضحك لا أكثر ! آه... انها تفهم هذا الوله
وتفتتن به سروراً ، وتغنج لفرسيلوف وتجذبته وتغريه ، لكنها لن
تتزوجه ! انها امرأة ، انها أفى ! كل امرأة أفى ، وكل أفى امرأة !
يجب أن نشفيه • يجب أن نسقط عن عينيه الغشاوة فيراها على حقيقتها
فيشفى • سأجىء به الى عندك يا لامبير •

فكان لامبير لا يزال يؤمن على كلامى ويملاً كأسى فى كل لحظة :
- حسن ، حسن !

كان يخشى أن أستاذ منه أى استياء ، كان يخاف أن يعارضنى ، وكان
يحرص على أن يسقينى مزيداً من الخمر ! وكان ذلك منه واضحاً أشد
الوضوح ، فلم أملك أنا نفسى الا أن ألاحظه • لكننى ما كان لى أن
أنصرف بحال من الأحوال • وظللت أشرب وظللت أتكلم • كنت أحترق
رغبة فى الافصاح مرةً عما يتمل فى نفسى ! وحين خرج لامبير ليجىء

برجاجة ثانية ، عزفت آلفونسين على قيثارتها لحناً اسبانياً • فكادت تنهمر
دموعى ، وقلت مخاطباً لامير بطائفة عميقة :

— يجب انقاذ هذا الرجل حتماً يا لامير ، لأنه ••• مسحور !
لو تزوجها ، فلسوف يطردها ركلاً بالقدمين منذ الصباح ، بعد الليلة
الأولى • فهذا ما يحدث دائماً • ان هذا الحب الوحشى المسحور يوافى
المرء كما توافيه نوبة ، ويفعل فيه كما يفعل فيه المرض ، فما ان انتهى له
الارتواء ، حتى تسقط الفشاوة وتبجس العاطفة المناقضة : الاشتزاز
والكره والرغبة فى الابداء والسحق • هل تعرف قصة آيساج يا لامير ؟
هل قرأتها ؟

— لا ، لا أتذكر • أهذه رواية ؟

— ذلك أنك لاتعرف شيئاً يا لامير • أنت جاهل جهلاً رهيباً ،
جهلاً فظيماً ! ولكن لا يهمنى أن تكون جاهلاً أو أن تكون عالماً ! أوه !
انه يجب ماما ؛ لقد قبّل صورتها • ولكن سيكون الأوان قد فات • لذلك
يجب انقاذه منذ الآن •••

وأخيراً طفقت أبكى بكاءً مرّاً • لكننى ظللت أهذر وأشرب • ما أكثر
ما شربت ! الشيء الأساسى الذى يجب أن أذكره هو أن لامير لم يسألنى
عن الوثيقة مرةً واحدة ، طوال السهرة ، أفصد لم يسألنى : أين هى ؟
لم يطلب منى أن أريه اياها ، أن أبسطها له على المائدة • ألم يكن طبيعياً مع
ذلك أن يلقى علىّ هذا السؤال ونحن نتفق على القيام بعمل مشترك ؟ شيء
آخر : لقد اتفقنا على أن نعمل كيت وكيت ، وقلنا اننا ستقوم بالعمل حتماً ،
ولكن أين ، ومتى ، وكيف ؟ ذلك ما لم نقل عنه كلمة واحدة ! كان لامير
لا يزيد على أن يؤيد كلامى ويتبادل النظرات مع آلفونسين • لا شيء عدا
هذا ! صحيح أنتى كنت فى ذلك الحين عاجزاً عن ادراك ذلك ، ولكننى
أتذكره تذكراً واضحاً •

وفى النهايه تمت على الديوان ، بدون أن أحلع ثيابى • نمت مدةً
طويله جدء ، واستيقظت فى وقت متأخر جدا • اذكر أننى حين استيقظت ،
ظلمت متمددا على الديوان زمناً كالشده • أحاول أن أجمع أفكارى
وذكرياتى ، وأتظاهر بأننى ما زلت نائما • ولكن لامير كان قد خرج
من البيت • كانت الساعة قد تجاوزت التاسعه • النار فى المدفأة تسمع
تقطعقتها ، تماماً كالمره الماضيه ، حين فتحت عينى فى بيت لامير بعد تلك
الليله المشؤمه ! ولكن آلفونسين كانت ترصدنى وراء الحاجز : لاحظت
ذلك فوراً ، لأنها نظرت الىّ وتفردت فىّ مرتين ، غير أننى كنت أغمض
عينى وأتظاهر بالنوم • كنت أفعل ذلك لأننى أحس باكثاب وأريد أن
أعرف أين أنا من الأمر ؟ فما كان أشد عذابى حين تذكرت ، فأدرت
فضاعة وحقارة ما أقدمت عليه فى الليل من اعتراف للامير ، واتفاق
معه ••• وأدرت مدى خطئى وضلالى اذ جئت اليه أصلاً • ولكننى
حمدت الله على أن الوثيقة لا تزال معى ، لا تزال مخيطة فى جيبى • لقد
جسستها بيدى ، فأحسست بها ! فليس علىّ اذن الا أن أثب وثبة واحده ،
قأولى هارباً • ولا داعى الى الخجل بعد ذلك من لامير ؟ فليس لامير
بمن يستحق ذلك !

ولكننى كنت خجلان من نفسى ! لقد نصبت نفسى قاضياً أحاكم نفسى !
ما أشد الألم الذى كان يعصر قلبى ! على أننى لن أصف ذلك الشعور
الجهنمى ، الذى لا يطاق ، لن أصف ذلك الاحساس بالخزى والتلطنخ
والدناءة • ومع ذلك يجب علىّ أن أعترف • فقد آن أوان الاعتراف فيما
أعتقد • ويجب أن أسجل هذا الاعتراف فى مذكراتى • ألا فاعلموا
أننى اذا كنت قد أردت أن ألوث شرفها بالعار ، واذا كنت قد هيات نفسى
لرؤية المشهد الذى ستدفع فيه الفدية للامير (آه ••• يا للسفالة !) ،
فان هذا لم يكن فى سبيل اتقاذ ذلك المجنون فرسيلوف ، ولا فى سبيل

أن أردّه الى ماما ، وانما . . . لأننى . . . ربما كنت أنا نفسى مولها
بحبها ، غيوراً عليها ! ممن كنت غيوراً ؟ . . . من بيورنج ؟ من فرسيلوف ؟
من جميع أولئك الذين ستراهم وستحدثهم فى حفلة الرقص ، على حين
أكون أنا قابلاً فى ركنى ، شاعراً بالحزى من نفسى ؟ آه . . . يا للقدارة !

الخلاصة أننى لا أعرف ممن كنت غيوراً . لكننى كنت أشعر ، بل
كنت قد أيقنت منذ مساء أمس ، كيقينى بأن اثنين واثنين أربعة ، أننى
فقدتها الى الأبد ، وأن هذه المرأة سوف تنبذنى وسوف تسخر من زيفى
ومن سخافتى . فهى امرأة صادقة ومستقيمة ، وأنا امرؤ متجسس ومخبىء
وثائق !

تلك حقيقة كتمتها مدة طويلة ، وقد آن لى أن أعترف بها الآن . . .
هأنذا أعترف بها . لكننى أكرر مرةً أخرى ، ومرةً أخيرةً ، أن نصف
هذا الاعتراف ، وربما ثلاثة أرباعه ، قد يكون تجنياً على نفسى ! اننى
فى تلك الليلة قد كرهتها كما يكره رجل مجنون غير .سئول عن أعماله ،
ثم كرهتها بعد ذلك كما يكره رجل أخذ به السكر كل مأخذ فانطلق
يتكلم كمن أصابه مس . وقد سبق أن ذكرت أن سديماً مضطرباً مشوشاً
من العواطف والاحساسات كان قد أشرفنى اغراقاً ، فلا أستطيع أن أعى
ما بقلبى ولا أن أدرك ما يعصف بنفسى عصفاً . ولكن لا بد لى مع ذلك
من هذا الاعتراف ، لأن جزءاً من هذه العواطف السيئة الفاسدة قد ملأ
نفسى حتماً .

وثبت عن الديوان مشمئزاً اشمئزاً لا يعالِب ، عازماً عزماً قوياً
على أن أمحو كل شىء . ولكن ما ان وثبت عن ديوانى ذلك الوثوب حتى
هرعت الى ألفونسين . تناولت معطفى وقبعتى ، وقلت لها أن تبلغ لامبير
أننى كنت بالأمس أهذى ، وأننى تجنيت على تلك المرأة ، واننى كنت

أمزح ، فحذار أن يبيح لنفسه أن تطأ قدماه بيتى فى يوم من الايام •
قلت لها ذلك كله بالفرنسية متمجلاً كيفما أتفق ، وأغلب الظن اننى قلته
غامضاً مشوشاً ، فما كان أشد دهشتى حين رأيت ألفونسين تفهم عنى فهماً
كاملاً ؛ وأغرب من هذا أنها كانت تبدو مقتبطةً بكلامى ، مهللةً له •
قالت مؤيدة :

- « نعم نعم • ذلك عيب • سيدة محترمة • أنت رجل كريم !
اطمئن • سأوضح الأمر للامير ! » •

ولقد كان خليقاً بهذا التبدل الغريب المفاجيء فى عواطف ألفونسين ،
وربما فى عواطف لامير تبعاً لذلك ، أن يثير فى نفسى الشبهات • لكننى
خرجت صامتاً • لقد كنت مضطرب النفس ، وكنت لا أحسن التفكير •
ولقد أعدت النظر فى الأمر كله بعد ذلك ، ولكن كان قد فات الأوان !
يا للمكيدة الجهنمية التى حيكته لى ! اننى أتلبث هنا قليلاً لأشرح
ما حدث ، والا عجز القارىء عن الفهم !

الواقع هو اننى منذ أن لقيت لامير أول مرة ، فى تلك الليلة التى
تدفأت عنده بعد تجلدى من البرد ، قد حكيت له (يا لغساوتى !) أن
الوثيقة مخيطة فى جيبى • ولقد نمت على ديوانه فى تلك الليلة بعض
الوقت فجأة ، فلم يلبث لامير أن جسّ جيبى ، فأيقن أن الورقة مخيطة
فيها فعلاً • واستطاع بعد ذلك مرراً أن يتأكد من أن الورقة لا تزال فى
مكانها • فإثناء عشاتنا فى مطعم التتر مثلاً ، أتذكر أنه حضنتى عدة مرات؛
فلما أدرك أخيراً ما لهذه الورقة من شأن خطير رسم خطة خاصة لم تخطر
ببالى قط • لقد كنت أتخيل دائماً (كما يفعل غيبى أحقق) أنه ان كان
يدعونى الى بيته دائماً بحماسة شديدة واصرار كبير ، فهو انما يفعل ذلك
ليستدرجنى الى الدخول فى عصابته والمشاركة فى عملها • ولكن الحقيقة
المؤسفة هى انه كان يدعونى الى بيته لغرض آخر ! كان يدعونى ليسكرنى

سكراً شديداً ، حتى اذا رقدت غائبا عن شعورى وأخذت أشخر ، قصّ جيبى واستولى على الوثيقة . وذلك ما فعلاه فى تلك الليلة هو ألفونسين . قامت الفونسين بقص جيبى . فلما صارت الرسالة فى حوزتها ، أعنى « رسالتها » ، أعنى وثيقتى التى جثت بها من موسكو ، تناولوا ورقة عادية من ورق الرسائل بحجمها نفسه ، فوضعاها فى مكان الرسالة ، ثم أعادا خياطة الجيب فى مكانه فكأن شيئاً لم يحدث ، فلم ألاحظ أنا شيئاً . ان ألفونسين هى التى أعادت خياطة الجيب . وظللت أنا ، انا الأحمق ، ظللت الى النهاية ، خلال يوم ونصف يوم ، أظن أننى ما زلت أملك السر ، وظلت أعتقد بأن مصير كاترين لا يزال بين يديّ .

كلمة أخيرة : ان سرقة الوثيقة كان سبب كل شيء ، كان سبب

جميع المصائب الأخرى ا

اليكم الآن آخر أيام مذكراتي • انى أصل الى نهاية النهاية •

أظن أن الساعة كانت العاشرة والنصف حين وصلت الى مسكنى
مهتاج الأعصاب ، ذاهلاً أكبر الدهول ، عاقداً عزمى على فرار حاسم •
ولم أتمجّل الخطى ، فقد كنت أعرف ماذا سأفعل • ولكن ما ان
وطئت قدماى الدهليز حتى رأيت أن الأمر قد دخل مرحلة جديدة : كان
المعجوز قد نُقل من تسارسكوريا سيلو منذ قليل ، فهو الآن فى بيتنا ،
وبقره أنا أندريفنا !

لم يسكنوه غرفتى ، بل الغرفتين المجاورتين لها ، أعنى غرفتى
المؤجر • وقد أحدثت بالأمس فى هاتين الغرفتين تغييرات وتجميلات ،
وان تكن طفيفة • وكان المؤجر قد نقل امرأته الى حجرة المستأجر المجاور
المتذمر الذى سبق أن تكلمت عنه ، كما نُقل هذا لا أدرى الى أى
مكان •

لم بلبث المؤجر أن تسلل الى غرفتى ليستقبلنى • ان هيئته لا تنم
عمّا كانت تنم عنه بالأمس من حزم ، ولكنه كان فى احتياج شديد ،
احتياج من مستوى الأحداث ان صح التعبير • لم أكلمه ، بل انسحبت الى
زاوية الغرفة ، ووضعت رأسى بين يدى ، ولبثت على هذه الحال دقيقة •
فقدّر فى أول الأمر أنتى أصطنع « وضعاً » ، ولكنه فى النهاية لم يطق
صبراً ، واعتراه الفزع ، فتمتم يسألنى :

- هل هناك شىء ؟

واذ لم أجه أردف يقول :

- كنت أنتظر ك لأسألك هل تريد أن نفتح هذا الباب فيكون اتصال
غرفتك بغرفتى الأمير مباشرة بدلا من المرور بالداهليز .

قال ذلك وهو يرينى بابا جانيبا مغلقا ، يصل غرفتى بغرفته ، أى
بما هو الآن مسكن الأمير .

فقلت له برصانة ووقار :

- بطرس هيبوليتوفتش ، أرجو أن تفضل فتمضى الى آنا آندريفنا
فورا ، فندعوها ان تجيء الى هنا لتتحدث معى قليلاً . هل وصلا منذ
مدة طويلة ؟

- منذ زهاء ساعة

- طيب . اذهب الى آنا آندريفنا وقل لها ما أوصيتك به .

فذهب ثم عاد يحمل الىّ هذا الجواب الغريب ، وهو أن آنا آندريفنا
والأمير ينتظران أن أجيء اليهما بصبر فارغ . اذن لم تشأ آنا آندريفنا أن
تأتى . فعدلت ردتجوتى الذى تجعدّ فى الليل ، ونظفته بالفرشاة .
وغسلت وجهى ، ومشطت شعرى . فعلت ذلك كله بغير تعجل . ثم
مضيت الى الشيخ مدركاً مدى ما يجب التزامه من حذر وروية .

كان الأمير جالساً على ديوان أمام مائدة مستديرة ، أما آنا آندريفنا
فكانت فى ركن آخر ، أمام مائدة أخرى عليها غطاء وفوقها سماور البيت
مجلوا كما لم يسبق أن جلى فى يوم من الأيام ، وكان ماء السماور
يفلى ، وكانت آنا آندريفنا تهيء الشاي .

دخلت بتلك الهيئة القاسية نفسها ، فلاحظ العجوز المسكين ذلك

فوراً ، فارتجف • وسرعان ما حل محل ابتسامته فزع حقا • لكننى لم ألح ، بل أخذت أضحك ، ومددت له يدي ، فارتضى المسكين فى أحضانى •

وفد أدركت فوراً ما صار الرجل اليه ، دون ريب • كان من الواضح أولاً أن الشيخ الذى كان قبل الآن يتمتع بقدر من القوة وينعم بشيء من سلامه العقل رغم كل شيء ، ولا يخلو من بعض الارادة والصلابة ، قد أحواله بعد آخر لقاء بينى وبينه الى نوع من مومياء ، وجعلوا منه طفلاً شديداً الخوف ، كثير الحذر والشك • يجب أن أضيف الى هذا أنه كان يعلم لماذا جئ به الى هنا ، وقد جرى كل شيء على النحو الذى ذكرته من قبل حين استبقت الأحداث • لقد فاجأوه بخيانة ابنته وبحديث مستشفى المجانين ، فصعقوه وحطموه وسحقوه سحقاً ، فانقاد وهو لا يكاد من شدة ذعره أن يعي ماذا يفعل • قالوا له ان الوثيقة فى حوزتى وهى « مفتاح الموقف » ، فاذا رآها كان فى وسعه أن يتخذ قراره النهائى • يجب أن أبادر فأقول سلفاً ان رؤية الوثيقة واتخاذ القرار هما ما كان يربعه تصورهما أكثر مما يربعه أى شيء فى هذا العالم ••• لقد كان يتوقع أن يرانى داخلاً عليه بالقرار فى جيبى والورقة فى يدي • فما كان أعظم فرحه حين رآنى ، بانتظار ذلك ، مستعداً لأن أضحك وأن أترثر فى موضوع آخر • وقد انسكبت دموعه غزيرةً حين تعانقنا • ولا أكمكم أننى ذرفت أنا أيضاً بمض العبرات • لقد شعرت فجأة بشفقته كبيرة عليه • وكان كلب آلفونسين الصغير ينبح نباحاً نجحياً كرنين جرس صغير ، ويندفع من الديوان نحوى • ان هذا الكلب الصغير أصبح لا يفارق الشيخ منذ صار عنده ، حتى لقد كان ينام معه •

هتف يقول وهو يومئ لآنا أندريفنا الى :

- « قلت انه صاحب قلب نبيل » (بالفرنسية) •

فقلت له :

– لقد تحسنت صحتك كثيراً يا أمير ! هيثك الآن مزهرة نضرة !
ولكن نقيض قولي كان هو الصحيح وا أسفاه ! لقد كان الشيخ
أشبه بمومياء • وما قلت له ذلك الا لأشججه •
فأخذ يردد بفرح :

– « أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) •

– ولكن هلاً شربت شايبك • اذا قدمت لي فنجاناً فسوف يسعدني
أن أحسوه في صحتك •

– فكرة عظيمة • « فلنشرب ولنفرح » • هناك قصيدة بهذا المعنى •
أليس كذلك ؟ أنا أندريفنا ، أعطيه شاياً • « انه يفتن دائماً بالمواطف »
(بالفرنسية) • أعطينا شاياً يا عزيزتى •

سكبت لي آنا أندريفنا شاياً • ولكنها التفتت نحوى فجأة ، وأخذت
تتكلم بلهجة فيها كثير من الوقار ، فقالت :

– آر كادى ماكاروفتشس ، انا – أنا والمحسن الى الأمير نيقولا
ايفانوفتشس ، قد جئنا الى بيتك لاجئين • جئنا اليك أنت ، لا الى غيرك ،
جئنا ضيفين عليك نلتمس عندك المأوى والملاذ • تذكر أن كل مصير هذا
الانسان القديس ، النيل ، المحزون ، هو بين يديك ••••• انا نتظر القرار
الذى يمليه عليك قلبك بالحق والعدل !

لكنها لم تستطع أن تكمل كلامها • فقد اعترى الأمير رعب شديد ،
حتى كاد يرتعش من فرط الذعر ، وأخذ يقول مكرراً وهو يرفع يديه
نحوها :

– « فيما بعد ، فيما بعد ، أليس كذلك يا صديقتى الغرزة ؟ »
(بالفرنسية) •

لن أستطيع أن أصف الأثر الأليم الذي أحدثته في نفسي مقاطعته
هذه لحديثها • ولم أجب بشيء • وإنما اكتفيت بتحية فاترة رصينه • ثم
جلست الى المائدة عامداً • وطفقت أتحدث في مواضيع أخرى تافهة •
وأخذت أضحك وأمزح ••• فكان واضحاً أن الشيخ شكر لي ذلك •
وأنه اغتبط اغتباطاً شديداً • ولكن فرحه كان رغم شدته مهياً لأن يتبدد
سريماً وان يحل محله اكتئاب ويأس • كان هذا واضحاً من أول
نظرة •

– « بنى العزيز » (بالفرنسية) • بلغنى أنك كنت مريضاً • •
آ ••• معذرة ••• قيل لي انك كنت طول هذه المدة منشغلاً بتحضير
الأرواح • أهذا صحيح ؟
أجبتُه مبتسماً :

– ما خطر لي مثل هذا على بال •

– لا ؟ من كلمنى اذن عن تحضير ••• الأرواح ••• واح ؟

انبرت أنا آندريفنا تشرح فقالت :

– ان الموظف • صاحب البيت • بطرس هيوليتوفتش • هو الذى
كان يحدثه عن هذه الأمور منذ قليل • انه رجل مرح • يعرف نكات
كثيرة • هل تريد أن آناديه ؟

– « نعم • نعم • رجل طيب » (بالفرنسية) • يعرف نكات كثيرة •
ولكن الأفضل أن ندعوه فيما بعد • سوف ندعوه • وسوف يحكى لنا كل
شئ • • ولكن فيما بعد • (بالفرنسية) • تصور أنه منذ قليل • حين
اعداد المائدة • قال لي : اطمئن • فهى لن تطير ! نحن لا نحضر الأرواح !
هل الموائد تطير عند الذين يحضرون الأرواح ؟

– لا أدري • يُقال انها ترتفع بجميع أرجلها •

فقال وهو يرشقنى بنظرة مرتاعة :

- ولكن هذا الذى تقوله رهيب ! « (بالفرنسية) •

- اطمئن • هذه سخافات !

- ذلك ما أقوله أنا أيضاً • ان ناستاسيا ستيانوفنا سالوميافا •••
أنت تعرفها طبعاً •• لا •• لا لاتعرفها •• الخلاصة •• تصور أنها هى
أيضاً تؤمن بتحضير الأرواح •••

والنتف الأمير الى آنا آندريفنا وقال مكملاً كلامه :

- تخيلي هذا « يا ابنتى » (بالفرنسية) ! قلت لها يوماً : ان فى
الوزارات موائد أيضاً ، وعلى كل مائدة ثمانى أيدٍ من أيدى الموظفين
تكتب و لاتنتطح عن الكتابة ، فلماذا لا تراقص تلك الموائد ؟ تخيلها وقد
أخذت ترقص فجأة ! شغب تقوم به الموائد فى وزارة المالية ، أو وزارة
التعليم العام ••• لم يكن ينقص الا هذا ! •••

هتفت أقول محاولاً أن أضحك بصدق :

- ما ألفت الأشياء التى تقولها دائماً يا أمير !

- « أليس كذلك ؟ أنا لا أكثر من الكلام ولكننى أحسن القول »
(بالفرنسية) •

قالت آنا آندريفنا وهى تنهض :

- سأجىء ببطرس هيوليتوفتش •

وكانت الغبطة تتلأأ فى وجهها • فقد أبهجها كثيراً أن رأتنى الألف
الأمير هذه اللطافة كلها • ولكن ما ان خرجت حتى تبدل وجه الشيخ
فجأة • ونظر بسرعة الى الباب ، وأجال بصره فيما حوله ، ثم مال من
ديوانه على ، وهمس يقبل لى بصوت مروّع :

- « يا صديقي العزيز ، ليتنى أستطيع أن أراهما كليهما هنا !
« آه بنى الغالى ! » •

- هدىء نفسك يا أمير !

- نعم نعم ، لكننا سنصلح بينهما ، أليس كذلك ؟ انه لشجار صغير
محزن بين امرأتين تفيضان كرمأ وشهامة ، أليس كذلك ؟ ليس لى من
أمل الا فيك ••• سنسوئى هذا كله هنا •••

ثم أضاف يقول وهو يلقي نظرة يكاد يكون فيها خوف :

- ولكن يا له من مسكن غريب ! وهذا المؤجر ! ان له عقلا
عجيباً • قل لى : أليس خطراً ؟

- المؤجر ؟ لا ! فيم يمكنه أن يكون خطراً ؟

- حسن ! عظيم ! « يبدو غيباً ، هذا السيد ، ! ابنى ! أستحلفك
يسوع المسيح لا تقل لآنا آندريفنا انى خائف من كل شى هنا • لقد
أجزلتَ المديح لكل شىء منذ أن وطئت هذا المكان ، حتى لقد مدحت
المؤجر نفسه • اسمع ، أنت تعرف قصة فون سون ، هل تتذكر ؟

- نعم أتذكر ، فماذا ؟

- « لا شىء ••• لا شىء البتة ••• ولكننى حررنا ، أليس
كذلك ؟ • ما رأيك ؟ لا يمكن أن يحدث هنا شىء ••• من ذلك
النوع ؟

- لا ، لا ، يا عزيزى ، اطمئن ، أحلف لك •••

هتف فجأة يقول وهو يصم يديه أمامى ولا يخفى عنى شيئاً من
جزعه :

- « صديقى ، ابنى ، ••• اذا كان فى حوزتك شىء حقاً •••

وأتق مثلاً •• إذا كان نعمة ما يمكن أن تقوله لى •• فلا تقله ••
لا تقله • لا تقل شيئاً ، ناشدتك الله ••• لا تتكلم ••• الزم الصمت .
أطول مدة ممكنة ، لا تتكلم •••

وأراد أن يحضنى بذراعيه • وسالت الدموع على خديه • لن
أستطيع أن أصف لكم مدى انقباض قلبى : كان الشيخ المسكين أشبه
بطفل بائس ضعيف مرتاع اختطفته غجريات من عشه عند أبويه، وأخذته
الى أجنب • ولكن لم يُسمح لنا بأن تتعاق : فقد فُتح الباب ودخلت
آنا آندريفنا ، ولكن الشخص الذى يصحبها ليس المؤجر بل هو أخوها ،
حاجب البلاط • فصعقنى هذا الشيء الجديد صعقاً ، فسرعان ما نهضت
واتجهت نحو الباب •

قالت آنا آندريفنا بصوت عال :

- آر كادى ماكاروفتش ، اسمح لى أن أعرف كلاً منكمما
بالآخر •••

فلم يسعنى الا أن أتوقف • وقلت مقطعاً كلمائى مبرزاً منها كلمة
« أحسن » :

- أعرف أذاك « أحسن » المعرفة !

فجمجم الشاب وهو يقترب منى طلق الهيئة ، ويتناول يدى بحرية
فلا أملك أن أسحبها :

- أوه ! ما كان أكبرها غلطة ••• وانى لذنوب يا عزيزى آند ••
آندره ماكاروفتش • ولكن خادمى ستيفان هو سبب كل شيء • لقد أساء .
الابلاغ عنك فحسبتك شخصاً آخر •
وأردف يشرح لأخته :

- حدث هذا بموسكو ...

ثم عاد يكمل كلامه لى :

- وقد بذلت بعد ذلك جميع جهودي لأعثر عليك وأشرح لك الأمر • ولكننى مرضت ... اساله ! • يا أمير يجب أن نكون صديقين حتى يحكم النسب ... •

وتجراً الفنى الوقع الى حيث وضع يده على كفتى، فكان ذلك ذروة رفع الكلفة • فأسرعت أخلّص كفتى من يده بوثة الى جانب ، ولكننى خجلت أن أزيد على ذلك شيئاً ، فاكفيت بأن خرجت صامتاً ، ومضيت الى غرفتى ، فجلست على سريرى مفكراً قلقاً مضطرباً • كانت هذه المكيدة تخفى خنقاً ، ولكننى لا أستطيع أن أطيش صواب آنا أندريفنا وأن أسحقها سحقاً • لقد شعرت فجأة أنها هى أيضاً عزيزة على نفسى ، وأحسست أنها فى وضع رهيب •

كما كنت أتوقع ، جاءت الى غرفتي ، تاركة الأمير مع أخيها الذي أخذ يردد على مسامع الأمير أنواعاً شتى من نوائم المجتمع الراقى الجديدة، فسرعان ما استطاع بذلك أن يأمر وأن يفرح الأمير المسكين الذي يسهل التأثير فيه .

نهضت عن سريري صامتاً مستفهماً . فبادرتني أنا آندريفنا قائلة بلهجة جازمة :

.. قلت لك كل شيء . يا آرКАДى ماكاروفتشس . ان مصيرنا بين يديك .

.. لكنني نبهتكَ أيضاً الى أنني لا أستطيع . . . ان واجباتي المقدسة تمنعني من الاقدام على ما تعتمدين علىّ فيه . . .

.. حقاً؟ أهذا جوابك؟ أنا لا يهمنى أن أهلك . ولكن الشيخ؟ أعلم أنه سيُجنُّ منذ هذا المساء ! هتفت أجيبها بحرارة :

.. بل سيُجنُّ إذا أنا أطلعتُه على رسالة من ابنته تسأل فيها محامياً كيف يمكن أن يُعلن جنون أبيها . ذلك ما لن يستطيع أن يتحمله . هو قال لى هذا .

الحق اننى كذبت اذ ادعيت أنه قال لى ذلك . ولكن الكذب كان فى محله .

- قال لك هذا ؟ قدّرت أن يقوله لك • فانا الهالكة اذن • حتى
لقد بكى منذ قليل ، وطلب ان يرجع الى البيت •
سألته بالحاح :

- قولى لى : ما خطتك على وجه الدقة ؟

فاحمر وجهها من جرح كبريائها ان صح التعبير ، ولكنها كابرته
وتجلدت ، فقالت :

- ان هذه الرسالة التى بين أيدينا تبرئنا فى نظر الناس • سوف
أبادر فوراً فأنبئ الأمير « ف ••• » ، و بوريس ميخائيلوفتش بلتشيف ،
صديقى طفولته • هما شخصيتان من أصحاب الشأن والنفوذ ، وأنا أعلم
أنهما أديا استياءهما من بعض أعمال هذه الابنة الجشعة التى لا ترحم •
ولاشك أنهما سيصلحان ما بين الأب وابنته تلبيةً لطلبي ، وسألح أنا
نفسى على طلب هذه المصالحة • ولكن الوضع يكون قد تغير تغيراً تاماً •
وعدا ذلك سيدعمنى أقربائى من جهة أمى ، آل فاناريوتوف ؟ غير أن
الشيء الذى يهمنى خاصةً انما هو سعادته • يجب أن يعرف أخيراً من
ذا الذى كان مخلصاً له حق الاخلاص ، فيقدره قدره الذى يستحقه •
وانى لأعتمد على ما لك لديه من حظوة وما لك فيه من تأثير يا آر كادى
ماكروفتش • انك تحبه كثيراً ••• ولكن هل يحبه أحد غيرى وغيرك ؟
انه لم ينقطع عن ذكرك فى هذه الأيام الأخيرة • وكان يحن اليك حنيناً
شديداً ، ويشعر من بعدك عنه بضجر قوى • وكان يسميك « صديقه
الشاب » • وطبيعى أن شكرى لك وامتنانى منك لن يكون لهما حدود
ما حيت •••

ها ••• ها هى ذى الآن تعدنى بمكافأة ••• لعلها مكافأة مالية !
فقاطعتها قائلاً بلهجة خشنه ونبرة جازمة لا تتنى ولا تلين :

– مهما تقولى . . . فلن أترحزح عن رفضى قيد شعرة ! لكننى
أستطيع أن أعاملك بمثل ما تعامليننى به من صراحة ، فأصارك بأخر
ما عقدت العزم عليه : بعد مدة قصيرة سأسلّم الرسالة المشثومة الى كاترين
نقولاييفا يداً بيد ، ولكننى سأشترط عليها بسبب كل ما حدث الآن
ألا تقوم بفضيحة ، وأن تقطع لى على نفسها عهداً بالأ تحول بينك وبين
تحقيق سعادتك . هذا كل ما أستطيع أن أفعله .

قالت وقد احمرت احمراراً شديداً :

– مستحيل !

لقد أثار استياءها أن تصور أن كاترين نيقولاييفا سوف « تداريها »
وتحميها .

قلت :

– لن أغير قرارى يا آنا أندريفنا .

– قد تغير .

– الجئى الى لامبير !

– آرКАДى ماكاروفتش ، انك لا تعرف المصائب التى يمكن أن تنتج
عن عنادك .

قالت ذلك بقسوة وغضب شديد . فأجبتها :

– جائز جداً أن تنتج مصائب . . . اننى أشعر بدوار ! كفى الآن :
لقد فررت واتهى الأمر . ولكننى أرجوك ، بل أستحلفك بالله ،
ألا تأتبنى بأخيك .

– ولكنه يريد أن يمحو ما . . .

- ليس هناك شيء يجب محوه ! ... ما أنا في حاجة الى أن يمحو شيئاً • لا أريد ، لا أريد !

كذلك صحت وأنا أمسك رأسي بيدي • ولعلني قد عاملتها بامتلاء •

وأردفت أسألها :

- قولي لي : أين سييت الأمير ؟ هنا ؟

- سييت هنا ، عندك ومعك •

- اني تارك هذا البيت منذ الليلة •

وما ان نطقت بهذه الكلمات التي لا رحمة فيها ، حتى تناولت قبعتي وأخذت ألبس معطفي • فكانت آنا أندريفنا ترقبني صامتة مكفهرة الوجه • وقد رثيت لحال الفتاة المتكبرة ، وشعرت نحوها بالشفقة حقاً • ومع ذلك خرجت دون أن أترك لها كلمة أمل واحدة •

سأحاول أن أوجز • بعد أن اتخذت قرارى قاطعاً لا رجعة عنه ، اتجهت قدماً الى بيت تاتيانا بافلوفنا • وا أسفاه ! لقد كان يمكن انتقاء مصيبة كبيرة لو أننى وجدتها • ولكن سوء الحظ كان يلاحقنى فى ذلك اليوم • فلم أجد تاتيانا بافلوفنا • فذهبت الى ماما ، أولاً لأزور أمى المريضة ، وثانياً لأننى قدرت أننى سوف أجد عندها تاتيانا بافلوفنا فى أغلب الظن • ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد تركت أمى منذ برهة وجيزة • وكانت أمى راقدة فى سريرها ، وقد بقيت ليزا وحدها معها • رجعتى ليزا ألا أدخل وألا أوقظ ماما من نومها قائلةً لى : « انها لم تمم الليل كله ، وظلت تتألم وتتعب • فمن حسن الحظ أنها غفت الآن • • • قبلت ليزا ، وقلت لها بكلمتين اننى اتخذت قراراً ضعفاً حاسماً ، وانى مقدم على تنفيذه حالاً • فأصغت ليزا الى كلامى بدون دهشة كما يصنعى المرء الى كلام عادى جدا ، ذلك أنهم جميعاً قد ألفوا كثيراً أن يسمعوا منى كلمات لا أنفك أكررها ثم أكررها ، كقولى « قرارات أخيرة » ، ثم رأونى أرتضى فأتركها • ولكننى الآن • • الآن • • لن يكون شأنى كما كان • ومن أجل أن أترك لتاتيانا مهلةً تعود أتناها الى بيتها ، ذهبت الى المطعم الذى يقع تحت مستوى الشارع ، والذى تروج فيه أغنية « لوسيا ، رواجاً كبيراً • وسأشرح السبب الذى جعلنى فى حاجة شديدة الى تاتيانا بافلوفنا فجأة • لقد كنت أنوى أن أرسلها الى كاترين نيقولايفنا فوراً ، فتأتى بها الى بيتها ، فأردت الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا بحضور تلك

المرأة نفسها بعد أن أشرح لها كل شيء مرة واحدة الى الأبد • الخلاصة
اننى كنت أريد أن أفعل الخير : أريد أولاً ان أبرىء نفسى تبرئة حاسمه ،
وأحرص على هذه التبرئة وأعدّها حقاً لى • حتى اذا فرغت من ذلك أخذت
أدافع عن آنا أندريفنا وأقول فيها قولاً حسناً ، ثم اصطحبت كاترين
نيقولاييفنا وتاتيانا بافلوفنا (شاهداً) الى بيتى ، أى الى الامير ، فأصلحت ما بين
المرأتين المتعاديتين هناك ، وأردت الحياة الى الأمير ••• و ••• فى نطاق
هذه الطائفة الصغيرة ، أجعل الجميع سعداء ، منذ هذا اليوم ، ثم لا يبقى
بعد ذلك الا فرسيلوف وماما • ولم يخالجنى شك فى نجاح مسعاى : فان
كاترين نيقولاييفنا ستكون ممتنةً من ردّ الرسالة اليها رداً لا أطلب أن
أكافأ عليه بشيء ، فلن تستطيع أن ترفض تلبية رجائى • وا أسفاه !
كنت لا أزال أتصور أن الوثيقة فى حوزتى • آه ما كان أغبى وأحقر
الوضع الذى كنت فيه بدون أن أشعر ! •••

كان الظلام قد هبط ، ولعل الساعة كانت قد بلغت الرابعة حين
قرعت باب تاتيانا بافلوفنا مرة أخرى • فقالت لى مارى بفظاظة • انها لم
ترجع • • انى لأتذكر الآن نظرتها الغريبة المواربة تذكرها واضحاً •
ولكننى فى تلك اللحظة لم تراودنى أية شبهة • حتى لقد خطرت لى هذه
الفكرة الأخرى : ففىما كنت أهبط درجات السلم منزعجاً منبسط العزيمة،
تذكرت الأمير المسكين الذى مدّ الىّ ذراعيه منذ قليل ، فلمت نفسى لوماً
لاذعاً لأننى تركته من غضب ؛ وأخذت أتصور ، قلقاً أشد القلق ، ما لعله
حدث عندهم أثناء غيابى من أمور قد تكون سيئة غاية السوء ، فأسرعت
أعود الى البيت • فعلمت أن ما وقع هو الحوادث التالية :

ان آنا أندريفنا التى أغلظت لها القول وأغضبتها ، لم تفقد شجاعتهما •
يجب أن أذكر أنها كانت منذ الصباح قد أرسلت الى لامبير مرةً أولى فمرة
ثانية ، فلما لم يعثر عليه فى بيته ، بعثت أخاها يبحث عنه • كانت المسكينة

بعد أن رأته صمودى وعنادى تعقد أملها كله على لاميير وتأثيره فى .
فكانت تنتظره نافذة الصبر . ولكن كان يدهشها أن تراه يهجرها فجأة
ويختفى ، وهو الذى كان الى هذا اليوم لا يتركها أبداً ويظل يحوم
حولها . مسكينة ! كان لا يمكن أن يخطر لها على بال أن لاميير الذى
يستولى الآن على الوثيقة ، قد اتخذ قرارات أخرى ، وأن من الطبيعى
أن يتوارى عن الأنظار ، وأن يتوارى عن نظرها هى خاصة .

كان القلق والشعور بالخطر يتزايدان فى نفس آنا أندريفنا ، فكان
طبيعياً أن تصبح عاجزة عن تسليية الأمير الشيخ ، وكان قلق الشيخ من جهته
يشند اشتداداً يدعو الى الخوف والفرع . كان يلقي أسئلة غريبة وجلة ،
وكان ينظر الى آنا أندريفنا مشتتاً مرتاباً ، حتى لقد أجهدت باكياء عدة
مرات . ولم يمكث الشاب فرسيلوف مدة طويلة . فاستدعت آنا أندريفنا ،
بعد انصرافه ، بطرس هيبوليتوفتش الذى كانت تمول عليه كثيراً . ولكن
بطرس هيبوليتوفتش لم يحدث فى نفس الأمير الا الاشمزاز بدلاً من أن
يسليه ويسرته عنه . وكان الأمير ، على كل حال ، ينظر الى بطرس
هيبوليتوفتش نظرة فيها حذر وشك وارتباب ما ينفك يزداد . وقد شامت
المصادفة أن يستأنف بطرس هيبوليتوفتش ثرثرته عن تحضير الأرواح ،
وعن الأعباء أخرى قال انه شهدا بنفسه : منها أن مشعوذاً مرّ بالمدينة
يوماً ، فكان يقطع رموساً على مرأى من الناس ، فتسيل الدماء من الأعناق ،
ويشهد الجمهور ذلك كله بأعينه ، ثم يعود الرجل فيتناول الرموس المقلوعة
ويردّها الى مكانها فوق الرقاب فتلتصق على مرأى من جميع الناس
أيضاً ، وقد حدث هذا كله سنة ١٨٥٩ ؛ فحين سمع الأمير هذا الكلام
بلغ من شدة الهلع ومن شدة الامتيا فى الوقت نفسه أن آنا أندريفنا
اضطرت أن تطرد القصاص . ومن حسن الحظ أن وصل الغداء فى ذلك
الوقت ، وهو غداء عنى به لاميير و آلفونسين أو صيبا باعداده طباحاً
فرنسياً حاذقاً يسكن فى بيت قريب ، ولكنه لا يعمل الآن فى مكان واما

هو يبحث عن عمل في منزل أسرة ارستقراطية أو في أحد النوادي • فكان من شأن هذا الغداء مع الشمينيا أن أفرح العجوز جداً ، فأكل كثيراً وفرح كثيراً ؛ وكان طيباً بعد الغداء أن شعر بثقل وأحس برغبة في النوم • واذ كان من عادته أن ينام بعد الغداء دائماً ، فإن أنا أندريفنا كانت قد أعدت له سريراً • فكان وهو يرقد على السرير يقبّل يديها ويقول لها انها جنته ، وانها أمه ، وانها حوريتيه ، وانها « زهرته الذهبية » ، الى ما هنالك من تعابير شرقية • ونام أخيراً • وعندئذ انما وصلت أنا •

أسرعت أنا أندريفنا تدخل على ، فضمت يديها أمامي ضارعةً مبتهلة ، وقالت انها تتوسل الى (لا من أجلها بل من أجل الأمير) ألا أخرج ، وأن أذهب اليه متى استيقظ من نومه • « اذا لم تكن أنت معه فقد هلك • لسوف يصاب بنوبة • أخشى ألا يقاوم الى آخر اليوم • • • » وأضافت تقول انها مضطرة أن تغيب عن البيت اضطراراً لا سبيل الى دفعه ، « وان غيابها قد يطول ساعتين ، فهي اذن تترك الأمير تحت حراستى ، • فقطعت لها على نفسى عهداً حاراً بأن أبقى الى المساء ، فاذا استيقظ بذلت كل ما أستطيع بذله من جهود لأسليه وأسرى عنه •

فقلت تختم كلامها بقوة :

— وأنا سأقوم بواجبي •

وانصرفت • يجب أن أذكر مستبقاً الوقائع أنها انما مضت تبحث عن لامبير • انه آخر أمل لها • وعدا ذلك زارت أخاها وأقرباها آل فانار يوتوف • فتستظيرون الآن أن تتخلوا كيف كانت حالتها النفسية حين رجعت !

استيقظ الأمير بعد انصرافها بنحو ساعة • وسمعت صوت أبنه من وراء الجدار ، فأسرعتُ اليه فوراً • فوجدته جالساً على سريره بثوب

المنزل ، ولكنه كان قد بلغ من شدة الفزع من الوحدة وضوء الصباح الوحيد الخافت وهذه الغرفة الغريبة أنه حين دخلت عليه ارتعش وانتفض وصرخ • فهرعت اليه ، فلما عرف أن القادم عليه هو أنا ، أخذ يقبّلنى ودموع الفرح تنهمر من عينيه •

– قيل لى انك تركت هذا البيت ، قيل لى انك خفت ففرت !

– من قال لك هذا ؟

– من ؟ دعنا ! لعلى أنا الذى تخيلته • ولعل أحداً قاله لى أيضاً •
لقد حلمت منذ قليل حلماً : رأيت شيخاً ملتجئاً يدخل علىّ فجأة وفى يده أيقونة محطومة نصفين ، ويقول لى : « هكذا ستحطم حياتك ! » •

– لا بد أن أحداً أعلمك أن فرسيلوف قد كسر أمس أيقونة !

– « أليس كذلك ؟ » ، نعم ، نعم ، علمت هذا • علمته فى هذا الصباح من داريا أونيسيوفنا • لقد نقلت الى هنا حقيتى وكلبى •

– يا له من حلم غريب !

– وتصور أن هذا الشيخ كان لا ينفك يهددنى بأصبعه • ولكن أين أنا آندريفنا ؟

– ستأتى حالاً •

هتف يسأله بألم :

– من أين ؟ الى أين ذهبت ؟

– لا ، لا ، ستكون هنا حالاً • لقد طلبت منى أن أبقى معك لحظة •

– « نعم » ، ستجىء • اذن 'جن' صاحبنا آندره بتروفش ، وبهذه المباشرة ، وبهذه السرعة ! ، لطالما تنبأت له بأنه سينتهى هذه النهاية • اسمع يا صديقى •••

قال ذلك وأمسك رديجوتى وشدنى اليه ، وهمس :

- جاهدنى المؤجر منذ قبل بصور فوتوغرافية ، صور فوتوغرافية
قدرة ، صور نساء .. نساء عاريات .. بأوضاع شرقية مختلفة .. وأخذ
يربني الصور فى الضوء . فأخذت أنا أمدح له الصور طبعاً ، على مضض
وكره . ولكن تلك هى الطريقة التى استعملوها مع ذلك المسكين ليحشوه
بنساء سيئات ، فيسكروه بسهولة أكبر ..

- تقصد فون سون أيضاً ! دعنا من هذا يا أمير ! ان المؤجر رجل

غيبى لا أكثر .

- غيبى لا أكثر ! « هذا رأى » . يا صديقى ، اتقذنى من هذا

المكان ان استطعت !

قال ذلك وهو يضم يديه أمامى ضارعاً على حين فجأة . قلت :

- سأفصل كل ما أستطيع يا أمير ! أنا لك .. عزيزى الأمير ،

انتظر ، قد أدبر جميع الأمور .

- « أليس كذلك ؟ » ، سوف نهرب ، تاركين الحقيقة هنا ، حتى

يتخللوا أننا سنعود .

- الى أين نهرب ؟ وأنا أندريفنا ؟

- لا ، لا ، سنهرب مع أنا أندريفنا .. « آه .. عزيزى .. »

أحس بغليان فى رأسى . اسمع : ان هناك ، فى الكيس الذى على اليمين ،

صورة لكاتيا . لقد دمستُ الصورة فى الكيس خفيةً منذ قليل ، حتى

لا تراها أنا أندريفنا ، وحتى لا تراها هذه المرأة داريا أونيسيموفنا

خاصة ! .. أخرج الصورة بسرعة ، ناشدتك الله ، وأحرص على

ألا يفاجئنا أحد .. ألا يمكن شد المزلاج فلا يفتح الباب ؟

نبشت الكيس فوجدت فيه صورة فوتوغرافية لكاترين نيقولايفنا

عملاً ، صورة ذات اطار بيضوى ، أخذها الشيخ منى ، وحملها الى الضوء ، فأخذت تسيل دموع غزيرة على خديه المهزيلتين الشاحبتين ، وهتف يقول :

- « ملاك ، ملاك من السماء ! » • أذنت في حقها طول حياتي •
والآن أيضاً ! « ابنتي العزيزة » أنا لا أصدق شيئاً ، لا أصدق شيئاً !
قل لى يا صديقى : هل صحيح أنه يراد ايداعى فى ملجأ للمجانين ؟
« أقول أشياء حلوة ، فيضحك الناس كافة » • • ثم يؤخذ هذا الرجل
فجأة الى ملجأ للمجانين •

صحت أقول :

- مستحيل • هذا الكلام خطأ • أنا أعرف عواطفها •

- أنت أيضاً تعرف عواطفها ؟ رائع ! • • • أحييتى يا صديقى !
ما أكثر الكلام الذى قالوه لى عنك ! استدع كاتيا الى هنا ، ولتعانقا كلتاهما
أمامى ، فأخذهما الى البيت ، ونطرد المؤجر •

قال ذلك ونهض وضمّ يديه ضارعاً ، ثم ركع أمامى على الأرض
فجأة ، وأضاف يهمس بجزع مسعور ، مرتشئاً كورقة فى مهب الريح :
- « عزيزى » ، أين سيحشروننى الآن ؟

فهتفت أقول وأنا أنهضه وأجلسه على السرير :

- ألا تصدقنى أنا أيضاً ؟ هل تظن أننى أنا أيضاً مشارك فى
المؤامرة ؟ ألا اتنى لن أسمع لأحد هنا أن يلمسك بأصبعه •
فتمتم يقول وهو يشدُّ على كوعى بيديه شداً قوياً وما يزال
يرتمش :

- « نعم » ، لا تسمع لأحد ! لا تسلمنى الى أحد ! وأنت أيضاً

لا تكذب علىّ .. لأنه .. هل يمكن أن يقتادوني من هنا ؟ اسمع : هذا
المؤجر هبوليت ... أو ما اسمه ؟ هل هو ... طيب ؟

- دكتور ؟

- وهنا ... أليس هنا ملجأ مجانيين ، هنا ، فى هذه الغرفة ؟

ولكن الباب فتح فى تلك اللحظة و دخلت أنا أندريفنا . لاشك
أنها كانت تتصنت وراء الباب ، ثم نفذ صبرها ففتحت فجأة ، فاذا بالأمير
الذى كان يرتجف من أيسر صرير ، اذا به يصرخ فجأة وينطس رأسه
فى وسادته ، ثم اذا هو يعانى ما يشبه أن يكون نوبة عصبية انتهت بكاء
يصحبه نسيج . قلت لها وأنا أشير الى الشيخ :

- انظرى الى ثمرة عملك الجميل !

فقالت رافعة صوتها :

- بل هذه ثمرة عملك أنت . انى أتوجه اليك آخر مرة يا أركادى
ماكروفنتس : هل تريد أن تكشف عن المؤامرة الجهنمية التى دبرت لهذا
الشيخ الذى لا يملك ما يدافع به عن نفسه ، وأن تضحى « باحلام حب
جنونى صياني » فى سبيل أن تنقذ « أختك أنت » ؟

- سأنقذكم جميعاً ، ولكن على الوجه الذى ذكرته لك من قبل !
اخرج الآن بسرعة ، فقد أستطيع أن أجيء بكاترين نيقولايفنا الى هنا
بعد ساعة ، فأصلح ما بينكم جميعاً ، وتسعدون جميعاً !

كذلك هتفت كاللهم .

قال الأمير وقد ناب الى نفسه أخيراً :

- جىء بها ، جىء بها الى هنا . خذنى الى بيتها ! أريد كاتيا ،
أريد أن أرى كاتيا وأن أباركها .

أضاف ذلك هاتفاً وهو يرفع ذراعيه ، وينهض عن سريره
فقلت لأننا أندريفتنا وأنا أشير إليه :

- هل ترين ؟ هل تسمعين ما يقول ؟ الآن لن تنقذك أية وثيقة ،
يكن من أمر !

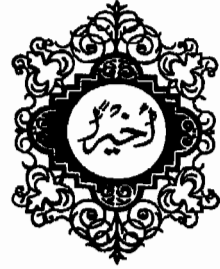
- أرى • ولكن الوثيقة لا تزال تستطيع أن تسوّغ سلوكي في
المجتمع ، أما الآن فأنا مجللة بالحزى والعار ! على أن ضميري نقي •
تركتي الجميع ، حتى أخي الذي خشي الاخفاق ••• لكنني سأسأ
بواجبي ، وسأبقى بقرب هذا المسكين خادمة وممرضة •

ولكن لم يكن ثمة وقت يمكن اضاعته • فخرجت من الغرفة مسرعة
وصرخت من العتبة قائلاً :

- سأرجع بعد ساعة ، ولن أرجع وحيداً •

الفصل الثاني عشر

١



وجدت ناتيانا بافلوفنا! فاندفعت أروى كل شيء
دفعه واحدة ، فحكيت لها قصة الوثيقة من
أولها الى آخرها ، وحدثتها عما يجري عندنا
تفصيلا . وقد استغرق هذا العرض زهاء عشر
دقائق رغم أنها فهمت من تلقاء نفسها فهما كاملا، وأنها كانت قادرة على
أن تدرك القضية بكلمتين . كنت وحدي أتكلم ، فقلت الحقيقة كلها ولم
أخجل . وكانت هي صامته ساكنة منتصبه الجذع كوتد ، وبقيت
جالسة على كرسيها مزمومة الشفتين لا تحول عنى عينيها ، وتصغى
الى كلامي بكل ما تملك من قوة الاصغاء . ولكن ما أن أنهيت حديثي
حتى وثبتت عن مكانها فجأة ، وبلغت من سرعة الوثوب أنني وثبتت
أنا أيضا ، وانطلقت تقول :

— آآآ يا وغد ! ... اذن كانت تلك الرسالة مخيطة في
جيبك .. خاطبتها تلك البنية الحمقاء ماريا ايفانوفنا ! آه يا نذل ،
يا سافل ! اذن جئت الى هنا لتسيطر على القلوب ، ولتغزو المجتمع
الراقى ، ولتلتحق الأذى بأى انسان انتقاما لكونك ابن زنا .

صحت أقول لها :

— ناتيانا بافلوفنا، اننى أمنعك من شتمى، ولعلك أنت، بشتائمك،
منذ البداية ، كنت سبب استعار نفسى هنا . نعم، أنا ابن زنا ، ولعلنى
أردت فعلا أن انتقم لنفسى من ذلك بايذاء أى انسان ، مادام الشيطان

نفسه عاجزاً عن معرفة المذنب فى هذا ! ولكن تذكرى أنتى نبذت تحالفى مع الأوغاد ، وأنتى انتصرت على أهوائى الجامحة ! سوف أضع الوثيقة أمامها دون أن أقول كلمة ، وسوف أنصرف حتى دون أن أنتظر منها هى كلمة ، وستكونين على ذلك شاهدة •

أعطينها ، أعطنى الرسالة ، واعطينها حالا ، ضمها هنا على المائدة ! من يدرى ؟ لملك تكذب !

– هى مخيطة فى جيبي • ماريا ايفانوفنا خاطتها بيدها • فلما صنع لى هنا رديجوت جديد ، سللتها من الرديجوت القديم وأعدت خياطتها بنفسى فى هذا الرديجوت • هى ذى ، هنا ، أمسكيها ، جسيها ، لست أكذب !

فأجابت تاتيانا بافلوفنا تقول بحماسة :

– أعطينها اذن ! اسحبها !

– مستحيل • سأضعها أمامها بحضورك ، وسأنصرف بدون أن أنتظر منها كلمة واحدة • ولكن يجب أن تعرف وأن ترى بعينها أنتى أنا ، أنا نفسى ، الذى أردتها اليها ، بارادتى ، من غير اكراه ، وبدون جزاء •

– افتخاراً بنفسك ! انك لا تزال مولتها بالحلب أيها الغر !

– صغينى بما تشائين من نعوت سيئة • اننى استحق ذلك كله • ولن أزعل • لتحسبنى صيباً ترقبها وتخيل مؤامرة عليها • لتحسبنى ما تشاء • ولكن فلتعترف بأننى سيطرت على نفسى ، وفضلت سعادتها • هى ، على كل شىء فى هذا العالم ! سيان يا تاتيانا بافلوفنا ، سيان ! اننى أهيب بنفسى قائلاً : عليك بالشجاعة وعليك بالأمل ! لعل هذه خطوتى الأولى فى الحياة ، ولكنها خطوة انتهت نهاية حسنة ، نهاية نسيلة !

وتابعت أقول كاللهم وقد سطعت عيناى :

- ثم ... هبى أننى أحبها . لست أشعر من هذا بخجل : ان
ماما ملاك من السماء ، و « هبى » ملكة فى الأرض ! وسيمود فرسيلوف
الى ماما ... فليست فى حاجة الى الحجل . لقد سمعت ما قاله هناك -
« هبى » وفرسيلوف - فقد كنت وراء الستارة . أه ... نعم ... اننا نحن
الثلاثة « مصابون بجنون واحد » . هل تعلمين من قال هذه الجملة ؟
انه هو ، أندره بتروفتش ! وهل تعلمين أننا قد نكون هنا أكثر من
ثلاثة ، نحن معشر المصابين بهذا الجنون نفسه ؟ نعم ، أراهن أنك
الرابعة ! هل تريدان أن أقول لك ما أعتقد به : أراهن أنك أنت أيضاً
قد تولدت طوال حياتك بحب أندره بتروفتش ، وأنتك ما تزالين
مولّهةً بحبه الى اليوم ...

أعود فأقول اننى كنت أتكلم كاللهم تدفقاً ، وكنت سعيداً ، ولكننى
لم أستطع أن أتمّ كلامى ، فهاهى ذى تانيانا بافلوفنا تمسك شعرى
بحركة سريعة سرعة خارقة ، فتضى رأسى الى الأرض مرتين ، بكل
ما تملك من قوة ... ثم تتركنى حيث أنا ، وتسحب الى ركن ،
فتضع وجهها على الجدار منطى بسنديلها ، وتقول لى باكية :

- سافل ! لا تقل لى مثل هذه الأشياء بعد الآن .

كان ذلك أمراً لا يمكن توقعه ، فشدهت أشد الشده . وبقيت
متسمرأ فى مكائى أنظر اليها ولا أدرى ماذا يجب أن أعمل .

واستأنفت كلامها فقالت ضاحكة باكيةً فى آن واحد :

- غبى ! تعال ! تعال ! تعال قبّل صدقتك المعجوز البلهاء ! ولا تكرر
هذه الأشياء بعد اليوم أبداً . انى أحبك أنت ، ولقد أحبيتك طول
حياتى . يا أبه !

قَبَلْتها • وأحب أن أقول مستطرداً اننا - أنا وتاتيانا بافلوفنا - قد
أصبحنا منذ تلك اللحظة صديقين حميمين •
وهفت تقول فجأة وهي تلطم جبينها :
- ولكن ما بقائى هنا ؟ قلت لى ان الأمير العجوز فى بيتك ؟
هذا صحيح ؟
- أؤكد لك •

فجمجمت تقول وهى تركض فى الغرفة كفارة :
- آه ... رباه ! لشدما يوجع قلبى ! هكذا يعاملونه اذن منذ
الصباح ! ان البلهاء لا يعاقبون اذن قط ! هل ارتاحت الآن آنا آندريفنا ؟
يا لها من راهبة ! والأخرى ، ال « ميليتريا » ، لا تعرف شيئاً !
- ما ميليتريا ؟

- الملكة فى الأرض ، المثل الأعلى ! ما العمل الآن ؟
هتفت أقول وقد ثبت الى رشدى :

- تاتيانا بافلوفنا • لقد استرسلنا فى سخافات ، ونسينا الشيء
الأساسى : لقد جئت باحثاً عن كاترين نيقولايفنا ، وهم ينتظروننى
هناك !

وشرحت لها أننى سأسأل الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا مشترطاً
عليها أن تمدنى بمصالحة آنا آندريفنا فوراً ، بل بالموافقة لها على
زواجها ...

فقاطعتنى تاتيانا بافلوفنا قائلة :

- هذا حسن جداً • أنا أيضاً كررت عليها هذا مائة مرة • ذلك
أنه سيموت قبل أن يتم الزواج ؛ انه لن يتزوجها ، واذا أورتها فى
وصيته بعض المال ، فلاشك أن هذا كتب فى الوصية منذ الآن ...

- هل المال وحده هو ما تأسف عليه كاترين نيقولايفنا ؟
- لا ، وإنما هي كانت تخشى دائماً أن تكون الوثيقة عندها ،
عند آنا ، وكنت أخشى ذلك أنا أيضاً . فكنا نراقبها هي . كانت البنت
لا تريد أن تصدم أبابها الشيخ . أما فيما يتعلق بالألماني بيورنج ، فإن
المال هو ما كانت تأسف عليه حقاً .

- وبعد هذا ، هل يمكن أن تتزوج بيورنج ؟
- ما جيلتنا مع غبية ؟ الغبي يبقى غيباً طول حياته . على كل حال ،
سيهي لها نوعاً من الهدوء والطمأنينة . لا بد أن أتزوج أحداً ، فأنى
فرق بينه وبين غيره ؟ ، هذا ما تقوله . وسوف نرى ما يحدث .
لسوف تعض على أصابعها ندماً ، ولكن بعد فوات الأوان .
- فلماذا تسمحين لها بهذا ؟ انك تحينها ، حتى لقد أعلنت لها
أنك مفرمة بها .

- مفرمة ، نعم اننى أحبها أكثر مما أحبكم مجتمعين
ولكن هذا لا ينفى أنها بلهاء جداً !

- هلمى إليها حالاً . ستخذ قراراً ونقودها الى أبيها .
- ولكن هذا مستحيل ، مستحيل يا غبي ! هذا بعينه ما هو
مستحيل ! آه ما العمل ؟ اننى أشعر بدوار .
وظفقت تتحرك فى الغرفة مضطربة ، ولكنها تناولت معطفها .

قالت :

- آه . . . لو أنك أتيت قبل أربع ساعات . . . الساعة الآن هي
السابعة وتزيد قليلاً . لقد ذهبت الى آل بلتشييف تنغدى عندهم ، ثم
تصحبهم الى الأوبرا .

- فماذا لو ركضنا الى الأوبرا ؟ . . لا . . هذا مستحيل . ولكن
ما عسى يحدث للمعجوز ؟ انه قد يموت فى هذه الليلة .

- اسمع • لاتذهب الى هناك ، بل اذهب الى ماما ، وغداً ، فى
ساعة مبكرة من الصباح •••

- لا ، مستحيل ، لن أترك الأمير بحال من الأحوال مهما يحدث !

- انك على حق • لا تتركه • ولكننى أنا ••• سأجرى اليها رغم
كل شىء ، فأترك لها كلمة ••• سأكتب برموزنا الخاصة (وستفهم هى)
أن الوثيقة موجودة ، وأن عليها أن تجيء الى حتماً فى الساعة العاشرة
تماماً من صباح الغد • اطمن • ستجىء • ستسمع لى • وعندئذ سنسوى
كل شىء • اذهب أنت الآن الى هناك ، ودبّر أمرك مع العجوز •••
أرقده ••• فقد يقاوم الموت الى الغد • ولا ترعب آنا أندريفنا • ذلك
أننى أحبها هى أيضاً • أنت تظلمها لأنك لا تستطيع أن تفهم : لقد أوذيت
وأهينت ، أوذيت وأهينت منذ طفولتها • آه •• ما أكثر ما رأيت منكم
جميعاً ! ولكن لا تنس أن تقول لها على لسانى انى سأتولى الأمر
بنفسى ، فأمسكه بيدى سعيدة بذلك ، ولتطمئن بالآء فلن تصاب كبرياؤها
بسوء • ذلك أننا تشاجرنا فى الأيام الأخيرة ، وتشاتمنا ! فاركض اليها ••
بل انتظر •• أرنى جيبك •• هل ما قلته صحيح ؟ صحيح حقاً ؟ هه ؟
هل هو صحيح حقاً ؟ أعطنى الرسالة اذن ، أبقها معى هذه الليلة فحسب •
هل فى هذا ما يضرك ؟ اتركها عندى • لن أكلها • من الجائز أن تضميمها
فى هذه الليلة •• أو أن تغير رأيك !

- مستحيل ! أمسكى ، جسسى ، شوفى ! لكننى لن أتركها لك
بحال من الأحوال •

جست تاتيانا بافلوفنا جيبي بأصابعها ، فقالت :

- نمة ورقة حقاً • طيب • اذهب • هيأ • وسأب أنا الى المسرح •
فكرتلك تلك حسنة • ولكن اركض ، ما بالك لا تركض •

- تاتيانا بافلوفنا ، لحظة ! كيف حال أمى ؟

- حسنة •

- وآندره بتروفتش ؟

فحركت يدها بإشارة تهرّب ثم قالت :

- سيسترد عقله •

فانصرفت مسرعاً وقد تشجعت وامتألت نفسى رجاءً وأملاً ، رغم

أن النتيجة كانت غير ما توقعت •

ولكن القدر كان قد شاء أن تعجز الأمور مجرى آخر ، وكنت

أجهل ما هبأه لى • حقاً ان على هذه الأرض قدراً •

سمعت فى بيتنا جنبه وأنا على السلم • كان باب البيت مفتوح
وفى الدهليز كان يقف خادم بملابس رسمية • وكان بطرس هيبوليتوف
وامراته واقفين كذلك فى الدهليز ينظران مذعورين • ان باب غـ
الأمير مفتوح : وفى داخل الغرفة يجلس صوت راعد سرعان ما عرفه
انه صوت بيورنيج • وما ان خطوط خطوتين حتى رأيت بيورنيج يج
الأمير الى الدهليز ، هو ورفيقه البارون « ر • • • » الذى سبق أن
يفاوض فرسيلوف • كان الأمير غارقاً بدموعه ، يرتجف ويشهق ويه
بيورنيج ويقبله • وكان بيورنيج يزعم صارخاً فى وجه آنا آندريفنا
خرجت هى أيضاً الى الدهليز تتبع الأمير • وكان بيورنيج يهدد
ويتوعدها ، وأظن أنه كان يضرب الأرض بقدمه • الخلاصة أنه
يتصرف تصرف جندى ألماني فظ ، رغم كل « المجتمع الراقى الذ
ينتمى اليه ، • وقد عرف فيما بعد أنه اعتقد أن آنا آندريفنا قد ارتك
جريمة من جرائم الحق العاصم ، وأنها يجب أن تحاسب الآن على
الجريمة أمام القضاء • كان من جهله بالقضية يضخمها ويبالغ فيها ،
يحدث هذا لكثير من الناس ، لذلك كان يرى أن من حقه أن يتصر
دون اكترات بأى شئ ، ودون مراعاة لأى اعتبار • لا سيما وأنه
يتح له الوقت الكافى لتعمق المسألة : لقد وصلته رسالة غير مذيلة بتوة
صاحبها ، تبلغه كل شئ ، كما ظهر ذلك من بعد (وكما سأذكر
قليل) ، فهرع وهو على هذه الحالة من الغضب المسعور التى يمك
أن ينحدر اليها وينقاد لها أرقى الناس فكراً من أبناء هذا الشعب الألماني

فاذا هم لا يفوقون فى سلوكهم اسكافياً من الاسكافين • وقد استقبلت
آنا آندريفنا هذه الهجمة بوقار كبير ، لكننى لم أشهد هذا • وانما رأيت
بيورنج ، بعد أن جرد العجوز الى الدهليز ، يسلمه فجأة الى البارون
« ر • • • » ، ثم يرجع مسرعاً نحو آنا آندريفنا فيرشقها بالجملة التالية
(ربما جواباً على ملاحظة منها) :

– أنت محتالة متأمرة • ان ما تريدنه هو ماله ! فاعلمى أنك منذ
هذه اللحظة قد تلتطخ شرفك فى المجتمع ، وأنت ستحاسنين أمام
القضاء ! • • •

– أنت الذى تستغل مريضاً مسكيناً بعد أن دفعتموه الى الجنون
دفعاً • • • ثم تعجىء تنقم منى لأننى امرأة ليس لها من يدافع عنها • • •

فقال بيورنج ساخراً غاضباً ، بلهجة سيئة :

– آ • • • نعم • • • أنت خطيئة ، خطيئته ! • • •

قال الأمير دامج العينين :

– بارون • • • بارون • • •

ثم أضاف وهو يمد يديه نحو آنا آندريفنا :

– « أحبك يا ابنتى العزيزة » !

فصرخ بيورنج قائلاً :

– دعك يا أمير ، ان هناك مؤامرة عليك ، وربما على حياتك !

– « نعم ، نعم ، أفهم ، فهمت منذ البداية » • • •

قالت آنا آندريفنا رافعةً صوتها :

– أمير ، انك تهيننى ، وتسمع لغيرك بأن يهيننى !

فصرخ بيورنج قائلاً لها فجأة :

- اخرجى من هنا !

فلم أستطع صبراً • فزأرت أقول له :

- وغد •

وأضفت مخاطبها :

- آنا آندريفنا ، أنا أدافع عنك •

ليس فى بيتى ولا فى وسعى أن أسجل جميع التفاصيل • لقد كان مشهداً رهيباً دنيشاً • فقدت صوابى فجأة • أظن انى هجمت عليه فضربته ، أو صدمته صدمة قوية على الأقل • فضربنى على رأسى بكل ما أوتى من قوة ، فاذا أنا أسقط على الأرض • فلما ثبت الى نفسى ، اندفعت اطاردهم على السلم • أذكر أن الدم كان يسيل من أنفى • وكانت تنتظرهم عند الباب عربية ففيما كانوا يركبون الأمير ، وثبت الى العربية ، وهجمت مرة أخرى على بيورنج رغم أن الخادم كان يبعدنى وينحبنى • لا أتذكر الآن كيف وصلت الشرطة • ولكن بيورنج أمسك ياقتي وأصدر الى الشرطى أمراً صارماً بأن يقتادنى الى المخفر • فصرخت أقول ان من الواجب أن يعجى • هو أيضاً الى المخفر لتسجيل محضر ، وانه ليس من الحق أن أُعتقل وأنا فى بيتى تقريباً • ولكن لما كان المشهد قد حدث فى الشارع لا فى البيت ، ولما كنت أصرخ وأشتتم وأتخبط كسكران ، ولما كان بيورنج مرتدياً بزته العسكرية ، فقد قبض على الشرطى ، فاذا أنا يجن جنونى فعلاً ، فأقاوم الشرطى بكل ما أملك من قوة ، حتى لقد ضربته فيما أظن • وأتذكر أن اثنين وصلا بعد ذلك ، فاقسادانى • ولكننى لا أكاد أتذكر كيف أُدخلت الى غرفة يملؤها الدخان ، وفسد جوها رائحة التبغ ، ويحتشد فيها أنواع من الأشخاص بعضهم قاعد وبعضهم واقف ، بعضهم ينتظر وبعضهم يكتب • وهناك أيضاً ظللت أزرق مطالباً بكتابة محضر ، فبذلك تمقت القضية اذ دخلها

عنصر مقاومة السلطة والتمرد عليها • وكان هندامى قد ساء كثيراً •
ونهرنى أحدهم نهراً عنيفاً • وأخذ شرطى يتهمنى بمشاجرة استعملت
فيها الضرب ، وطفق يحكى القصة فقال : كان كولونيل ... الخ ...

صرخ أحدهم يسألنى :

- ما اسمك ؟

فزعقت أقول :

- دولجوروكى •

- الأمير دولجوروكى ؟

فأخرجنى هذا السؤال عن طورى وأفقدنى رشدى ، فأجبت
بشتائم فاحشة • • • ثم • • • ثم • • • أتذكر أننى جررت الى حجرة مظلمة
« لأفيق من سكرى » • لا ، لست أحتج • لقد قرأ جميع الناس فى
الصحف فى الآونة الأخيرة شكوى سيد قضى ليلة كاملة فى المخفر ،
وكبّل بالسلاسل فى غرفة « الصحو من السكر » ، وكان ذلك الرجل
برئاً براءة تامة ، أما أنا فقد كنت مذنباً • تهالكت على مرقد الى جانب
شخصين كانا نائمين كجبتين هامدتين من فرط السكر • كنت مصاباً
بصداع ، وكان صدغاي ينبضان ، وكان قلبى يدق دقاً قوياً • وأغلب
الظن أننى قد أغمى على ، وأخذت أهذى • لكننى أتذكر اننى استيقظت
فى وسط الليل ، فجلست على المرقد ، فتذكرت فجأة كل شئ ، وأدركت
كل شئ ، فجعلت كوعى على ركبتي ، ووضعت رأسى بين يدي ،
وغرقت فى تفكير عميق •

لا ، لن أصف هنا عواطفى ، فليس فى الوقت متسع لذلك • ولكننى
أريد أن أسجل ما يلى : لعننى لم أعش فى حياتى كلها لحظات أحفل
بالفرح من تلك الدقائق التى قضيتها مفكراً ، فى الليل العميق ، على
المرقد الحجرى ، بمخفر الشرطة • قد يسدو هذا للقارىء أمراً غريباً

شاذاً ، وقد يحسبه نبجاً وتفاخراً ، وقد يعده رغبة في الاغراب
والتفرد . ولكن ما أقوله هو الحقيقة . تلك لحظة من اللحظات التي قد
يمر بها كل انسان ، ولكن مرة واحدة في حياته . ففي تلك اللحظة
يقرر مصيره ، ويحدد آراه ، ويقول لنفسه الى الأبد : « انظر أين هي
الحقيقة ، وانظر أين يجب أن تنشدها » . نعم ، لقد أضاعت تلك اللحظة
نفسى . كنت أعلم حق العلم ، بعد أن أهانتى ذلك الرجل الوقح بيورنج ،
وبعد أن أيقنت أن تلك المرأة التي تنتمى الى المجتمع الراقى ستهينى أيضاً
في الغد ، كنت أعلم حق العلم أنني أستطيع أن أنتقم انتقاماً رهيباً ، ولكنى
فرت ألا أنتقم . وقررت ، رغم الاغراء ، ألا أكشف عن الوثيقة ،
وألا أطلع عليها الناس (كما كانت تدور هذه الفكرة في رأسى) ،
وأخذت أكرر على نفسى أنني سأضع الوثيقة أمامها منذ الغد ، وأنى
قد لا أحظى منها بكلمة شكر بل بابتسامة سخر ، غير أنني ، رغم كل
شئ ، لن أقول كلمة واحدة ، وسأتركها الى الأبد . . . ولكن لا داعى
الى الالاح . أما ما سيحدث غداً حين أساق الى السلطات ، وما سبصنع
بى ، فذلك أمر نسيت تقريباً أن أفكر فيه . ورسمت على نفسى اشارة
الصليب بارتياح ومجبة ، واضطجعت على المرقد ، ونمت نوماً مضيقاً كنوم
الأطفال .

ولم أستيقظ فى الغد الا ضحى . أنا الآن فى الحجره وحيد .
جلست . وأخذت أنتظر صامتاً . انتظرت مدة طويلة . قرابة ساعة .
وأغلب الظن أن الساعة كانت قد بلغت التاسعة حين نوديت . فى وسعى
أن أذكر تفاصيل كثيرة . ولكن لا داعى الى ذلك ، مادامت هذه القصة
كلها قد انتهت الآن . وحسبى أن أشير الى الشئ الأساسى . ما كان أشد
دهشى حين رأيتهم يعاملونى بدمائة غير مهودة : ألقوا على بضعة
أسئلة ، أجبت عنها بما لا أتذكره الآن ، ثم أطلقوا سراحي فوراً .
خرجت صامتاً . وقد ارتحت أشد الارتياح حين قرأت فى أعينهم دهشتهم
من رجل عرف كيف لا يفقد شيئاً من وقاره فى مثل الظروف الذى هو

فيه • لقد رأيت هذه الدهشة ، ولولا أنني رأيتها لما سجلتها • وكانت
تاتيانا بافلوفنا تنتظرنى أمام الباب • وسأشرح الآن كيف أمكن إخلاء
سبيل بمثل هذه السهولة •

فى ساعة مبكرة من الصباح ، فى نحو الساعة الثامنة ، هرعت
تاتيانا بافلوفنا الى بيتى ، أعنى الى بيت بطرس هيوليتوفتش ، آملة أن
تجد الأمير هناك ، فاذا هى تعلم بكل ما وقع فى الليلة البارحة من أهوال ،
واذا هى تعلم خاصةً بأننى اعتقلت • فما هى الا طرفة عين حتى كانت
عند كاترين نيقولايفنا (التى التقت بأبيها منذ الليلة البارحة عند عودتها
من المسرح ، اذ جىء به الى بيتها) ، فأيقظتها من نومها ، وأخافتها ،
وطالبت بالافراج عنى فوراً • فزودتها كاترين نيقولايفنا ببطاقة طارت
بها فوراً الى بيورنيج تطلب منه بطاقة أخرى فى الحال ، موجهة الى
« من يهجم الأمر » ، مشتملة على « رجاء الافراج عنى بنير ابطاء لأننى
اعتقلت خطأ » • وبهذه البطاقة وصلت الى مخفر الشرطة ، فتمت تلبية
الرجاء •

الآن أعود الى النقطة الأساسية .

أمسكت تاتيانا بأفلوفنا ذراعى ، وأركبتى عربية ، وقادتني الى بيتها .
وهناك أمرت بسماور الشاي حالاً ، وربت هندامى ، ونظفتنى فى
المطبخ . وفى ذلك المطبخ نفسه قالت لى بصوت عال ان كاترين يقولايقنا
ستصل اليها بنفسها فى الساعة الحادية عشرة والنصف لترانى (اتفقتا على
ذلك منذ قليل) . وقد سمعت مارى هذه الكلمات . فجاءتنا بالسماور
بعد دقيقة ، ولكن حين نادتها تاتيانا بأفلوفنا بعد دقيقتين ، لم
تجيب ، اذ كانت قد خرجت من البيت . أرجو القارىء أن يُبقى هذا
الأمر مائلاً فى ذهنه . أظن أن الساعة كانت فى نحو العاشرة الا ربماً .
وقد غضبت تاتيانا بأفلوفنا من غياب مارى بدون اذنٍ منها . ولكنها
قالت لنفسها انها ذهبت الى المتجر ، ثم لم تخطر لها على بال . كان لدينا
أشياء أخرى نفكر فيها . كنا نتكلم بدون توقف ، لأن هناك ما نتكلم فيه ،
حتى اننى لم أنتبه الى اختفاء مارى . ولكنى أرجو القارىء أن يُبقى هذا
الأمر مائلاً فى ذهنه .

كنت كالمخبول طبعاً . وكنت أتحدث عن عواطفى . وكنا نتنظر
كاترين يقولايقنا خاصة . وكنت أرتعش حين أتصور أننى سألقاها بعد
ساعة ، وأننى سألقاها فى مثل هذه اللحظة الحاسمة من حياتى . وأخيراً ،
بعد أن حسوت فنجابين من الشباى نهضت تاتيانا بأفلوفنا فجأة ، وتناولت
المقصد من على الطاولة وقالت لى :

- هات جيبك • يجب سحب الرسالة الآن • فليس يمكننا أن
نقص الجيب بحضورها !

فهتفت أقول وأنا أحل أضرار رديجوتى :

- نعم •

- ما هذه الحياطة المشربكة ؟ من خاط هذه الحياطة ؟

- أنا يا تاتيانا بافلوفنا ، أنا نفسى !

- واضح أنك الذى خطت !

وسحبت الرسالة • كان الظرف هو الظرف نفسه • ولكن لم يكن
فى الظرف الا ورقة بيضاء •

هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً وهى تقلب الورقة على جميع الوجوه :

- ما معنى هذا ؟ ما هذا الذى معك ؟

كنت واقفاً مشلول اللسان ، أصفر الوجه ••• وتهالكت على
الكرسى خائر القوى فجأةً وكاد يُغمى علىَّ :

أعولت تاتيانا بافلوفنا تقول :

- وما معنى هذا أيضاً ؟ أين الرسالة ؟

فصرخت أقول بغتةً وأنا استنفض :

- لامبير !

لقد حزرتُ أخيراً ، ولطمت جبينى بىدى • وأخذت أشرح لها
بسرعة كلَّ شيء ، وأنا متقطع الأنفاس ، فحدثتها عن الليلة التى بت
فيها عند لامبير ، وعن المؤامرة التى حكناها حينذاك • وكنت على كل حال
قد اعترفت لها بهذه المؤامرة أمس •

صرخت أقول وأنا أقرع الأرض بقدمىَّ وأشد شعراًسمى بىدى :

— سرقوها منى ! سرقوها منى !
فقال تاتيانا بافلوفنا وقد أدركت الأمر:
— يا للمصيبة ! كم الساعة الآن ؟
— الحادية عشرة تقريباً •
— ومارى التى ليست هنا ! يا مارى ! مارى !
فأجابت مارى فجأة من قرارة المطبخ :
— ماذا تريد مولاتى ؟
— أنت هنا ؟ ولكن ما العمل الآن ؟ سأنب الى عندها •• وأنت
يا من لا تصلح لشيء !
— انا أذهب الى لامبير • لأذبحته اذا لزم الأمر •
ولكن مارى صاحت تقول من المطبخ :
— مولاتى ، ان « واحدة » تسأل عنك •

وما كادت مارى تنهى جملتها حتى دهمتا تلك « الواحدة » من
تلقاء نفسها صارخةً معولة • انها آلفونسين • لن أصف المشهد بجميع
تفاصيله • كانت تلك خدعة وأكثوبة ، ولكن يجب أن نصرف لآلفونسين
بأنها أجادت التمثيل اجادة هائلة • ردت آلفونسين ، وهى تذرف دموع
الندم وتحرك يديها بإشارات محمومة ، ردت (بالفرنسية طبعاً) أنها
هى التى سرقت الرسالة ، وان الرسالة الآن عند لامبير ، وأن لامبير ،
بالتواطؤ مع ذلك « الرجل الأسود » ، « قاطع الطرق » ، يريد استدراج
« السيدة الجنرالة » الى بيته ، ليقتلها فوراً ، بعد ساعة ••• وأنها سمعت
هذا كله من فيهما ، فاعتراها زعر رهيب حين رأت بين يديهما المسدس ،
فهرعت الى هنا ، الينا ، لنذهب معها ، لننقذ كاترين نيقولايفنا ، لنوقيا
القتل ••• « ذلك الرجل الأسود » •••

الخلاصة أن ذلك كله بدا لنا جائزاً جداً ، حتى ان السخافة
والحماقة فى بعض شروح ألفونسين كانت تقوى جوازه •

صاحت تاتيانا بافلوفنا تسألها :

- أى « رجل أسود » ؟

- « نسيته اسمه •• رجل فظيع •• نعم •• اسمه فرسيلوف » •

فهنفت :

- فرسيلوف ؟ مستحيل !

فصرخت تاتيانا بافلوفنا :

- بل يمكن أن يفعلها ! ولكن قولى لى يا « سيده » ، بدون وثب
ونط ، وبدون تحريك الذراعين والرجلين ، ماذا يريدان أن يفعلوا ؟
اشرحى شرحاً معقولاً : اثنى لا أستطيع أن أصدق أنهما يريدان أن
يطلقا عليها الرصاص •••

فأخذت « السيدة » تشرح فقالت (تذكروا أن ذلك كله كان كذباً
كما سبق أن نبّهت) ، قالت ان فرسيلوف سيقى وراء الباب ، وان
لامير سيربها هذه الرسالة ، متى دخلت ، وعندئذ يشب فرسيلوف ف •••
« فينتقم منها » • وانها ، هي ألفونسين ، تخشى أن تحل بها كارثة ،
لأنها كانت شريكة متواطئة ، ولأن تلك « السيدة الجذالة » ستأتى حتماً ،
« على الفور ، على الفور » ، لأنهما أرسلتا إليها نسخة من الرسالة ، فسوف
ترى حالاً أن الأصل فى حوزتهما فعلاً ، فلا بد أن تأتى • ولامير وحده
هو الذى كتب لها الرسالة ، فهى لا تعرف شيئاً عن فرسيلوف • وقد
عرف لامير نفسه بأنه رجل أوفدته من موسكو ، سيده بموسكو
(لاحظوا : ماريا ايفانوفنا !) •

صاحت تاتيانا بافلوفنا تقول :

- آه .. أشعر بألم فى قلبى .. أحسن بتدهور فى صحتى ! ..

وصرخت ألفومسين :

- « أتقنوها ! أتقنوها ! » ..

لاشك أن هذا النبأ المجنون يشتمل على كثير من التفكك يدركه المرء حتى من أول نظرة ، ولكن وقتنا لم يتسع للتفكير فيه ، لأنه كان يبدو جائزاً كل الجواز حقاً . وكان فى وسعنا أن نفترض أيضاً أن من المحتمل جداً أن تمر كاترين نيقولايفنا بنا أولاً ، أى أن تجيء أولاً الى بيت تاتيانا بافلوفنا بعد تلقيها دعوة لأمير ، لتستجلى الأمر . ولكن هذا أيضاً يمكن جداً ألا يحدث ، فقد تذهب إليها رأساً ، فهلك ! .. وكان يصعب على المرء مع ذلك أن يصدق أن ترتعى هذا الارتواء على رجل مجهول مثل لأمير ، استجابةً لأول نداء منه . ولكن هذا يمكن أن يحدث أيضاً ، بعد أن ترى نسخة الرسالة ، فتتقن بأن الأصل موجود عنده فصلاً ، فتذهب إليه فتقع الكارثة . وكان الوقت شديد الضيق خاصةً ، فما ينبغي أن نضع منه دقيقة واحدة فى التفكير .

وهنت أقول :

- لسوف يقتلها فرسيلوف ! اذا كان قد هبط الى حيث يتصل

بلامير ، فسوف يقتلها حتماً ! انه المثل !

قالت تاتيانا بافلوفنا وهى تعقف يديها :

- آه ! .. هو « المثل » . هلمّ بنا . لا بد ! خذ قبعتك

ومعطفك ، ولتذهب الى هناك معاً . قودينا يا سيدة . آه .. ما أبعد

المكان ! يا مارى ، مارى ! اذا جاءت كاترين نيقولايفنا فقولى لها اننى

راجمة حالاً ، فلنجلس ولنتتظرنى ، واذا أتت أن تنتظر فأقفل الباب

بالمفتاح ، واحيسها عن الخروج عنوةً . قولى لها اننى أنا التى أمرت

بهذا . سأعطيك مائة روبل يا مارى اذا أنت صنعت لى هذا المعروف .

واندفعنا الى السلم • لاشك أن هذا خير ما يمكن عمله ، لأن
البلاء الأكبر عند لامبير ، فاذا اتفق أن جاءت كاترين نيقولايفنا الى تاتيانا
بافلوفنا أولاً ، فسيكون في وسع ماري أن تحتجزها • ومع ذلك فان
بافلوفنا غيرت رأيها فجأة ، رغم أنها كانت قد نادت حوذيًا • قالت
وهي تتركني مع ألفونسين :

- اذهب أنت معها • ومت هناك اذا لزم الأمر ، هل تفهم ؟ وسألح
أنا بك • أما الآن فانتى سائب الى بيتها ، فقد أجدها هناك ، لأن الشكوك
لا تزال تساورني ، مهما تقل !

وطارت الى بيت كاترين نيقولايفنا • وركضنا أنا وألفونسين
الى بيت لامبير • كنت أستحث الحوذي على الإسراع ، وأستمر في القاء
الأسئلة على ألفونسين في الوقت نفسه ، ولكن ألفونسين أصبحت لا تجيب
الا بصيحات وتأوهات ، وطفقت تبكي آخر الأمر • ولكن القدر كان
يحرصنا ، فحمانا جميعاً حين كان كل شيء معلقاً بخيط واهن • فبما ان قطعنا
ربيع الطريق حتى سمعت صرخة ورائي تناديني باسمي على حين فجأة ،
فالتفت ، فاذا أنا أرى دتريشاتوف يلحقنا بعربة • صاح مرتاعاً :

- الى أين ؟ ومعها ، مع ألفونسين ؟

فصحت أقول له :

- لقد صدقت فيما قلت يا تريشاتوف : ان كارثة ستقع ! اننى
ذاهب الى ذلك الوغد السافل لامبير ا فتعال معي ، فيكون عددنا أكبر !

فصرخ تريشاتوف قائلاً :

- بل ارجع ، ارجع حالاً • لامبير يكذب ، وألفونسين تكذب
أيضاً • المجذور هو الذى أرسلنى • ليسا فى البيت : لقد لقيت لامبير
وفرسيلوف منذ هنيهة • لقد ذهبنا الى بيت تاتيانا بافلوفنا ••• وهما
الآن هناك •••

أوقفت العربية ، وقفزت الى عربية تریشاتوف • ما زلت لا أدري كيف اتخذت ذلك القرار فجأة ، ولكنني صدقت تریشاوف ، فسرعان ما عزمت أمري • أخذت ألفونسین تطلق صرخات رهيبه ، ولكننا تركناها فلا أدري هل تبعتنا أم هي رجعت الى بيتها • ولكنني لم أرها بعد ذلك على كل حال •

وفي العربية ، أفضى الى تریشاتوف ، كيفما اتفق ، وهو يلهث ، بأن مكيدة قد دُبّرت ، وأن لامبير اتفق مع المجدور ، ولكن المجدور خان لامبير في آخر دقيقة ، فأرسله ، هو تریشاتوف ، الى تاتيانا بافلوفنا ليبلغها أن عليها ألا تصدق لامبير وألفونسین • وأضاف تریشاتوف أنه لا يعرف غير هذا ، لأن المجدور لم يزد على ذلك شيئاً ، لأن وقته لم يتسع لمزيد من الايضاح ، ولأنه كان على عجلة من أمره هو أيضاً ، لأن القضية كلها توجب الاسراع • وتابع تریشاتوف كلامه فقال : « رأيت أنك ذهبت فجزيت أتبعك » • كان واضحاً اذن أن المجدور يعرف كل شيء هو أيضاً ، مادام قد أرسل تریشاتوف الى بيت تاتيانا بافلوفنا رأساً • ولكن هذا كان لفتراً آخر •

ومن أجل ألا تختلط الأفكار ، سوف أعمد الآن ، قبل وصف الكارثة ، الى شرح الحقيقه الصادقة كلها ، مستبقاً الأحداث آخر مرة •

بعد أن سرق لامبير الرسالة أسرع يتصل بفرسيلوف • أما كيف
 أمكن لفرسيلوف أن يتفق مع لامبير ، فهذا ما لا أقوله الآن ، وانما أرجئه
 الى حينه • انه « المثل » على كل حال ! ولكن كان على لامبير ، بعد أن
 تحالف مع فرسيلوف ، أن يستدرج كاترين نيقولايفنا بأسلوب حاذق
 بارع • • لقد كان فرسيلوف يؤكد له أنها لن تأتي • ولكن لامبير ، منذ
 أن لقيته في الشارع امس الأول ، وأعلنت له متباها متفاخراً أنني سأرد
 الرسالة الى كاترين نيقولايفنا في بيت تاتيانا بافلوفنا وبحضور تاتيانا بافلوفنا ،
 قد أقام نوعاً من الرقابة على شقة تاتيانا بافلوفنا : اذ اشترى ماري بعشرين
 روبلا • وغداة غد ، بعد ان تمت سرقة الرسالة ، زار ماري مرة أخرى ،
 وتفاهم معها تفاهما كاملا ، اذ وعدها بمائتي روبل ثمنا لما ستقدمه له من
 خدمات •

ذلكم هو السبب في أن ماري ما ان سمعت أن كاترين نيقولايفنا
 ستكون عند تاتيانا بافلوفنا في الساعة الحادية عشرة والنصف وأنتي
 سأكون أنا أيضاً عندها ، حتى وثبت خارجة من البيت وركبت عربة
 وأسرعت تحمل النبا الى لامبير • • هذا بعينه هو ما كان عليها أن تخبر به
 لامبير ، هذه هي الخدمات التي كان يجب عليها أن تقدمها له • واتفق
 أن كان فرسيلوف في تلك اللحظة ذاتها عند لامبير • فما هي الا طرفة عين
 حتى تخيل تلك الحطة الجهنمية • يقال ان المجانين يكونون في بعض
 اللحظات من أوسع الناس حيلة وأعظمهم مكرآ •

وكانت الحطة هي أن نستدرج ، أنا وتانيا ، الى خارج المسكن بأية وسيلة من الوسائل ، ولو ربع ساعة فقط ، ولكن قبل وصول كاترين نيقولايفنا ؟ وأن ينتظراهما فى الشارع ، فمتى خرجنا أنا وتانيا بافلوفنا دخلا الى البيت الذى ستفتحه لهما مارى ، وانتظرا وصول كاترين نيقولايفنا . وفى أثناء ذلك يكون على آلفونسين أن تحتجزنا بكل ما أوتيت من قوة فى أى مكان تشاء ، وبأية وسيلة تراها . واذا أن كاترين نيقولايفنا ستصل فى الساعة الحادية عشرة والنصف ، كما وعدت بذلك ، فانها ستصل اذن قبل أن نستطيع نحن أن نعود (طبعاً لم تتلق كاترين نيقولايفنا أية دعوة من لامبير ، لقد كذبت آلفونسين : ان هذه القصة كلها انما كانت من اختراع فرسيلوف بجميع تفاصيلها . ولم تزد آلفونسين على أن مثلت دور الحائن الذى يخون من شدة فزعه) . ومن الواضح أنهما كانا يتعرضان للاخفاق ، ولكن تفكيرهما كان سليماً : « اذا نجحت الحطة كان بها ، واذا لم تنجح فلا نفقد شيئاً لأن الوثيقة تبقى معنا » . ولكن الحطة نجحت ، وكان لا يمكن الا أن تنجح ، لأننا كنا لا نستطيع الا أن نركض وراء آلفونسين مدفوعين بهذا الافتراض : « ماذا لو صح ما تقوله ؟ » . أعود فأقول : ان وقتنا لم يتسع للتفكير .

داهمنا المطبخ أنا وتريشاتوف ، فوجدنا ماري شبه ميتة من الخوف •
 لقد أربعها ، حين أدخلت لاميير وفرسيلوف ، أن رأيت بين يدي لاميير
 سدسا على حين فجأة • لئن قبلت من لاميير مالا ، فان السدس لم يدخل
 في حسابها قط • فكانت مضطربة أشد الاضطراب ، فما ان رأيتى حتى
 ارتمت على وقالتي :

- الجنرالة جاءت ، ومعهما سدس !

قلت أمر تريشاتوف :

- تريشاتوف ، ابق أنت هنا في المطبخ • فمتى صرخت أناديك
 هرعت الى نجدتي بكل ما أوتيت من قوة •

وفتحت لي ماري باب الدهليز ، فسلمت الى غرفة تاتيانا بافلوفنا ،
 الى تلك الغرفة الصغيرة التي ليس فيها مكان الا لسرير تاتيانا بافلوفنا ،
 والتي سبق لي ذات مرة أن تنصت لها على حديث • جلست على السرير ،
 وأسرعت أذيع الستارة قليلا •

وكان في الغرفة جلبة منذ ذلك الوقت ، وكان الحديث يجرى
 بصوت عال • يجب أن أذكر أن كاترين نيقولايفنا قد وصلت بعدهما
 بدقيقة واحدة • وكنت قد سمعت هذه الجلبة وذلك الحديث منذ أن
 دخلت المطبخ •

كان الصباح يصدر عن لاميير • كانت هي جالسة على الديوان
 وكان هو متسمرًا أمامها يصرخ كأبله • انني أعلم الآن لماذا فقد هدوءه

بهذا النبأ : لقد كان على عجلة من أمره ، كان يخشى ان يفاجأ • وكانت الرسالة فى يده • لكن فرسيلوف لم يكن بالفرقة • وقد تأهبت للوثوب عند أول خطر • وهأنذا أروى معنى الأحاديث التى جرت بينهما ، معناها فحسب • ربما كان هناك أشياء كثيرة لا أتذكرها تذكراً واضحاً • ولكنى كنت عندئذ أشد انفعالا واضطراباً من أن أستطيع حفظها بدقة •

- هذه الرسالة تساوى ثلاثين ألف روبل • هل تدهشين ؟ الحق أنها تساوى مائة ألف ، لكننى لا أطلب الا ثلاثين ألفاً •

كذلك قال لامير بصوت عال ، مندفعاً اندفاعاً رهيباً • فكانت كاترين نيقولايفنا ، رغم ذعرها الواضح ، تنظر اليه بازدراء واحتقار • قالت : - واضح أن ههنا فخاً ، فلست أفهم شيئاً • ولكن اذا كانت تلك الرسالة معك حقاً ••

فقاطعها لامير قائلاً :

- خذى ! هى ذى ! انظرى اليها ! انظرى اليها ! ألسنت هى نفسها ؟ ثلاثون ألف روبل لا تقصص كوبكاً واحداً ••

- لست أحمل مالا •

- اكتبى سنداً • اليك ورقة • وبعد ذلك تجيئتنى بالمال ، وسوف أنتظر أسبوعاً لا أكثر • فمتى جيئتنى بالمال رددت اليك السند والرسالة • - انك تكلمنى بلهجة سخيصة • وانك لمخطيء • سوف تؤخذ منك هذه الوثيقة متى شكوتك ••

- لمن ؟ ها ها ها ! والفضيحة ؟ والرسالة التى سنطلع عليها الأمير ؟ وكيف يمكن أن تؤخذ منى ؟ اننى لا أحتفظ بوثائق فى بيتى • وسأطلع عليها الأمير بواسطة شخص ثالث • لا تصدى يا سيدتى ، اشكرى

لى اننى لا أطلب الا مبلغاً زهيداً • لو كان فى مكانى رجل آخر لطلب
منك خدمات أخرى تعرفين ما هى ! انها الخدمات التى لا ترفض أية
امرأة جميلة أن تقدمها فى حالة صعبة وظرف حرج • أعرفت ما هى
تلك الخدمات ؟ ها ها ها ! • • أنت امرأة جميلة ! • •

لم تزد كاترين نيقولايفنا على أن وثبت وثبة واحدة وقد احمرت
احمراراً شديداً ، فبصقت فى وجهه • ثم اتجهت بسرعة نحو الباب •
فاذا بالأحمق يشهر مسدسه • انه ، وهو الأبله المحدود العقل ، كان
مؤمناً ايماناً أعمى بما سيكون للوثيقة من أثر ، فلم يدخل فى حسابه
نوع المرأة التى يخاطبها ، وذلك لأنه ، كما سبق أن قلت ، يتصور لدى
جميع الناس وجود تلك المواظف الدنيئة نفسها التى تملأ قلبه • لقد
أثار بفظاظته حنق كاترين نيقولايفنا منذ أول كلمة ، ولعلها ما كانت
لترفض تسوية مالية •

أعول يقول وقد ثارت ثائرتة من البصقة :

- لا تتحركى !

وأمسكها من كتفها وأراها المسدس ، ليخيفها طبعاً • فصرخت
وتهالكت على الديوان • فاندفعت أنا الى الغرفة • ولكن ، فى تلك اللحظة
نفسها ، دخل فرسيلوف من الباب المتصل بالدهليز (كان ينتظر هناك) ،
فلم أكد ألقى نظرة واحدة حتى كان قد انتزع المسدس من لامبير ،
وأخذ يضربه على رأسه بكل ما أوتى من قوة • فترنج لامبير ، وسقط
مشياً عليه • وكان الدم يسيل غزيراً من جمجمته على السجادة •

أما هى فانها حين أبصرت فرسيلوف ، قد اصفر وجهها اصفراراً
شديداً ، وشخصت اليه ببصرها بضع لحظات مرتاعة أشد الارتياح ، ثم
لم تلبث أن أغمى عليها • فارتمى عليها • هذا كله يبدو لى أننى لا أزال

أراه • أتذكر أنني ذعرت حين رأيت وجهه الأحمر الذى يشبه أن يكون بلون القرمز ، وحين رأيت عينيه المحققتين • وانى لأظن أنه ، وقد رأيتى فى الغرفة ، لم يعرفنى • ارتمى عليها ، فتناول جسمها الهامد ، وأنهضه بقوة خارقة ، فحملها على ذراعيه بسهولة كأنه يحمل ريشة ، وأخذ يجول بها فى الغرفة ، وقد لاح فى وجهه الجنون • كانت الغرفة صغيرة ، ولكنه كان يطوف من ركن الى آخر ، دون أن يدرك لماذا يفعل ذلك • لقد فقد عقله فى لحظة • وكان لا يتقطع عن النظر اليها ، عن النظر الى وجهها • وكنت أنا أركض وراءه • كنت خائفاً من المسدس خاصة :
لقد نسيه فى يده اليمنى مصوباً الى رأسها •

ولكنه دفنى مرة بكوعه ، وركلنى مرة أخرى برجله • وقد أودت أن أنادى تريشاتوف ، ولكننى خفت أيضاً أن أحق الجنون • واخيراً أزحت الستارة ازاحة تامة على حين فجأة ، وتوسلت اليه أن يرقدها على السرير • فاقرب ووضعها على السرير ، لكنه تسمر أمامها وحدق الى عينها تحديقاً ثابتاً مدة دقيقة ، ثم اذا هو يميل عليها فجأة فيقبل شفيتها الشاحبتين مرتين • فأدركت أنه قد فقد عقله فقداً تاماً ثم اذا هو يرفع مسدسه ويهم أن يضربها به ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه ، فصوب المسدس الى وجهها ليطلق النار • فأمسكت ذراعه فوراً بكل ما أملك من قوة ، وناديت تريشاتوف • أتذكر أننا صارعناه كلانا ، ولكنه استطاع أن يخلص ذراعه وأن يطلق النار على نفسه • لقد كان يريد أن يقتلها ، ثم يقتل نفسه • لكنه ، وقد منناه من قتلها هى ، صوب المسدس الى قلبه هو • ولقد استطعت مع ذلك أن أرفع ذراعه الى أعلى ، فاستقرت الرصاصات فى كتفه • وفى تلك اللحظة علت صرخة • انها تاتيانا بافلوفنا تدمم الغرفة • ولكن فرسيلوف كان قد رقد على الأرض مغمى عليه الى جانب لامبير •

الفصل الثالث عشر

١

خاتمة



على ذلك المشهد قرابة ستة اشهر • ان مياها كثيرة
قد جرت تحت الجسور ، وأن أشياء كثيرة قد
أميرت • وبدأت أنا حياة جديدة • وسوف أخلص
القارىء من حديثى أنا أيضا •

ان سؤالاً قد شغل فكرى حينذاك وظل يشغله مدة طويلة : كيف
أمكن لفرسيلوف أن يرتبط بشخص مثل لامير ؟ وما الهدف الذى كان
يرمى إليه ؟ وقد انتهيت الى تفسير الأمور على النحو التالى : انه أثناء تلك
الفترة الفاجعة القصيرة ، أعنى اليوم الأخير واليوم الذى سبقه ، كان لا يرمى
الى أى هدف محدد ، وانما كان يصف به ويستولى على عقله اعصار من
المواقف المتناقضة • لا أعتقد أنه أصيب بجنون حقيقى ، لا سيما وأنه
اليوم ليس مجنوناً قط • ولكننى أو من بالمثل دون تردد • فما « المثل » ؟
لقد قرأت فى الأونة الأخيرة كتاباً لطيب اختصاصى ، فعرفت أن « المثل »
درجة أولى من درجات اختلال عقلى خطير يمكن أن يؤدي الى نهاية
محنة • ولقد أوضح فرسيلوف ، يوم حطم الأيقونة عند ماما ، أوضح بصدق
هائل ، آلية « ازدواج » ارادته وعواطفه • اننى ألح على ذلك المشهد
بالمشهد الذى حدث فى بيت ماما ، وتحطيم الأيقونة ، ذلك كله انما حدث
بتأثير « المثل » حتماً • ومع ذلك أظن أنسأهال : ألا يمتزج بفعل التحطيم
ذاك ، رمز شرير ما ؟ وأرانى أجيب على هذا السؤال بنعم ، وأعتقد أن

نمة رمزا الى كره ما كان يساور تلك النسوة من آمال ، وما كن يؤمن به من حقوق ، وما كان يقوم في أذهانهن من رلى . فبالاتفق مع « المثل » انما حطم الأيقونة . فكأنه كان يقول : « هكذا سيتحطم توقعكن » + نعم ، كان هناك « المثل » ، ولكن كانت هنالك نزوة أيضا . على كل حال ، ذلك تخمين منى .

انه رغم عبادته لكاترين نيقولايفنا كان قد ترسخ في قرارة نفسه شك صادف وعميق في مزاياها الأخلاقية . فحين رابط وراء الباب كان يتوقع أن يراها تذلل نفسها أمام لامبير . ولكن اذا كان يتوقع ذلك ، فهل كان يريد ؟ أعود فأقول : انى أو من ايمانا جازما بأنه كان لا يريد شيئا ، بل كان لا يفكر البتة . كانت رغبته كلها هي أن يوجد هناك ، وأن يثبت بعد ذلك ، وأن يقول لها شيئا ما . . . وربما . . . ربما أن يهينها ، وربما أيضا أن يقتلها ! . . . لقد كان كل شيء في تلك اللحظة جائزا وممكنا . ولكنه حين وصل مع لامبير كان لا يعرف شيئا مما قد يحدث . يجب أن أضيف أن المسدس كان للامبير ، وأن فرسيلوف جاء بنير سلاح . فلما رأى ما رأى من كبرياء كاترين وشممها ، ولما لم يستطع خاصة أن يحتمل حقارة لامبير الذى كان يهددها ، اندفع الى الغرفة ، وعندئذ انما فقد عقله . هل كان يريد أن يطلق عليها الرصاص في تلك اللحظة ؟ أنا أعتقد أنه كان لا يعرف من ذلك شيئا هو نفسه ، ولكن لا شك فى أنه كان سيطلق النار لولا أننا أمسكنا ذراعه .

ولم يكن الجرح الذى أصيب به قاتلا . . . فقد شفى ، ولكن بعد أن بقى فى السرير مدة طويلة ، عند ماما طبعا . نحن الآن ، أثناء كتابة هذه الكلمات ، فى فصل الربيع ، فى منتصف شهر أيار (مايو) . النهار رائع . ونوافذنا مفتوحة . ماما جالسة الى جانبه . وهو يلعب خديها وشعرها وينظر الى عينيها بحنان . ليس هو الآن الا نصف ما كان فرسيلوف من قبل . أصبح لا يترك ماما ، ولن يتركها أبدا . حتى لقد أوتى « موهبة

ذرف الدموع ، ، على حـد تعبير ماكار ايغانوفتش الذى لا ينسى ، فى
فصته عن التاجر • ويخيل الىّ من جهة أخرى أن فرسيلوف سيعمر طويلا •
هو الآن معنا بسيط كل البساطة ، صادق كل الصدق ، كطفل ، ولكن
بدون أن يفقد الاعتدال والرصانة ، وبدون أن يفرط فى الكلام • لقد
احتفظ بذكائه كاملا ، واحتفظ بكل ما يتصف به طبعه الأخلاقى ، غير
أن كل ما كان لديه من مثل أعلى قد ازداد بروزا • يجب أن أقول جازما
اننى ما أحبته يوما كما أحبه الآن ، واننى يؤسفنى ألا أملك من فسحة
الوقت والمكان ما يمكننى من الاسهاب فى الكلام عنه • ومع ذلك سوف
أروى قصة حديثة (وهناك قصص أخرى من هذا النوع) : فى أثناء
الصوم الكبير كان قد شفى من جرحه ، فاذا هو يعلن فى الأسبوع
السادس أنه سيتناول القربان المقدس • لم يسبق له أن تناول القربان منذ
ثلاثين سنة أو أكثر فيما أظن • سعدت ماما بهذا سعادة كبيرة • وأصبحوا
فى البيت لا يحضرون من الطعام الا أطباقا بغير دسم ، ولكنها أطباق غالية
التمن فاخرة الصنف • وقد سمعته فى الفرقة المجاورة ، يومى الاثنين
والأحد ، يعنى أغنية « هاهو ذا العريس يأتى » ، متحمسا للحن والكلمات
جميعا • وقد اتفق له فى ذينك اليومين أن انطلق يتكلم فى الدين فقال
كلاما رائعا • غير أن كل شىء انقطع يوم الأربعاء • اذ اتابه حنق مفاجىء
أو « تناقض مضحك » كما قال ضاحكا • ان شيئا ما فى أفعال الكاهن
وحركاته وإشاراته قد بدا له غليظا • فلما عاد فى ذات يوم من الكنيسة
قال وهو يتسم ابتسامة لطيفة : « يا أصدقائى ، اننى أحب الله كثيرا ، لكن
هناك أشياء تضايقنى ، لذلك لست مستعدا •• » وفى مساء ذلك اليوم كان
طعام العشاء يضم شرائح لحم مقلى • ولكننى أعرف أن ماما تجلس الى
جانبه فى كثير من الأحيان حتى اليوم ، فتحدثه بصوت عذب وابتسامة
حلوة فى موضوعات مجردة جدا • انها الآن جريئة معه • لا أدرى كيف
حدث هذا • تجلس الى جانبه وتكلمه ، ويجرى الحديث فى أكثر الأحيان

بصوت خافت • انه يصغى اليها مبتسما ، ويلعب شعرها ، ويقبل يديها ،
وتسطع على وجهه أكبر سعادة • وقد تعتره في بعض الأحيان نوبات
تكاد تكون هسترية ، فيتناول صورتها الفوتوغرافية ، تلك التي قبلها في
ذلك المساء المشهود ، فينظر اليها دامج العينين ، ويقبلها ، ويتذكر ، ويدعونا
اليه جميعا • ولكنه في مثل هذه اللحظات لا يتكلم الا قليلا ! •• ويبدو
أنه نسي نيقولايفنا نسيانا تاما ، فهو لم يذكر اسمها مرة واحدة • أما عن
زواجه بماما ، فذلك أمر لم يكن حتى الآن محل بحث • وكانوا يريدون
أن يسافروا به في الصيف الى الخارج ، ولكن تاتيانا بافلوفنا ألحت على
ألا يفعلوا ، وهو نفسه لم يشأ على كل حال • فسوف يقضون الصيف في
الريف بمكان ما من مقاطعة بطرسبرج • يجب أن أذكر في هذه المناسبة
أن تاتيانا بافلوفنا هي التي تفق الآن على معيشتنا جميعا • ويجب أن أضيف
شيئا آخر هو أنني حزين أشد الحزن من أنني ، طوال هذه المذكرات ،
قد أبحث لنفسي أن أعامل هذه الانسانة بغير احترام ، وأن أنظر اليها من
على • ولكنني كتبت ما كتبه وأنا أتصور تصورا مسرفا في الدقة كيف
كانت حالتي في كل لحظة من اللحظات التي وصفتها • وبعد أن فرغت
من كتابة آخر سطر أحسست فجأة أنني بفضل هذا التذكر وهذا التسجيل
لذكرياتي قد ربيت نفسي تربية جديدة • صحيح أنني أنكر كثيرا ممسا
كتبت ، ولا سيما لهجة بعض الجمل أو الصفحات ، ولكنني لا أريد أن
أمحو ولا أن أصحح كلمة واحدة •

قلت انه أصبح لا يتكلم عن كاترين نيقولايفنا البتة • بل اني لأعتقد
أنه شفى شفاء تاما • عن كاترين نيقولايفنا أصبحنا وحدنا ، أنا وتاتيانا
بافلوفنا ، نتكلم في بعض الأحيان ، ونتكلم خفية • ان كاترين نيقولايفنا هي
الآن في الخارج • رأيتها قبل سفرها ، وزرتها في بيتها عدة مرات ، ومن
الخارج بعثت لي حتى الآن رسالتين أجبت عنهما • لن أقول شيئا عن مضمون
الرسالتين ولا عن الموضوعات التي عالجتها حين تركنا قبل سفرها : فهذه

قصة أخرى ، قصة « جديدة » كل الجدة ، لعلها لا تزال قائمة كلها في المستقبل . حتى مع تاتيانا بافلوفنا هناك موضوعات معينة لا أثارها . ولكن كفى هذا . أريد أن أضيف فقط أن كاترين نيقولايفنا لم تتزوج ، وهي مسافرة الآن مع بلشتشيف . لقد مات أبوها ، فهي أغنى الأرامل . انها الآن بباريس . لقد تمت القطيعة بينها وبين بيورنج بسرعة ، وكأنما تمت من تلقاء نفسها ، على نحو طبيعي جدا . وسأحكي هذا على كل حال .

ففي الصباح من يوم ذلك الحادث الرهيب ، استطاع المجدور ، أعنى ذلك الذى انتقل تريشاتوف وصديقه الى خدمته ، أن يبلغ بيورنج بالمؤامرة التى تحاك . اليكم كيف حدث ذلك : كان لامير قد جمل المجدور يقرر الاشتراك فى المؤامرة ، وأطلعه بعد أن صارت الوثيقة فى حوزته ، على جميع تفاصيل المشروع وجميع ظروفه ، وأطلعه أخيرا على الخطة الأخيرة ، أى الخطة التى تخيلها فرسيلوف لخداع تاتيانا بافلوفنا . ولكن المجدور آثر فى اللحظة الحاسمة أن يخون لامير ، لأن المجدور كان أعقل هؤلاء الناس جميعا ، اذ تخيل فى هذه المشروعات كلها امكان حدوث جريمة ، ورأى خاصة أن الخطوة بعرفان بيورنج وشكره وامتنانه أضمن من خطة خيالية يضمها رجل أهوج أخرق مثل لامير ورجل جملة الهوى شبه مجنون مثل فرسيلوف . ذلك كله علمته بعدئذ من تريشاتوف . يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أننى أجهل ولا أفهم العلاقات التى كانت قائمة بين لامير والمجدور ، ولماذا . كان لامير لا يستطيع الاستغناء عن المجدور . ولكن المسألة التى كانت تثير عجبى أكثر من سائر ما عداها هى التالية : ما كانت حاجة لامير الى فرسيلوف ، مع أنه بعد حصوله على الوثيقة كان يستطيع الاستغناء عن مساعدة فرسيلوف استغناء تاما ؟ ولقد أصبح الجواب واضحا الآن : كان لامير فى حاجة الى فرسيلوف أولا لأن فرسيلوف عالم بالظروف ، وثانيا لأنه يستطيع فى حالة الخطر أو فى حالة

وقوع مصيبة أن يلتقى على فرسيلوف جميع التبعات • ولما كان فرسيلوف
فى غير حاجة الى المال ، فقد رأى لامير أن مشاركته مفيدة الى
أقصى حد •

ولكن بيورنج لم يصل فى اللحظة المطلوبة • وانما وصل بعد اطلاق
النار بساعة ، وكان بيت تاتيانا بافلوفنا قد تغير وجهه تغيراً كاملاً • فبعد
خمس دقائق من سقوط فرسيلوف على السجادة مضرجاً بدمائه ، نهض
لامير ، وكنا نظنه ميتاً ، فأجال بصره فيما حوله ، فأدرك فى الحال كل
شئ • ومضى الى المطبخ بدون أن يقول كلمة • فارتدى معطفه واختفى
الى الأبد • وبقيت « الوثيقة » على المائدة • وقد سمعت أنه لم يصب حتى
بمرض ، ولم يعان الا شيئاً من أوجاع طفيفة • لقد جندلته الضربة ،
وأنزفت دمه ، ولكنها لم تنله بأذى •

وفى أثناء ذلك ركض تريشاتوف يستدعى الطيب • ولكن فرسيلوف
أفاق من غيبوبته قبل وصول الطيب ، وقبل أن يصحو فرسيلوف كانت
تاتيانا بافلوفنا قد استطاعت أن ترد كاترين نيقولايفنا الى الحياة وأن تعيدها
الى منزلها • وهكذا ••• حين دهم بيورنج بيت تاتيانا بافلوفنا لم يكن
هناك أحد الا أنا والطيب وفرسيلوف الجريح وماما التى كانت لا تزال
مريضة ولكنها هرعت الى فرسيلوف كالمجنونة اذ أنبأها تريشاتوف ذاك
نفسه • نظر بيورنج مدهوشاً ؛ وما ان عرف أن كاترين نيقولايفنا قد مضت
حتى ذهب الى بيتها دون أن ينطق عندنا بكلمة واحدة •

كان مضطرباً ، اذ رأى رؤية واضحةً أن الفضيحة وذيوع النبأ
أصبحا أمرين لا يمكن تجنبهما • ومع ذلك لم تقع فضيحة كبرى ، وكل
ما حدث أن شائعات قد سرت بين الناس وتناقلتها الألسن • صحيح أن
طلقة المسدس قد استحالت اخفاء أمرها ، ولكن الجزء الأساسى من القصة
كلها ظلَّ شبه مجهول • ولم يقرر التحقيق الا أن رجلاً عاشقاً اسمه
« ف ••• » ، وهو متزوج ويكاد يبلغ الخمسين من العمر ، قد أطلق

النار على نفسه من مسدس فى نوبة جنون ، بينما كان يعلن غرامه لسيدة
جديرة بأعظم الاحترام ، لكنها لا تبادل له عواطفه . لم يعلم شئ أكثر من
هذا . وفى هذه الصورة انما انتقل الخبر الى الجرائد غامضاً ، بدون ذكر
الأسماء ، الا أحرفها الأولى . أعلم مثلاً أن لامبير لم يقلق أبداً . ولكن
بيورنج الذى كان يعرف الحقيقة خاف خوفاً شديداً . ولقد علم فجأة ،
بما يشبه المصادفة ، أن لقاءً تم قبل الكارثة بيومين بين كاترين نيقولايفنا
وفرسيلوف الذى يجبها . فأخفته ذلك حنقاً قوياً ، فأباح لنفسه بغير تروء
ولا حذر أن يقول لكاترين نيقولايفنا انه لا يدهشه أن تقع لها أحداث
فظيعة كهذه . فلم تلبث كاترين نيقولايفنا أن صرفته فوراً ، بدون غضب ،
ولكن بدون تردد ؟ ان ما كانت تقدره من أن زواجها يمثل هذا الرجل
زواج يشتمل على حكمة وتعقل قد تبدد كما يتبدد البخار . ولعلها كانت
قد كشفته وعرفت حقيقته قبل ذلك بمدة طويلة . ولعلها أيضاً ، بعد الهزة
القوية التى أصابتها ، قد تغيرت بعض آرائها وبعض عواطفها بفترة . يجب
أن أضيف أن لامبير فرّ الى موسكو ، وقد علمت أنه قبض عليه هنالك فى
قضية أخرى . أما تريشاتوف فأننى منذ مدة طويلة ، بل منذ وقوع تلك
الأحداث تقريباً ، قد غاب عن بصرى فلم أره رغم جميع الجهود التى
لا أزال أبذلها لأقع على آثاره . لقد اختفى بعد موت صديقه « الأبله
الطويل ، الذى أطلق على رأسه الرصاص .

ذكرت موت الأمير المعجوز نيقولا ايفانوفتش • ان هذا الشيخ الطيب اللطيف قد مات بعد الحادث بمدة قصيرة ، بعد نحو شهر ، فى الليل ، على سريره ، من سكتة قلبية • ولم أكن قد رأيته منذ اليوم الذى قضاه فى بيتى • وقد روى عنه فى أثناء ذلك الشهر أن عقله صحا صحواً كبيراً ، وأنه صار امرأ جاداً كثير الجلد ، فهو لا يخاف ، ولا يبكى ، حتى انه لم يقل كلمة واحدة عن آنا أندريفنا طوال تلك المدة • وقد انصب حبه كله على ابنته • وقبل وفاته بأسبوع ، اقترحت عليه كاترين نيقولايفنا أن يستدعيني لأسليه وأسرّى عنه ، ولكنه قلب حاجيه • اننى أذكر هذه الواقعة بدون أن أحاول تفسيرها وتعليلها • وكانت أطيانه مزدهرة ، وكان يملك عدا ذلك مبلغاً ضخماً من المال • وقد أمر فى وصيته بأن يوزع ثلث هذا المال تقريباً على أولاده بالعمودية وما أكثرهم ! ولكن الأمر الذى أدهش جميع الناس أشد الدهشة أن هذه الوصية لم تشر الى آنا أندريفنا ، وخلت حتى من ذكر اسمها خلواً تاماً • اليكم مع ذلك ما أعلمه علم اليقين : ان الشيخ ، قبل وفاته ببضعة أيام فقط ، استدعى ابنته وصديقيه بلشتشيف والأمير « ف • • • » ، فأمر كاترين نيقولايفنا بأن تقتطع من هذا المال عند وفاته القرية مبلغ ستين ألف روبل تمخص بها آنا أندريفنا • لقد عبرَّ الشيخ عن ارادته هذه تعبيراً واضحاً مقتضياً دقيقاً ، دون أن يبيح لنفسه أى تعليق أو تعقيب • وبعد وفاته ، حين أضحى كل شىء واضحاً ، عهدت كاترين نيقولايفنا الى مصرف أعمالها بإبلاغ آنا أندريفنا أن فى وسعها أن تقبض هذه الستين ألف روبل متى شاءت • ولكن

آنا أندريفنا رفضت العرض بحفاء وبغير كلام زائد : رفضت قبض المبلغ رغم كل ما أكدَّ لها من أن هذه هي ارادة الأمير فعلاً . ولا يزال المبلغ موقوفا ينتظر أن تقضبه آنا أندريفنا، ولا تزال كاترين نيقولايفنا تأمل أن تغيرَ آنا أندريفنا رأيها . ولكن آنا أندريفنا لن تغير رأيها . فهذا ما أعلمه يقيناً ، لأننى اليوم من أقرب أصدقاء آنا أندريفنا اليها . وقد أثار رفضها ضجة ، وتحدث عنه الناس . وكان من شأن هذا أن خالتها فانارياتوفا التى سادتها منها فضيحتها مع الأمير فى البداية ، قد غيرت رأيها فيها بعد رفضها المال ، فأعربت لها عن احترامها جهاراً . ولا كذلك أخوها ، فقد شاجرها بسبب هذا الرفض شجاراً شديداً . على أننى لا أستطيع أن أقول ، رغم كثرة ترددى على آنا أندريفنا ، هل العلاقة التى بنى وبينها علاقة حميمة وثيقة . عن الماضى نحن لا نتحدث اليوم أبداً . انها تُسرُّ باستقبالى ، ولكن حديثها معى حديث مجرد . ولقد قالت لى فيما قالت انها مصممة على دخول الدير حتماً . قالت لى هذا منذ مدة غير طويلة . ولكننى لا أصدق أن تفعل ، ولا أرى فى قولها هذا الا تعبيراً عن مرارة .

على أن المرارة الكبرى انما هى فى حديثى الآن عن أختى ليزا . ذلكم هو الشقاء الحقيقى ! ما أهون أنواع الاخفاق التى منيتُ بها اذا هى قيست بمصيرها الحزين ! أولاً : لم يشف الأمير سرجى بتروفتش ، ومات فى المستشفى قبل صدور الحكم . مات قبل الأمير نيقولا ايفانوفتش . وبقيت ليزا وحيدة مع جنينها . كانت لا تبكى . حتى لقد كانت تبدو هادئة . وصارت لينة دمة عذبة طيبة . غير أن ما كان يزرخ به قلبها فى الماضى من حرارة كان كأنه دُفن فى أعماق نفسها . كانت تساعد ماها بمذلة ، وتعنى بآندره بتروفتش المريض . ولكنها أصبحت صموتاً صمناً رهيباً ، وأصبحت منطوية على ذاتها لا تريد أن تنظر الى شىء . ولا أن ترى أحداً ، فكأن جميع الأمور عندها سواء ، وكأنها لا تكثرث بشىء من الأشياء . وقد هزلت هزالاً مخيفاً . كنت لا أجرؤ أن أواسيها ، رغم أننى

كثيراً ما جئت إليها عاقداً نيتي على ذلك • فما ان ألقها حتى أجدني عاجزاً
عن مقاربتها ، وحتى تعوزني الكلمات اللازمة لمواجهة هذا الموضوع •
وامتد ذلك الى أن وقع حادث رهيب : زلت قدمها على السلم فسقطت ،
لا من أعلى السلم ، بل من ثلاث درجات فقط ، لكنها أجهضت واستمر
مرضها الشتاء كله تقريباً • وقد نهضت الآن ، ولكنها في أعقاب ضربة
كهذه الضربة لن تسترد صحتها الا بعد مدة طويلة • ولا تزال معنا شديدة
الصمت كثيرة الوجوم والتفكير ، ولكنها مع ماما عادت تتكلم قليلاً • وقد
طلعت علينا في هذه الأيام الأخيرة شمس ربيعية رائعة ، عالية راتقة ؟
ولا أزال أتذكر بيني وبين نفسي تلك الصبيحة المشمسة من أيام الحريف
الماضي حين تنزهنا معاً وقد امتلأ قلبانا كلانا بالفرح والأمل ، وأحب كل
منا الآخر حباً كثيراً ! يا حسرتاه ! ماذا وقع من بعد ؟ لست أتسكى •
فأنا قد بدأت حياة جديدة • ولكن هي ؟ ان مستقبلها لنز • ولا أستطيع
أن أراها الا ويعصر قلبي الألم •

استطعت مع ذلك منذ ثلاثة أسابيع أن أثير اهتمامها اذ حدثتها عن
فاسين • لقد أطلق سراحه أخيراً ، وأفرج عنه افرجاً نهائياً • وروى أن
هذا الرجل الزاخر برجاحة العقل وحصافة الرأي قد استطاع أن يقدم
أدق الايضاحات وأهم المعلومات ، فبراً نفسه أمام أولئك الذين كان مصيره
رهناً برأيهم فيه • وقد تبين على كل حال أن المخطوطة التي أثار ذلك
اللفظ كله لم تكن الا ترجمة عن الفرنسية لمواد كان يجمعها لنفسه وحده ،
على نية أن يعتمد عليها في كتابة مقالة مفيدة لمجلة من المجلات في المستقبل •
وقد سافر الآن الى اقليم « ••• » ؛ أما زوج أمه ستيلكوف فلا يزال في
السجن بسبب قضيته الخاصة التي علمت أنها ما تنفك تكبر وتتسع •
لقد أصغت ليزا الى حديثي هذا عن فاسين وهي تبتسم ابتسامة غريبة ،
وقالت ان ذلك هو ما كان لابد أن يقع له • ولكن كان واضحاً أنها
سرت بما رويته لها ، وأغلب الظن أن سرورهما الى أن المرحوم
الأمير سرجي بتروفشس لم يلحق تدخله ضرراً بفاسين ، ولم يصبه

بأذى • أما درجاشيف والآخرون ، فليس عندي ما أقوله عنهم هنا •
اتهمت • لعل بعض القراء يريدون أن أحدثهم مزيداً من الحديث
فأقول لهم ماذا صارت اليه « فكرتى » ، وما هى تلك الحياة الجديدة التى
بدأتها والتى أشرت اليها اشارة ملفعة بالسر ؟ فأقول ان هذه الحياة الجديدة
التى تفتح أمامى هى بعينها « فكرتى » ، هى « فكرتى » السابقة نفسها ،
ولكن فى صورة مختلفة كل الاختلاف حتى لينكرها المرء ولا يعرفها •
ذلك كله لا يدخل فى نطاق هذه المذكرات لأنه شىء آخر • اتهمت الحياة
القديمة ، والحياة الجديدة لم تزد على أن بدأت • ومع ذلك سأضيف
ما لا غنى عن اضافته • ان صديقتى المخلصة الحبيبة تاتيانا بافلوفنا تحضنى
كل يوم تقريباً على دخول الجامعة بأقصى سرعة حتماً ، وتقول : « فمتى
أتممت دراستك رايت ماذا يجب أن تفعل • أما الآن فأتمم دراستك • » •
أعترف بأن هذا المرض يحملنى على التفكير ، لكنى أجهل القرار الذى
سأخذُه كل الجهل • وقد اعترضت عليها مع ذلك قائلاً انى الآن لا يجوز
لى أن أتابع دراستى ، اذ يجب على أن أعمل لأعول ماما وليزا • ولكنها
تعرض على ثروتها مؤكدة أنها تكفى لمدة دراستى كلها • وقد قررت
أخيراً أن أتمس نصيحة أحد الناس • فبعد أن استعرضت من حولى وقع
اختيارى على هذا الرجل ، يقولون سيمونوفتش ، معلمى السابق بموسكو ،
زوج ماريا ايفانوفنا ؛ لا لأنى فى حاجة شديدة الى نصائح ، الا أن رغبة
قوية لا سبيل الى مغالبتها قد دفعتنى الى معرفة رأى هذا الرجل الأنانى ،
الغريب كل الغرابة عن الأحداث التى وصفنها ، ذى القلب الذى يتصف
بالبرود ، ولكنه ذكى ذكاء لا يمكن جحوده • فأرسلت اليه مخطوطتى ،
طالباً منه أن يبقى أمرها سراً مكتوماً ، لأنى لم أطلع عليها أحداً بعد ،
ولم أطلع عليها تاتيانا بافلوفنا خاصة • وقد عادت الى المخطوطة بعد
خمس عشرة يوماً ، مصحوبة برسالة طويلة • وهأنذا أسرد فيما يلى
مقتطفات من تلك الرسالة ، لأنى أجد فيها رأياً عاماً له قيمة تعليية • اليكم
هذه المقتطفات :

« عزيزى آرКАДى ماكاروفتش الذى لا يُنسى ، انك لم تستطع فى يوم من الأيام أن تستعمل أوقات فراغك العارضة استعمالاً أنفع مما فعلت حين كتبت هذه المذكرات ! لقد حصلت لنفسك على ادراك واعٍ لحطاك الأولى العاصفة المحفوفة بالمخاطر فى درب الحياة • وانى لأعتقد جازماً بأن هذا الاستعراض قد أتاح لك فضلاً ، فى كثير من النقاط ، أن « تربي نفسك تربية جديدة » كما تقول أنت نفسك • لن أسمع لنفسى بأى نقد حقيقى ، رغم أن كل صفحة من هذه الصفحات تستدعى ملاحظات • من ذلك أن حرصك الشديد الضيد المصر على الاحتفاظ « بالوثيقة » طول تلك المدة شئ بارز الى أبعد حد • على أن هذه الملاحظة التى أبحثها لنفسى ليست الا واحدة من ألف • وانى لأقدر قدراً عظيماً كذلك أنك قررت أن تبوح لى - أنا وحدى فى أغلب الظن - بسرّ « فكرتك » ، على حد تعبيرك • ولكن حين تسألنى أن أعرب لك عن رأى فى هذه الفكرة ، فاننى أكون مضطراً الى الامتناع عن ذلك قطعاً • أولاً لأن الأعراب عن هذا الرأى يحتل مكاناً أكبر من أن تضمه رسالة • وثانياً لأننى غير متأهب للإجابة فما زلت فى حاجة الى هضم هذا كله • ولكننى أقول ان « فكرتك » تتميز بأصالتها ، على حين أن كثيراً من شباب الجيل الحالى ينقادون فى أغلب الأحيان لأفكار جاهزة لا تتبع من أنفسهم ، وعددها محدود جداً ، وكثيراً ما تكون خطيرة • ان « فكرتك » قد حمتك مثلاً ، خلال زمنٍ على الأقل ، من أفكار السادة درجاشيف وشركاه ، التى هى أقل أصالةً ولا شك • وأخيراً فاننى موافق كل الموافقة على رأى المحترمة

تأتيانا بافلوفنا التي عرفتها شخصياً ، ولكن لم يتح لي حتى الآن أن أقدرها
القدر الذي تستحقه . ان رأيها في ادخالك الجامعة سيمود عليك بخير
كثير . فلا شك أن العلم والحياة ، خلال ثلاث سنين أو أربع ، سوف
يوسّعان مزيداً من التوسيع أفق فكرك وآمالك ، فاذا أردت بعد الجامعة
أن تعود الى « فكرتك » فلن يمنعك عن ذلك شيء .

« واسمح لي الآن ، رغم أنك لم تطلب مني هذا ، أن أعرض لك
بصراحة بعض آرائى أو انطباعاتى التي كوّنتها في نفس قراءة هذه
المذكرات الصادقة جداً . نعم ، اننى أوافق أندره بتروفتش على أن هناك
ما يدعو حقاً الى الخوف عليك وعلى شبابك « المعتزل » . ما أكثر أمثالك
من الشباب الذين تتعرض مواهبهم فصلاً لأن تنمو في الاتجاه السئ :
فاما عبودية على طريقة مولتسالين ، واما رغبة خيثة في الفوضى . وهذه
الرغبة في الفوضى انما تنشأ - ربما في أكثر الأحيان - عن ظمأ خفى الى
النظام ، « الجمال » (اننى أستعمل كلمتك) . ان الشباب طاهر نقى لمجرد
أنه شباب . ولعل تلك الاندفاعات المبكرة الى الجنون انما تشتمل على ذلك
الظمأ الى النظام وعلى ذلك البحث عن الحقيقة . فمن المذنب اذا كان
بعض الشباب في عصرنا يرون هذه الحقيقة وهذا النظام في نظريات تبلغ
من الحماسة والسخافة أن المرء يستغرب فعلاً أن يؤمنوا بها ! أحب أن أقول
في هذه المناسبة ان المرء كان يمكن في الماضي - في عصر ليس بعيداً ، في
عهد لا يبعد عنا أكثر من جيل واحد - ألا يأخذهُ بأمثال هؤلاء الشباب
ما يأخذهُ بهم الآن من شفقة ورحمة ، لأن أمثالهم في ذلك كانوا ينتهون
في جميع الأحيان تقريباً الى الانضمام الى الطبقة العليا من مجتمعنا المثقف
انضماماً ناجحاً ، وأن يصبحوا جزءاً من تلك الطبقة . فاذا شعروا مثلاً ،
في بداية الطريق ، بما في بيئتهم العائلية من فوضى وعبث وافتقار النبالة
وغياب التقاليد والأشكال الجميلة ، كان في هذا خير لهم ، لأنهم بعد ذلك
يتوقون الى هذه الأمور كلها توفيقاً واعياً ، ويألفون بهذا نفسه أن يقدروها .

أما الآن فان الأمور تجرى مجرى مختلفاً بعض الاختلاف ، لأنهم أصبحوا لا يعرفون الى من ينضمون !

« سأوضح رأيى بمقارنة أو قل بمشابهة • لو كنت روائياً روسياً وكانت لى موهبة ، لما اخترت أبطال رواياتى الا من بين أفراد النبالة الروسية القديمة ، لأن هذه البيئة التى تضم أفراداً مثقفين هى البيئة الوحيدة التى يستطيع الكاتب أن يجد فيها النظام الجميل والاحساس الجميل اللذين لاغنى عنهما لرواية تريد أن تحدث فى القارىء شعوراً بالروعة • لا أقول هذا الكلام مازحاً ، رغم اننى لا أتمنى الى الطبقة النبيلة كما تعلم • لقد سبق أن أشار فى « تقاليد أسرة روسية » الى موضوعات الروايات التى حال الموت بينه وبين كتابتها • فهناك انما تقع فعلاً على كل ما بلفناه حتى الآن من جمال • هناك على الأقل نجد كل ما وصلنا اليه من توازن وكمال • واذا قلت هذا فليس معناه اننى أرى ذلك الجمال خالياً من العيوب ، أو أرى ذلك التوازن مستقراً استقراراً تاماً • غير أن نمته أشكالاً ثابتة من الشرف والواجب لا تجدها مكتملة بل لا تجدها البتة فى أى مكان بروسيا خارج النبالة • اننى أتكلم كما يتكلم انسان هادى • يبحث عن الهدوء •

فاذا سألتنى عن ذلك الشرف هل هو أصيل ، وعن ذلك الواجب هل هو حق ، قلت لك ان هذه مسألة أخرى يمكن أن تدور حولها مساجلات لا نهاية لها • ولكن الشئ الهام فى نظرى هو أن تلك الأشكال مكتملة ، وأن نمته نظاماً لم يُفرض فرضاً وانما هو نابع من حياة تلك النبالة • ألا وان ما يهمنا أكثر من أى شئ آخر هو أن يكون لنا أخيراً نظام ، أياً كان هذا النظام ، على شرط أن يكون نظاماً لنا نحن ! ذلك هو الأمل ، وتلك هى الراحة ان صح التعبير : شئ مكتمل البناء أخيراً ، لا هذا التقويض الأبدى ، وهذه النشارات التى تتطاير فى كل مكان ، وهذه

النفائات وهذه القاذورات التي لا يخرج منها شيء منذ ما يقرب من مائتي سنة .

« لا تهمني بالتمصب السلافي ، فانما أنا أتكلم الآن كلام رجل استبد به كره البشر ، وأصبح مثقل القلب حزنا ؛ اننا منذ بعض الوقت نشهد حركة تعارض ما أتيت على وصفه الآن كل المعارضة . فالآن أصبحت القذارة لا تصعد الى الطبقة العليا من المجتمع ، وانما يحدث تقيض هذا ، فنرى أجزاء بل كتلاً تنفصل عن نموذج الجمال بتعجل فرح لتندمج في أناس الفوضى والكره . ليست حالات فريدة معزولة تلك الحالات التي ترى فيها الآباء وأرباب الأسر العريقة المثقفة تسخر الآن من أشياء ربما كان ابناؤهم لا يزالون يرغبون في الايمان بها . أكثر من ذلك أنهم لا يحرصون على أن يخفوا عن أولادهم فرحتهم الشرهة بأنهم ملكوا الحق في التخلي عن الشرف فجأة ، وهو حق يشعرون أنهم حصلوا عليه دفعة واحدة لا أدري كيف ! لست أتكلم عن التقدميين الحقيقيين ، يا صديقي العزيز جداً آرКАДى ماكاروفتش ، وانما أتكلم عن تلك الجمهرة الكبيرة التي لا يحصى اليوم عددها ، والتي قيل في حقها : « اقشر الروسى فترى الترى » . صدق أن اللبرالين الحقيقيين ، أن الأصدقاء الكرماء المخلصين للانسانية ليس عددهم بيننا كبيراً الى الحد الذي توهمناه فجأة .

« ولكن هذا كله لا يزال تفلسفاً . فلنعد الى الروائي الذي تخيلناه . ان موقف صاحبنا الروائي هذا سيكون في هذه الحالة موقفاً محددآ : انه لن يستطيع أن يكتب الا روايات من نوع الروايات التاريخية ، لأن الجمال النموذج لم يعد له وجود في عصرنا هذا ، واذا كان لا يزال منه بقايا كما يغلب على اعتقاد الناس اليوم ، فان هذه البقايا لم تحتفظ بجمالها . ولاشك أن الكاتب سيستطيع في الروايات التاريخية أيضاً أن يتصور طائفة من التفاصيل لا تزال تمتع النفس وتعزى القلب . حتى يمكنه أن يأسر لبَّ القارىء أسراً يبلغ من القوة أن يحسب القارىء اللوحة التاريخية

واقماً لا يزال قادراً على الحياة اليوم • ومثل هذه الرواية ، اذا كانت موهبة
الكاتب عظيمة ، سوف تنتمي الى الأدب الروسى اقلّ مما تنتمى الى
التاريخ • سوف تكون لوحة مكتملة الجمال الفنى تمثل السراب الروسى
الذى وجد فعلاً الى اليوم الذى رثى فيه أنه كان سراباً • ان حفيد أبطال
اللوحة التى تمثل أسرة روسية متوسطة الثقافة خلال ثلاثة أجيال وترتبط
بالتاريخ الروسى ، ان حفيد هؤلاء الأجداد لا يمكن تصويره فى نموذج
المعاصر الا انساناً مبهضاً للبشر ، معتزلاً الناس ، صموتاً حزيناً • بل لا بد
كذلك أن يكون رجلاً متفرداً يستطيع القارىء أن يحكم عليه منذ النظره
الأولى بأنه قد ابتعد عن الطريق الممهدة وأن ليس تحت قدميه أرض •
وما هى الا فترة حتى يخفى هذا الحفيد المبهض للبشر هو أيضاً • وتأتى
شخصيات جديدة ، لا تزال مجهولة ، ويأتى سراب جديد • ولكن أية
شخصيات ؟ اذا لم تكن شخصيات جميلة ، لم يبق نمة أدب روسى ممكن •
ولكن واحسرتاه ! هل الرواية وحدها ستكون مستحيلة حينذاك ؟

« لا أريد أن أوغل مزيداً من الايغال • ولنعد الى مخطوطتك • انظر
مثلاً الى أسرتى السيد فرسيلوف (اسمح لى هذه المرة أن أكون
صريحاً كل الصراحة) • لن أسهب فى الكلام عن آندره بتروفش نفسه •
انه رب أسرة على كل حال ، رغم كل شيء • هو نبيل من أسرة عريقة
جداً وهو فى الوقت نفسه من أنصار كومون باريس • هو شاعر حق
يجب روسيا ولكنه من جهة أخرى يجحدها • هو امرؤ لا دين له ،
مستعد مع ذلك لأن يموت تقريباً فى سبيل شيء غير محدد يعجز عن تسميته
ولكنه يؤمن به ايماناً مشبوباً على غرار طائفة من دعاة المدينة الأوروبية فى
العهد البطربرجى من التاريخ الروسى • ولكن كفى هذا عنه • لننظر الى
أسرته الحقيقية : عن ابنه لن أتكلم فما هو بمستحق هذا الشرف • ان
الذين لهم أعين يعرفون سلفاً كيف ستكون نهاية هؤلاء الطاشين والى
أين يقودون غيرهم • ولكن لننظر الى ابنته آنا آندريفنا • هذه فتاة ذات

شكيمة ، أليس كذلك ؟ هذه شخصية لها أبعاد الأم ميتروفانيا ، دون أن أتنبأ لها بشيء من الاجرام طبعا ، والا كنت ظالما . قل لى الآن يا آر كادى ماكاروفتش ان هذه الأسرة استثناء وشنوذ ، فأبتهج اعظم الابتهاج . ولكن الأمر ليس كذلك . الأصح أن نقول ان هناك كثرة من هذه الاسر الروسية التى لا يبجد المرء نبالتها والتى تتحول بقوة لا تقاوم الى اسر مصادفة وتختلط بأسر المصادفة هذه فى السديم الشامل والفوضى العامة . انك فى مخطوطتك ترسم نموذج أسرة من أسر المصادفة هذه . نعم يا آر كادى ماكاروفتش ، انك « فرد من أفراد أسرة مصادفة » ، فى مقابل نماذج لا تزال حديثة لأبناء نبلاء عاشوا طفولة ومراهقة مختلفتين عن طفولتك ومراهقتك كل الاختلاف .

« أعترف لك بأننى لا أتمنى أن أكون روائيا يصوّر بطلاً هو فرد فى أسرة مصادفة !

« جهد لا ثمرة له ولا جمال فيه . ان تلك النماذج لا تزال من الحياة الجارية على كل حال ، فهى لذلك لا يمكن أن تكون مكتملة من الناحية الجمالية . كيف يستطيع الكاتب أن يتجنب هنا الأخطاء والمبالغات والاغفالات ؟ وسوف يكون على الكاتب أو القارىء ان يخمّن ويسرف فى التخمين . ماذا يبقى لكاتب لا يريد أن يقتصر على الروايات التاريخية ... وانما تستبد به الرغبة فى الكتابة عما هو واقع حالى ؟ أن يخمّن و ... أن يخطئ .»

« غير أن « مذكرات » كالتى كتبها أنت يمكن فى رأيى أن تكون مواد لعمل فنى يخلق فى المستقبل ، مواد للوحة ترسم فى المستقبل وتكون فوضى لكنها تصوّر عهداً مضى . نعم ، فبفضل التقهقر فى الزمان الى وراء ربما استطاع الفنان أن يجد أشكالاً جميلة لتمثيل السديم الماضى

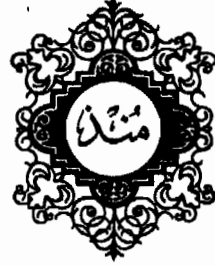
والفوضى الذى انقضى عهدا . فى ذلك الوقت ستكون الحاجة الى مذكرات
كمذكراتك . حسبها أنها صادقة : فهى رغم ما تتصف به من فوضى ،
تتشم على عدد من عناصر الحقيقة سيتمكن المرء فى ضوءها أن يدرك
ما كان لابد أن يختبئ فى نفس مراقب يتمنى الى ذلك العصر المضطرب ،
وهذا يحث لا تغمط قيمته ، ما دام المراقبون هم الذين تتألف منهم
الأجيال

بویوک

۱۸۷۳

في هذه المرة سانشر مذكرات أحد الناس ، ما هي
مذكراتي أنا ، بل مذكرات شخص آخر ، ولا حاجة الى
أى تهييد .

مذكرات أحمد الناصر



يومين سألتني سيميون آرداليونوفتش في وقت
مناسب جدا :

- رحماك ايغان ايغانوفتش ، متى سيتفق لك مرةً ألا تكون
سكران ؟

سؤال غريب ! لن أعتاظ بلا داع ، لأنني امرؤ خجول ، ولكن
هامهم أولاء يعدونني مجنوناً . في ذات مرة ، رسم أحد الرسامين صورة
لوجهي عرضاً . ثم اذا هو يقول « انك لأديب مع ذلك ، » ووافقت على
أن يعرض الصورة على الجمهور . فاليكم ما قرأته : « اذهبوا فانظروا
الى ذلك الشخص المريض الذي يوشك أن يهوى الى قاع الجنون ، »

هبنى مجنوناً . ولكن لماذا نشر هذا الكلام في الجرائد ؟ ان الجرائد
في حاجة الى موضوعات نبيلة ، في حاجة الى المثل الأعلى ، أما هنا ...

نمة طريقة للتلميح : فلهذا انما وجد الأسلوب ولكن لا ... ليس
يسمح لك بالتلميح . اختفت اليوم روح النكتة واختفى الأسلوب
الجميل ، وأصبحت الشائيم 'تعد' رهاقة فكر ولطافة ذوق . ولكنني
لن أستاذ ، فما أنا أديب كأي أديب حتى أصدع رأسي . كتبت قصة ،

فلم ينشروها • وكتبت مقالة فرفضوها • وأرسلت مقالات الى جرائد مختلفة فلم يقبلوها ، وقالوا لي : « يعوزك الظرف » • سألتهم ساخراً :

- أى ظرف تعنون ؟ الظرف الأثني ؟

لم يفهموني • وأنا أترجم خاصةً عن اللغة الفرنسية لأصحاب المكتبات • وأحرر اعلانات للتجار : « فرصة نادرة ! ... اشربوا الشاي الذى تنتجه مزارعنا الخاصة ... » • وان تأبني لصاحب المعالي بطرس ماتفتش لم يمرّ بغير صدى فى الأوساط العليا من المجتمع • وقد ألّفت ، تلبيةً لطلب أصحاب المكتبات ، كتاباً بعنوان : « كيف تحظى باعجاب النساء » • واتفق لي أثناء حياتي أن ألقيت الى السوق ستة كتيبات من هذا النوع • وفى نيتي أن أجمع باقة من أقوال فولتير يضمها كتاب • لكننى أخشى أن يبدو هذا غير ذى مذاق لأهل زمانى • ان هذا العصر هو للهراوة لا لفولتير ، فليكسّر الناس بعضهم أفواه بعض ! تلكم هي مهنتى الأدبية كلها • هل عن عبثٍ ترانى أغرق ادارات تحرير الجرائد برسائل لا أمسى أن أمهرها بتوقيعى ؟ اننى أقضى وقتى فى اغداق التسيّيات والنصائح • أتقد ، وأدل على الطريق الواجب اتباعها • فى الأسبوع الماضى دبّجت الرسالة الأربعين من رسائلتى التى أبعثها الى صحيفة من الصحف منذ سنتين • ان طوابع البريد التى استعملتها قد كلفتنى حتى الآن أربعة روبلات • طبعى سىء • هذا هو الأمر •

أعتقد أن الرسام لم يرسم وجهى اهتماماً منه بالأدب ، ولكن بسبب تؤولين متناظرين يزدان بهما جيئنى • هذا حدث ، أليس كذلك ؟ ان الناس يتهافون اليوم على الأحداث ، لعدم وجود فكرة يهتمون بها • لشدما أحسن هذان التؤلولان الى الصورة ! لكنهما يحيان ! ذلكم ما يسمى بالواقعية •

أما عن الجنون فان عدداً كبيراً من الكتاب عندنا قد وصموا فى

السنة الماضية بالاختلال العقلي •• قيل عنهم : « موهبة أصيلة جداً •••
فانظروا ماذا كانت النتيجة ! ولقد كان ينبغي التنبؤ بهذا منذ مدة طويلة
على كل حال ••• » • ليس يخلو هذا الكلام من مكر ، حتى يمكننا أن
نصفق له من وجهة نظر الفن المحض • فبه يصبح الآخرون أذكى
مرتين • ولكن لئن كان سهلاً عندنا افتقاد أحد الناس عقله ، فليس هناك
مثال قيس العقل عليه •

أذكى الناس في رأبي هو ذلك الذى يصف نفسه بالغباء مرة
كل شهر • وما من أحد يقدر أن يفعل ذلك في هذه الأيام ! فى الماضى
كان الغبى يدرك عند اللزوم مرة فى السنة على الأقل أنه ليس الاغياً •
أما الآن ، فلا ، لا ، كلا ، كلا ! لقد اختلط الحابل بالنابل حتى صار
الانسان الذكى لا يتميز عن الانسان الغبى • وكان هذا مقصوداً •

تحضرنى نكتة أصلها أسباني • حين بنى الفرنسيون فى بلادهم
أول ملجأ للمجانين منذ نصف قرن ، قيل يومئذ : « لقد حبسوا جميع
مجانينهم فى منزل خاص حتى يصفوا أنفسهم بأنهم هم عقلاء » • القول
صادق • لست تبرهن على أنك عاقل اذا أنت حبست قرينك فى
بیمارستان • « فلان أصبح مجنوناً ••• معنى هذا أننا تتمتع بجميع
قوانا العقلية » • لا ، أبداً ، ذلك لا يعنى هذا بعد •

على كل حال ، ليذهب هذا الكلام كله الى الشيطان ! ما بالى
أحدث هذه الجلبة كلها • ما لى ولهذا التذمر ! ما لى ولهذا البرطمة !
لقد أضجرت حتى طباختى • فى مساء أمس جاءنى صديق • قال لى :
« أسلوبك يفسد • صار مفروماً • أنت تفرم أسلوبك ، تهرمه هرماً ••
جمل عارضة ، ثم فى الجمل العارضة جملة أخرى عارضة ، ثم جملة
طارئة تضعها بين قوسين ، وتستأنف الفرم ••• » •

صديقى على حق • فى نفسى يحدث شىء غير عادى • طبعى أيضاً
يطرأ عليه تغير ، ورأسى يصيبه صداع • أخذت أرى وأسمع أشياء

غريبة ... ما هي أصوات تماماً ... كأن أحدا يدندن على مقربة مني :
« بوبوك ، بوبوك ، بوبوك ! » .

ما « بوبوك » هذه ؟ يجب أن أحاول تسلية نفسي .

خرجت لأستلي نفسي . فوفعت على جنازة . جنازة شخص يموت
الى بقراية بعيدة . موظف فى الدرجة السابعة . مات تاركاً زوجته
وخمس بنات يجب تزويجهن . يا للنحس ! كان المتوفى يستطيع أن
يجنى رزقاً . أما الآن فيجب الاكتفاء بمعاش هزيل . يجب شد الحزام على
البطون . كان أفراد هذه الأسرة يستقبلونى دائماً على مضض . على كل
حال ، ماكنت لأشهد الجنازة فى ذلك اليوم لولا المناسبة الطارئة . صحبت
المركب الى المقبرة . بمعجرفة نحونى . كان ردنجاتى مفرطاً فى الاهترام
حقاً . أظن أننى لم أذهب الى المقبرة منذ خمس وعشرين سنة . المكان
غير جذاب كثيراً .

الرائحة أولاً . لقد جئى الى المكان بنحو خمسة عشر ميلاً . أكفان
من درجات متفاوتة . بل ثمة نشان أحدهما نشن جنرال والأخر نشن
سيدة . عدد من الوجوه الحزينة ، غير قليل من الأسى المتصنع ، كثير من
فرح صريح . أضيف أنه لا داعى الى التشكى من هذا : يجب علينا أن
نحسب حساب الأرباح الصغيرة . ولكن الرائحة ! الرائحة ! ألا اننى
لا أحب أن أكون شحاذاً فى مقبرة .

تفرست فى وجوه الأموات متأبياً ، غير منقاد لطبيعتى الشديدة
التأثر . ثمة وجوه لطيفة ، وثمة وجوه لا يحلو النظر اليها . الابتسامات
عامة ليست جميلة ، ولا سيما لدى بعضهم . لا أحب هذا . يحدث
للمرء أن يراه فى منامه .

أثناء القداس خرجت من الكنيسة لأتنشق الهواء . كان النهار
أشهب ، لكنه جاف ، وهو بارد بعض البرودة طبعاً ، فنحن فى شهر

أكتوبر • قمت بجولة بين القبور • القبور طبقات • الطبقة الثالثة تكلف ثلاثين روبلاً : لائحة وغير باهظة الثمن • الطبقتان الأوليان لهما حق في الكنيسة وحوشها • ولكن ما أبهظ الثمن ! كان في ذلك اليوم ست جنازات من الطبقة الثالثة ، بينهم جنازة الجنرال وجنازة السيدة المذكورة !

ألقيت نظرة على القبور : شيء مقزز • ماء • وأى ماء ! ماء آسن أخضر • نعم • وفي كل لحظة يمتح الحفار الماء لفرغ القبر • خرجت • واذ لم يكن القديس قد انتهى ، جعلت أتجول خارج السور مصنوع من حديد مشبك • غير بعيد عن السور كانت هناك مضييفة • بعدها بقليل كان هناك مطعم • ليس سيئاً كل السوء ، ذلك المطعم • أكلت قطعة ولوازمها ! ••• ولم يلبث المطعم أن امتلأ بالناس الذين شهدوا المأتم • لاحظت كثيراً من الانتعاش والنشاط • أكلت وشربت •

ثم ساعدت يدي في جرجرة التابوت من الكنيسة الى القبر • لماذا يصبح الميت ثقيلاً هذا الثقل كله في التابوت ؟ يقال ان سبب ذلك هو قوة العطل ، وأن الجسم يفقد القدرة على التحكم بنفسه •• أو يقال سخف آخر من هذا القبيل • هذا الكلام يناقض الميكانيكا والعقل في آن واحد • أنا لا أحب لامرئ حصل ثقافة عامة في أكثر تقدير أن يقحم نفسه فيما لا علم له به ، وأن ينصب نفسه اخصائياً • وما أكثر أمثال هذه الحالة في بلادنا ! المدنيون يعشقون الاهتمام بالشئون العسكرية ، حتى ما تعلق منها بالاستراتيجية العليا ؟ والمهندسون بعشقون أن يهتموا بالفلسفة والاقتصاد السياسي •

لم أحضر « الصلاة » • وأنا امرؤ ذو كبرياء ، فإذا كانوا لا يطيقونني الا في حالات الضرورة القصوى ، فعلام أجر نفسي الى ولائهم ، حتى تلك التي يقيمونها بعد الجنازات ؟ لا أدري لماذا بقيت في المقبرة على كل حال • جلست على قبر ، وغرقت في أحلام شتى •

فكرت أولاً في معرض موسكو • ثم انتقلت الى مشكلة « الاندهاش »
التي كانت موضوع تأملى • فاليكم ما خلصت اليه فى أمر « الاندهاش » :
« لا شك أن الاندهاش من كل شىء غباء وحماقة ، ولا شك أن
عدم الاندهاش من أى شىء أعظم أناقة » ، بل هو علامة رقى • ولكن
ليس من الجائز كثيراً أن يكون الأمر كذلك فى التحليل الأخير • وعندى
أن عدم الاندهاش من أى شىء أغبى كثيراً من الاندهاش لكل شىء •
بل أكثر من ذلك أن عدم الاندهاش من أى شىء يكاد يساوى عدم تقدير
شىء • والغبى لا يستطيع أن يقدر شيئاً » •

منذ بضعة أيام قال لى شخص أعرفه :

- نعم ، اننى أحرص على التقدير أكثر من حرصى على أى شىء •
الحاجة الى التقدير ! قلت بينى وبين نفسى : هه ! لسوف تعرف
هذه الحاجة الى التقدير اذا خطر ببالك أن تطبع شيئاً فى يوم
من الأيام !

عندئذ انقطعت سلسلة أفكارى • اننى لا أحب قراءة ما يكتب
على شهادات القبور • هذه الكتابات كلها متشابهة • رأيت على بلاطة قبر
غير بعيدة عنى سندويشة 'أكل نصفها • قلت لنفسى : « هذا غباء • ليست
السندويشة فى مكانها • » • كنستها الى الأرض ، لأنها ليست خبزاً وانما
هى سندويشة لا أكثر • ثم ان تفتيت خبز على التراب ليس بالانتم
فيما أظن ، وانما الانتم تفتيته على أرض غرفة • 'يستحسن أن أسأل
عن هذا الأمر •

لابد أننى مكثت زمناً طويلاً ، بل زمناً طويلاً جداً • أعنى أننى
اضطجعت على حجر كبير له شكل تابوت من مرمر • كيف حدث أننى
سمعت أشياء كثيرة على حين فجأة ؟ لم أتنبه الى ذلك فى أول الأمر كان
موقفى موقف الاستخفاف الكامل • سمعت أصواتاً جشاء ، كأنها صادرة

عن أفواه مكبومة بوسائد ، لكنها مع ذلك متميزة وقرية جداً . فتحت
عينيَّ ، وجلست ، وأخذت أصفى باتباه .

- صاحب المعالي ، حقاً ليس هذا بالممكن . أعلنت كبا ، فألّفت
المهويست ، فإذا أنت تلعب بالسبعة الدينارى . كان ينبغي لك أن تقول
من قبل ان معك الدينارى .

- ولكن الاعتماد على الذاكرة فى اللعب ليس بالشىء المستلى أيضا .
- صاحب المعالي ، لا يمكن اللعب بغير ضمانات . لا بد لنا من
لاعب لا يلعب ؛ يجب منح توزيعه بغير مقابل .
- ولكن أننى لنا هنا لاعب لا يلعب !

يا لها من أحاديث فى غير محلها ! لا أقل من أن يوصف هذا
بأنه غريب وغير متوقع فى آن واحد . الصوت رصين رزين . والصوت
الثانى أميل الى التعاذب . ما كنت لأصدّق لولا أن سمعت بأذنى .
ما معنى القمار فى مثل هذا المكان ، ومن هو ذلك الجنرال ؟ أما أن
الجلبة كانت صادرة عن القبور فذلك أمر لا مجال للشك فيه . ملت على
شاهدة القبر لأقرأ : « هنا يرقد جثمان الجنرال ميجر برفويادوف ، حامل
أوسمة كذا وكذا » . هم ! . . . « توفى فى شهر أغسطس (آب) . . .
فى السابعة والخمسين من العمر . ارتقد فى سلام ، أيها الرماد الغالى ،
الى طلوع الفجر الفرح ! » .

عجيباً ! هو اذن جنرال حقاً ! أما القبر الآخر الذى كان يصدر
عنه الصوت التعاذب ، فليس له بعد ضريح . لا نىء الا بلاطة موضوعة
عليه ، فلا بد أن نزيله قادم جديد . ان الصوت يدل على أن صاحبه
موظف فى الدرجة السابعة .

قال صوت لم أسمعه من قبل ، على مسافة بضعة أمتار من مكان
الجنرال ، تحت قبر يبدو جديداً :

- أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

هو صوت رجل من عامة الشعب ، يحاول صاحبه أن يخفف حذته أدباً .

- أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

فزعق صوت عصبى فيه احتقار ، هو صوت سيدة من المجتمع الراقى فيما يبدو ، زعق يقول :

- آ... ها هو ذا تأخذ الحازوقة مرةً أخرى ! ألا إنه لقصاص شديد أن أكون بجانب هذا الدكاني !

- ليس بى حازوقة ، ولم أكل شيئاً . ذلك كله يأتي من تلقاء نفسه طبعاً . ماذا يا سيدتى الجميلة ؟ ألا سييل اذن الى تخليك عن نزواتك ؟

- ما اضطجاعتك هنا ؟

- دسونى فى هذا المكان دساً . أولادى وامراتى هم الذين حشرونى هنا . لم أجيء بارادتى . ذلك هو سر الموت ! لولا الموت ما كنت لأرضى أن أرقد الى جانبك ولو أعطيت ذهب الأرض كله . وقد جئت الى هذا المكان بعد دفع آخر ما كنت أملك من نقود . نحن أيضاً نملك ما ندفعه نفقاتٍ لجنازة من الطبقة الثالثة .

- جمعت ذلك من سرقة أموال الناس ؟

- كيف أسرق وأنت لم تدفمى لى قرشاً واحداً منذ شهر كانون الثانى ، مع أن لدكاني عليك ديناً !

- هه ! ما أشدّها بلاهة فى نظرى أن يطالب المرء هنا بديون له ! اذهب الى فوق ، وطلب بدينك بنت أخى التى ورثتنى .

- كيف أطلب الآن ، وأين لى أن أذهب ؟ لقد اجتزنا الحفرة
كلانا ، ونحن أمام محكمة الرب متساويان فى خطايانا •
- يالها من لهجة عامية ! لا تسمح لنفسك بأن تكلمنى بعد الآن !
كذلك أجابته المتوفاة باستعلاء وتكبر • فانبىرى يصيت من
جديد :

- أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

- انظر ، انظر ! أطاع الدكانى السيدة يا صاحب المعالى •

- لم لا يطيعها ؟

- ولكنك تعلم يا صاحب المعالى أن نظاماً جديداً يسود هنا •

- ما هو هذا النظام الجديد ؟

- نحن يا صاحب المعالى أموات ان صح التعبير •

ألا انه لجزاء ! اذا كان هذا هو ما يحدث فى متل هذا المكان ،
فلا داعى أن يتساءل المرء عما ذا يحدث فى الطابق الأعلى ! يالها من
أحاديث سخيفة ! ومع ذلك ظللت أصغى ، رغم أن غضبى بلغ ذروته •
هذا صوت ينبعث من مكان آخر فى المسافة بين الجنرال والسيدة
الثائرة أعصابها :

- أوه ! وددت لو أعيش زمناً أطول ! لا ، لا ، اننى أود كثيراً

لو أحيا •••

- هل تسمع يا صاحب المعالى ؟ ها هو ذا يستأنف ! ••• يظل
مصرأ على الصمت بعناد شديد ثلاثة أيام ، ثم يعود يهتف فجأة : « وددت
لو أعيش ، أود لو أحيا » • وهو فوق ذلك يلح الحاحاً شديداً •
ها ها ها ها !

- خفة عقل !

- يعتبره هذا فجأة يا صاحب المعالي ، ويستولى عليه استيلاءً تاماً •
انه هنا منذ شهر نيسان (أبريل) ، ثم اذا هو يصيح بغتة : « أود
أن أحيأ ! » •

قال صاحب المعالي :

- هذا مضجر أخيراً !

- مضجر يا صاحب المعالي • ما رأيك في أن نستأنف اغاظة
آفدوتيا اجناتيفنا؟ ها ها ها !
- لا ، اعفنا من هذا ! لا أستطيع احتمال هذه المرأة السليطة
اللسان ، الفظيمة !

قالت المرأة السليطة باشمثراز :

- أنا أيضاً لا أستطيع احتمال أحد منكما ! انكما تنضحان ضجرآ ،
وتعجزان عن اجراء أى حديث رفيع • اياك أخاطب يا صاحب المعالي ،
أؤكد لك أنك لا تملك ما يجيز لك اصطناع الكبرياء • أعرف عنك
قصة صغيرة ، أعرف كيف أن خادماً لوّث وجهك بمقشته ذات صباح ،
حين كنت مختبئاً تحت سرير عشيقتك •••
دمدم الجنراك يقول من بين أسنانه :

- امرأة قذرة •••

وعاد الدكاني يعول فقال :

- عزيزتى الشهمة آفدوتيا اجناتيفنا ، قولى لى : أنا أبتلى الآن
بالمحن الأولى من عذاب الآخرة ، أم هذا شيء آخر •••
- ا ••• عاد الى هوسه ! أوجست ذلك من الرائحة التى تخرج
منه • هو ذا يستدير •

– لست أستدير يا عزيزتى ، وليس فى رائحتى أى شىء خاص ،
لأن جسمى لا يزال محفوظاً ، أما أنت يا جميلة فقد تنن لحملك تننا حلواً .
لذلك تفوح منك رائحة لا تطاق ، بصرف النظر عن المكان . وإذا
كنت لا أقول شيئاً ، فذلك أدب منى .

– آ ... الوقح ! هو الذى تفوح منه رائحة كريهة ، ثم يدعى
أننى أنا الذى تفوح منى هذه الرائحة .

– أوه ! أوه ! أوه ! أوه ! ليت اليوم الأربعين يسرع مجيئه ،
فأسمع فوقى أصواتاً محزونة : أسمع انتحاب زوجتى وتساقط عبرات
أولادى .

– تتكلم عن البكاء ؟ هه ... لسوف يأكلون ثم ينصرفون .

– آه ... ليت أحداً على الأقل يصحو !

قال الصوت المتعذب :

آفدوتيا اجناتيفنا ، انتظرى لحظة ، سوف يتكلم الجدد .

– هل بينهم شبان ؟

– نعم ، بينهم شبان يا آفدوتيا اجناتيفنا ؟ بل بينهم فتية .

– ها ... هذا فى أوانه .

سأل صاحب المعالى :

– لماذا لم يبدأوا حتى الآن ؟

– ... لم يهيقوا يا صاحب المعالى . أنت نفسك تعلم أنهم قد يصمتون
فى بعض الأحيان أسبوعاً كاملاً . من حسن الحظ أننا قد أثينا بأموات
جدد ، أمس الأول ، وأمس ، واليوم . ولولا ذلك لبقيت الدائرة حولنا ،
الى مسافة عشرين متراً ، أمواتاً من السنة الماضية .

- شيء شائق حقاً •

- فالיום يا صاحب المعالي 'دفن تاراسفتش ، الموظف فى الدرجة الثالثة • أدركت ذلك من أصواتهم • وأنا أعرف ابن أخيه • لقد أنزل تابوت تاراسفتش منذ قليل •

- اين هو ؟

- على مسافة خمس خطوات منك يا صاحب المعالي ، يسرة • يكاد يكون عند قدميك • هذه فرصة لتتعرف اليه يا صاحب المعالي •
- ماذا ؟ ليس علىّ أنا أن أخطو الخطوة الأولى •
- بل هو الذى سيبدأ • سيشرفه هذا كثيراً يا صاحب المعالي ؛
فق أنتى •••

حشرج صوت آخر مرتاع على حين فجأة قائلاً :

- آه ! آه ! آه ••• ما ذا جرى لى ؟

- هذا قادم جديد يا صاحب المعالي ، قادم جديد • الحمد لله •
سرعان ما أفاق ! الصمت يدوم فى بعض الأحيان أسبوعاً •

هتفت آفدوتيا اجنايفنا تقول :

- آه ••• يبدو لى أنه شاب !

فتمتم الشاب يقول :

- حدث •• حدث الوفاة فى أعقاب اختلاط ، بفتة • قال لى الدكتور شولتس أمس : عندك اختلاط ، وفجأة مت فى الصباح •
آه ! آه !

قال الجنرال باشا مرحباً ، وقد سرّ هذا الحادث الجديد :

- لا يملك الانسان أن يفعل شيئاً أيها الشاب • يجب علينا أن نسيطر

على أنفسنا ، وأن نغلب العقل في سلوكنا • أهلاً وسهلاً بك عندنا ، في وادي جوزافات • نحن ناس طيبون ، وسترى ذلك بنفسك ، فتعرف كيف تقدرنا • الجنرال ميجر فاسيلي فاسيلفتش بروفيادوف ، في خدمتك •

- آه ... لا ، لا ، لن آلف ما حدث أبداً ! ذهبت الى الدكتور شولتس ، أصابني اختلاط : أصيب الصدر أولاً فصرت أسعل ، ثم أصابني برد : الصدر وأنفلونزة ... وفجأة ... وقع ما لم يكن بالمتوقع أبداً • أسوأ ما في الأمر أنه لم يكن في الحسبان إطلاقاً •

عاد الموظف الصغير يقول بصوت مشفق كأنما هو يريد أن يشجع الشاب المسكين :

- تقول ان الصدر هو الذى أصيب أولاً ...

- نعم ، الصدر • ونشأ بلغم • ثم انقطع البلغم فجأة ! • آه • • الصدر • أصبحت لا أستطيع التنفس ! • ولعلك تعلم • •

- أعلم ، أعلم ؟ ولكن اذا كان المرض فى الصدر ، فقد كان ينبغى أن تستشير الدكتور ايك ، بدلاً من الدكتور شولتس •

- لكننى كنت أتأهب للذهاب الى الدكتور بوتكين ، وفجأة ... قال الجنرال :

- عجيب ! ان بوتكين يسلخ سلخاً ...

- لا ، انه لا يسلخ البتة • سمعت أنه يحسن التشخيص بعناية كبيرة ، ويتبأ دائماً بما سيقع •

قال الموظف الصغير مصححاً :

- ملاحظة صاحب المعالي تتناول مسألة السعر •

- ما هذا الكلام ؟ ثلاثة روبلات فى أكثر تقدير ... وهو يحسن

الفحص ويعنى به أشد العناية ناهيك عن وصفاته لقد حرصت عليه حرصاً مطلقاً لأننى 'حدثت عنه قولوا لى اذن ياسادة : أذهب الى ايك أم الى بوتكين ؟

- ماذا ؟ الى من تريد أن تذهب ؟

سأله الجنرال هذا السؤال ، وانفجر ضاحكاً ، فكان جثمانه يهتز من الضحك متلذذاً ، واقتدى به الموظف الصغير .

وهتفت آفدوتيا اجناتيفنا تقول :

- عزيزى الشاب ، عزيزى الشاب الطيب ، كم أحبك ! ليتهم ، على الأقل ، يضعون بجانبى واحداً مثله !

عندئذ نفذ صبرى ! ماذا ؟ أهذا ما يسمى بالميت المصرى ؟ ولكن كان يجب على أن أصغى ، وألا أتسرع كثيراً فى استخلاص النتائج واصدار الآراء . تذكرت اننى قد رأيت هذا النقى فى تابوته منذ قليل . كانت هيئته هيئة صوص مرتاع ، وكان تعبير وجهه أبشع ما يمكن أن يكون التعبير فى وجه ! ومع ذلك انتظرت التمة .

غير أن الفوضى التى قامت قد بلغت من الشدة أننى لا أتذكر الآن شيئاً . استيقظ عدد كبير من الأموات فى آن واحد : منهم موظف الدرجة السابعة الذى أسرع يشرح للجنرال مشروعاً يتعلق بلجنة جديدة فى الوزارة ، ويحدثه عن ترقية مرتقبة لكبار الموظفين ترتبط بذلك المشروع ، فأثار هذا اهتمام الجنرال كثيراً . أعترف أننى بهذا الاصغاء اطلمت على أمور كثيرة ، فصحبت أشد العجب لتلك الطرق العجيبة التى يسلكها أبناء الادارات الحكومية لتذيع فى العاصمة . ثم صحا مهندس نصف صحو ، وأخذ يجتر خلال مدة طويلة سخافات تبلغ من الحماسة أن أحداً لم يشأ أن يصنى اليه ، فاضطر أن يبقى مهملاً فى ركنه . ثم جاء دور السيدة

المعروفة التي كانت ترقد في الصباح على النعش ، فأخذت تتحرك في
رأسها وتضطرب . وقد استغرب لزياتنيكوف (اتضح ان اسم موظف
الدرجة السابعة ذى الصوت المتعذب ، المسَّجى بجانب الجنرال برفويادوف ،
كان اسمه لزياتنيكوف) أن يستيقظ الجميع في هذه المرة بهذه السرعة .
وانى لأعترف بأننى استغربت ذلك أنا نفسى . على أن بعضهم كان قد
دُفن أمس الأول ، فكذلك شأن تلك الفتاة الشابة التي تبلغ من العمر
سنة عشر ربيعاً ، والتي كانت لا تنفك تضحك ... بل قل لاتي تهقهه
تهقهة ساخرة ضارية غير لائقة .

رفع لزياتنيكوف صوته يقول معلناً على حين فجأة بلهجة فيها تعجل
شديد :

– صاحب المعالي ، صحا تاراسفتش ، موظف الدرجة الثالثة .

فقال تاراسفتش باحتقار :

– فماذا ؟

كان في لهجته شيء من نزوة وتسلط في آن واحد . أصخت
بسمعى متنبهاً ، لأننى قد سمعت في الآونة الأخيرة عن تاراسفتش هذا
حكايات مشهية مذهلة معاً .

– هذا أنا يا صاحب المعالي ، أو قل ...

– ماذا تريد ؟

– لا شيء الا الاستفسار عن صحة معاليك . ان الجميع يشعرون هنا
في البداية بشيء من التضايق لعدم التعود . ان الجنرال برفويادوف يود أن
يتشرف بالتعرف الى معاليك ، ويأمل أن ...

– لم أسمع بهذا الاسم .

– أرجوك أن تتذكر يا صاحب المعالي ، انه الجنرال برفويادوف ،

فاسيلفتش برفويادوف .

– أنت الجنرال برفويادوف ؟

– لا يا صاحب المعالي ، ما أنا الا ليزياتينكوف ، موظف فى الدرجة السابعة ، فى خدمتك ؛ أما الجنرال برفويادوف ...

– كفى سخافات ! أرجوك أن تدعنى وشأنى !

قال الجنرال برفويادوف مقاطعاً من أجل أن يضع حداً لشراسة هذا النزير الجديد المتكبر :

– دعه !

– انهم لم يفيقوا افاقة تامة يا صاحب المعالي . يجب ألا نغفل عن هذا الأمر . انهم لم يعودوا بعد . سوف يفيقون ، فينظرون الى الأمور عندئذ بأعين أخرى .

فكرر الجنرال قوله :

– دعه !

وفجأة هتف صوت بقرب آفدوتيا اجنايفنا ، صوت حانق لم يُسمع من قبل – صوت فتى من أسرة كريمة ، متهدج اللهجة مرتضى الثبرة كثير التقطع ، هتف يقول مخاطباً الجنرال :

– فاسيلى فاسيلفتش ! صاحب المعالي ! اننى أُرقيك منذ ساعتين . وقد أودعتُ هذا المكان قبل ثلاثة أيام . هل تذكرنى يا فاسيلى فاسيلفتش ؟ أنا كلنيافتش ، التقينا عند آل فولوكونسكى الذين كانوا يستقبلونك أنت أيضاً ، لا أدرى لماذا .

– كيف ؟ الكونت بطرس بتروفنتش ... هل يعقل أن تكون أنت ... فى مقبل العمر ... ما أشد أسفى ! ..

– أنا أيضاً آسف .. وان كان يستوى عندى الأمران . اننى أريد

أن أستفيد أكبر استفادة من كل ما يعرض لى • ثم اننى لست كوتنا بل
بارونا ، لست الا بارونا • نحن بارونات صغار لا أكثر ، أحفاد خدم •
وهذا كله لا يهمنى فى قليل ولا كثير على كل حال • ما أنا الا نجس من
أنجاس المجتمع الراقى المزيف ، يعد نفسه « خليعاً لطيفاً محبباً » • كان
أبى جنرالا ، وكانت أمى تُستقبل فى « أعلى مجتمع » • وقد قمت فى
السنة الماضية ، أنا واليهودى زيفل ، بطرح خمسين ألف وره من
الأوراق المالية المزورة فى التداول ، ثم ونيت بزيملى اليهودى ، ولكن
جوليت شارباتيه دو لوزجان هى التى مضت بالمال الى بوردو • وتصور
أننى كنت قد تعاهدت على الزواج ••• مع شتيفالفسكيا ••• فتاة عمرها
سنة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر ، ومهرها تسعون ألف روبل ! ••• يا آفدوتيا
اجناتنا هل تذكرين كيف أفسقتنى منذ خمسة عشر عاماً حين كنت غلاماً
فى السنة الرابعة عشرة من العمر ؟

- ها ! ••• هذا أنت اذن يا شيطان ! لقد أحسن الرب بارسالك
الى هنا •

- ظلمت جارك التاجر حين ظننت أنه أخرج رائحة كريهة •••
لقد سكت أنا وأخذت أضحك • الرائحة صادرة عنى • وضعونى فى
تابوت مسّمر •

- آه ! ••• يا للخيث ! لكننى مسرورة مع ذلك • لن تصدقنى
إذا وصفت شدة افتقارنا الى الحياة والنشاط يا كلينافتش !

- بلى ! بلى ! أصدّقك • وفى نيتى أن أهى • هنا شيئاً طريفاً •
صاحب المعالى ! لست أخطبك أنت يا برفويادوف ، بل أخطبك أنت
الآخر يا صاحب المعالى تاراسفتش ! ما بالك لا تجيب ؟ أنا كلينافتش الذى
قدتلك فى الصوم الكبير الى عند الأمسة فورى ، هل تسمع ؟

- أسمع يا كلينافتش • وانى لسعت بك ، صدقنى •••

- لا أصدق من كلامك شيئاً • كل ما أريده أيها الشيخ اللطيف هو أن أقبلك • ولكنتى لا أستطيع ذلك ولله الحمد • هل تعرفون ، يا سادة ، ما فعله هذا « الجدد » ؟ لقد مات منذ يومين أو ثلاثة ، مديناً بأربعمائة ألف روبل • وكان هذا المبلغ لأرامل وبييمات ، وكان يتولى وحده - لا أدري لماذا - تصريف شئون هذه الثروة ، فلم ' يسأل أن يؤدي أى حساب خلال ثماني سنين • اننى لأتصور كيف تستطيل وجوه أولئك الذين يدركون الآن حقيقة الرجل الذين وتقوا به • أليس صاحب خيال ترى ؟ كنت منذ سنة أدهش وأتساءل كيف يتاح لهذا الشيخ الذى يبلغ من العمر سبعمين عاماً ، ويعانى من داء النقرس فى القدمين واليدين ، أن يملك من القوة ما يؤهله للاسترسال فى الدعارة والفسق ••• فهل عرفتم الآن السر ؟ تلكم الأرامل والبييمات • كان ذلك الحيسال وحده يكفيه لشحذ قوته وانعاش حماسه ! ••• علمت بذلك منذ مدة ، فما ان علمته - والآسفة سارباتيه هي التى أعلمتني به - حتى هرعت اليه وأسدبت له نصيحة صديق لصديقه ، قلت له : « تدفع خمسة وعشرين ألف روبل فى الحال ، والا تؤدى حساباً فى النقد • ولكن لم يكن معه الا ثلاثة عشر ألف روبل • فلعل الموت قد وافاه اذن فى الوقت المناسب • هل تسمع ، يا جدد ، يا جدد ؟

- عزيزى كليلناقش ، أنا موافق على رأيك كل الموافقة ، ولم تكن بك حاجة الى الدخول فى هذه التفاصيل • ان الحياة زاخرة بالآلام وتمزقات كثيرة ، وليس فيها الا قليل من التسليات ••• كنت أود لو أهدأ فى النهاية ، وانى لأمل ، فيما أرى ، أن أستمد من هذا المكان كل •••

- أراهن أنه شمّ وجود كاتيش بيروستوفا !

- وجود من ؟ كاتيش ماذا ؟

كذلك هتف الشيخ سائلاً بصوت يرعشه الهوى •

- آ ••• آ ••• كاتيش ماذا ؟ انها هنا ، على مسافة خمس خطوات

منى الى اليسار ، وعلى مسافة عشر خطوات منك • هى هنا منذ أربعة أيام •
وليتك تعلم ، يا جد ، أية شيطانة صغيرة هى ! انها من أسرة كريمة ،
حسنة التهذيب ••• هى على الجملة شيطانة ، شيطانة الى أقصى حد !
لم أتج لأحد هناك أن يراها • أنا وحدى أعرفها • كاتيش ، أجيبينى !
فأجاب صوت صارخ رنان فيه شىء حاد كأنه ابرة ، هو صوت فتاة
صغيرة :

– هى ، هى ، هى !

تمتم الشيخ يسأل بصوت لاهت :

– هل هى شقة ••• را ••• ؟

– هى ، هى ، هى !

وتمتم الشيخ يقول أيضاً مخثق الأنفاس :

– أحلم منذ مدة طويلة بشقراء صغيرة ••• فى الخامسة عشرة من

عمرها ••• وفى هذا الاطار بعينه •••

صاحت آفدوتيا اجنافتنا تقول :

– يا للشذوذ !

قال كليناقتش بصوت حازم :

– يكفى هذا • أرى أن جملة الأمر حسنة • سندبر شئوننا هنا

على أحسن وجه ، وبخير ابطاء • فانما الشىء الأساسى أن نقضى بقية الوقت

فى متعة ومسرة • ولكن كم بقى لنا من وقت ؟ قل أنت يا ليزياتنيكوف ،

مادام هذا اسمك فيما سمعت •••

– اسمى ليزياتنيكوف ، سيميون افزئتس ليزياتنيكوف ، موظف فى

الدرجة السابعة ، سعيد جداً بأن أنفذ أوامرك •••

- لا يهمنى أن تكون سعيداً أو ألا تكون ، ولكن يبدو أنك هنا الشخص الوحيد الذى يعرف كل شيء . قل لى أولاً (كنت لا أزال دهشاً من الأمر منذ أمس) : كيف يمكن أن تتكلم ونحن فى هذا المكان ؟ ذلك أننا أموات ، ومع ذلك نتكلم ، ويبدو كأننا نتحرك ، لكننا لا نتكلم ولا نتحرك ، فما هذه المهزلة ؟

- هذا أمر ، اذا شئت يا بارون ، يستطيع أن يشرحه لك أفلاطون يقولايفتش خيراً منى .

- من أفلاطون يقولايفتش هذا ؟ لنتقل الى الوقائع ، بنير بهرج ولا زخرف !

- أفلاطون يقولايفتش هو فيلسوفنا الرسمى ، يؤمن بالمذهب الطبيعى ، أستاذ كبير . نشر عدة كتب فلسفية ، ولكنه نائم منذ ثلاثة أشهر ، فلا سبيل الى هزّه . ينطق مرة واحدة فى الأسبوع بوضع كلمات لا تمت الى الأمر بصلة من الصلات .

- الى الوقائع ! الى الوقائع !

- هو يشرح ذلك بأننا ، فوق الأرض ، حين كنا أحياء ، كنا نرتكب خطأ ، فنظن الموت ، تحت الأرض ، موتاً ، والحقيقة خلاف ذلك . فالجسم هنا يحيا مرة أخرى ان صح التعبير ، لأن تنفأ من الحياة تتجمع وترتكز ، ولكنها تتجمع وترتكز فى الشعور فحسب . لا أدرى كيف أعبر لك . فل ان شئت ان الحياة تستمر هنا بحكم ما يشبه أن يكون قانون العطالة . وفى رأى فيلسوفنا أن كل شيء متجمع ومترتكز فى الشعور ، وهو يظل على هذه الحال شهرين أو ثلاثة أشهر . . . وربما ستة أشهر فى بعض الأحيان . على سبيل المثال ، هنا شخص كاد يتحلل جسمه تحللاً كاملاً ، ومع ذلك نسمعه ، فى كل ستة أسابيع ، يدمدم فجأة بكلمة ، كلمة واحدة

صغيرة ، لا معنى لها طبعاً « بوبوك ، بوبوك ، بوبوك » ، هذا دليل على أنه لا يزال فيه قيس خفى من حياة .

– سخف ! غباء ! ولكن قل لى : كيف أشم رائحة التبن وقد فقدت

حاسة الشم ؟

– مرد ذلك ... هىء هىء ... هنا يسبح فيلسوفنا فى ضباب كيف . فيما يتعلق بالشم خاصة ، يرى فيلسوفنا أن التبن الذى تشمه هنا تبن روحى بمعنى من المعانى ... هىء هىء ! ... تبن يصدر عن الروح ، من أجل أن يتسع وقت المرء ، خلال هذين الشهرين أو هذه الأشهر الثلاثة ، أن يثوب الى نفسه ... وفى رأى فيلسوفنا أن هذه آخر نعمة . ولكننى أرى مع ذلك يا بارون أن هذا الكلام هذيان صوفى غيبى يجب أن نغفره لمن كان فى مثل وضعه ...

– كفى .. الباقى معروف .. سخافات ! .. ان الشيء الثابت المحقق أن الحياة ستستمر شهرين أو ثلاثة ، ثم « بوبوك » . اقترح عليكم جميعاً أن تقضوا هذين الشهرين على نحو ممتع ما أمكن ذلك ، وأن تتنظموا من أجل هذا على أسس جديدة . سيداتى سادتى ! اقترح عليكم أن تتخلوا منذ الآن عن كل حياء أو حشمة .

فرددت أصوات تقول مؤيدة :

– نعم ، نعم ، يجب أن تتخلى عن كل حياء أو حشمة !

والغريب أن أصواتاً جديدة قد اشتركت فى ترديد هذا الكلام ، فهى أصوات أشخاص أفاقوا اذن فى تلك اللحظة نفسها .

وهنت أفدوتيا اجناتفنا تقول بحماسة :

– آه ... لشدما أحب أن أتخلص من الحفر !

– هل تسمعون ؟ ... ان آفدوتيا اجناتنا نفسها تريد أن تتخلص من الحفر !

– لا يا كليانفتش ، لا ، لا ، لقد كنت استحي هناك ، فى الماضى ، أما هنا فان رغبة رهيبه فى التخلص من هذا الحياء تضطرم فى نفسى وتلظى •

قال المهندس :

– أفهم من كلامك أنك تقترح أن ننظم لأنفسنا هنا حياة قائمة على أسس جديدة ، أسس عقلية فى هذه المرة •

– لا يهمنى هذا ! بالناسبه ، يجب أن تنتظر كوداياروف الذى جىء به أسس • فمتى صحا شرح لكم كل شىء • وفى الغد سيحيوتنا بعالم من علماء الطبيعة ، وربما جاءونا بضابط ، واذا لم يخطىء تقديرى فسوف يحيوتنا بكتاب ينشر مقالات فى احدى الجرائد وسوف يحيوتنا معه بمدير الجريدة فيما أعتقد • على كل حال ، لا يهمنى أسر هؤلاء جميعاً ، فليأخذهم الشيطان ، وحسبنا أن نكون جماعتنا ، فينتظم كل شىء من تلقاء نفسه بيننا • ولكننى أطالب قبل كل شىء بأن لا تكذب • على الأرض تستحيل الحياة بدون كذب ، فالحياة والكذب مترادفان : أما هنا فلن تكذب ، وذلك من أجل أن نضحك قليلاً • لا أقل من أن ينفعنا القبر فى شىء ! سوف يقص كل منا قصة حياته جهاراً بدون أقل تحفظ ! وسأكون أنا أول من يروى قصة حياته • اننى كما تعلمون من صنف الضوارى • فوق الأرض ، كان كل شىء تحركه أسلاك عفنة • أف من الأسلاك • لنقض هذين الشهرين فى رحاب الحقيقة المكشوفة بغير حياء ولا خجل ! لنخلع الأقمعة ، ولنظهر عراة عرياً تاماً •

صاح الجميع يقولون بصوت واحد :

– عرياً تاماً ، عرياً تاماً !

- آه ... لشدما أحب أن أتعري تماماً !

كذلك قالت آفدوتيا اجناتقنا بصوت مزمرجر *

- آ ... أرى أن الجو سيكون مرحاً هنا * فلا أريد أن أذهب الى
الدكتور ايك !

- أما أنا فأريد أن أحيأ أيضاً ، أود لو أعيش مدةً أطول *

وضحكت كاتيش ساخرة :

- هيء هيء هيء !

- الشيء الأساسي هو أن أحداً لا يستطيع أن يمننا من أن نفعل
ما عقدنا الزم عليه ؛ ان برفويادوف ، رغم أنه غاضب فيما أرى ، لن
يستطيع أن يبلغنى * هل أنت موافق يا جد ؟

- كل الموافقة ، وبأعظم سرور ، ولكن على شرط أن تكون كاتيش
هي البادئة بقص قصة حياتها *

قال الجنرال برفويادوف :

- أحتج ! أحتج أشد الاحتجاج *

فأسرع ذلك الوغد لبزياتنيكوف يحاول اقناع الجنرال متعجلاً متعجلاً
محموماً ، فقال له همساً وهو يخفض صوته :

- صاحب المعالي ، سيكون في هذا نفع كبير لنا اذا نحن وافقنا *
هناك هذه الفتاة الصغيرة كما تعلم ... ثم هناك تلك القصص الصغيرة
كلها ...

- لنسلم بأن هناك الفتاة الصغيرة ... ولكن ...

- سيكون لنا نفع كبير ، يا صاحب المعالي ، نفع كبير ، أؤكد
لك ! ... فليبدأوا على الأقل ، من باب التجربة ...

- حتى فى القبر لا أترك مرتاحاً ...

قال كلينافتش :

- يا جنرال ، أنت أولاً تلعب هنا بالورق ، ثم اننا لا يهمنا أمرك ،
ولا نكثر بك *

- أيها السيد العزيز ، أرجوك على الأقل ألا تنسى نفسك فتقول
ما ليس ينبغى أن يقال ...

- هه ؟ ماذا ؟ انك لن تستطيع أن تالتى على كل حال ... ففى
وسعى أن أغيظك ما شاء لى هواى أن أغيظك • ثم ماذا يجديه هنا أن
يكون له لقب جنرال ؟ هناك كان جنرالاً أما هنا فليس الا جيفة !

- لا ، لست جيفة ... أنا هنا ...

- أنت هنا تفسخ فى تابوتك ، ولن يبقى منك الا ستة أزرار
نحاسية *

أعولت الأصوات تصبح :

- مرحى كلينافتش ! ها ها ها ! ...

- لقد خدمت قيصرى ... ولى سيف ...

- سيفك لا ينفع الا فى تسفيد فئران ، ثم انك لم تستله فى يوم
من الأيام •

- لا قيمة لهذا ، فلقد كنت جزءاً من كل •

- كثيرون هنا كانوا جزءاً من كل •

- مرحى كلينافتش ، مرحى ! ها ها ها ! ...

قال المهندس :

قلت لنفسي : « هيا يا أصدقائي ، سأجىء أזורكم مرة أخرى » ،
وغادرت المقبرة •

لا ، لا أستطيع أن أسلم بهذا في الواقع ، لا أستطيع أن أقبله !
ان بوبوك لا يخيفني ولا يبت الاضطراب والقلق في نفسي (ذلك اذن
ما كان يريد أن يصل اليه « بوبوك ») •

دعارة في مثل هذا المكان ! دعارة يسترسل فيها من 'تعقد عليهم أقصى
الآمال ! دعارة تقوم بها جث متحللة متفسخة تنه ! دعارة لا تعف حتى
في أواخر لحظات الشعور والضمير ! لقد أتاحت لهم ، أتاحت لهم تلك
اللحظات الأخيرة ، و ... و ... لكن كيف يفعلون هذا في مثل هذا
المكان خاصة ؟ لا ، لا ، اننى لا أستطيع أن أقبل ذلك وأن أسلم به ...

وطفت على الصفوف الأخرى ، وأصغيت الى جهة من الجهات ،
ذلك أنه كان يجب على أن أصغى الى كل جهة من الجهات ، لا الى جهة
واحدة ، حتى أستطيع أن أقطع برأى وأن أفضى بحكم • أترانى ألقى
في آخر المطاف ما يبعث على عزاء ؟

لكننى سأعود حتماً الى هؤلاء • لقد تعاهدوا على أن يرووا قصص
حياتهم ونوادير شتى • أف • لكننى سأعود ، سأعود حتماً ، فتللك أزمة
ضمير •

وسأحمل مقالتي الى جريدة « المواطن » • لقد نشرت فيها صورة
محرر • فمن الجائز أن ينشروا لى أنا أيضاً •

الطفل عند شروع
في عيد الميلاد
١٨٧٦

« الطفل عند المسيح في عيد الميلاد » ، ظهرت أول مرة
في كراسة كانون الثاني (يناير) ١٨٧٦ من «يوميات
كاتب» (المجلد الثاني ، ٢) .

••• أحلم دائماً أن هذا حدث بمكان ما ، فى زمن غير محدد ،
عشية عيد الميلاد تماماً ، فى مدينة كبيرة من المدن ، أثناء جو جليدى فظيع .
أحلم أن طفلاً لا يزال صغيراً جداً ، طفلاً عمره ست سنين ،
وربما أقل من ذلك ، قد استيقظ ذات صباح فى قبوٍ ينضح رطوبة . انه
يرتدى نوعاً من قميص أو مئزر ، ويرتجف من شدة البرد ، وأنفاسه
تنتشر بخاراً أبيض ، وقد تبع هو فى ركن جالساً على صندوق ، وأخذ
يرسل هذ البخار عامداً يخادع به ضجره ، ويتسلى عن سأمه بالنظر اليه
كيف يطير . ولكنه جائع يتمنى لو يصيب شيئاً من طعام . لقد دنا فى هذا
اليوم عدة مرات من السرير الحقيق الذى ترقد عليه أمه المريضة فوق
فراش من قش ، متوسدة صرّة . ما الذى جاء بها الى هذا المكان ؟ أغلب
الظن أنها وافدة من مدينة أخرى مع ابنها الصغير ، وأنها قد وافاها المرض
بغته . وقد افتادت الشرطة أمس صاحبة القبو التى تؤجر غرفه ، وجلا
السكان عن جميع أركان القبو متفرقين هنا وهناك ، فاليوم عيد ، ولم يبق
فى القبو الا لئام خرقٍ أخذ السكر منه كل مأخذ ، لأنه ظل يشرب منذ
أربع وعشرين ساعة غير منتظر أن يحلّ يوم العيد .

وفى الطرف الآخر من الغرفة تنّ عجوز صغيرة أقعدتها مرض
الروماتزم ، ولا بد أن عمرها ثمانون سنة . لقد كانت فى أزمة غير هذه
الأزمة وأمكنته غير هذه الأمكنته « مريسة أطفال » ، ولكنها تموت الآن
وحيدة ، تنّ وتنهد وتنهر الصبى الصغير . لذلك يخاف الصبى الآن أن
يدنو كثيراً من ذلك الركن .

ولقد استطاع أن يجد فى الدهليز ما يشربه ، ولكنه لم يتمكن من
الثور على أية كسرة خبز يأكلها ؟ وهذه هى المرة العاشرة ، على الأقل ،
التي يقترب فيها من أمه ليوقظها . وقد اعتراه أخيراً شيء من الحوف فى هذا
الظلام . لقد هبط الليل منذ مدة طويلة . ولكن لم يشعل أحد ضوءاً

حتى الآن . . . وحين جسَّ الصبى وجه أمه أدهشه أن الوجه ظل ساكناً لا يتحرك ، وأنه بارد كبرودة الجدار . قال يحدث نفسه : « البرد شديد حقاً هنا ، وارتاحت يده على كتف المريضة من تلقاء نفسها ، ثم أخذ ينفخ على أصابعه ليدفئها . ثم اذا هو ينبش السرير فجأة ليثر على كسكيتته ، ويخرج من القبو متلمساً طريقه فى الظلمة الحالكة بغير ضجة . ولقد كان يمكن أن ينصرف قبل ذلك بمدة طويلة لولا خوفه من أن يلتقى فى أعلى السلم بكلب ضخم ظل ينبح أمام باب المنزل المجاور طوال اليوم . ولكن الكلب كان قد بارح مكانه ، ورأى الصبى نفسه فى الشارع فجأة .

رباه ! يا لها من مدينة ! انه لم يشهد فى حياته شيئاً كالذى يشهده الآن . هناك ، فى البلد الذى جاء منه ، يكون الظلام شديداً فى الليل ، فالشارع لا يبره الا مصباح واحد . والمنازل الحنسية الصغيرة مختفية وراء مصاريعها . ومتى هبط الليل لا يرى أحد فى الشوارع . فالناس جميعاً يأوون الى بيوتهم . ولا يبقى فى الشوارع الا كلاب ، مئات من الكلاب ، ألوف من الكلاب ، أسراب كبيرة من الكلاب تظل تعوى وتببح طوال الليل . ولكن الجو دافىء جداً هناك ، وهناك كان يعطى طعاماً يأكله . . . أما هنا . . . يارب ! ليته يستطيع أن يأكل فقط . . . ثم ما أشد الجلبة والضجة هنا ! وما أسطع الضياء ! ما أكثر الناس ! وما أوفر الخيل والعربات ! . . . وهذا الجليد ! هذا الجليد !

وخرج بخار متجلد من خياشيم الأفراس المسرعة . ورنتت حدوات حوافرها على بلاط الشارع تحت الثلج الهش . وهؤلاء الناس كلهم ما أكثر ما يتصامون ، و . . . رباه . . . ما أشد جوعه . . . ما أشد رغبته فى أن يأكل ولو لقمة من أى شيء . وما أشد الألم الذى يشعر به فى أصابعه فجأة ! ومرّ بقرب الصبى رجل من شرطة المدينة ، فسرعان ما أشاح وجهه عنه متظاهراً بأنه لم يلمحه .

هذا شارع آخر . أوه ! ما أعرضه ! هنا سيُبداس حتماً . ما أكثر

ما يصيح هؤلاء الناس كلهم ، وما أشد ما يسرعون فى سيرهم ! وما أكثر الضياء ! ما أسطع النور ! ثم ما هذا ؟ آ . . . زجاج نافذة واسعة . ووراء الزجاج غرفة ، وفى الغرفة شجرة عالية تبلغ السقف . انها شجرة صنوبر ، شجرة عيد الميلاد . ما أكثر ما تحمل من أنوار ، وأشربة مذهبة ، وتفاحات . وقد أحيطت بلعب صغيرة ، وأفراس صغيرة . وفى الغرفة أولاد يركضون : انهم يرتدون ثياب العيد . ما أنظفهم ! وهم يضحكون . هذه بنت أخذت تراقص صبياً صغيراً . ما ألطفها ! ما أحلاها ! حتى ان موسيقى' تسمع من خلال الزجاج .

ينظر الصبي الصغير ويمجّب ويدهش . ثم هاهو ذا يضحك ، بينا هو يشعر بألم فى أصابع رجليه الصغيرة ، وبينما تحمر أصابع يديه احمراراً شديداً وتأبى أن تنتشى وتوجعه اذا هو حرّكها . عندئذ تذكر الصبي فجأة أن أصابعه تؤلمه ، فأخذ يبكي ، وركض مبتعداً . ولكن ها هو ذا يرى زجاج نافذة أخرى ، ويرى غرفة أخرى فيها شجرة أيضاً . غير أنه يلمح فى هذه المرة موائد ، ويرى على الموائد أصنافاً من الحلوى ، أصنافاً كثيرة من الحلوى : أقراصاً باللوز ، أقراصاً حمراء وأقراصاً صفراء ؛ ويرى أربع سيدات غنيات قد جلسن يوتّزن الحلوى . ويدخل ناس كثير فى أجمل الحلل ، آئين من الشارع .

اقترب الصبي خلسةً ، وفتح الباب ، ودخل فجأة . آه . . . لكم أخذوا يسبونونه شاهرين أيديهم ! وأسرعت سيدة تدنو منه فتدس فى يده قرشاً ثم تفتح له باب الشارع بنفسها . لشدما خاف ! وسرعان ما تدرج القرش على الدرجات فرنّ رنيناً واضحاً . لم يستطع الطفل أن يثنى أصابعه الصغيرة المحمرّة ليقبض على القرش ! وأسرع يركض ماضياً فى سبيله قدماً دون أن يعرف الى أين يذهب . ان به حاجة الى البكاء من جديد ، ولكنه فى هذه المرة خائف . وأخذ يركض وهو ينفخ

على يديه • واستولى عليه قلق وفزع ، اذ أحس فجأة بأنه وحيد جداً •
وفيما كان يشتد رعبه ، اذا هو ••• ما هذا أيضاً يا رب ؟ ••• هؤلاء
جماعة من الناس قد وقفوا مدهوشين • ان وراء زجاج نافذة من النوافذ
ثلاث دمي • ليست الدمى كبيرة • وقد ألبست فساتين حمراء وخضراء •
ولكنها تشبه أن تكون حبة ، تشبه أن تكون حبة تماماً ! هذا شيخ جالس
كأنه يعزف على كمان ، على كمان كبير • وهذان شيخان آخران يعزفان على
كمانين صغيرين ، صغيرين جداً ، ويرتجان رأسيهما الدقيقين على ايقاع
العزف • وتنظر الدمى بعضها الى بعض ، بينما تتحرك شفاهها وتتكلم •••
نعم ••• لكأنها تتكلم حقاً ••• أليست كمن يتكلم فعلاً ؟ ولكن الزجاج
يحبب صوتها فلا يسمع كلامها •

ظن الصبي في أول الأمر أنها أشخاص أحياء • لكنه حين أدرك أنها
دمى انفجر يضحك فجأة • لم يسبق له أن رأى مثل هذه الدمى
في يوم من الأيام ، بل لم يكن يتصور أن في الامكان أن توجد أمثال
هذه الدمى • صحيح أنه كانت به حاجة الى البكاء • ولكن منظر هذه
الدمى يبعث على الضحك ، يبعث على الضحك جداً •

وبدا له بقتة أن أحداً أمسك قفاه • ان صيياً طويلاً شريراً كان
واقفاً الى جانبه ، فاذا به يضربه على رأسه ، ويخطف كسكيتته ، ثم يشبك
ساقه بساقه فيسقطه على الأرض • تدحرج الصبي الصغير • وأخذ الناس
يصيحون • واعتري الصبي رعب شديد ، فقام ووكلى هارباً بخطف عريضة
وهو لا يدري ماذا يفعل ، ودخل بوابة أحد المنازل فصار في فائه ، ووجد
كومة من خشب فأقمى وراءها وهو يقول لنفسه : « هنا ••• على الأقل •••
لن يكتشفوا مخبئي •• فالظلام في هذا المخبأ شديد • »

أقمى وطوى بعض جسمه على بعضه وهو لا يستطيع أن يتنفس من
شدة خوفه • ولكنه لم يلبث أن شعر براحة على حين فجأة • نعم على
حين فجأة • أصبحت يدها وقدماه لا توجعه ، وأحس بدفء ، بدفء

شديد ، كأنه قريب من مدفأة • وارتمش بفتة • آه ••• لقد حرم من النوم مدة طويلة • ما أحلى أن ينام هنا !

قال الصبي الصغير يحدث نفسه : « سوف أمكث هنا لحظة ، ثم أمضى أرى الدمى مرةً أخرى » ، وابتسم حين تصوّرها من جديد • لكأنها كانت حية !

وبدا له فجأة أنه يسمع صوت أمه تغنى له أغنية صغيرة وهي مائلة عليه •

- ماما ! انى أنام ! آه ••• ما أحلى النوم هنا !

وفجأة سمع الصبي صوتاً رقيقاً يقول له فوقه :

- تعال انظر الى شجرة عيد الميلاد عندي يا بنى •

فتصوّر الصبي في أول الأمر أن أمه هي التي تكلمه ، ولكن لا •• ما هي أمه • فمن ذا الذي ناداه اذن ذلك النداء ؟ لم يبصر الصبي شيئاً ، لكن أحداً قد مال عليه مع ذلك ، وضمّه بذراعيه في الظلام • وقد مدّ هو ذراعيه •• وها هو ذا يرى نفسه فجأة في مكان آخر ••• يا للضياء الساطع ! أوه ••• ما أروعها شجرة من أشجار عيد الميلاد ! لكنها ليست شجرة صنوبر • ومع ذلك لم ير في حياته شجرات كهذه الشجرة • أين هو الآن ؟ كل شيء يشع ، كل شيء يتلألأ • وما أكثر الدمى الصغيرة التي تحيط به من كل جهة • ولكن لا ! ما هذه دمي ، بل صبية صفار ، وصبايا صغيرات • ولكنهم يشعون ويتألقون • وهم يرقصون من حوله وقد تشابكت أيديهم ، وهم يطرون ، وهم يقبلونه ، وهم يحملونه ويأخذونه معهم فيطير هو أيضاً • واليكم ما يراه عندئذ : يرى أمه تنظر اليه ، وتبتسم له فرحة • فيصيح الصبي الصغير قائلاً لأمه :

- ماما ! ماما ! آه ••• ما أحلى هذا المكان وما أشهاه !

وعاد يقبّل الأطفال ، واشتهى أن يروى لهم قصة الدمى التي رآها وراء زجاج النافذة ، أن يروى لهم هذه القصة بأقصى سرعة •

قال يسألهم وهو يضحك ويلطفهم :

- من أتم أيها الصبية الصغار ؟ من أتن أيتها الصبايا الصغيرات ؟
فأجابوه :

- هذه شجرة عيد الميلاد عند يسوع المسيح • ان المسيح ينصب شجرة فى مثل هذا اليوم من كل سنة للأطفال الصغار الذين لم يكن لهم شجرة على الأرض •••

هكذا علم أن جميع هؤلاء الصبية الصغار والبنات الصغيرات كانوا أطفالاً مثله ، ولكن بعضهم ماتوا من البرد فى سلال تركوا فيها على أبواب قصور سان بطرسبرج ، وبعضهم ماتوا رضعاً فى دار حضانة بفنلندة ، وبعضهم ماتوا على أنداء أمهاتهم الناضبة ابان المجاعة التى عمت بلاد سمارا ، وبعضهم ماتوا مختنقين بالهواء المسموم فى حاقلات الدرجة الثالثة من القطار • ولكنهم كلهم مجتمعون الآن هنا كالملائكة • انهم عند يسوع المسيح • وان يسوع المسيح هو الآن معهم يمد يديه ليباركهم وليبارك أمهاتهم أيضاً ••• ان الأمهات قد اتحنين جانباً ، وأخذن يبكين • وكل واحدة منهن تعرف ابنها الصغير أو ابنتها الصغرى فتطير الى جانبه أو الى جانبها • والأولاد يقبّلون أمهاتهم ، ويمسحون دموعهن ، ويضرعون اليهن ألا يبكين ، لأنهن الآن سعداء •

فى فناء ذلك المنزل ، عثر البوابون فى الصباح على جثة طفل دخل الفناء مسرعاً وتجلّد وراء كومة من خشب • وأمكن العثور على أمه فى النهاية • كانت قد ماتت قبله •

والتقى الاثنان فى السماء عند الرب •

الفصل السابع

١٨٧٦

« الملاح ماراي » ؛ ظهرت اول مرة في كراسه شسهر
شباط (فبراير) ١٨٧٦ « يوميات كاتب » (الفصل
الثالث ، ٣) .

ولكننى أعتقد أن جميع أنواع هذا « الجهر بالرأى » تبعت قراءتها على الملل والضجر . لذلك سوف أكتفى برواية حكاية ، بل ما هى بحكاية أيضاً ، وانما هى ذكرى لا أكثر ، ذكرى تحرقنى الرغبة فى بسطها هنا ، هذه اللحظة ، ختاماً لحديثنا عن الشعب . كنت فى التاسعة من عمري . . . ولكن لا . . . ان من الأفضل أن أبدأ بالعهد الذى كنت أدخل فيه التاسعة والعشرين .

فى يوم الاثنين من عيد الفصح كان الهواء مشبعاً بالرطوبة ، وكانت السماء صافية زرقاء ، وكانت الشمس قوية دافئة ، ولكن نفسى ظلت غارقة فى الظلمات . كنت أطوف وراء التكنات ، أعدت أوتاد السياج الضخم الذى كان سوراً للسجن . ولكن لم تكن بى أية رغبة فى عد الأوتاد ، رغم أن هذا كان لى شاعلاً معتاداً مألوفاً . كان السجناء « فى راحة » بمناسبة اليوم الثانى من العيد . وكان كثير منهم قد سكروا سكرأ شديداً ، ففى كل لحظة من اللحظات 'تبادل شتائم ولكلمات فى جميع الأركان . وكان آخرون يدندنون أغنيات بذيئة ، أو يلعبون بالورق تحت الحواجز . وكان السجناء الذين صرعهم رفاقهم بضربهم على رؤوسهم لفرط ما أخذوا من جلبة ، راقدين على سررهم تغطيم فرواتهم بانتظار أن يفيقوا من غيبوبتهم . وقد لمت نصال السكاكين مراراً حتى الآن . وكان ذلك كله ، خلال هذا اليومين من العيد ، يمتدبنى تعذيباً شديداً الى حد المرض . ثم اننى لم أحتمل فى حياتى أن أرى منظر افراط الشعب فى الشراب والطعام دون أن أشعر من ذلك باشمزاز ، ولا سيما فى هذا المكان . وكانت المراقبة قد قلت أمتاء تلك الأيام . كان المراقبون يحتمنون عن التيشيش بحثاً عن خمرة يكون السجناء قد أخفوها ، لادراكهم أن من الخير أن يرخوا الحبل على غاربه مرة فى السنة حتى لهؤلاء الأشرار ، والا ازداد الأمر سوءاً . وشعرت بالكره والبغض يشتعلان فى قلبى آخر الأمر . لقد صادفت سجيناً سياسياً بولندياً اسمه . . . كى ، فرشقنى بنظرة شزراء ،

ملتصع العينين مرتجف الشفتين ، وقال لى بصوت خافت صارقاً بأسانه :
« اننى أكره هؤلاء اللصوص » ، ثم مضى . رجعت الى الثكنة التى
بارحتها منذ ربع ساعة فى أكثر تقدير ، كالمجنون ، حين رأيت ستة فلاحين
ضخاما يهجمون دفعة واحدة على تترى سكران اسمه جازين ، ليردوه
الى الصواب ، وينهالون عليه بضرب وحشى لو أصاب جملاً لقتله . ولكنهم
كانوا يعلمون أنه يصعب أن يموت هذا الهرقل ، فكانوا يضربونه ضرباً
لا رحمة فيه . فلما عدت الآن الى الثكنة رأيت جازين مسجى على الحاجر
فى ركن بأخر الغرفة وكأنه جثة هامدة لا حياة فيها ، وقد عُطى بفروة ،
ورأيت جميع السجناء يمرون بقربه صامتين . انهم يأملون أن يستيقظ
فى الغد ، ولكنهم يقولون : « من الجائز مع ذلك أن يفطس » . عدت
الى مكائى ، ورقدت على ظهري ، واضعاً يديّ وراء رأسى ، مغمضاً
عينيّ . لقد كنت أحب أن أستلقى هذا الاستلقاء . فلا أحد يضايق من
ينام ، فأستطيع بذلك أن استرسل فى أحلام اليقظة على ما أحب وأهوى .
ولكننى لم أسترسل هذه المرة فى الأحلام ؛ لقد كان قلبى يخفق خفقاناً
قويّاً ، وكنت أشعر بغم شديد ، وكانت لا تفارق سمعى كلمات
... . كى : « اننى أكره هؤلاء اللصوص ! » . ولكن علام وصف
تلك المشاعر التى انتابتنى فى تلك اللحظة . انها ما زالت توافينى فى
الحلم ليلاً ، فلا أعرف أن هناك كوايس أشدّ منها هولاً . لعلمكم لاحظتم
أننى حتى هذا اليوم لم أكد أتكلم عن حياتى فى السجن . أما كتابى
« ذكريات من منزل الأموات » ، فقد نشرته منذ خمسة عشر عاماً على
أنه ذكريات شخص خيالى هو رجل قتل زوجته . وأضيف الى ذلك
أن كثيراً من الناس يعتقدون ويؤكدون حتى الآن أننى 'نفيت الى سيبيريا
لأننى قتل زوجتى .

هبطت نسيئاً فسيئاً الى نوع من الحذر ، وانقدت لسلسلة ذكرياتى .
اننى خلال السنين الأربع التى قضيتها فى السجن ، كنت أتذكر الأيام

الماضية بغير انقطاع ، حتى لكأننى عشت حياتى بهذه الذكريات مرتين •
قلما استحضرت هذه الذكريات عامداً • وانما كان يبدأ التذكر فى
أكثر الأحيان بأمر تافه من الأمور ، وربما بدأ بأمر لم أكن قد انتبهت
اليه ولا تلبثت عليه ، ثم اذا هو يتسع شيئاً فشيئاً فيصبح صورة واضحة ،
أو يندو احساساً قوياً كاملاً • فكنت أحلل تلك الاحساسات ، ثم أضيف
لمسات جديدة الى تلك المادة التى عشتها منذ زمن طويل ، بل كنت
كذلك أصحح فيها ، وأبدل منها بغير انقطاع • وكانت تلك هى لذتى
ومتعتى فى الأمر كله •

ففى تلك المرة تذكرت ، على حين فجأة ، ساعة من طفولتى
الصغيرة لا يقف عليها الادراك ، أيام كنت فى السنة التاسعة من عمري •
كنت أظن أننى قد نسيت تلك الساعة نسياناً تاماً • ولكن كان يسرنى
ويبهجنى ويمتحنى فى ذلك الحين أن أستعيد ذكريات طفولتى الأولى •
تذكرت شهر آب (أغسطس) الذى قضيته فى الريف • كان الجو فى
ذلك الشهر جافاً مضيئاً ، ولكنه كان بارداً بسبب الريح • كان الصيف
يشارف على نهايته • وسوف ينبغى أن أعود الى موسكو قريباً ، فأقضى
شتاءً كاملاً مضجراً فى تعلم اللغة الفرنسية • لذلك أحسست بانقباض
فى صدرى حين تصورت أننى سأغادر الريف • اجتزت اليبدر الذى
تتكسد عنده مساحق القمح • ثم اجتزت وادياً وصعدت صوب حرجة
كثيفة اسمها لوسك تمتد وراء الوادى وتبلغ الغابة • وفيما كنت أوغل
فى الحرجة ، سمعت غير بعيد منى ، على مسافة ثلاثين خطوة من حافة
الحرجة ، فلاحاً يحترق وحيداً • وكنت أعلم أنه يحترق أرضاً وعرة
يلقى الحصان عناء شديداً فى جرّ المحراث عليها ، لأننى كنت أسمع
الفلاح من حين الى حين يصرخ مهيباً بالحصان أن يبذل مزيداً من الجهد :
هوه ! هوه ! وكنت أعرف جميع فلاحينا تقريباً ، ولكننى لم أتبين من
هذا الذى يحترق الآن • وكان لا يهمنى أن أعرف ذلك على كل حال ،
لأن العمل الذى كنت عاكفاً عليه كان يشغلى عن سائر ما عداه • لقد

كنت مشغولاً أنا أيضاً : كنت أقطع لنفسى قضباناً من شجر البندق لأجلد بها الضفادع • ان قضبان شجر البندق جميلة جداً ، وهى أصلب وأمتن من قضبان شجر السنذر • وكانت الخنافس والجعلان تشد انتباهى أيضاً ، لأننى كنت مولماً بجمعها لكثرة أنواعها وألوانها • وكنت الى ذلك أحب الجراذين الصغيرة النشطة التى تضرب سمرتها الى حمرة وتزينها ببع صغيرة سود • ولكننى كنت أخاف الثعابين • وكان ما ألقاه من ثعابين أقل كثيراً مما ألقاه من جرادين على كل حال • ولا تقع عين المرء على كثير من الفطر هناك • فمن أجل أن تجنى فطراً يجب عليك أن تمضى الى جهة أشجار السنذر • ولقد كنت أتهيأ للذهاب الى تلك الجهة • ما أحبيت فى حياتى شيئاً كما أحبيت الغابة بأنواع فطورها ونمارها البرية وحشراتهما وطيورها ، وقنافذها وسناجبها ، والرائحة الرطبة التى تفوح من أوراق أشجارها الساقطة المتعفنة • اننى وأنا أكتب هذه الأسطر الآن أسمُ كل شئى غابتنا هناك فى القرية • ان هذه الاحساسات ستبقى حية ما حيت •

فى وسط ذلك الصمت الشامل سممت على حين فجأة هذا النداء واضحاً كل الموضوع : « الذئب ! » • فاذا أنا أصرخ وقد 'جنتت رعباً ، وأهرول متجهاً الى حافة الغابة ، وأمضى 'قُدماً الى الفلاح الذى كان يحرث •

انه فلاحنا ماراى • لا أدرى هل يسمى أحد بهذا الاسم • ولكن جميع الناس كانوا يدعونيه ماراى • هو فلاح فى نحو الخمسين من عمره ، قوى البنية فارح الطول له لحية حمراء كثيفة وخطها الشيب • كنت أعرفه ، وان لم أكن قد كلمته تقريباً حتى ذلك اليوم • كان حين سمع صراخى قد أوقف حصانه • فلما وصلت اليه فتشبت باحدى يدي بالمحراث ، وأمسكت بيدي الأخرى كمنه ، أدرك مدى ما أنا فيه من

ذعر • وصحت أقول له لاهثاً :

- ذئب !

فرقع رأسه ونظر فيما حوله على غير ارادة منه ، وخيّل اليه خلال لحظة أنني أوشك أن أكون ...

قال يسألني :

- أين الذئب ؟

فتمتنت أجيبه :

- صاح أحد ... صاح أحد قائلاً : « الذئب ! » •

فدمدم يقول ليطمثني :

- هيّا هيّا ! لا ذئب هنا • لقد خيل لك • ما مجيء الذئب

الى هذا المكان ؟

ولكنني ظلمت أرتعد ارتعاداً شديداً ، وتمسكت بقميصه مزيداً من التمسك • وأظن أن شعوبي كان شديداً جداً • نظر الى ماراي وهو يتسم ابتسامة قلقة • كان خائفاً على • وكان واضحاً أنه قلق أشد القلق من الحالة التي كنت فيها •

قال وهو يهز رأسه :

- ما أشد ما انتابك من خوف ! هيّا • كفى يا صغيرى ! لا ، لا ،

انك جسور حقاً •

ومدّ يده يلاطف خدى فجأة • وكرر قوله :

- هيّا ! كفى ! كان يسوع المسيح معك • ارسم اشارة الصليب •

لكنني لم أرسم اشارة الصليب • كانت شفثاي متقلصتين في طرفيهما • وأظن أن هذا هو ما شدهه أكثر من أى شيء سواه • فقرب اصبعه الضخمة ذات الظفر الأسود ، المتسخة بالتراب ، ومسّ شفثي

المتشنجتين مساً رقيقاً هادئاً • وقال لى وهو يتسسم ابتسامه طويلة تشبه
أن تكون ابتسامه أم لابنها :

– ما بالك ؟ ما هذا ؟ ماذا جرى لك ؟ هأت ذاً ترى أن ليس ههنا
ذئب ! آه ••• آه •••

أدركت أخيراً أن ليس ثمة ذئب ، وأن الصرخه التى سمعتها تنادى
« الذئب ! » ، انما كانت وهماً • وكانت الصرخه قد دوت مع ذلك واضحه
أشد الوضوح • غير أن هذه الصرخات (التى لا تتصل بالذئاب وحدها)
قد سبق أن سمعت مثلها مرة أو مرتين ، فكنت أعلم أنها نوع من أوهام
الحواس (وقد زالت عنى هذه الظاهره بعد ذلك حين كبرت) •
قلت وأنا ألقى عليه نظره استفهام خجلى :

– أنا ذاهب •

فأجابنى وهو لا يزال يتسسم تلك الابتسامه التى تشبه أن تكون
ابتسامه أم لابنها :

– هياً ، اذهب ، سأتابعك بنظرى • لن أدع للذئب أن يهاجمك •
كان يسوع المسيح معك • اذهب •
ورسم علىّ اشارة الصليب ، ثم رسمها على نفسه •

وانصرفت فكنت ألقى نظره الى الخلف كلما سرت عشر خطوات •
وفيمما كنت آبتعد بقى ماراى واقفاً هو وحصانه ، متجهاً ببصره الى ناحيتى ،
يهزّ لى رأسه كلما التفت نحوه • يجب أن أعترف أنى كنت أشعر
بخجل من اظهارى ذلك الرعب كله ، ولكن هذا لا ينفى اننى ظللت
خائفاً خوفاً شديداً من الذئب الى أن صعدت الجانب الآخر من الوادى ،
وصرت قريباً من أول بيدر • وهناك زال خوفى ولم يبق منه أى أثر ؛
ورأيت كلبى لوييو يندفع الىّ فجأة • فأحسست من حضور لوييو بطمأنينه
كامله وثقه تامه • والتفت نحو ماراى مرة أخيره ، فلم أستطع عندئذ أن

أميز وجهه ، ولكننى أحسست أنه لا يزال الى تلك النظرة الرقيقة نفسها ، وأنه يهزُّ لى رأسه مشجعاً • ولوحت له يدي ، فأرأيت يده ترتفع فى الهواء ملوِّحة لى ، ورأيتَه يستأنف عمله فى حرث الأرض • وسمعتَه من بعيد يصيح مستحثاً حصانه :

— هوه ! هوه !

ورأيت الحصان يجرُّ العربة على الأرض الوعرة فى غير قليل من

• العناء

ذلك كله عاد الى ذاكرتى ، لا أدرى لماذا ، ولكنه عاد بأدق التفاصيل وأوضح الصور • ورأيتنى أفتح عينيَّ فجأةً وأجلس على الحاجز • فألاحظ ان الابتسامة الهادئة الوداعة التى أبتتها هذه الذكريات على شفتى لا تزال مرتسمة عليهما • ولبت دقيقة كاملة أستعرض صور تلك الذكريات •

بعد أن تركت ماراى ورجعت الى الدار لم أحدث أحدًا بشيء عن « المغامرة » التى وقعت لى • وهل كانت تلك مغامرة حقاً ؟ ثم لم ألبث أن نسيت ماراى • وحين لقيته بعد ذلك فى مناسبات نادرة ، كنت لا أذكره بحكاية الذئب ، بل كنت لا أخاطبه بشيء البتة ، ثم هأنذا بعد انقضاء عشرين سنة على ذلك اللقاء ، أتذكره وأنا فى سبيل بادق التفاصيل واطرح الصور • فلا بد أن ذلك اللقاء قد نُقش فى نفسى من تلقاء نفسه دون أن أدرك أنا ذلك ، ودون أن أريده ، ثم اذا هو تستيقظ ذكراه فى خيالى حين احتجت اليها • تذكرت الابتسامة الرقيقة الحنون يغمرنى بحنانها الفلاح المسكين الذى كان قنًا من أفناننا • وتذكرت اشارات الصليب التى رسمها فى ورع وتقوى ، وتذكرت كيف كان يهزُّ لى رأسه مشجعاً ، وتذكرت ما قاله لى : « ما أشد الخوف الذى اتتاك يا صغيرى ! » • وتذكرت خاصةً تلك الاصبع الضخمة المتسخة بالتراب التى لامس بها طرف فمى ملامسة رقيقة تكاد تشتمل على خجل • صحيح أن أى انسان ما كان ليفوته

أن يطمئن طفلاً • ولكن ذلك اللقاء في الحلاء قد اكتسى في نظري معنى خاصاً • لا أظن أنه كان سينظر الى نظرة تعبر عن حب يبلغ هذا المبلغ كله من النقاء ، لو أنني كنت ابنه وفلذة كبده ؟ ما الذي أجبره على هذا الحب كله ؟ لقد كان قنأ لنا ، وكنت أنا ابن مولاه • لا أحد كان سيعلم بأنه لاطفى ولامس خدى ، ولا أحد كان سيكافئه على ذلك أبداً • فهل كان اذن يحب الأطفال الصغار هذا الحب كله ؟ ان لبعض الناس طبيعة كهذه • لقد حدث اللقاء في مكان منزل ، في البرية ؛ والله وحده رأى من علياء سمائه ما يزخر به قلب فلاح روسى بسيط جاهل متوحش لا يزال مستعبداً للأرض ولا يزال لا يلمح في الأفق فجر تحرره ، ما يزخر به قلبه من عاطفة انسانية عميقة متألفة ومن حنان يشبه أن يكون حنان امرأة •

قولوا لي : أليس هذا ما كان يعنيه كونستانتان آكسكوف حين تحدث عن التربية الرفيعة في شعبنا ؟

وأحسست فجأة ، وأنا أغادر سريري الحقيق وألقى نظرة على ما حولي ، أن في وسمى بعد الآن أن أرى هؤلاء الأشياء رؤية جديدة كل الجدة ، ثم اذا بكل كره وكل غضب يزايلان نفسي ويمحيان منها بغتة بما يشبه السحر • ورحت أتفرس في نظرات رفاق السجن • فأسأل نفسي : هذا الفلاح المخلوق شعر رأسه ، الساقط خلقه ، الممتلئ وجهه بالندبات ، الذي كان في سكره يعول بأغان بذیثة ، ألا يمكن أن يكون ماراي ثانياً ؟ أين لي أن أعرف في الواقع ما بنفسه ؟ أعود فأقول اننى في ذلك المساء صادفت البولندى ••••• كى ! مسكين هذا الرجل ! انه لم يتذكر فلاحاً اسمه ماراي ، فكان كل ما يستطيع أن يقوله عن هؤلاء الناس : « اننى أكره هؤلاء اللصوص ! » • نعم ، لا بد أن البولنديين يقاسون أكثر مما تقاسى •

عجوز تجاوز عمرها مائة سنة

١٨٧٦

« في السنة المائة والرابعة من العمر » ، نشرت أول مرة
في عدد شهر آذار (مارس) ١٨٧٦ من « يوميات كاتب »
(الفصل الأول ، ٢) •

حدثتني سيده فقالت :

« خرجت من منزلي في نحو الظهر • كان عليّ أن أنجز أعمالاً كثيرة ، وكنت متأخرة تأخراً كبيراً • فاذا أنا ألقى علي باب أحد المنازل امرأة عجوزاً ، طاعنةً في السن كثيراً ، هرمةً هرماً شديداً ، متوكئة على عصا • يستحيل علي المرء أن يحزر ما سئنها • كانت جالسةً بقرب بوابة فناء المنزل ، على الدكة التي يجلس عليها البواب • كانت تستريح من عناء السير • وكنت أنا ذاهبة إلى منزل آخر يبعد عن ذلك المكان بضعة خطوات • ودخلت المنزل الذي كنت ذاهبة إليه ، فلمّا خرجت منه رأيت العجوز جالسةً الآن على دكة بواب هذا المنزل الآخر • ونظرت إليّ ، فابتسمت لها ، ودخلتُ متجراً كان عليّ أن أشتري منه حذاءين لابنتي صونيا • وبعد أربع دقائق أو خمس رأيت العجوز مرةً أخرى في شارع نفسكي ، جالسةً هذه المرة لا على دكة ، اذ لا دكة هناك ، بل على حجر بقرب الباب • فرأيتني أقف أمامها رغم ارادتي ، فائلةً لنفسي : « لماذا تجلس هذا الجلوس أمام جميع المنازل ؟ » •

وسألتها :

— أنت متعبة يا جدة ؟

— نعم يا ابنتي ، متعبة ، متعبة دائماً • قلت لنفسي : « الجو دافئ » ، والشمس ساطعة ، فسأمضي أتفدى عند أحفادي » •

– أنت ذاهبة للغداء اذن يا جدة ؟

– للغداء يا ابنتي ، للغداء •

– ولكنك لن تقطعي بهذا السير مسافة طويلة !

– بلى ! استريح ، ثم انهض ، فأمشى بضع خطوات ، ثم استريح مرة أخرى ، وهكذا دواليك •

نظرت اليها • بدا لي أمرها عجيباً • انها عجوز قصيرة ، نظيفة المظهر ، بالية الثياب • لملها من البورجوازية الصغيرة • وجهها ذابل ، أصفر ، معروق ؟ شفتاها باهتان ، لا لون لهما • تشبه أن تكون مومياء • ولكن هذه المومياء تبسم ، والشمس تسطع لها كما تسطع لسائر الأحياء • قلت لها مبتسمة :

– لا بد أنك مسنة جداً يا جدة !

– مائة وأربع سنين يا ابنتي ، مائة وأربع سنين ، لا أكثر • وأنت ، الى أين 'تراك ذاهبة ؟

ألقت عليّ هذا السؤال وهي تنظر الىّ ضاحكةً ، ربما من فرحها بانها تحدث أحداً • ولكنني استغربت من عجوز تجاوزت المائة أن تسأل الى أين أنا ذاهبة ، حتى لكأن الأمر يهمها • قلت وأنا أضحك أيضاً :

– اشتريت لابنتي حذاءين يا جدة ، وأنا الآن عائدة بهما الى الدار •

– ما أصغرهما ! أرايت ما أصغرهما ؟ لا بد أن ابنتك صغيرة جداً • هل لك أولاد أخر ؟

وعادت تضحك وهي تسألني بنظرها • ان عينيها كابتان ، باهتان ، ولكن نوعاً من حرارة داخلية تنعشهما أحياناً •

قلت لها :

- هل تأخذين منى هذه الكوبكات الخمسة يا جدة ؟ سوف تشتريين بها رغبياً صغيراً •

- ماذا ؟ خمسة كوبكات ؟ شكراً • أخذها •

- خذوها بدون أن تستائى يا جدة •

أخذتها • كان واضحاً أنها ليست متسولة • هيات أن تكون متسولة • لقد أخذت الكوبكات الخمسة بكثير من اللباقة والكياسة ، لا كما تؤخذ صدقة ، بل كما تؤخذ هدية يقبلها من ' تهدي إليه لطفاً وطيبة • ولعلها كانت الى ذلك مسرورة مقتبطة : من ذا الذى يكلم العجوز المسكينة يوماً ؟ وهى الآن لا 'تكلم فحسب ، وانما 'يهتم بها ، و'يحدب عليها ، ويشعر أحد نحوها بماطفة مودة •

قلت لها :

- استودعك الله يا جدة • أتمنى لك أن تصلى بصحة جيدة وعافية تامة •

- سأصل يا ابنتى ، سأصل ••• سأصل • واذهبى أنت الى حفيدتك •

كذلك قالت لى العجوز ناسيةً أننى لماً أصبح بعد جدةً ، متخيلةً فى أغلب الظن أن جميع النساء جِّدات •

وانصرفت عنها • فلما التفت لأراها مرة أخرى ، كانت تنهض عن مكانها ببطء ومشقة ، ثم تسير بضع خطوات جائرةً نفسها جراً ، ضاربة بمصاها الصغيرة الأرض • لعلها مستحتاج الى أن تستريح عشر مرات أخرى قبل أن تصل الى مسكن ذويها الذين ستندى عندهم • الى أين عساها ذاهبة ؟ يا لها من عجوز صغيرة غريبة ! •

ذلكم ما روته لى السيدة •

روت لى السيدة هذه القصة فى ذات صباح • والحق أنها ليست قصة بل هى انطباع لا أكثر • وفى ساعة متأخرة من الليل ، بعد أن قرأت مقالة فى احدى المجلات ، وكنت قد نسيت ما روته لى السيدة ، تذكرت تلك المعجوز الهرمة ، فاذا أنا أكمل القصة فى خيالى ، فأرى المرأة التى تبلغ من العمر مائة وأربع سنين ، تصل الى ذويها للنداء ، واذا بما أتخيله يرتمس أمامى لوحة صغيرة تبدو لى مستمدة من الواقع فعلاً •

ان أحفاد المعجوز ، وربما أولاد أحفادها - لكنها تسميهم جميعاً أحفادها - هم صُنَّاع يعيشون أسرةً واحدة فى قبو تحت الأرض ، أو يديرون دكان حلاقة • هم أناس فقراء ولكنهم توصلوا الى أن يعيشوا حياةً لائقة • وصلت المعجوز اليهم فى نحو الساعة الثانية • وكانوا لا يتوقعون مجيئها ، لكنهم استقبلوها مسرورين بقدمها •

- آ ... هانت ذى أيضاً ، ماريا مكسيموفنا ! ادخلى ، ادخلى ، أهلاً وسهلاً بخادمة الرب !

دخلت المعجوز مبتسمة ، بعد أن رنَّ جرس الباب مدةً طويلة بصوت حاد طنان • ان حفيدتها امرأة الحلاق ، لا تزال فى شرح الشباب كزوجها الذى لم يتجاوز الخامسة والثلاثين ، وهو رجل رصين المظهر ، رغم خفة المهنة التى يعمل فيها • انه يرتدى رديجتوتاً يلتمع دسمه كالتماع

الدمسم فى قرص من الحوى ، ربما بسبب ما يستعمله فى مهنته من دهن •
ما عساي أقول ؟ اننى لم أر فى حياتى حلاقاً نظيفاً • وكانت ياقة رديجوتته
كالمنطوسة فى طحين •

وسرعان ماهرع الى جدة أهمهم ثلاثة أظال صغار ، صبي وبتان •
ان العجائز اللواتى بلغن مثل هذا السن يتعاطفن والأطفال : فهن وهم
يتشابهون نفساً ، ويتشابهون فى كل شىء •

جلست العجوز • وكان عند رب البيت ضيف جاء لعمل من
الأعمال • انه فى نحو الأربعين من عمره • وهو بهم الآن ان ينصرف •
وكان عند الحلاق أيضاً ابن أخته : فتى فى السابعة عشرة يعمل فى مطبعة •
رسمت العجوز اشارة الصليب ، ونظرت الى الغريب • قالت :

— آه ••• ما أشد ما أحس به من تعب ! وهذا ، من هذا ؟

فانبرى الغريب يقول مبتهماً :

— هذا أنا ، كيف يا ماريما مكسيموفنا ؟ أصبحت لا تعرفيننى ؟ منذ
سنتين كان علينا أن نذهب الى الغابة معاً لقطاف الفطر •

— آه ••• أعرفك يا عفريت ! اننى أتذكر • ولكننى نسيت اسمك •
آه ••• ما أشد ما أشعر به من اعياء !

قال الغريب مازحاً :

— ماذا يا ماريما مكسيموفنا ، أيتها الجدة المحترمة ؟ ••• أرى
أنك أصبحت لا تكبرين •

فأجابته العجوز وهى تضحك :

— دعك من هذا الكلام ، دعك ! •••

كان سرورها بمزاحه واضحاً •

وأردف الرجل يقول :

- أنا يا ماريما مكسيموفنا رجل طيب •

- يحلو الحديث مع رجل طيب ! آه ... اننى لا أكاد أستطيع
التنفس ! أرى أنكم اشترىتم لسيريوجنكا معطفاً جديداً •

قالت ذلك وهى تومىء الى ابن الأخت •

فابتسم ابن الأخت كاشفاً عن كل أسنانه ، وأقبل على المعجوز • انه
فتى قوى الجسم يفيض نشاطاً وهو يرتدى معطفاً رمادياً جديداً لا يزال
يزهو به ولا يرتديه بغير اكترات : لابد من أسبوع آخر ، فاذا هو يعتاده
فيلبسه بعد ذلك دون أن يحفل به • أما الآن فهو لا يكف عن الاعجاب
بنفسه ، ولا يميل من النظر الى صورته فى المرآة ؛ وكل حركة من
حركاته تدل على أنه يقدر ذاته قدرأ كبيراً •

قالت له زوجة الحلاق مدممة :

- تقدم • استدر !

وأردفت تقول مخاطبةً المعجوز :

- انظرى ما صنعنا له يا مكسيموفنا ! لقد كلّفنا المعطف خمسة
روبلات دفناها كأنها كوبك واحد • قالوا لنا عند بروخوروتش : الرخيص
أغلى ، ذلك أن الرخيص ما تكاد تنقضى ثمانية أيام حتى يهترىء فنأسفوا
على ما دفعتم ثمنأ له • أما هذا ، فلا يبلى ! انظرى الى قماشه ما أجوده !
استدر قليلاً • وما أحسن بطائه ! ما أمتها ! هلاً استدرت ! فانظرى
كيف يذهب المال يا مكسيموفنا • أصبحت جيونا خاوية • لا بأس !

- آه يا عزيزتى • صار كل شىء باهظ الثمن فى هذه الأيام •
جئت الأسعار جنوناً • الأفضل ألا تحدثينى عن هذا بشىء • فان الحديث
عنه يؤلنى كبيراً •

كذلك عقبت مكسيموفنا على كلام زوجة الحلاق ، وكان في كلامها
عاطفة صادقة وتأثر واضح ، وكانت لا تزال تلهث لهاثاً شديداً حتى لكأنها
تختنق •

قال رب الدار :

- دعونا من هذا ! كفى ! آن لنا أن نأكل • أرى انك متعبة جداً
يا ماريا مكسيموفنا !

- اه ••• نعم يا عزيزي الشهم ، متعبة ••• رأيت الجو دافئاً ،
والشمس ساطعةً ••• فقلت لنفسي : « هلمى زوريهم ! علام تبقين راقدة
في السرير ؟ » • آه ••• وفي الطريق صادفت سيدة شابة كانت تشتري
لأولادها أحذية ، فقالت لي : « ما بك يا جدة ! أراك متعبة ! خذي هذه
الكويكات الخمسة ، فنشتري بها رغيماً صغيراً ••• » • فأخذت الكويكات
الخمسة فعلاً •••

قال رب الدار وقد اعتراه قلق واضح :

. - ارتاحى قليلاً يا جدة • ما بالك تلهئين اليوم هذا اللهاك
الشديد ؟

- أخذتها حقاً ••• اشترتوا حلوى للأولاد ••• بالكويكات
الخمسة •••

وتوقفت عن الكلام مرةً أخرى • وحاولت من جديد أن تتفس •
وصمت الجميع خلال خمس ثوان •

وقال رب الدار وهو يميل عليها :

- ماذا يا جدة ؟

ولكن الجدة لم تجب • وخيم الصمت خمس ثوان أخرى • شحج

لون المعجوز ، وانقلبت سحتها أكثر فأكثر ، ثبتت عينها ، وتجمدت
ابسامتها على شفيتها • انها تنظر ، ولكن المرء يحس أنها أصبحت
لا ترى •

انبرى الغريب يقول فجأة :

- يجب استدعاء الكاهن •

فدمدم رب الدار يقول :

- ولكن ... هل ... ألم يفت الأوان ؟

وهتفت امرأة الحلاق تنادى وقد اضطربت اضطراباً شديداً :

- يا جدة ! يا جدة !

ولكن الجدة ظلت جامدة وقد مال رأسها الى جانب • وكانت يدها
اليمنى الموضوعة على المائدة ممسكة بقطعة النقد ، الكوبكات الخمسة ،
وكانت اليد اليسرى لا تزال على كتف ميشا ، ابن حفيدتها ، وهو طفل
فى السادسة من عمره • كان الطفل واقفاً لا يتحرك ، ينظر الى جدة أمه
بميين واسعتين مدهوشتين •

قال رب البيت وهو ينحنى لها ويرسم اشارة الصليب ، قال بصوت

رصين مهيب :

- فارقت •

وعقب الرجل الغريب مذهولاً وهو يطوف ببصره على الحضور :

- أمر عجيب • لاحظت فعلاً أنها كانت ما تنفك تميل ثم تميل •

ودمدمت ربة البيت مضطربة مرتاعة تقول :

- آه ... رباه ! ما العمل يا ماكاريتش ؟ هل يجب أن نحملها

الى هناك ؟

فسألها رب البيت :

– هناك ؟ أين ؟ لا بل سوف نديّر أمرنا هنا ! أليست جدتك ؟
يجب أن نبلغ عن وفاتها •

قال الرجل الغريب وهو يراوح في مكانه وتزداد عاطفته رقةً
وحناناً ، ويشتد احمرار وجهه :

– مائة وأربع سنين !

وعقب رب البيت برصانة وهو يتناول كسكيتته ومعطفه :

– لقد أخذت تنسى الحياة في الآونة الأخيرة !

– منذ لحظة لا أكثر ، كانت لا تزال تضحك ! انظر ! انها لا تزال
قابضة على قطعة الخمسة كوكبات • قالت « اشترى الأولاد حلوى » ،
واحسرتاه على حياتنا !

وقاطعه رب الدار قائلاً :

– هيا بنا يا بطرس ستينانوفتش •

وخرج مع الرجل الغريب •

ليس يُبكي على متوفاة كهذه • مائة وأربع سنين ! « ماتت امنةً
مطمئنةً بغير مرض » •

وأرسلت ربة الدار تدعو جاراتها ليساعدها • فسرعان ما هرعن
اليها وقد أحدث النبا في نفوسهن من المسرة أكثر مما أحدث فيها من
الألم • وطفقن يطلقن من صدورهن آهات وأوهات ! وكان طبيعياً أن
يبدأ بغلي الماء في السماور قبل أن يفعل أى شىء آخر • واختبأ الأطفال
في ركن مدهوشين ، وجملوا ينظرون الى الميتة من بعيد • ان ميشا لن
ينسى – ما ظل حياً – أن المعجوز ماتت وهى واضعة يدها على كتفه ؟ وحين

سيموت لن يكون أحد متذكراً أن الجدة المعجوز عاشت مائة وأربع سنين :
لماذا وكيف ؟ لا أحد يعرف • ولا قيمة لهذا على كل حال • ان ملايين
من الناس يموتون هكذا : يعيشون دون أن يفطن اليهم أحد ويموتون على
هذا النحو أيضاً • ثمة شيء واضح : هو أن الانسان ، حين يموت شخص
يلغ من العمر مائة مسنة أو تزيد ، يشعر بنوع من الحنان والهدوء والوقار
والعزاء • مائة سنة ان هذا الرقم لا يزال يحدث في نفس الانسان أثراً
غريباً عجيباً •

بارك الله حياة وممات الناس الطيبين السطاء !

العزبة

١٨٧٦

« العذبة » نشرت لأول مرة كتراسة كاملة من « يوميات
كاتب » (تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٧٦ الفصل الأول
والثاني

حكاية خيالية

مقدمة المؤلف

أعذر الى قرائي عن أنني لا أقدم اليهم « اليوميات » فى صورتها المعتادة المألوفة هذه المرة ، وانما أقدم اليهم حكاية خيالية + صحيح أن هذه القصة قد شغلت شطراً كبيراً من الشهر ، ومع ذلك استميجهم عذراً وأتمس منهم العفو والتسامح .

وقد وصفت القصة بأنها خيالية رغم أنني أعدها واقعية قبل كل شئ .
ولكن الخيال قائم فيها حقاً بحكم أنني أقدمها فى صورة قصة + فرأيت أن من المفيد أن أشير الى هذا منذ البداية +

الواقع أن ما أرويه الآن ليس حكاية ولا هو ذكريات + تخيلوا زوجاً ترقد على مائدته جثة امرأته التى انتحرت منذ بضع ساعات بالقاء نفسها من النافذة . انه يعانى انفعالاً عنيفاً شديداً ، ولماً يستطع أن يثوب الى رشده وأن يسترد صوابه . فهو ينتقل من غرفة الى غرفة ، محاولاً أن يتصور ما حدث ، وأن يتخيل ما جرى ، وأن « يركّز أفكاره فى نقطة » . ثم ان هذا الرجل سوداوى المزاج فى أعماق نفسه ، لا ينفك يجتر أفكاراً ثابتة ، ولا يفتأ يناجى نفسه فى السر ، ويكلمها بغير انقطاع + انه اذن يتحدث الى نفسه ، فيقص عليها القصة ويحكى لها الحكاية ، ويحاول أن « يفسر الأمر لنفسه » جاهداً + ورغم ما يلوح فى قصته من

اتصال ظاهري وتسلسل طبيعي ، فانه يرتكب مخالفات منطقية ، ويقع في تناقضات عاطفية . انه يبرىء نفسه ويدبنها في آن واحد ، كما أنه ينزلق الى تأويلات خاطئة ، والى ذلك يضاف شيء من غلظة في الفكر والقلب تمازجها مع هذا عاطفة عميقة . وقد استطاع شيئاً فثبتاً أن « يفسر الأمر لنفسه » ، وتوصل الى « تركيز أفكاره على نقطة » ، اذ ساقته سلسلة من الذكريات الى الحقيقة سوفاً لا سبيل الى مقاومته : فبنت هذه الحقيقة حماسة وحمية في فكره وقلبه . فاذا لهجته نفسها تتغير في نهاية القصة اذا قيست بما اشتملت عليه البداية من فوضى وبلبلة . لقد انكشفت الحقيقة واضحة جلية لهذا الشقي البائس ، انكشفت له هو على الأقل

ذلكم هو الموضوع . والقصة تتابع عدة ساعات ، وتتخللها انقطاعات ووقفات ، وتمتورها صدمات : فالرجل تارة يتحدث الى نفسه ، وتارة يخاطب شخصاً لا يرى هو بمثابة قاض .

ولو استطاع مختزل أن يسمع ويسجل كل ما يقوله ، لجاءت القصة أشد وعورةً وخشونةً مما أرويه أنا . ولكن الحياة النفسية تبقى فيها تلى حالها فيما يغلب على ظني . ان هذا الافتراض الذي افترضته عن المختزل (على أساس أن المؤلف لا يتدخل الا بعد ذلك) هو ما جعلني أصف هذه القصة بأنها خيالية . على أن هذا الأسلوب لا يظهر في الفن هنا لأول مرة تماماً : لقد استعمله فكتور هوجو ، مثلاً ، في رائعته « اليوم الأخير من أيام رجل محكوم عليه بالموت » . ولئن لم يعتمد على مختزل ، فقد أجاز لنفسه أمراً أشد ايضاً في البعد عن الواقع والنأي عن الاحتمال ، وذلك حين افترض أن رجلاً محكوماً عليه بالموت يمكن أن يسجل ما جرى لا في آخر يوم من أيامه فحسب ، بل في آخر ساعة ، بل في آخر دقيقة . فلو لم يسمح فكتور هوجو لنفسه بهذه البدعة الغريبة ، لما أتيج لهذا الأثر من آثاره أن يوجد ، وهو أقرب آثاره الى الواقع ، وأدناها من احتمال الحدوث .

الفصل الأول

من كنت من الكانت

... هي ذى هنا الآن - فما زال الأمر حسناً . اننى أجيء ، فأنظر اليها في كل لحظة . ولكنها ستحمل غداً ، فأبقى وحيداً ، فما عسى أفعل ؟ هي الآن في الصالون ، مسجّاة على مائدة 'صنعت من ضمّ طاولتين احدهما الى الأخرى . ولكن تابوتها سيكون في الغد أبيض بياضاً تاماً ، وسيكون كقنفا أبيض . على أن الأمر ليس هو هذا ... اننى ما أنفك أذهب وأجيء محاولاً أن أفسر المسألة لنفسى : ها قد انقضت ساعات ست وأنا أحاول أن أفسر المسألة لنفسى ، فلا أفصح في تركيز شتات أفكارى . الحلق أننى لا أزيد على أن أذهب وأجيء ، أن أذهب وأجيء . . . اليكم كيف جرى الأمر . . . سأسرد لكم الحوادث متسلسلةً منظمّة (لا بد من النظام !) آه . . . ربا . . . ما أنا بكاتب . . . انكم تلاحظون ذلك . . . ولكن لاخير . سأقص الأمر على نحو ما أفهمه . ذلك أن أقطع ما فى القضية فى نظرى هو أننى فهمت كل شىء .

إذا كنتم تحرصون على أن تعرفوا ، أى إذا كنتم تحرصون على أن أبدأ بالبداية ، فاعلموا أنها انما جاءت الى لتتعرض منى بعض المال برهن بعض الأشياء . كانت تريد أن تدفع أجر اعلان فى جريدة « الصوت » تذكر فيه أنها معلمة وأنها مستعدة للسفر معلمة ، أو للمجيء الى البيوت تعطى دروساً ، الخ ، الخ . ذلك فى بداية الأمر . فلم أميّزها عن كثيرات

متلها . كانت تأتي كما يأتي سائر الناس ، بل كانت تأتي ببساطة أكبر من بساطة سائر الناس . وقد لفتت انتباهي فيما بعد . كانت نحيفة القامة ، شقراء ، ربعة الطول . وكانت شديدة البطء والتهيب في مخاطبتي ، كما تكون امرأة خائفة . (أظن أن حالها هذه كانت حالها مع جميع الرجال الغرباء عنها ، وطبعي أنني لم أكن في نظرها الا رجلاً كسائر الرجال ، أي لم أكن في نظرها مرابطاً يُقرض برهون ، بل رجلاً كأى رجل آخر) . كانت ما ان تأخذ المال حتى تدير ظهرها وتتصرف ، دون أن تقول شيئاً في أية مرة ان بين المقترضات من يناقشن ويلصحن ويساوون للحصول على مبلغ أكبر . أما هذه فلا . لقد كانت تقبل ما يُعطاه . يخيّل الى أنني أهدر هدراً مضطرباً لا يفهم . الخلاصة هناك تفاصيل لفتت انتباهي اليها في أول الأمر : القرطان الصغيران اللذان يزينان أذنيها وهما من فضة مطلية بذهب ، حليتها الصغيرة التافهة التي لا تساوي قرشاً ، وما الى ذلك . كانت هي نفسها تعرف أن جواهرها هذه لا تساوي قروشاً . ولكنني كنت ألاحظ من النظر الى وجهها أنها تعدّها أشياء ثمينة . ذلك أن هذه الجواهر هي كل ما بقي لها من أيها وأمها ، كما عرفت هذا فيما بعد . مرة واحدة أبحث لنفسي أن أتسم استهزاءً بهذه الأشياء . والحق أنني في العادة لا أبيع هذا لنفسي أبداً . انني أعامل الزبائن معاملة رجل مهذب ، ولا أعبرّ عما أريد التعبير عنه الا بكلمات قليلة ، أقولها بلهجة مؤدبة جافة ، « جافة ، جافة جافة » . غير أنها جاءتني ذات مرة بقايا (نعم بقايا) معطف قديم من فراء الأرنب - فلم أستطع أن أكظم ما قام في نفسي ، فقلت لها كلاماً فيه شيء من التندر . فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! وكانت عيناها زرقاوين نجلاوين حالمتين ، فما أسرع ما اتقدتا فكأن شرراً يخرج منهما ! ولم تقل كلمة واحدة بل لمت « خرقها » وخرجت . وعندئذ انما لاحظتها لأول مرة « ملاحظة خاصة » ، وفكرت فيها . نعم ، فكرت فيها تفكيراً

خاصاً أيضاً • أجل ، هذا ما حدث • اننى لا أزال أتذكر الاحساس الذى قام فى نفسى ، أو قولوا الاحساس الرئيسى الذى هو مركّب جميع الاحساسات الأخرى : انها فى ميعة الصبا فلا يقدر المرء أن تكون سنّها أكثر من أربعة عشر عاماً • ومع ذلك كانت سنّها ستة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر • على أن هذا ليس ما كنت أريد أن أقوله ، ليس هذا مركّب الاحساسات الذى قام فى نفسى • ولقد عادت فى الغد • وعلمت بعد ذلك أنها ذهبت الى دوبرونرانونف ، والى موزير ، حاملةً معطفها الخلق البالى ، ولكن هذين المرابين لا يقبلان الا الذهب رهناً ، فلم يحمّلا نفسيهما حتى عناء اجابتهما • وكنت قبلت منها قبل ذلك حجراً قد 'يعدّ' من الأحجار الثمينة (وهو حجر لا قيمة له فى الواقع) ، فلما فكرت فيما فعلت دُهِشت من نفسى وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر رهناً ، أنا الذى لا يقبل الا الذهب والفضة أيضاً ؟ تلكم ، فيما أذكر ، هى الفكرة الثانية التى قامت فى ذهنى تجاهها •

وفى هذه المرة ، أى يوم عودتها من عند موزير ، جاءت تحمّل الى « مشرب سيجارة » من خشب العنبر ، وهو شىء قد يجبه هواة ، ولكن ما عسانا نصنع به نحن الذين لا نقبل الا ذهباً ! ولما كان مجيئها الى تلك المرة غداة « العصيان » ، فقد استقبلتها استقبالاً شرساً • والشراسة عندى هى أن أكون خشناً • ومع ذلك لم يسعنى حين نقدتها روبلين الا أن أقول هذه العبارة بشىء من الحلق والغيط : « انما فعلت هذا اكراماً لك ••• ولو عرضت المشرب على موزير لرفضه ••• وقد خاطبتها فى هذه الجملة بصيغة الجمع مبرزاً ذلك ابرازاً خاصاً ، قاصداً منه الى غرض معين « أتويه » • كنت شريراً • فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! أدركت أننى آلتها • فقلت لنفسى حين خرجت : « هل كان يجوز أن أدلّها من أجل روبلين ؟ » • ولم ألبث أن أجبت عن سؤالى بأننى أحسنت صنعاً ، فأخذت أضحك ، وأفرحنى الأمر كثيراً فى ذلك الحين • ولكن

ذلك لم يصدر عن عاطفة سيئة منى : فقد كنت أخفى فى رأسى نية . ذلكم
كان موقفى الثالث منها •

••• ومنذ تلك اللحظة انما بدأ الأمر ••• طبيعى أننى سرعان ما جهدت
أن أعرف تفاصيل حياتها الخاصة • وأخذت انتظر مجيئها نافذ الصبر •
فلما جاءت كلمتها بأدب لم تألفه منى • اننى لا تعوزنى الثقافه ، ولا أجهل
آداب السلوك الراقى • لاحظت عندئذ أنها طيبة ، متواضعة ، عذبة •
ومن كان طيباً عذباً لم يملك قدرة كبيرة على المقاومة ، واذ كان لا يستسلم
بسهولة ، فانه لا يعرف كيف يتهرب من المحادثة أو يتملص منها • صحيح
أنه يجيب بكلمات مفردة ، ولكنه يجيب ، وكلما ازدادت عليه الحاحاً ،
ازداد لك اذعائاً • وعليك أنت انما يقع عبء منعه من الافلات اذا أنت
أحببت ذلك • على أنها لم تشرح لى شيئاً حينذاك • ومن قراءة جريدة
« الصوت » انما عرفت بعد ذلك كل شيء • ان الاعلانات الأخيرة تدل
على أن مواردها نضبت نضوباً تاماً • كانت الاعلانات الأولى أكثر طلاقة •
كانت تقول مثلاً : « معلمة ، مستعدة للسفر ، لتقديم عروض » ؛ ثم صارت
تقول بعد برهة : « تعمل كل شيء ، تعلم ، تصحب الأولاد ، تراقب
أعمال المنزل ، تعنى بمريض ، تحسن الحياطة » ، الى آخر ما هنالك مما هو
معروف جداً • ولقد نشرت هذه الاعلانات مراراً الى أن ساءت حالها كثيراً ،
فكان الاعلان الأخير يقول : « لا تطلب راتباً ، تكفى بطعامها أجراً » •
ومع ذلك لم تعثر على عمل ! قررت أن أمتحنها مرةً أخيرة • فأخذت
عدد اليوم من جريدة « الصوت » ، وأريتها اعلاناً جاء فيه : « فتاة يتيمة ،
تبحث عن وظيفة معلمة أو مربية لأولاد صغار ، تفضّل العمل عند أرملة
مسنة قليلاً • وتعنى بأعمال المنزل • وقلت لها :

– انظرى • هذه نشرت الاعلان فى هذا الصباح وقد تجد عملاً
فى المساء • فى هذه الصورة انما يجب على المرء أن يقدم نفسه •
فتخضب وجهها بالحمرة من جديد ، واشتملت عينها ، واستدارت ،

وخرجت فوراً • سر نى ذلك كثيراً • وكان رأيى فى تلك اللحظة قد استقر وترسخ على كل حال ، وكنت مطمئناً هادئاً البال غير خائف : لا أحد سيقبل أن يرهن « مشرب السيجارة » ، حتى أن « مشرب السيجارة » نفسه لم يبق لها • ولم يخطئ • ظنى • فهامى ذى تأتى غداة غد وقد لاح فى وجهها شقاء كبير ، واضطراب شديد • فقدرت أن شيئاً ما قد حدث لها فى البيت • ولم يخطئ • تقديرى • سأحكى لكم بعد قليل ما حدث • أما الآن فان همى منصرف الى تجميع ذكرياتى • لقد بلغت فى معاملتها غاية اللطف والكىاسة ، فسرعان ما كبرت فى نظرها • تلکم هى الحطة التى رسمتها • وكان ذلك بسبب الأيقونة • (لقد عزمت أمرها أخيراً على أن تجىء بها لترهنها) • • آه • • اسمعوا ! اسمعوا ! الآن يبدأ الأمر • أما قبل ذلك فكنت أخلط بين الأشياء وأرتبك ارتباكاً شديداً • الآن أريد أن أتذكر كل شىء ، أريد أن أتذكر أيسر التفاصيل وأدق الجزئيات • اننى أحاول أن أجمع شتات أفكارى فى نقطة ، ثم • • ثم لا أفلح فى ذلك ولا أظفر بطائل • هناك تلك الأمور الدقيقة اليسيرة ! آه • • • انها أمور دقيقة جداً ، يسيرة جداً • • •

كانت الأيقونة صورة للعدراء ، العذراء مع ابنها يسوع • هى أيقونة قديمة يغطيها غطاء من فضة مطلية بذهب • لاحظت أن هذه الأيقونة عزيزة على نفسها • وهى مع ذلك تجىء بالأيقونة لترهنها كاملة دون أن تنزع عنها المعدن الذى يغطيها • قلت لها : « الأفضل أن تنزعى المعدن ، وأن تأخذى الأيقونة • ان الأيقونة شىء لطيف سريع العطب ، » قالت :

- هل يحظر عليك أن تفعل هذا ؟

- لا ، ليس الأمر أمر حظر • ولكن لعلك تدريكين أنت نفسك

• • • أن

- فانزع اذن ...

قلت بعد تفكير :

- لا • اعلمى اننى لن اتزع المعدن • بل أضع الأيقونة كلها هناك ،
فى المشكاة ، مع سائر الأيقونات الموضوعة تحت السراج (كنت فى كل
صباح أشعل أحسن سراج عندى منذ أن أفتح المكتب) ، وخذى هذه
العشرة روبلات بلا حرج ولا كلفة •

- لست فى حاجة الى عشرة روبلات • أعطنى خمسة • وسوف
أسترد الأيقونة حتماً •

أضفت أقول بعد أن لاحظت أن عينيها أخذتا ترسلان شرراً
من جديد :

- لا تريدن العشرة روبلات ؟ ان الأيقونة تساوى هذا المبلغ •

فلزمت الصمت • ومددت اليها خمسة روبلات • وقلت :

- لا تحتقرى أحداً ... أنا أيضاً كنت فى عسر وضيق ، بل كنت
أسوأ حالاً • واذا رأيتنى أزاول الآن هذه المهنة ، فذلك لكثرة ما عانيت
فى حياتى من ألم وعذاب ...

فقاطعتنى تقول وهى تبسم ابتسامة ساخرة :

- فأنت تثار لنفسك اذن من المجتمع ، أليس كذلك ؟

كانت ابتسامتها ساخرة ، ولكن هذه الابتسامة كانت تشتمل فى الحقي
على غير قليل من حسن السريرة وسلامة الطوية ، وهى لا تزيد على أن
تشبهنى بسائر زملائى ، فلا يكاد يكون فى كلامها شئ يسوؤنى أو يعجرح
شعورى أو يهين كرامتى • ولكننى قلت محدثاً نفسى : « ها • • هأنت
ذى أنت ! لقد انكشف طبعك انكشافاً جديداً ! » •

وقلت لها فجأة ، بلهجة نصفها مزاح ونصفها تعمية وسر :

- أنا جزء من ذلك الجزء من الكل ، الذى يريد أن يصنع شراً
فيصنع خيراً !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى نظرت الى مستطلعة مدهوشة ،
بكثير من روح الطفولة مع ذلك ، وقالت تسألنى :

- اسمع ... ما هذه الفكرة ؟ من أين أخذتها ؟ يخبل الى أنى
سمعتها قبل الآن فى مكان ما ...

- لا تبهدي نفسك فى التذكر ، بهذه الكلمات انما زكى
مفستوفيليس نفسه لفاوست ، هل قرأت قصة « فاوست » ؟

- لم أقرأها ... بانتباه كبير .

- أى أنك لم تقرئها البتة . يجب الاعتراف بهذا .

ثم اننى مازلت ألح فى طرفى شفيتك تلك البسمة الساخرة .
فأرجوك ألا تحكمنى على بأننى من فساد الذوق بحيث أردت أن أفدّم
الك نفسى فى صورة مفستوفيليس . ان مرابياً يقرض برهن ، يظل
مرابياً يقرض برهن . ذلك أمر نعرفه .

- ما أغرب أمرك ... اننى ما أردت أن أقول لك هذا البتة ...

كانت تريد أن تقول : ما كنت أتوقع أن أجدك رجلاً مثقفاً ، ثم لم
تقله ، ولكن هذا لم يمنعنى من أن أحزر أنها أردت أن تقوله . وسررت
منها أعظم السرور . وقلت :

- فى جميع الميادين يستطيع المرء أن يصنع خيراً . لا أقول هذا
لأمدح نفسى . فمن الواضح أننى لا أصنع شيئاً من خير ، وربما كنت
أصنع شراً ... ومع ذلك ...

قالت وهى ترمقنى بنظرة سريرة عميقة :

- لا شك أن المرء يستطيع أن يصنع خيراً فى أى ظرف ومن
أى موقع •

ثم أسرعت تردف قولها :

- هذا كلام حق : فى أى ظرف ومن أى موقع •

آه ••• اننى أتذكر كل تلك اللحظات ، أتذكر كل تلك اللحظات !
ويهمنى أن أضيف الى ذلك أن هذا الشباب ، هذا الشباب الغالى ،
إذا أراد أن يقول شيئاً فيه ذكاء وفيه اقتناع ، لا يعوزه أن يتخذ على الفور
هيئة صريحة جداً ، ساذجة جداً ، وأن تقول لك قسماات وجهه :
« انظر الى قوة الذكاء وشدة العمق فيما أستطيع أن أقوله لك أنا ! » ،
وذلك لا من باب الضرور وحب الظهور كما يفعل اقراننا ، فان المرء يلاحظ
أن هذا الشباب متعلق بما يقوله أشد التعلق ، وأنه يحبه أكبر الحب ،
وأنه يؤمن به أعظم الايمان ، وأنه يحترمه ويعتقد أنه مستعد لأن تحترمه
كما يحترمه • يالها من صراحة ! وبذلك انما يحقق النصر • ما كان
أجمل هذا كله فيها !

اننى أتذكر تذكرأ واضحاً • لم أنس أى شيء ! وحين خرجت
كنت قد عزمت أمرى واتخذت قرارى • ففى ذلك اليوم نفسه مضيت
أتقصى أخبارها ، ففرفت عنها كل ما لم أكن قد عرفته حتى ذلك الوقت ،
وعرفت خفايا قصتها الراهنة • كنت علمت خفايا حياتها الماضية قبل ذلك
من لوكيريا التى كانت خادماً عندهم وكنت قد رشوتها قبل بضعة أيام •
انها خفايا تبلغ من الهول أننى لا أفهم كيف أمكنها أن تظل تضحك كما
ضحكت أمس ، وأن تهتم بأقوال مفستوفيليس ، بينما هى تحيا فريسة
أهوال رهيبية • ولكنه سن الشباب أيضاً ! وقد فكّرت فيها عندئذ مزهواً
فرحاً ، لأننى رأيت فى ذلك علامة على عظمة نفسها وسمو روحها • حتى

على حافة الهاوية ، تتألق كلمة الشاعر جوته ! ان الشباب سمح كريم
دائماً ، حتى فى أخطائه • والحق أننى أقصدها هى ، أقصدها وحدها •
والعجيب فى الأمر أننى كنت أكلم نفسى عنها منذ ذلك الوقت وكأنها
صارت « لى » ، وأننى أصبحت لا يراودنى شك فى قدرتى وسلطانى •
انكم تعرفون مدى المتعة التى يذوقها المرء حين لا يشك •
ولكن ما هذا الذى أفعله ؟ اذا سرت هذا السير ، فمتى أجمع شتات
أفكارى ؟ ألا فلأسرع ، فلأسرع • ليس هذا هو الأمر !

طلب الزواج

الحفايا التي عرفتها عنها سأوجزها في كلمات قليلة : لقد مات أبواها منذ مدة طويلة - منذ ثلاث سنين - فبقيت وحيدةً عند عمّتين لها شريرتين ، بل ان وصفهما بأنهما « شريرتان » ، لا يفهما حقهما من الذم . ان احدى هاتين العمّتين أرملة مثقلة بأسرة فلها ستة أولاد ؛ والثانية - وهى أفصر من الأولى قليلاً - عانس شرسة الطبع مشاكسة . هما امرأتان سيئتان خيستان كلتاهما . ولقد كان أبو الفتاة موظفاً . كان كاتباً فى دائرة من دوائر الدولة ، لا مورد الا راتبه . ان مستوى أنا أعلى من مستواه على كل حال : فأنا كاتبن متقاعد ، خدمت فى فوج مرموق من أفواج الجيش ، وأتمى الى أسرة نبيلة المتحد ، وأعيش حياة ليس فيها عوز . أما أنى أقرض بالربا ، فان العمّتين لن تعدما أن تنظرا الى هذا الأمر نظرة استحسان واعجاب . عاشت الفتاه خلال ثلاث سنين عبدةً لعمّتيها ، ومع ذلك نجحت فى امتحاناتها بفضل ما بذلت من جهد فى الدراسة رغم ضيق الوقت . نجحت فى امتحاناتها ، رغم قيامها بأعمال يومية قاسية فسوةً لا ترحم ، وهذا يدل على أنها تتصف بسمو عقلى وتفوق روحى لا سبيل الى الشك فيهما . ولماذا رغبت أنا فى أن أتزوج ؟ دعونا مما حدث لى أنا . سوف نرى ذلك فيما بعد . . . ولكن الأمر هو هذا . كانت الفتاة تعلم أولاد عمّتها القراءة ، وكانت ترقع الملابس ، وصارت فى المدة الأخيرة لا تغسل الغسيل فحسب ، بل تغسل أرض الغرف أيضاً ، رغم

ضعف صدرها • وشيئاً فشيئاً أخذت العجوزان تضربانها وتقرعانها بسبب
أية لقمة تأكلها • ثم قررتا أن تيبعاها • آه • • • • لن أدخل في تفاصيل هذا
الحماً • وهى لم تقصص على كل شىء تفصيلاً الا فيما بعد • لقد كان رجل
سمين بقال ينظر اليها ويطمع فيها منذ سنة • وكان قد « قبر » امرأتين
حتى ذلك الحين ، فهو يبحث الآن عن نائلة • لذلك وضعها نصب عينيه ،
واتخذها هدفاً يريد الوصول اليه • كان يقول لنفسه : « انها مناسبة
مريحة ، فقد ولدت فقيرة ؛ واذا كنت أريد أن أتزوج ، فذلك من أجل
الأولاد ، • ذلك أنه كان له أولاد • وأخذ يستعجل الأمر • فباحث
العمتين • وكان فى نحو الخمسين من العمر • وكرهته الفتاة ونفرت منه
نفوراً رهيباً • فأخذت تنشر اعلانات فى جريدة « الصوت » • ثم ابتلعت
الى عمتها أن تمهلاها مدة قصيرة يتاح لها فيها أن تفكر • فأمهلتها مدة
قصيرة ، مدة قصيرة لا يجوز أن تطول • كاتتا تقولان : « نحن نفسنا
لا نعرف ماذا نعمل من أجل أن نأكل ، فلسنا نطيق أن يشاركنا لقمتنا فم
آخر • » جاء البقال الى دار العجوزين حاملاً رطل حلوى ثمنه خمسون
كوبكاً • وكانت الفتاة معه • ناديت لوكيريا من المطبخ ، ورجوتها أن تذهب
الى الفتاة فتهمس فى أذنها انى أنتظرها أمام الباب لأبلغها أمراً مستعجلاً
جداً • كنت راضياً عن نفسى كل الرضى مسروراً بها كل السرور • وكنت
مسروراً طوال النهار على كل حال •

وهناك ، عند الباب ، بحضور لوكيريا ، بينما كانت مدهوشة من
أننى استدعتها ، ذكرت لها ما كنت أعده سعادةً وشرفاً • • • • ولا بد أنها
لم تدهش عندئذ من الطريقة التى عمدت اليها ، ولا من قولى لها : « انى
رجل مستقيم ، وقد فكّرت فى جميع ظروف القضية ، وقلّبت الأمر على
كل وجوهه ، • والحق أننى لم أكذب حين وصفت لها نفسى بأننى رجل
مستقيم • ولكن لا قيمة لهذا • وانما يجب أن أذكر أن كلامى فى مخاطبتها
لم يكن مهذباً فحسب ، لم يكن كلام رجل مؤدب فحسب ، وانما كان

يشتمل على أصالة أيضاً . وهذا هو الأمر الأساسى . أهى جريمة أن أعترف ؟ انى حريص على أن أحكم على نفسى ، وانى لأحكم عليها . فملىّ اذن أن أقول ما لى وما علىّ . وهذا ما فعلته . ولقد أعدت تذكر ذلك فيما بعد ، فلذذت كثيراً ، رغم أنه غباء . كاستفرتها صراحة حينذاك ، دون أن تحرج ، بأننى أولاً لست صاحب مواهب ، واننى امرؤ أنانى سىء (أتذكر هذا اللفظ ، فلقد أعددته وأنا فى طريقى الى بيتها ورضيت عنه) ، وان لى فى أغلب الظن جوانب سيئة كثيرة . قلت ذلك كله بنوع من الزهو . ولعلكم تصورون اللهجة التى قلته بها . لكننى بعد أن ذكرت سيئاتى بصدق ونبل ، لم أغفل طبعاً عن الانتقال الى تعداد حسناتى ، فقلت لها : « اننى أمتاز بكيت وكيت وكيت . . . » . رأيت أنها مرتاعة جداً . ولكننى لم أحاول أن أخفف أو أطفف شيئاً . بالعكس : فانى حين رأيت خوفها أخذت أقوى النعمة عامداً . قلت لها بغير تحرج اننى لن أبيضل عليها بالطعام ، فستأكل عندى ما تشتهى ، أما الفساتين الجميلة وأما المسارح وأما حفلات الرقص ، فلا شىء منها البتة ، الآن على الأقل ، وانما قد أسمح بها فى المستقبل ، حين أكون قد بلغت هدفى . كانت هذه اللهجة القاسية تفتتنى فتنه كبيرة . وأضفت أقول بغير الحاح كثير اننى اذا كنت قد اخترت هذه المهنة ، اذا كنت قد فتحت هذا المكتب ، فان ذلك يرجع الى ظرف معين . والحق أننى كان من حقى جداً أن أقول هذا الكلام : فالهدف الذى أشرت اليه قائم فى ذهنى ، والظرف الذى ذكرته قد وقع فصلاً . اسمعوا يا سادتى : نقوا أننى كنت طوال حياتى أبغض صندوق الاقراض بالربا أكثر مما يبغضه سائر الناس . لكننى وان يكن مضحكاً وسخيفاً أن يستعمل المرء تعابير معيّنة أوكد لكم أننى « أتأثر لنفسى من المجتمع ، هذا صحيح . هذا هو الحق . وبذلك يكون تندرهما علىّ فى ذلك الصباح يعوزه الانصاف . حتى أنها كانت ستفجعر ضاحكة كما ضحكت فى المرة الأولى لو عبّرت عما يعتمل فى نفسى بتلك الألفاظ ذاتها فقلت لها : « نعم اننى أنتقم لنفسى من المجتمع » . ولكن

بدا لي فجأة أنني أستطيع أن أكسب خيالها إذا أنا أشرت إشارة متخفية ،
وقلت جملة سرية معمّاة . ثم اننى كنت قد أصبحت فى تلك اللحظة
غير خائف من شيء : كنت أعلم أن البقال الضخم ينقّرُها أكثر مما أنقّرُها
أنا على كل حال ، وأن وجودى على بابها مادام الأمر كذلك أشبه بوجود
منقذ أو محرّر . كنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً . آه . . . ان الرجل يدرك
كل ما هو خسة ودناءة أكثر من ادراكه أى شيء آخر . ولكن هل كان
ذلك خسة ودناءة ؟ كيف يعجزُ المرء أن يحكم على انسان ؟

ألم أكن أحبها حتى منذ ذلك الحين ؟

انتظروا يا سادة ، اننى لم أشر بطبيعة الحال أية إشارة الى اننى أحسن
اليها . اننى لم أمنّ عليها . أبدأ . بالعكس ، بالعكس : قلت لها :
« أنا الذى سأكون مديناً لك بالشكر لا أنت . وأنت التى تلوقين عنفى
بجميلك لا أنا » . بل لقد قلت لها هذا كلمة كلمة . لم أستطع أن أمسك
عن قوله . ولعل ذلك كان منى حماقة ، لأن شيئاً من الاقتباس قد ألمّ
عندئذ بوجهها . ولكننى حققت ظفراً حاسماً واتصاراً قاطماً على
كل حال .

انتظروا . ما دمت قد حرّكت هذا الحمأ كله ، فاسمحوا لي أن أذكر
لكم آخر حقارة صدرت عنى . فحينما كنت واقفاً هناك على العتبة ، كنت
أجتر هذا الكلام محدثاً نفسى : « انك فارغ الطول مونق القامة ، متقف ؛
ثم انك لست دميم الوجه على كل حال ، وليس فى هذا أى ادعاء أو تبجح
أو مباهاة » . ذلك ما كان يدور فى رأسى ويجول فى خاطرى . ولقد
وافقت على طلبى فى ذلك الوقت عند الباب فقالت : « نعم » . وافقت
طبعاً . ولكن . . . يجب أن أضيف هذه الحقيقة : انها فكرت طويلاً
وملياً ، هناك عند الباب ، قبل أن تنطق بكلمة « نعم » تلك . حتى لقد
بلفت من طول التفكير أنني أخذت أتساءل : « فماذا ؟ » ، لم أستطع أن
أمسك عن القاء هذا السؤال عليها بلهجة خاصة مصطنعة .

وقد بلغ وجهها من التعبير عن شدة الجلد أننى كان يمكن أن أقرأ فيه ما كان يدل عليه وينم عنه ! ولكننى شعرت مع ذلك بخيبة الأمل . قلت أحدث نفسى : « هل يمكن أن تتردد فى التخيير بينى وبين صاحب الدكان ؟ » آه . . . عندئذ لم أفهم . لم أفهم شيئاً البتة . وأنا حتى الآن ما فهمت من الأمر شيئاً . أتذكر أن لوكيريا ركضت ورائى حين انصرفت ، واستوقفتنى فى الطريق وقالت لى : « جزاك الله خيراً يا سيدى على أنك أخذت آستنا الطيبة . ولكن لا تجرح شعورها فانها ذات ششم وكبرياء » .

ذات ششم وكبرياء ؟ اننى أحب أولئك اللواتى يتصفن بالششم والكبرياء . ان اللواتى يتصفن بالششم والكبرياء يكنّ طيبات عامةً حين . . . نعم حين لا يبقى لدى الرجل شك فيما صار له عليهن من نفوذ وسلطان . أهذا حق ؟ أوه ! يا للرجل ما أكبر دنايته ، وما أشد خراسته ! هل كنت راضيا رضا كافيا ؟ هل كنت مغتبطا اعتباطا كافيا؟ وحين أخذت تفكر أمام الباب طويلاً و ملياً لتقول لى « نعم » ، وكنت أنا مدهوشاً من ذلك ، ألا يجوز أن يكون تفكيرها وقتئذ هو ما يلى : « شقاء فوق شقاء ، أفلا يحسن أن أختار الرجل الأسوأ ، أى صاحب الدكان ، ففسى أن يسكر ذات يوم فيبلغ من فرط السكر أن يأخذ يكيل لى الضربات تلو الضربات الى أن أموت ؟ » . آه . . . ما رأيكم ؟ هل يجوز أن تكون هذه الفكرة هى التى دارت فى خلدنا حينذاك ؟

نعم ، واننى الى هذا اليوم لا أفهم ، لا أفهم من الأمر شيئاً . قلت منذ لحظة ان من الجائز أن تكون قد راودتها هذه الفكرة : أن تختار الأسوأ ، أى أن تختار البقال . . . ولكن أينما كان فى نظرها هو الأسوأ ، أنا أم البقال ؟ البقال أم المرابى الذى يستطيع أن يستشهد بالشاعر

جوتہ ؟ ذلکم سؤال آخر • اى سؤال ؟ ہیہ ء ماذا ؟ أما زلت لا تفہم ؟
انک لتتکلم عن السؤال بينما الجواب على مائدتك أمامك ! ولست أهتم بأمرى
أنا على كل حال • ولكن ماذا حقاً ؟ هل اهتمامى منصرف الى نفسى أم هو
منصرف الى آخر ؟ ذلکم ما يستحيل علىّ أن أقطع فیہ برأى جازم • ان
الأفضل أن أضطجع وأنام • اتنى أحسن بصداع •

الربيل والرجال وهو نفسى لا يصرق من اللؤس شيئاً

لم أستطع أن أنام • وأين لى أن أنام ! كنت أشعر بمطرقة تسقط على جمجمتى ضرباً • أود لو أستطيع أن أتمود هذا كله ، أن آلف هذا الوحل كله • آه • • • الوحل ! يا للوحل الذى أخرجتها منه ! كان ينبغي لها أن تفهم ذلك ، وأن تعرف كيف تقدر على حق قدره ! وكان يحلو لى أن استرسل فى بعض الأفكار ، منها هذه الفكرة مثلاً : ان سنى واحد وثلاثون عاماً ، ولا تتجاوز سنّها هى ستّ عشرة سنة • ما كان أعظم افتتاني بذلك ! ان هذا الاحساس بعدم التوازن والتكافؤ شىء لذيذ ، لذيذ جداً •

وقد تمنيت مثلاً أن نحتفل بزفافنا « على الطريقة الانجليزية » ، أى ألا يكون فى حفلة القران الا نحن والشاهدان اللذان لا بد منهما ، واللذان يمكن أن نجعل لوكيرنا أحدهما • ثم نركب القطار فوراً ، فنسافر ولو الى موسكو (وكان لى بموسكو عمل يجب أن أنجزه) ، وننزل أحد الفنادق فنمكث فيه أسبوعاً أو أسبوعين ولكنها اعترضت على هذه الفكرة ، ورفضتها ، واضطرت أن أذهب الى العمتين أحبيهما وأعبر لهما عن احترامى بحجة أنهما الأسرة التى أخذت الفتاة من بين أحضانها • أذعت لمشيتها ، وأدّيت للعمتين واجب الاجلال والتبجيل • حتى لقد وهبت لهاتين المخلوقتين مائة روبل ، وأضفت الى ذلك وعوداً بذلتها لهما •

وقد فعلت ذلك بدون أن أطلعها عليه طبعاً ، حتى لا يتأذى شعورها من هوان بيئتها • وسرعان ما أبدت العمتان كثيراً من المودة والملاطفة • ونشب خلاف على جهاز العرس : لم يكن عندها ثياب ، ولكنها رفضت أن تشتري ثياباً • ثم أفلحت في أن أفهمها أنها لا يمكن أن تكتفى بالثياب البالية التي عندها ، وقلت لها انني أنا الذي أتولى أمر جهازها ، والا فمن عسى يتولاه غيري ! على أن الشيء المهم هو أمرى أنا ! لقد أسرعت أفضى إليها بأفكار شتى كانت قد دارت في خاطري ، على الأقل لتتظن إليها بعين الاعتبار بمض النظر ، ولعلني نجحت في هذا وبلغت ما أردت • بل أكثر من ذلك أنها في البداية ، رغم مقاومتها ، أصبحت تقبل على أقبالا فيه حب ، وتستقبلني حين عودتي في المساء استقبالاً زاخراً بالحفاصة ، وتأخذ تهذر هذرها البريء ، فنقص على حكاية طفولتها كاملة ، وسنى صباحا التي فضتها في دار أبيها ، وما كانت تعرفه عن أبيها وأمها • لكنني كنت أعرف كيف أصب ماءً بارداً على هذه النشوة وهذا السكر • وتلك كانت فكرتي • كنت أرد على حماستها بصمت ، بصمت متسامح طبعاً • • فما أسرع ما لاحظت هذا التعارض ، وما أسرع ما نظرت الى نظرتها الى لغز مستقلق • وعلى هذه الالغاز انما كنت أبنى أنا حساباتي وأعقد آمالي ! بل لعلني من أجل أن تحلل هي هذا اللغز المستقلق انما اندفعت الى فصل ما هو سخف واستحالة • عمدت في أول الأمر الى القسوة • أدخلت القسوة الى بيتي نظاماً ثابتاً • وتم هذا من تلقاء نفسه بدون أي جهد • لم يكن ثمة سبيل غير هذا السبيل • ولقد تخيلت هذا النظام في ظرف مستقل عن ارادتي ، فلا يد لي فيه • دعونا ! لماذا أقدم في نفسي ؟ لقد كان ثمة نظام حقاً • ولكن اسمعوني : مادام الأمر أمر حكم على انسان ، فيجب ألا يتم الحكم عليه الا مبنياً على معرفة كاملة بالأمر • • • اصغوا الى "

من أين أبدأ ؟ ذلك أن البدء صعب جداً • متى أراد المرء أن يبرىء نفسه ، اصطدم بعقبات ولقى صعاباً • اليكم هذا المثال : ان الشباب يحقر

المال • فسرعان ما ألححت على المال ، وجعلت كل شيء رهناً به ، مبنياً عليه •
 وبلغت من شدة الإلحاح أنها غدت تصمت مزيداً من الصمت شيئاً بعد شيء •
 كانت تحملق وتصنى وتنظر وتسكت • وهذا مثال آخر : ان الشباب
 يحب المروءة والنخوة ، وكانت هي صاحبة مروءة ونخوة ، كانت متقدمة
 الحماسة شديدة الحمية ، ولكنها كانت ضئيلة الحظ من الصبر ، فما ان
 تعارضها حتى يستبد بها شعور الاحتقار • وكنت أنا أحب رحابة الصدر
 وسعة الفكر ، وكنت أحب أن أعلمها هذه الرحابة وهذه السعة ، أليس
 هذا حقاً ؟ سأختار لكم مثلاً مبتدلاً : ما عساني أفعل من أجل أن أشرح
 لطبع كطبعها مسألة الاقراض بالربا على رهن ؟ لم أواجه المسألة رأساً
 بطبيعة الحال ، والا كنت كمن يستغفرها عن هذا العمل ، وانما أنا عمدت
 الى الزهو ، فتكلمت بما يشبه الصمت • اننى أستاذ بارع فى فن الكلام
 بغير كلام ، فن الكلام بالصمت • كنت طول حياتى أتكلم صامتاً ، وعشت
 فى داخل نفسى كل مأساة صمتى • آه ••• ما كان أشقانى ! انفض عني
 الجميع ، انفضوا عني وهجروني ، دون أن يعلم بذلك أحد فى يوم من
 الأيام • وما هى ذى الصيبة التى تبلغ من العمر ستة عشر عاماً تتخيل
 فجأة ، بعد أن سمعت عني كلاماً من أشخاص ليسوا شرفاء ، ها هى ذى
 تتخيل أنها تعرف كل شيء ، انها على علم بكل شيء ، فى حين أن سرى
 ظل محبوساً فى قرارة نفسى ، نفس الرجل ! وظللت صامتاً ، صامتاً معها
 خاصة ، الى أن كان أمس • فاذا سألتمونى لماذا صمت ، قلت لأننى متكبر
 صلف • لقد أردت منها أن تعرف كل شيء بنفسها ، دون أن أقوله أنا لها ،
 ولكن دون أن تعتمد أيضاً على نمائم دنيئة ووشايات خنيسة ، أردت أن
 تحزر من أنا ، وما أنا ، وان تدرك ذلك حق ادراكه • حين استقبلتها فى
 بيتى أردت أن أحظى باعتبارها كاملاً • أردت أن تقف منى موقف
 الضارع المبتهل بسبب ما قاسيت من آلام ، وكنت أستحق منها هذا الموقف
 فعلاً • آه ••• لقد كنت شديد الكبرياء دائماً ، فاما أن أنال كل شيء واما

ألا أنال شيئاً • ولأنتى كرهت دائماً أنصاف الحلول فى أمور السعادة ،
ولأنتى أردت دائماً أن أبدو صلب المود قوى الارادة ، انما اضطررت فى
ذلك الأوان أن أعمد الى تلك الطريقة : • عليك أنت أن تحزرى وأن
تقدرى ا ، • ذلك أنتى - ويجب أن نسلّم بهذا - لو أخذت أشرح لها
الأمر وأقص عليها الحكاية ، وأخذت أتحايل وألتمس منها الاحترام ،
لكنت كمن يسألها صدقة •• ولكن •• ولكن •• ما لى ولهذا الكلام
كله ؟

هذا سخف ا سخف وألف سخف ا المهم أنتى شرحت لها فجأة ،
بكلمتين ، من غير رحمة ، نعم من غير رحمة ، (يجب أن الح على ذكر
هذا الخلو من الرحمة) ان المروءة عند الشباب شىء خلىق بالاعجاب ،
ولكنه لا يساوى قرشاً صغيراً • لماذا ؟ لأن اكتساب المروءة سهل أشد
السهولة ، لأن المروءة لا تنشأ عن أن المرء عاش ، لأن هذه الأمور هى
• أولى انطباعات الحياة ، ان صح التعبير • وانما ينبغى أن ننظر الى الانسان
وهو يضطرب فى جنبات الحياة ويعمل • ان هذه المروءة لا تكلف كثيراً •
وهى ان كلّفت المرء شيئاً فانما تكلفه أن يهب حياته ، وهو لا يحتاج من
أجل هذا الا الى شىء من فرط حرارة الدم وفيض القوة ، وهو ظامى
الى الجمال أشد الظماً دائماً ! لا ، ما هذه هى الشجاعة • حاول أن تختار
لنفسك مائرة صعبة ، مائرة لا تحدث جلبة كثيرة ، ولا يكون لها بريق
وتألق ؛ مائرة ترافقها النسيمة والشمسة ، وتتطلب تضحية كبيرة ،
ولا تؤدى الى أى مجد ؛ مائرة تظهر فيها - أنت الرجل اللامع - بمظهر
الجبان الحقىر فى نظر جميع الناس ، مع أنك أشجع أهل الأرض طراً ،
حاول أن تحقق هذه المائرة فترى ألا تعدل عنها وتكص على عقيبك ؟
أما أنا فاننى لم أزد طوال حياتى على أن أحمل ثقل أعمال كهذه الأعمال •
كانت فى أول الأمر تناقض ، بل تناقض كثيراً ! ثم قررت أن
تصمت ، وأن تصمت صمتاً تاماً • أصبحت تكفى بأن تحملى حين تسمع

كلامى ، تحملق حاملة شديدة وهى تنصت الى أقوالى انصافاً فيه اتباه
رهيب ! ... و ... مع ذلك ، لمحت فى وجهها ، على حين فجأة ،
ابتسامته تم عن أنها لا تصدق ، ابتسامته صامتة ، ساخرة . وكانت تبسم
هذه الابتسامه حين أدخلتها بيتى .
صحيح أنها لم يكن لها أى مكان تذهب اليه ...

خطا وخطا الأخرى

أينا نحن الاثنين بدأ حينذاك ؟

لا أحد • لا أنا ولا هي • لقد بدأ الأمر منذ الخطوة الأولى • قلت قبل الآن اننى أدخلتها بيتى على نية القسوة • ومع ذلك لم ألبث أن رقت • كنت قد شرحت لها حين كنا خطيبين لا أكثر ، أنها سيكون عليها أن تتولى تلقى الأشياء المرهونة وأن تؤدى مبالغ الاقراض ، ولم تعترض فى ذلك الحين (لاحظوا هذا) • وأكثر من ذلك أنها أكبّت على العمل بهمة ونشاط • يجب أن أذكر أن البيت والأثاث وكل شيء قد بقى كما كان فى الماضى • هو بيت يتألف من حجرتين : احدهما صالة كبيرة جعلت هى المكتب ؛ والثانية صالة واسعة هى الأخرى جعلناها غرفة نومنا المشتركة • وكان أثاث بيتى ليس فيه شيء من بريق ، حتى ان أثاث مسكن العمتين كان أحسن منه • وفى صالة المكتب انما توجد الايقونات مع السراج ، أى فى الصالة التى فيها صندوق الاقراض • وفى غرفة النوم توجد خزانتي ، وهى تضم عدداً من الكتب ، وحقبة كنت أحمل مفاتيحها دائماً ؛ ويوجد سرير وموائد وكراس • وكنت قد أبلغت خطيبتي أننا سنقف على طعامنا ، أى على طعامى وطعامها وطعام لوكيريا التى استخدمتها ، روبلاً واحداً فى اليوم ، لا أكثر من ذلك • فلم تعترض بشيء • ولكننى زدت المبلغ من تلقاء نفسى ثلاثين كوبكاً للانفاق على حاجات البيت • وكان هناك المسرح أيضاً • وكنت قد قلت لخطيبتي اننا لن نذهب الى المسرح

أبدأ • لكننى مع ذلك سمحت بأن نذهب الى المسرح مرة كل شهر ،
وتم ذلك على نحو لائق ، فكنا نحجز مقاعد فى مكان حسن من الصالة •
وكنا نذهب الى المسرح معاً • ذهبنا ثلاث مرات ، فشهدنا مسرحية
« سباق السعادة » ومسرحية « الطيور المفردة » ، فيما أظن • (ولكن
ما قيمة هذا ؟ لست أهتم بهذا الأمر أى اهتمام) • كنا نذهب الى المسرح
صامتين ، ونعود منه صامتتين • لماذا ؟ لماذا التزمنا جانب الصمت منذ أول
يوم ؟ على أننا لم ينشب بيننا أى شجار فى البداية •

لم تتشاجر فى الآونة الأولى ، ومع ذلك خيم بيننا الصمت • وانى
لأذكر كيف كانت تختلس النظر الى من تحت ، فلما لاحظت ذلك
اشتد صمتى • حقاً انى أنا الذى ألححت على الصمت • لقد انفجرت هى
مرة أو مرتين ، فاندفعت الى تريد أن تعانقنى وتقبلنى ، ولكننى استقبلت
اندفاعها ببرودة وجفاف لأن هذه المظاهر أعراض مرضية هسترية ،
ولأننى كنت فى حاجة الى سعادة مضمونة مؤكدة يشفعها احترام من جانبها
وتبجيل • نعم ، وكنت على حق • وكان يعقب الانفجار يوم مليء
بالشجار •

أقصد ••• لم يكن ثمة تشاجر بمعنى التشاجر ، وانما كنا نصمت ،
وكان كل واحد منا يقف من الآخر موقفاً فيه وقاحة ما تنفك تزداد •
« تمرد وعصيان » ، ذلك ما كان يحدث • ولكنها لم تكن تحسن التصرف
فى الأمر والاحتياى عليه • نعم ، كان ذلك الوجه العذب يتخذ هيئة
تزداد تجهماً وشراسة شيئاً بعد شيء • حتى لقد أصبحت تنفر منى
وتكرهنى • هل تصدقون ؟ لقد أتيج لى أن ألاحظ هذا • وكانت تلك
النوبات تخرجها عن طورها ، لا شك فى ذلك • ولكن حين تخرج
فتاة من وحل كالوحد الذى كانت فيه ، وحين تتخلص من بؤس كالذى
الذى كانت تعانيه اذ كانت تفصل بلاط الأرض ، فهل يجوز لها أن تشكى
من فقرنا ؟ ولاحظوا أن الأمر لم يكن فقراً بل كان اقتصاداً ، حتى لقد كنا

لا نضن^١ على نفسنا بشيء من الترف إذا وجب الترف : مثال ذلك أنني كنت حريصاً على نظافة الملابس الداخلية • وحتى قبل الزواج كنت أعتقد دائماً أن نظافة الرجل ترضى المرأة • على أنها لم تكن تفضب من الفقر في الواقع ، وإنما كانت تفضب من هذا الذي تراه في^٢ من الحرص على التوفير والاقتصاد في أعقاب الشموع مثلاً • وكانت تقول لنفسها : لا بد أن لهذا أسبابه وعلله • انه رجل سيء الطبع ، • وامتنعت فجأة عن الذهاب الى المسرح • وازدادت شدة اللذع في ابتسامتها الساخرة ••• وضاعفت الصمت من جهتي •

ألا يجب على^٣ أن أبرئ نفسي ؟ ان صندوق الاقراض ذاك هو الذي كان أخطر ما في الأمر • اسمحو لي : لقد كنت أعلم أن المرأة ، ولا سيما إذا كانت سنّها ستة عشر عاماً ، لا تملك الا أن تطيع زوجها • ان النساء ليس لهن شخصية • تلك بديهية • ومازلت الى اليوم وحتى في هذه اللحظة أعدّها بديهية !

لا قيمة ولا شأن لما هو الآن في الصالة • ان الحقيقة هي الحقيقة ، وليس يستطيع حتى ستوارت مل أن يكون له في الأمر حيلة ! فالمرأة التي تحب ، نعم ، المرأة التي تحب ، تعشق فيمن تحبه حتى عيوبه وسيئاته • وهو مع ذلك لا يطلب كل هذا التسامح من جانبها في حق نقائصه • ذلك منها كرم وسماحة • ولكنه يدل على أنها ليست بذات شخصية • ان افتقاد الشخصية هو ما ضيغ النساء • أعود فأكرر أنه لا قيمة ولا شأن لما هو الآن في الصالة ، أعني الجثة المسجاة على المائدة • هل وجود هذه الجثة دليل على قوة الشخصية ؟ لا ، دعوكم من هذا الكلام !

اسموا • لقد كنت واثقاً بحبها حينذاك • ألم تكن ترتمي على^٤ لتعانقني ؟ اذن كانت تحبني ، أو قولوا كانت تريد أن تحبني • نعم ، هذا هو التعبير الصحيح : كانت تريد أن تحب ، كانت تسعى الى أن تحب • والشئ الأساسي هو أنه لم يكن ثمة عيوب من تلك العيوب التي يجب

عليها ان تحاول تبريرها وتسوئتها . لعلكم تقولون اني مراب افرض برهن . والناس جميعاً يكررون هذا . ولكن ما شأن أن أكون مرابياً يقرض برهن ؟ لا شك في أن هناك أسباباً قد تدفع أكرم انسان الى أن يصحح مرابياً يقرض على رهون . اسمعوا أيها القراء الأصدقاء : هناك أفكار بل هناك فكرة تبدو غبية غباءً رهيباً حين يُنطق بها ، أي حين يسبر عنها بالفاظ ، حتى ليستحي صاحبها نفسه منها ، فهي تقع من النفس موقعاً سيئاً ، ويكون لها رنين رديء يؤذي السمع . ومع ذلك تكون هي الحقيقة ، الحقيقة بيننا ! نعم ، لقد « كان من حقي » أن أخرج من المأزق بفتح مكتب اقراض . « لقد بنذتموني يا معشر البشر ، أي طردتموني بصمتكم الذي يفيض ازدياءً ، ورددتم على اندفاعاتي التي كانت تحملني اليكم باساة لن أنساها في يوم من الأيام أبداً . فكان من حقي اذن أن أحمي نفسي منكم بجدار ، أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، ثم أمضي الى مكان بالقرم على الشاطئ الجنوبي أفضي فيه حياتي على تلال مزروعة بأشجار الكرمة أكون قد اشتريتها بالثلاثين ألف روبل ، فأحيا بعيداً عنكم ، ولكن دون أن أبتضكم ، واحتفظ بمثل الأعلى في نفسي ، تصحبنى زوجتي مع أولادي اذا رزقني الله أولاداً ، وأحاول أن أساعد الفلاحين الذين يجاورونني ، . الحق أن من الأفضل أن اعترف لنفسي بكل هذا في هذه اللحظة . والا فهل يتخيل المرء شيئاً أشد غباوة وحماقة من قصة كهذه القصة أروينا لها بصوت عال ؟ هذا هو السبب في ذلك الصمت المتكبر الصلف . هذا هو السبب في أننا كنا نجلس صامتين بغير كلام . ثم ما الذي كان يمكن أن نفهمه من الأمر ؟ ان سنّها ستة عشر عاماً ، فهي في مطلع الصبا . . . نعم ، ما الذي كان يمكن أن نفهمه من تبريراتي ومن تباريحي وعذاباتي ؟ ان طبعها بسيط ساذج ، وانها جاهلة بالحياة ، وان رأسها فوق ذلك كله مترع بالأراء السهلة التي هي من خصائص الشباب ، وهي تنصف بما تنصف به « النفوس الجميلة » من عمارة .

ثم هي ترى صندوق الاقراض بالربا ولا ترى سواء ! فأنسى لها أن تدرك ا
(ولكن هل كنت مرايباً جشعاً لا يرحم ؟ ألم تر بنفسها أنني لا أعتنى
كثيراً ؟) • آه ••• يا للحقيقة ما أشدها هولاً في هذا العالم ! الحقيقة
شيء رهيب ! ان تلك اللؤلؤة ، تلك الطفلة العذبة ، كانت طاغية مستبدة ،
كانت طاغية تسوم نفسي عذاباً لا يطاق • كانت لي جلاداً لا يرحم ! أظنون
أننى كنت لا أحبها ؟ من يستطيع أن يزعم أنني كنت لا أحبها ؟ يا لسخرية
القدر والطبيعة ! ان اللعنة تطارد حياة البشر ، حياة البشر عامةً ، وحياتي
أما خاصة • اننى أدرك الآن أن هناك أمراً أخطأت فيه التقدير ! ان هناك
شيئاً لم يحدث كما كان ينبغي أن يحدث • لقد كان كل شيء واضحاً أشد
الوضوح ، كانت خطتي صافية صفاء النهار : « هو قاس ، صلف ،
لا تواسيه تعزيات غيره ، فيتألم ويتعذب صامتاً » • كذلك كان الأمر •
أنا لم أكذب ! لم أكذب ! كنت أقول لنفسى : « لسوف ترى بنفسها أنني
أصدر عن سمو فى النفس ، وأنها لم تلاحظ ذلك • حتى اذا أدركت ،
قدرتى عشرة أضعاف قدرها لى الآن ، وارتمت على التراب ضامة ذراعيها
ضراعةً وابتهالاً » • تلكم كانت خطتي • ولكننى نسيت شيئاً ، أو غاب
عن بصرى شيء • هناك أمر غفلت عن تليته •

كفى ! كفى ! من أستغفر ، وممن أطلب العفو ؟ لقد انتهى كل
شيء • انتهى كل شيء • أيها الرجل الجسور ، كن متكبراً صلفاً ! لست
أنت المذنب !

لسوف أقول الحقيقة ؛ لست أخشى أن أقابل الحقيقة وجهاً لوجه :
انها • هي ، المذنبه ••• « هي » !

العزيماء

بدأت المشاجرات لأنها ارتأت فجأة أن تدفع للمقترضين ما تشاء هي ، وأن تقدر الأشياء المرهونة بمبالغ تفوق قيمتها كثيراً ، حتى لتعطي المقترض ضعفى قيمة الرهن ، وقررت أن تعاندى فى هذا . ولقد خالفتها فى الرأى . وعندئذ انما تدخلت حكاية امرأة الكابتن . . .

فى ذات يوم جاءت امرأة عجوز هى زوجة كابتن ، جاءت ترهن حلية مى مديّة أهداها إليها المرحوم زوجها . . . فهى كما ترون ذكرى . فقدمت إليها قرضاً قدره ثلاثون روبلاً . وقد أخذت المرأة ثمن بصوت شاك طالبةً الينا أن نحافظ على الحلية . وكنا سنحافظ عليها طبعاً ! ثم اقتضت خمسة أيام فاذا بالمرأة العجوز تعود الينا لتستبدل الحلية المرهونة بسوار لا تساوى قيمته ثمانية روبلات . فرفضت ذلك طبعاً . ولا بد أنها لاحظت فى نظرة زوجتى شيئاً حينذاك ، فجاءت ذات يوم أثناء غيابى فقبلت زوجتى أن ترد إليها الحلية وأن تأخذ منها السوار .

فلما علمت بالأمر فى ذلك اليوم نفسه ، قلت بضع كلمات مقتضبة ، ولكننى قلت تلك الكلمات بلهجة حازمة من أجل أن أردّها الى الصواب . كانت جالسةً على السرير تنظر الى الأرض وتلامس السجادة بطرف حذاء قدمها اليمنى (وتلك حركة مألوفة فيها) ، وكانت شفتاها تتقلصان بابتسامة ساخرة سيئة . لم أرفع صوتى صائحاً فى تلك المناسبة ، وانما

نبتتها بهدوء الى أن المال « مالى أنا » ، وأن من حقى أن أنظر الى الحياة نظرتى الخاصة ، وأنتى حين دعوتها الى بيتى لم أخف عنها شيئاً . فما ان سمعت هذا الكلام حتى وثبت واقفةً على حين فجأة ، وأخذت ترتجف وترتعد ، بل أخذت - مارأيكم ؟ - تضرب الأرض بقدميها غضباً وحقناً . وحش كاسر . نوبة عصبية ! وحش كاسر اعترته نوبة عصبية ! ذهلت . لم أكن أتوقع غضبة كهذه الغضبة أبداً . ولكننى لم أفقد سيطرتى على نفسى ، ولم أقم بأية حركة ، وانما أعلنت لها بذلك الصوت الهادىء نفسه اننى أحظر عليها أن تشارك فى عملى منذ اليوم . فأنفجرت تضحك ، وخرجت من المسكن .

الواقع أنها لم يكن من حقها أن تترك بيت الزوجية . ولقد اتفق رأينا منذ الخطوبة على ألا تذهب الى أى مكان الا بصحبتى .
وعادت فى المساء . ولم أنطق بكلمة .

وخرجت فى الغد ، وخرجت فى غداة الغد . فأغلقت مكتبى ، ومضيت الى بيت عمّتىها . كنت قد قطعت جميع علاقتى بهما منذ يوم زواجنا : فلا هما تأتيان الىّ ، ولا أنا أذهب اليهما فلمت هناك أنها لم تنجى الى عمّتىها . وقد أصفت العمتان الىّ مستطلمتين ، بل لم يفتهما أن تضحكا علىّ ، وقالتا لى : « مستحق ! » . ولم أكن أتوقع أن تستهزئا بى وتتهكما علىّ . ولكننى رشوت احداهما - وهى العانس - بمائة روبل دفعت لها منها خمسة وعشرين روبلاً على الحساب . فما انقضى يومان حتى جاءتنى العمّة العانس تقول لى : « ان لضابط من الضباط هو الليوتنان يافيموفتش الذى كان أحد رفاقك فى الجيش ضلماً فى الأمر ، . صعقتى هذا الكلام صعقاً . ان يافيموف هذا هو الرجل الذى ألحق بى الأذى والضرر فى الجيش أكثر من أى شخص آخر . وقد تجاسر منذ شهر فجاء الى مكتبى مرتين بحجة أنه يريد ايداع رهن واقتراض مال . وانى لأنذكر أيضاً أنه أخذ يمازح زوجتى . فاقتربت منه وأمرته بالألتأ

قدماء بيتى بعد الآن بحكم طبيعة العلاقات التى بيننا • ولكن لم تساورنى أية شبهة ولم يخامرنى أى ظن ؛ وكل ما انصرف اليه ذهنى أن الرجل سيء الخلق قليل الحياء • ولكن هاهى ذى العمة تتبشى الآن أنهما قد تواعدا ، وأن مدبرة هذه المكيدة امرأة كانت فى الماضى من صاحبات العمتين ، وهى أرملة اسمها جوليا سامسونوفنا كان زوجها كولونيلًا • وقالت لى العمة العانس : « اليها انما تذهب الآن زوجتك » •

لا داعى الى سرد التفاصيل • حسبى أن أذكر أنني ضيَّعت ثلاثمائة روبل ، ولكننى توصلت بعد يومين الى تدبير كل شىء على النحو الذى يكفل لى أن أكون فى الغرفة المجاورة للغرفة التى سيحتلها فيها ياقيموف بامرأتى لأول مرة ، فأتصت عليهما • وقبل أن يحين الموعد بيوم ، حدث بينى وبين زوجتى شجار قصير كان لا بد أن يبدو لى بليغ الدلالة •

لقد رجعت الى البيت فى نحو المساء ، فجلست على حافة السرير ، ونظرت الى ساهرةٍ بينما هى تضرب السجادة بنعل حذاءها • فاذا أنا يخطر ببالى على حين فجأة وقد وقع بصرى عليها أنها قد أصبحت فى هذا الشهر غير ما كانت ، حتى لقد اصبحت تقيض ذاتها • فهى الآن شديدة الخلق ، وشرسة الخلق كثيرة التعدى ، ولا أقول وقحة ، وانما أقول مضطربة زاخرة بروح التمرد • وكانت هى تحاول أن تستثير فى نفسها روح التمرد هذه • ومع ذلك كانت عنوبتها ورقتها ودماتها تمنعها من الانقياد للتمرد • ان المرأة العذبة الرقيقة الدمثة مهما تتجاوز الحدود فى انتقالها من الدمامة الى التمرد ، يظل يحس المرء أن طبيعتها ليست هى هذه الطبيعة ، وانما هى تكبر نفسها على العصيان اكراهاً ، ولا تفلح أبداً فى التغلب على كل خفر وكل تحفظ • وهذا النوع من المزايا هو الذى يحثُّ الخصم ويقبل سلاحه أكثر من سائر المزايا ، لأنه يجعله هو نفسه متردداً فى تصديق ما تراه عيناه • ولا كذلك النفس الداعرة الفاجرة ، فانها تستطيع دائماً أن

تكون أكثر قصداً واعتدالاً ، وتعرف كيف توغل في الدنائة مستترةً
بمظهر الأدب والحشمة ، فتُضِلُّك بذلك عن نفسها وتخدعك •

كسرت امرأتى الجليد فجأةً فقالت تسألنى ملتمة العينين :

- هل صحيح أنك طردت من الجيش لأني خفت من الاقتتال
في مبارزة ؟

- صحيح • رجيت أن أترك الجيش بطلب من الضباط ، رغم أنني
قدمت طلب تسريحى قبل ذلك •

- أطرودك اذن بسبب جبنك ؟

- نعم ، عدوا ذلك منى جبناً • والواقع اننى لم أرفض المبارزة
جبناً ، وانما رفضتها لأننى لم أشأ أن أخضع لحكمهم الباغى المستبد ،
فأدعو الى المبارزة على اعتقادى بأننى لم تنلنى اهانة •

ولم أستطع أن أكظم غيظى فأردفت أقول لها :

- هل تعلمين أن مقاومة هذا الاستبداد الباغى ورفض ما يترتب
عليه من نتائج دليل على شجاعة أكبر كثيراً من شجاعة الاقتتال فى أية
مبارزة ؟

لم أستطع أن أسيطر على نفسى فأمسك عن اطلاق هذه الجملة ،
فكأننى أردت بذلك أن أبرر سلوكى • وهذا بعينه هو كل ما كانت تريده :
أعنى هذه المذلة الجديدة من جانبى • فإذا هى تضحك ضحكة كاسرة •
وأردفت تسأل :

- وهل صحيح أنك كنت بعد ثلاث سنين تتشرد فى شوارع
بطرسبرج ، وتستعطى الصدقات ، وتنام ليلك على موائد البلياردو •

- وكنت أنام أيضاً فى « سوق العلف » بمنزل فيازمسكى • هذا

صحيح : فبعد خروجي من الجيش عشت فترة طويلة من الخزي والمار ،
والفاقة والبؤس ، ولكن أخلاقى لم تسقط ، لأننى كنت أول من يأسف
لما يصدر عنى من أعمال • لقد كان بؤسى بؤس ارادة وعقل ، ولم يكن
لهذا البؤس من مصدر الا ما كنت فيه من حالة اليأس الشديد • ولكن
هذا أمر مضى وانقضى •••

— آ ••• طبعاً ! أنت الآن شخص مرموق ، أنت الآن من رجال
المال !

وكان ذلك اشارةً منها الى أننى مراب طبعاً • ولكننى استنعت أن
أسيطر على نفسى وأن أتحكم بسلوكى • لقد رأيت أنها شديدة الرغبة
فى أن تحصل منى على ايضاحات يمكن أن تخفض قدرى وتهبط بقيمتى •
لذلك حاذرت أن أقول لها شيئاً • وواتانى الحظ فدقّ الجرس زبون
فمضيت الى الصالة للقاءه • وبعد ساعة ، بينما أخذت ترتدى ثيابها فجأة
لتخرج ، تسمرت أمامى وقالت لى :

— ذلك لا ينفى أنك لم تحدثنى بشىء من هذا كله قبل زواجنا •

فلم أجبها • وخرجت •

وفى الغد كنت لاطياً فى تلك الغرفة أتصتّ عليهما وأنتظر مصرى
واضعاً مسدى فى جيبي • كانت هى جالسة بقرب الطاولة ، وكان يافيموف
يتفنج أمامها • فماذا حدث ؟ (ان ما أقوله هنا يشرّفنى الى أقصى حد) •
لقد حدث ما كنت توقعته وافترضته دون أن أكون واعياً ذلك التوقع
وذلك الافتراض • لا أدرى هل أحسن التعبير ، فأجعلكم تفهمون ما أريد
أن أقول •

اليكم ما حدث • لقد ظللت أنصت ساعة كاملة ، فشهدت خلال هذه
الساعة مبارزة بين أنبل وأشرف امرأة وبين مخلوق حقير متصنع فاسق
خسيس النفس نذل • قلت أسائل نفسى مدهوشاً مذهولاً ! « كيف تعلمت

هذه المرأة الساذجة ، هذه المرأة العذبة ، هذه المرأة التي لا تتكلم الا قليلاً
 جداً ، كيف تعلمت هذا كله ؟ ان أبرع كاتب من كتاب المسرحيات الهزلية
 لا يستطيع أن يتفقق خياله عن مشهد فيه مثل هذه السخریات وهذا
 الضحك ، عن مشهد تعبت فيه الفضيلة أبداع العبث بالذيلة ، وتحتقرها
 أحسن الاحتقار . ما كان أحذقها في حديثها ، وحتى في أيسر ألفاظها ،
 وما كان أرهف ذكاءها في أجوبتها السريمة ، وما كان أصوب أحكامها
 في آرائها السديدة ! . وكانت في الوقت تدل على براعة بكر وسذاجة
 عذراء . كانت تضحك أشد الضحك من تصريحه بحبه ، ومن حركانه
 وإشاراته ، ومما يقدمه لها من عروض . لقد جاء الى هذا المكان وهو يتتوى
 أن يعمد الى هجوم مباغت ، وكان لا يتصور أن يصطدم بمقاومة ، فاذا
 بظنونه كلها تذهب ببدأ . كان يمكن أن أقترض في أول الأمر أن ذلك
 لم يكن منها الا دلالاً هو دلال امرأة لا يعوزها الذكاء في فجورها
 ولا تنقصها الفكاهة في خلاعتها ، فهي تحب أن تبديهما وتظهرهما معترزةً
 بهما . ولكن لا . لقد كانت الحقيقة تسطع سطوع الشمس . فلا سبيل
 الى الشك فيها . كل ما في الأمر أنها من بغضها لي ، وهو بغض متصنع
 مرده الى الحنق والغيط ، قد أمكنها لقللة خبرتها أن تدبر أمر هذا اللقاء .
 ولكن ما ان حان حين الانتقال الى الفعل حتى انفتحت عيناها على الفور .
 كانت تريد أن تهينني بجميع الوسائل ، ولكنها رغم أنها قورت أن تتدحرج
 في الوحل لم تتحمل رؤية مثل هذا الفساد . ثم هل يستطيع رجل مثل
 يافيموف أو أى شخص سخيّف تافه من نوعه أن يفتنها هي البريئة الطاهرة
 التي تسمى الى مثل أعلى ؟ بالعكس : ما كان لرجل مثله الا أن يثير فيها
 الضحك . كانت الحقيقة كلها تعصى وتمرد في نفسها ، وكان الغضب
 يجعلها ساخرة متهمكة . أعود فأقول ان هذا الشخص السخيّف المضحك
 قد 'شده من ذلك شدهاً شديداً ، وجلس في آخر الأمر كالحج الهيثه
 متجهه الوجه لا يكاد يجيب عن أسئلتها ، حتى لقد بدأت أخشى أن يأخذ

بشتمها ارضاءً لحقده الدنيء . وأعود فأكرر مرةً أخرى أن رؤيتي هذا
المشهد يغير دهشة أمر يشرفنى ، لقد كنت كمن التقى بوجه يعرفه بعد أن
غاب عنه زمناً ، وتعمّد أن يجيء الآن ليلقاء . لقد جئت وأنا لا أعرف
شيئاً ، ولا أحمل فى نفسى أى اتهام ، رغم تسلحى بمسدس فى جيبي .
تلکم هى الحقيقة . وهل كان يمكن أن أتخيل أن يكون الأمر غير ذلك ؟
لماذا كنت قد أحيتها ؟ لماذا كنت قد قدرت قيمتها ؟ لماذا كنت قد تزوجتها ؟
صحيح أنني كنت مقتنماً أشد الاقتناع بكرهها لى ، ولكننى كنت مقتنماً
كذلك ببرائتها وطهارتها .

هأنذا أنهى المشهد ، فأفتح الباب فجأة ، وأدخل عليهما . اتفض
يا فيموف . وأمسكت يدها ودعوتها أن تخرج معى . وثاب الى يا فيموف
رشده ، فانفجر يضحك على حين فجأة ضحكاً مجلجلاً متدفقاً ، وقال :

- آ . . . خذها ، خذها ، لا اعتراض لى على قداسة الواجبات
الزوجية .

وصاح يقول ورائى :

- واعلم أنني رهن اشارتك ، رغم أنه لا يسع رجلاً شريفاً أن
يبارزك دون أن يخفض قدره ، ويفقد حشمته . . . هذا اذا كان لك من
الشجاعة ما يدفعك الى طلب المبارزة . . .

قلت لزوجتى وأنا أجبرها على التوقف لحظةً فى العتبة :

- سمعت ؟

تم لم أقل لها كلمة واحدة طوال الطريق الى أن بلغنا بيتنا . وكنت
قد قبضت على ذراعها ، فلم تبد أية مقاومة . حتى لقد كانت مشدوهة
مذهولة . غير أن ذلك لم يطل كثيراً ، فما ان وصلنا الى البيت ودخلنا حتى

جلست على كرسى ، وأخذت تحدجنى بنظرة ملحة • كانت شاحبة اللون
شحوباً رهيباً • ورغم أن شفيتها قد عادت اليهما ابتسامتهما الساخرة فوراً ،
فإن نظرتها كانت تحداني تحدياً يحمل معنى الانتصار ؛ وأظن أنها لبثت
عدة دقائق موقفةً بأنى سأقتلها برصاصة مسدس • ولكننى أخرجت
سلاحي من جيبي بهدوء ، ووضعت على المائدة • (لاحظوا أن هذا المسدس
مألوف لها ، وأنى لقمته منذ فتحت مكتبي ، اذ كنت قد قررت حين فتحت
هذا المكتب أن أستغنى عن كلب حراسة وعن خادم قوى الجسم شديد
البأس كما يفعل موزير • وكانت الطباخة عندي هى التى تفتح البساب
للزبائن • ولكن يستحيل على من يتعاطون مهنتنا ألا يتخذوا احتياطاتهم ،
فمن باب الاحتياط لكل طارئ ، انما اقتنيت هذا المسدس وجعلته ملقوماً
على الدوام • وقد اهتمت هى نفسها اهتماماً كبيراً بهذا المسدس فى الآونة
الأولى من دخولها بيتى ، وسألتنى عن أجزائه واستعماله ، حتى لقد أفضتها
ذات يوم بأن تسدد الى الهدف وتطلق رصاصة • لاحظوا هذا كله) •
واستلقيت على سريري دون أن أخلع الا نصف ثيابي ، ودون ان أتبه
الى ما كانت تعبر عنه هيئتها من دهشة • كانت الساعة هى الحادية عشرة
تقريباً • وظلت فى مكانها ساكناً جامدة زهاء ساعة • ثم أطفأت الشمعة ،
واضطجعت على الديوان بدون أن تخلع ثيابها هى أيضاً ، متجهةً بوجهها
الى الحائط • تلك أول مرة لا نرقد فيها على سرير واحد • لاحظوا هذا
أيضاً •

ذكرى فظيمة

هنا مكان ذكرى فظيمة

استيقظت صباحاً فى نحو الساعة الثامنة فيما أظن ، وكانت الغرفة قد غمرها الضوء تقريباً . استيقظت دفعة واحدة ، واعياً كل الوعى صاحياً كل الصحو ، وفتحت عيني فجأة ، فرأيتها واقفة بقرب المائدة ، ممسكةً المسدس بين يديها . لم تترأنى استيقظت وأنتى كنت أنظر إليها . ورأيتها تقبل على بفتةً والمسدس بيدها . فأغمضت عيني فوراً ، وتظاهرت بأننى نائم نوماً عميقاً .

وصلت الى سريري ، ومالت على . وكنت أسمع كل شيء . ورغم أن صمتاً كصمت الموت خيم ، فقد كنت أسمع هذا الصمت . وحدثت عندئذ حركة متشنجة جعلتني أفتح عيني مرة ثانية على حين فجأة . فنظرت محدقةً الى عيني بنظرة ثابتة ، بينما استقرت فوهة المسدس على صدفي . التقى بصرانا . ولكننا لم ننظر أحدهنا الى الآخر الا لحظة واحدة . وأجبرت نفسى على أن أعود الى الاغماض ، واستجمعت شتات فكرى ، فعملت جاهداً على ألا أتحرك البتة ، وعلى ألا أعود الى فتح عيني مهما يحدث من أمر .

انه ليحدث فصلاً أن يكون امرؤ نائماً نوماً عميقاً ، فاذا هو يفتح عينيه فجأة ، أو حتى ينهض رأسه لحظةً وينظر حواليه ، ثم اذا هو

يهوى برأسه على المخدة بعد لحظة واحدة بدون شعور وينام من غير أن يتذكر شيئاً •

اننى بعد أن التقي بصرى بصرها وأحسست بفوهة المسدس على صدغى ، قد أغمضت عيني فجأة ، ولم أتحرك بعد ذلك البتة ، فكأنتى كنت نائماً نوماً عميقاً ، وكان فى امكانها أن تفترض أننى كنت نائماً بالفعل وأننى لم أبصر شيئاً ، ولا سيما أن اغماضى عيني بعد أن رأيت الأمر يكون شيئاً لا يعقل ان يحدث ، أو لا يحتمل أن يقع •••

نعم ، لا يُعقل أن يحدث ، لا يحتمل أن يقع • ولكنها مع ذلك استطاعت أن تحزر الحقيقة • خطرت هذه الفكرة فى ذهنى كالبرق • آه ••• يا لزوجة الأفكار والاحساسات التى عصفت فى نفسى ابان لحظة واحدة ! ان علينا أن نعجب أشد الاعجاب بهذه الكهرباء فى فكر الانسان • وأحسست فى تلك اللحظة أنها اذا حزرت الحقيقة وعرفت أننى غير نائم ، فلا بد أن يكون رضاي بالموت قد سحقها سحقاً ، ولعل يدها قد أخذت ترتجف • ولعل صدمة هذا الشعور الجديد الحارق قد حطمت ما كانت قد اتخذت من قرار • يقال ان الذين يقفون على ذروة عالية يحسون من تلقاء أنفسهم بانجذاب الى الهاوية • وأحسب أن كثيراً من حوادث الاتحار وجرائم القتل لم تقع الا لأن المسدس كان فى اليد • ثمة هوة هنا أيضاً ، ثمة انحدار مقداره خمس وأربعون درجة لا يملك المرء حين يحاذيه الا أن ينزلق الى تحت • ان نداءً لا يقاوم ولا يفالب يهيب بنا أن نضغط على الزناد • ولكن شعورها بأننى رأيت كل شىء ، وأننى أعلم كل شىء ، واننى أنتظر صامتاً أن تأتىنى منها الضربة القاتلة ، كان يمكن أن تعصمها من الانزلاق •

وطال الصمت • وأحسست على صدغى وعلى شعرى ببرودة ملمس الحديد • قد تسألوننى هل كنت آمل أملاً جازماً قاطعاً فى أن أنجو مرة أخرى • فاعلموا - والله على ما أقول شهيد - أننى كنت قد فقدت

كل أمل ، أو لو يكن أمل يزيد على واحد من مائة • فلماذا ارتضيت ان أموت ؟ انى لأسألكم : ما عسى تكون قيمة الحياة فى نظرى بعد المسدس الذى صوّبه الىّ انسان أعبدته عبادة ؟ ثم اتنى كنت أعرف معرفة لا يتسرب اليها الشك ان صراعاً قد نشب بيننا فى تلك اللحظة ، صراعاً هو مبارزة ضارية تنتهى بالحياة أو بالموت ، مبارزة من نوع المبارزة التى حضنتى عليها رفاقى فى الماضى ، ثم طردونى لاعراضى عنها جيناً • كنت أعلم ذلك ، وكانت هى تعلمه • هذا اذا صحّ أنها حزرت أننى لم أكن نائماً •

ومن الجائز ألا يكون شىء من هذا قد جرى ، من الجائز ألا أكون قد فكرت حينذاك فى ذلك كله ، ولكن أغلب الظن أن يكون هذا هو ما جرى ، لائى منذ ذلك الحين لم أتقطع عن التفكير فيه لحظةً فى ساعة من حياتى •

ولكن قد تسألوننى أيضاً : « لماذا لم تمنعها من اقتراف جرم فظيح ؟ » • فاعلموا أن هذا هو السؤال الذى ألقته على نفسى ألف مرة فيما بعد حين كنت أتذكر تلك اللحظة فتسرى فى ظهري رعدة • لقد كانت نفسى ممثلة حينذاك بياس مظلم : كنت أنا نفسى هالكا ، فمن ذا الذى كان فى وسعى أن أنقذه ؟ ثم ما أدراكم ! هل كنت أحرص فعلاً على أن أنقذ أحداً فى تلك اللحظة ؟ من ذا يعلم ما الذى كنت أحسه ؟

ولكن شعورى كان مع ذلك يقطاً • ومررت الثواني ، واران صمت كصمت الموت • ولا تزال هى ماثلة علىّ • ثم اذا أنا ارتعش أملاً • فأفتح عينى • فأرى أنها كانت قد غادرت الغرفة • نهضت عن سريري • وخرجت منتصراً غالباً ، بينما أصبحت هى منهزمة مغلوبة الى الأبد •

مضيت أجلس بقرب السماور • كان الشاي يشرب عندنا دائماً فى الغرفة الأولى ، وكانت زوجتى هى التى تصبّه • جلست صامتاً ، وتناولت من يديها كأس الشاي • وألقيت عليها نظرة بعد خمس دقائق • كانت

شاحبة شحوباً رهيباً مخيفاً ، كان شحوبها الآن أشد من شحوبها بالأمس •
وكانت تنظر الى • فلما لاحظت نظرتي اليها اذا بشفتيها اللتين زال عنهما
لونهما تلم^١ بهما ابتسامة باهتة ، واذا بعينيها تعبران عن سؤال • قلت
لنفسى : « معنى هذا أنها لا تزال تشك وتساءل : أيعلم أم لا يعلم •
أراى أم أنه ما راى ؟ » • أشحت نظري مصطنعاً قلة الاهتمام • حتى اذا
فرغنا من الشاي ، أغلقت المكتب ، ومضيت الى السوق فاشتريت سريراً
من حديد ، وحاجزاً • ورجعت الى البيت ، فوضعت السرير فى الصالة
وراء الحاجز • انه سرير لها ، ولكننى لم أقل لها عن ذلك كلمة واحدة •
فأدركت هى من وجود هذا السرير • أنتى رأيت كل شىء ، وعلمت كل
شىء ، ما فى ذلك ريب • وفى تلك الليلة تركت المسدس على المائدة
كعادتى فى كل ليلة • ورقدت هى صامتة على سريرها الجديد : لقد اضل
الزواج • « وغلبت هى لكنها لم 'يفغر لها » • وانتابها فى تلك الليلة
هذيان • وظهر فى الصباح أنها أصيبت بحمى حارة • فبقيت راقدة ستة
أسابيع •

الفصل الثاني

١

حلم خيلاء وصلف

أبلمتني لوكيريا منذ قليل أنها لن تبقى عندي ، وأنها ستمضي مني
تمّ دفن مولاتها • فركت على ركبتيّ وصلّيت خمس دقائق • كنت
أريد أن أصلي ساعة ، ولكنني لم أزد على أن أفكّر ثم أفكر مريض العقل
مريض الرأس ؛ وما فائدة الصلاة والنفس غارقة كلها في الائم ؟ والشئ
العجيب أنني لم أشعر برغبة في النوم أيضاً • ان المرء حين يعاني حزناً
كبيراً ، حين يكابد كرباً هائلاً بعد العنف الشديد في الانفجارات الأولى ،
لا يشتهي الا أن ينام • يقال ان المحكوم عليهم بالاعدام ينامون نوماً عميقاً
أشد العمق في ليلتهم الأخيرة • ولا بد أن يكون الأمر كذلك ، فهذا يوافق
الطبيعة ، والا لما استطاعت قوى الانسان أن تصمد •••

اضطجعت على الديوان ، ولكنني لم أستطع أن أغمض عيني •

••• أثناء مرضها الذي دام ستة أسابيع كنا نتناوب القيام عليها نهاراً
وليلاً أنا ولوكيريا وممرضة محترفة جئت بها من المستشفى • لم أحفل
بالنقعات • حتى لقد كنت لا أئسّد الا أن أنفق من أجلها • واستدعيت
الدكتور شرودر ، ودفعت له أجراً قدره عشرة روبلات • وحين عاد
اليها وعيها ، أصبحت لا أظهر لها الا من حين الى حين • ولكن ما حاجتي
الى ذكر هذا كله ؟ وظلت خلال مدة النقاهة جالسة في غرفتي قرب مائدة
صغيرة كنت قد اشتريتها لها مع السرير في تلك المرة ، وكانت تبقى جالسة

بهدهء لا تتطق بكلمة ••• نعم ، كسا نصمت • هذا صحيح • بل قل انا
قد بدأنا تبادل بعض الكلام ، ولكن أحاديثنا لا تتناول الا أموراً تافهة
مبتذلة • وكنت أتعمد طبعاً ألا أبتعد فى كلامى عن هذه الأمور المبتذلة •
وكنت ألاحظ أنها راضية عن هذا التحفظ • كنت أقول لىفسى : • انها
مهتزة أشد الاهتزاز ، مهتمة أكبر التهمد ، فيحسن أن أتبح لها الوقت
اللازم للنسيان واسترداد قوتها • • فعلى هذا النحو كنا نلتزم الصمت •
ولكننى كنت فى كل لحظة متأهباً لكل ما قد يطرأ • وكنت أقدر أن حالها
كحالى ، وكان يمصف بى شغف شديد رهيب بأن أسامل : • 'ترى فى
أى شىء تفكر الآن ؟' •

سأقول لكم شيئاً آخر • لا يتصور أحد طبعاً مدى ما عانيت من ألم
حين كنت أننُ' وأتتجب أثناء مرضها • ولكننى كنت أتتجب بينى وبين
نفسى ، وأكظم أئينى فى صدرى ، وأخفى شكاتى حتى عن لوكيريا •
وكنت لا أستطيع أن أتصور ، لا أستطيع أن افترض أنها قد تموت دون
أن تعلم شيئاً • وانى لأتذكر أننى حين زال عنها الخطر وارتدت اليها
العافية ، قد هدأت نفسى هدهء كاملاً بسرعة • وأكثر من ذلك أننى قررت
' أن أرجىء مسألة مستقبلنا ، ما استطعت ارجاءها ، وأن أدع الأمور على
حالتها الراهنة بانتظار أن تتجلى فى المستقبل الذى أوجو أن يبقى بعيداً •
نعم ، ان ما يحدث لى فى ذلك الحين كان شيئاً عجبياً قريباً لا أجد كلمة
تصفه الا أن أقول اننى كنت ' أتتصر ' ، وكان شعورى بهذا الانتصار
يبدو لى كافياً كل الكفاية • هكذا انقضى الشتاء كله • آ ••• كنت راضياً
مسروراً كما لم أكن راضياً ولا مسروراً فى أى يوم من أيام حياتى حتى
ذلك الحين ••• ودام رضائى وسرورى الشتاء كله •

اسمعوا • لقد مرت فى حياتى بظرف أليم كان الى ذلك اليوم ،
أى الى يوم تلك المصيبة التى نزلت بزوجتى ، جائماً على صدرى يختمنى
خفقاً فى جميع الأيام ، وفى كل ساعة من ساعات اليوم ، ألا وهو -

باختصار - فقد انى سمعتى وطردى من الجيش . وكان ذلك الأمر ظلماً لى ،
ظلماً مليئاً بالطغيان والاستبداد ، وخالياً من الرأفة والرحمة . هناك حقيقة
يجب أن أذكرها ، هى أن رفاقى كانوا لا يحبونى بسبب طبعى الذى كان
صعب المراس ، وربما كان باعثاً على الضحك ، وان كان يحدث فى كثير
من الأحيان أن ما يبدو لامرئ من الناس رائماً سامياً ثميناً مجيداً داعياً
الى الفخر مشرفاً يمكن أن يحمل على الضحك والقهقهة عصبه بأسرها
من الرفاق ، لا تدرى لماذا ولا كيف !

المهم أننى أنا لم أكن محبوباً فى يوم من الأيام ، حتى فى المدرسة .
ما أحببى أحد فى أى مكان ولا أى زمان . لو كبريا أيضاً لا تستطيع أن
تجنبى . ولكن ما وقع لى فى الجيش ، على أنه يرتبط بما يحمله لى رفاقى
من عواطف الكره ، انما كان مرئده الى مصادفة صرف . ويهمنى كثيراً
أن أكرر أنه لا شئ يسئ الى المرء ولا شئ يفوق طاقة المرء على الاحتمال
كأن يضع ويهلك بمصادفة كان يمكن ألا يحدث ، أو بتضافر عدد من
الظروف تضافراً مشثوماً ، وهى ظروف كان يمكن أن تتبدد كالدخان .
ذلك فى نظر الامسان الذكى اذلال لا يضارعه اذلال . واليكم تلك
المصادفة :

أثناء حضورى مسرحية من المسرحيات ، وفى فترة الاستراحة بين
فصلين من فصول المسرحية ، مضيت الى البوفيه لأصيب شيئاً من شراب .
فاذا بالضابط « آ . . . وف » ، وهو ضابط فى سلاح الفرسان ، يدخل الى
البوفيه بسرعة كسرعة الريح ، ويقول لرفيقتين من رفاقه بصوت عالٍ على
مرأى ومسمع من الجمهور وأمام ضباط آخرين ، ان قائد فوجنا بينومتسييف
قد أثار فضيحة فى دهاليز المسرح ، وأنه ربما كان ثملاً قد « أخذ السكر
منه كل مأخذ » . ولم يتصل الحديث . وكان عدا ذلك خطأً . لأن الكابتين
بينومتسييف لم يكن سكراناً ، ولا كان الأمر الذى حدث خليقاً بأن 'يعد'
فضيحة . وجرى الحديث بين ضباط سلاح الفرسان على شئ آخر ،

ووقف الأمر عند هذا الحد . ولكن فوجنا كان فى الغد على علم بالقصة ، وسرعان ما راج أنه لم يكن فى البوفيه أحد من ضباط الفوج غيرى ، واننى لم أحتج على « آ . . . وف ، حين قال ذلك الكلام الوقح عن الكابتن بيزومتسيف ، ولا اتجهت إليه بأى تقرير لأسكته . وفيم كان ينفج الاحتجاج أو التقرير ؟ اذا كان ضابط سلاح الفرسان حاقداً على بيزومتسيف لسبب من الأسباب ، فالقضية تكون قضية شخصية بين الرجلين فلا شأن لى بها ، ولا داعى الى تدخل فىها . ولكن ضباط فوجى لم يعدوا الأمر أمراً شخصياً ، واعتقدوا أن الاهانة قد لحقت بالفوج كله ؛ واذا لم يكن فى البوفيه أحد من ضباط الفوج غيرى حينذاك ، فاننى بسكوتى قد برهنت للنجهور والضباط الذين كانوا فى البوفيه أنه يمكن أن يضم فوجنا ضباطاً لا تثيرهم اهانة تلحق بشرفهم وتلحق بشرف فوجهم . وكان لا يمكن أن أسلم بهذا الرأى . وأبلغونى أننى مازلت أستطيع اصلاح الأمر ، اذا أنا ارتضيت ، رغم تأخرى ، أن أدعو الضابط « آ . . . وف ، الى المبارزة غسلًا للعار ، فلم أحبب ذلك ، وكنت محتداً فرفضت المرض بتكبر واستعلاء ، وسرعان ما قدمت استقالتى . تلكم هى القصة . لقد خرجت متطرساً ، ولكن محطماً . وشاعت المصادفة بما يشبه العمدة أن يكون زوج أختى ، الذى يقيم بموسكو ، قد بدد ارتنا المتواضع وحصى من هذا الارث ، فاذا أنا أجد نفسى فى الشارع لا أملك قرشاً .

ولقد كان يمكن أن ألتبس وظيفه مدنية وأن أحصل عليها ، لكننى لم أرتض لنفسى هذا : فكيف يمكن أن أقبل وظيفه من الوظائف فى السكة الحديدية ، بعد أن كنت أرتدى بزة عسكرية لألاءة متألقة . وأخذت أندهور : فمن دناءة الى دناءة ، ومن خزى الى خزى ، ومن اسفاف الى اسفاف ، اذ اخترت أن يكون شعارى هو : كلما ازددت سوءاً وشرأ ، كان ذلك أفضل وأحسن . قضيت على هذه الحال ثلاث سنين

ما أبشع ذكراها ! ثلاث سنين انجرفت فيها حتى الى منزل فيازمسكى .
ومنذ سنة ونصف سنة ، ماتت بموسكو امرأة عجوز غنية هي عرايتى ،
فاذا هى تورتنى فى وصيتها مبلغ ثلاثة الاف روبل . ففكرت فى أمرى ،
واتخذت قرارى فيما يجب علىّ أن أسلك من سبيل وأن أحترف من
مهنة . عزمت على أن أفتح مكتب اقراض برهون ، لا أستغفر احداً
ولا أطلب من أحد عفواً أو صفحاً . قلت لنفسى : بذلك أجنى مالاً ،
وأبنى أسرة ، فأبدأ حياة جديدة بعيدة عن ذكريات الماضى . تلکم كانت
مشاريعى . ولكن ذلك الماضى المشئوم وتلك السمعة التى تلمت شرفى الى
الأبد كانا لا ينفكان يعذبانى فى كل لحظة وفى كل دقيقة . وفى أثناء ذلك
تزوجت . فان سألتمونى هل كان ذلك مصداقة أم لا ، قلت اننى
لا أعرف . ولكننى كنت أعتقد حين أدخلتها الى بيتى أننى أدخل صديقة ،
فما كان أشد حاجتى الى صديقة ! وكان لا يفوت بصرى مع ذلك أن هذه
الصديقة كان ينبغى لى أن أهيتها وأن أعمل فيها بل أن أتصر عليها أيضاً .
فهل كان يمكننى أن أشرح الأمور دفعة واحدة ، لهذه المرأة الشابة
التى لا تتجاوز سنّها ستة عشر عاماً ، والتى تزخر نفسها بأفكار مستقرة
راسخة ؟ كيف كان يمكننى مثلاً ، لولا أن أسعفتنى المصادفة التى أدت
الى الكارثة الرهيبة ، أعنى مصادفة المسدس ، أن أقنعها بأننى لست جباناً
رعديداً ، وأن اتهامى فى الجيش بالجبن كان ظلماً . ولكن الكارثة قد
أوضحت كل شيء . فحين تحملت ملامسة المسدس لصدغى ، ثارت لكل
ماضى المشئوم . واذا لم يكن أحد قد عرف بذلك فقد عرفته « هى » ،
وكان هذا حسبى ، فقد كانت عندى كلّ شيء ، وكانت كلّ أمل مستقبلى
على نحو ما كنت أراه فى أحلامى ! ولو أردت أن أختار لهذا أحداً ، لما
اخترت غيرها ، فلم أكن فى حاجة الى أحد سواها ، وها هى ذى قد عرفت
كلّ شيء ، أو عرفت على الأقل أنها أفرطت فى التسرع والتعجل حين
انضمت الى أعدائى . فلا يمكن أن أكون بعد الآن فى نظرها جباناً ، بل
امسان غريب الأطوار فى أكثر تقدير ، وهذه فكرة لا يمكن أن تسوءنى

كثيراً بعد كل ما حدث : فليس عيباً أن يكون الرجل غريب الأطوار ، حتى ان هذه الصفة تعجب مزاج النساء في بعض الأحيان + الخلاصة أنني تعمدت أن أرجيء انتهاء الأمر الى آية خاتمة : فما حدث كان يكفيني ، كان يكفيني في ذلك الأوان من أجل أن يهدأ خاطري وتطمئن نفسي ، وكان الى ذلك يغذي أحلام يقظتي بصور كثيرة + ان أسوأ صفة مشثومة من صفات طبعي هي أنني امرؤ حالم ، فكانت لا تموزني موضوعات تدور عليها أحلامي في اليقظة . أما هي فأظن أنها د كانت تنتظر ، .

على هذه الحال انما انقضى الشتاء كله انتظاراً . وكنت أحب أن أتأملها خلسةً حين تجلس بقرب المائدة + كانت تعمل في تطريز بعض الأغنية . وكانت في بعض الأحيان تقرأ كتباً تأخذها من مكتبتى . فكان اختيارها كتباً من مكتبتى خليقاً هو أيضاً بأن يشهد لي بالفضل والتميز . وكانت لا تكاد تخرج أبداً . فكنت أصطحبها كل يوم عند الفسق بعد العشاء في نزهة ، فنتروض قليلاً ، ولكننا لا نبقى صامتين كل الصمت كما كنا في الماضي + كنت أحاول أن أتصرف تصرف من ليس يصت ، فكان تفاهماً تاماً قد قام بيننا . ولكننا ، كما سبق أن قلت ، كنا نحرص كلانا على ألا يطول بيننا الحديث . وكنت أفضل ذلك عامداً ، لاعتقادي بأن عليّ أن أترك لها « فسحة من الوقت » . ولا شك أنه أمر غريب أنني لم يخطر ببالى مرة واحدة حتى نهاية الشتاء ، أنني ان كنت أحب أن أتأملها خلسةً من حين الى حين ، لم أفاجئها تلقى على نظرة طوال تلك المدة ! وقد عزوت غضبها الطرف الى خجلها وحيائها . هذا الى أن هيئتها كانت زاخرة بمعاني المذلة والدمائة والمذوبة ، وكانت تبدو ضعيفة أشد الضعف واهنة أكبر الوهن منذ مرضها ! فكان الأفضل أن أنتظر ، وكنت أقول لنفسي : « لسوف ترجع اليك من تلقاء ذاتها يوماً » .

وقد اتفق لي في ذلك الشتاء أن قمت ببعض الحسنات متعمداً . فألغيت دينين ، وأقرضت امرأة فقيرة بعض المال بدون رهن ؛ ولم أذكر

ذلك لزوجتي ، ولا فعلته لتعلم به ، ولكن المرأة جاءت تشكر لي صنيعي
وهي تكاد تجثو على ركبتيها تعبيراً عن امتنانها • فشاع الأمر • وبدأ لي أن
امرأتي شعرت بسرور صادق حين علمت به •

ولكن الربيع كان يقبل ، وشارفنا على منتصف شهر نيسان (أبريل) ،
ونزعنا عن النوافذ مصاريعها المزدوجة ، وأخذت الشمس ترسل الى داخل
غرفتنا الصامتين أشعة دافئة قوية • ولكن غشاوة كانت لا تزال تثقل على
فكري وتبث فيه الاضطراب • غشاوة قاتلة رهيبة ! فكيف حدث أن زالت
تلك الغشاوة فجأة ، فإذا أنا أرى كل شيء وأفهم كل شيء ؟ أكان ذلك
بمصادفة محضة ؟ أكان ذلك هو اليوم الذي حدده القدر ؟ هل جاء شعاع من
شمس فأشعل في فكري المخبول تلك الفكرة ، وأثبت ذلك الاكتشاف ؟
لا ، لم يكن ذلك لا فكرة ولا اكتشافاً ، ولا بد أن شرياناً كان ساكناً
فتحرك ، أو أن وترأ كان جامداً فاهتز ، فإذا هو يضيء نفسي كلها على حين
فجأة ، وإذا هو يستثير كل خيالاتي الشيطانية • لقد انتفضت عندئذ
انتفاضة مباغتة ، مفاجئة ، لم تكن في الحسبان أبداً • وقع الحادث في
المساء ، الساعة الخامسة ، بعد العشاء •••

الغسالة التي سقطت

اليكم أولاً هاتين الكلمتين . كنت قد لاحظت لديها منذ شهر
اكتئاباً غريباً . لم يبق الأمر صمتاً بل صار اكتئاباً . ذلك أيضاً قد انكشف
لى فجأة . كانت جالسة تطرّز مائلة على شغلها برأسها ، فلا ترى أنني
أنظر إليها . فما كان أشد استغرابي ، على حين غرة ، حين رأيتها مهزولة
ذلك الهزال كله ، نحيلة ذلك النحول كله ! كان وجهها شاحباً ، وكانت
شقناها باهتين لالون لهما . ذلك كله شدّهنى بقتة الى أقصى حد ،
وكذلك ما يعبر عنه وجهها من أسمى وحزن وكآبة . وكنت قد سمعت
ذلك السعال القصير الجاف يخرج من صدرها قبل الآن ، ولا سيما فى
الليل . فما ان رأيتها هذه المرة على هذه الحال حتى مضيت الى الدكتور
شرودر فوراً دون أن أقول لها كلمة واحدة .

وجاء الدكتور شرودر فى الغد . فدهشت هى من مجيئه دهشة
كبيرة ، فكانت نظراتها تتجه اليه تارة ، وتتجه الى تارة أخرى . وقالت
وهى تبسّم ابتسامة لا يمكن تحديدها معناها :

- ولكننى بخير .

لم يفحصها الدكتور شرودر طويلاً (ان لهؤلاء الأطباء أسلوباً فى
التعالى عليك أحياناً) ، واكتفى بأن قال لى فى الغرفة الأخرى ان هذا من
نقايا مرضها ، وانها لن يضرها أن تسافر فى الربيع الى البحر تستشق

هواه ، أو أن تمضى الى الريف فى أقل تقدير • أى انه لم يقل شيئاً ،
سوى أنها تعانى من فقر فى الدم ، أو شيء من هذا القبيل •

وحين انصرف شرودر عادت تقول لى وقد لاح فى وجهها جد
شديد صارم :

- أنا بخير وعافية ، لست مريضة •

ولكنها حين قالت هذا الكلام اصطبغ وجهها بحمرة شديدة لعل
مردّها الى الحجل ، بل ان مردّها الى الحجل قطعاً ، فقد كان ذلك
واضحاً • آه • • اتنى أدرك هذا الآن : كانت تشعر بخجل من اتنى لأزال
زوجها ، ، واتنى ما زلت أهتم بها اهتمام زوج حقيقى • ولكننى لم أفهم
من ذلك شيئاً حينذاك ، ونسبت احمرار وجهها الى شعورها بالملذلة
(آه من العشاة !) •

وهأنذا ، بعد انقضاء شهر على ذلك ، فى نحو الساعة الخامسة من
الأصيل ، فى يوم ساطعة شمس من أيام شهر نيسان (أبريل) ، كنت
جالساً فى مكتبى أجرى بمض الحسابات ، فاذا أنا أسمعها تنددن فى الغرفة
المجاورة ، أثناء عكوفها على تطريزها ، أغنيةً من الأغنيات بصوت رقيق
خافت • فكان من شأن هذا الشيء الجديد الذى لا عهد لى به منها أن هزنى
هزاً قوياً • نعم ، واتنى لم أفلح فى فهم هذا الأمر حتى هذا اليوم •
لم أكن قد سمعتها تبنى قبل ذلك ، اللهم الا فى الأيام الأولى من دخولها
ببى حين كنا لا نزال تسلى بتصويب المسدس واطلاق النار على هدف •
وكان صوتها فى ذلك الحين قوياً رخيماً ، وكان سليماً ومطرباً رغم ما يدل
عليه من ضعف الثقة بالنفس • أما الآن فان غناءها ضعيف أشد الضعف !
لن أقول انه غناء حداد (ولقد كانت الأغنية احدى الرومانسات) ،
غير أن من يسمعه يحس أن صوتها مهشم ، وكأنه لا يستطيع أن
يخرج من صدرها ، وكان الأغنية نفسها مريضة • كانت تبنى بصوت

خافت ، فما ان يرتفع صوتها فجأة حتى يتحطم ، وكان من شدة النحول والفقر أنه يتحطم تحطماً يبرئ عن الانتحاب ويثير الاشفاق . واعترتها نوبة سعال قصيرة ، ثم عادت تترنم بأغنيتها بصوت لا تكاد الأذن أن تسمعه من فرط خفوته ***

لسوف تضحكون تهكماً على احتياجي . ولكن لن يفهم أحد في يوم من الأيام لماذا استبد بي انفعال شديد ا ان ما شعرت به لم يكن شفقة بعد . وانما كان ، في اللحظات الأولى على الأقل ، حيرة مفاجئة ، ودهشة رهيبية ، دهشة رهيبية عجيبة ، فيها ألم ، وفيها ما يشبه أن يكون حقداً ورغبة في الانتقام : « ماذا ؟ أتغنى بحضورى ؟ أنسيت اذن أنني هنا ؟ » .

بقيت في مكاني جامداً مضطرباً متحيراً ، ثم نهضت فجأة ، وخرجت كأنني نبت الى رشدى . والحق أنني لا أعرف لماذا قمت ولا ماذا أنوى أن أعمل . ومّدت الى لوكيريا معطفي .

قلت أسأل لوكيريا بغير ارادة :

- أهى تغنى ؟

فلم تفهم لوكيريا ونظرت الى مرتبكة . وكان من حقها ألا تفهم ، فالواقع أنه ما كان لأحد أن يفهم ما بى . وأردفت أسأل لوكيريا :

- أهى تغنى أول مرة ؟

فأجابت لوكيريا بقولها :

- بل يتفق لها أن تغنى أثناء غيابك عن البيت .

لا يزال الباقي كله مانلاً في ذاكرتى . نزلت السلم ، وخرجت الى الشارع لأمضى الى أى مكان . سرت حتى زاوية الشارع ، وسرّحت طرفى . كان يمر ناس فيصدموننى ، فلا أحس بشىء . وناديت حوذاً ، وأردت أن يقودنى الى « جسر الشرطة » ، لا أدرى لماذا . لكننى سرعان

ما عدلت عن هذه الفكرة ، فنقدت الحوذى عشرين كوبكاً وأنا أقول له
مبتسماً ابتساماً بلها • :

- جزاء ازعاجك بغير فائدة •

ولكن قلبي ارتعش في تلك اللحظة بنوع من الحماسة •

رجعت الى البيت وأنا أغذ الخطى • ان النعمات الحزينة من الأغنية
المحطمة قد ترجعت في نفسي على حين غرة • شعرت بأنفاسي تتقطع •
الغشاوة سقطت أخيراً عن عيني ، سقطت الغشاوة ! ما دامت قد عنت
بحضوري ، فمعنى ذلك أنها نسيت - الأمر واضح بقدر ما هو مريع •
أحس قلبي ذلك • ولكن الحماسة التي أشرفت في نفسي غلبت الروح •
يا لسخرية القدر ! هل كان في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء غير تلك
الحماسة ، بل هل كان يمكن أن يوجد في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء
غير تلك الحماسة ؟ فأين كنت أنا في ذلك الشتاء ؟ هل كنت مع نفسي ؟
صعدت السلم مسرعاً ، فلا أدري هل كان دخولي رزيناً • كل ما أتذكره
هو أن الأرض كانت ترقص تحت قدمي ، وأنتي كنت أحس بنفسى
عائماً في نهر • دخلت الغرفة • كانت جالسة في مكانها وكانت تطرز
مائلة برأسها على شغلها • ولكنها قد انقطعت عن الغناء • ألقى على نظرة
سريعة خالية ، نظرة ليست نظرة ، وإنما هي تلك الحركة الآلية التي
ليس فيها اكتراث ، الحركة التي تجريها حين يدخل أحد الغرفة •

مضيت إليها قدماً ، وجلست بقربها على كرسي كالمجنون •
فاذا هي تنظر الى فجأة مذعورة مرتاعة • تناولت يدها • ولا أتذكر
الآن ماذا قلت لها ، أو قولوا ماذا أردت أن أقول لها ، لأنني لم أفلح في
أن أرسل كلامي سليماً صحيحاً • وانجس صوتي ، وعقل لساني ،
فلم أعد أنطق بحرف • ثم انني كنت لا أدري ما غسانى أقول لها •
كنت أحتق احتقاً •

وفجأة تمتت أقول لها ببلاهة :

.. هلا تكلمنا .. قليلاً .. فولى لى شيئاً ..

نعم ، بهذه البلاهة خاطبتها ، ولكن هل كان يمكن أن أكون فى تلك اللحظة ذكياً ؟ فما ان نظرت الى وجهها لوجه حتى ارتشفت وترنحت من جديد ، واعتراها هلع شديد . ولكن « اندهاشاً قاسياً » لم يلبث أن ارتسم على وجهها . نعم ، كان ذلك اندهاشاً ، وكان قاسياً . نظرت الى وقد اتسعت حدقتها . فسرعان ما صعقتنى تلك القسوة ، سرعان ما صعقتنى ذلك الاندهاش القاسى . كان ذلك الاندهاش كأنه يسألنى رغم صمتها : « أما زلت اذن تطلب حباً ؟ حباً ؟ » ، قرأت ذلك فى وجهها رغم أنها لم تقل شيئاً . فاذا كل شىء فى نفسى يهتز ، واذا أنا أهوى على قدميها . نعم ، تهالكت على قدميها . فنهضت بوئبة واحدة ، ولكننى بقوة خارقة أمسكتها من ذراعها .

ذلك أننى كنت أدرك ما أنا فيه من كرب ويأس ادراكاً كاملاً . آه .. نعم ، كنت أدركه ! ومع ذلك - هل تصدقون ؟ - كانت الحماسة تغلى فى قلبى غلياناً يبلغ من القوة والصرامة التى لا سبيل الى قمعها أننى اعتقدت بأن حبنى قد حان ، وأنى أموت . طفقت أئتم قدميها سكرأ ونشوة وسعادة . نعم ، سعادة طافحة ، لا نهاية لها ، على علمى بأننى صرت الى يأس لا مخرج منه . وكنت أبكى ، وأتكلم دون أن أجد الى الكلام سيلاً . فاذا بالارتبايع والدمهشة يحل محلها عندها قلق وتساؤل ، فتتظر الى وقد لاح فى وجهها استغراب ، وحتى توحش . كانت تريد أن تفهم شيئاً بأقصى سرعة ، وكانت تنسم . ولقد أشعرها بخزى رهيب أن رأيتنى أقبل قدميها ، فسحبتني ، ولكننى قبلت عندئذ الموضع الذى كانت فيه قدمها من الأرض . فلما رأيت هذا ضحكت شعوراً منها بالحجل والحزى (هل رأيتم أحداً يضحك شعوراً منه بالحجل والحزى ؟) . وأوشكت أن تعثر بها نوبة عصبية . رأيت ذلك . كانت

يذاها ترتجفان • ولم أحترس ، فظلمت أتمتم قائلاً انى أحبها ، وانى
لن أكف عن حبها ؟ وأضفت أقول : « دعيني أقبل ثوبك ••• هكذا •••
سأقضى حياتى كلها مصلياً لك ، ضارعاً اليك ••• » نسيت الآن ما قلته
لها أيضاً • وانى لكذلك ، اذا هى تنفجر ناشجة منتحبة ، وتأخذ ترتعش •
هذه نوبة عصبية تعترىها • لقد روعتها •

نقلتها الى السرير • فلما انتهت النوبة ، جلست على سريرها وقد
بان فى وجهها ارهاق شديد واعياء قوى ، وأمسكت يدي ، وأخذت
تتوسل الى أن أهدأ ، وتقول لى : « لا تعذب نفسك ، هدىء بالك » ،
ثم استأنفت بكاءها • لم أتركها طوال المساء • وظلمت أقول لها انى سأخذها
الى بولونى لتستحم فى مياه البحر ، وانى سأفعل هذا الآن ، على الفور ،
بعد خمسة عشر يوماً ؟ وانى قد سمعت فى صوتها بالأمس من النحول
والتكسر والتحطم ما يجعلنى أقصرر أن أغلق المكتب ، وأيمعه الى
دوبرونرافوف ؟ واتما سنبدا كل شىء بدءاً جديداً ، واتما سنسافر خاصةً
الى بولونى ، الى بولونى ! فكانت تصنى الى كلامى ولا تكف عن
الارتياح ، وكان الجزع يجتاحها أكثر فأكثر • على أن أهم شىء فى
نظري لم يكن هو هذا ، وانما كانت تستبدى من جديد رغبة عارمة
قوية ما تنفك تشدد وتمنف فلا سبيل الى مقاومتها ومغالبتها ، وهى أن
أرتمى على قدمى زوجتى مرةً أخرى ، وأن آخذ بتقيلهما من جديد ،
وأن أألم الأرض التى وطئتها قدمائى ، وأن أرجوها مردداً فى كل لحظة
« لا أألمس منك الا شيئاً واحداً •• لا تحينى ، لا تلقى بالاً الى » ،
لا تكثرنى بى •• ولكن دعى لى أن أنظر اليك من الركن الذى أقبع فيه ،
اجعلينى متاهاً لك ، عدينى شيئاً من أشيائك ، احسينى كلبك الصغير ! ،
وكانت تبكى • وأقلت منها قولها بغير أن تريد ذلك :

- « كنت أقدر أن تتركنى على هذه الحال ••• » •

قالت ذلك على غير ارادة منها ، ولعلها لم تسمع ما قالته • ولكن

هذا الذى قالته كان أخطر كلامها شأنًا ، وأشدّه شوْمًا ، وأكثره استغلافاً على الفهم طوال السهرة ، وكان أشبه بطعنة نفذت فى قلبى حين سمعته ! لقد أوضحت لى تلك الجملة كل شيء ، كل شيء ولكننى أثناء وجودها بقربى أمام عينى ، لم يكن فى وسعى أن أفقد الأمل ، حتى لقد كنت أستشوق غير مساعدة لا حدود لها . آه . . . كنت فى ذلك المساء أرهاقها تعباً ، وكنت أدرك ذلك ، ولكننى لا أنفك أحلم بأن أصلح كل شيء على الفور ! وحين هبط الليل أخيراً ، خارت قواها وانهارت انهبارةً . فأقنعتها بأن تسام ، فسرعان ما نامت نوماً عميقاً . وكنت أتوقع أن تهذى ، فهذت فعلاً ، ولكن هذيانها كان خفيفاً . ولبثت الليل كله أقوم فى كل لحظة ، فاقرب منها ببابويجين دون أية ضجة ، لأنظر إليها ، وأتأمل وجهها . فكنت حين أرى هذا الكائن الصغير المريض ، الراقد على ذلك المضجع هناك ، على ذلك السرير المصنوع من حديد الذى اشتريته لها بثلاثة روبلات ، لا يسعنى الا أن أعقف يديّ أسفاً وحسرة . وكنت أجثو على ركبتى ، دون أن أجرؤ مع ذلك على أن أقبل قدمى النائمة (ولو فعلت لكان ذلك يخالف ارادتها ويسوؤها) . وكنت أحاول أن أصلى لله ، ولكننى لا ألبث أن أنهض بوثبة . وكانت لوكيريا تنظر الىّ ، ولا تنفك تخرج من المطبخ . فمضيت اليها ذات مرة وطلبت منها أن تنام ، وقلت لها ان كل شيء « سيُتدارك فى غد وسيتغير » .

وذلك ما كنت أومن بها إيماناً أعمى ، إيماناً مجنوناً . آه . . . كانت الحماسة تغمر قلبى ، تفرق قلبى ! كنت لا أنتظر الا أن يجيء الغد . والأنتكى من ذلك أنتى كنت لا أتصور أن تنزل بنا مصيبة ، لأننى كنت لا أرى شيئاً يندر بذلك . لم أكن قد استرددت رشدى كاملاً ، رغم أن الفشاوة تمزقت . ومضى وقت طويل قبل أن أسترد رشدى كاملاً ، وقت طويل امتد الى هذا اليوم ، بل اننى حتى فى هذا اليوم لم أصح صحواً تاماً . وأين لى أن أصحو صحواً تاماً فى ذلك الحين ؟ ألم تكن

لا تزال حية ، هي أمامي وأنا أمامها ؟ « غداً تستيقظ ، فاحكى لها كل
شيء ، وتكتشف كل شيء » • تلکم كانت خواطرى فى ذلك الوقت ،
واضحّة كل الوضوح ، بسيطة أشد البساطة ، ومن ثمّ كانت تتبع
حماسى الغامرة الفياضة ، وكانت فكرة السفر الى بولونى خاصة تؤجج
تلك الحماسة تأججا شديداً ، اذ كنت أتصور - لا أدري لماذا - أن
بولونى كل شيء ، وأن فى بولونى مستقراً لكل شيء • « الى بولونى ،
الى بولونى ! •••• » •

وعلى هذه الحال من الحرف والهديان ، انما كنت أنتظر طلوع
الفجر •

فهمت كل الفهم

ما رأيكم في أن هذا انما وقع منذ بضعة أيام فحسب ، منذ خمسة أيام ليس غير ، في يوم الثلاثاء الماضي ؟ نعم نعم ، لو أنها انتظرت بعض الانتظار على الأقل ، لو أنها تريثت قليلاً ، لو أنها تمهلت شيئاً من التمهّل ، اذن لاستطعت أن أبدد جميع الظلمات . ألم تكن قد هدأت ؟ بلى . لقد أصبحت منذ الغد تصنى الى مبتسمة رغم حيرتها وارتباكها . ان ما كنت ألاحظه فيها طوال ذلك الوقت ، طوال تلك الأيام الخمسة ، انما هو الحيرة والارتباك خاصة ، أو هو الحجل والحياء . وكانت خائفة أيضاً ، كانت خائفة خوفاً كبيراً . لا أنكر هذا . لست معجوناً فأزعم النقيض . كان ذلك خوفاً . ولكن كيف كان يمكن ألا تخاف ؟ كنا قد عشنا غريبين أحدهنا عن الآخر ، بيدين أحدهنا عن الآخر ، مدةً طويلة ، وحدث كل ما حدث مباغتاً أشد المباغتة ولكنني لم أكثر بمخاوفها : ان فجرأً جديداً يطلع ! والحق أنني ارتكبت خطأً فاحشاً . ذلك حق لا يمكن أن أمارى فيه . لقد ارتكبت خطأً منذ استيقظنا في الغد ، ذلك الصباح نفسه (يوم الثلاثاء) : أسرعت أعاملها كما تعامل صديقة . تعجلت . أسرفت في التعجل . ولكن كان لابد لي من أن أعترف لها ، كان لا غنى لي عن هذا الاعتراف . لا أقل من الاعتراف ! وهكذا بحت لها بما أخفيته حتى عن نفسي . بما أخفيته عن نفسي طول حياتي . قلت لها فجأةً انني خلال هذا الشتاء كله كنت واثقاً بحبها ؟ وكشفت لها عن

أن مكتب الاقراض هذا ليس لوجوده من سبب الا ضعف ارادتي وقلة ذكائتي ، وانه اسلوب ابتكرته لمعاينة نفسي والمباهاة بها في الوقت نفسه . وذكرت لها أن ما وُصفتُ به من جبن لم يكن تجنياً على بل كان حقاً ، اذ لقد جئت فعلاً في بوفيه المسرح ، لأنني رجل خائر العزيمة سيء الظن شديد المحاذرة ؛ وكان الجو الذي يحيط بي ، والبوفيه ، وكل ذلك ، قد ملأني دهشة . ثم هذا الأمر أيضاً : كيف كان يمكن أن أخرج من هذه الورطة دون أن أبدو للناس سخيفاً مضحكاً ؟ ان خوفي لم يكن من المصارعة ، بل من أن أظهر للملأ سخيفاً مضحكاً . ثم انني لم أشأ أن أوافق على المصارعة ، فأخذت أعذب جميع الناس ، فعدبتها هي أيضاً بسبب ذلك ، وتزوجتها بعدئذ من أجل أن أعذبها . الخلاصة أن أكثر كلامي لها كان كالهذيان . فأمسكت يدي ، وضرت الي أن أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك » . وطفقت تبكي من جديد ، وأوشكت أن تعثر بها نوبة عصبية أخرى ! وكانت لا تفك ترجوني أن أسكت وألا أثير هذه الذكريات .

ولكنني أغضيت عن ضراعاتها ولم أحفل بها ، وظللت أحدثها عن الربيع وبولوني قائلاً : هناك ستشرق الشمس . . . هناك ستلأ شمسنا الجديدة . وكنت لا أقول لها شيئاً غير هذا ! وأغلقت المكتب ، وعهدت بالعمل الى دوبرناروف . واقترحت عليها فجأة أن نوزع كل شيء على الفقراء ، الا الثلاثة آلاف روبل التي ورتها من عرّابتي ، فهذا المبلغ نسافر الى بولوني ، ثم نرجع من بولوني لنبدأ حياة عمل جديدة . على هذا اتفقنا ، لأنها لم تعترض بشيء ، لم تقل شيئاً ، واكتفت بالتبسم . وأظن أنها كانت تبسم كياسةً ولباقةً حتى لا تؤلني . وكنت أرى رؤية واضحة أنني أتعبها . لا تظنوا أنني بلغت من الأنايية والحماقة حداً يجعلني لا ألاحظ ذلك . لقد رأيت هذا كله ، رأيتيه بأدق التفاصيل . كنت

أرى وأعلم أكثر من أى انسان فى العالم • وكان يأبى كله مائلاً أمامى
تحت بصرى •

طفقت لا أحدثها الا عنها وعننى • وعن لوكيريا • قلت لها اننى
بكيت • وعرفت كيف أحرف الحديث عن مجراه • حرصت على أن
لا أثير ذكرى بعض الأمور • حتى ان هيئتها قد انتمشت مرة أو مرتين •
أذكر هذا ، أذكر هذا ! ما بالكم تزعمون أننى كنت أنظر فلا أرى
شيئاً؟ ولو أن ذلك ، على الأقل لم يحدث ، لكان هذا ابهائاً • ألم
تقصص علىّ فى غداة الغد ، حين جرى الحديث على القراءة وعلى ما قرأته
أثناء هذا الشتاء ، ألم تقصص علىّ ، وهى تضحك لهذه الذكرى ، مشهد
• جيل بلاس ، مع رئيس أساقفة غرناطة؟ وما كان أروع ضحكها ! كان
كضحك طفلة صغيرة ، ذكرنى بضحكها أيام الخطوبة (مدة لحظة ،
لحظة واحدة) • آه ما كان أسعدنى ! ومع ذلك لم تدهشنى قصتها عن
رئيس الأساقفة • وقلت لنفسى : معنى هذا أنها استطاعت فى خلال هذا
الشتاء أن تسترد كثيراً من هدوء البال والطمأنينة والسعادة ، حتى أخذت
تسلى بقراءة أثر من عيون آثار الأدب • معنى ذلك أنها أخذت تألف
الوضع وتتلاءم مع الظرف ، وأنها أخذت تؤمن حتماً بأننى سوف أتركها
• على تلك الحال ، • لقد قالت لى فى يوم الثلاثاء ذاك : « كنت أظن أنك
مستركنى على هذه الحال ، • تلك فكرة تراود خاطر صبية صغيرة فى
العاشرة من العمر ! كانت تعتقد فعلاً - كانت تعتقد بذلك - بأن كل شىء
سيبقى على تلك الحال ••• • أجلس أنا الى مائدتى ، وتجلس هى الى
مائدتها ، ونبقى على هذه الحال الى سن الستين • ثم هأنذا أتدخل تدخل
زوج • والزوج يطلب أن تحبه زوجته • فذلكم كان سوء فهمى • وتلكم
كانت عماوتى !••••

وكان خطأ آخر هو أننى كنت أتأملها فى حماسة • كان ينبغى لى أن
أكبح زمام نفسى ، لأن حماسى أخافتها • ولكن ألم أكبح زمام نفسى

حين كنت أمتنع عن لثم قدميها؟ وما من مرة هممت ... هياً ...
قلها ... نعم ... ما من مرة هممت أن أفعل ما يفعله زوج . حتى ان
ذلك لم يخطرلى على بال ؟ وكانت شفتاي لا تتحركان الا بالضراة
والرجاء .

على أننى ما كنت لأستطيع أن أسكت سكوتاً تاماً فما أنطق بكلمة !
لذلك رأيتنى أتعرف لها فجأة بكل المسرة التى أجنيتها من حديثها ، وأعبر
عن مدى ما أكنه من احترام لها وأصفها بأنها تفوقنى أدباً وثقافة فلا وجه
للمقارنة بينى وبينها فى مضمار الأدب والثقافة . فاصطبغ وجهها بحمرة
شديدة ، وخجلت خجلاً قوياً ، وقالت انى أبالغ . وفقدت عندئذ سيطرتى
على نفسى ، فاذا أنا أرتكب حماقة كبرى ، فأصف لها ما شعرت به من
سورات الحماسة حين كنت واقفاً وراء الباب أتصت على الهجوم الذى
شنته طهرها على ذلك الرجل السخيف المضحك ، وأصف لها ما ذقته من
لذة عاطفية حين كنت أسمع عباراتها اللاذعة ، وأشهد براعتها الساذجة .
فاذا هى يسرى فى جسمها كله ما يشبه أن يكون رعدة ، واذا هى تهتم
أن تقول اننى أبالغ ، ولكن وجهها لم يلبث أن اكفهر واربد ، ثم أسرعت
تدفن رأسها فى يديها وتنفجر باكياً ... فلم أستطع عندئذ أن أكبح
جماح نفسى ، فاذا أنا أركع من جديد ، وأهوى على قدميها ألتصمها ، واذا
بهذا كله ينتهى بنوبة عصبية أخرى تعترىها كما اعترتها نوبة عصبية فى
المررة الأولى . حدث ذلك فى العشية ، حتى اذا طلع الصباح ...

الصباح؟ يا لى من مجنون ! ... ان ذلك الصباح هو هذا اليوم ،
هو اليوم الذى نحن فيه ، هو منذ برهة ، منذ برهة ...

اصفوا الى ، وتابعوا ما أقوله . منذ مدة وجيزة ، حين افترقنا عقب
تناول الشساى (حدث هذا بعد النوبة العصبية التى اعترتها أمس) ،
أدهشنى ما رأيتة فيها من هدوء . تلكم كانت حالنا . وكنت من جهتى قد
قضيت الليل كله أرتعش وأرتجف تحت وطأة مشهد الأمس . ولكنها

اقتربت منى على حين فجأة ، وضمت ذراعيها احدهما الى الأخرى ابتهالاً (منذ قليل ، منذ قليل !) وأخذت تقول لى انها مجرمة وانها لا تجهل ذلك ، وان جريمته قد عذبها طوال الشتاء ولا تزال تعذبها الى الآن وانها تقدر شهامتى ومروءتى قدراً عظيماً وأضافت تقول : « لسوف أكون خليلتك الوفية ، وسوف أقدسك قديماً » .
فما ان سمعت هذا الكلام حتى انتفضت ، وهجمت أعانقها بندراعى كالجنون ! وقبلتها ، قبلت وجهها وشفتيها ، تقبل زوج زوجته ، لأول مرة منذ انفصالنا الطويل .

لماذا خرجت بعد قليل لأغيب عن البيت ساعتين ؟ خرجت لأنجز اجراءات جوازى سفرنا الى الخارج . آه يا رب ! لو أتنى رجعت قبل خمس دقائق لا أكثر اذن لكان يمكن ألا يحدث ما حدث ! ولكن هاأنذا أرجع الى البيت ، فأرى أمام بابنا حشداً كبيراً من الناس ، وأرى الأبصار كلها تشخص الى آه رياه !

وتقول لى لوكيريا (الآن لن أدع لوكيريا تنصرف بحال من الأحوال . انها تعرف كل شىء . بقيت عندنا الشتاء كله ، فسوف تقص على ما تعرف) ، تقول لى لوكيريا انها ، بعد خروجى من البيت بعشرين دقيقة فى أكثر تقدير ، دخلت على مولانها فى غرفتنا فجأة لتسألها عن أمر من الأمور ، فلاحظت أن الأيقونة (أيقونة العذراء تلك نفسها) لم تكن فى مكانها ، وأن مولانها كانت قد وضعت الأيقونة أمامها على المائدة ، وأن مولانها كان يبدو عليها أنها صلت للأيقونة فى تلك اللحظة نفسها .
قالت لى لوكيريا : سألتها : « ما بك يا سيدتى ؟ » ، فأجابتنى : « لا شىء يا لوكيريا ، اذهبى لثنائك ، بل انتظرى يا لوكيريا . » وتقدمت منى وقبلتنى . سألتها : « هل أنت سعيدة يا سيدتى ؟ » فأجابتنى : « نعم يا لوكيريا ، . قلت : « كان ينبغى لمولاي أن يطلب منك العفو منذ مدة طويلة . . . الحمد لله على أنكما تصالحتما » . قالت : « طيب يا لوكيريا ،

اذهبي الآن لشأنك يا لوكيريا ، وابتسمت مرة أخرى ، ولكن ابتسامتها كانت غريبة . كانت من الغرابة بحيث ان لوكيريا رجعت بعد عشر دقائق لترى ماذا كانت تفعل . « كانت مكبته على الحائط بقرب النافذة ، قد أسندت اليه احدى ذراعيها وأسندت الى الذراع رأسها . وبقيت على هذه الحال مستغرقة في أفكارها ، حتى لقد بلغت من شدة الاستغراق أنها لم تلاحظ أنني لبثت في الغرفة أنظر اليها . ورأيت في وجهها ما يشبه الابتسام ، ورأيتها تفكر ثم تبسم . نظرت اليها ملياً ، ثم استدرت في رفق وهدوء ، وخرجت واجمة مفكرة ، فاذا أنا أسمعها تفتح النافذة فجأة . فرجعت لأقول لها : « الهواء بارد يا سيدتى ، فحذار أن يصيبك برد » ، لكننى رأيتها ترتقى حافة النافذة المفتوحة ، وتقف عليها منتصبه القامة ، مديرة ظهرها الى ، محتضنة الأيقونة بيديها . فهبط قلبي فزعاً وصرخت : « سيدتى ! سيدتى ! » ، فسمعت صوتى ، وتحركت لتلتفت نحوى ، ولكنها لم تلتفت ، بل ترجحت ، وشدت الأيقونة الى قلبها ، ملقية بنفسها من النافذة ! » .

أذكر أنني حين اجتزت بوابة الفناء كان جسمها لا يزال حاراً . وأهول ما فى الأمر أن جميع الناس كانوا ينظرون الى . سمعت أول ما سمعت صرخات وصيحات ، ثم صمت المحتشدون كافةً وتتحوا عن طريقى ليفسحوا لى مرراً . كانت راقدة هناك ، قابضة على الأيقونة . أذكر ، كما يذكر المرء رؤية فى ظلمات ، أنني تقدمت صامتاً ، وتأملتتها ملياً . كان الجمهور قد ابتعد ، وكان يُقال لى شيء ما . وكانت لوكيريا هناك ، لكننى لم أبصرها . يقال لى انها كلمتى . اننى لا أتذكر الا ذلك البائع الذى كان لا ينفك يصيح قائلاً لى : « خرج من فمها خيط نحيل

من دم ، خيط ، خيط من دم ! ، ، وكان يشير لى الى الدم هناك على
الحجر . وقد لمست الدم فطلبت به أصبغى (أذكر هذا) ، بينما كان
البائع لا يزال يصيح « خيط نجيل من دم ا ، ، فما كان منى الا أن زارت
زئيراً شديداً فى أغلب الظن ، وشهرت قبضتى يدي ، وهويت عليه
آه يا للحادث القاسى ، الأليم ! سوء فهم ! غلطة ! شىء لا يعقل
حدوثه ! شىء مستحيل !

بسبب خمس دقائق من التأخر

أأكون واحماً؟ هل هذا كله 'يعقل حدوته؟ هل يمكن أن يقول أحد ان مثل هذا الأمر ممكن؟ لماذا ماتت هذه المرأة؟

صدقوا اننى أفهم الأمر • ولكن سبب موتها ••••• يظل سؤالاً قائماً •
لقد خافت من حبي • تساءلت جادةً : « أيجب أن أقبله أم لا ؟ » • فلما
لم تطلق احتمال هذا السؤال ، آثرت أن تموت • أنا أعرف ذلك ، أعرفه ،
فلا حاجة الى أن أصدّع رأسي • لقد تورطت في وعود مسرفة ، وخشيت
ألا تستطيع الوفاء بها ••••• الأمر واضح • تضافرت ظروف رهيبه •
هذا كل شيء •

ذلك أنتى أفساهل حقاً لماذا ماتت ؟ لا يملك المرء الا أن يعود الى
هذا السؤال • والسؤال قائم تحت جميعتها ينبض ويخفق • لقد كان
يمكننى أن أدعها على « تلك الحال » ، ما دامت هذه هي رغبتها •
ولكنها لم تصدقنى • وتلك هي حقيقة الأمر كله • لا ، لا ، اننى أكذب :
ما هذه هي حقيقة الأمر • بل حقيقة الأمر أنها كان سيجب عليها فى
المستقبل أن تحبنى حباً صادقاً ، حباً كاملاً تاماً ، لا كالحب الذى كانت
سنتهه للبقال • ولكنها كما كانت أعف وأطهر من أن ترتضى هذا النوع
من العاطفة التى تلاثم بقالاً ، قد رفضت أن تغشنى وتخدعنى • لم تشأ
أن تغشنى وتخدعنى بأن تهب لى نصف حب أو ربع حب فى حلة حب

كامل . كانت شريفة مسرقة في الشرف ، وكانت مستقيمة مغالية في الاستقامة . ذلك هو الأمر كله ! ألا ما كان أغباني حين أردت أن أعلمها رحابة الفكر ، هل تتذكرون ؟ فكرة غريبة عجيبه !

وهناك نقطة يهمني كثيراً أن توضح لي : ترى هل كانت تعتبرني ؟ لا أدري أكانت تحقرني أم لا . ولكنني لا أعتقد مع ذلك أنها كانت تحقرني . شيء غريب ! لماذا لم يخطر على بالي في يوم من الأيام طوال الشتاء أنها ربما كانت تحقرني ؟ لقد بقيتُ الى آخر لحظة ، الى اللحظة التي نظرت اليّ فيها « بدهشة قاسية » ، بقيت على يقين تام بنقيض ذلك . وحينذاك انما أدركت فجأة أنها تحقرني . فهمت ذلك مرة الى الأبد . آه ! أي ضير ، أي ضير في أن تظل تحقرني طوال حياتها شريطة أن تبقى حية ، أن تبقى حية ؟ انني لا أفهم أن تكون قد أقلت نفسها من النافذة ! منذ قليل كانت تمشي ، وكانت تتكلم ! وكيف كان يمكنني أن يخطر ببالي ما عقدت نيّتها عليه ، ولو قبل خمس دقائق ؟ لقد ناديت لوكيريا . لن أدع لوكيريا ترحل ، لا ، لن أدعها ترحل بحال من الأحوال .

أواه ! كان لا يزال في إمكاننا أن نتفاهم . صحيح أننا كنا في أثناء هذا الشتاء قد فقدنا كثيراً تعود أحدا على الآخر وألفته له ، ولكن ألم يكن في وسعنا أن نسترد ذلك التعود وتلك الألفة ؟ ان نفسي نبيلة سامية - وكذلك نفسها - فكان يمكن أن يكون هذا نفسه نقطة الاتصال والالتقاء ! لو تبادلنا بضع كلمات أخرى ، لو تريثت يومين آخرين ، يومين لا أكثر ، لكان يمكن أن تفهم كل شيء .

أنكى ما في الأمر أن هذا كله نمرة المصادفة ، نمرة مصادفة عمياء ، قاسية ، وحشية ، غادرة . ياله من ظلم وجور ! خمس دقائق ، لا أكثر من ذلك ، خمس دقائق من تأخر ! لو أنني رجعت قبل خمس دقائق ، لانقضت اللحظة المشثومة كما ينقض حلم ، ولما خطر الأمر بباليها بعد ذلك في يوم من الأيام . كانت ستفهم في النهاية . وبدلاً من ذلك ، هاهي

ذى العرف تقفر من جديد ، وهأنذا أبقي وحيداً مرة ثانية ؟ هل تسمعون
دقات الساعة ؟ ان الساعة لا يهمها الأمر انها لا تأسف لشيء ولا تتحسر
على شيء . آه . . . ألا يكون للانسان أحد فى هذا العالم . . . يا له
من حزن !

اننى أسير ذاهباً آيباً ، ولا أزيد على أن أذهب وأووب . أعلم
ما يدور فى أذهانكم ، أعلمه ، فلا حاجة بكم الى أن تقولوه : انه يبدو
لكم أمراً سخيفاً مضحكاً أن ترونى أسفا لمصادفة هذه الدقائق الخمس ؟
ولكن أسفى شيء يدركه الانسان بداهة . تذكروا أنها لم تترك حتى
ورقة تملن فيها أنه لا ينبغى اتهام أحد بأنه سبب موتها ، كما يفعل ذلك
جميع من ينتحرون . ألم يكن فى وسعها أن تقدّر أن من الممكن اطلاق
لوكيريا وازعاجها ، كأن يقال لها : « كنت وحيدة معها ، فلا بد أنك أنت
التي دفعتها . » على كل حال ، كان يمكن اعتقال بريئة لولا أن كان فى
فناء المنزل أربعة أشخاص رأوا من الخارج ومن نوافذ البيت كيف كانت
واقفة على النافذة محتضنة الأيقونة ، وكيف ألقت نفسها بنفسها الى تحت .
وانها لمصادفة على كل حال أن كان فى الفناء أشخاص رأوا . لا ، لا ،
ان ذلك كله هو ثمرة لحظة ، ثمرة لحظة من عدم الشعور بالمسئولية .
نزوة مباغته ! لماذا كانت تصلى أمام الأيقونة ؟ ليس معنى هذا أنها كانت
تنوي الموت . لعل المدة التي قضتها مكبة على الحائط ، مسندة رأسها
الى يديها ، مبتسمة ، لم تطل أكثر من خمس عشرة دقيقة ، فاذا هى
تتخذ قرارها . انها فكرة برقت فى رأسها ، فاعتراها دوار ، ولم تستطع
أن تقاوم نداء الانتحار .

هو سوء فهم لا أكثر . كان لا يزال فى وسعها أن تعيش معى .
ولكن ماذا اذا كانت مصابة بفقر الدم ؟ ماذا اذا كان مردُّ الأمر الى الأيميا
وحدها ، الى نضوب قوة الحياة ليس غير ؟ يكون الشتاء قد أتبعها وأخذها ،
فاذا هى . . .

لقد تأخرتُ !!!

ما أشد ما يبدو جسمها ناعلاً في التابوت ! ما أشد ما يبدو أنفها رقيقاً ! وان أهدابها تبدو أشبه بسهام . حين سقطت على الأرض لم تصب بجرح ولا كسر ! لم يظهر الا ذلك « الحيط النحيل من الدم » ، ان الدم الذى نرف منها يملأ ملعقة قهوة فى أكثر تقدير . كانت الإصابة داخلية . فكرة غريبة تخطر ببالى : لو أمكن ألا تدفن ؟ ذلك أنها اذا أخذت منى . . فسوف . . لا ، لا . . لا . . انه يستحيل تقريباً أن تؤخذ منى . آه . . اننى أعلم حق العلم مع ذلك أنها لا بد أن تؤخذ . ما أنا بمجنون ، ولست أهذى . بالعكس : ما كان فكرى فى يوم من الأيام صاحباً كصحوه الآن . ولكن ما معنى أن البيت عاد مقفراً ليس فيه أحد ، ما معنى أنه لم يبق الا غرفتان ، وأننى قد عدت وحيداً مع الأشياء المرهونة ؟ كابوس ! كابوس ! هذا هو الكابوس !

ما قيمة قوانينكم عندى بعد الآن ؟ بل فى أى شيء تنفنى عاداتكم وتقاليدكم وآدابكم وأخلاقكم وحياتكم ودولتكم ودينكم ؟ ما قيمة أن تحكم على محاكمكم ؟ ألا فلأجرى للمثول أمام القضاة ، ولأستجوب ، فأقول اننى لا أقر شيئاً من ذلك كله . ولسوف يزأر القاضى عندئذ قائلاً لى : « اسكت ، أيها الضابط ، فأصرخ أنا قائلاً له : « من أين لك هذه السلطة التى تجبرنى على طاعتك ؟ لماذا قنلت مصادفة عمياء أعزّ انسان على قلبى ؟ ما فائدة قوانينكم كلها . اننى أَسحب . نعم ، لا يهمنى . سأعتزل .

عماوة ! عماوة ! انها ميتة . انها لا تسمع ! ألا تدرين بأية جنة كان يمكن أن أحيطك ؟ كانت الجنة فى قلبى ، وكان يمكن أن أنقلها اليك فتحف بك . ولكن كان يمكن ألا تجيبنى ؟ فلتفرض هذا . كان يمكن أن تبقى الأمور على « تلك الحال » . ولكن كنت ستحكين لى ، كما يحكى صديق لصديقه ، شئونك الصغيرة ، وكنا سنبتسم ، وكنا سنبتسم

بينما ينظر كل منا فى عينى صاحبه فرحاً مرحاً • هكذا كان يمكن أن
نميش • واذا أحببت رجلاً آخر ، ما كنت سأهتم أو أكثر • كنت ستهين
معه ، وكنت ستهسين ، وكنت أنا سأحوّل بصرى الى جهة أخرى من
الشارع ••• آه ••• ما قيمة هذا كله ، بشرط أن تفتح عينها من جديد
مرة واحدة ! لحظة واحدة ، لحظة وحيدة ! وتنظر الى ، كما كانت تنظر
الى منذ قليل واقفة تحلف لتكونى لى خلية وفيه • آه ••• ان فعلت
أدركت كل شىء بنظرة واحدة !

يا للمقدر ! يا للطبيعة ! ان المرء وحيد على هذه الأرض • ذلكم هو
الشقاء • ان المجنوم الروسى الذى تحدثت عنه الأسطورة يهتف
سائلاً : « هل هنا أحد حى ؟ » • وانى لأهتف أنا أيضاً ، أنا الذى لست
مجنوماً ، فلا يجيبنى أحد • يقال ان الشمس تحيى الطبيعة • ان الشمس
تطلع ، انظروا اليها ••• أليست كأنها ميتة ؟ كل شىء ميت • ليس فى
كل مكان الا أموات • الانسان وحيد • كل ما حوله صمت • تلکم هى
الأرض ! « أيها البشر ، أحبوا بعضكم بعضاً » • من الذى نطق بهذه
الكلمات ؟ من أين يأتى هذا النداء ؟ من حمل هذه الرسالة ؟

ساعة الحائط تدق بغير احساس ، دقاً رتيباً منفراً • هى الساعة
الثانية من الفجر • حذاءها الصغيران تحت السرير • كأنهما ينتظران •
أواه ! ما عسانى أصير حين يأخذونها غداً • قولوا : ما عسانى أصير !

حلم و جد و فنون

١٨٧٧

«حلم رجل مضحك» نشرت هذه القصة أول مرة في جريدة
شهر نيسان (أبريل) ١٨٧٧ من «يوميات كاتب» (الفصل
الثاني)

حكاية عجيبه

أنا رجل مضحك . يقولون الآن انى مجنون . يكون هذا لقباً أعلى لو أنتى مازلت فى نظرهم مضحكاً . لكننى لن أزعج بعد الآن . فجميع الناس لطاف فى معاملتى ، حتى حين يستهزئون بى ويتهكمون علىّ ، بل هم ، حين يستهزئون بى ويتهكمون علىّ ، كأنهم أطف وأرق . لولا أنتى أشعر بحزن شديد حين أتأملهم ، لسرتنى أن أشاركهم الضحك ، لا على نفسى ، بل حرصاً على أن أسرهم . انى أحزن حين أرى أنهم لا يعرفون الحقيقة ، الحقيقة التى أعرفها أنا . ما أشق أن يكون المرء هو الوحيد الذى يعرف . ولكنهم لن يفهموا . لا ، لن يفهموا .

فى الماضى كان يؤمنى كثيراً أن أبدو مضحكاً . وأنا لم أكن أبدو مضحكاً ، بل كنت مضحكاً . لقد كنت طول حياتى مضحكاً ، وأنا أعلم أنتى وُلدت مضحكاً فى أكبر الظن . لعل سنّى كانت سبع سنين حين علمت أنتى مضحك . ثم درست بعد ذلك فى المدرسة الثانوية ، وفى الجامعة ، فكنت كلما أوغلت فى الدراسة مزيداً من الايغال علمت مزيداً من العلم أنتى مضحك . حتى لكأن علمى الجامعى كله لم يوجد الا ليبرهن لى ويشرح لى أنتى مضحك كلما ازددت تعمقاً له ، وتوغلاً فيه . وكان شأن الحياة كشأن العلم فى هذا . فكنت ، سنةً بعد سنة ، أزداد يقيناً بأننى أبدو شخصاً مضحكاً من جميع النواحي . لقد ضحك منى

واستهزأ بي جميع الناس في كل مكان وكل زمان . ولكن ما من أحد منهم خطر بباله أنه اذا وجد في هذا العالم انسان يعرف أكثر من سائر الناس أنتى مضحك ، فهذا الانسان هو أنا . لذلك كنت أشعر بنوع من الأسف والحسرة حين أرى أن أحداً لا يخطر له هذا على بال . والذنب في هذا ذنبى ، لأن خيالى منعتى دائماً من الاعتراف بسرّى . وكانت هذه الخيلاء تزداد مع تقدمى فى السن ، فلو اتفق ان انسقت فى يوم من الأيام فاعترفت لأحد من الناس ايا كان ، انتى رجل مضحك لهشمت رأسى بطلقة من مسدس فى مساء ذلك اليوم نفسه . لظالما تعذبت أثناء المراهقة حين كنت أتصور أنتى لن أستطيع أن أقاوم ، وانتى سأساق مرة على حين فجأة ، فأعترف بالأمر لرفاقى . ولكننى حين صرت شاباً هداً بالى واطمأنت نفسى لسبب أو لآخر ، رغم أنتى كنت أزداد اقتناعاً بشذوذى الرهيب سنةً بعد سنة ، وما ذلك الا لأننى مازلت الى هذا اليوم أجهل لماذا وكيف ! لعل مرددً ذلك الى تلك الكأبة الواسعة التى استولت على نفسى فى أعقاب ظرف يفوقنى كثيراً ، ألا وهو اقتناعى ، الذى أصبح راسخاً مستقراً ، بأن كل شىء فى هذه الحياة الدنيا « ليس له شأن » . كنت أشبه فى ذلك منذ مدة طويلة جداً ، ولكننى اقتنعت به اقتناعاً كاملاً ، وأيقنت منه يقيناً تاماً على حين فجأة . أحسست بفتةً أنتى لن يهمنى ألا يوجد العالم أو ألا يوجد شىء فى أى مكان ، فلو حدث هذا لما اكرمت له ولا حفلت به . وأخذت أدرك وأحس أن لا شىء فى نظرى موجود فى حقيقة الأمر . كان قد لاح لى دائماً حتى ذلك الحين أن أشياء كثيرة قد وجدت قبلى . فأدركت فى تلك اللحظة أن لا شىء كان له وجود من قبل ، أو قل انه لم يكن نمة الا مظاهر . واقنعت شيئاً فشيئاً بأنه لن يوجد شىء أبداً . فأصبحت عندئذ لا أعتاظ من الناس ولا أحنق عليهم ، وصرت أخسر الأمر لا أكاد ألظهم . وقد تجلت هذه الحالة النفسية فى ظروف من الحياة هى أتفه الظروف : فكان يتفق لى مثلاً وأنا سائر فى الشارع أن أصطدم بالناس ؛ ليس معنى هذا أنتى أكون مستغرقاً فى فكرة

من الأفكار ، فقد أصبحت في ذلك الحين لا أفكر في الأشياء التي ينبغي أن أفكر فيها ، لأن الأمور جميعاً قد استوت في نظري ، فلست أحفل بشيء ، وتركت حتى الاهتمام بحل المشكلات التي تعرض لفكر المرء ، ولم أحل منها مشكلة واحدة ، بل لا يعلم الا الله هل عرضت لفكرى مشكلات أصلاً . فمن « قلة أكثرائي » ، ذهبت المشكلات أدرج الرياح .

ولكن هأنذا أعلم الحقيقة . لقد انكشفت لي هذه الحقيقة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضى ، في اليوم الثالث من ذلك الشهر على وجه الدقة ، فأصبحت مائلة في ذاكرتى منذ ذلك الحين كل لحظة . حدث ذلك في ليلة مظلمة ، في ليلة كانت أحلك الليالى ظلاماً . كنت عائداً الى بيتى في نحو الساعة الحادية عشرة . أذكر ذلك . وكنت أفكر في أنه يستحيل على المرء أن يرى ليلة أحلك ظلاماً من هذه الليلة . وكان المطر قد انهمر طوال النهار ، وكان مطراً من أشد الأمطار برداً وكآبة ، بل كان مطراً فيه نوع من التهديد للبشر والعداء لهم أذكر ذلك . . . ثم اذا هو ينقطع عن الانهمار فجأة ، في نحو الساعة الحادية عشرة ، واذا برطوبة شديدة ترتفع من الأرض ، رطوبة أشد وأبرد من الرطوبة التي كانت منتشرة أثناء انهمار المطر . كان نوع من بخار يفوح من جميع بلاط الشوارع ، ومن كل زقاق ، حين تسرع طرفك في بعيد فترى الحارة من أولها الى آخرها . وبدا لي فجأة أن المرء يقل احساسه بالحزن والأسى اذا انطفأت مصابيح الغاز في كل جهة من الجهات ، فالى هذا الحد كانت أضواء مصابيح الغاز تحزن القلب بالقائها الضوء على هذا كله . لم أكن قد تعشيت في ذلك اليوم . وقد قضيت السهرة عند مهندس بصحة رقيقين له . فكنت أثناء السهرة صامتاً لا أتكلم ، فلا بد أننى أضجرتهم . وقد تحدثوا في أمور مثيرة ثم اذا بالنضب يستولى عليهم . ولكنهم كانوا في الحقيقة غير مكترئين - رأيت ذلك رؤية واضحة - وكانوا لا يتحمسون ذلك التحمس الا شكلاً بغير

مضمون . فاذا أنا أقول لهم فجأة : « يا سادة ، حقيقة الأمر أنكم غير
مكثرين ، فلم يفضوا ، ولم يزيدوا على أن ضحكوا لسماح هذه
الكلمات . وقد قلت لهم ذلك بلهجة لا تحمل أى معنى من معانى اللوم ،
وما قلته لهم الا لأن الأمر كان يبدو لى غير مثير للاهتمام أو الاكترات ،
وقد لاحظوا قلة اكترائى ، فاعترتهم نوبة مرح ، وطفقوا يضحكون .

حين دارت فى رأسى تلك الفكرة عن ضوء مصابيح الغاز وأنا فى
الشارع ، رفعت عينيَّ نحو السماء . كانت قبة السماء كلها تمتد مظلمةً
ظلاماً رهيباً . ولكن المرء يستطيع أن يميّز فيها مزق السحاب تمييزاً
واضحاً ، وأن يرى فى هذه السحاب بقعاً سوداً عميقة . وبينما كنت
أُنظر فى هذه السحاب اذ لمحت فى احدى تلك البقع نجمة صغيرة ،
فأخذت أتأملها مجدداً . ذلك أن تلك النجمة قد أيقظت فى نفسى فكرة .
قررت أن أتحرر فى تلك الليلة نفسها . كنت قد عزمت على الانتحار منذ
شهرين ، فاشترت ، رغم شدة فقرى ، مسدساً رائماً لقمته فى ذلك اليوم
نفسه . واقضى شهران والمسدس لا يزال نائماً فى الدرج . ولكننى بلغت
من قلة الاكترات بأى شىء أننى أصبحت أشتهى أخيراً أن تأتى الدقيقة
التي يبدو لى فيها الانتحار جديراً بالاكترات . لماذا ؟ لا أدرى . وصرت
كلما سرت عائداً الى بيتى فى الليل ، يخاطر ببالى أن أطلق الرصاص على
رأسى . وأخذت انتظر أن تجيء اللحظة الملائمة المناسبة . وها هى النجمة
التي أراها فى السماء توحى الىَّ بفكرة : أن أنفذ الليلة ما عزمت عليه ،
« حتماً » . فاذا سألتنى لماذا أيقظت تلك النجمة الصغيرة هذه الفكرة فى
نفسك ، لأجبتك بأننى لا أعرف ذلك معرفة تامة .

وفى تلك الأثناء ، بينا كنت أنظر فى السماء ، انما أمسكت تلك
البنت الصغيرة كوعى . كان الشارع مقفراً فى تلك الساعة ، أو قل انه
قد أخذ يقفر فلا يكاد يمر فيه أحد . كان هناك حودى ينفو على مقعده .

ان البنت الصغيرة هي في نحو الثامنة من العمر . كان رأسها مغطى
بمنديل ، وكانت ترتدى ثوباً رثماً ، وكان الماء يسيل عليها . ولكن بصري
وقع خاصة على حذاءيها المتقويين اللذين يتسرب منهما الماء الى قدميها .
مازلت أتذكر هذه الواقعة الى الآن . لقد خطف هذان الحذاءان انتباهي
أكثر من أى شيء آخر . وأخذت البنت الصغيرة تشدني من كوعى
منادية مستعجدة . كانت لا تبكي . وكانت تناديني متقطعة الصوت ،
موعوعةً بكلمات تعجز عن النطق بها بسبب البرد الذى كان يجعلها
ترتجف ارتجافاً شديداً . كانت تبدو مذعورة من شيء ما ، وتصيح
يااسة : « أمى ، أمى العزيزة ! » . التفت اليها ، ولكننى لم أقل لها كلمة
واحدة ، وتابعت سيرى . ركضت ورائى ، وشدتني من ذراعى ، بينما
كان يخرج من حلقها صوت أجش أبج هو ذلك الصوت الذى تسمعه
من الأطفال المذعورين واشياً بما اعتراهم من كرب ويأس . اننى أعرف
هذه اللهجة . وفهمت من وعوعتها ، رغم عدم اشتغالها على كلمات
ملفوظة ، أن أمها تحتضر فى مكان ما ، أو أن شيئاً من هذا القبيل قد
حدث لها اللحظة ، فركضت تبحث عن انسان أو شيء يفيث أمها .
ولكننى لم أتبعها . وأكثر من ذلك أتى خطر ببالى فجأة أن أنهرها
وأطرداها . قلت لها فى أول الأمر ان عليها أن تستنجد بشرطى . ولكنها
سرعان ما ضمت يديها الصغيرتين احدهما الى الأخرى ضارعة مبتهلة ،
وانفجرت تبكى لاهثة ، وظلت تسير الى جانبى لا تتركنى . فلم يسعنى
الا أن أشتتها قارعاً الأرض بقدمى . فلم تزد على أن تصيح قائلة :
« سيدى ، سيدى . . . » ، ثم تركنتى فجأة لتقطع الشوارع بسرعة
كالسهم ، ذلك أن رجلاً آخر ظهر على الرصيف المقابل ، فلا شك أنها
تركنى لتركض اليه .

صعدت السلم حتى بلغت مسكنى الذى يقع فى الطابق الرابع .
ان المسكن شقة مفروشة يقيم فيها مستأجرون مختلفون . وغرفتى فى

هذه الشقة صغيرة فقيرة ، ليس لها من نافذة الا نصف كوة • انانى ديوان مغطى بقماش مشمّع ، ومائدة عليها كئبى ، وكرسيان ، ومقعد قديم متقوض ، لكنه من طراز فولتير • جلست وأشعلت الشمعة واسترسلت فى التفكير • وكان فجور يملأ الغرفة المجاورة فى الجهة الأخرى من الحاجز • ان هذا الفجور قائم منذ يومين • فالشخص الذى يعيش فى تلك الغرفة كاتبن محال على التقاعد جاءه زوار أوغاد أوباش يبلغ عددهم زهاء عشرة ، وطفقوا يشربون مفرطين ، ويلعبون « الفرعون » بمجموعة قديمة عتيقة من ورق اللعب • وقد تشبت بينهم مشاجرة فى الليلة الماضية ، وعرفتُ أن اثنين منهم ظلا يتضاربان مدة طويلة • وكان يمكن أن تشكوهم المؤجرة ، ولكن الكابتن كان يرعها • ولم يكن فى البيت مستأجرون آخرون ، الا سيدة هزيلة نحيلة ضامرة هى أرملة ضابط من الضباط لها ثلاثة أطفال صغار ، فما ان ساقتهم المقادير الى هذا المسكن حتى مرضوا جميعاً • وكان الأولاد وأمهم يخافون الكابتن خوفاً يبلغ من الشدة أنهم يظنون يرتجفون ويصلون طوال الليل • حتى ان أصغر الأولاد قد اعتراه من ذلك ما يشبه أن يكون نوبة عصبية • وكنت أعلم أن هذا الكابتن يتحرش بالمارة على طول شارع نفسكى مستعظياً ايأهم صدقة • وما كان لأحد أن يعهد اليه بأى عمل لو سعى هو الى الحصول على العمل • ومع ذلك فان هذا الكابتن (ومن أجل أن أسوق هذه الواقعة انما أجيء على ذكره) لم يثر فى نفسى أى شعور بالنفور منه والكره له ، وقد اتقضى على سكناه فى هذا البيت شهر كامل • صحيح أننى منذ اليوم الأول قد تحاشيت أن تقوم بنى وبينه صلة ، ولو قد جالسته لسثم صحبتى على كل حال • وانما أحب أن أذكر أننى كنت لا أكثرث ولا أبالى ، مهما تكن الجلبة التى يحدثها هو وصحبه صاحبة ، ومهما يكن عددهم كبيراً • وقد تعودت ألا أرقد طوال الليل ، وكنت فى حقيقة الأمر لا أسمعهم ، حتى لقد نسيت فى النهاية وجودهم • اننى

لا أستطيع أن أغمض عينيَّ قبل بزوغ الفجر ، وذلك منذ سنة . لذلك أقضى الليل جالساً في الكرسي أمام المائدة لا أفعل شيئاً ، (فأنا لا أقرأ الا في النهار) حتى اننى لا أفكر فى شيء ، وانما أدع لأفكارى أن تطوِّف متسرِّدةً على ما يشاء لها هواها . وتذوب الشمعة الى آخرها . وقد جلست فى هذه المرة الى المائدة صامتاً ، وتناولت المسدس ، ووضعتة قريباً من يدي . وتساءلت حين وضعته قريباً من يدي (أتذكر ذلك واضحاً) : « أهذا مؤكد محقق ؟ ، وسرعان ما أجبت نفسى بأنه مؤكد محقق طبعاً ، أى بأننى سأنتحر لا محالة . كنت أعلم فى تلك الليلة أننى سأقتل نفسى يقيناً ، ولكننى كنت أتساءل عن المدة التى يجب أن أبقاها جالساً الى مائدتى أنتظر اللحظة الأخيرة . ذلك أننى كنت لا أعرف تلك اللحظة على وجه اليقين . وما من شك عندى فى أننى كنت سأنتحر تلك الليلة لولا أن لقيت فى الشارع تلك البنت الصغيرة . »

رغم اننى صرت لا أكثر بشيء ، فقد بقيت امرأ حساساً ، ولو حساساً بالألم مثلاً . فلو ضربنى أحد لتألمت . وقولوا مثل هذا عن الألم النفسى . فاذا حدث لى شيء محزن جداً شعرت بحزن كالذى كنت أشعر به من قبل ، كما أننى لمأ أفقد بعد كل اكترائى بكل ما فى الحياة . فكذلك أحسست منذ قليل بشفقة : لقد كان فى وسعى أن أغيب تلك البنت الصغيرة طبعاً . فما هو السبب فى أننى لم أغنها ؟ السبب هو تلك الفكرة التى انبثقت فى ذهنى بينما كانت البنت تشدنى من كدى منادية مستنجدة ؟ وهناك سبب آخر هو سؤال ألقى نفسه على فجأة ولم أستطع أن أجده جواباً . هو سؤال لا نفع فيه ولا فائدة منه ولا طائل تحته ، ولكنه أحقنى وأثار فى نفسى غيظاً شديداً . ولقد جاء الغيظ من هذا التفكير المنطقى : اذا كنت قد قررت أن أبارح الحياة فى هذه الليلة نفسها ، فان كل شيء فى هذه الحياة يجب أن يسمى غير مثير لاكترائى فى هذه الساعة أكثر من أى ساعة مضت . فلماذا أحسست فجأة بأننى لست غير مكترث بشيء ، واننى أرئى لحال تلك البنت الصغيرة وأشفق عليها ؟ أذكر أننى رثيت لحالها وأشفتت عليها اشفاقاً شديداً ، حتى أننى أسيت لها أسى لا يلىق البتة بحالى . اعترف لكم بأننى لا أفصح فى تصوير الاحساس الذى اجتاح نفسى حينذاك . ولكن ذلك الاحساس قد بقى فى نفسى لا يغادرها . فلما جلست الى مائدتى فى غرفتى كنت

فى حالة من الغيظ والحلق أشدّ من سابقها . وأخذت الاستدلالات المنطقية تتعاقب فى فكرى ويتصل بعضها ببعض ؛ فكنت أقول لنفسى : « من الواضح أننى إنسان ، وأنتى لست صفرآ ، وما ظلمت إنسانآ ، وما لم استحل صفرآ ، فانتى أحيا ، ويمكن اذن أن أتألم وأن أعناظ وأن أشعر بخزى من أفعالى . طيب . ولكن اذا انتحرت ، اذا انتحرت بعد ساعتين مثلاً ، ففيم يهمنى شأن تلك البنت الصغيرة ، وما فائدة ذلك الشعور بالخزى ، وسائر ما عداه ؟ سأكون قد استحلت الى صفر ، الى صفر مطلق . فهل ' يعقل ألا يكون لمعرفتى بأننى بعد قليل سأبارح الحياة مبارحة « تامة » ، وأن كل شىء مثلاً لن يكون له وجود فى هذا العالم ، هل ' يعقل ألا يكون لهذا أى تأثير لا فى شعورى بالشفقة على البنت الصغيرة ولا على شعورى بالخزى من الحفارة التى ارتكبتها ؟ ذلك أننى حين قرعت الأرض بقدمى ناهراً زاجراً إنما أهنت البنت التعميسة . وهذه الحفارة الحالية من الشعور الانسانى قد ارتكبتها ، لا لأبرهن على أننى أمسيت لا أحس بالشفقة فحسب ، بل أيضاً لأن كل شىء سينتهى بعد ساعتين ، . قولوا لى بصراحة : هل تصدقون أننى لهذا السبب إنما صرخت زاجراً ؟ اننى من جهتى أميل الى الاعتقاد بهذا . لقد كنت أتصور تصوراً واضحاً أشد الوضوح أن الحياة والعالم متوقفان على ' وحدى ؛ حتى ليتمكن أن أقول اننى كنت أتصور فى تلك اللحظة ان العالم لم ' يخلق الا لى وحدى : فيكفى أن أهشم رأسى برصاصة حتى لا يبقى للعالم وجود ، بالنسبة الى ' على الأقل . ناهيك عن أن من الممكن حقاً ألا يبقى للعالم وجود بالنسبة الى أى أحد بعدى ، وأن يزول العالم كله كزوال شبح متى زال ادراكى أنا ، لأنه ليس الا ادراكى له ، فمن الممكن أن يزول مادام العالم كله وجميع الناس قد لا يكونون الا أنا . أذكر اننى حين كنت جالساً الى مائدتى كنت استعرض هذه المسائل كلها واحدة بعد واحدة وأرى فيها آراء جديدة ، واكتشف لها وجوهاً جديدة وجوانب

جديدة • من ذلك مثلاً أن تصوراً غريباً قد عرض لفكرى فجأة • قلت
لنفسى : « هبنى عشت فى الماضى فى القمر أو فى المريخ ، وهبنى ارتكبت
هنالك عملاً من تلك الأعمال الشائنة البشعة الى أبعد حدود البشاعة ،
هبنى ارتكبت أحقر دناءة يتمثلها الخيال ، فصرت مجللاً بخزى وعار
رهيبين لا يتصور المرء مثلهما الا حين يصيبه فى نومه جاثوم ثقيل ؛ وهبنى
اسقطت فجأة فاذا أنا أجد نفسى على الأرض لا فى القمر ، ولا أزال
شاعراً بما ارتكبته من أعمال مشينة بشعة حين كنت فى الكوكب الآخر ،
ولكننى موقن يقيناً قاطعاً باننى لن أعود الى ذلك الكوكب الآخر فى يوم
من الأيام مهما يحدث ، أفلا تستوى فى نظرى « جميع » الأمور فى
القمر حين آخذ أتأمله من على ظهر الأرض ؟ أشعر عندئذ بالجزى من
ذكرى الجريمة التى اقترفتها ؟ أسئلة لا طائل تحتها وليست فى محلها ،
لا سيما وأن المسدس موضوع على المائدة أمامى ، وأنى أعرف بكل
جوانحى أن « الأمر » سينم انفاذه ؛ ولكنها أسئلة تثير فى جسمى حمى ،
وتبعث فى نفسى أقصى الاضطراب • فكان يستحيل على نوعاً من
الاستحالة أن أموت الآن ، اللهم الا أن أهتدى قبل ذلك الى حل
للمسألة • الخلاصة أن تلك البنت الصغيرة قد أنقذتنى من الانتحار • لأننى
بالاتقال من سؤال الى سؤال قد تجنبت طلقة المسدس • وفى أثناء ذلك
كان كل شىء فى غرفة الكابتن يسكن ويهدأ • فقد انقطعوا عن اللعب
بالورق ، وتهيشوا للنوم ، فلا يسمع المرء الا بضع دمدمات من حين الى
حين ، والا بعض الشنائم يتعاب بها صوت وسان • وحينذاك انما أخذنى
النوم فجأة ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث لى فى يوم من الأيام قبل الآن ،
أمام المائدة فى المقعد • نمت دون أن أحس باننى نمت • والأحلام ، كما
لا يجهل أحد ذلك ، أمرها غريب كل الغرابة : فبعضها يعرض لك
بكل ما فيه من حدة رهيبية ، واضحاً مفصلاً دقيقاً كدقة المصوغات حين
تخرج من بين يدي الصائغ ؛ وفى بعضها تتجاز الفضاء ، وتخرق الزمان
دون أن يخطر لك ذلك على بال • فمن الواضح أن ما يثير الحلم ليس هو

العقل بل الرغبة ، ليس هو الرأس بل القلب • ومع ذلك ما كان أبرع عقلي
في الأحلام أحياناً ! حتى انه ليقوم فيها بأعمال عجيبة يستعصي تفسيرها • من
ذلك مثلاً أن أختي ، وقد مات منذ خمس سنين ، يظهر لي في الأحلام ،
ويشاركني أعمالى ، فنعكف عليها مهتمين بهما أكبر الاهتمام مشغوفين بها
أشد الشغف ، ومع ذلك لا يغيب عن بالى مرة واحدة أثناء الحلم أن أختي
ميت وأنه مدفون • فكيف لا أحس بدهشة حين أراه جالساً بجانبى
يشاركنى عملى ، مع علمى بأنه ميت ؟ كيف يسهل على عقلى أن يقبل
هذا كله ؟ ولكن كفى ! فلأحدثكم الآن عن الحلم الذى رأيته • نعم ،
فى تلك الليلة انما رأيت ذلك الحلم ، حلم اليوم الثالث من شهر تشرين
الثانى (نوفمبر) •

بعض الناس يسخرون منى الآن قائلين ان ذلك ليس الا حلماً •
ولكن ألا يستوى أن يكون حلماً وألا يكون حلماً ، اذا كان هو الذى
بلّغنى « الحقيقة » • فما دمت قد رأيت الحقيقة الى الأبد ، فان معنى ذلك
أننى رأيتها فعلاً ، فلا حقيقة سواها ، سواء أجاتنى فى الحلم أم انكشفت
لى فى الحياة الواقعية • فليس يضيرنى ألا يكون ذلك الا حلماً • ان
هذه الحياة التى تضعونها فى أعلى منزلة كنت أنا فى تلك الليلة مستعداً
لانهايتها بطلقة مسدس • أما حلمى ، أما حلمى ، فقد بلّغنى رسالة
حياة جديدة ، رغبة ، متبشرة ، قوية •

• اسمعوا

قلت اننى نمت دون أن أحس بأننى نمت ، وكأننى كنت لا أزال أفكر فى تلك الأمور نفسها • وفجأةً حلمت بأننى تناولت المسدس ، وسددته الى قلبى مع بقائى جالساً ؛ سدده الى قلبى لا الى رأسى ، وكنت رغم ذلك قد قررت أن أطلق رصاصة فى صدغى الأيسر • فبعد أن وضعت فوهة المسدس على صدرى ، انتظرت ثانية أو ثابنتين ، ثم اذا بالشمعة والمائدة والجدار تهتز وترنح جميعاً فى آن واحد ، فأسرعت أطلق الرصاصة فى قلبى •

يحدث أحياناً فى الحلم أن ترى نفسك ساقطاً من مكان عال شديد العلو ، أو أن ترى أنك تُنظمن أو تضرب • ولكنك لا تحسن بألم أبداً ، اللهم الا أن تكون قد لکمت بيدك حديد السرير مثلاً ، فتحسن عندئذ بألم فتستيقظ • وكذلك حدث لى فى هذا الحلم ؛ لم أشعر بأى ألم من اطلاق الرصاصة فى قلبى ، ولكن خيّل الىّ اننى أحس بنوع من صدمة ، ثم زال كل شيء فجأةً ، ولبث غارقاً فى ظلمات رهيبية ؛ وكأننى قد صرت أعمى وأخرس ثم هأنذا مسجى تحت شيء صلب ، قد امتددت مقلوباً ، لا أرى شيئاً ولا أستطيع أن آتى بأيسر حركة ، والناس من حولى تسير وتصرخ ، والكابتن يُرعد ، والمؤجرة تُعول • وهؤلاء نفر يدهامون غرقتى من جديد ، وينقلوننى مكشوفاً فى تابوت ، فأحس بالتابوت يترجع

تحتي ويهتز ، فأفكر في هذه الواقعة ، ويدهشني لأول مرة أن أتصور
أنتي مت ، أنتي مت حقا . وصرت عالما بموتى كل العلم ، لا يساورني
فيه شك ولا ريب . انني لا أبصر ولا أتحرك . وان كنت أحس وأفكر .
على أنتي سرعان ما ألفت هذه الحال وفقاً لمنطق الاحلام ، وقبلت الواقع
بنير مناقشة ولا جدال .

وهاهم أولاء ينزلونني في الأرض ثم ينصرفون ، فأبقى وحيداً ، وحيداً
كل الوحدة ؛ ولا أستطيع أن أحرّك من أعضائي عضواً . انني قبل ذلك ،
أثناء سهري الليل ، حين كنت أطلق لحياي العنان فأتصور كيف ستكون
حالي في القبر ، كنت لا أربط بهذا التصور على وجه الاجمال الا الاحساس
بالرطوبة والبرد . لذلك أشعر الآن ببرد شديد جداً ، ولا سيما في أقصى
أصابع رجلي ، ولكنني لا أحس بشيء عدا هذا .

كنت مضجعا . ومن غريب الأمر أنني كنت لا أنتظر شيئاً ،
فأنا مسلم دون اعتراض بأن على الميت ألا يتوقع حدوث شيء . ولكن
الرطوبة شديدة . لا أدري كم انقضى من الوقت . لعل ما انقضى من
الوقت ساعة ، أو لعله عدة أيام ، أو لعله أيام كثيرة . ثم اذا بقطرة كبيرة
من الماء تسقط فجأة من خلال غطاء التابوت على عيني اليسرى التي كانت
مغمضة ، ثم اذا بقطرة أخرى تسقط ، وهكذا دواليك ؛ في كل دقيقة
تسقط قطرة . فأحس بغيظ عميق يكوى قلبي ، ثم لا ألبث أن أشعر
فجأة بألم جسمي في قلبي . قلت لنفسى : « هذا جرحي ، هذه هي
الرصاصة التي أطلقتها في صدري . . . انها تاوية في قلبي . . . » وكانت
قطرات الماء لا تزال تسقط دقيقة بعد دقيقة ، وتقع على عيني المغمضة رأساً .
فلم يسعني عندئذ الا أن أنادي ، ولكن ندائي لم يكن بصوت ، لأنني
جامد لا أتحرك ، وانما كان ندائي بكلامي كله ، ناديت الحكم الذي
يتصرف في كل ما كنتُ ألعوبة بيده . قلت له أياً كنت أنت - هذا اذا
سلمنا بأنك كائن ، وبأنه يوجد أي شيء . يمكن أن يعقل وجوده سوى

ما أنا العوبة بيده - ألا فلتسمح بألا يحدث هذا هنا ! اذا كنت تريد أن تتقم منى بسبب اتمحارى الاحمق ، فتوقع فى هذه السخرية وهذا البقاء السخيف بعد الموت ، فان التعذيب الذى تنزله بى ، كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ ، لن يساوى أبداً الاحتقار الصامت الذى سأحسه ، ولو استمر هذا التعذيب آلاف السنين ! * * *

كذلك قلت' ثم سكت * وانقضت قرابة دقيقة فى صمت عميق ، حتى ان قطرة ماء قد سقطت ، ولكننى كنت أعلم ، كنت أعلم وأوقن يقيناً فويلاً راسخاً لا يتزعزع أن كل شيء لابد ان يتغير فى هذه اللحظة نفسها ولا ريب * وها هو ذا قبرى ينفتح فجأة ، أو قل لا أدري اهو قد فتح ام هو قد ذاب ، ولكننى أعلم أن كائناً غامضاً لا اعرفه قد أمسكنى ، ثم اذا نحن كلانا نظير فى الفضاء * وُرداً الى بصرى على حين غرة ، وكان الليل عميقاً ما رأيت ظلاماً كظلامه الحالك قبل ذلك ابداً ، أبداً * لم أسأل ذلك الذى كان ينقلنى * وانما انتظرت لائذاً بكبريائى منطوياً على خيلائى * كنت مقتنعاً بأننى غير خائف ، وكنت فى نشوة من حماسى لعدم خوفى * لا أذكر الآن كم طال طيراننا ، ولا أستطيع ان أتصوره : حدث ذلك كله كما يحدث دائماً فى الحلم حين يجتاز الحلم تخوم الزمان والمكان ، مخترقاً كل قوانين الوجود والعقل ، وحين لا تلبث الا على النقاط التى يرنسو اليها قلبه * أذكر أننى أبصرت فى الظلام نجمة صغيرة على حين فجأة * فلم أستطع أن أمسك عن سؤال صاحبى الذى كان يطير بى : « أهذا كوكب سيربوس » ، مع اننى كنت أتمنى كثيراً أن أمتنع عن القاء السؤال عليه ، فأجبنى بقوله : « بل هذا هو الكوكب نفسه الذى لمحتّه بين السحاب حين كنت عائداً الى بيتك * * * »

كنت أعلم أن هذا الكائن الذى يطير بى له مظهر انسان * ومن غريب الأمر أننى لم أحب هذا الكائن ، حتى لقد كان يوقف فى نفسى كرهاً عميقاً له * لقد كنت أنتظر العدم المطلق ، ومن أجل أن أصل الى العدم

المطلق انما أنفذت رصاصه فى قلبى ، فما بالى أجد نفسى بين ذراعى
كائن ليس هو بالانسان حتماً ، ولكنه « موجود » قطعاً . قلت لنفسى :
« فلا بد أن هناك حياة اخرة تلى القبر ا » ، قلت لنفسى ذلك مدفوعاً
بما فى الحلم من خفة غريبة وطيش عجيب ، ولكن هذا لا ينفى أنى
احتفظت فى قرارة قلبى بميزتى الأساسية ، فقلت لنفسى : « اذا كان
المقصود هو أن « أوجد » من جديد ، وأن تحينى ارادة لا مفرّ منها
حياةً أخرى ، فانى لا أريد أن أكون مغلوباً ولا أريد أن أذلّ » . فقلت
لصاحبى فجأة أسأله دون أن أستطيع كظم هذا السؤال الذى يشتمل
على اعتراف كامل ، حتى لقد شعرت من هذا الجبن بابرة تنقب قلبى نقياً :
« أنت تعلم أنى أخشاك وأهابك ، وهذا هو السبب فى أنك تحقرنى » .
فلم يجب ، ولكننى أحسست على الفور أنه لا يحقرنى ، وأنه لا يسخر
منى ، وحتى أنه لا يشفق علىّ ، وأن رحلتنا تمتد الى غاية مجهولة
سرية لا شأن لأحد بها غيرى ، ولا تتعلق الا بى . فازداد الرعب فى
قلبى . وانتقل سكوت صاحبى الىّ ، ونفذ فىّ حضوره الصامت مؤثماً بعض
الألم . كنا قد توغلنا فى ظلمات لا قرار لها ، وكانت الكواكب التى ألفتها
عيناي قد غابت عنى منذ مدة طويلة . وكنت أعلم أن فى آخر السماء
نجوماً لن تصل أشعتها الى الأرض الا بعد ألوف السنين وملايين السنين .
فعلنا قد قطعنا تلك الفضاءات كلها . كنت أنتظر شيئاً ما ، وكانت نفسى
زاخرة بحنين أليم يطمن القلب . وانى كذلك اذا بعاطفة أعرفها كل
المعرفة ، عاطفة توظف الماضى ايقاظاً قوياً عميقاً ، تهز كيانى كله على حين
فجأة . لقد عدت أرى الشمس ! كنت أعرف أن هذه الشمس التى أراها
لا يمكن أن تكون شمسنا « نحن » التى ولدت أرضنا ، وكنت أعرف أننا
قد بعدنا عن شمسنا بعداً لا نهاية له ، ولكننى كنت أدرك بينى وبين
نفسى أنها شمس تماثل شمسنا ماثلة مطلقاً ، فهى منها بمثابة الصدى
أو هى لها نظير . فغمر نفسى حنان كبير بثّ فيها الحماسة : ان قوة الضياء

الذى خلقنى قد ترّجعت فى قلبى وأحيته ، وأحسست بعودة الحياة ، الحياة القديمة ، لأول مرة منذ أن نزلت الى القبر .
وهتفت أقول لصاحبى سائلاً :

– ولكن اذا كانت هذه هى الشمس ، اذا كانت هذه شمسنا نفسها ، فاين هى الأرض ؟

فأرانى صاحبى كوكباً يشبه زمردة براققة فى ظلام الليل . وكنا نتجه فى طيراننا الى ذلك الكوكب .

– ماذا ؟ هل أمثال هذه العودات ممكنة اذن فى هذا الكون ، وهل يمكن أن يكون هذا هو قانون الطبيعة ؟ واذا كانت هذه أرضاً ، فهل يمكن أن تكون هى أرضنا نفسها . . . أو أن تكون مثلها تماماً فى الشقاء والفقر ، وفيما نضمّره فى أنفسنا مع ذلك من حب لها وشغف بها الى الأبد ، هل يمكن أن تكون أرضاً تعرف كيف تحبب بها أبناءها ، حتى أحجدهم وأشدّهم عقوقاً ؟

كذلك هتفت أسأل صاحبى وأنا ارتعش بحب لا يقاوم ، متحمساً لهذه الأرض التى ولدت فيها ثم هجرتها . ومررت فى خاطرى بسرعة كسرعة البرق صورة البنت الصغيرة المهانة المذبذبة . قال لى صاحبى :

– ستعرف كل شئ .

وكان فى كلماته ما يشبه أن يكون نبوة أسى .

ولكننا كنا ندنو من الأرض دنواً سريعاً ، فكان حجمها يكبر فى نظرى ؛ فلما أخذت أميّز المحيط وحواشى أوروبا ، اذا بغربة غريبة تشتعل فى قلبى ، غيرة نيلية مقدسة . قلت لى نفسى : « كيف يمكن أن يحدث هذا التكرار ؟ وما جدواه ؟ اننى أحب هذه الأرض التى غادرتها ، ولا يمكن أن أحب سواها ، هذه الأرض التى بقيت عليها لطخات من

دمى حين عمدت ، أنا الابين العقوق ، الى انهاء حياتى برصاصه أطلقتها
فى قلبى • وما كفت فى يوم من الأيام عن حب هذه الأرض قط ، حتى
فى تلك الليله التى ودعتها فيها ، بل لعلنى كنت أحبها عندئذ حباً أقوى
استناراً بالنفس وأشد تقطيعاً للقلب من حبنى لها فى أى وقت مضى •
هل الالم موجود على هذه الأرض الجديدة ؟ لقد كنا هناك فى أرضنا
لا نستطيع أن نحب الا بالأم ، ولا نستطيع أن نحب الا من خلال الألم •
فنحن لا نحسن أن نحب الا هذا الحب ، ولا نعرف حباً آخر • فأننا أطلب
الألم لأستطيع أن أحب • ما أقوى سهوتى وما أشد ظمئى الى أن أعانق
تلك الأرض وحدها باكياً ، تلك الأرض التى أحببتها وهجرتها ، ولا أريد
أن أعيش فى أى أرض أخرى غيرها ، بل أرفض أن أعيش فى أى
أرض أخرى غيرها ! •••••

ولكن صاحبى كان قد تركنى • واذا أنا أجدنى فجأة على تلك
الأرض الأخرى قبل أن يخطر ببالى ذلك ، غارقاً فى الضياء الساطع من
يوم مشمس جميل كجمال الجنة • فخيّل الى أننى هبطت الى واحدة من
تلك الجزر الصغيرة التى يتألف منها على أرضنا أرخيل اليونان ، أو هبطت
فى مكان آخر على خرائب قارة بجوار الأرخيل • كان كل شىء فى تلك
الأمكنة شبيهاً بما عندنا شبيهاً تاماً • ومع ذلك كان كل شىء يشع منه نوع
من الجبور والجلد والرصانة والأبهة ، يقارب الروعة • وكانت مياه بحر
كالزمرد تنكسر تنكسراً خفيفاً على الشاطئ ، فتلعبه ملاعبه فيها حب
ظاهر واضح يشبه أن يكون واعياً • وكانت تنتصب فى الفضاء أشجار
باسقه فارعة الأغصان تتألق بفرارة نسغها ووفرة أوراقها الصغيرة الكثيفة ؟
ولا شك أنها كانت تحينى بحفيفها الرقيق اللطيف ، وكأنها تتمتم لى
بكلمات حب • وكان المرح يزدهى بنبت دافىء عذب لذيد • وكانت
الطيور تشق الهواء أسراباً ، وتأتى الى بلا خوف فتحط على كفتى ويدي
وهى تصفق بأجنحتها الراضة صققاً فرحاً • وأخيراً رأيت سكان تلك

الأرض السعيدة جاؤا الى من تلقاء أنفسهم ، وأحاطوا بي ، وعانقوني
وقبلوني • أبناء الشمس ، أبناء شمسهم ••• ألا ما كان أجملهم !
ما رأيت فى يوم من الأيام مثل هذا الجمال فى الانسان على أرضنا ! قد
تستطيع أن تلمح لدى الأطفال عندنا ، فى السنين الأولى من حياتهم ،
شيئاً يشبه أن يكون صورة باهتة ضعيفة لهذا الجمال الذى رأيت فى
سكان ذلك الكوكب من البشر • ان أعين هؤلاء السعداء تشع ببريق صاف
وضاء • وان وجوههم تشرق بالحكمة والوعى ، الوعى الذى بلغ كمال
هدوئه وتمام رسالته • ولكن هذه الوجوه تظل فرحة ، فان فرحاً كفرح
الأطفال يرن فى أقوال هؤلاء البشر وفى أصواتهم ! آ ••• فهمت كل
شئ ، كل شئ ، من أول نظرة • هنا كانت الأرض قبل أن تدنسها
الخطيئة الأصلية : ان سكانها الذين لا يعرفون الشر يعيشون فى هذه
الجنة نفسها التى تتناقل الانسانية كلها أن أجدادنا الجنة قد عاشوا فيها ،
مع فرق واحد هو أن الأرض هنا جنة واحدة بينها فى كل ركن من
أركانها وكل جهة من جهاتها • ازدحم حولي هؤلاء البشر الذين يضحكون
ضحكة جنلى ، وغمروني بملاطفاتهم ، ومضوا بي الى منازلهم ، فكانوا
جميعاً يريدون أن يفدقوا على الراحة اغداقاً ، وأن يسبكيوها لى سكباً •
ولم يلقوا على أسئلة فكانهم كانوا يعرفون كل شئ ، وكان نفوسهم
لا تهجش فيها الا رغبة واحدة : هى أن يمحووا بأقصى سرعة ما كان
منقوشاً على وجهي من علائم العذاب والألم •

هأنتم أولاء ترون مرةً أخرى : أى ضير فى أن يكون الأمر حليماً ؟
ان حب هؤلاء الناس الأبرياء الرائعين قد أحدث فى نفسى أثراً باقياً
لا يفنى ، وانى لأحس أن جبههم لا يزال يفسل روحى بمياهه النقية من
هناك الى الأبد . ذلك أننى أنا قد عرفتهم ، وأحببتهم ، وتعذبت وتألّت لهم
بعد ذلك ! سرعان ما أدركت منذ اللحظة الأولى أننى فى كثير من الأمور
لا أفهمهم : لم أفلح مثلاً فى أن أفهم ، أنا التقدمى الروسى الحديث ،
أنا البطرسبرجى العفن ، ان من الممكن أن يكونوا ، هم العالمين بكل
ما يعلمون من أمور كثيرة ، جاهلين بعلما نحن . ولكننى لم ألبث أن
أيقنت أن علمهم علم كامل ، وأنه يستند وينطبق على ادراكات تختلف
عن ادراكاتنا كل الاختلاف ، وأن تطلعاتهم تختلف عن تطلعاتنا كل
الاختلاف أيضاً . انهم بلا رغبة ، وهم فى هدوء نفوسهم وسكيتتها ،
لا يتطلعون الى معرفة الحياة كتطلعاتنا نحن الى معرفتها ، ما داموا قد بلغوا
حالة الكمال . ولكن معرفتهم أعمق من علمنا وأسمى من علمنا ، لأن
علمنا نحن يحاول أن يشرح الحياة ، ويجهد أن يعرف الحياة ليعلم الناس
كيف يحيون . أما هم فليسوا فى حاجة الى علمٍ ليعرفوا كيف يجب
عليهم أن يحيوا . ذلكم ما أدركته بدون أن أفصح فى فهم معرفتهم . لقد
أرونى أشجارهم فلم أستطع أن أفهم لماذا ينظرون إليها بحب يبلغ هذا
المبلغ كله من القوة ، وكيف يكلمونها كأنهم يخاطبون أشخاصاً مثلهم .

كانوا يكلمون الأشجار فعلاً : اعلمو انى لا أعتقد أن الأمر مشتببه على حين أقول انهم كانوا يكلمونها . نعم ، لقد اكتشفوا لغة الأشجار . وانى لوانق أن الأشجار كانت تفهم عنهم ما يقولون . تلك كانت نظرتهم الى الطبيعة . ومع الحيوانات كانوا يمشون فى سلام فلا يلمحون بالحيوان أى أذى ، ولا يصيونه بأى ضرر ؛ كانت الوحوش عزيزة على قلوبهم ، وبالجب انما روّضوها وأنسّوها . وقد أرونى النجوم وحدثونى عنها ، فقالوا لى أشياء لم أستطع أن أفهمها ، ولكننى مقتنع بأنهم كان بينهم وبين نجوم السماء تواصل وتفاهم ، لا بالفكر والخيال ، بل بواسطة حية . نعم ، لم يفلح أولئك الناس فى أن يجعلونى أفهمهم . وكانوا يحبوننى بدون أن أفهمهم . ولكننى كنت أعلم فى مقابل ذلك أنهم هم أيضاً لم يفهمونى ، ولذلك لم أكد أحدثهم عن أرضنا . كنت أكتفى فى حضورهم بأن أقبل الأرض التى يمشون عليها ، وكنت أنا نفسى أعشقهم عشقاً دون أن أُنطق بكلمة . وقد أدركوا ذلك ، فتركوا لى أن أعشقهم ذلك العشق ، لا يشعرون من هيامى بهم واخلاصى لهم بحرج أو عار ، لأنهم كانوا هم أنفسهم يزخرون حباً . وكانوا لا يتألمون لى ، حتى حين أقبل أقدامهم بأنهم يستجيبون لى بحب قوى عميق يملأ عليهم قلوبهم . وكنت أتساءل فى بعض الأحيان مدهوشاً كيف أمكن طوال ذلك الوقت أن لا يسيثوا مرة واحدة الى انسان مثلى ، ولا أن يوقفوا فى نفسى شيئاً من عواطف الغيرة والحسد مرة واحدة أيضاً ؟ ساءلت نفسى مراراً كيف استطعت ، أنا الرجل المباهى الكذاب ، ألا أحدثهم فى يوم من الأيام عن معارف وعلوم كانت تخلو أذهانهم من أية فكرة عنها حتماً ؟ كيف لم تساورنى رغبة فى ادهاشهم ولو حباً بهم وعطفاً عليهم ؟ كانوا فرحين يمرحون ويطربون كالأطفال ، مطوّقين فى أرجاء أحراجهم الرائعة وغباباتهم ، صادحين بأغانيهم الجميلة . وكانوا يكتفون بطعام خفيف هو ثمار أشجارهم وعسل

غاباتهم ولبن تماجهم الوديمة • كانوا لا يحتاجون الا الى قليل من العمل
 لتأمين طعامهم وكسائهم • وكانوا يتبادلون الحب ، وكان يولد لهم أولاد ،
 ولكنى لم أر عندهم فى يوم من الأيام سورات تلك اللذة « القاسية »
 التى يتصف بها جميع سكان أرضنا تقريباً ، جميعهم وكل واحد منهم ،
 والتى هى ينبوع جميع خطايا انسانيتنا تقريباً • كانوا ينتهجون لميلاد
 الأطفال ابتهاجهم بضيوف 'جدد' وفدوا يشاركون فى عيد المسرات هذا •
 لم تنشب بينهم مشاجرات قط ، ولا رأيت فيهم الغيرة أبداً ، حتى انهم
 لا يعرفون معنى هذه الكلمة • كان الأولاد فيهم أولاداً للجميع ، لأنهم
 كانوا أسرة واحدة • وكانوا لا يكادون يعرفون المرض ، رغم أنهم
 يموتون ، ولكن الشيخ منهم يموت موتاً هادئاً فكأنه يففو رينام وقد
 أحاط به ذووه يباركونه ويسمون له ، وهم أنفسهم يسمون هذه البسمة
 المضيئة حين 'يحتضرون' • لم يتفق لى مرة واحدة أن رأيت لديهم عند
 الموت لا حزناً ولا دموعاً ؟ وانما رأيت ازدياداً فى الحب يبلغ به حد
 الوجد ، وهو وجد هادئ رصين فيه كمال وفيه تأمل • حتى ليقدر المرء
 أنهم يظنون على صلة بموتاهم بعد رحيل هؤلاء الموتى ، وأن الموت لم
 يقطع ما كان بينهم وبينهم من رابطة على الأرض • انهم لم يكادوا يفهمون
 عنى حين سألتهم عن الحياة الأبدية • ولكن كان واضحاً أنهم - على غير
 شعور منهم - كانوا يلفنون من الثقة بالحياة الأبدية والاطمئنان لها أنهم
 لا يلقون على أنفسهم هذا السؤال • ولم يكن لهم معابد ، وانما هم يحيون
 فى تواصل دائم مع « الكل ، العظيم » • ولم تكن لهم ديانة ، ولكنهم كانوا
 يعلمون أنهم حين يرتوون من أفراح الأرض ، ويشرفون على اجتياز حدود
 الطبيعة الأرضية ، فان الاتصال بين البشر - الأحياء منهم والأموات - وبين
 « الكل ، العظيم » سيكون أوسع وأرحب ، فهم ينتظرون تلك اللحظة
 مبتهجين ، بغير تعجل ولا حنين ، أو قل انهم كمن بلغوا تلك اللحظة منذ
 الآن بنبوءات قلوبهم ، فلا يفوتهم أن يتناقلوا هذه النبوءات •

وهم فى المساء ، قبل أن يخلدوا الى النوم ، يحبون أن يستمعوا الى غناء جوقات كاملة ؛ والأغنيات التى يسمعونها تعبر عن جميع الاحساسات التى عمرت قلوبهم فى النهار الذى انقضى ، فهم بذلك يباركون ذلك النهار حين يودعونهم • وانهم يحتفلون بالطبيعة ، بالأرض والبحر والغابات • ويحلو لكل منهم أن يؤلف لغيره أغنيات ، وأن يتغنى كل منهم بالآخر كالأطفال ؛ وأغانيهم بسيطة كل البساطة ، ولكنها لصدورها عن القلب تؤثر فى القلوب • ثم انهم لا يحبون أن يلاطف بعضهم بعضاً فى أغانيهم فحسب ، بل فى جميع ظروف الحياة فيما يبدو • ان نوعاً من حماسة ولهى شاملة متبادلة تجعل كلاً منهم ممتلئاً بالآخر معجباً به محباً له • لقد عجزت تقريباً عن فهم تلك الأناشيد التى تشيع فيها الأبهة ، وترقرق فيها معانى الانتصار • كنت أدرك ألفاظها ، ولكننى لا أستطيع أن أنفذ الى كل معناها • كان فكرى لا يستطيع أن يرقى الى هذا المعنى ان صح التعبير • ولكن قلبى كان يتشبع به شيئاً بعد شيء دون أن ينتبه الى ذلك • كنت أقول لهم فى كثير من الأحيان اننى قد سبق لى أن أحسست بهذا كله احساس تنبؤ ؛ وأن هذا الجبور وهذا الفرح قد انكشفا لى منذ أن كنت أعيش على أرضنا ، وذلك فى صورة حزن مترع بالحنين ، حزن يبلغ أحياناً حد الألم ؛ واننى قد تصورتهم جميعاً ، هم وما هم فيه من مجد ، فى أحلام قلبى وأحلام فكرى ؛ واننى كثيراً ما عجزت أثناء حياتى على أرضنا عن أن أتأمل غروب الشمس بدون أن أبكى ••• وان كرهى لسكان أرضنا كان يخالطه دائماً ألم خبيء • لماذا لم أستطع أن أبفضهم رغم أننى لم أحبهم ؟ لماذا لم أستطع أن أمتنع عن أن أسامحهم وأعفو عنهم ؟ لماذا ذلك الحزن فى حبى لهم ؟ لماذا كنت لا أحبهم بدون أن أكرهم ؟ فكانوا يصفون الى ، فأرى أنهم لا يستطيعون أن ينفذوا الى معنى كلماتى • ولكننى كنت لا آسف لقول ما أقول ، لأننى كنت أعلم أنهم يفهمون حزنى الذى يوقظه فى نفسى فراق من فارقتهم ! لا ، لا ،

حين كانوا يرمقوننى بنظرتهم الرقيقة المفعمة حباً ، وحين كنت أحس فى صحتهم بأن قلبى يصبح برئياً نقياً كبراءة ونقاوة قلوبهم ، كنت لا آسف على أننى لا أفهمهم • وكنت اذا بلغت هذا الاحساس بالامتلاء والكمال ، تقطع أنفاسى ، وآخذ أصلى لهم فى صمت •

آه ••• لا شك فى أن جميع الناس سيضحكون الآن منى ، وسيقولون انه يستحيل على المرء أن يرى فى الحلم تفاصيل تبلغ من الدقة ما تبلغه التفاصيل التى أسجلها الآن ، واتنى أثناء نومى ما رأيت ولا أحسست الا ما كان يعثه فى قلبى هذيانى • أما التفاصيل فانما تخيلتها أما تخيلاً بعد أن استيقظت • وحين كنت أترف أن كل تىء لعله جرى على هذا النحو أيضاً ، فيالله ما كان أشدَّ الضحك الذى كنت أثيره فيهم ، وما كان أشدَّ المرح الذى كنت ألقبهم اليه ! ••• اذا صدق رأيهم ، فان الأمر لا يعدو أننى كنت متأثراً باحساسات ذلك الحلم ، وأن هذا التأثير هو الذى بقى فى قلبى الجريح الدامى ؛ أما الصور والأشكال التى رأيتها فيه فقد كانت تبلغ من انساق الكمال ، وقوة السحر ، وبراعة الجمال ، وصدق الحقيقة أننى حين استيقظت لم أملك القدرة على تجسيدها فى أقوالى الضعيفة الهزيلة ، فلم يسعها الا أن تمسحى من فكرى ، فمن الجائز جداً والحالة هذه أننى اضطررت على غير شعور منى الى أن أعيد بناء تفاصيلها بعد ذلك ، مشوهاً لها بطبيعة الحال ، ولا سيما بسبب تلك الرغبة القوية المشبوبة فى أن أنقلها الى الآخرين بأقصى سرعة كيفما اتفق • ولكن لماذا لا أصدق أن ذلك كله قد وقع فعلاً ؟ نعم ، لعل ما رأيته كان أكثر سطوعاً وتألقاً وفرحاً مما وصفت ، ألف مرة • واعلموا أننى سأبوح لكم الآن بسر • لعل ما رأيته لم يكن حلماً • ذلك أنه قد حدث شىء ، شىء فيه حقيقة تبلغ من الهول والفظاعة أن الأمر لا يمكن أن يكون قد رثى فى حلم • لنسلم أن هذا الحلم منشؤه قلبى ، فهل كان فى امكان قلبى أن يلقى الضوء على حقيقة ما حدث لى بعد ذلك ، وهى حقيقة مريعة رهيبه • كيف كان يمكننى أن أتخيل

وحدى هذا الذى حدث ، أو أن أحلم به فى قلبى ؟ هل يُعقل أن يستطيع
قلبى الذى يشبه قلب طفل ، وأن يستطيع فكرى الباطل الذى تحركه
النزوة ، أن يرتفعا الى اكتشاف الحقيقة ؟ احكموا فى الأمر بأنفسكم •
لقد كتمت عنكم الأمر حتى الآن • ولكننى سأبوح لكم بالحقيقة كلها فى
هذه اللحظة : انى ••• قد أفسدتهم جميعاً •

نعم ، نعم ، انتهيت الى افسادهم جميعاً ! كيف حدث ذلك ؟
لا أدري . ولكننى أحفظ ذكراه واضحة أشد الوضوح . ان حلمى الذى
قطع ألوف السنين يترك فى نفسى احساساً بشيء متصل غير منقطع .
ولكننى أعلم أنى أنا كنت سبب الخطيئة الأصلية . ومثل دودة خنزير
معدية ، أو مثل ذرة طاعون سارية تستطيع أن تنتشر الوباء فى مملكة
بأسرها ، كذلك أفسد حضورى بالعدوى أرضاً للمسرات والمباهج كانت
قبل بريئة ظاهرة . تعلموا أن يكذبوا ، واستطابوا الكذب ، وعرفوا جمال
الكذب . لعل ذلك كله قد بدأ « بريئاً » كل البراءة ، لعله بدأ مزاحاً
أو غنجاً لا أكثر ، فكان نوعاً من لعب هدفه التسلية ، ولعله قد حدث بفعل
ذرة من الذرات حقاً ، ولكن ذرة الكذب هذه قد نفذت الى أعماق قلوبهم
فبدت لهم محببة . وبعد ذلك بقليل ظهرت اللذة ، وولدت اللذة الغيرة ،
وبعثت الغيرة على القسوة . آه . . . لا أعلم ! لم أعد أتذكر ! ولكننى
أعرف أن الدم لم يلبث أن انبجس لطلحة أولى ، فدهشوا ، وارتاعوا ،
وأخذوا يناون بعضهم عن بعض ، وأخذوا ينفصلون بعضهم عن بعض ،
وقامت فيهم أحلاف ، ولكن أحلافهم الآن تماهى أحلافاً أخرى . وأخذت
الملامات والمآخذ والتقرينات تسمع . وعرفوا الخجل . وصار الخجل لهم
فضيلة . ونشأ لديهم الشعور بالشرف ، ورفع كل حلف رايته فوق رموس

أفراده • وأخذوا يسيئون معاملة الحيوانات • فصارت الحيوانات تهرب منهم الى أعماق الغابة ، وتناصبهم العداة • وبدأ عهد جديد يمجّد في الانسان • الخصوصية • و « الفردية » و « الشخصية » ويعلم الناس أن يفرّقوا بين ما هو لى وما هو لك • وتنوعت اللغات • وتعلموا الألم ، وأحبوا الألم ، وناقوا الى الألم ، وقالوا ان الحقيقة لا تُكتسب الا بالألم • وظهر فيهم العلم • وغدوا أشراراً ، فأخذوا عندئذ يتكلمون عن الأخوة والاسامية ، وأدركوا تلك المعانى • وأمسوا مجرمين ، فابتدعوا عندئذ العدالة ، وفرضوا على أنفسهم قوانين كاملة تصون العدالة • ومن أجل أن يكفلوا لهذه القوانين أن تُحترم ، أوجدوا المقصلة • ولم يبق لهم مما فقدوه الا ذكرى غامضة ، حتى انهم لم يشاءوا أن يصدقوا أنهم كانوا فى الماضى بريئين سعداء • وصاروا يستهزئون بأن تكون سعادتهم الماضية ممكنة ، وسموا تلك السعادة حلاً ، بل غدوا لا يستطيعون أن يتمثلوها فى أشكال محسوسة ، ولا أن يتصورها بأخيلة • ومن أغرب الأمور وأعجبها ، أنهم مع ذلك ، رغم فقدانهم ايمانهم بسعادتهم القديمة ، ورغم أنهم سمّوها حكاية مريبة ، ظلّ توقعهم الى استعادة البراءة والسعادة يبلغ من القوة أنهم سجدوا أمام رغبات قلبهم ، وألّهُوا ذلك التوق ، وشادوا معابد ، ووجّهوا الصلوات الى فكرتهم ، الى « رغبتهم » ، وهم يعلمون أنها لا يمكن أن تتحقق أبداً ، ولكنهم لا يكفون عن عبادتها بالصلوات والدموع • ومع ذلك لو كان فى الامكان أن يعودوا الى حالة البراءة والسعادة تلك التى فقدوها ، وأتيح لهم أن يستشفوها فجأةً ، وسئلوا هل يريدون حقاً أن يعودوا اليها ، فأغلب الظن أنهم كانوا سيرفضون • وقد أجابوا عن هذا بقولهم : « نحن كذابون ، أشرار ، ظالمون • ليكن • نحن نعرف ذلك • ونحن بسبب هذا نبكى وتألّم وتنزل فى أنفسنا أنواعاً من التعذيب والعقاب لعلها أسوأ من أنواع التعذيب والعقاب التى سينزلها فينا الديان الرحيم الذى سيحاسبنا والذي لا نعرف حتى اسمه • ولكننا نملك العلم ، وبالعلم

سنتدى الى الحقيقة ، فنقبلها فى هذه المرة واعين • ان المعرفة شىء يفوق
العقل ، وان وعى الحياة يفوق الحياة • العلم سيهب لنا الحكمة ، والحكمة
ستكشف لنا عن القوانين ، ومعرفة قوانين السعادة هى فوق السعادة • •
ذلكم ما صاروا يقولونه • وبعد أقوال من هذا النوع كان كل واحد منهم
يعود الى حب نفسه حباً أشد أنانية لأنهم يستحيل عليهم أن يفعلوا غير
ذلك • هكذا بلغ كل فرد من الحرص على شخصيته أنه حاول أن يذل
شخصية الآخرين وأن يخفضها بجميع الوسائل • أصبحت المسألة فى نظره
مسألة وجود وبقاء • وظهرت المبودية • حتى لقد وجدت عبودية متطوعة
تطوعاً • فالضعفاء خضعوا للأقوياء عن طواعية ورضى ، بشرط أن يساعدهم
الأقوياء فى سحق من هم أضعف منهم • وجاء الى هؤلاء الناس رجال
عادلون صالحون ، فكلموهم عن صلتهم وكبرياتهم ذارفين الدموع ، وعابوا
عليهم أنهم فقدوا القصد والاعتدال والانساق ، وأنهم ضيعوا الحجل والحفر
والحياى • فسخر الناس منهم ، ورجموهم بالحجارة • وانسكب دم القديسين
على رحبات المعابد • وظهر فى مقابل ذلك رجال آخرون تخيلوا أن يعيدوا
الانسجام الى البشر ، فلا يكف الفرد عن أن يحب نفسه أكثر مما يجب
غيره ، ولكنه فى الوقت ذاته لا يكون أمام غيره عقبة وحاجزاً ، وبذلك
يشترك الأفراد جميعاً فى تأليف مجتمع يعيش فيه الناس كافة فى وفاق •
وأوقدت نيران حروب كثيرة لفرض هذا المبدأ • ولكن هذا لا ينفى أن
المقاتلين يؤمنون ايماناً قاطعاً بأن العلم والحكمة والشعور بالأمن الشخصى
ستجبر البشر أخيراً على أن ينقذ اتفاقهم على ارساء قواعد مجتمع يسوده
العقل ، وهم لذلك - أعنى « الحكماء » - يحاولون بانتظار أن تتحقق اقامة
ذلك المجتمع الكامل أن يتخلصوا من جميع أولئك الذين ليسوا علماء
ولا يفهمون فكرتهم ، حتى لا يكون هؤلاء عقبة تقف فى طريق انتصارهم •
ولكن عاطفة البقاء الشخصى ضعفت بسرعة ، فقام عهد المعتزين بأنفسهم ،
المزهوين بصفاتهم ، الحرصين على لذاتهم ، الذين يطلبون بوضوح كامل

أن يكون لهم كل شيء أو ألا يكون لهم أي شيء . ومن أجل أن يحصلوا على كل شيء ، وجب عليهم أن يلجئوا الى الوحشية ، فاذا لم تفلح الوحشية لجئوا الى الانتحار . ووجدت ديانات تدعو الى عبادة اللاوجود ، وتنادى بتدمير الانسان نفسه نشداناً للراحة الأبدية في أحضان المدم . وتسب هؤلاء البشر أخيراً من عمل محموم وجهد مسعور ، فحملت وجوههم آثار الألم ، ولذلك أخذوا ينادون بأن الألم جمال ، لأن الفكر لا يولد الا من الألم ، أو لأن الألم ثمن الفكر ؛ وأخذوا يمجدون الألم في أغانيهم . وصرت أتجول بينهم وأنا أعقف يدي حيرة عليهم وأذرف العبرات حزناً لهم ، ولكن لعلني صرت أحبهم أكثر مما كنت أحبهم قبل ذلك ، أيام كانت وجوههم خالية من الألم ، وكانوا بريئين وكانوا على ذلك الجانب كله من الجمال . وعدت أحب الأرض التي دَسَّوها أكثر مما كنت أحبها أيام كانت جنة ، لا لشيء الا لأن الألم ظهر فيها ! واأسفاه ! كنت قد أحببت العذاب والحزن دائماً ، ولكنني أحبتهما لنفسي ، لنفسي وحدها ، فكنت أبكي عليهم وأرثي لحالهم . وصرت أمدُّ اليهم ذراعيّ مكروباً يائساً ، أنهم نفسي وأدينها وألعنها وأحتقرها . قلت لهم انى أنا الذى صنعت هذا الشر كله ، أنا وحدى ، وانى أنا الذى جلبت لهم الفساد والعدوى والكذب ! وتضرعت اليهم أن يصلبوني ، وعلمتهم كيف يصنع صليب . كنت لا أستطيع ، كنت لا أقوى على أن أقتل نفسي ، ولكنني أردت أن أحمل عنهم جميع آلامهم . كنت أتوق الى الألم . كنت أتطلع الى أن أسكب فى هذا الألم حتى آخر قطرة من دمي . ولكنهم كانوا لا يزيدون على أن بضحكوا مقهقهين ، ولم يفتهم فى النهاية أن يعدوني مجنوناً مجذوباً الى عالم الغيب ، مجنوناً صوفياً . وأعلنوا لى أخيراً أننى أخذت أبدو خطراً ، وأنهم سيحبسونى فى ملجأ للمجانين اذا أنا لم أسكت . فاجتاح نفسي عندئذ حزن بلغ من القوة أن قلبى انقبض انقباضاً شديداً وأحسست أننى أموت وحينذاك ، استيقظت من نومي .

كان الفجر قد بدأ يتنفس ، ولمّا يطلع النهار بعد ، ولكن الساعة تقارب السادسة . فتحت عينيّ فوجدتني جالساً على ذلك المقعد نفسه ، وكانت سمعتي قد ذابت الى آخرها ، وكان كل شيء نائماً فى غرفة جارى الكابتن . وكان الصمت مخيماً حولي رغم ندرة الصمت فى بيتنا .

ان أول شيء بدر منى هو أثنى وثبت من مكاني وقد اعترتني دهشة شديدة أقصى الشدة . لم يسبق أن حدث لى أمر كهذا فى يوم من الأيام . ولا حدث لى (وهذه نقطة تفصيلية تافهة) أن غفوت جالساً على المقعد . وبينما أنا أهبّ واقفاً وأتوب الى رشدى ، اذا بالسندس الملقوم المهيأ لانطلاق الرصاصة منه يخطف بصرى ، ولكننى سرعان ما أقصيته عنى . آ . . . الحياة ! الآن الحياة ! ورفعت ذراعىّ "أبتهل الى « الحقيقة » الأبدية ، بل لم أبتهل ، وانما أخذت أبكى وقد أخذت حمياً شديدة ، حمياً لا حدود لها ، ترفع وجودى كله ، وتسمو به . نعم ، يجب أن أحيأ وأن أبشر ! ونذرت نفسى فوراً لرسالة التبشير ، مدى الحياة طبعاً . سأمضى أبشّر . أريد أبشّر . . . بماذا ؟ « بالحقيقة » ، ما دمت قد رأيتها ، رأيتها بعينى رأسى ، رأيتها فى كل مجدها !

ومنذ ذلك الوقت انما رحمت أبشّر ! وما أكثر ما أحب أولئك الذين يضحكون منى ! لعلنى أحبهم أكثر مما أحب غيرهم . لماذا ؟ لا أدرى ، ولا أستطيع أن أجد لهذا تعليلاً أو تفسيراً . ولكن ليس لهذا من شأن . المهم أنهم يدعون الآن أثنى أسير فى طريق خطأ ، أو يتساءلون عما سأصير اليه وقد سرت فى طريق خطأ . هذه حقيقة : لقد ضللت الطريق ، وسيزداد الأمر سوءاً . لا شك فى أثنى سأغلط مراراً قبل أن اكتشف كيف يجب علىّ أن أبشّر ، أن ما هى الأقوال وما هى الأفعال التى ينبغى أن تكون سبيلى الى التبشير ، لأن رسالة التبشير ليست بالامر السهل . هذا كله أراه أنا أراه رؤية واضحة وضوح النهار منذ الآن . ولكن اسمعوا : من ذا الذى لا يضل الطريق ؟ من ذا الذى لا يسير فى

طريق خطأ؟ ومع ذلك يسير الجميع ويتجهون الى غاية واحدة بعينها ، من أحكم حكيماً الى شرّ شرير . كل ما هنالك من فرق هو أنهم يسلكون الى هذه الغاية الواحدة سبلاً مختلفة . تلك حقيقة قديمة . ولكن اليكم على الأقل هذا الأمر الجديد : انى لن أستطيع أن أخدع عن نفسى كثيراً ، لأنى رأيت الحقيقة . رأيت ، وصرت أعلم أن البشر يمكن أن يكونوا على جانب كبير من الجمال والسعادة دون أن يفقدوا القدرة على أن يحياوا على هذه الأرض . لا أريد ولا أستطيع أن أصدق أن الشر هو الظرف الطبيعي السوى العادى لأفراد البشر . ومع ذلك فانهم بسبب هذا الاعتقاد وحده انما يسخرون منى ويتهمون على . ولكن كيف يمكن أن لا يصدقنى الناس ؟ لقد رأيت الحقيقة . رأيتها رؤية ، ولم أتخيلها تخيلاً بالفكر . رأيتها رؤية ، وعمرتنى « صورتها الحية » وملأت نفسى الى الأبد . رأيتها فى كمال مطلق يبلغ من التمام أننى لا أستطيع أن أصدق أنها لن توجد لدى البشر ! فكيف أضلّ الطريق والحال هذه ؟ وقد أتوه غير مرة ، وقد أنطق بأقوال غريبة ، ولكن ذلك لن يدوم مدة طويلة . ان الصورة الحية لما رأيته ستظل ماثلة فى نفسى على الدوام ، فتعرف كيف تقوم عوجى وتسدّد خطاى وتوجه سيرى . وانى امرؤ شجاع وان لى قوى نضرة ، فلأمضينّ مبشراً ولو ألف سنة . أرايتم ؟ لقد أردت أن أخفى عنكم فى أول الأمر أننى أفسدت الجميع . وكان هذا الكتمان منى خطأ أول . ولكن « الحقيقة » همست تقول لى انى أكذب ، فصاتنى من الانزلاق ووجهت مسيرى . ماذا بيجب أن نعمل لاقامة الجنة ؟ - لا أدرى ، لأننى لا أستطيع أن أعبرّ عن هذا بالفاظ . انى منذ رأيت حلمى قد فقدت استعمال الكلام ، أو فقدت على الأقل استعمال الأقوال الأساسية التى لا بد منها ولا غنى عنها . ولكن لن يهمنى هذا . لسوف أمضى ، وسوف أقول كل شىء بغير كلال ، لأننى قد رأيت بعينى رأسى ، وان كنت لا أستطيع أن أصف ما رأيت . يقولون : « ما رآه هو حلم ، هو

كابوس ، هو هلوسة . . . هيه . . هيه . . ليس فى هذا الكلام كله
شطارة . وما أكثر اعتزازهم به مع ذلك ! حلم ؟ ما الحلم ؟ حياتنا كلها ،
أليست حلماً ؟ بل اننى لأمضى الى أبعد من ذلك فأقول : ليس يهمنى
ألا تعود تلك الجنة بعد الآن أبداً ، وليس يهمنى أنها لم تعد موجودة
(وأنا أدرك ذلك) ، ولكننى سأمضى أبشراً بالجنة رغم كل شيء .
وما أسط الأمر مع ذلك . ان من الممكن أن يعاد بناء كل شيء فى يوم
واحد ، فى « ساعة واحدة » . وانما المهم أن يحب الانسان قرينه الانسان
كما يحب نفسه . ذلك هو الشيء الأساسى الذى هو كل شيء ولا حاجة
بنا الى شيء آخر سواه : فمتى وفرتموه عرفتم على الفور كيف تبنون
الجنة . على أن هذه حقيقة قديمة ما أكثر ما قرأها الناس وكرروها
مليارات المرات ! ولكن اسمعوا : انها لم تفرس جذورها فى النفوس ،
انها لم ترسخ فى القلوب . لا يزال الناس يتصورون أن « وعى الحياة
أعلى من الحياة . وأن معرفة قوانين السعادة أعلى من السعادة » . وهذا
بعينه ما يجب أن نكافحه . ولسوف أكافح . يكفى أن يريد كل الناس
حتى يتم بناء كل شيء .

أما تلك البنت الصغيرة ، فقد وجدتها . وسأمضى الى أمام .
سأمضى .

خطاب عن بوشكين
١٨٨٠

نشر هذا الخطاب عن بوشكين» اول مرة في كراسه شهر
آب (أغسطس) ١٨٨٠ «من يوميات كاتب» (الفصل الثاني)

خطاب القى في ٨ حزيران - يونية
أمام « جمعية اصمدقا- الادب الروسى »

بوشكين ظاهرة من الظاهرات الخارقة ، ولعل النفس الروسية قد تجلت به تجلياً فريداً . كذلك قال جوجول (١) . وانى لأضيف الى قوله أن بوشكين كان كذلك ظاهرة نبوة . نعم ، ان ظهوره يكشف لنا نحن الروس عن شىء لا شك أن فيه نبوة . لقد ظهر بوشكين حين أخذنا نعى أنفسنا حقاً ، وحين ساهم هذا الوعى الذى كان فى مجتمعتنا لا يزال بذرة بعد الاصلاح الذى قام به بطرس الأكبر ، حين أسهم بظهوره فى انارة طريقنا المظلمة ، وفى توجيه سيرنا . بهذا المعنى يكون بوشكين عرافاً ومرشداً . اننى أقسم حباة بوشكين الأدبية الى ثلاث مراحل . وليس ناقداً أدبياً من يتحدث فى هذه الساعة : اننى فى نظرتى الى أدب بوشكين الآن لا أريد الا أن أشرح فكرتى عن معنى النبوة الذى لبوشكين عندنا وعمماً أفصده بكلمة النبوة . ومع ذلك أحب أن ألفت الانتباه ، عابراً ، الى أن مراحل الاتاج عند بوشكين لا يبدو أن بينها حدوداً تفصل بعضها عن بعض فصلاً تاماً . ان بداية « أونيجين » مثلاً تنتمى فى رأى الى المرحلة الأولى ، ولكن « أونيجين » تنتهى فى المرحلة الثانية ، بينما كان بوشكين قد اهتدى الى اكتشاف مثله الأعلى على تراب الوطن ، وتشبع

(١) هذه كلمات جوجول نفسها . فى مقاله « بضح كلمات عن بوشكين» التى نشرت سنة ١٨٣٥ (فى زخارف عربية) وكان الشاعر الكبير لا يزال حياً . وفى مقالة اخرى عنوانها «ماجوهر الشعر الروسى» اشار جوجول الى «الترجع الخلاق» الذى انارته فى نفس بوشكين قراءة شعراء مختلف الامم ومختلف العصور؛ وهذه فكرة سيمود الهيا دوستويفسكى فى هذا المقال ويتحدث عنها .

بهذا المثل الأعلى مجدداً اياه تجديداً كاملاً بكل ما تملكه نفسه المحبة
 البصيرة من قوة . وقد اصطلح الناس أيضاً على أن يقولوا ان بوشكين
 فى المرحلة الأولى من مراحل ابداعه قلّد الشعراء الأوربيين من أمثال
 بانى ، وآندره شينيه وغيرهما ، ولا سيما بايرون . نعم ، لا شك أن
 شعراء أوروبا قد أثروا تأثيراً كبيراً فى تفتح عبقريته ، وقد احتفظوا بهذا
 التأثير فيه الى الأبد . ولكن ذلك لا ينفى أن القصائد الأولى التى نظمها
 بوشكين لم تكن تقليداً فحسب ، بل كانت تكشف منذ ذلك الحين عن تمتع
 عبقرته بأكبر الاستقلال . انكم لن تقفوا يوماً ، فى أى تقليد أو محاكاة ،
 على ما تجدونه من أصالة الألم وعمق الوعي فى قصيدة « النجر » مثلاً ،
 وهى قصيدة أنسبها الى المرحلة الأولى من مراحل اتاجه ، ناهيك عن
 ذلك التدفق العارم فى الابداع ، وهو تدفق ما كان ليتجلى على هذا النحو
 لو كان الشاعر لا يزيد على أن يقلّد . ان نموذج آليكو ، بطل قصيدة
 « النجر » لهو رسة أولى لتلك الفكرة القوية ، الروسية تماماً ، التى
 ستجلى بعد ذلك فى رواية « أوجين أو نيجين » منسقة أعظم الانساق ،
 منسجمة أكبر الانسجام ؛ وفى هذه الرواية نرى آليكو ذاك نفسه لا يبقى
 صورة شبه خيالية ، بل يصبح له وجه يمكن لمسه وفهمه فملاً . لقد
 اكتشف بوشكين فى آليكو ذلك المتشرد الشقى فى بلادنا ، ذلك الجواب
 التاريخى الروسى ، الذى يشكل وجوده فى هذا المجتمع المنفصل عن
 الشعب ظاهرة تاريخية ذات ضرورة قصوى . اكتشف بوشكين نموذج
 آليكو وصوره . ومن نافل القول أن تشير الى أنه لم يكتشفه عند لورد
 بايرون فحسب . ان هذا النموذج نموذج حقيقى ، وقد رآه بوشكين بدقة
 لا يأتياها الباطل ، ووضوح معصوم من الزلل . وهو نموذج سيظل يوجد
 دائماً ، وسيبقى على الأرض الروسية زمناً طويلاً . ان هؤلاء الجوّابين
 الذين ليس لهم نارٌ بها يستدفنون ولا مكان اليه يأوون لا يزالون حتى
 أيامنا هذه يجوبون ، ولا يبدو أنهم سيخفتون قبل انقضاء وقت طويل .

وإذا صاروا في زماننا هذا لا يذهبون الى الغجر ملتجئين في عاداتهم
وتقاليدهم المتوحشة مثلاً عليا عامة شاملة ، ولا يذهبون اليهم ناشدين
أن يرتاحوا في أحضان الطبيعة من الحياة السخيفة المضطربة العكرة التي
يعيشها الناس في مجتمعنا الروسي المتقف ، فانهم يندفعون الآن الى
الاشتراكية التي لم يكن لها وجود في زمان آليكو ، ويأخذون على عاتقهم
مهمة جديدة ، مؤمنين كما كان يؤمن آليكو بأنهم بهذه الوسيلة الوهمية
سيصلون لا الى أهدافهم الخاصة وحدها ، بل الى أهداف البشر أجمعين .
ذلك أن الجواب الروسي لا يرضى بأقل من سعادة البشر كافةً ليهداً باله
وتطمئن نفسه : انه لا يمكن أن يقبل بأقل من هذا - ما ظل الأمر على
صعيد النظرية طبعاً . اتنا في الحالين ازاء ذلك الروسي نفسه ظهر في
فترتين مختلفتين . أعود فأقول ان هذا الرجل انما ظهر في مجتمعنا المتقف
المنفصل عن الشعب ، المنفصل عن القوى الشعبية ، في بداية القرن الثاني
الذي أعقب اصلاح بطرس الأكبر . لا شك أن عدداً كبيراً من المثقفين
الروس ، سواء في زمان بوشكين وفي زماننا ، كانوا يعملون ولا يزالون
يعملون بهدوء وسكينة ، موظفين في المحاكم وفي السكك الحديدية وفي
البنوك . وان بينهم كذلك أناساً يحصلون على مالٍ بجميع الوسائل ، حتى
ان بينهم من يهتمون بالعلوم ، ويقروون محاضرات ، وذلك كله على نحو
مطرده هادىء وان . وانهم ليقبضون رواتب ، ويلعبون بالورق ، دون
أن تراودهم أية نزوة تحض على الهروب الى مخيمات الغجر أو الى أماكن
أخرى ألصق بزماننا . وان هناك عدداً كبيراً من الناس يصطفون لأنفسهم
صفة اللبرالين ويضيفون الى هذه اللبرالية « مسحة اشتراكية أوروبية »
ترفم الدمائه الروسية من شأنها قليلاً . ولكن المسألة مسألة وقت
لا أكثر . فلبس يغير من حقيقة الأمر شيئاً ألا يكون فلان قد بدأ
يحس القلق ، وأن يكون فلان الآخر قد اتسع وقته منذ الآن لأن يمضى
الى الباب المغلق فينطح به رأسه . ان مصيراً واحداً ينتظرهما كليهما متى

حان الحين ، اذا هما لم يسيرا فى طريق السلامة ، الذى هو طريق
المصالحة مع الشعب . وهب ان هذا المصير لن يشارك فيه جميع
الناس ، فانه ليكفى أن تشارك فيه « نخبة » ، يكفى أن يظهر عشر
الناس استيائهم واستنكارهم حتى يقوم السواد الأعظم بفضل ذلك ،
فلا يهدأ له بال ولا يعرف الى الراحة سيلاً . صحيح أن أليكو لا يعرف
بعد أن يعبر لنا على وجه الدقة عن موضوع حينه . ان ذلك كله لا يزال
فيه أمراً مجرداً بعض التجريد . وهو لا يحن الآن الا الى الطبيعة . انه
لا يحسن الا الشكوى من المجتمع الراقى ، والبكاء على حقيقة ضائعة ،
ولا يعرف أين يجد هذه الحقيقة ولا كيف ، ولا يفلح فى الاهتداء اليها .
ان فيه شيئاً عن جان جاك روسو انه لا يقول لنا ما هذه الحقيقة ، ولا أين
يمكن أن تظهر ، ولا كيف يمكن أن تظهر ، ولا يحدد لنا الزمان الذى
ضاعت فيه . هو لا يذكر لنا شيئاً من ذلك . ولكن هذا لا ينفي
أن ألمه صادق . ان الانسان غريب الأطوار نافذ الصبر ، لا ينتظر
الآن أن يأتيه الخلاص وتأتيه السلامة الا من الأحداث الخارجية .
ولا بد أن يكون الأمر كذلك . هو يقول : « لا بد أن تكون الحقيقة
موجودة فى مكان غير نفسى ، لا بد أن تكون موجودة فى البلاد
الأخرى ، عند الشعوب الأوروبية مثلاً ، تلك الشعوب التى لها بنيان
تاريخى متين ، والتى تتصف فيها الحياة الاجتماعية والمدنية بأنها
منظمة . . . انه لن يدرك أبداً أن الحقيقة قائمة فى ذاته قبل كل
شئ . وأنى له أن يدرك ذلك بينما هو كف على أرضه عن أن يكون
عين ذاته ؟ انه منذ قرن طويل قد فقد عادة العمل . انه غير ذى ثقافة .
لقد شب كما تشب فتاة فى مدرسة داخلية ، بين جدران عالية وأسوار
سامقة ، خاضعاً لالتزامات غريبة لا حصر لعددها ، تتصل بارتباطه بهذه
الطبقة أو تلك من الطبقات الأربع عشرة التى ينقسم اليها المجتمع المثقف
فى روسيا . هو الآن زغبة منتوفة تتموج على ما تشاء لها الريح . وانه

ليحس بذلك ، وانه يتألم منه ، بل انه ليتألم منه تألماً حاداً جداً في كثير من الأحيان . وما ذا يهمه بعد ذلك ، أن يكون ، بانتمائه الى اسرة نبيلة كما يُحتمل هذا ، مالكاً لأقنان ، وأن يكون قد اساق مع نزوة تستبد بنفس نيسل من نبله الريف ، فيبح لنفسه ذلك الاتقياد لغواية أناس « خارجين عن القانون » ، ويتبع جماعةً من الفجر. ويصير صاحب دب يتفَرِّج عليه المتفَرِّجون ؟ وطبيعى أن تستطيع المرأة ، « المرأة المتوحشة » على حد تعبير الشاعر ، أقدر من سائر الأشياء على أن تهب له الأمل في أن تشفيه من حنينه الأليم ، ولذلك نراه يرتمى على زمقيرا بايمان طائش لكنه مسبب الهوى ، قائلاً لنفسه : « هنا يمكن أن تكون سعادتى ، هنا فى أحضان الطبيعة بعيداً عن المجتمع بين هؤلاء الذين ليس لهم لا مدنية ولا قوانين ! » ، وماذا يحدث ؟ انه منذ أول احتكاكك بعقائد هذه الطبيعة المتوحشة ، يعجز عن السيطرة على نفسه ، ويلطخ بالدم يديه . ان هذا الحالم الشقى ليس عاجزاً عن الانسجام الشامل فحسب ، بل هو عاجز حتى عن الانسجام والتوافق مع الفجر ، وهاهم أولاء يطردونه ، بلا رغبة فى الانتقام ، وبلا كره أو ضغينة ، وقد امتلأت نفوسهم جلالاً وحلماً ودماثة .

اتركنا ايها الرجل الصلف
نحن متوحشون ليس لنا قوانين
نحن لانعذب ولانعاقب

ذلك كله خيال طبعاً ، ولكن هذا « الرجل الصلف » انما هو انسان مستمد من الواقع وقد أحسن الشاعر رسمه . وان بوشكين هو أول من أدركه ، وذلك ما لا ينبغي لنا أن ننساه . وبحماسة عارمة وحشية سيمزق هذا الانسان نفسه ، وسيعاقب نفسه للإساءة التى ارتكبها ، أو هو - وذلك سيكاد يكون أسهل عليه أيضاً ، بعد أن تذكر أنه يتسنى الى واحدة من الطبقات الأربع عشرة - سيتوق طبعاً (لأن ذلك هو

ما حدث) الى قانون قاسٍ يفرض العقاب ، وسيحرّض على اقامة هذا القانون ، ولو لمعاقبة الاساءة التي ارتكبها هو . لا ، ان هذه القصيدة العبقريّة ليست تقليداً ومحاكاة ! اتنا نرى فيها منذ الآن بزوغ الجواب عن ذلك السؤال ، « السؤال المحتوم » الذى يليه الايمان وتلقيه الحقيقة الشعبية : « أبها الانسان الصلف أذلّ نفسك أولاً وحطّم خيالك . أذلّ نفسك أيها الانسان الضعيف المغرور . وعلى هذه الأرض التي ولدت فيها اتعب واجهد قبل كل شيء . » .

ذلكم هو الجواب الذى يطابق الحقيقة ويطابق عقل الشعب . « ليست الحقيقة فى خارجك ، بل هى فى داخلك . اهد الى نفسك فى نفسك . أخضع نفسك لنفسك . املك نفسك بنفسك . فترى الحقيقة . ليست هذه الحقيقة فى الأشياء ، ولا هى فى خارج ذاتك ، ولا هى فى أى مكان بعيد ، وانما هى قبل كل شيء فيما تحدته من تأثير فى نفسك . فاذا تغلبت على نفسك ، اذا انتصرت على نفسك فوجدت السلام والطمأنينة أصبحت حراً حرية لم تتخيل أنك فى يوم من الأيام أنك ستملكها . سوف تقوم بعمل عظيم ، سوف تحرر الآخرين ، وسوف ترى السعادة ، لأن حياتك ستكون مملأى ، وستفهم عندئذ شعبك وحقيقته . ليست الحقيقة فى مكان آخر ، كما لم تكن عند الفجر ، وانما أنت أنت الذى لا تستحقها ولا تكون بها جديراً ، اذا كنت شريراً ومزهوآ ، واذا طالبت بما لك على الحياة من حقوق دون أن تؤدى ما للحياة عليك ، دون أن تعطى فى مقابل هذه الحقوق أىّ عطاء ، وحتى دون أن يخطر ببالك أن عليك أن تعطى شيئاً . ان هذا الجواب عن السؤال ، ان هذا الحل للمشكلة قد أشارت اليه قصيدة بوشكين اشارة قوية . ثم جاءت قصيدة « أوجين أونيجين » فعبّرت عنه تمبيراً أوضح . وهى قصيدة ليست خيالاً كقصيدة الفجر ، وانما هى واقع محسوس ملموس تجسّدت فيها الحياة الروسية الحقيقية تجسّدأ فيه من القوة والكمال ما لم يشاهد مثله قبل بوشكين ، وربما بعده .

ان أونيجين يصل من بطرسبرج ، ولا بد حتماً أن تكون بطرسبرج
هى التى يصل منها ، ولا شك أن هذا لا غنى عنه للقصيد : فما كان
لبوشكين أن يدع لأية سمة من واقع يبلغ هذا المبلغ من الكثافة أن تفوته
فى قص سيره بطله . أعود فأقول مرة أخرى انه صاحبنا أليكو نفسه ،
ولا سيما حين يهتف وقد استبد به الحزن كما سنرى بعد قليل :

لماذا لم يشلنى الكساح
كما شل الكعلف فى تولا ؟

ولكنه هنا ، فى مستهل القصيدة ، لا يزال مزهوا بعض الزهو
ولا يزال من أبناء المجتمع الراقى . ان الحياة التى عاشها أقصر من أن
يكون وقته قد اتسع لأن يتخلص تخلصاً تاماً من وهم الحياة . غير
أنه قد بدأ يزوره ويحاصره

شيطان نبيل هو شيطان فاجر مستتر على

وهو فى هذا الركن المنزوى من الريف ، فى قلب وطنه ، لا يحس
طبعاً أنه فى داره . انه لا يدرى ما عساه فاعلاً هنا ، وانه ليشعر ، على
كونه فى مسكنه ، أنه فى هذا المسكن نزير ، أنه فيه ضيف . وبعد ذلك ،
حين سيطوف مكتشفاً أسيان فى الأرض التى ولد فيها ، وفى الأرض
الأجنبية ، هو الرجل الذى لا شك فى أنه ذكى وأنه صادق ، سوف
يشعر ، حتى فى الخارج ، أنه غريب عن نفسه مزيداً من الغربة . هو
يحب أرضه التى ولد فيها حقاً ، ولكنه لا يؤمن بها . صحيح أنه سمع فى
تلك الأرض مثلاً علياً ، لكنه لا يصدق هذه المثل العليا . انه لا يؤمن
الابشء واحد : هو أن كل عمل يحاول الشروع فيه من أجل بلاده
التى ولد فيها ، مستحيل استحالة مطلقاً . أما الذين يؤمنون بإمكان
تحقيق هذا العمل والنهوض بهذه المهمة ، والذين كان عددهم فى ذلك
الزمان قليلاً كقلته فى هذا الزمان ، فهو ينظر اليهم بسخرية حزينة .
لعله لم يقتل لنسكى الا سأمأ ، من يدرى ؟ لعل نوعاً من السأم الذى

يوّلدّه الحنين الى مثل أعلى شامل هو الذى جعله يقتل لنسكى • أما تاتيانا فانها لا تشبهه : انها امسائه متينة ، قوية الاستناد الى الأرض • ان لها جوهرآ لا يملك أوينجين مثله ، وهى تبعاً لذلك أذكى منه • انها بنيل غرائزها وحده تحس أين هى الحقيقة ، وتدرك ما الحقيقة - وذلك ما سيعبر عنه ختام القصيدة • ولعل بوشكين كان يحسن احساناً أكبر لو أنه جعل عنوان قصيدته « تاتيانا » بدلاً من أن يجعله « أوينجين » ، لأنها هى بطلة القصيدة بلا مرآة • نحن هنا ازاء نموذج ايجابى لا سلبى ، بل نحن هنا ازاء نموذج الجمال الايجابى بعينه ؟ ان الشاعر هنا يعجد المرأة الروسية ، ويهشها لأن تنطق بفكرة قصيدته فى المشهد الذى يصوّر اللقاء بين أوينجين وتاتيانا • ونستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان نموذج الجمال هذا الذى يعترف به للمرأة الروسية ليس له فى أدبنا نظير يساويه ، اللهم الا أن نقول ان ليزا التى صورها تورجنيف فى روايته « عش سادة » ، ربما كانت له نظيراً • ولكن طريقة أوينجين فى النظر من أعلى جعلت أوينجين لا يتعرف تاتيانا حين رآها أول مرة فى ذلك الركن من الريف ، فانت له صورة مسكينة للفتاة الطاهرة البريئة التى تخجل أشد الحجل حين يراها هو أول مرة : انه لم يستطع أن يدرك لدى الفتاة المسكينة ما تشتمل عليه نفسها من كمال وتمام ، ولعلها عدّها « نطفة روح » ان صح التعبير • ماذا ؟ نطفة ؟ هى ، نطفة ؟ هى ، بعد الرسالة التى كتبتها الى أوينجين منذ قليل ؟ ألا أنه لهو الذى يمكن أن يوصف بأنه نطفة روح ، هو أوينجين ، اذا كان فى هذه القصيدة نطفة روح • هو أولاً ما كان فى وسعه أن يتعرفها بحال من الحال • أهو يعرف النفس الانسانية ؟ انه رجل يعيش فى عالم مجرد ، انه حاله قلق طول حياته • وبعد ذلك لم يتعرفها أكثر من هذا فى بطرسبرج ، رغم زعمه فى رسالته الى تاتيانا أنه اكتشف « جميع ما تتحلى به من ألوان الكمال » • ولكن هذه الكلمات ليست الا كلمات : لقد مرت تاتيانا بحياة أوينجين مرورآ ،

مرت بجانبه دون أن يعرفها وأن يقدرها حق قدرها • وتلكم هي مأساة روايتها • آ • • • لو قد وصل من إنجلترا الى تلك القرية في ذلك الأوان ، حين رآها أول مرة ، لو قد وصل رجل اسمه تشايلد هارولد ، أو وصل بايرون نفسه ، فلاحظ ما في تاتيانا من سحر خفى نفّاذ ، فدلّ أونيجين عليه ، وأشار له اليه ، اذن لحطف هذا السحر اتباعه حتماً ، ولأذمّه اذلالاً ، لأن لدى شهداء « ألم المجتمع » هؤلاء عبودية روحية تبلغ مبلغاً كبيراً من الاحتياط ! ولكن هذا لم يحدث • وقد رأينا صاحبنا الباحث عن الاسجام الكلي الشامل ، بعد أن يلقى عليها موعظته وبعد أن يتصرف تصرفاً شريفاً على وجه الاجمال ، يمضى مصطحباً أله من المجتمع والدم الذي سنحته يده بحماقته الشريرة ، يمضى يطوّف في البلد الذي ولد فيه ، ولكنه يطوّف في هذا البلد دون أن يرى منه شيئاً ، ويهتف قائلاً في سيل من اللعنات وهو يفيض صحة وعافية :

أنا في ريمان الشباب ؛ والحياة قوية في نفسي
فماذا انتظر ؟ انه السام ثم السام !

وذلك ما كانت قد أدركته تاتيانا • وفي الأبيات الخالدة من هذه الرواية الشعرية يصوّر الشاعر بطلته تاتيانا وهي تزور منزل ذلك الرجل الذي لا يزال غريباً كل الغرابة ولا يزال لغزاً خفياً وسراً عجيباً في نظرها • ها هي ذى في مكتب أونيجين ، تلقى نظرةً على كتبه وأشياءه وتحفه ، وتحاول أن تنفذ الى نفس مالكها من خلالها ، وأن تدرك السر وتحل اللغز من النظر اليها • وتلتب « النطفة الروحية » أخيراً على فكرة وهي تتسم اشماسة غريبة مع احساسٍ بأنها حلت اللغز ، ودمدمت شفتاها تقولان :

الايمن ان يكون نوعا من محاكاة مضحكة ؟

نعم ، كان لا يمكنها الا أن تنطق بهذا الكلام • لقد أدركت

الحقيقة • وبعد ذلك بمدة طويلة ، أتساء لقائهما الجديد فى بطرسبرج ، كانت تعرفه منذئذ معرفة تامة • وبالمناسبة ، من ذا الذى زعم أن حياة البلاط ، حياة المجتمع الراقى ، قد أحدثت فى نفسها أثراً وبيلاً ، وأن صفتها كسيدة من سيدات المجتمع الراقى والآراء الجديدة التى فى ذهنها عن منزلتها ومكاتها كانت من أسباب الرفض الذى واجهت به أونيجين ؟ لا ، ان الأمر لم يكن كذلك • لا • انها لا تزال تانيا نفسها ، تانيا القروية كما كانت فى الماضى • انها لم تفسد • بالعكس • ان بذخ الحياة البطربرجية يرهقها ويضنيها ، وانها لتألم من ترف هذه الحياة ببطرسبرج • انها تكره مكاتها هذه كسيدة من سيدات المجتمع الراقى • ومن يحكم عليها غير هذا الحكم يكن جاهلاً بما أراد أن يقوله بوشكين • ها هى تكلم أونيجين فتقول له بلهجة جازمة :

لكنى وهبت نفسى لآخر
وسابقى وفيه له ال ابد

لقد نطقت بهذه الكلمات نطق امرأة روسية تماماً • وذلك هو تمجيدها • انها تعبر عن حقيقة القصيدة • لن أقول شيئاً عن اعتقاداتها الدينية ، لن أقول شيئاً عن الرأى الذى تراه فى رباط الزواج المقدس • لا • هذه نقطة لن أمسّها • ولكن ماذا ؟ هل لهذا رفضت أن تتزوجه ، مع أنها قالت له هى نفسها : « أحبك » ؟ هل لهذا ، من حيث أنها امرأة روسية (لا امرأة من الجنوب ، لا فرنسية ما) تعجز عن القيام بخطوة جريئة ، ولا تقوى على كسر القيد الذى يكبلّها ، والضحية بمفانن الأمجاد والثراء والمكانة العالية فى المجتمع الراقى والآراء السائدة عن الفضيلة ؟ لا ، ان المرأة الروسية جريئة • المرأة الروسية تتبع الرجل الذى تؤمن

به ، تتبعه ببسالة وجسارة ، ولقد برهنت على ذلك • ولكنها • وهبت
نفسها لآخر وستبقى وفية له الى الأبد • • فمن الذى ستبقى وفية له ؟
وباسم أية واجبات تبقى وفية له ؟ أهى وفية لذلك الجنرال الذى
لا تستطيع أن تحبه لأنها تحب أونيجين ، وانما هى تزوجته لا لئىء
الا لأن أمها توسلت اليها أن تتزوجه « دامعة ضارعة » ، ولأن نفسها التى
أهينت وُجرحت لم يكن فيها حينذاك شىء الا اليأس ، ولم يكن ثمة أى
دليل على أن جديداً سيحدث ؟ نعم ، لهذا الجنرال انما ستكون وفية ،
لزوجها ، للرجل الشريف الذى يحبها ويحترمها ويحجلها ويبدو فخوراً
بها • لا قيمة لالحاحات أمها • انها هى التى وافقت لا غيرها : هى التى
حلفت لتكونين له الزوجة الوفية • ليس أمراً هاماً أنها تزوجته بعد
يأس • هو الآن زوجها • فلو خاتته لجللها العار والدنس ، ولقتلها قتلاً •
ثم هل يستطيع الانسان أن يبنى سعادته على شقاء غيره ؟ ليست السعادة
كل شىء فى مباحج الحب ، بل السعادة فى الانسجام الأعلى الذى يتحقق
للروح والفكر • وأنسى للفكر أن يجد الراحة اذا كان يحاصره شبح
عمل غير شريف ، عمل شرير ، عمل ليس انسانياً • أيجب عليها أن
تهرب لا لئىء الا لأن الأمر أمر سعادتها ؟ أية سعادة يمكن أن يتمتع بها
المرء اذا كانت قائمة على شقاء غيره ؟ تصوروا أنكم مكلفون أتم أنفسكم
بناء صرح المصائر الانسانية لهدف أخير هو أن تجعلوا جميع الناس سعداء ،
وأن تهبوا لهم السلام والراحة آخر الأمر • وتخليوا عندئذ أيضاً أنكم
فى سبيل تحقيق ذلك لا غنى لكم عن تعذيب انسان واحد ، واحد
لا أكثر ، بل انسان ليس له قيمة كبيرة ، انسان يمكن أن يعد مضحكاً ،
فليس هو رجلاً عبقرياً مثل شكسبير ، وانما هو شيخ طيب شريف
لا أكثر له زوجة شابة يؤمن بحبها ايماناً أعمى ، زوجة لا يعرف
قلبها ، ولكنه فخور بها مراتح اليها واثق بها • تخيلوا أن هذا الرجل
هو الذى يجب عليكم أن تهينوه وأن تخزوه وتلطحوا شرفه وأن تعذبوه •

تخلوا أن سعادتنا لا بد أن ' تبني على دموع هذا الشيخ الذي لا حول له ولا قوة ولا يملك عن نفسه دفاعاً • فهل يقبلون أن تشيدوا ذلك الصرح بهذا الثمن ؟ وهل يمكنكم أن تسلّموا ، ولو دقيقة واحدة ، أن أولئك الذين ' بنى لهم هذا الصرح يرضون هم أنفسهم أن يقبلوا منكم تلك السعادة اذا كانت قد شيدت على آلام مخلوق هو أهون المخلوقات شأنًا ، مخلوق عذب لهذه الغاية ظلمًا بغير شفقة ولا رحمة ؟ وهل تقدرون ، اذا أتمم قلبتم هذه السعادة ، أن تبقوا سعداء الى الأبد ؟ قولوا لي : هل كانت تاتيانا تستطيع أن تعقد عزمها على غير ما عقده عليه ، وأن تتخذ قراراً غير القرار الذي اتخذته ، هي التي ' وهبت لها نفس تبلغ هذا المبلغ من النبل ، وأوتيت قلباً يبلغ هذا المبلغ من الرحمة ؟ لا ، لم يكن في وسعها أن تفعل غير ما فعلت • هكذا يكون القرار الذي تتخذه نفس روسية تقيّة • « ألا فلأحرم وحدى من السعادة ، ألا فليكن شقائي أكبر من شقاء هذا الشيخ الى غير حدٍ ولا نهاية ، ألا فليجهل جميع الناس وهذا الشيخ نفسه تضحيتي ، ولا يقدرها حق قدرها الى الأبد ! اننى أؤثر ذلك على أن تقوم سعادتى على شقاء غيرى • اننى أرفض أن يكون شقاء غيرى ثمن سعادتى ! » • فى هذا تكمن المأساة ، وسوف تحدث المأساة ، سوف يفوت أوان تجاوز الحاجز • ذلكم هو السبب الذى جعل تاتيانا تطرد أونيجين • رب قائل يقول : « ولكن أونيجين شقى أيضاً • فهى قد أنقذت واحداً وأهلكت آخر ! » • اسمحوا لي ! هذه مسألة ، ولعلها أخطر مسألة فى القصيدة • يجب أن أشير فى هذه المناسبة الى أن امتناع تاتيانا عن الذهاب مع أونيجين هو عندنا ، فى أدبنا على الأقل ، قصة فريدة جداً فى نوعها • لذلك أبحث لنفسى أن أفيض فى الكلام على هذا الموضوع افاضة طويلة • ان أغرب ما فى الأمر هو أن الحل الأخلاقى لهذه المسألة قد كان موضع شك فى كثير من الأحيان عندنا • فاليكم ما أراه فى الأمر من رأى • اننى أتصور أن تاتيانا ما كان لها أن تذهب مع أونيجين

ولو حدث أن أصبحت حرة طليقة ، أن مات عنها زوجها ، أن أصبحت
أرملة . نحن فى حاجة حقاً الى أن تتعمق طبيعة هذا الزواج ؟ انها تعلم
حق العلم من هو أونيجين : هو جواب أبدي حدث أن رأى ، على حين
فجأة ، المرأة التى سبق أن ازدراها ؛ رآها فى البذخ والترف الذى تنعم
به بيثة لا يقدر هو أن يبلنها . هنا جوهر القضية كلها . هذه البيثة هى
جوهر القضية كلها . ان تلك البنت الصغيرة التى أوشك فى الماضى أن
يحترقها احتقاراً ، تحظى اليوم بتجيل المجتمع الراقى - هذا المجتمع
الذى له على رجل مثل أونيجين سطوة وسلطان ، رغم جميع ميول أونيجين
الى الشمول - ومن أجل هذا انما هرع اليها مبهوراً ! لقد هتف يقول :
« هذا مثلى الأعلى ، هذا خلاصى ، هذا ما يروى ظمئى ، ويشفى غليلى ،
ويروى حنينى ! لم أقدر أن أرى السعادة حين كانت فى متناول يدي ،
حين كانت قريبة كل القرب منى ! » . وكما يتوق ألكو الى زمفيرا ،
يتطلع أونيجين الى تاتيانا . أليست تعرفه تاتيانا وتقرأ ما فى نفسه قراءة
واضحة ؟ ألم تكتشف سرّه ، وتفك لغزه منذ مدة طويلة ؟ انها لتعلم
الآن علم اليقين أنه لا يحب فى الواقع الا وهمه الجديد ، فهو لا يحبها
هى ، هى التى لا تزال كما كانت فى الماضى تاتيانا الهادئة . انها تعلم أنه
يعدّها شيئاً آخر غير ما هى . انها تعلم أنه لا يحبها هى ، وأنه ربما كان
لا يحب أحداً ، بل أنه قد يكون عاجزاً عن أن يحب أحداً رغم كل
ما يقاسيه من تباريح شديدة ! انه يحب وهمه الخاص ، وهو نفسه ليس
الا وهماً ! فلو تبعته لصحت من الفتنة وأفادت من السحر منذ الغد ،
ولسخرت مما اندفعت فيه وانقادت له من حماسة . ان أونيجين لا أرض
له ، لا تراب له . انه زغبة فى مهب الريح . أما هى فتختلف عن هذا
كل الاختلاف . انها حتى فى اليأس والألم اللذين يستبدان بهما حين
ترى تهدم حياتها ، يبقى لها شيء ثابت لا يتزعزع ، شيء متين راسخ تستند
اليه روحها ، وتعتمد عليه نفسها : وهو ذكريات طفولتها ، ذكريات البلد

الذى ولدت فيه ، ذكريات الركن الصغير من الريف ، الذى فيه بدأت حياتها الهادئة النقية . هو « الصليب وظل الأغصان على قبر مرضعتها المسكينة » . ان هذه الذكريات وهذه الصور الباقية من الماضى لهى أغلى فى نفسها من كل شىء . ان هذه الصور هى كل ما بقى لها ، وهى هى التى تنقذ روحها من يأس لا مخرج منه . وهذا وحده ليس قليلاً ، بل انه لكثير ، لأنه أساس راسخ ، فيه شىء لا يتزعزع ولا يتهدم . بهذا انما يتم اتصال الانسان بالوطن ، وارتباطه بالشعب ، وتعلقه بما يجعله ويقدمه . فما الذى يملكه أونيجين ، ومن هو ؟ انها لا تستطيع أن تتزوجه من باب الرأفة والشفقة ، ملهامةً يزجى بها وقته لا أكثر . انها لا تملك أن تبدد هذا الكنز من الشفقة المحبة ، من أجل أن تخلق له شبح سعادة ، لأنها تعلم حق العلم أنه سيستهزىء فى غد بهذه السعادة . لا . ان من النفوس نفوساً عميقة قوية لا تستطيع ، عامدةً واعية ، أن تسلم للعار شيئاً تحترمه وتقده ، ولو أوتيت عطفاً لا نهاية له ، ورأفة لا حدود لها . لا . ما كان فى وسع تاتيانا أن تتزوج أونيجين .

هكذا يتجلى بوشكين ، فى قصة « أونيجين » ، فى هذه القصيدة الخالدة التى لانضاهى ، يتجلى كاتباً قومياً لم نعرف مثله قبله . لقد استطاع بنظرة ثاقبة تبلغ غاية الدقة والحدة أن يرى أعماق كياناتنا ، وأن يبصر قرارة هذا المجتمع الذى ينزل عندنا منزلةً فوق طبقة الشعب . ان بوشكين ، بتصويره الجوّاب الروسى ، بتصويره المتشردّ فى هذا الزمان والمتشرد الذى وجد حتى الآن ، وبادراكه بحدس العبرى طبيعة هذا المتشرد ومصيره التاريخى وما يكتسبه من شأن ضخم فى مصائر روسيا فى المستقبل ؟ وبوضعه نموذج الجمال الروسى الحق الى جانب ذلك المتشرد متمثلاً فى المرأة الروسية ، قد استطاع ، سابقاً جميع كتاب روسيا ، أن يعرض أمام أبصارنا فى سائر الأمانر التى ألفها فى تلك المرحلة من مراحل حياته الأدبية ، سلسلة كاملة من النماذج الروسية الجميلة حقاً ،

التى اكتشفها فى الشعب الروسى • وأبرز سمات هذا الجمال أن هذه النماذج حقيقة صادقة ، فهو جمال لا يمكن جحوده ، جمال محسوس ملموس ، فلا يستطيع المرء أن ينكر هذه النماذج ، لأنها قائمة أمام بصره كأنها مقدودة من صخر • أعود فأقول مرة أخرى اننى لا أتكلم كلام ناقد من نقاد الأدب • لذلك سأتجنب أن أشرح رأى فأصدر حكماً مفصلاً على ما تركه شاعرنا من آثار عبقرية • ان المرء ليستطيع مثلاً أن يؤلف كتاباً كاملاً عن نموذج الراهب العالم بالأخبار ، فيبين ما لهذا الوجه المهيب عندنا من شأن كبير ودلالة غنية ، وهو الوجه الروسى الذى اكتشفه بوشكين على الأرض الروسية ، واستخرجه ، ونحت صورته ، ووضع أمام أبصارنا فأصبحنا نراه الى الأبد بجماله الروحى الهادى الفخيم شاهداً على ما للشعب من روح قوية قادرة على أن تستخرج من قرارة ذاتها وجوهاً لا سبيل الى جحود جمالها أيضاً • ان بوشكين قد استمد هذا الوجه من الواقع ، فهو وجه موجود ، لا يمكن انكاره ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه مبتكر ابتكاراً ، وأنه ثمرة من ثمرات الخيال أو التصور عند شاعر • انكم لتأملونه أنتم أنفسكم وتسلمون به : نعم ، هو اذن موجود ، وان روح الشعب الذى خلقته لموجودة أيضاً • ويتبع ذلك أن ما تملكه هذه الروح من قوة حية نشيطة موجودة كذلك ، وكبيرة ورجبة • اننا لنحس فى جميع أعمال بوشكين ايماناً بالطبع الروسى ، ايماناً بطاقته الروحية • واذا وجد الايمان فقد وجد الأمل أيضاً ، وهو أمل كبير فى الانسان الروسى :

مؤملاً مجدداً وخيراً
ارلو أمامى شير خائف

كذلك قال الشاعر نفسه فى مناسبة أخرى ، ولكن هذه الكلمات يمكن أن تصدق على جميع آثاره القومية . وما من كاتب روسى ، لا قبله ولا بعده ، بقى فى يوم من الأيام متحداً بشعبه اتحاداً يبلغ هذا المبلغ من العمق ، ويصل الى هذه الدرجة من ارتباط الابن بأبيه وأمه . صحيح أن عندنا كتاباً كثيرين يعرفون الشعب ويتكلمون عنه بموهبة ومقدرة ومحبة . ولكن كل ما تستطيع أن تقوله عن هؤلاء الكتاب ، اذا أنت قستهم ببوشكين (عدا مستثنين اثنين بين أواخر مقلدى الشاعر) هو أنهم « سادة » يتكلمون عن الشعب . وحتى بين أقوام موهبة ، حتى لدى المستثنين الاثنين اللذين ألمت اليهما ، نحس على حين فجأة بظهور شيء أعلى ، شيء ينحدر من طراز آخر من المعيشة والحياة ، شيء يشبه أن يكون رغبة لدى الكاتب فى رفع الشعب اليه ، ونفعه بتصوره . أما بوشكين فإنه يملك شيئاً لا أدرى ما هو ، شيئاً يقرّبه من الشعب « نهائياً » ، ويكتسب لديه نوعاً من طبيعة بسيطة ساذجة . انظروا فى أسطورة « الدب » ، اقرأوا كيف قتل فلاح « صاحب المعالى الدب » ، أو تذكروا ذلك البيت من الشعر عن « العراب ايفان » ، افعلوا هذا فتذكروا ماذا أريد أن أقول .

ان جميع هذه الكنوز من الفن والحس التى خلفها لنا شاعرنا الكبير هى نوع من الهدى للفنانين الذين سيخلفونه ، للفنانين الذين سيحققون رسالتهم بعد الآن على هذا الدرب الذى شقه لهم . حقاً انا نستطيع أن نقول : لولا أن وجد بوشكين ، لما وجدت المواهب التى أعقبته . أو قولوا على الأقل ان هذه المواهب ، مهما تكن عظمتها ، ما كان لها لولاها أن تظهر قوية هذه القوة التى نراها لها اليوم ، ولا واضحة هذا الوضوح الذى تتجلى به فى هذا الوقت . ولكن الأمر ليس أمر شعر فحسب ، ليس أمر عمل فنى فحسب : ان الشيء الذى كان يمكن ألا يتجلى تجلياً قويا هذه القوة التى لا تقاوم، لولا أن وجد بوشكين

(وهذا ما رأيته بعد ذلك لدى بعضهم ان لم يكن لديهم جميعاً) انما هو ايماننا باستقلالنا الروسى ، وهذا الأمل الذى أصبح اليوم واعياً كل الوعى ، أعنى أملنا فى شعبنا ، وايماننا بالرسالة التى سيكون علينا ذات يوم أن نحققها فى أسرة الشعوب الأوروبية . وان مأثرة بوشكين هذه توضح اتضحاً خاصاً اذا نحن نفذنا الآن الى ما سوف أسميه بالمرحلة الثالثة من حياته الفنية .

أكرر أن هذه المراحل ليس لها تخوم محدّدة تحديداً واضحاً . فبعض أعمال بوشكين ، حتى بين تلك التى تنتمى الى المرحلة الثالثة ، كان يمكن أن تظهر فى بداية حياة شاعرنا الفنية ، لأن بوشكين كان فى جميع الأوقات كاتباً حياً مكتملاً ان صح التعبير ، كاتباً حياً يشتمل منذ البداية على بذور جميع تطوره ، فهو لم يتلق هذه البذور من خارجه . فالعالم الخارجى لم يزد فى أكثر تقدير على أن حرك ما كان ثاوباً فى أعماق نفس الشاعر . ولكن هذا الكائن العضوى كان يتطور ، ونحن نستطيع أن نميّز مراحل هذا التطور ، فنرى فى كل مرحلة منها طابعها الخاص ، وسلم النمو من طور الى طور . وعلى هذا الأساس نستطيع أن ننسب الى المرحلة الثالثة من تطوره ، تلك السلسلة من الأعمال التى تتألق فيها الأفكار العالمية خاصة ، والتى تنشر أمام أبصارنا الصور الشعرية عند الشعوب الأخرى ، وتجسّد لنا عبقرية هذه الشعوب . ان عدداً من هذه الأعمال لم يظهر الا بعد موت بوشكين . وفى هذه المرحلة من حياته الفنية انما يمثل الشاعر شيئاً معجزاً ، شيئاً لا عهد بمثله من قبل ، شيئاً لم يلاحظ فى أى مكان الى أن جاء بوشكين . صحيح أن فى الآداب الأوربية عبقریات فنية تحفل مرتبة أولى فى العظمة ، أمثال : شكسبير ، وسرفانتس ، وشيلر . ولكن أرونى عبقرية واحدة من تلك العبقریات الكبرى ملكت من القدرة على الترجيع العالمى ما ملكته عبقرية بوشكين . وهذه القدرة التى هى وقف على أمتنا ، هى

بعينها ما يشارك فيه بوشكين شعبنا ، وهى ما تجعل منه شاعراً قومياً • ان أكبر الشعراء الأوربيين لم يستطيعوا فى يوم من الأيام أن يجسد أحدهم عبقرية شعب آخر ، ولو كانت عبقرية الشعب الذى يجاور شعبه ، وأن يفصح عن كل العمق الحبقى فى روحه ، وعن كل الحنين الى تحقيق رسالته ، بمثل القوة التى برهن عليها بوشكين فى هذا كله • بل ان الشعراء الأوربيين حين كانوا يرجعون الى الشعوب الأخرى ، فانما كانوا فى أغلب الأحيان يفعلون ذلك لادخال هذه الشعوب فى شبههم ، وفهمها على طريقتهم • لو نظرت الى شكسبير نفسه لرأيت جميع الايطاليين تقريباً يشبهون فى آثاره الانجليز • ان بوشكين ينفرد بين سائر الشعراء العالمين بالقدرة على التجسد فى شعب آخر • انظروا الى مشاهد « فاوست » ، انظروا الى « الفارس البخيل » ، انظروا الى أغنية « المغامر الفقير » • انكم اذا أعدتم قراءة « دون خوان » ، لما كان فى وسعكم أن تعرفوا أن الانسان الذى كتب هذه القصيدة ليس اسبانياً ، الا أن تروا اسم بوشكين • ما أعمق وما أهول الصور فى هذه القصيدة : « المأدبة فى زمان الطاعون » ! ألا يحس المرء فى هذه الصور الحارقة عبقرية انجلترا ؟ ان هذه الأغنية العجيبة عن الطاعون ، التى يفتن بها بطل القصيدة ، وهذه الأغنية التى تفتننا ميرى وتقول فيها هذين البيتين :

من صفارنا فى المدرسة الصاخبة
ترجعت الاصوات

لهما أغان انجليزية • انهما سأم الروح البريطانية ، وأسلوب
العبقرية البريطانية فى البكاء ، واحساسها الأليم بما تتوقمه من مستقبل •
وتذكروا تلك الأبيات الغريبة التى جاء فيها :

ان هذا ليكاد يكون نقلاً حرفياً للمصفحات الثلاث الأولى من كتاب غيبى صوفى غريب ، كتبه نثراً متشيعاً دينى انجليزى قديم ، ولكن أهو نقل فحسب ؟ انك من خلال الموسيقى الحزينة المتحمسة التى تسمعها فى هذه الأشعار لتحس روح البروتستانتية الشمالية نفسها ، روح مهترق انجليزى غيبى صوفى سامان قد امتلأت نفسه احتقاراً ، وتحس ميوله الغامضة البهمة ، العارمة التى لا تقاوم وتحس أحلامه الغيبية الصوفية الجامحة المتطرفة . انك حين تقرأ هذه الأشعار ليخيل اليك أنك تسمع روح عصور « الاصلاح » ، فاذا أنت تدرك تلك الشعلة المحاربة ، شعلة البروتستانتية ، وهى فى فجرها ، واذا أنت أخيراً تفهم التاريخ نفسه ، تفهمه لا بالفكر وحده ، وانما تفهمه كما لو كنت أنت هناك ، كما لو كنت تمر بمعسكر أصحاب هذه الملة ، وتتلو معهم أناشيدهم ، وتشاركهم ذرف الدموع فى حماساتهم الصوفية ، وتشاطرهم ايمانهم بما هم به مؤمنون . وفى موازاة هذه الصوفية الدينية ، انظروا الآن الى تلك الأبيات الدينية الأخرى المستمدة من روح القرآن ، أعنى « اقتباسات من القرآن » . ألا تحسون حين تقرأونها أن مسلماً هو الذى يتكلم ؟ ألا تحسون روح القرآن ؟ ألا ترون حسامه ؟ ألا تحسون تلك العظمة البريئة فى عقيدته ، وتلك القوة الهائلة الرهيبية فى تعاليمه ؟ وعودوا بنا الى العالم القديم . اقرعوا قصيدة « ليلى مصر » . ألا ترون آلهة الأرض هؤلاء الذين يحكمون شعوبهم حكم آلهة ، ويزدرون عبقرية شعوبهم وأشواقها ، ولا يؤمنون بها ، والذين يصدق عليهم أنهم آلهة منزلون ،

أطاشت العزلة عقولهم واحتضروا من الضجر وهم يهددون حزنهم
بمبول حيوانية عجيبه رهيبه ، وشبق كشبقي الحشرات ، ولذة كلذة انثى
العنكبوت التى تلتهم ذكراً • انى لأقول غير هيباب : ما عرفت الانسانية
شاعراً يضارع بوشكين فى قدرته على الترجيع العالمى الشامل • وليس
الأمر أمر ترجيع فحسب ، وانما هو أيضاً ذلك العمق المدهش فى هذا
الترجيع ، وتلك القدرة التى تملكها روح بوشكين على أن تتقمص روح
شعوب أخرى تقمصاً يكاد يكون كاملاً فهو معجزة ، لأن هذه الظاهرة
لم تتجدد لدى أى شاعر فى العالم بأسره من أقصاه الى أقصاه • ان هذا
لم يحدث الا عند بوشكين • وبهذا المعنى يكون بوشكين - كما سبق أن
قلت - ظاهرة ليس لها سابقة ، وهو فى رأينا ظاهرة نبوة ! ذلك •••
ذلك لأن ما هو روسى أكثر من كل ما عداه فى بوشكين انما يتجلى فى
هذا ، أعنى العبقريه القومية فى شعره ، أعنى روح شعبنا فى الصورة
التى ستصير اليها فى المستقبل ، أى روح مستقبلنا التى عرف كيف
يستخرجها من بين شوائب الحاضر ، وكيف يعبّر عنها تعبيراً نبوياً حقاً •
وهل قوة روحنا القومية الا ميلها - من خلال الأهداف المحدودة التى
تستهدفها - الى العالمية الشاملة ، الى التكامل الانسانى ؟ ان بوشكين الذى
أصبح شاعراً قومياً ، ما ان اتصل بالشعب حتى أحسّ سلفاً بما لهذه
القوة الشعبية من دلالة واسعة • فهو من هذه الجهة قد أدرك المستقبل
وكان نبياً •

• ان فى وسعنا أن نساءل فى الواقع : ما اصلاح بطرس بالنسبة
الىنا ، لا من جهة المستقبل فحسب ، بل من جهة ما كان ، من جهة
الماضى ، من جهة ما حدث ووقع ؟ ما ذا كانت دلالة هذا الاصلاح بالنسبة
الىنا ؟ ذلك أن هذا الاصلاح ، فى حقيقة الأمر ، لا يقتصر بالنسبة الىنا
على أننا استعرنا العادات والأخلاق والاختراعات الأوروبية فحسب •
يجب أن تعمق تعمقاً أشد ، فنرى كيف حدث هذا الاصلاح • من

الجائز جداً ألا يكون بطرس الأكبر نفسه قد خطرت بباله في أول الأمر الا هذه الفكرة ، فجهد في تطبيقها ، أى ألا يكون قد استهدف في البداية الا منافع مباشرة . ولكن ما يملكه بطرس الأكبر من رهاقة في الفكر توجهه في عمله لا بد أنها دفنته بعد ذلك ، أثناء مضي فكرته في تطورها ، الى أهداف بعيدة المدى لا شك في أنها أرحب من تلك المنافع المباشرة . فستطيع أن تقول ان الشعب الروسى قد قبل ذلك الاصلاح لا باسم المنفعة المباشرة وانما هو قبلها حتماً لأنه أحسن سلفاً يهدف بعيد أعلى كثيراً من تلك المنفعة المباشرة . وأعود فأقول ان هذا الاحساس قد يكون لا شعورياً ، ولكن ذلك لا ينفي أنه كان فويماً وأنه كان راسخاً رسوخاً عميقاً في نفس الشعب الروسى . لقد كنا جميعاً في ذلك الأوان نميل الى اعادة بناء وحدة الحياة ، الى اعادة بناء وحدة النوع الانسانى . اننا بالصدفة لا بالعداوة (كما قد يُظن) ، وبالحنّة كلها انما قبلنا في أنفسنا عقريات الأمم الأجنبية ، وقبلناها جميعها ، دون أن نفرّق بينها ونجعل بعضها فوق بعض طبقات مختلفة باختلاف الأجناس ، لأننا علمنا بالفطرة ومنذ أول خطوة تقريباً كيف نزيل التناقضات وكيف نعدّر ونففر ، وكيف نحقق المصالحة بين الاختلافات . وبذلك كنا نؤكد منذ ذلك الحين ما نملك من استعداد وميل لأن نعيد بناء الوحدة العالمية ، والوحدة الانسانية بين أسر الجنس الأرى الكبير كلها منذ أن انكشفت هذه الوحدة لأبصارنا . نعم ، ان دلالة الانسان الروسى هي أنه أوووبى وأنه عالمى ، ما فى ذلك ريب . فأن يكون المرء روسياً حقيقياً ، أن يكون روسياً كاملاً ، فذلك انما يعنى (احفظوا هذا) أنه أخو البشر جميعاً ، أنه مؤمن بالوحدة الانسانية اذا شتم هذا التعبير . ان كل ما ذهبنا اليه من دعوة الى السلافية ومن دعوة الى التشبه بالغرب ليس الا سوء تفاهم ، وان يكن ضرورياً من الناحية التاريخية . فالروسى الحقيقى يرى أن أوروبا ومصائر الجنس الأرى العظيم كله غالبية على نفسه كروسيا نفسها

ومصائر أرضه التى ولد عليها : ذلك أن مصيرنا انما هو العالمية الشاملة ،
التى لا تتحقق بالسيف ، بل بالأخوة ، بجهدنا الأخوى فى سبيل أن
نردّ البشر الى الأخوة . فلو تمعقتم تاريخنا الروسى الذى تلا اصلاح
بطرس الأكبر ، لوجدتم فيه منذ ذلك الحين أثراً من هذا التفكير وقرائن
تدل عليه ، أو قولوا ان شئتم أن تستبدلوا بكلمة التفكير كلمةً أخرى ،
انكم واجدون فيه آثاراً وقرائن تدل على تلك الأحلام التى عبرت عنها
منذ قليل حين تحدثت عما هو مشترك بيننا وبين الشعوب الأوروبية ،
حتى فيما يتعلق بسياسة حكومتنا ؟ اذ ما الذى فعلته روسيا فى مضمار
السياسة خلال هذين القرنين ؟ أليس واضحاً أنها خدمت مصالح أوروبا
أكثر مما خدمت مصالحها الخاصة ؟ لا أظن أن مردّ ذلك الى جهل رجال
السياسة عندنا . لا . ان شعوب أوروبا لا تدرى كم هى عزيزة فى
قلوبنا ، غالية فى نفوسنا ! انى لعلى يقين بأن الروس فى المستقبل ، أعنى
الروس الذين سيخلفوننا سوف يدركون جميعاً - ولا أستثنى منهم
أحداً - أن انتماء الفرد الى الشعب الروسى ، أى أن يكون الفرد روسياً
حقيقياً ، انما معناه أن يقوم بمصالحة - هى فى هذه المرة مصالحة نهائية -
بين التناقضات الأوروبية ، وأن يبيّن للحين الى أوروبا كيف أن هذا
الحين يمكن أن يرتوى من نفسنا الروسية التواقّة الى الشمول الإنسانى
والى الوحدة بين البشر ؟ وأن يجعل جميع اخوتنا فى العالم ينضمون الينا
بالحب حتى لقد تكون روسيا هى التى تنطق بالقول الفصل فى الاتساق
الشامل والانسجام الكبير والاتفاق النهائى الأخوى بين جميع الشعوب
تحت لواء المسيح . انى لأعلم حق العلم أن كلمائى هذه لا بد أن تبدو
شديدة الحماسة كبيرة الغلو وأن تبدو أوهاماً يتعلق بها الخيال . لا ضير .
لست نادماً على أئنى قلتها . لقد كان يجب أن تقال ، فى هذا الأوان
خاصة ، فى هذه الساعة الجليلة عندنا ، هذه الساعة التى نحتفل فيها
بذكرى شاعرنا العظيم الذى جسّد هو نفسه هذه الفكرة وحققها فى

فه • ثم اننى لا أعلن هذا الرأى أول مرة • ان هذا الرأى ليس
بجديد • ولكن الشئ الخطير هو أن يظن بما أقول الضرور • فاذا
بمعرض يعترض : « ماذا ؟ أليكون هذا قدر وطننا الجلف البائس ؟
أنكون نحن الذين هيأنا القدر بين سائر الانسانية لأن نتلق بالقول
الجديد ؟ » • أى غرابة فى هذا ؟ أنا أتكلم عن مجد اقتصادى ، عن
مجد السيف أو العلوم ؟ لا ! فانما أنا أتكلم عن الأخوة بين البشر ،
فأقول ان القلب الروسى ربما كان هو المهيأ أكثر من سائر الشعوب
لأن يحقق الوحدة الشاملة الأخوية بين جميع البشر • وقد استقيت
علامات ذلك من تاريخنا ، ورأيها فى نبغاتها ، وشهدتها فى عقريه
بوشكين الفنيه • لا يضيرنا أن أرضنا فقيرة بالسهة • ان هذه الأرض
الفقيرة قد « طاف بها المسيح وباركها فى صورة فن من الأفنان » • فلماذا
تستبعدون أن تنطوى نفوسنا نحن على آخر كلمة قالها المسيح ؟ ألم يولد
هو نفسه فى مذود ؟ أعود فأقول : اننا على الأقل نستطيع منذ الآن أن
نطلع على العالم بشاعرنا بوشكين ، وبالروح العاليه الشاملة التى عبّر
عنها ، وبعبيرته التى تصف بأنها انسانية كاملة • لقد استطاع بوشكين
أن يضم فى نفسه العبقرية الأجنبية الأخرى كأنها من ذوى قرياه •
لقد برهن فى الفن ، أو فى خلقه الفنى على الأقل ، برهاناً لا مسيل
الى جحوده ، على توق الروح الروسية الى العالمية الشاملة ، وذلك وحده
دليل كبير • اذا كان رأينا وهماً ، فانتنا نقع عند بوشكين على ما يصلح
أساساً وقاعدة لهذا الوهم يقوم عليها وطبداً راسخاً • لو أن بوشكين
عاش عمراً أطول ، فلربما كشف عن جوانب خالده رائسه من النفس
الروسية كان اخوتنا الأوروبيون سيفهمونها فتجذبهم اليها أكثر مما هم
منجذبون اليها الآن • لعله كان سيستطيع ، لو عاش عمراً أطول ، أن
يشرح لهم أشواقنا الحقيقية ، ولعلمهم كانوا سيدركون عندئذ من نحن ،
فيكفون عن النظر اليها بالريه والاحتقار اللذين لا يزالان يظهر وهما

لنا • لو عاش بوشكين عمراً أطول ، فلربما قلَّ ما يقوم بيننا وبينهم الآن
من سوء التفاهم ، وما ينشب بيننا وبينهم من مشاجرات • ولكن الله أراد
غير ذلك • فمات بوشكين وهو في عنفوان تفتح قواه ، ولا شك أنه حمل
معه إلى قبره سرا كبيرا • فهذا السر هو ما يجب علينا منذ الان أن
نحاول النفاذ إليه بعد غيابه عنا •

الفرس

الصفحة	الموضوع
٥	المراقق -٢-
	قصص
٤٨٣	● بوبوك
٥١١	● الطفل عند يسوع في عيد الميلاد
٥١٩	● الفلاح ماراي
٥٢٩	● عجوز تجاوز عمرها مائة سنة
٥٤١	● المدبة
٦٠٩	● حلم رجل مضحك
٦٤٣	● خطاب عن بوشكين

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الثامن</u>	<u>المجلد الأول</u>
الجريمة والعقاب - ١.	الفقراء المثل قلب ضعيف
<u>المجلد التاسع</u>	<u>المجلد الثاني</u>
الجريمة والعقاب - ٢.	نيتوتشكا نزلنا فوننا الليالي البيضاء بروخاريتشين الجاراة المهراج
<u>المجلد العاشر</u>	السارق الشريف البطل الصغير قصة في سبع رسائل شجرة عيد الميلاد والزواج زوجة آخر، وزجل تحت السير
الأبلة - ١.	<u>المجلد الثالث</u>
<u>المجلد الحادي عشر</u>	قريبة ستيبانتشيكوفوسكانها حلم العم
الأبلة - ٢.	<u>المجلد الرابع</u>
<u>المجلد الثاني عشر</u>	مذلولون مهانوف
الشياطين - ١.	<u>المجلد الخامس</u>
<u>المجلد الثالث عشر</u>	ذكريات من منزل الأموات
الشياطين - ٢.	<u>المجلد السادس</u>
<u>المجلد الرابع عشر</u>	في قبوي قصة اليممة ذكريات شتاء عن مشاعر صيف الشمساح
الرامق - ١.	<u>المجلد السابع</u>
<u>المجلد الخامس عشر</u>	المغامر الزوج الأبدى
الرامق - ٢.	
<u>المجلد السادس عشر</u>	
الاخوة كارامازوف - ١.	
<u>المجلد السابع عشر</u>	
الاخوة كارامازوف - ٢.	
<u>المجلد الثامن عشر</u>	
الاخوة كارامازوف - ٣.	

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدفع عن "الفقراء" والمذلين المبائين" فاذا عالج مشكلات ماتمنك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وأدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

اسكندر ف. سربرفيف